PASSION AND POLITICS

THE TURBULENT WORLD OF THE ARABS



SANDRA MACKEY

Author of THE SAUDIS

العاطفة والسياسة

ساندرا ماكي

« ترى كم من أشكال الوحدة التعسفية قد إنهارت حتى قبل أن ترى فجر الحياة ؟ »

الملك عبدالله عاهل الأردن

شكر وتقدير

لا يوجد كاتب يعمل بمفرده . وليس بوسع أى كاتب أن يحدد على وجه الدقة كل أولئك الذين أسهموا بطريقة أو بأخرى فى أى مشروع . وأود توجيه شكر خاص لكل أولئك الأشخاص فى الولايات المتحدة وأوروبا والعالم العربى الذين ساعدونى فى الاتصال بالأشخاص الذين إحتجت لرؤيتهم ، ولأولئك الذين أضافوا لمستهم الخاصة لذلك العمل الضخم الذى أصبح هذا الكتاب .

وأدين بالفضل للدكتور دونالد ريد من جامعة ولاية چورچيا الذى أقر مسودة الكتاب وقدم الكثير من التوجيهات والآراء القيمة ، ول و . سكوت هاروب من جامعة فرچينيا الذى كان أداة توجيه قيمة لهذا العمل الذى أتحمل مسئوليته الكاملة فى صورته النهائية .

كما أود توجيه الشكر لمساعدى فى البحث ، ذلك الرجل المجتهد والدؤوب كيفين فين الذى غفرت له تركى للإلتحاق بكلية الحقوق بجامعة شيكاغو . وأتوجه بمزيد من الشكر لبوب وهيدى لودويك اللذين كثيرا ما فتحا لى بيتهما فى چنيف عندما كنت أنتقل بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط ، وبيتى سورايت لمساعدتها من جوانب عديدة ، كبيرة وصغيرة ، وجون وأيون لى لإستعمال منزلهما الواقع فى المنطقة الجبلية ، وشيرل توبين لإجراء العديد من المحادثات التليفونية معى ، وبريندا كيلجور لمساعدتى فى إعداد ترتيبات سفرى المعقدة دائما ، وإسحق بريانت الذى قام برعاية شئون منزلى طوال تلك الشهور المحمومة .

وأتوجه بتقدير خاص لزوجى ، دان ، الذى ليس محرراً من الدرجة الأولى فحسب ولكنه أسهم بعناية وإهتمام فى عملية كتابة هذا الكتاب

الشاقة . وأقدم شكراً خاصاً للمحرر كيفين مولروى ، وهيلين ريس التى ليست وكيلى فحسب ولكنها صديقة خاصة .

وفى النهاية ينبغى توجيه الشكر للعرب أنفسهم لعالمهم الساحر ، والمرهق ، والمخيب للآمال فى أغلب الأحيان .

كلمة الكاتبة

عندما يكتب المرء عن موضوع كبير مثل العالم العربى فى مجلد واحد ، فإنه يتعين عليه توضيح المجال والنقطة التى يدور حولها الكتاب ، ويمكن تعريف العالم العربى بطرق مختلفة ، فهو يمتد ، بمعناه الواسع ، من العراق على الخليج الى المغرب على المحيط الأطلنطى وينقسم الى المغرب العربى والمشرق العربى . والمشرق الذى يضم مصر ، ولبنان ، والأردن ، وسوريا ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، وعمان ، والإمارات العربية المتحدة ، وقطر والبحرين والكويت ، يشكل قلب العالم العربى من الناحية الثقافية والسياسية وداخل المشرق فإن أقوى الدول هى مصر وسوريا ، والمملكة العربية السعودية ، والعراق ، ودولة الأردن ذات الأهمية الجغرافية ولكنها ضعيفة سياسيا . ويوجد فى طرف ووسط المنطقة شعب وليس دولة ، هو الشعب الفلسطينى ، والمشرق هو ما يتناوله هذا الكتاب .

وتدور النقطة الرئيسية فى الكتاب حول الصراعات الأساسية فى المنطقة التى تضع شعور العرب بوحدتهم التاريخية والثقافية فى مواجهة مصالحهم المحدودة والوطنية . ومن هذا التصادم بين الوحدة والإنفصال يأتى عالم العرب المنفرد .

وبعد الإشارة الى الموضوع الذى يدور حوله الكتاب ، يتعين علىَّ أيضا ذكر ما لا يتناوله . فهو ليس دراسة أخرى للنزاع العربى ـ الاسرائيلى . وإنما هو إستكشاف لعلاقات العرب مع بعضهم البعض وعلاقتهم بالغرب . غير أنه ليس من الممكن الكتابة عن العالم العربى دون التعرض بتوسع لمسألة اسرائيل ، نظرا لأن اسرائيل تلعب دوراً رئيسيا فى دينامية السياسة العربية . ولم تبذل أية محاولة لمناقشة وجهات النظر الاسرائيلية فى النزاع العربى الاسرائيلى . وذلك موضوع آخر . والواقع أنه يتم تصوير اسرائيل من المنظور العربى لإظهار كيف أن الدولة اليهودية تسهم فى إثارة العداوت بين العرب فيما بينهم وبين العرب والغرب ، خاصة الولايات المتحدة . كما أن الفصل الأخير من الكتاب لا يستهدف بحث العلاقة الكاملة بين الولايات المتحدة واسرائيل ، ولكنه يوضح فقط أن السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط قد فشلت فى خدمة مصالح الولايات المتحدة بسبب تجاهلها لمشاكل العرب وهمومهم .

وهناك ملحوظة عن اللغة ، وهى أن نقل الحروف العربية الى الانجليزية يمثل مشكلة . وليس ثمة معيار معترف به بالنسبة لجمهور الأكاديميين أو العامة . ونظرا لأنه لا يوجد أسلوب لنقل حروف اللغة لم يسلم من النقد ، فقد اخترت استعمال الأشكال المبسطة من الكلمات والأسماء والأماكن

العربية التى تستخدمها الصحف فى الولايات المتحدة بصفة عامة . وقد استبعدت استخدام علامات التشكيل والسكون والحروف الساكنة وحروف المد التى تتميز بها اللغة العربية . (بيد أنه لم يتم تغيير الفقرات التى اقتبست من الكتاب الآخرين) .

وقد لا يكون هناك مثال ينم عن الطبيعة غير الدقيقة لنقل الحروف من العربية الى الانجليزية أكثر من كتابة اسم النبى محمد (ﷺ) .

فرغم أن الصحف بصفة عامة مستمرة فى استخدام شكل معين فى كتابته ، فان هناك تغيراً فى كتابته بطرق أخرى . وهذه خيارات فى الأسلوب ، لا تمليها اللغة العربية أو الانجليزية .

وثمة كلمة أخرى ، فنظراً لقبضة أجهزة الأمن الداخلية القوية فى العديد من الدول التى شملها هذا الكتاب ، فإن أسماء الأشخاص الذين تحاورت معهم وليسوا من الشخصيات التاريخية أو العامة قد تم تغييرها من أجل حمايتهم .

والرواية الخاصة بالمأمون وأرسطو التى ورد ذكرها فى الفصل الثالث مقتبسة من كتاب « الاسلام والعالم العربى ، الايمان ، الشعب ، الثقافة » ، الذى نشره برنارد لويس (نيويورك : ألفريد أ . نويف عام ١٩٧٦) .

مقدمة :

عالم الشرق وعالم الغرب

كانت حصون مسقط الحجرية التى يرجع تاريخها الى القرن السادس عشر تطل على مياه خليج عمان ذات اللون الأزرق الباهت ـ الذى يربط بين الخليج والبحر العربى وبينما كنت أتجول فى ظلالها ، راودتنى أحاسيس سريعة بالهوة الشاسعة التى تفصل بين حضارة ذلك المكان وعالم الغرب الذى أنتمى اليه .

وتحت أقدامى كانت تمتد الرمال الناعمة المتساقطة من سفوح التلال الجرداء التى تحتوى حياة الجانب الشرقى من العالم العربى . وكان هناك بعض الصيادين ، أربعة أو خمسة أشخاص ، يعقدون جلابيبهم فوق ركبهم بارزة العظام ، يوجهون نحو الشاطىء القوارب الخشبية العتيقة التى يجوبون بها المياه بحثا عن الأسماك . وما ورائهم ، كان أبناؤهم الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة يتسابقون وهم حفاة نحو المياه لإفراغ الشباك المليئة بأسماك السردين وينقلون الى الشاطىء أسماك الماكريل الملساء . ووقفت زوجاتهم اللاتى جئن يتهادين وهن يحملن أوعية من البلاستيك لتوزيع نصيب كل عائلة من الصيد .

كان ذلك المشهد الغريب يتحرك حولى وأنا أسير بلا هدف . واقتربت من سيدة مسنة تضع فى أنفها قرطا ثقيلا نحاسيا ومرجانى اللون ، وتجلس القرفصاء أمام وعاء كبير ملىء بثلج مجروش . وعندما مررت أمامها أمسكت بيدها المخضبة بالحناء علبة قذرة من عصير الفاكهة وقذفتها لى قائلة « عصير ، عصير » . وقبل أن أنطق بكلمة ، أسرع نحوى رجل ممتلىء الجسم والى حد ما ذو لحية كثيفة ويعلق فى وسطه خنجرا فضيا رائعا ويحمل سجادة من الصوف فوق رأسه الملفوف بعمامة كبيرة .

ومما لا ريب فيه أن أسقف المنازل ذات الفتحات والنوافذ الخشبية والشذى الجميل المنبعث من قوارير الطيب المخلوط بالدخان المنطلق من المواقد ورائحة العطور الثقيلة المنبعثة من وراء ألوان وملابس عدة قبائل قد وضعتنى فى عالم العرب . وعندما رفع الأذان من عدة مساجد ، تطلعت الى المراكب الشراعية المألوفة فى الجزيرة العربية (الدهو) وهياكل القوارب الصغيرة (البدن) على الخليج ونظرت بعيداً فى الأفق . وهناك كانت كتلة ضخمة تسير ببطء وبدأت تقترب من خط الأفق . وفى النهاية ووسط الضباب الذى يكسو المياه التى تتبخر بسرعة ظهرت ناقلة بترول عملاقة . وبدت وكأنها معلقة بين السماء والبحر ، وسرعان ما بددت كافة أوهام الانفصال بين العالم العربى والغرب .

ومع إنهيار الامبراطورية السوفيتية فى أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات ، إحتل الشرق الأوسط الذى تسيطر عليه سلسلة من الدول المعروفة جميعها باسم العالم العربى ، مكان الصدارة فى خطط أمن الولايات المتحدة . والأسباب تتجاوز البترول ، فالعالم العربى الذى يضم تسعين مليون نسمة يعيش فى عالم متداخل العلاقات على نحو متزايد . وهو الجسر الذى يربط أوروبا ، وآسيا وأفريقيا . كما أنه مستودع لترسانات الأسلحة التى تطورت فى غضون أقل من نصف قرن من البنادق الى الدبابات الى الصواريخ الى الأسلحة النووية . وخلال نفس الفترة تقلبت الأحداث فى المنطقة ، مثل قطع صغيرة من الزجاج فى أداة تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال ، حيث تقلبت وتوقفت ثم أعيد تنظيمها ثم تقلبت وتوقفت وأعيد تنظيمها فى تتابع يصيب المرء بالدوار . وترجمة الأحمر ، والأخضر ، والأزرق والأصفر الى مشاعر ، ومصالح ، ومطامح ومخاوف ، ترسم دائما خططا أكبر . وبسرعة وخطورة متزايدة ، تمتد لتجذب الولايات المتحدة بمصالحها ، الممزقة فى أغلب الأحيان ، الى أنماطها المتشابكة متعددة الوجوه .

وتتراكم القوى الدافعة لهذه الأحداث الواحدة فوق الأخرى ، إنها قوى ثقافية ، ودينية وتاريخية ، واقتصادية . وكلها لها ما يبررها ولكنها غير منطقية الى حد بعيد . وهكذا فان المدركات والحقائق تتواتر الواحدة تلو الأخرى وتقوى دائما من العلاقة التى لا مفر منها بين العرب والغرب .

وفى عام ١٩٩١ ، خاضت الولايات المتحدة حربا فى الخليج وفى عام ١٩٩١ ، توسطت أيضا فى عقد مؤتمر سلام بين الدول العربية واسرائيل . وبضغطها على اسرائيل المعترضة دائما ، والتى ظلت طوال ما يربو على أربعين عاما تتمتع بعلاقة خاصة ومقدسة تقريبا مع الولايات المتحدة ، كشف المؤتمر كما لم يحدث من قبل عن المصالح الأمريكية فى العالم العربى . غير أنه فى أعقاب الحرب ومحاولة تحقيق السلام ، يطفو العالم العربى على السطح من خلال المدركات الأمريكية وكأنه كتلة كبيرة غير منتظمة الشكل . إنه يتحدى مخططى السياسة الخارجية ويفلت من كونجرس الى آخر حيث يطالب ناخبوه بعالم مقسم ببساطة بين القبعات البيضاء والقبعات السوداء . غير أن الوقت والظروف لم تعد تسمح لجمهور جاهل ولحكومة راضية عن نفسها بالفرار من عالم العرب المضطرب بصورة واضحة .

وقد كان العالم العربى فى وقت ما يطوف كخيال غامض عند أقصى حدود التفكير الأمريكى . وفى منتصف القرن التاسع عشر ، كان المسيحيون الذين يخشون الله يمسكون بأناجيلهم القديمة ويجلسون فى مقاعد خشبية طويلة ليسمعوا قصة الشاب داود وهو يواجه العملاق جالوت . غير أنه فيما عدا « أرض الميعاد » التى ورد ذكرها فى الإنجيل ، كان الشرق العربى لا يمثل سوى رمال لا نهاية لها تبدو بعيدة عن شواطىء الولايات المتحدة بعُد القمر ، وعلى الصعيد العالمى كان العرب يبدون ، إذا دار طيفهم فى الأذهان على الاطلاق ، أناسا غير متحضرين من أتباع «محمد (ﷺ) » ، ومتعصبين يرتدون الجلباب والعمامة ويعيشون فى الخيام ويكسبون رزقهم من تجارة القوافل . وكان هذا الموقف الأساسى هو الذى دفع الأمريكيين الى الاتفاق فى الرأى مع العالم البريطانى سير ويليام موير بأن « سيف محمد (ﷺ) » والقرآن هما أعتى أعداء المدنية ، والحرية

والحقيقة التى عرفها العالم حتى اليوم .*

غير أنه فى منتصف القرن التاسع عشر بدأت جماعات مسيحية متفرقة ذات إهتمامات عالمية جديدة فى إرسال مبشرين الى العالم العربى لاعادة إحياء الانجيل فى الكنائس المسيحية التى يرجع تاريخها الى القرن الأول . ** ولعدم إدراك القس جوستين بيركنز أن أنشطة المسيحيين فى الشرق الأوسط المسلم قد إستمرت دون أن يعوقها عائق ، فى عام ١٨٤٢ بحث الكنائس المسيحية الشرقية على « إرسال بعثات تبشيرية تؤمن إيمانا قويا بالصليب ، وبأعداد كبيرة وبحماس مقدس بالغ كى تحمل تيارات الخلاص لكل ركن من أركان آسيا التى تعانى من ظلمات الجهل ***.

وبالرغم من قلة التبصر الثقافى للقس بيركنز ، فقد كان هناك البعض بين أعضاء البعثة الذين فهموا واستمتعوا بالعالم العربى الذى عاشوا فيه . وفى عام ١٨٦٦ ذكر دانييل بليس عضو الكنيسة البروتستانتية أمام مجلس المفوضين الأمريكيين للبعثات الخارجية بأن واجب أمريكا نحو العرب هو التعليم . وإقتنع المجلس بهذا الرأى وقرر تخصيص أموال لبناء كلية على مساحة من الكثبان الرملية المهجورة كانت تستخدم كمقلب للقمامة فى بيروت . ومن خلال ما أصبح يعرف باسم الجامعة الأمريكية فى بيروت ، دخلت الولايات المتحدة لأول مرة عالم العرب .

وقبل العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، أعقبت الارساليات مجموعات صغيرة من السياح الدينيين فى التوجه الى الشرق الأوسط . وبدأ الأمريكيون الذين أثروا من عائدات الثورة الصناعية الثانية فى الزحف خارج نطاق أمريكا الشمالية للانضمام الى أولاد عمومتهم الأوربيين الأثرياء فى السياحة الكبرى . وكان ركاب الدرجة الأولى يبحرون شرقا من مارسيليا على متن سفن فاخرة متخذين وجهتهم عبر البحر المتوسط . وكانوا يهبطون فى حيفا أو يافا ، ويتبعون طريق الصليبيين الى مدينة القدس التاريخية ، ويجتازون بمشقة طريق الآلام ، ويتعثرون فى ظلمة مذبح كنيسة القيامة . ثم كانوا ينتقلون الى القاهرة حيث يمتطون الجمال وهم يرتدون قبعات كبيرة تقيهم حرارة الشمس ويطوفون حول هرم خوفو العظيم وينحدرون نحو أبو الهول .

ثم يتوجهون للتسوق فى الأسواق الصاخبة المكدسة بالأوانى النحاسية المذهبة والصناديق المطعمة باللؤلؤ والمتكآت الجلدية السميكة التى كانوا يحملونها معهم فى إعزاز الى نيويورك وبوسطن وشيكاغو وسان فرانسيسكو كى تشهد على إنغماسهم فى العالم العربى . ولقد كان ذلك هو عصر البراءة الذى كان فيه الفكر الأمريكى الساذج لا يهتم كثيراً بالشرق العربى .

غير أنه مع قدوم القرن العشرين ، تحولت العلاقة بين عالم العرب وعالم الغرب الى ما يشبه اللوحات المعمارية ، فقد أصبحت السفن الحربية الجديدة التى تخرج من أحواض جلاسجو

(*) البرت حورانى ، « أوروبا والشرق الأوسط » ، (بيركلى ، مطبعةجامعةكاليفورنيا ، ١٩٨٠) ، ص ٣٤ .

(**) ارسل مجلس المفوضين الأمريكيين للبعثات الخارجية أول مبشريه ، بلايني فيسك وليفى بارسونز ، الى الشرق الأوسط عام ١٨١٩ وقد مات كلاهما عام ١٨٢٥ .

(***) د . بارك جونسون ، « الحج الى الشرق الأوسط » ، (نيويورك : مطبعة الصداقة ، ١٩٥٨) ، ص ٩٢ .

وديفونبورت وبريمن تعمل بالبترول بدلا من من الفحم . وأحدثت العربات التى لا تجرها الخيول وتسير بالبنزين ثورة فى وسائل النقل . وقبل الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ ، كان الجميع يشكون فى أن البترول ، وهو أغلى سلعة فى القرن العشرين ، يرقد تحت الرمال والمستنقعات المحيطة بالخليج وقد انضم البترول الآن الى جغرافية المنطقة ـ أى الى حتمية حماية قناة السويس ، الطريق الى الهند ، والجسر الاستراتيجى الآمن الذى يربط أوروبا وآسيا ـ وذلك لإغراء الغرب بالشرق العربى*.

وقد كانت استجابة أوروبا أكبر من الولايات المتحدة ، ففى نطاق الإرث السخى الذى آل للأمريكيين من أرضهم كان الأمريكيون يمتلكون بترولهم .

وإبان العشرينيات ، بدأت أراضى أوساج وشيروكى تشعر بضربات آلات الحفر التى أقامها المنقبون عن البترول فى أوكلاهوما ، وبدأت مدن لوبوك ، وميدلاند وأوديسا بولاية تكساس تزدهر بسرعة على سطح وفى مناخ يماثلان كثيراً صحارى الشرق الأوسط . وحتى عندما إندلعت الحرب العالمية الثانية ، إقتصرت أولويات الولايات المتحدة فى الشرق العربى على خطوط الإمدادات لأعداء هتلر وموسولينى . غير أن الحرب والزمن غيرا مرة أخرى من شئون الأمم . وكانت الحرب العالمية الثانية هى آخر مرحلة من مراحل إغفال الأمريكيين للعالم العربى .

وقد ورث هارى ترومان عن فرانكين ديلانو روزفلت دولة ألقيت على عاتقها مسئوليات عالمية وخصما عدوانيا مسلحا بأيديولوجية وأسلحة أيضا ، فبعد أن استولى الاتحاد السوفيتى على أوروبا الشرقية ، أخذ يمارس ضغطه على تركيا وإيران واليونان . وتقع كل دولة من هذه الدول على الحدود الخارجية للشرق الأوسط . ووراء كل منها تقع خطوط الغزو التى ظل الغزاة القادمون من الشرق يسلكونها على مدى قرون متجهين صوب الغرب . وعند نهاية تلك الطرق تقع قناة السويس . وكانت بريطانيا وفرنسا ، وهما القوتان الاستعماريتان للمنطقة ، منهكتى القوى من جراء الحرب العالمية الثانية وأصبحتا عاجزتين عن توفير القوة الموازية لنزعة التوسع السوفيتى . وكانت الولايات المتحدة هى الوحيدة التى تستطيع سد الفجوة .

وقد غذت المسئوليات العسكرية المصالح الاقتصادية وبدأ الأمريكيون ، الذين كانوا منغلقين على أنفسهم إبان العشرينات ، يذوقون طعم الأرباح الخارجية . وأغرى إحتياطى بترول الشرق الأوسط ، الذى يبلغ اثنين وثلاثين بليون برميل ، دولة تقف على أعتاب أكبر توسع اقتصادى فى العصر الحديث . وبضربة حظ ، وبفضل البصيرة الثاقبة لقلة من الرواد الأوائل فى مجال البترول ،

(*) كانت إيران تنتج البترول مع حلول عام ١٩١٤ . ومنحت الامتيازات فى العراق فى عام ١٩١٢ ، ولكن الاتحاد العالمى الألمانى والهولندى والبريطانى أصيب بالشلل بسبب سياسة الحرب العالمية الأولى مما أخر الانتاج على نطاق واسع حتى عام ١٩٢٧ . ولم يتم إكتشاف البترول فى المملكة العربية السعودية إلا بعد عقد الثلاثينيات .

حصلت شركات البترول الأمريكية على إمتياز التنقيب عن البترول السعودى .* وقد تم إكتشافه فى عام ١٩٣٨ ، غير أنه ظل حبيس الآبار طوال الحرب العالمية الثانية . ولكن فور توقف دوى المدافع وفتح الخطوط البحرية ، هبط الجيولوجيون والمهندسون وآلات الحفر على كثبان الظهران الرملية لفتح أغنى حقول البترول فى العالم . ومع حلول شهر أكتوبر من عام ١٩٤٥ ، كانت شركة البترول العربية الأمريكية (أرامكو) قد وسعت نشاطها شمالا وغربا وأقامت ماكينات آيس كريم وأجهزة إستماع الأغانى المسجلة بوضع نقود فى ثقبها ، وأطقم آلات الحفر فى رأس تنورة وأبقيق . وأفسحت فترة الاستكشافات الأولى فيما قبل الحرب المجال أمام الانتاج الكامل ، والنمو القوى والربح الوفير .

وفى الوقت نفسه ، إنتقل رجال البنوك ، والتجار وأصحاب الأعمال الامريكيون الى مدينة بيروت الجميلة ، ومن هناك إنتشروا الى أسواق لم يكتشفها الأمريكيون من قبل . ومع حلول عام ١٩٤٨ ، زحفت المصالح الامريكية مثل الكرمة الى ذلك الجزء من العالم الذى يسمى بالعالم العربى .

ان شئون الرجال لا تبدأ فى زمان ومكان محددين بمعزل عن كل ما حدث من قبل . غير أنه اذا كان يتعين تحديد زمان ومكان بدء تورط الولايات المتحدة السياسى فى الشرق الأوسط ، فهو عام ١٩٤٨ فى فلسطين .

واذا كانت عمان تمثل الطرف الشرقى للعالم العربى ، فان فلسطين ما قبل عام ١٩٤٨ كانت تقع بالقرب من محيطه الغربى . وكجزء من المشرق المتاخم للبحر المتوسط ، فانها كانت تشكل المنطقة العازلة بين الغرب والأراضى الداخلية للعالم العربى .* برغم أن فلسطين كانت تضم مسيحيين ويهودا ومسلمين ، فانها عربية بصورة واضحة . غير أن فلسطين العربية اختفت فى عام ١٩٤٨ عندما استولت اسرائيل اليهودية على أرضها .

وتل أبيب ، التى كانت مدينة يهودية فى بيئة عربية قبل عام ١٩٤٨ ، أصبحت اليوم مركزا كبيرا يضم المبانى والطرق السريعة التى تمتد عدة أميال على طول البحر المتوسط ، مجسدة قيام وبقاء دولة اسرائيل . وكل ما تبقى من فلسطين القديمة فى ذلك الجزء من اسرائيل هو يافا التى تقع جنوب شواطىء تل أبيب . ولا تزال هناك الأرصفة البحرية المسطحة الممتدة مثل أصابع طويلة داخل البحر المتوسط والتى كانت تتدفق عبرها تجارة فلسطين . كما لا تزال هناك المبانى المقامة من الأحجار الجيرية التى ترتفع مثل درجات السلم من البحر الى الجرف العالى حيث كانت تعيش الأسر ويمارس التجار تجارتهم . وكل شىء يسوده السكون الآن ـ وقد إحتفظت به حكومة اسرائيل كمتحف .

(*) قامت شركات البترول الأمريكية أيضا بجزء من العمل فى العراق .

(*) المشرق هو الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوصط الذى يضم لبنان واسرائيل والمناطق

وتهب النسمات الباردة دائما عبر مرتفعات يافا . وليس هناك مكان أفضل من ذلك لشراء الآيس كريم ، والجلوس على مقعد والاستمتاع بانسياب مياه البحر الممتد شمالا حتى تل أبيب . وفى النقطة بين ما كان وما أصبح الآن ، يستعيد المرء ذكريات الأربعين عاما الماضية التى مرت على الشرق الأوسط .

ففى عام ١٩٤٨ ، لعبت قوى الحلفاء المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية دور القابلة فى مولد اسرائيل . وكان رمزها بالنسبة للغرب عميقا . فقد كان إطلاق سراح بقايا اليهود الأوربيين الجوعى والمعذبين من معسكرات هتلر برهانا على عدالة ست سنوات دامية طويلة من الحرب المؤلمة . واذا كانت هزيمة النازية قد أثبتت أهمية القيم الغربية المستمدة من التقاليد اليهودية والمسيحية ، فان أولئك الضعفاء المشتتين الذين توجهوا الى فلسطين للانضمام الى الحملة الصهيونية لإقامة وطن قومى يهودى يجب أن يشهدوا بقوة هذه المبادىء ، كما أن سلالة الأمريكيين الذين كانوا يجلسون فى مقاعدهم الخشبية يستمعون الى كيف هزم الصبى داود العملاق جالوت قد ساعدوا فى تحقيق الحلم الصهيونى .

وشرع اليهود الذين جاءوا من الشتات والمسلحون بالأموال والمساندة الدبلوماسية الغربية فى اعادة بناء مملكة داود . وكما حدث فى عصر الانجيل ، كان على قبيلة اليهود الحديثة هذه هزيمة القبيلة الموجودة هناك بالفعل ـ وهى الفلسطينيون العرب . وعلى عكس النفى على يد الرومان ، فان اليهود هم الذين بقوا فى فلسطين بينما رحل الآخرون بفعل قوة أقوى منهم . ونتيجة لذلك ، تفجر الصراع الرئيسى فى الشرق الاوسط . واذا كان المواطنون الأمريكيون العاديون لم يفهموا العواقب ، فان حكومتهم لم تفهمها كذلك . وقامت الولايات المتحدة سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بالقيام بدور الراعى أو رجل الشرطة ، والعمل بدافع المصالح الوطنية والمشاعر المجردة ، باجتذاب دولة اسرائيل اليها .

وفى عام ١٩٥٥ ، وجدت المهانة التى لحقت بالعرب من جراء ضياع فلسطين صوتا لها فى جمال عبد الناصر فى مصر . وجذبت خطب ناصر المتأججة بالمشاعر والحماس ضد الغرب جماهير العالم العربى من القاهرة حتى بغداد الى الرجل ورسالته التى تدعو الى التمسك بكرامة وقوة العرب . وفى السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٦ صاح الرجل العسكرى والبالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاما والذى أصبح رئيسا ، صاح أمام مائة ألف شخص احتشدوا فى ميدان الحرية بالاسكندرية « ان قناة السويس ملك لنا » . وكان ذلك يمثل تهديدا بزيادة المسافة التى تقطعها الناقلات المحملة ببترول الخليج ٣٫٥٠٠ ميل . وخسرت بورصة البترول فى لندن ١٦٨ مليون دولار ، وتدهورت قيمة أسهم قناة السويس مما عرض الفرنك الفرنسى لنكسة أخرى فى أعقاب الحرب . وهكذا تلقى الغرب أول ضربة من العرب .

وانضمت بريطانيا وفرنسا الى اسرائيل للرد على هذا الاجراء ، وقامت المقاتلات البريطانية والسفن الحربية الفرنسية بقصف منطقة القناة ، مما أصاب مدينة الاسماعيلية بالشلل بينما اندفعت الدبابات الاسرائيلية عبر سيناء تلتهم الأراضى المصرية ميلا بعد ميل . وهنا قال دوايت أيزنهاور لا . وخسر ناصر معركة ١٩٥٦ ولكنه كسب الحرب .

وعبر العالم العربى ، علقت صور ناصر الوسيم الباسم على جدران المنشآت العامة والأكواخ المظلمة ، واندفع صوته عبر أمواج الأثير الى أجهزة الراديو . وتناول العشاء مع نيكيتا خروشوف فى الكرملين . وبحث انشاء حركة عدم الانحياز مع تيتو رئيس يوغسلافيا ونهرو رئيس وزراء الهند . وبحصوله من السوفييت على اسلحة تقدر قيمتها بمائتى مليون دولار ، بدأ مركزه يعلو ويتعاظم أكثر من الطبيعى . وأصبح العالم العربى جزءا من الحرب الباردة ومكانا حيويا تجرى فيه المناورات الاستراتيجية للقوى العظمى . وفى شهر يوليو من عام ١٩٥٨ ، كان أتباع ناصر الذين ازدادوا جرأة من بين الذين اغتالوا الملك فيصل عاهل العراق ، الذى كان يمثل الركيزة الرمزية للتحالف الدفاعى الغربى ضد الغزو السوفيتى للشرق الأوسط الغنى بالبترول . وفى اليوم التالى اقتحمت مشاة البحرية الامريكية بكامل عتادها العسكرى شواطىء بيروت الناعمة الواسعة . وللمرة الأولى وليست الأخيرة ، اقتحمت القوات العسكرية الأمريكية نفسها فى عالم العرب البعيد الذى يبعث على الحيرة .

وفى عام ١٩٦٧ تغلبت اسرائيل على قدرة ناصر على اثارة الملايين ضد « الغرب الاستعمارى » . وفى غضون ستة أيام تم اعادة تنظيم العالم العربى سياسيا وجغرافيا . ووقف ناصر ، مخلص العرب ، متجردا من كل شىء فقد ذهبت الضفة الغربية للأردن ، والقطاع الضيق الذى يمتد على طول البحر المتوسط والمعروف باسم غزة ، ومرتفعات الجولان التى تطل على أودية الجليل الثرية ، والقدس الخالدة الى ايدى الاسرائيليين المتلهفين . وأصبحت هذه الأراضى المفقودة هى المركز الجديد للوحدة العربية وأدت الى ظهور رمز جديد للعزيمة والاصرار العربى - هو الفدائى الفلسطينى . وألقت الاحزان العربية بنفسها فى شخص الفدائى على عالم راض عن نفسه .

ومع بداية عام ١٩٦٨ ، أصبح الأمريكيون من الطبقة الوسطى الذين يسافرون فى رحلات جماعية الى « الأرض المقدسة » ، ورجال الأعمال الأمريكيون الذين يعملون بجد لتنمية أسواقهم فى الشرق الأوسط ، والمواطنون الأمريكيون الذى لا يذهبون الى أبعد من أوروبا ، أصبحوا جميعا فى مهب عاصفة السياسة العربية . فقد هاجم الرجال الغاضبون الذين يحملون اسلحة أوتوماتيكية وقنابل يدوية مطار زيورخ الهادىء . وركب رجال غاضبون آخرون طائرات تي دبليو ايه وبان أمريكان ليحفروا الخوف من « الاختطاف » فى نفس كل مسافر ، وكل شركة طيران ، وكل مطار . لقد كان الارهاب يعنى الموت ، ولكنه كان بمثابة مسرح أيضا . ففى سبتمبر من عام ١٩٧٠ تم اختطاف ثلاث طائرات ترفع أعلام الولايات المتحدة وسويسرا وبريطانيا حيث ربضت في مطار صحراوى بالأردن . وبينما كانت الطائرات التى تبلغ قيمتها ٢٨ مليون دولار تقبع تحت درجة حرارة مائة فهرنهيت استخدمت أرواح ٤٣٩ راكبا كعملة للتفاوض مع من مكنهم الارهاب من القيام بذلك . وقد جعل الرجال الملثمون الذين لا يتمتعون بأى قوة سوى الأسلحة التى يحملونها فى أيديهم وقوة أعصابهم ، الملوك والرؤساء بلا حول ولا قوة وقللوا من قيمة القوة العسكرية التقليدية . وكان ذلك هو مجرد بداية ادراك الولايات المتحدة لحدود قوتها فى العالم العربى .

بينما واصل الفدائيون ضرب أهداف واسعة النطاق فى أرض العدو ، بدا أنه لم يعد هناك أى مكان آمن من نزاع الشرق الأوسط . وفى الخامس من سبتمبر عام ١٩٧٢ ، ضرب الارهاب الدورة

الاوليمبية العشرين فى ميونخ فقبيل الفجر دخل رجال ملثمون القرية الاوليمبية وشقوا طريقهم بسرعة الى مقر اقامة الفريق الاوليمبى الاسرائيلى . وكانت كاميرات التليفزيون موضوعة بالفعل كى تنقل انتصارات أعظم الفرق الرياضية فى العالم بدلا من صورة شخص مقنع يقف فى احدى الشرفات يتحدى النظام القائم فى الشرق الأوسط . وهكذا أقحم العالم العربى ، الذى كان ذات يوم بعيدا للغاية نفسه مباشرة فى غرف معيشة المواطنين الأمريكيين العاديين .

وفى العام التالى غزا العالم العربى المصالح الاقتصادية الأمريكية وغير الى الأبد العلاقة بين الغرب والشرق العربى . ففى العشرين من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، حظر منتجو البترول العرب شحن البترول ، أهم سلعة فى النظام الاقتصادى الغربى ، لتلك الدول التى تؤيد اسرائيل . وفى الولايات المتحدة اصطف أصحاب السيارات الذين أصابهم الهلع فى طوابير لشراء البنزين المكرر من البترول الذى قفز سعره من ٣٫٠١ دولار للبرميل في الخامس عشر من أكتوبر الى ١١٫٦٥ دولار للبرميل عشية الكريسماس . وفى الوقت الذى كان فيه شيوخ البترول يملأون خزائنهم ، كانت الولايات المتحدة تعانى من التضخم الحاد ، واختناق الأعمال التجارية ، وتزايد البطالة . وعرف الأمريكيون حينذاك بشكل واقعى ما كانوا يعرفونه بشكل نظرى على مدى عقد ونصف ـ وهو ان ازدهار الغرب الاقتصادى يقع تحت رحمة موردى البترول العربى . ولم يعد بوسع آبار تكساس ، وأوكلاهوما ، ولويزيانا وكاليفورنيا اشباع شهية الولايات المتحدة النهمة للبترول .

وكانت الولايات المتحدة تعتمد هى وبقية العالم الصناعي على موارد البترول فى الخليج . ومن ثم لم يكن بوسع الولايات المتحدة السماح لأى قوى بعرقلة وصول الغرب الى بترول العرب .

وفى عام ١٩٧٩ ، جاء التهديد لامدادات البترول من عناصر اسلامية ثائرة . ففى أول شهر فبراير هبط رجل ملتحى ضعيف البنية ملفوف فى عباءة سوداء درجات سلم احدى طائرات شركة اير فرانس فى مطار طهران ، لقد عاد آية الله روح الله الخمينى الى ايران لاستكمال الثورة الاسلامية . وبعد تسعة أشهر ، قام أربعمائة من الطلبة الايرانيين بمسيرة فى شوارع طهران يهتفون « الموت لأمريكا » . ووصلوا الى السفارة الامريكية ، « وكر الأفاعى » الكريه ، وعبروا البوابات حيث احتجزوا اثنين وخمسين رهينة . وعلى مدى الـ ٤١٢ يوما التالية أصبحت الولايات المتحدة ذاتها رهينة لمشاعر لم تفهمها ، فقد خرج التطرف الاسلامى من ايران الفارسية وانتشر فى الجانب العربى من الخليج مهددا بفصل الغرب عن شريان حياته . غير أنه في لبنان تلقت الولايات المتحدة صفعة قوية من العنف الاسلامى .

لقد كانت دولة لبنان الصغيرة ، سويسرا الشرق ، بمثابة الرمز الذى يتمنى الغرب أن يكون عليه العالم العربى . غير أنه منذ عام ١٩٧٥ ، كان لبنان يصور بدقة كافة مواقف امريكا السلبية تجاه العالم العربى ـ القبلية ، والتهور ، والفوضى والوحشية . ومع حلول عام ١٩٨٢ ، كان الفلسطينيون ، وسوريا واسرائيل وجمهورية ايران الاسلامية ، قد زادوا من المنازعات المستمرة بينهم وكان لبنان هذا ، لبنان الذى مزقته الطائفية والتنافس والكراهية ، هو الذى عادت اليه قوات الولايات المتحدة بعد ربع قرن تقريبا منذ أول غزو عسكرى أمريكى للشرق الأوسط . غير أنه فى هذه المرة لم ينتشر مشاة البحرية الأمريكية على الشواطىء للاستمتاع والاستجمام ولم يتجولوا فى

محال شارع الحمرا ببيروت ، ولكنهم ظلوا قابعين فى الخنادق ، يحتمون من عدو لا يفهمونه وفى الثالث والعشرين من أكتوبر تعرضوا لهجوم من جانب قوة غامضة تطلق على نفسها اسم الجهاد الاسلامى .

ففى الساعة السادسة وعشرين دقيقة من صباح ذلك الأحد اتجهت عربة نقل مرسيدس كبيرة صفراء اللون الى مبنى تأمين الطيران فى مطار بيروت حيث تقيم فرقة امريكية ضمن قوة متعددة الجنسيات تم استدعاؤها الى لبنان لمحاولة استعادة النظام . وعندما وصلت العربة الى حارس البوابة ابتسم السائق وضغط على دواسة البنزين . وبعد لحظات انهار فندق « هيلتون بيروت » بتفجيره بألفى رطل متفجرات . وفى شتى أرجاء أمريكا ، شاهد الأمريكيون بأسى وألم ٢٤١ شابا من مشاة البحرية فى مطلع حياتهم يخرجون من بين الانقاض . ومرة أخرى لم تكن هناك سوى قلة تعرف سبب ما حدث .

ولم يكن أحد يعرف سبب اختفاء تيرى أندرسون ، وبنيامين وير ، وجيريمى ليفين ، وتوماس سوثرلاند ، والأب لورانس جنكو ـ وصحفيين ، وأساتذة ورجال دين ـ من شوارع لبنان كى يصبحوا رهائن لمنظمات فوضوية تزعم أن لديها خططا سياسية جادة ومتناسقة ، أو سبب قذف جندى البحرية روبرت دين من الباب الخلفى لطائرة تى دبليو إيه المختطفة والتى كانت تربض فى مطار بيروت .

غير أنه حتى قبل أن يصبح الرهائن ، أفرادا وجماعات ، هم مركز الصراع فى بيروت ، فان الولايات المتحدة قد استسلمت بالفعل لقوى لا تستطيع السيطرة عليها . ففى السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٨٤ ، حمل مشاة البحرية أمتعتهم على ظهورهم ، واحتشدوا على الشاطىء الأخضر حيث ركبوا طائرة انزال كانت تلقى بظلالها على مدينة بيروت المدمرة . ومع صعود آخر جندى حلقت الطائرة الى أعلى وكانت ترفع علما أمريكيا صغيرا . وهكذا تركت الولايات المتحدة لبنان والعالم العربى وراءها . ولكن ستكون هناك عودة . .

فبعد ثلاث سنوات أو أكثر قليلا ، تحركت البارجة يو اس اس ستارك تحت ظلام الليل تجوب خطوط الملاحة فى الخليج التى كانت تتعرض لمخاطر الحرب العراقية الايرانية . وفى الساعة العاشرة وثمانى دقائق ليلا انطلق صاروخان من طراز اكزوسيت من طائرة ميراج عراقية وأصابت منتصف غطائها الصلب فيما بين السطح وخط المياه . وعاد سبعة وثلاثون تابوتا آخر ملفوفا بالأعلام تحمل أمريكيين الى الوطن قادمين من الشرق الأوسط . وتجمع رونالد ريجان وأكثر من ألف شخص فى حزن وأسى فى احدى حظائر طائرات الهليكوبتر فى ماى بورت بفلوريدا لتوديعهم . وتذكر الرئيس الحزين أحزان زوجين من ايو فقدا كل أبنائهما فى الحرب العالمية الثانية . وقال « لقد كان من السهل تحمل ذلك بطريقة أو بأخرى لأنه كان من اليسير فهم سبب وجودنا هناك ، ولماذا كنا نقاتل »• . وفى المرة القادمة التى مات فيها الأمريكيون فى الشرق الأوسط كانوا يعرفون لماذا يقاتلون .

• تايم ، ١ يونيو ١٩٨٧ .

فتحت جنح الظلام فى الثانى من اغسطس عام ١٩٩٠ ، اجتاحت مئات الدبابات والعربات وحاملات الجنود المدرعة العراقية رمال وأشجار حدود الكويت . وقبل أن تصل الى قصر دسمان هرع الأمير جابر الأحمد الصباح وأسرته فى أسطول من السيارات متوجهين الى المملكة العربية السعودية . واستولت القوات العراقية المغيرة على القصر والمطار والبنك المركزى الممتلىء بالأموال . وفى غضون اثنتى عشرة ساعة كانت الكويت تابعة لصدام حسين . وفى الجنوب تقع حقول بترول المملكة العربية السعودية الثرية التى تسهم بتسعة عشر فى المائة من امدادات بترول العالم الصناعى .

وقد كانت هذه هى الأزمة التى يخشاها صانعو السياسة الأمريكية منذ مستهل السبعينيات ، وكانوا على استعداد لها . فبعد ستة أيام من غزو العراق للكويت بدأت القوات والمعدات الأمريكية تتدفق الى أقصى نقطة مقفرة فى الشرق الأوسط .

ففى صيف عام ١٩٧٨ ، كنت أقف وحدى على الأرض التى تحدد مجرى نهر وادى البطين الجاف الذى يقع شمال المملكة العربية السعودية . وكانت الصحراء تمتد حولى فى كل اتجاه ـ خاوية ، بدون معالم أو ألوان . وفوقى كان قوس السماء الزرقاء ينتشر على الأفق ويتوج الأرض التى تبدو كقزم بالنسبة له . وكان كل ذلك يتحدث عن كوكب آخر يطوف الكون . ولم يكن هناك سوى حمار أسود يقف وحيدا فى الأفق ولا شىء آخر ـ لا شىء سوى حرارة الجو والسكون .

وفى أواخر صيف عام١٩٩٠ تبدد الصمت . وأصبحت هذه الصحراء ذاتها تضج بهدير العربات نصف المجنزرة وأصوات عربات الجيب . وانتشرت الخيام والمدافع عبر أرض مسطحة تملأ فراغها . وتلاشى ذلك الاحساس بالفراغ وحل محله شعور مزعج بالقلق الذى يصاحب تهديد الحرب . وفى شهر يناير عام ١٩٩١ ، اندلعت الحرب . وتمخض الانتصار العسكرى المشهود عن سلام غير كامل . وفى شهر أكتوبر التالى نجحت الولايات المتحدة فى عقد مؤتمر سلام صاخب واجه فيه العرب الاسرائيليين على مستوى واحد وواجه بعضهم البعض على مستوى آخر . ووجد الأمريكيون أنفسهم يواجهون عالم العرب ـ عالما لم يفهموه على الاطلاق .

وعلى مدى العقود الأربعة الماضية ، كانت الولايات المتحدة تدعى الي الشرق الأوسط لحماية الحلم الصهيونى ! وتهب لوقف المسيرة الشيوعيةالى قلب الاسلام ومسيرة الاتحاد السوفيتى الى حقول بترول الشرق الأوسط ! وتتورط فى لبنان على اعتقاد ساذج بأنه يمكن فرض النظام على حرب قبلية ، وتستحث من أجل الحفاظ على تدفق بترول الخليج ! وفى النهاية دعيت للتصدى للمطامع والعدوان الصارخ . وقد كان العالم العربى ذات يوم بعيدا عن الحياة اليومية الأمريكية بحيث لم يكن يوجد الا فى الصور الفوتوغرافية القديمة ومقالات الكتاب الرحالة التى ليس لها صلة بالحياة الواقعية . ولكن العالم العربى لم يعد مكانا مبهما يقع فى مكان ما شرق أوروبا . انه موجود فى واقعنا الحاضر . وهوصعب .

ويتنازع العرب احساسهم العميق بوحدتهم كشعب وخلافاتهم المستمرة حول المصالح

الوطنية المحدودة المتضاربة . والنتيجة فوضى واضحة يعيش فيها العرب دائما بين وحدة وانقسام ، ثم وحدة وانقسام .

وتوجد وحدة العرب جزئيا فى تاريخ منطقتهم الطويل الذى يمكن استشعاره من النيل الى الخليج ، ففى قرى مصر نشاهد الثيران معصوبة العينين وهى تدور وتدور بثقل واجتهاد كى ترفع المياه الى السطح للحفاظ على الحقول التى تزرع على نحولم يتغير منذ عهد الفراعنة والنساء ، كما كن دائما ، يجلسن خارج منازلهن الصغيرة يصنعن من العجين أرغفة مستديرة . غير أن الاحساس بالاستمرارية بقوة عندما يرفع الأذان للصلاة من أعلى سطح المسجد المبنى بالطوب اللبن مثلما يحدث كل يوم منذ أكثر من ألف عام .

ان الناس والنباتات والحيوانات وأساليب الحياة وكل شىء فى العالم العربى يعطى احساسا بطول الزمن وتواصله . وحتى الأرض التى يعيش عليها العرب ترفض منح الكثير مما هو جديد . فالسهول الساحلية وأودية الأنهار ، والواحات تؤتى ثمارها فى مواسمها . ولكن معظم الأرض الصخرية الصلبة الجافة تسجل الزمن ـ عاما بعد عام ، وجيلا بعد جيل . وقرونا بعد قرن . وحتى ناطحات السحاب التى اقامها الكويتيون فى أوج أزدهار البترول فى السبعينيات لا تمحو أثر التقاليد التى تبرز عندما يجر مركب بشراع واحد (دهو) فى مياه الخليج الضحلة .

ان الزمن ، والدين ، والتقاليد تمنح العالم العربى مشاعر وحدته العظيمة . انها وحدة تربط كل أولئك الذين يعرفون أنفسهم بالعرب فى كيان روحى قوى واحد . وبهذا المعني فان العالم العربى أمة واحدة قوية تتحد ضد كل من يحاول اذلالها .

غير ان نفس هذا العالم ملىء بالخلافات والتنافر . ففى حين أن جزءا كبيرا من العالم العربى حبيس الزمن والتقاليد ، فان الجزء الباقى واقع فى شرك التنافس والصراع .

ان المجتمع العربى مجتمع قبلى . وهو مرتبط فى عائلات كبيرة يمكن تتبع تاريخها الى قرون ماضية . وقد استمعت الى بدوى أمي يعيش في خيمة بالصحراء وهو يسرد نسبه جيلا بعد جيل ، وسمعت أحد الفلسطينيين يعيش فى مخيم اللاجئين يحدد بدقة تسلسل عائلة فى فلسطين قبل عام ١٩٤٨ . غير أن العائلة أكثر من السلالة والنسب انها الحياة ذاتها . ذلك أنه من العائلة يستمد العربى هويته وأمنه .

والعائلات التى تندمج فى القرى والمناطق المجاورة تصبح عشائر ، وتتجمع العشائر فى مناطق أو طوائف دينية وفى بعض الأحيان فى أحزاب سياسية زائفة أو منظمات عسكرية تقود العملية السياسة . والعرب ليسوا مواطنين لدولة قومية . وانما هم أعضاء فى جماعات مستقلة تتنافس بصورة سلمية أو عسكرية كى تصوغ الأمة وفق ارادتها الخاصة . وذلك يوضح كيف يعمل المجتمع ، اذ أن العائلة والقبيلة جزء من النسيج القديم للعالم العربى . غير أن الدولة القومية غريبة على الحضارة العربية ، وهى فكرة غريبة فرضتها قوى أوروبا على العالم فى القرن العشرين . لقد عرف العرب الدولة مؤخرا ، وأتوا اليها بقبيلتهم كاملة . ومن ثم فانهم يديرون شئون بلادهم كقبائل الى حد كبير .

ان الدول العربية غالبا ما تعيش وتستمر لأن هناك رجالا أقوياء يربطونها معا بقوة السلاح

والارادة . ورجال السلطة هؤلاء الذين يدفعون مصالحهم أو مصالح جماعاتهم أودولهم كما يحددونها بأنفسهم ، يتنافسون على المستوى السياسى والعسكرى والاقتصادى والنفسى . وهكذا كان جمال عبد الناصر فى مصر يناضل بالجاذبية الشخصية . ويقاتل الملك حسين عاهل الأردن بالدهاء والذكاء . ويقف آل سعود وراء قلعة الدين . ويناور حافظ الأسد فى سوريا . ويطلق صدام حسين العنان للقوة الغاشمة ، غير أنهم جميعا يواجهون العملية الشاقة لبناء دول يمكن أن تقوم بعملها فى نهاية القرن العشرين . وهكذا ، فانه فى حين تطور الدول المعنية هوياتها الخاصة ، فان منافساتها على المصالح الحيوية تزداد حدة .

ومع ذلك لا يوجد زعيم عربى أو دولة عربية على استعداد للتخلى عن « العروبة » - وهى ظاهرة لا يفهما فى الحقيقة غير العرب ، ان الالتزام العاطفى تجاه الوحدة يقحم نفسه فى كل نزاع وكل أزمة فى العالم العربى . فالدول العربية التى تعيش فى خلاف حول المصالح المتنافسة ، وتتنازع مع بعضها البعض حول رؤيتها الخاصة للأحداث ، تتضافر رغم ذلك على نحو لا يقاوم من أجل ايجاد « حل عربى » وذلك التضافر يعد بمثابة طقوس تسعى من خلالها الدول والزعماء من أجل اعادة تأكيد هويتهم كعرب ولكنهم لا يقرون بخلافاتهم كدول . وهكذا فان العرب موحدون بالمشاعر ، وليس بالأطراف . انهم مرتبطون أساسا بجهاز عصبى ضخم غير مرئى يوجد خارج هيكل عظمى . وعندما يتعرض جزء للضغط ، فان رد الفعل يمكن أن يحدث فى مكان آخر مختلف تماما .

ويتحرك العرب بسرعة للأمام والخلف بين عالم الأخوة وارتدادات الخيانة ، وبين الوحدة والصراع ، ان قوى الوحدة ، بالغة الشدة ، وأسباب الفرقة ، بالغة القوة ، تجعلهم دائما فى حالة حرب مع بعضهم البعض . وعناصر الخلاف والوحدة هذه هي التي تؤدى لحالة الغليان فى العالم العربى . ومن خلال فهم كل من أسطورة الوحدة وواقع الخلاف يمكن للولايات المتحدة والغرب تعلم كيفية العيش مع العرب .

ان أى مؤتمر تعقده الدول العربية يطلق الآليةالتى تسعى للوحدة من بين الخلاف . ففى أوائل عام ١٩٧٩ ، شهدت مؤتمرا بين العرب عقد فى مركز الملك فيصل للمؤتمرات بالرياض . وكانت سيارات المرسيدس الفاخرة السوداء اللون تستجيب لتعليمات ضباط الأمن الذين كانوا يطلقون صفاراتهم بعصبية ويلوحون بأيديهم كى يديروا حركة المرور فى شارع الملك سعود ، وتتجه نحو الباب المذهب لقاعة الاجتماعات . وكانت كل سيارة تتوقف تحت المظلة التى تمتد من خارج البوابة الزجاجية ، يهرع اليها رجل يلبس ثوبا أبيض كي يفتح أبواب السيارة ليهبط منها ممثلو العالم العربى ، لقد جاءوا باسم زعماء ثوريين وحكام بالوراثة ورؤساء جمهوريات ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية . وكانوا يرتدون ملابس رجال أعمال ، وأزياء عسكرية وأثوابا هفهافة . لقد جاءوا من بلاد تتمتع بحضارات قديمة ومن دول تتباهى بالثروة الجديدة . لقد كانوا جزءا من أنظمة لمست برفق فلسفة الديمقراطية وأنظمة ظلت مستمرة فقط من خلال قمع المعارضة تحت الكعوب الصلبة .

وفى مركز المؤتمرات الضخم الذى تتوسطه ثريا كريستال ضخمةجلسوا حول مائدة مستديرة

تشير الى تساوى وضع الجميع بدءا من مصر المعتزة بكرامتها الى العراق الغنية الثورية

لقد كانوا متنافسين . وكانوا أعداء . وكانوا يمثلون مصالح متنافسة ويضمرون فى أنفسهم أحقادا بغيضة . غير أنهم كانوا هناك معا لأنهم عرب . وفى ذلك المكان،وفى ذلك الوقت ، كما هو الحال فى كل الأماكن والأوقات ، كانت الروح العربية تطغى على كل شىء آخر - الاقتصاد ، والسياسة ، والمنطق . ويكمن السبب فى أصول أولئك الذين يسمون بالعرب .

الباب الأول
أسطورة الوحدة

الفصل الأول

البدوى النبيل

فى منتصف صيف شبه الجزيرة العربية تضرب شمس ما بعد الظهيرة الساخنة أرض الصحراء الصخرية بقوة تتحدى أى إنسان أن يتحدى سطوتها الوحشية . ويستسلم الإنسان . وخلال التلال الجرداء والوديان الجافة ومحيطات الرمال المنتشرة يسود السكون أثناء قيظ النهار . فلا شيء يتحرك ـ لا إنسان ولا حيوان ولا نسمة هواء . وفى هذا السكون ينتظر الكل بصبر للخلاص من لهيب الشمس . وأخيرا ينقضى ما بعد الظهيرة عندما تطول الظلال وتخف درجة الحرارة . ثم يظهر الشفق حاملا معه سحره الى الصحراء . وتتحرك قطعان من الجمال المهيبة وكأنها صورة من الماضى تكلل جرفا رسمه ضوء الشمس الأرجوانى والأحمر القانى . وتظهر أول نجمة براقة فى السماء الصافية التى لم يصلها تلوث البشر . وفى الصحراء وقت الغسق ، تتركز القرون وتوحد بين الماضى والحاضر .

لقد أفرز أتون شبه الجزيرة العربية العرب الأصليين ، ففى فجر التاريخ كانت شبه الجزيرة نقطة إتصال شاسعة حيث إمتزج المهاجرن الوافدون من أفريقيا ومختلف البقاع الأخرى وإندمجوا فى شعب واحد عرف بإسم الساميين . ومع حلول العصر الحجرى ، إنتقلت موجات من هؤلاء الساميين شمالا وغربا خارج شبه الجزيرة العربية . ومع قدوم عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، إستقر البعض فى الأراضى المنبسطة الخصبة التى تقع بين نهرى دجلة والفرات حين حفروا تاريخ أراضى ما بين النهرين على ألواح من الطين . وشق آخرون طريقهم الى النيل . وجذبتهم هبات النهر الخصيب وإندمجوا فى حضارة مع الفراعنة المصرية العظيمة* . وفى موجات لاحقة ، سلك الأشوريون ، والكنعانيون ، والفينيقيون ، والنبطيون ، والعموريون والعبرانيون طريقهم خارج شبه

(*) توجد بعض الصلة بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية . كما كانت هناك بعض الهجرات السامية الى داخل مصر القديمة ولكن العلاقة الصحيحة بين المصرين والساميين لا تزال غير واضحة .

الجزيرة الى الشرق . غير أن آخرين ظلوا فى شبه الجزيرة فى المنطقة التى تقع بين البحر الاحمر والخليج . وفى عام ٨٥٤ قبل الميلاد عرفته سجلات الآشوريين باسم « العرب » .

ومع إتحادهم فى اللغة ، فإنهم إنقسموا الى جماعتين تنحدر كل منهما من سلالة مختلفة . القحطانيون ، وهم قصار القامة مستديرو الرؤوس ، وقد عاشوا كشعب مستقر فى الأراضى المرتفعة التى تغذيها الأمطار ، فى المنطقة التى تقع الآن فى شمال غرب اليمن . والعدنانيون ، وهم بارزو العظام طوال الرؤوس ، وقد سكنوا فى الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية . وكان عرب الشمال هم الذين يقيمون عند ملتقى طرق تجارة البخور والتوابل بين اليمن والبحر المتوسط . ومنذ القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادى ، ظلوا يسيطرون على ذلك الموقع الحيوى ويمارسون نفوذهم من مكة والمدينة . غير أن البدو ، بدو الصحراء الرحل ، هم الذين تشرب المجتمع العربى قيمهم .

إن ما يوصف اليوم بالثقافة العربية لم يتطور إلا بعد الفتوحات الاسلامية فى القرن السابع الميلادى . فقد إنبثقت من مزيج من مختلف الجماعات العرقية اللغات والتقاليد التى إجتمعت فى الامبراطورية الاسلامية . كما كانت نتاج المدن وليس الصحراء * . ولكن عرب اليوم بدأوا ببدو شبه الجزيرة العربية .

فبعد فترة طويلة من نزوح الجماعات السامية شمالا ظل بدو شبه الجزيرة هم أكبر مستودع للقيم الأصيلة التى حملها معهم الساميون القدامى الى أودية الفرات والنيل والأردن . وعندما إنتقل البدو شمالا مرة أخرى مع جيوش الاسلام ، ضعفت قيم البدو وإندمجت فى حضارات أكثر تعقيدا من حضاراتهم . غير أنه مع مرور الوقت ، أصبح البدو الذين لم تفسدهم وتروضهم الحضارة بمثابة بنك دم من الحيوية الجديدة يغذى مجتمع الحضر المترف فيما وراء شبه الجزيرة العربية . واليوم ، فإن العرب يحتقرون البدوى وفى الوقت نفسه يكنون مشاعر حب رومانسية للحياة البدوية وبساطة وجلال وطهارة الصحراء . ونتيجة لذلك ، فان البدوى يعيش خارج حدود الواقع ليصبح الفارس الأسطورى للثقافة العربية .

وقرنا بعد قرن ظل البدو يتنقلون بحرية عبر وسط وشمال شبه الجزيرة . ومنذ ترويضهم للجمال فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد ، وهم يستخدمون الصحراء كقلعة منيعة يحافظون من ورائها على أسلوبهم الفريد فى الحياة . ونظرا لأن البدو عاشوا على رعى الماشية من واحة لأخرى ، وظلوا يوفرون لأنفسهم سبل الحماية ، ويختفون حينما يشاؤون فى الرمال التى لا نهاية لها ، فإنهم عاشوا متحررين من كل سلطة .

ولقناعة البدو بسموهم ، فقد ظلوا ينظرون بازدراء لمزارعى الواحات وتجار المدن . وكانوا يعيشون فى الصحراء بنبل لم يستطع الا القلة تفسيره وان كان الجميع يدركونه . وفى أواخر

(*)أنظر الفصل الثانى

الأربعينيات من هذا القرن ، شهد المستكشف البريطانى ويلفرد ثيسجر ، الذى جاب شبه الجزيرة العربية لمدة خمس سنوات بدون رفيق آخر غير البدوى ، شهد بأنه لم يشعر بين أى أناس آخرين بمثل ذلك الشعور بالنقص الشخصي : « إن كل ما كانوا يمتلكونه هو جمالهم وسروجهم ، وبنادقهم وخناجرهم ، وبعض الزمزميات الجلدية وقدور الطهى والملابس التى يرتدونها . . . (غير أنهم) كانوا يواجهون كل تحدٍ ، وكل مشقة باعتزاز وفخر قائلين : « إننا بدو » * .

إن كبرياء البدو ينبع من القدرة الخارقة على البقاء . فهم يحتمون وراء خيام طويلة مفتوحة الواجهة ومنسوجة من شعر أغنامهم الأسود ، ويتغذون مثل الطفيليات على اللبن الرائب من حيواناتهم وعلى تمر نخيلهم المنتشر فى مساحات شاسعة من واحاتهم . ويغطون أجسامهم برداء طويل بسيط ، هو الثوب ، ويحمون رؤوسهم من الشمس والرياح بالغترة التى يثبتونها فى موضعها برباط يماثل ذلك الذى يثبت به الجمل . أما فى أقدامهم الصلبة ، فانهم يرتدون صنادل بدائية الصنع من جلود أغنامهم الجافة . والبدو ، المنحوتون من الرمل والتراب والصخر ، لا يدعون أنهم من أبناء المدن أو الفراعنة ، ولكنهم مجرد أناس قادرين على البقاء فى طبيعة البيئة التى أفرزتهم . والبعض منهم لم يستسلموا قط لسيطرة الحكومة .

لقد كانت المملكة العربية السعودية ذات يوم صدى لهجرات البدو . ولكن اليوم ، لا يزال أقل من خمسة فى المائة فقط من السكان يتشبثون بأسلوب الترحال فى الحياة . انهم مستمرون فى العيش فى خيام منعزلة كأنها قلاع بدون جدران يدافعون عنها بترسانة من البنادق العتيقة والحديثة ، متحدين الحكومة التى تقدر لهم الحوافز المغرية للاستقرار . وقلما يتم دعوة أى أجنبى للدخول فى هذه الخيام .

وفى يوم من أيام الشتاء الصافية توجهت مع مجموعة من العاملين بمستشفى الملك فيصل التخصصى بالرياض حيث يعمل زوجى طبيبا ، وأقمنا مخيما فى الصحراء . وكنا نقيم دائما بعيدا عن مخيمات البدو ، كما كان البدو يقيمون بعيدا عنا إزدراء لنا . غير أنه فى ذلك اليوم توقفت بجانبنا سيارة بيك آب داتسون بيضاء اللون كانت تطارد جملا شاردا . وتعرف السائق على زوجى الذى كان قد أجرى له جراحة مؤخرا . ومما أثار دهشتنا جميعا ، أنه دعانا كلنا الى مخيمه الذى يقع فوق التل مباشرة . وإرتديت جونلة طويلة فوق بنطلونى الجينز وقفزت فى سيارتنا النيسان حيث سار زوجى وراء السيارة البيك آب .

وفى وسط هذه الصحراء الشاسعة الخاوية ، كانت هناك خيمة طويلة منخفضة مصنوعة من جلد الماعز الأسود ، تطفو بين الرمال الرمادية وزرقة السماء ، ومن واجهتها المفتوحة ، إندفع الأطفال يلوحون بمرح وإبتهاج للسيارات القادمة . وداخلها كان هناك إثنا عشر رجلا أو نحو ذلك ويجوارهم النرجيلة ، ونهضوا من على حصير مغطى بوسائد من الإسفنج وخرجوا لتحيتنا . وفى

* ويلفرد ثيسجر ، « الحياة التى إخترتها » (نيويورك ، ١٩٨٧) ص ٣٩٨ .

النهاية ظهرت النساء على إستحياء وهن ملفوفات بالسواد ، وجوههن مغطاة ولا يظهر منها سوى عيونهن المكحلة . ولوح لهن الأب لإصطحابى أنا والنساء الأخريات الى الجزء المخصص للنساء فى الخيمة الطويلة .

إن خيمة أى بدوى فى العقد الأخير من القرن العشرين تضع الماضى بجانب الحاضر ويطغى على كليهما عدم إحساس البدوى بالزمن . ولم تعد المنسوجات البدوية الملونة والأوانى الخشبية والقدور النحاسية تشكل كل ممتلكات البدوى ، ففى أقصى الركن ، كانت هناك المراتب الإسفنجية التى تم شراؤها من أحد أسواق الرياض . وهناك أيضا الأوانى المستوردة المصنوعة من الألومنيوم وأباريق الشاى المصنوعة فى تايوان . وكان الأطفال الذين تجمعوا حولى يرتدون ملابس مصنوعة فى هونج كونج فى حين أن أمهاتهم كن يرتدين ملابس متعددة الألوان صينية الصنع مخبأة تحت عباءاتهن السوداء . وجلسنا فوق حصير من البلاستيك مستوردة من اليمن ، نشاهد الرجال الذين كانوا يرتدون أحذية غربية وساعات ماركة رولكس وهم يشوون خروفا على فرن يشتعل بالزيت . غير أنه رغم مقتنياته المتنوعة ، فان البدو لم يقطعوا صلتهم بالماضى .

وعندما تلاشى النهار فى المساء ، وهبت نسمة ليل الصحراء الباردة ، اشتعلت فجأة مجموعة من الأخشاب إرتفاعها ثلاثة أقدام كانت موضوعة فى منتصف الخيمة طوال اليوم . وعلى ضوء النيران ودفئها ، تبدد الشعورَ بعزلة هذا المخيم الوحيد المقام على تلك الهضبة الخالية فى وسط شبه الجزيرة العربية . وظلت النساء بعيدا حيث حددت لهن حضارتهن دور المتفرج . غير أن الرجال الذين كانوا قد إمتلأوا بالخروف المشوى والأرز المخلوط بالمكسرات والخبز العربى المستدير وفناجين لا تعد ولا تُحصىَ من الشاى الذى إحتسوه طوال فترة ما بعد الظهر قد تجمعوا للرقص . وتشابكت أيديهم وبدأوا يدورون حول النار فى إيقاع بطىء وينشدون أغانى على وتيرة واحدة ظلت تتردد فى بقاع هذه الأرض القاحلة طوال قرون . وهكذا إتحدوا مع ماضيهم . إن المدن التى هجروها ، وأجهزة التليفزيون التى تعرض صورا متحركة وصور مكة ، ومراكز التسوق والمطارات الضخمة المتلألئة ، وبيروقراطيى الحكومة الجدد الذين خططوا لدمجهم فى المجتمع السعودى قد تلاشت جميعها فى إحتفال البدو بتراثهم . وفى هذه اللحظة خيم إحساس بالخلود على المخيم . وكانت كرامة البدوى ـ المتمثلة فى إحساسه الداخلى بالاستقلال ، وثقته فى قدرته على تحمل المصاعب المادية ، وإلتزامه حيال الأسرة ، وإيمانه بنفسه ـ لا تزال موجودة هناك .

لقد غرست الحضارة البدوية فى المجتمع العربى الذى يمتد من الخليج الى البحر المتوسط قوى شديدة من الوحدة والإنقسام ، فالمجتمع العربى فى كافة الأزمنة منقسم ومتحد حيث تقف الطاقات التى تقسمه ضد الطاقات التى توحده . وتتفاوت الإنقسامات الاجتماعية التى تؤرق كافة الدول العربية المعاصرة ، فى الخصائص والدرجات وغالبا ما تفاقم منها قوى من خارج المجتمع العربى ذاته . ومع ذلك فانها تسير على نهج الأنماط العامة المتأصلة فى التزام البدوى العميق بالعائلة والقبيلة ، والأخذ بالثأر ومفهوم الشرف . وفى الوقت نفسه ، فإن هذه المجتمعات تتطلع للتضامن الذى يضرب بجذوره فى لغة البدوى والدين الذى شهدت مولده شبه الجزيرة العربية .

إن الصحراء لم تكن قادرة على قيام أى شىء أكثر من اقتصاد يحافظ على البقاء . وفى أكثر

الأشكال بدائية ، فان الحكومة ، حتى على مستوى الدولة ـ المدينة الصغيرة ، كانت تتطلب وجود إداريين غير زراعيين وجنوداً وحرفيين فى حاجة الى الغذاء . غير أن الصحراء لم تكن تنتج غذاء إضافيا . ومن ثم ، لم تقم أية حكومات قادرة على ربط البدو معا أو القيام بدور الحكم فى التنافس الشرس على المياه النادرة التى تمنح الحياة . وكانت الحياة فى الصحراء ممكنة فقط اذا ترابط الأفراد والجماعات فى وحدات قوية متماسكة بروابط الدم .

وكانت هذه الحاجة الماسة للأمن هى التى دفعت البدو على مدى القرون الى اقامة مجتمعهم على العائلات فى ترابط وإخلاص تام والتزام مقدس من كل منهم بالآخر ، وكان النسب الأصيل والكامل يوحد كل أولئك الذين يرجعون أصلهم الى رجل واحد . ومن ثم ، فانه فى الصحراء المفتوحة كانت الأسرة ، مثل القلعة ، تجمع أعضاءها داخل جدران مشيدة على أساس تضامن العصب والقرابة . وكان الأب وإبنه ، والأخ وأخوه ، وإبن العم وإبن عمه يجوبون الصحراء بحثا عن المرعى ، يقيمون معا ، ويتزاوجون من بعضهم البعض ، ويخلدون روابط القرابة المقدسة الى أبعد حد . وفى داخل الجماعة كان يستمر التماسك بغرس الالتزام داخل كل عضو بوحدة الجماعة وتحمل المسئولية المتبادلة ، بإعتباره القيمة العليا للحياة التى لا تقبل الجدل . وفى الوحدات الاجتماعية الصغيرة التى يعرف فيها كل الأشخاص بعضهم البعض ، ويرتبطون جميعا برابطة الدم أو على الأقل برواية الأصل المشترك ، كان رباط الأسرة هو الرباط المسيطر . وكانت الضغوط الرامية الى تحقيق الالتزام والعمل على خير الجماعة والعيش وفقا لقانون أخلاقى يعترف به الجميع وإن كان غير مكتوب ، تربط كل عضو .

وكانت الرسالة ذات فعالية بالغة لأن الحقيقة كانت صارخة للغاية ـ وهى أنه بدون مساعدة وحماية الأقوياء ، يضيع الفرد ويضل .

وكان الثمن الذى يتعين على الفرد دفعه من أجل هذه الحماية هو الإلتزام الصارم بقيم العائلة ومبادىء السلوك فيها ، وكان البدوى يتوحد مع كل ذلك الى الحد الذى يتوقف فيه عاطفيا عن تحديد هويته كفرد . فكانت رغباته تعكس رغبات والده ، وتتطابق مصالحه مع مصالح الجماعة ، ويكره ولا يثق مثلها فى الأشخاص لا يرتبطون بالجماعة برباط القرابة .

ولم يتغير الكثير من هذه الاتجاهات فى شبه الجزيرة العربية وبقية العالم العربى . « إن الأسرة تمثل عصب النظام كله ، إنها الجماعة الأولى والنموذج الهيكلى لأى تجمع ممكن ، وهى ذرة المجتمع التى لا يمكن أن تتحلل والتى تحدد وتضمن لكل عضو مكانه ، ووظيفته ، وسبب وجوده ، بل ووجوده ذاته الى حد معين »*.

إن فهم العالم العربى يعتمد على فهم الأسرة . عندما كنت أقيم فى المملكة العربية السعودية فى نهاية السبعينيات ومستهل الثانينيات دعيت الى العشاء فى منزل أحد الشيوخ . وظلت السيارة

(*) بيير بوردو ، مقتبس فى ديفيد برايس ـ جوانز « الدائرة المغلقة : التعريف بالعرب » (نيويورك ١٩٩١) ص ٢٧ .

التى أرسلها لتقلنى الى ضاحية السلمانية بالرياض تتخبط فى الشوارع المحفورة بمعدات الصرف الصحى وتسير حول مخلفات البناء المكدسة فى اكوام عالية الى أن وصلت الى وجهتها . وكنت أتوقع أن أرى منزلا ، ولكننى شاهدت قرية صغيرة . ففى الوسط كانت هناك فيلا كبيرة تماثل قطعة زينة ضخمة . وفى الخلف كانت توجد أربعة منازل مماثلة ولكنها أصغر . وفى الواجهة ، وفى وسط الحديقة كان هناك حمام سباحة وفى حجرة جلوس ضخمة في المنزل الرئيسي ، تناثرت أرائك من الجلد السميك على سجاجيد فارسية ناعمة زرقاء وبيج . والتقيت بمضيفى وأبنائه الأربعة . وكان كل إبن فى نهاية عقده العشرين أو بداية الثلاثين ومتزوج ومعه أولاده ، ويشغل أحد المنازل الملحقة بمجمع الأسرة . وفى كافة أرجاء المملكة العربية السعودية توجد تجمعات أسرية مماثلة ، تمثل نسخا طبق الأصل من مخيمات الصحراء .

ومفهوم التجمع خاص الى حد ما بالمملكة العربية السعودية ، غير أنه فى كافة أرجاء العالم العربى ترتبط العائلات الكبيرة برباط الولاء والإلتزام المتبادل . فمناسبات الأفراح والإنجاب ، والمرض والموت تجمع الأسرة معا . وفيما بين ذلك يتزاور أعضاء الأسرة ويشتركون فى أعمال تجارية أو مهن مشتركة ، وينقلون الأموال من الموسرين الى المعسرين ، ويرتبطون معا بهيئات سياسية واحدة ، ويربطون أطفالهم فى زيجات مرتبة من شأنها إستمرار حجم وقوة العائلة .

وكانت الأسر فى شبه الجزيرة العربية تسعى الى تحقيق مزيد من الحماية بالإنضمام فى عشائر تتوحد بدورها فى قبائل تتشكل من خلال روابط الدم المشترك*. ورغم أهميتها فى توسيع دائرة التزاوج ، فان الوظيفة النهائية للقبيلة كانت تماثل مهمة العائلة - وهى توفير الحماية الضرورية التى يحتاجها الأعضاء . وكان البقاء ، بمفهومه الحرفى ، يعتمد على القبيلة لأنه لم يكن هناك هيكل سياسى أو سلطة سياسية قادرة على فرض النظام خارج نطاق القبيلة . وفى الصحراء كان كل رجل وجماعته يقف فى مواجهة العالم بأسره .

ونظراً لأن كل أوجه الحياة فى الصحراء كانت تدور حول حماية العائلة والقبيلة ، فإن البدو وضعوا ضوابط إجتماعية متشابكة لجعل الحياة فى الصحراء محتملة . وكانت تبدأ بالأخذ بالثار وتنتهى بحسن الضيافة .

وكانت كل جماعة فى الصحراء بمثابة صائد وفريسة فى نفس الوقت . ولم تكن هناك سوى النباتات ، والمياه والماشية . وكانت القبائل تحمى المراعى والآبار التى كان يتعين عليها الدفاع عنها بحياتها لأنها كانت فى واقع الأمر هى الحياة ذاتها . وكانت إبلهم ، وأغنامهم ، وماعزهم هدفاً للغارات الخاطفة للقبائل المتنافسة التى تهدد أمنها خوفا من الجوع .

(*) كانت القبيلة كلها ، حتى وإن كان عددها بالآلاف ، تعتبر نفسها من نسل جد واحد .

وكان السبيل الوحيد للبقاء هو « جعل الآخرين يعرفون أنهم اذا إعتدوا على أى من ممتلكاتك فإنك سوف تجعلهم يدفعون الثمن غاليا . . . وكان عليك أن تؤكد أنه اذا اعتدى عليك أى شخص وبأية طريقة حتى وإن كانت صغيرة - فإنك سوف تنزل به العقاب على نحو يبلغ كل العائلات أو العشائر أو القبائل الأخرى المحيطة بأن ذلك هو ما يحدث اذا حاول أى شخص العبث معى . . . إننى المدافع عن نفسى وأنا على حق »*.

وكان أمن الجماعة يعتمد على عدد أفرادها . وذلك على وجه التحديد هو السبب فى أن إنجاب الولد كان يثير البهجة فى العائلة البدوية فى حين أن إنجاب البنت كان يعنى مجرد فم آخر يطلب الطعام حيث تتزوج وتنجب أولاداً لعائلة زوجها .

وهو أيضا سبب الرغبة فى زواج أبناء الأعمام لكى تبقى الذرية داخل جماعة الأقوياء ، فان فقد عضو واحد فقط كان يضعف الجماعة كلها . ومن ثم ، فان الموت على يد قبيلة منافسة كان يؤثر على كل فرد من أقارب الرجل الميت . ويقتل عضو من أعضاء الجماعة المغيرة كان يمكن أن تتساوى الأعداد ويتم تعويض الضعف . وهكذا فإن صيحة الأخذ بالثار بأن « الدماء تطالب بالدماء » كانت تدعو كل عضو ذكر من أقارب الضحايا للأخذ بالثار . وعاما بعد عام وجيلا تلو جيل انتقلت عادة الأخذ بالثار ولم يكن الزمن يعنى شيئا ، مثلما يتضح من أمر الشيخ الذى كان يتفاخر بأنه ثار لإهانة بسيطة لحقت بقبيلته منذ أربعين عاما خلت . وبدلا من التهانى ، كان يوبخ بأنه : « تسرع فى التصرف » .

وللأخذ بالثار جانبه النفسى والعملى أيضا ، لأنه أحد مستويات التعبير عن الشرف والكرامة . والشرف هو القوة الدافعة للنفسية العربية . إنه سيد يتشامخ أمام أتباعه بسيف عريض يسمى العار . والشرف ، اذا أمكن تحديد معناه بالمفهوم الغربى ، يعنى إحترام الذات الذى لا ينبع من سلوك الفرد وإنما من الاستحسان الذى ينتزعه من نظرائه . والرغبة فى الاحترام عاطفة إنسانية أساسية تصيب كافة الثقافات . ويتمثل الإختلاف بين كثير من المجتمعات والمجتمع العربى فى مدى الشعور بالحاجة لهذا الاستحسان وفى مدى السعى اليه . وفى الثقافة العربية ، يضفى إحترام الذات الذى يتجلى فى الكرامة الشخصية قيمة على الحياة . والعار ، على الجانب الآخر ، يشبه العيش ميتا . ونظرا لأن مثل هذه الحياة تكون غير محتملة لمن يكابدها ، فإن الأمر يتطلب الثار للكرامة والشرف . ولذلك فإنه فى الثقافة العربية تقف الكرامة دائما ضد النزعة الدفاعية مما يخلق داخل العرب وفيما بينهم درجة من التوتر المستمر .

وفى الجزيرة العربية القديمة ، كان مفهوم الشرف يفرض بعض النظام بين القبائل المتنافسة . فلو كان إقتحام مخيم منافس يتم لمجرد السرقة ، لكانت القبائل الأضعف التى تنتزع منها القبائل الأقوى ماشيتها ، قد اختفت فى الحال . ولكن الاغارة كانت تحمل معها مجموعة من قواعد ومبادىء الشرف . فكانت الغارات تحدث فقط بين القبائل أو قطاعات من القبائل ذات المستوى

(*) توماس ل . فريدمان ، « من بيروت الى القدس » (نيويورك ١٩٨٩) ص ٨٨ .

المتماثل أو المتقارب من حيث الوضع الاجتماعى والقوة . ووفقا لمبادىء الشرف البدوى ، فإن القبيلة التى تعتبر ذات نبل وشرف فى نطاق التسلسل الهرمى للصحراء لا تغير قط على قبيلة أقل منها كثيراً فى المستوى ، كما لا تهاجم قبيلة كبيرة قبيلة أصغر ، إن القيام بذلك يعتبر عاراً تفضل عليه القبيلة النبيلة أن تموت جوعا ، إن البدوى يعنى ما ذكره المثل العربى بأن « من الأفضل الموت بشرف على الحياة فى مهانة » .

وبالمفهوم العصرى ، فان البدو لا يقومون بعمليات التهريب عبر حدود الأردن الطويلة والمفتوحة لسبب بسيط ومعقد فى نفس الوقت ويقول كابتن زاتى الذى هجر الصحراء للعمل فى سلاح الحدود ، « هناك خوف كبير من إيقافهم والزج بهم فى السجن . ونحن نعتز كثيرا بكرامتنا ولا يمكننا تحمل المهانة ، والسجن هو المهانة بعينها » *

وقد تشابكت شتى أنواع الكرامة والشرف بدءا من الشجاعة فى ميدان المعركة الى إكرام الضيوف الى العفاف الجنسى لشقيقاته وبناته لتحيط بشخص البدوى وكأنها سترة مدرعة . وكان أدنى شق فى هذا الدرع يهدد بتمزقه ، مما يكشف الفرد ويعرضه لأكبر الأخطار ـ وهو العار . وكانت قيم المجتمع القبلى تتطلب بأقوى العبارات تجنب كل ما يجلب العار على الفرد . واذا حدث ، فانه ينبغى إخفاؤه ، واذا إنكشف فإنه يتعين الأخذ بالثأر . وفى نهاية الأمر ، كان يتعين إسترداد الكرامة والشرف بأى ثمن .

واذا كان الشرف مسألة فردية ، فإنه كان مسألة جماعية أيضا . فأى عار يلحق بأى عضو فى العائلة يعرض الجميع للعار . ذلك أن البدوى كان يرى الحياة وكأنها قافلة تحمل العائلة فوق كثبان مجتمع الصحراء المولع بالقتال . وطالما أن كافة أعضاء العائلة يطيعون قواعد السلوك ، فان القافلة المتماسكة كانت تساعدهم على البقاء . غير أنه اذا سمح أحد أعضاء لجمله أن يشرد ، فان القافلة سوف تتفرق وتنجرف العائلة فى الصحراء . ولذلك كان على الذكور البالغين فى العائلة التأكد من عدم إرتكاب أى عضو فعلا يجلب الكارثة على الجميع . وكان الدفاع عن الشرف الجماعى مسئولية الرجال فقط . وكان يمكن لأية إمرأة أن تعرض شرف العائلة للخطر إذا إرتكبت فعلا مشينا ، ولكن كان يقع على عاتق الرجال إسترداد الشرف حتى وإن كان ذلك يعنى قتل المرأة الآثمة .

وليس إسترداد الشرف فى المجتمع العربى بالضرورة عملا دمويا أو قبيحاً . إذ يمكن ألا يكون أكثر من إعادة تنظيم التسلسل الهرمى المضطرب فى أحد المكاتب أو يمكن أن يعنى مجرد لعبة بألقاب لا معنى لها يمنحها كيان سياسى ، وهو عمل ليس غير معروف فى الغرب . كما يمكن أن يحمل مظهر الرياضة . وقد كنت فى زيارة قرية صغيرة مبنية من حجر الرخام الأصفر فوق منحدر شديد فى الجبال الجرداء التى تقع شمال وسط اليمن . عبر الوادى كانت هناك قرية مماثلة تقريبا

(*) نيويورك تايمز ، ١٣ ديسمبر ١٩٩٠ .

منشأة على منحدر منحنى . وبينما كنت أتسلق الدرجات الضيقة الملتوية التى تربط المنازل الواحد بالآخر ، قام ثلاثة من رجال القرية بمهمة المرشد من تلقاء أنفسهم وقادونى من خلال أسراب الأطفال وهم يقولون « من هنا ، من هنا » .

وعندما وصلت الى القمة ، شاهدت قمة الجبل مسطحة على نحو يكفى لإقامة منطقة مفتوحة بمساحة أربعين فى مائة ياردة . وفى وسطها كان هناك مدفعان عتيقان من مخلفات حرب مصر فى اليمن فى بداية الستينيات . وشعرت أنهما هناك يرمزان الى شىء أكثر من مجرد قطع موجودة فى متحف مقام فى الهواء الطلق . ودفعنى ذلك الى التساؤل عما اذا كانت هناك خلافات مع القرية المواجهة . وأومأ الجميع ، شبابا وكبارا ، مؤكدين الاجابة بنعم .

وتحدث أكبر الرجال سنا قائلا « هناك دائما مشاكل مع أهل هذه القرية . إنهم يرعون ماشيتهم فى هذا الجانب من الوادى كما أن التجار يغشون تجارتهم » . وعند هذه النقطة وجهت سؤالا خطأ ، هو : « هل تطلقون هذه المدافع » ؟ وبحركة سريعا أشار متحدث الجماعة الى أحد الصبية ليذهب الى كوخ مبنى من الحجارة يقع خلفنا مباشرة . وأسرع الصبى ، الذى كان فى العاشرة من عمره ، وفى غضون ثوانى جاء حاملا قذيفة مدفعية ثقيلة قديمة . ثم دفع إثنين من رفاقه الى الأمام . وحمل أحدهما القذيفة وفتح الآخر ماسورة المدفع ووضع فيها القذيفة . وإنطلق المدفع قاذفا صاروخه نحو منطقة مفتوحة تقع مباشرة أسفل القرية الأخرى . وكانت إبتسامة عريضة عن أسنان مضيفى الملوثة بالقات ثم إستدار نحوى قائلا « نعم ، نحن نحارب فى بعض الأحيان . ويجب أن نحافظ على كرامة قريتنا » .

إن الصراع من أجل الكرامة يدور على كافة مستويات الحياة فى المجتمع العربى ـ بين من ينجح فى تجنب تلويث يديه بالعمل البدوى ، والذى يحقق أرباحا من التجارة ، والذى يحصل على مساندة مسئول حكومى . والكل يتطلع للمكانة الرفيعة التى يستمد منها تقديره للذات .

وتنتقل مشاعر الكرامة من الفرد الى الأمة الى العلاقات بين الدول ثم تنتقل مرة أخرى فى معركة دائمة للعربى لإنزال الهزيمة بعربى آخر . ويؤدى ذلك الصراع على الكرامة الى تفتيت الشعوب وتقسيم الدول ، فالقبائل فى جنوبى العراق تشعر أنها أسمى من الناس العاديين ، وموظفو الحكومة يتعالون على الأشخاص الذين من المفترض أنهم يخدمونهم ، والفلسطينى الطريد يضع نفسه فى مرتبة أعلى من فلسطينى طريد آخر . وعندما وجه أنور السادات النقد لسلفه جمال عبد الناصر كان نقده يدور حول الكرامة وليس السياسة . إذ قال : « إن أعضاء لجنة تصفية الاقطاع قد جلبوا الخراب على الحياة فى كل مكان فى مصر ، وكانت أخطر وأكبر جريمة إرتكبوها هى تحطيم كرامة الانسان ـ وهو أمر لا يمكن لشعبنا أن يقبله ، إن الشعب المصرى قد يتحمل الفقر والحرمان ، حتى الجوع ، ولكنه لا يمكن أن يقبل أن تجرح كرامته » * . وعبد الناصر نفسه ، فى محاولة مستميتة لحفظ كرامة مصر ، حجب عن حليفه الملك حسين لمدة ست وثلاثين ساعة حقيقة

(*) أنور السادات ، البحث عن الذات : سيرة ذاتية (نيويورك ، ١٩٧٨) ص ١٦٥ .

ان اسرائيل قد قضت على قواته الجوية خلال الساعات الأولى من حرب عام ١٩٦٧ . وفى داخل ما يزعم العرب أنها أمة عربية واحدة ، يصر اللبنانيون على أنهم أسمى من الفلسطينيين ، ويزعم الفلسطينيون تفوقهم على السوريين ، ويبدى السوريون غطرسة إزاء السعوديين ، فى حين يتشكك المصريون حتى فيما اذا كانوا عربا لأنهم يعتبرون أنفسهم أسمى من أى شخص آخر .

وحتى كرم الضيافة المشهور به العرب يعد أيضا ممارسة للكرامة ، فالمضيف عندما يسرف فى الاهتمام بضيفه فإنه بذلك يعتبر نفسه سيد الموقف . وفى حين أن الشرف يصبح حقا للضيف فإنه يعود أكثر على المضيف . وليس من المعروف الأصل المحدد لكرم ضيافة العرب المشهور ولكن ربما يرجع تطوره الى الحاجة الماسة ، ففى أرض الصحراء القاحلة ، فإن أى رجل يقتفى أثر جمل شارد كان يمكن أن ينفصل بسهولة عن دائرة حماية أقاربه وقبيلته ، وإذا لم تقتله الصحراء نفسها ، فإن أول جماعة يمر بها قد تقوم بذلك . وفى ظل تقاليد القبائل المقبولة بصورة عامة عن كرم الضيافة ، فإن أى عابر سبيل يفد إلى المخيم كان يدخله كضيف مكرم . وكانت تلك القاعدة تطبق على كل شخص ، بما فى ذلك إبن عدو لدود أو هدف ثأر مرير . غير أن مجرد الحماية لم تكن كافية فقد كان الكرم فى تقديم الطعام أمراً مطلوبا أيضا . ولم يكن الفقر ، حتى وإن كان مدقعا ، يعفى الشخص من القيام بواجب الضيافة ـ بإيواء وإطعام الضيف لمدة ثلاثة أيام .

وقد كان كرم الضيافة يدعم من قوة الجماعة ، وذلك لأن السلوك الكريم كان يكفل للمانح نصيرا وحليفا سياسيا محتملا فى المنازعات القبلية . ومثل قيم البدو الأخرى ، فان كرم الضيافة كان يخدم فى النهاية الهدف الكبير للحياة البدوية ـ وهو تقوية شوكة الجماعة . ورغم أن حتمية حماية النفس قد تلاشت ، فإن كرم الضيافة لا يزال أحد السمات المهيمنة على الثقافة العربية . فقبيل هجوم القوات البرية مباشرة على الخطوط العراقية فى حرب الخليج عام ١٩٩١ ، رفض المسئولون العسكريون السعوديون السماح لمحللى المخابرات الأمريكية بإستجواب مئات من الأسرى العراقيين لأنهم « ضيوف » على السعودية .

وقد أضيف الى الثأر ـ وهو رادع للقتل دون تمييز ـ وكرم الضيافة ـ وهو ضمان لأمن الشخص الذى ينفصل عن جماعته ـ القيد الثالث على الصراع الدائم فى الصحراء : وهو الوساطة .

ففى المنازعات والصراعات الدامية ، كان الطرفان يلجآن الى وسيط ، وهو شخص له مكانة ويتمتع بالنفوذ . وكانت مهمته هى إستقبال كلا الجماعتين فى خيمته لايجاد إتفاق متبادل ومقبول أو عقد هدنة تستمر الى أن يخرقها جانب أو آخر . كما كانت مهمة الوسيط إتاحة فصل الأطراف المتقاتلة بدون شعور بالعار الذى ينجم عن إظهار الضعف أو التسليم بالهزيمة . ولنفس السبب ، فان فشل التسوية لم يكن يمثل عاراً لأى من الطرفين وإنما يتيح فرصة جديدة للوساطة .

ولاتزال الوساطة من تقاليد المحترمة بين العرب . ففى الازمة تلو الازمة ، يقوم الدبلوماسيون العرب بجولات مكوكية بين العواصم أو الرؤساء ، ويجتمع الحكام العسكريون والملوك فى مؤتمرات القمة للتفاوض بشأن إيجاد « حل عربى » للنزاعات التى تعصف بعالم السياسة العربية . وغالبا ما ينجحون فى تحقيق نوع من الإجماع الذى يستمر بضعة أسابيع ، أو بضعة أشهر ، أو حتى بضعة أعوام . وعندما ينهار ذلك ، فان نفس الآليات تبدأ فى العمل مرة أخري . وحتى اذا فشلت

أطراف النزاع فى الاتفاق على أى نقطة فى نزاعها ، فان الأبواب تظل مفتوحة لمحاولة أخرى . والعرب ، فى محاولتهم تحقيق وحدة غالية ولكنها محيرة ، يسعون دائما الى الاجماع . وفى حالة عدم وجوده ، فانهم يظلون يلتقون ويصدرون بيانا تلو الآخر يشيدون فيه بأبلغ العبارات العربية بسعيهم الناجح ، وليس بتحقيق موقف عربى موحد . واذا لزم الأمر ، فانه يتم ببساطة تجنب جوانب الخلاف حتى يتسنى تحقيق درجة ما من الوحدة . ففى نهاية شهر مارس عام ١٩٩١ ، وعقب إرغام صدام حسين بواسطة إئتلاف ضم غالبية الدول العربية على الانسحاب من الكويت ، وافق مجلس الجامعة العربية فى القاهرة مسبقا على عدم الاشارة الى حرب الخليج من أجل الوحدة العربية .

وللأسرة والقبيلة ، والجزاء والثأر ، أثرها على الدول القومية فى العالم العربى ، فالقومية سواء كانت تعتبر أمراً طيباً أو سيئا ، ليس لها وجود ، بمعنى أن الفرد يشعر بولاء قوى أساسا تجاه بلاده . كما أن التنظيمات السياسية التى تضطلع بالسلطة السياسية الحقيقية لا تعبر حدود العائلة أو القبيلة من أجل إعتاق فلسفة سياسية أوسع أو مصلحة عامة . والكلمة العربية التى تعبر عن المشاعر التى تربط العشيرة تحمل نفس معنى كلمة قومية باللغة الانجليزية . وتكمن جوانب ضعف الدول العربية بصفة عامة فى أنها لا تزال منقسمة بشكل عميق الى عائلات وعشائر وقبائل تحمى مصالحها ، الكبيرة منها والصغيرة ، كما لو كان مجرد بقائها يعتمد عليها . وكما هو الحال فى بيئة الحياة البدوية القاسية ، فإن العائلة تعنى الأمان ، والعالم الخارجى يعنى الصراع . وقبيلة البدوى ، سواء كانت قبيلة تقوم على أساس القرابة أو المذهب الدينى أو المنطقة ، هى التى تسطر برنامج السياسى .

ومن ثم ، فان السياسة فى العالم العربى هى فى أغلب الأحيان تنافس بين العائلات والقبائل من أجل السيادة وصراع تضيع فيه الأهداف العليا فى كثير من الأحيان .

غير أنه فى حين أن العرب يشنون دائما حربا ضد القوى التى تفرقهم بشدة ، فانهم يضعون فوق مستوى المعركة ، الرموز العاطفية العظيمة لوحدتهم ـ وهى اللغة ثم الدين . وكلاهما يضرب بجذوره فى ماضى البدو .

ويسمى البدو أنفسهم «أبناء العربية » ، أى أفضل من يستخدمون اللغة فى العالم العربى . وفى فجر التاريخ ، فان الأفراد غير العاديين الذين كانوا يمتلكون موهبة نظم الكلمات بطريقة جعلت عملية الاتصال ترتفع الى درجة الفن قد ظهروا على نحو يتعذر تفسيره فى الثقافة البدوية . فكان الشاعر العربى الأمى يجمع الكلمات وكأنها جواهر ثمينة وينظمها فى قصائد رائعة الجمال . وكان آخرون وهبهم الله ذاكرة قوية يحفظون الآلاف من هذه القصائد فى عقولهم . وحول النيران المتفرقة فى المخيمات كانوا ينشدون البيت تلو الآخر أمام المستمعين المنتشين . وكان آخرون يتبارون فى إظهار قدرتهم الخارقة على الدخول فى مساجلات طويلة بالشعر . ومع مرور الوقت ، تمكن رعاة الإبل الأميون ، الذين يعيشون فى قبائل متفرقة ويفتقرون الى الهياكل الاقتصادية والسياسية الأولية ، من تطوير لغة ثرية فى التركيب والتعبير الى أقصى درجة ممكنة .

وتعقد المملكة العربية السعودية فى كل عام مسابقة شعرية على شرف الملك الراحل

فيصل . فيقف رجال أشداء زادتهم الصحراء صلابة بأثوابهم البيضاء وغترهم التقليدية أمام كاميرات التليفزيون . وبأشعارهم التى يلقونها وعيونهم مغلقة ، ينقلون أنفسهم وجمهور مستمعيهم الى مستوى فنى لا يضاهيه أى شيء آخر فى الثقافة العربية . وطوال أربع سنوات من إقامتى فى السعودية لم أتخلف قط عن أية مسابقة شعرية ، رغم أن معرفتى بالعربية لم تكن تمكننى من إدراك المعانى الدقيقة التى تكمن فى التلاعب بالكلمات . وكان مجرد الاستماع الى الأصوات القوية ، الواحد تلو الآخر ، كافيا بالنسبة لى .

وقد كان الشاعر بمثابة لسان وسيف قبيلته وكان لكل قبيلة شعراؤها ، الذين تطير كلماتهم غير المكتوبة عبر الصحراء بأسرع من السهم . وكان الهجاء بمثابة سلاح فى ترسانة أسلحة القبيلة ، شأنه شأن القوس . وكان ذلك النوع من الشعر شاهدا على إيمان البدوى بقوة الكلمة ، والايمان الراسخ بأن الإهانة التى تترك أثرا تسبب أضرارا بالغة . ومن ثم فانه كلما كان الهجاء شديدا ، زاد تأثيره فى الحط من قدر العدو . ولم يكن من الضرورى أن يتضمن الهجاء أى قدر من الحقيقة ، وإنما كان يتعين أن يأخذ فقط الشكل الشعرى السليم . وهكذا فإن الهجاء الموجه ضد أى شخص كان يردد الصفات التى تقلل من قدر البدوى ـ مثل الجبن ، والجشع وإختلاط الدم . وبالنسبة للجماعة كان الشاعر يهجو ضعفها ، ويستنكر السلوك الجنسى لنسائها ، وضعف قدرة شعرائها وخطبائها ، ويتهمها بعادات بغيضة مثل أكل لحم الكلاب . وكلما كان الهجاء مبالغا فيه كان أكثر تأثيرا .

ورغم تخفيف حدة الهجاء ، فانه لا يزال موجودا . ففى أواخر السبعينيات ، انتهت مشاحنة نشبت بين إثنين من القادة العسكريين السعوديين عندما وجه أحد المتنازعين إهانة بالغة للآخر بهجاء نوعية شعره . وقد تفاخر بذكاء ، غازى القصيبى ، وزير الصحة السابق وأشهر شاعر سعودى فى العصر الحديث ، فى إحدى قصائده ، قائلا « اللهم إحمنى من شر أعدائى الذين يعانون من هباتك لى ويجعلوننى أعانى منهم * » .

وبالنسبة للعرب جميعا تمثل اللغة العربية ـ التى تصل الى الكمال فى القرآن ـ المثل الأعلى للذات العليا . ويستخدم الكتاب والخطباء السياسيون العرب الى أقصى حد كل الثروة اللغوية الواسعة للغة العربية التى تشمل التأكيد ، والمبالغة ، والمجاز المتقن . والنتيجة هى أن أى عمود فى صحيفة يومية أو كلمة تلقى فى حفل افتتاح محطة مياه فى إحدى القرى يمكن أن تسكر المستمعين . وكما يمكن للغربيين الإستمتاع بالأوبرا الايطالية دون معرفة كلمة إيطالية واحدة ، فإن المستمعين العرب يمكن أن يتأثروا بالطريقة التى تلقى بها الكلمة أكثر من تأثرهم بما تحتويه . وقد كانت أغانى المطربة المصرية الشهيرة أم كلثوم التى كانت تستغرق ساعتين بمثابة تلاعب بالكلمات أكثر من الموسيقى . وتلهب الخطب الطويلة التى يلقيها الساسة العرب المشاعر بلغتها القوية الجميلة ، رغم أنها لا تتضمن بالضرورة حججا منطقية . وذات مرة قال أحد اللبنانيين عن سياسى

(*) غازى القصيبى ، مقالات عربية (لندن ، ١٩٨٢)

عربى مشهور « لقد إستمعت إليه أمس وهو يتحدث لمدة ساعتين بدون توقف وبدون النظر الى ورق مكتوب . لقد كان رائعا » . وبالنسبة لما قاله ، قال : « لا أذكر » .

وقد كان شعر البدوى يعبر عن الشجاعة ويحفل بامجاد الغزوات التى تشن على الجماعات المنافسة لنهب قطعان الماشية والمياه التى تعد عصب الحياة فى الصحراء . ومن ذلك قول أحدهم ** :

ولم يزد عن حوضه بسنانه يهدم .:. ومن لا يظلم الناس يظلم إن اللغة ـ العاطفية ، والقوية ، والفنية ـ قد أعطت البدوى إحساسا بالهوية ودرجة من الوحدة المفقودة فى بيئة يعد فيها البقاء هو الأمر الحتمى الوحيد . ووفر الدين له الحماية من الأرواح الشريرة والحفاظ على قيمه .

ومع بداية العصر المسيحى وربما قبل ذلك بكثير ، كان البدو يمثلون أقلية فى شبه الجزيرة العربية ، وكان الغالبية يزرعون الواحات ، ويفلحون المنحدرات التى تروى على مياه الأمطار فى الجبال الجنوبية الشرقية أو يجوبون البقاع للتجارة فى المدن المتناثرة أو فى مركز التجارة الرئيسى فى شبه الجزيرة ـ مكة . وتقع مكة على بعد خمسين ميلا الى الداخل من البحر الأحمر ، عند مفترق طرق التجارة التى تحمل التوابل والبخور من اليمن الى الموانىء البحرية على البحر المتوسط شمالا . ونظرا لوقوع مكة على مشارف العالم المتحضر الذى كانت تسيطر عليه الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية ، فقد كانت تتمتع بازدهار إقتصادى نتيجة لزيادة القوافل التى تنقل البضائع من الجنوب الى الشمال . وأقام تجار مكة الأسواق التجارية ونظموا المزيد من القوافل ، وراحوا يكدسون الأموال مع زيادة التجارة . وكانت النتائج إجتماعية وإقتصادية كذلك . ونقلت التغيرات الجذرية مكة من مجتمع حضرى . ومع مرور الزمن ، تضاءلت الولاءات التقليدية وتدهورت القيم القديمة . وأفسحت الثقافة القبلية ـ وهى أهم عناصر البقاء فى الصحراء ـ المجال لظهور مجتمع يشجع المبادرة الفريدة والثراء .

ونظرا لابتعاد البدو عن التأثيرات الجديدة التى كانت تحدث فى مكة والمناطق الأخرى المستقرة التى كانت تمر بنفس التغيرات ، فقد ظلوا يتشبثون بالقيم الموقرة لحياة الصحراء ـ وهى الشرف ، والشجاعة ، وكرم الضيافة ، وتقديس الأسرة والقبيلة . وكوثنيين ، فانهم كانوا يعبدون آلهة مختلفة تتمثل فى الحجارة والعناصر الأخرى للبيئة ، وكانوا يعيشون فى رعب من عالم الأرواح أو الجن المختبئة فى كل مكان والمستعدة لمهاجمة سكان الصحراء الذين لا حول لهم ولا قوة . ومع عدم وجود كهانة دينية أو أية أشكال أخرى لدين منظم ، فإن الطقوس البدوية الوحيدة كانت تتمثل فى التوجه الى مكة من حين لآخر لأداء مناسك حج غير محدد المعالم عند مبنى مربع الشكل بدون نوافذ يعرف باسم الكعبة . وكانت الكعبة تحت وصاية القبيلة الحاكمة لمكة ـ وهى قريش .

(*) بيتر مانسفيلد ، العرب (ميدلسكس ، انجلترا ، ١٩٨٥) ص ٤٩٣ .

(**) الشاعر زهير بن أبى سلمى ، ورد فى طبعة برنارد لويس « الاسلام والعالم العربى : الايمان والشعب والثقافة » (نيويورك ١٩٧٦) ص ٢٠٢ .

وكانت قريش ، وهى قبيلة كبيرة ترتبط عصبة من العائلات التى تعيش على التجارة ، تجسد الهوة بين النظام الأخلاقى للبدو والمادية الجديدة التى سيطرت على الطبقة الحاكمة . وكان من حولها بركان من القتال بين العشائر ، يهدد بتمزيق النظام القبلى القديم الذى كان يربط المجتمع المتنافس والعنيد بنوع من النظام . ولما كانت كل عشيرة تضرب الأخرى ، فان الحياة أصبحت دورة من الهجوم والانتقام .

وكانت المدينة والصحراء تواجه كل منهما الأخرى على نحو كان من المتعذر إيجاد حل له .

وفى نحو عام ١٩٥٠ ، تحدث الملك عبد الله عاهل الأردن عن نفس القضايا التى كانت تقسم مجتمع شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع . إذ قال « إن سكان المدن يمثلون جماعة من هؤلاء الذين كانوا يتحدثون العربية منذ ظهور العرب فى الماضى السحيق . بيد أنهم فقدوا الإحساس العربى الحقيقى وأصبحوا مشوشين وفاقدى الإحساس ، متعطشين مثل الآخرين لتحقيق الكسب الذاتى والمبالغة فى تعظيم الذات * » .

ووسط ذلك التمزق الاجتماعى ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم(ﷺ) فى عام ٥٧٠ أو ٥٧١ ميلادية . وقد توفى أبوه وهو فى طريقه مع قافلة للتجارة وذلك قبل مولده . وتوفيت أمه بعد ذلك بست سنوات ، تاركة محمداً (ﷺ) يتيما . وبعد عامين قضاهما مع جده ، إنتقل للعيش فى كنف عمه أبى طالب الذى كان ينتمى مثل محمداً (ﷺ) ووالده من قبله الى جماعة بنى هاشم ، وهى عشيرة فقيرة لا حول لها ولا قوة داخل قبيلة قريش . وفى مستهل شبابه ، تحدد مصير محمد (ﷺ) كسليل نسب شريف لا يملك مالا ولا قوة ، عندما تولى قيادة قافلة من الإبل . غير أنه ، سواء بضربة حظ أو بتدخل إلهى ، تزوج من الأرملة التى تمتلك هذه الإبل .

وبتحرره من الحاجة للسعى وراء كسب قوته اليومى ، بدأ محمد ﷺ يعتكف فى الصحراء لفترات طويلة للتأمل فى آثام مجتمع مكة . وفى عام ٦١٠ ، عندما كان يقترب من الأربعين سمع محمد ﷺ نداء وسط الصحراء المقفرة أثار خوفه واضطرابه . ووفقا لسيرة محمد ﷺ التقليدية ، فان الملك جبريل هبط عليه فى احدى ليالى شهر رمضان عندما كان نائما بمفرده فى غار حراء : قال الملك كلمة واحدة « إقرأ » . وتردد محمد ﷺ . وأمره الملك ثلاث مرات ، « إقرأ » . وتساءل محمد ﷺ مرتعدا « ماذا أقرأ ؟ » . قال الملك « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق » . وهبط محمد ﷺ من الجبل حاملا معه أولى رسالات الوحى . وبهذا الوحى وما تبعه ، بدأ يدعو أهل مكة الى ترك عبادة الأوثان والايمان بالله الواحد الأحد ـ القوى ، المهيمن ، الدائم ، خالق الكون .

(*) الملك عبد الله عاهل الأردن ، تكملة مذكراتى (لندن ، ١٩٧٨) ص ٣ .

وكان محمد ﷺ ، وهو نتاج المدينة ، يوجه دعوته للمدينة . غير أن رسالته كانت تتحدث عن بساطة الحياة البدوية . وتذكر أن هناك جنة ونارا . وهناك ثواب عظيم لمن يطيعون أوامر الله ، وعقاب شديد ينتظر من يعصونها . وكسب محمد ﷺ بعض المؤمنين ، لأنه شأنه شأن كل داعية ناجح ، كان يعبر عن هموم عصره . ونبذ محمد ﷺ حياة الثراء واجتذب اليه الفقراء . وجمع حوله الشباب الذين لم يكن لهم مكان فى مجالس السلطة . وخلص البدو من الجن المخيفين . وأعاد أخلاقيات القبيلة . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (الآية ٣٦) من سورة النساء .

غير أنه باجتذاب الطبقات الدنيا اليه ، كان محمد ﷺ يشكل تهديدا للأغنياء . وانقسمت القبائل أيضا ـ فقد ظل الذين كانوا جزءا من الطبقة الحاكمة وثنيين بينما أصبح العديد ممن كانوا خارج هيكل السلطة مسلمين . ولم تكن قريش إستثناء . وكانت للجماعة القرشية ، السيطرة على قوافل التجارة والتى تضم سادة المدينة ، أسباب خاصة للوقوف أمام رسالة محمد ﷺ . ذلك اليتيم الفقير الوحيد لم يكن يعرض للخطر حجاج الكعبة الوثنيين فحسب ، وإنما كان يعرض للخطر أيضا النظام الاقتصادى بأسره بنشر مبادىء خطيرة مثل حق الفقير فى المطالبة بنصيب من ثروة الغنى . وفى النهاية ، فانه باستبدال الدم بالايمان كرابطة للمجتمع ، كان محمد (ﷺ) يقوض هيكل العشيرة والقبيلة الذى كانت تقوم عليه هيبة وثروة قريش . وشاهدت قريش النذر . فاذا انتصرت مبادىء الاسلام الثورية ، فان النبى (ﷺ) سوف يتولى السلطة فى مكة .

وأعلن القرشيون الوثنيون الحرب على محمد (ﷺ) وجماعته الصغيرة من المؤمنين . وسارع الشعراء بالهجوم اللفظى على المسلمين . وألقى خدمهم القاذورات على أعتاب دور أتباع محمد (ﷺ) وضربوهم فى الطرقات . وعندما لم يحقق كل ذلك مرادهم ، فرضت قريش حصارا اقتصاديا عليهم . وفى عام ٦٢٢ ، غادر محمد (ﷺ) وأتباعه مكة الى المدينة . وذلك معروف باسم الهجرة . وحول الانتقال الى المدينة محمداً من شخص يدعو الى دين جديد الى حاكم يتمتع بسلطة سياسية وعسكرية .

وفى نهاية عام ٦٢٣ ، قاد محمد (ﷺ (جماعة من ٣٠٥ رجال وسبعين جملا وجوادين وإعترضوا قافلة لبنى أمية ، وهى أسرة مكية قوية من قبيلة قريش . ورد المكيون بالهجوم بقوة قوامها ثمانمائة رجل مسلح . وتصدى المسلمون للهجوم مرددين « الله أكبر » وإستولوا على ١١٥ جملا وأسروا أغنى رجال قريش . وغرست هذه المعركة الأسطورية المعروفة باسم بدر فى نفوس المسلمين الايمان بأن الله هو الذى حقق لهم النصر . وعلى مدى السنوات الأربع التالية تمكن محمد (ﷺ) من خلال إقامة تحالفات مع قبائل البدو المحيطة بالمدينة ونجاحه المتكرر فى صد هجوم المكيين من تقوية شوكة مجتمعه فى المدينة .

غير أنه فى عام ٦٢٧ ، واجه مسلمو المدينة مرة أخرى قوة المكيين الوثنيين . وإستعداداً لمواجهة الهجوم ، أمر محمد (ﷺ) بحفر خندق واسع حول الجانب الأقل حماية فى المدينة . وظل المكيون على مدى أسبوعين يحاصرون المدينة . ثم إنسحبوا زاعمين أن حفر الخندق كان

أسلوبا لا يلجأ اليه أى عربى شريف . غير أنه لم يكن بمقدور القرشيين الوثنيين أن يحطوا من قدر محمد (ﷺ) ودينه الوحيد .

وفى شهر يناير عام ٦٣٠ ، فتح محمد (ﷺ) ـ بعشرة آلاف من أتباعه ـ مكة مسقط رأسه فى إنتصار عظيم . وإستسلمت قريش مدركة عدم جدوى أية مقاومة . ودخل راعى الإبل المتواضع الكعبة ، التى يؤمن المسلمون أن ابراهيم قد بناها . وبحربته قام بتحطيم الأصنام الواحد تلو الآخر . وأمر بإزالة صور الأنبياء الزائفين التى رسمت على الجدران وذلك باستخدام ماء بئر زمزم ، وهو البئر الذى أنقذ هاجر وولدها اسماعيل من الموت . وبتطهير الكعبة من الوثنية ، قام محمد (ﷺ) أيضا بتطهير مكة . وبهزيمته لقريش إستعاد الكثير من قيم الصحراء وتركها للأجيال التالية التى سوف تعتنق الاسلام والتى تتكون أساسا من العرب .

وقد جعل محمد (ﷺ) الكعبة مركز الاسلام* . ولكنه احتفظ بالمدينة كعاصمته السياسية . وبعد مضى أربعة عشر قرنا لا تزال المدينة تبدو نقطة غير محتملة لإقامة إمبراطورية قوية ، فالمدينة بطرقها السريعة العديدة التى تتجه اليها عبر سهل مسطح شاسع ، والمشغولة دائما بحركة الحجاج الذين يفدون اليها ، والتى يبلغ عدد سكانها ٤١٢٫٠٠٠ نسمة ، تعتبر مدينة معزولة ووحيدة الى حد ما . وتقع المدينة بين مجموعة من القرى المبنية بالطين والجص هى قباء ، وأروه ، وأبيار على وبير توجه ، وتبعد مائة ميل عن شاطىء البحر الأحمر و ٢٥٠ ميلا من ميناء جدة التاريخى و ٥٠٠ ميل من القدس و ٦٠٠ ميل من دمشق ، تقع فى وسط منطقة غير معروفة . غير أن المدينة التى تضم ثانى مقدسات الاسلام ، يرتفع قدرها فوق أى مدينة رئيسية فى العالم العربى . ويقع المسجد النبوى الضخم فى نهاية شارع عريض يمتد الى شارع أبى ذر شمال شرق وسط المدينة . وفى مستهل القرن الحالى ، كان المسجد الذى تعلوه أربع مآذن مختلفة الأنماط و الأطوال يعيد الى الأذهان بشكل أو بآخر صورة المدينة فى عهد محمد (ﷺ) . إذ كان الفناء المستطيل الشكل الذى تعلوه قبتان محاطا بسلسلة من المبانى التى يطوقها سياج مجدد يماثل تماما مدن شبه الجزيرة العربية التقليدية المحاطة بسور من الطين . وعندما استولى آل سعود على المدينة فى أوائل العشرينيات من هذا القرن أصبحت واحدة من علامات تراث الملكية . ومع حلول الخمسينيات ساعدت عائدات البترول المتزايدة على استمرار التجديدات والتوسعات فى المسجد . وفى عام ١٩٨٢ ، عندما تولى الملك فهد الحكم ، أمر باجراء توسعات كبيرة فى المسجد النبوى . وأصبحت هناك أفنية واسعة تحدد الحدود الجديدة للحرم النبوى ورسوم رائعة من الرخام تغطى الأعمدة المزدانة بالأرابيسك الدقيق . ويعد ذلك تعبيراً واضحا عن انتصار الاسلام .

وفى بداية بعثة النبى (ﷺ) ، لم تكن لديه أية مطامح لإقامة دين جديد أو وضع نظام

(*) بالحفاظ على الكعبة كمكان للحج ، حمى محمد (ﷺ) المصالح المادية لهؤلاء الذين يعتمدون على دخله ، ومن ثم ضمن ولاءهم السياسى ، وخاصة القرشيين منهم .

للحكم . ولم يكن يرى فى نفسه سوى رجل عادى إختاره الله لتبليغ أهل مكة بالرسالة التى سوف تنقذهم من غضب الله يوم القيامة . ولكن عندما توفى النبى فى الثامن من شهر يونيو عام ٦٣٢ عن عمر يناهز الستين ، كان قد ذهب الى أبعد من سكان مكة لتبليغ رسالة الله . وباعتبار نفسه التتويج لأنبياء العهد القديم ونبى العهد الجديد عيسى ، أتى محمد (ﷺ) بدين توحيد يحمل مبادىء أخلاقية محددة لمعظم غربى شبه الجزيرة العربية . وقدم للمؤمنين كتابا من الوحى سوف يظل على مر القرون هاديا للفكر ، والايمان ، والسلوك لملايين لا تحصى من البشر ، وأقام فى المدينة مجتمعا جديدا يعد أساسا لدولة منظمة ومسلحة . ظل البدو على ما هم عليه ، غير أنه لأول مرة فى التاريخ ، اصبحت هناك قوة خارج نطاق العائلة لها تأثير على حياتهم .

وقد كان انتصار الاسلام دينيا واجتماعيا أيضا . إذ أن محمداً (ﷺ) لم يعرف الله للبشر فحسب ، وإنما أعاد تحديد العلاقات بين الفرد وغيره من البشر . وبينما جسد الاسلام بعض القيم الأساسية لحياة البدو ، فانه رفض قبلية البدو العنيفة . وباستبدال الفرقة بوحدة العقيدة الدينية ، غرس محمد (ﷺ) مفهوم الأمة ، أمة المؤمنين وهكذا فان الاسلام لم يكن مجرد طاعة الفرد لله وإنما ميثاق يربط كافة المسلمين بعضهم ببعض* . وقد تحدث القرآن عن رابطة الدين كما تحدث الشاعر العربى عن قبيلته . « **إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** » الآية رقم ١٠ فى سورة الحجرات . وهذه الرابطة وهذا الدين هو الذى يضع الأحذية اللامعة الى جانب الصنادل البدائية عله باب المسجد . وبالوقوف جنبا الى جنب فى صف واحد بإتجاه الكعبة للصلاة ، فإن المسلمين العرب يقربون الفوارق بين العائلة ، والعثلة والمدينة والقرية ، والجاهل والمتعلم كى يصبحوا شخصاً واحداً أمام الله .

والاسلام من الناحية الدينية هو الدين الخاتم ، ففى القرآن بلغ محمد (ﷺ) كلمة الله التامة . ولن يأتى بعد ذلك أنبياء ولن ينزل بعد ذلك الوحى . غير أن الاسلام كان أيضا بداية جديدة ـ وأساسا لامبراطورية جديدة وحضارة جديدة . وعند موت محمد (ﷺ) ، شرع العرب من سكان المدن والفلاحين والبدو فى نشر دينهم وثقافتهم خارج شبه الجزيرة العربية فى العالم . وانتهت عزلتهم .

(*) مارشال هود جسون ، مغامرة الاسلام : الضمير والتاريخ فى حضارة عالمية ، المجلد ١ (شيكاغو ، ١٩٧٤) ص ١٩٧ .

الفصل الثانى

ابناء إسماعيل

توقفت السيارة الداتسون البيك آب الصغيرة عند حفرة منحدرة واسعة فى رمال سوق الجمال بالرياض . وخارج الحظيرة المحاطة بسياج خشبى ، كان هناك جمل بنى اللون يستجيب للحبل الذى يقوده ويوجهه . وعندما وصل الى الحفرة بدأت مجموعة من الرجال يرتدون أثوابا غير نظيفة وغترا ممزقة يصيحون ويندفعون ويميلون وهم يحاولون إرغام الجمل الذى يبلغ طوله ثمانية أقدام على الدخول فى مؤخرة العربة التى تبلغ مساحتها ستة فى خمسة أقدام وفى النهاية نجحوا فى إدخال الحيوان طويل السيقان لنقله الى الصحراء ، موطن الرجال الذين لا يزال يطلق عليهم إسم البدو .

وينظر الى العالم العربى من خارج حدوده على أنه أحادى اللون فالصور النمطية الغربية تصور العرب جميعا على أنهم بدو يرعون قطعانهم عبر الصحراء المقفرة أو مسلمون ورعون يركعون فى صلاتهم ، أو جماعات من الغوغاء ينفسون عن غضبهم أمام شىء غير مرئى . غير أنه من داخل عالمهم ، فان العرب منقسمون الى منشور متعدد الألوان ، فالأفراد والمكان والتاريخ يشتركون جميعا فى رسم مجموعة مختلفة وملونة تبرز متناقضاتها أمام الجميع .

وعلى بعد تسعمائة ميل غرب سوق الرياض للجمال شاهدت عالم آثار مصرى يرتدى حلة ذات لون أزرق رمادى يقود مجموعة من تلاميذ المدارس عبر معروضات متحف القاهرة ذى الاضاءة الخافتة . وكان يشرح ماضى مصر الفرعونى الذى بلغ أوج عظمته قبل ألفى عام من ميلاد محمد (ﷺ) وفى بغداد شاهدت سيدة شابة ترتدى جونلة قصيرة وحذاء بكعب عال تقود مجموعة من الأطفال وتشرح لهم تاريخهم ، تاريخ أرض ما بين النهرين . وعلى باب كنيسة أرثوذكسية يونانية خارج دمشق ، أفسحت الطريق لقسيس كان يرتدى رداء كهنوتيا موشى بخيوط ذهبية ويسرع الخطى لبدء الصلاة لطائفة مسيحية يرجع تاريخ وجودها الى عصر المسيح . وفى بيروت ، تتبعت رجلا ملتحيا من ميلشيا حزب الله الشيعية حيث كان يتلمس طريقه عبر حطام حرب أهلية دامت خمسة عشر عاما لتأكيد هوية لبنان العربية . وفى كل هذه الأماكن ، وبكل هؤلاء الأشخاص هناك شىء مشترك يربطهم هو الإحساس بأنهم عرب .

وينقسم العالم العربى عرقيا وتاريخيا ودينيا الى طبقات مختلفة . وينفصل الى وحدات مستقلة وفقا للعائلة والقبيلة . وينقسم حسب الدولة . ومع ذلك فإن العالم العربى واحد ، يشترك

فى الاحساس بما يعنى أن يكون عربيا . وكون المرء عربيا يعنى جزئياً إستمداد الهوية من عصر كانت الامبراطورية الاسلامية تقدم فيه ثقافة راقية للعالم .

وقد قامت الامبراطورية الاسلامية التى إمتدت من آسيا حتى أوروبا على أكتاف عرب شبه الجزيرة العربية والتحما معا بلغتهم ودينهم . غير أنه بينما كانت الجيوش الاسلامية تنتشر شرقا وغربا إبان حروب الفتح الاسلامى ، إندمجت القيم والتقاليد البسيطة للبدو مع حضارتى بيزنطة وفارس . وأفرز إندماج البدو والساميين واليونانيين والفارسيين ثقافة مصطنعة تتحدث اللغة العربية بوصفها اللغة الأم ، وتتمسك على نحو مطلق بمفاهيم الاسلام ، وتعبر فى مجتمعها عن العديد من القيم الأساسية لشبه الجزيرة العربية ورغم أن الامبراطورية الاسلامية كانت تضم فى أوجها هنوداً ، وفرساً وصينيين ومغولاً ، وأتراكاً وبربر ، وسلافيين ، ومغاربة ، فإن العرب يعتبرون الامبراطورية الاسلامية عصرهم الذهبى . ويتجاهل أولئك الذين يسمون أنفسهم عرباً اليوم حقيقة أن الامبراطورية الاسلامية . كانت تضم العديد من الجماعات العرقية التى أثر بعضها فى بعض ، وأن الاضطراب السياسى قد قضى عليها ، وظلوا على مدى نحو ألف عام يشيرون الى الامبراطورية الاسلامية التى سادت خلال القرنين الثامن والتاسع بوصفها محك وحدتهم .

ولا يمكن فصل الثقافة العربية عن الثقافة الاسلامية . واللغة العربية ، لغة الاسلام ، تربط عاطفيا ، إن لم يكن دينيا ، كافة العرب . والتاريخ الذى يشتركون فيه من القرن السابع حتى القرن العشرين هو تاريخ اسلامى الى حد كبير . وقد أصبح الاسلام ، الذين بدأ كدين فى شبه الجزيرة العربية ، دولة تحكم إمبراطورية . وفى النهاية ثقافة تحدد الآن هوية العالم العربى .

وعندما توفى محمد (ﷺ) ، ترك لأتباعه مهمة الدفاع عن الايمان ونقل رسالته الى بقية البشر . واستجابة لدعوة القرآن **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر »** ،توجه رجل يدعى خالد بن الوليد الى الميدان على رأس جيش من المسلمين الذين جمعهم من الصحراء ومدن الحجاز ، وهو السهل الساحلى الغربى لما يعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية . وكان خالد قد دخل الاسلام فى أواخر حياة محمد (ﷺ) ، وتسلح بتحمسه للعقيدة الجديدة .

وفى حملة سريعة إستغرقت بضعة أشهر ، تمكن « سيف الله » من ضم قبائل المناطق الجنوبية والوسطى والشرقية لشبه الجزيرة العربية الى الاسلام . ولأول مرة فى تاريخها عرفت شبه الجزيرة نوعا من الوحدة .

ومع خضوع شبه الجزيرة العربية وعدم تعرض سكانها لهجوم المؤمنين ، بدأت طاقات المسلمين تبحث لها عن مخرج . وبالنسبة للمحاربين المسلمين لم يكن طلب الغنائم يشكل تعارضا مع الاسلام . فمنذ نزول محمد (ﷺ) من جبل حراء ، كان الوحى الإلهى الذى ينزل عليه يتناول الجوانب العلمانية للاقتصاد والسياسة . وكانت الأفكار الغيبية عن الجنة والنار التى يعرضها الدين تهتم أيضا بشئون الحياة .

وبعد عام من وفاة النبى (ﷺ) ، إتجه جيشان من جنود الاسلام شمالا ، وسار أحدهما شرقا صوب العراق وإمبراطورية الفرس ، وسار الآخر غربا نحو سوريا وإمبراطورية بيزنطة . وقد حاصر

المسلمون دمشق ، وبعد ستة أشهر ، إستسلمت « لؤلؤة الشرق » التابعة لبيزنطة المسيحية . وأصبحت شروط المعاهدة التى وقعها خالد بن الوليد نموذجا لغالبية المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والرعايا الجدد . « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما سيعطيه خالد بن الوليد لأهل دمشق عندما يدخلها : سيمنحهم الأمان على حياتهم وممتلكاتهم وكنائسهم . ولن يتم هدم أسوار هذه المدينة . كما لن يقيم أى مسلم فى مساكنهم . ونعطيهم عهد الله ورسوله . . . وجميع المؤمنين . وطالما أنهم يدفعون الجزية ، فلن يصيبهم شىء إلا الخير » .

وقد كان سقوط دمشق مقدمة للمواجهة الحاسمة بين الاسلام والامبراطورية المسيحية . وفى أحد أيام شهر أغسطس شديد الحرارة عام ٦٣٦ ، وقف جيش الله وجيش بيزنطة وجها لوجه على ضفتى نهر اليرموك ، الرافد الشرقى لنهر الأردن . ووقف خمسون ألف مسيحى يحملون أحدث معدات الحرب مستعدين لخوض المعركة مع جيش مسلم يبلغ نصف عددهم ، مسلح بالنبال والحراب . ولكن النصر كان نصر الله . ومهد الطريق أمام فتح المسلمين لكافة أرجاء سوريا .

ولم تكن الجيوش الاسلامية الأولى أكثر من حشود من رجال القبائل تعمل بدون نظام أو تنظيم وكانت تندفع بأسلحتها الخفيفة وحركتها السريعة على ظهور الجمال والخيول السريعة التى تربت على قوة التحمل والسرعة ، عبر الصحراء . وبتحركهم بسهولة فى أرض مترامية الأطراف ، كان المسلمون يعيشون على الغنائم التى يستولون عليها من المناطق الريفية التى يمرون بها ، حياة تتسم بالاكتفاء الذاتى . وقد جعلت سرعتهم وخفة حركتهم أضحوكة من الجيوش التقليدية المدعمة بالفرسان الذين تثقلهم الدروع والمشاة الذين تعرقلهم الأمتعة . ولكن مع إكتسابهم الخبرة على الجبهات السورية والعراقية ، تعلم المسلمون القذف بالمنجنيق لدك الأسوار وتسلق الجدران من فوق الأبراج . غير أن سلاح العرب الرئيسى ظل هو الإتساع الكبير والمفتوح فى الصحراء .

وقد حقق المسلمون نجاحا عظيما لأنهم كانوا يتحركون فى فراغ . فقد أصابت الحروب الطاحنة التى دامت عدة قرون بين بيزنطة وفارس كليهما بالضعف . ولذلك فان الجيوش التى كانت فى وقت ما قوية إنهارت أمام الغزاة العرب الذين كان يشحذ همتهم الوعد بالجنة للذين يقتلون فى « سبيل الله » .

ومن سوريا تحرك المسلمون صوب اقليم مصر البيزنطى . ففى عام ٦٤٠ عبر أربعة آلاف من البدو الأشداء الذين زادت المعارك من صلابتهم ، الحدود السورية ـ المصرية وفرضوا حصارا على حصن الحدود بالقرب من القاهرة الحالية . وبدا الحصن الذى يحيطه سور مزدوج وخندق مائى وتدافع عنه حامية قوامها خمسون ألف فرد ويساندها أسطول بحرى ، بدا أنه يتعذر إختراقه . غير أنه سقط مثل دمشق أمام غزاة الصحراء .

وشق المسلمون طريقهم نحو وادى النيل ، والاسكندرية وصوب أفريقيا . ومع كل نصر جديد وكل أسلوب حربى جديد ، كانت الجيوش الاسلامية تتحرك أسرع وأسرع . ووصلوا الى أسبانيا فى عام ٧١٠ وفى غضون ثمانية أعوام استولوا على معظم شبه جزيرة أيبريا . وعندما عبر جيش المسلمين البرانس فى فرنسا ، بدا أن شيئا لا يمكن أن يوقفهم . ولكن فى عام ٧٣٢ ، وهو العام المئوى لوفاة محمد (ﷺ) ، صد شارل مارتل غارة على الحدود شنها المسلمون على مدينة تور

الفرنسية التى إعتبرها الأوروبيون النقطة التاريخية التى توقف عندها تقدم المسلمين فى أوروبا .

وفى عام ٦٥١م ، إنهارت الامبراطورية الساسانية أمام العرب ، وهى الامبراطورية التى كانت تجسد آخر تقاليد السيطرة الفارسية التى استمرت ألف عام . والتى كانت تقف منذ بضع سنوات فقط ضد الامبراطورية البيزنطية . وتدفقت الغنائم التى خرجت من المدن الفارسية التى تثير الخيال على العرب وحققت لهم ثراء لم يكن يخطر ببالهم . إذ أن نفائس خرافية مثل جمل من الفضة بالحجم الطبيعى وحصان من الذهب بأسنان من الزمورد ويطوق عنقه أكليل من الياقوت إنتقلت الى أيدى الساسانيين المثقين الى أيدى المحاربين العرب الخشنة الصلبة ومنهم الى مكة . ومن القصر الملكى ، أرسل الجيش سجادة مآدب ملكية مقاسها ١٠٥ فى ٩٠ قدما منسوجة بالخيوط الذهبية والفضية ومرصعة بالماس والياقوت واللؤلؤ * . ومع كل ميل يتقدمونه ، كان العرب يرون ويستولون على كنوز لم يكونوا يتخيلون قط أنها موجودة فى الحياة . وقبل أن ينتهى تقدم المد الاسلامى شرقا ، كان قد عبر حدود الصين .

ومع حلول القرن الثامن ، كانت موجة التوسع العربى الهائلة قد وصلت الى أقصى حدودها . وخمدت حروب الفتح فى كل من الغرب والشرق حيث قبلت الجيوش الاسلامية التعايش مع الدول غير المسلمة واستقرت داخل حدود دائمة بصورة أو بأخرى . ويظل الجهاد ـ وهو الحرب المقدسة الدائمة واللازمة التى تخوضها الدولة الاسلامية ـ أمراً مقدسا فى المفاهيم الاسلامية ، ولكن مع مرور الوقت إتخذ الجهاد شكلا دفاعيا ، وليس هجوميا .

وقد صنع الاسلام أبطالا من أشخاص ضعفاء . وبالرغم من تخلف أبناء شبه الجزيرة العربية فى العدد والعدة ، فإنهم أنزلوا الهزيمة بأقوى امبراطوريتين وضموا أراضيهما الى الأمة .

ويعد القصر القديم لعبد العزيز آل سعود المبنى من الطوب اللبن بالرياض مكانا جيدا لتأمل كيف كانت الفتوحات الاسلامية متميزة بالفعل . فباستثناء البنادق التركية القديمة ، فان عبد العزيز وحد المملكة العربية السعودية فى الجزء الأول من القرن العشرين بمعدات تماثل كثيرا ما استخدمته الجيوش الاسلامية الأولى . ويوجد سرج جمل الملك البدوى على حصان خشبى طويل داخل صندوق زجاجى يعلوه الرماد . وهو عبارة عن إطار خشبى مفتوح يوضع على سنام الجمل . والجزء الباقى ليس أكثر من نسيج ملفوف من شعر الجمل يوضع فوق السنام كوسادة . والأسلحة مصفوفة على الحائط ، وهى عبارة عن حراب قصيرة ، وخناجر ، وكرات حديدية شائكة موضوعة على سلسلة ومربوطة بيد خشبية . وباستثناء سيف ذى شكل خطر وطرف حاد وسلاح مزدوج الحد لا يطعن الخصم فحسب وإنما يخرج أحشاءه أيضا ، وكذلك القوس والسهم ، فان تلك كانت هى ترسانة الجيوش العربية الأولى التى اندفعت شمالا خارج شبه الجزيرة العربية .

وقد استعرضت المعرض مع سيدة شابة منقبة وشقيقها ، وهما طالبان فى فرعى جامعة

(*) لما كان علماء الدين الاسلامى يعتبرون زينة الحياة الدنيا من الأشياء الزائلة ، فقد جرى تمزيق السجادة الى قطع صغيرة .

الرياض للبنات والبنين . وتحدثنا أنا وهى عن الأسلحة وعن روعة الفتوحات الاسلامية الأولى . وفجأة توقف شقيقها عن تسبيحه على المسبحة وقاطعنا قائلا « إن الأمر لم يكن غريبا على الاطلاق . فقد كانوا يحملون سيف الله » . إن المؤرخين الغربيين يمكن أن يشيروا الى سرعة حركة العرب وفراغ القوة فى شمال شبه الجزيرة العربية كأسباب لتوسع الاسلام السريع .. غير أن الكثير من المسلمين العرب يعتقدون أن القوة التى ولدها الايمان بالله هى التفسير الوحيد الضرورى لواحد من أكثر الأحداث غير العادية فى تاريخ البشرية .

ومثلما كانت الفتوحات سريعة ومنظمة على نحو مشهود ، فان السهولة التى تحولت بها شعوب البلاد المفتوحة الى العربية كانت أكثر إثارة للدهشة . وقد خلقت الحروب الدينية التى شهدتها القرون من السابع الى التاسع الشكل الذى أخذه العرب كما هم معروفون اليوم . فعندما خرجت القبائل الغازية واجهت خليطا من اللغات والأديان والهويات العرقية المختلفة . فالهلال الخصيب ـ وهو الامتداد الجغرافى من النيل الى دجلة ، ومن جنوبى جبال طوروس فى آسيا الصغرى الى الصحراء الشمالية لشبه الجزيرة العربية ـ يقع على طرق الفتوحات التاريخية بين أوروبا وأفريقيا وآسيا . وقد ظل الهلال الخصيب طوال ثلاثة آلاف عام تقريبا ، من عهد الفراعنة حتى وصول الجيوش الاسلامية يتعرض لغزو تلو الآخر . وكانت الجيوش تتحرك من الغرب ثم تتحرك من الشرق ، تغزو وتحتل ثم تنسحب فى النهاية بفعل قوة أكبر . وقد غزا الجميع تلك المنطقة ـ المصريون ، والهكسوس ، والحيثيون ، والمقدونيون ، والفارسيون ، والرومان ، والأشوريين والبيزنطيون ومرة أخرى الفارسيون . وعندما كان يتراجع أى منهم كانوا يتركون القليل من أنفسهم .

وعبر ما بعد الآن قلب العالم العربى ، كانت جيوب اللغة والجذور العرقية التى يتركها الغزاة تفصل كل قرية عن الأخرى . وقد عكس دين ثم آخر أفكار الكثيرين الذين مروا بالمنطقة كجنود أو فلاسفة أو مبشرين . ولكن أيا من هذه الأديان لم يشمل المنطقة بأسرها . والحقيقة أن القرن السابع الميلادى كان يمثل عصرا مميزا بالشك والبحث . فقد انتهى الايمان بآلهة الاغريق والرومان . وانتشر السحر والتنجيم اللذان يحيط بهما الغموض ثم تلاشيا ، وفى القرن الثانى الميلادى بدأت المسيحية التى تقوم على الحب والوعد بالخلود تفرض سيطرتها . غير أنه مع حلول القرن الخامس أصبحت أسيرة لامبراطوبة سياسية . فقد جمعت الدولة البيزنطية بين الجانب الدينى والعلمانى وتربعت على عرشها حكومة أوتوقراطية من اليونانيين العرقيين . وبالنسبة للجماهير التى كانت تقطن الأطراف الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، فان الدين الذى كانت تطرحه اللغة اليونانية ويبرر وجود المؤسسات السياسية اليونانية لم يكن يحظى بتأييد كبير .

ورغم التعرض لامبراطوريات مختلفة بكل اللغات والفلسفات التى صاحبتها ، فان شعب الهلال الخصيب كان يرتبط بوحدة ثقافية هشة . وكانت القبائل السامية تمثل بعضا من مهاجريه الأوائل .

ومع إنقضاء الألف الأولى قبل الميلاد ، كان كل من هؤلاء قد أضاف شيئا الى المجمع العام للمعرفة وأسلوب الحياة فى المنطقة مثل الكتابة ، ومهارات استخراج المعادن ، والتنظيم السياسى والعادات الاجتماعية . وظل الهلال الخصيب ساميا أساسا من الجانب الثقافى حتى جاء الغزو

الهندو ـ أوروبى من الشرق من فارس ومن الغرب من اليونان وروما وبيزنطة لاخضاعه . وعندما دخل العرب سوريا خلال الموجة الأولى من الفتوحات الاسلامية ، تحررت الثقافة السامية مرة أخرى . وكانت هذه الفتوحات الأولى ناجحة فى جزء منها نظرا لأن الشعب السامى فى سوريا وغرب العراق كان يتفق مع أبناء عمومته من العرب أكثر من يونان بيزنطة أو ساسان فارس . كما كانت الشعوب غير السامية ترى فى الجيوش العربية مخلصا لها من الطغيان أكثر منها جيوشا غازية ومن ثم فان الجماعات والمدن والمناطق قد استسلمت فى أحيان كثيرة للجيوش الاسلامية .

وقلما استخدم المحاربون المسلمون السيف لارغام غيرهم على تغيير عقيدتهم . ونظرا لنبذ معظم الأديان السابقة التى كانت سائدة فى المنطقة ، فان التحول الجماعى للاسلام كان يحدث على أرض المعركة* . وكانت الجيوش تندفع نحو أى مدينة حاملة راية النبى ﷺ . وكانت تقف عند حدودها الخارجية وتدعو بأمر قائدها الى الاسلام . ثم تنتظر وفى فترة السكون تفتح الأبواب ويتدافع المؤمنون الجدد للاستسلام لجند الله . وكان اليهود والمسيحيون ـ باعتبارهم موحدين يتمتعون بحماية القرآن ـ يحتفظون بدينهم ويدفعون الجزية . وكان الآخرون يتعرضون جميعا للرق أو دفع الفدية ، ومع افتقار أهل الاسكندرية ودمشق وبغداد وآلاف المدن والقرى التى تقع بينها لأى عقيدة أو سلطة سياسية كانوا على استعداد للموت فى سبيلها ، فانهم تقبلوا الفاتحين ببساطة وارتفعت آمالهم فى العيش فى ظروف أفضل فى ظل الحكم الجديد . ومع هذا فان الأمر استغرق قرنين حتى ثبت الاسلام أقدامه فى الهلال الخصيب . وتحقق تعريب الامبراطورية الاسلامية من خلال اللغة ، وليس الدين .

وقد فرضت لغة العرب الأميين ومحبى الشعر نفسها على أكثر الثقافات تقدما فى العالم القديم بسرعة ويسر على نحو لم يتم تفسيره حتى الآن بصورة ملائمة . وقد كانت هناك عوامل مساعدة . فقد تزوج الجنود العرب من نساء غير عربيات وأنجبوا نسلا يتحدثون اللغة العربية ، لغة آبائهم . ووصل مواطنو الدول التى تم فتحها الى السلطة بتعلم اللغة العربية وذلك من أجل ربط أنفسهم كتابعين بالأشخاص الذين أصبحوا يسيطرون على الأراضى التى يعيشون فيها . وقد أدت تلك التبعية الى الولاء للاسلام الذى يتطلب معرفة اللغة العربية . وبتجاهل المعايير الأصلية القديمة لشبه الجزيرة العربية ، فان أى فرد يعيش فى الامبراطورية الجديدة ويتحدث العربية كان يعتبر نفسه عربيا . وكان اعتناق الاسلام ذاته يعنى ضمنيا بالنسبة للكثيرين التمتع بوضع العرب ، وفى عام ٧٥٠ ، طالب شخص غير عربى بعروبة مواطنى البلاد التى جرى فتحها . « اذا كانت العربية تعنى

* كان لايزال للمسيحية عدد من الأتباع . وكانت أكبر الجماعات المسيحية هى الأرثوذكس اليونانيون الذين يتبعون شعائرهم الشرقية الخاصة ، وأقباط مصر ، واليعاقبة ، والنسطوريون .

لغة ، فاننا نتحدثها ، واذا كانت تعنى دينا فقد اعتنقناه »* . ومع حلول القرن الحادى عشر ، أى بعد أقل من أربعمائة عام من الفتوحات الاسلامية الأولى ، كانت العربية كأداة ثقافية قد حلت تماما محل اللغات القديمة المميزة مثل القبطية والآرامية واليونانية واللاتينية . ومن خلال اللغة ، أصبح الناس من مناطق مختلفة ، وذوى تاريخ مختلف وجذور عرقية مختلفة عربا . وظلوا هكذا عربا** وقد كانت اللغة العربية ، بالمفهوم اللغوى والثقافى ، هى التى رسمت الحدود الجغرافية لما هو الآن العالم العربى . كما كانت اللغة العربية هى القوة الموحدة القوية التى شكلت منذ بداية الفتوحات الاسلامية جوهر روح الجماعة بين العرب .

وتعد كاتدرائية سان جورج الانجليكية التى تقع خارج اسوار مدينة القدس القديمة مباشرة بمثابة مرآة لكنيسة ريفية انجليزية ، فغرفة طعام نزلها تلقى بظلها القوطى القاتم على الصلبان والموائد الخشبية الطويلة التى تنتمى الى اكسفورد أكثر من انتمائها للقدس ويرتدى الأسقف ياقة أرجوانية وياقة اكليريكية ويرأس هيئة تلقت تدريبها فى كنيسة انجلترا . غير أن كاتدرائية سان جورج كنيسة عربية بلا جدال تؤدى صلواتها باللغة العربية . واذا كانت قد ساورتنى أية شكوك فانها تبددت فى الدراسة المعقدة والمركزة التى أعدها أحد كبار القساوسة ، فقد ذكرنى بوضوح بأن المسيحية فى الشرق الأوسط قد سبقت فى أوروبا وأن المسيحيين باستعمال اللغة العربية قد ساهموا بدورهم فى تطوير الثقافة العربية . وفى نهاية هذه الخطبة ، نهض القس من مقعده ووقف أمام نافذة تحيط ببرج جرس الكاتدرائية الشهير . وحدق فى بنظرة ثاقبة قائلا : « ان كون المرء مسيحيا لا يقلل من عروبته » .

ان هذا الامتزاج بين الدين والعرق فى ظل اللغة العربية هو الذى يخلق ذلك التشوش حول من هم العرب الأصليون ومن هم الآن . ولعل أفضل تفسير لمن هو عربى سمعته على الاطلاق جاء من ابن آخر حاكم عثمانى لفلسطين . فرغم أن بشرته الشاحبة وعيونه الرمادية تضعه فى مصاف الأتراك ورغم حقيقة أنه نشأ يتحدث التركية ، الا أنه عربى . وقد ابتسم بدهاء مبتهجا بهذه التناقضات وقال : « اننى اخترت التحدث بالعربية ، ومن ثم فاننى عربى » .

ان الوحدة التى حققتها الامبراطورية الاسلامية الوليدة من خلال اللغة كانت تتناقض مع الفرقة السياسية والدينية داخل الاسلام ذاته . وقد حدثت أول أزمة فى الاسلام عقب وفاة النبى ﷺ .

فرغم أن محمدا ﷺ لم يزعم أنه مخلد ، فانه ترك أتباعه دون أن يوصى بالشخص الذى سوف يخلفه كقائد للمجتمع الاسلامى وكان كل ما لدى أتباعه للاهتداء به هو الهيكل السياسى

* أ . أ . دورى ، التكوين التاريخى للأمة العربية : دراسة فى الهوية والوعى (لندن ، ١٩٨٧) ص ٤٦ .

** هناك عدد من الجماعات التى تعيش داخل العالم العربى ، مثل الأرمن والأكراد ، ليست من العرب لغويا أو ثقافيا . والمسيحيون المارونيون فى لبنان عرب من الناحية الثقافية ولكنهم يفضلون التحدث بالفرنسية أكثر من العربية ويتحيزون الى الغرب أكثر من تحيزهم ، الى الشرق العربى . وتحديا للتاريخ وأصول الأجناس والمنطق يزعم الكثيرون أنهم من سلالة الفينيقيين غير العرب .

البدائى الذى كان سائدا قبل الاسلام والمتمثل فى القبيلة . ومن الناحية التقليدية ، كانت القبائل تختار زعماءها من بين أفرادها ، وتختار أكثرهم احتراما . ذلك أن الاحترام كان يخلق الولاء ويؤكد السلطة الضرورية لاستمرار ولاء القبيلة . وجريا على العادة ، اختار أقرب أصحاب النبى ﷺ أقدر رجل منهم كى يكون الخليفة . ووقع الاختيار على أبى بكر ، الذى كان تاجر أقمشة ومن أوائل المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكان باجماع الآراء أكثر من يحظى بالاحترام فى مجتمع المسلمين بالمدينة . وبالاجتماع حوله ، كان من يوافقون يشدون على يد الشخص المختار اعرابا عن البيعة له * . وفى اجراء واحد اختار رجال المدينة قائدهم وجعلوا من الخلافة مؤسسة اسلامية .

وبين عام ٦٣٢م وعام ٦٦١م ، تمثلت مهمة الخليفة الوحيدة فى تنفيذ أوامر الله . وكان النموذج الوحيد المعروف لدى أولئك الذين حاولوا القيام بذلك هو حكم النبى ﷺ الذى لم تكن تعرقله مكاتب متخصصة ، أومسئولون أو أنماط الادارة الأخرى المعوقة ، وفى فترة خلافة أبى بكر التى استمرت زهاء عامين ، ظل الحكم قبليا وأبويا . وفى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (٦٣٤م - ٦٤٤م) بدأ خلفاء محمد ﷺ يواجهون مشاكل ادارة امبراطورية مترامية الاطراف تضم العديد من اللغات والأديان والشعوب . غير أن عمر ، الذى لم يكن أكثر خبرة من أبى بكر فى شئون الحكم ، بدأ يتوسع فى اقامة بعض المؤسسات الحكومية للامبراطورية الوليدة . وفى حين كان يدير المدينة والمدن الأخرى فى شبه الجزيرة العربية وفقا للأسس التى أرساها محمد ﷺ ، فانه ترك اية اطارات حكومية وجدها قادته فى الأراضى التى فتحوها دون أن تمس .

وفى عهد الخليفة الثالث ، عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٦٥٦) . لم يعد الدين الاسلامى يستطيع احتواء التوترات الجديدة للصراع الذى خلقته الامبراطورية أو الانقسامات التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام . وعلى خلاف محمد ﷺ ، الذى قلما كان يأكل الخبز وكانت وجبته فى الغالب من التمر أو اللبن ، ولكنه لم يتمتع قط بحياة الترف ويتناول الاثنين معا ، فان القيادة الاسلامية فى مكة والمدينة بدأت تعيش حياة الارستقراطية الخاملة معتمدة على غنائم الحرب . وفى الأراضى التى فتحها الاسلام ، دخل جيل ثان من المحاربين البدو فى طور الرجولة . ورغم أنهم كانوا لايزالون يهتدون برسالة النبى ﷺ ، فانهم ابتعدوا عن الحياة البسيطة التى كان يجسدها النبى ﷺ . ويتعرضون لاغراءات الاسكندرية ودمشق أو للحياة فى معسكرات المدن الجديدة ، فقد بدأوا يتذوقون الخمر والنساء والميسر . غير أن حياة الترف هذه لم تكن سوى عرض للقوة الكامنة . وبدأ السعى لتحقيق القوة الشخصية والمكانة والهيبة ينخر فى أساس المجتمع الاسلامى . وفتحت التساؤلات حول كيفية حكم الامبراطورية ، وما الذى يتعين أن تكون عليه مهمتها ، وكيفية اختيار قيادتها ، فتحت أبواب الانقسامات القبلية القديمة التى كانت سائدة قبل الاسلام وأدت الى ظهور جماعات جديدة وصراعات جديدة تتنافس ضد بعضها البعض فى الامبراطورية المترامية الاطراف . واشتبكت جميعها فى سلسلة من الحروب الاهلية المدمرة التى

* مازال عاهل المملكة العربية السعودية يتم اختياره بواسطة « القبيلة » المكونة من الأسرة الملكية ، والأعيان المختارين ، وكبار رجال الدين ويشارك فى الاحتفال بالبيعة مع رعيته . انظر الفصل الثامن .

قضت على مبادىء المساواة التى أرساها خلفاء محمد ﷺ المباشرون وأدت الى انقسام الاسلام ذاته .

وكان عثمان ، الذى اشتهر باعتداله وورعه ، ينتمى للأسرة الأموية القوية ، وهى جزء من قبيلة قريش المكية . ورغم أن عمره كان يناهز السبعين عندما تولى الخلافة ، فقد أمسك بزمام الامبراطورية . وقام بتعيين حكام وقادة نشيطين فى الأقاليم وزودهم بأوامره لتوسيع حدود الاسلام وتأكيد قوته التى لا جدال فيها . غير أن عثمان لم يستطع تحرير نفسه من روابط القربى ، فالمناصب العليا ومغانم الحرب كانت توزع بلا حدود على الأمويين ، مما عرض عثمان للاتهامات بأن الخليفة يعود الى النظام القديم للمجتمع العربى الذى كانت تحكمه روابط الدم . وبعد اثنى عشر عاما من خطبة الوداع التى أوصى فيها محمد ﷺ كافة المؤمنين بالمساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، عاد ميل العرب الى العائلة لتأكيد نفسه من جديد .

ونتيجة للجدل الذى ثار حول عثمان ، تشكلت ثلاث جماعات سياسية داخل الدولة الاسلامية التى كانت لاتزال فى مهدها . واعتبرت الأولى نفسها حزب محمد ﷺ . وتزعمها أعضاء من عائلات مكية ليست كبيرة ، وضمت أولئك الذين التفوا أساسا حول النبى ﷺ . وقد كان الخليفتان الأولان ، أبوبكر وعمر ، من جماعة المسلمين الأول ، وأصبح على ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة ، يطالب بزعامتها .

وكانت الجماعة الثانية تتكون من أعضاء الأسرة الأموية وحلفائها من قريش ممن دخلوا الاسلام مؤخرا . ومن الناحية السياسية ، كانوا يسيطرون على أقوى المناصب الادارية فى الامبراطورية . ومن الناحية النفسية ، كانوا لايزالون ينظرون الى قريش باعتبارها طبقة عليا .

وكان الجنود البدو الذين دخلوا فى الاسلام قبل وفاة محمد مباشرة أو بعدها يشكلون المجموعة الثالثة . ورغم أنهم كانوا يفوقون المجموعتين عددا ، فانهم لم يكونوا يسيطرون على تنظيمهم أو مكانتهم . ومع هذا فان سيوفهم هى التى أقامت الامبراطورية الاسلامية . ولذلك فانهم كانوا يرفضون بمرارة الوضع الأدنى الذى فرضه عليهم كل من أتباع محمد ﷺ المقربين والخليفة الأموى .

وقد أذكت نيران السخط التى اجتاحت الامبراطورية الجديدة الروايات والشائعات التى ثارت حول منح عثمان المناصب لأتباعه وتزايد قوتهم وثرائهم . وفى عام ٦٥٦ ، رفع بعض المتمردين لواء الثورة بمحاصرة دار عثمان فى المدينة . وبعد فترة من التردد اقتحموا الدار وانقضوا على الخليفة وأردوه قتيلا . وأصبح الاسلام مرة أخرى بدون قائدة . ومن بين الفوضى التى نجمت عن ذلك برز على كخليفة .

ونظرا لما أبلاه على فى الفتوحات الأولى من بلاء حسن ولوضعه الموقر كزوج لابنة النبى ﷺ ، فقد تم الاعتراف بعلى فى كل مكان كخليفة . وكان الاستثناء الوحيد هو سوريا حيث كان الحاكم لايزال أمويا ، ومن داخل بيت محمد ﷺ ، حيث كانت عائشة ، زوجة محمد ﷺ

الأثيرة ، تكره عليا * . وقد اتهمته بالجبن لرفضه معاقبة أولئك الذين قتلوا عثمان ، ثم قامت بحشد المتمردين من القوات البدوية التى عسكرت بالقرب من البصرة الواقعة على الخليج ، وتوجه على الى الكوفة ، وهى مدينة كانت تضم حامية من البدو المنافسين وتقع على بعد مائتى ميل شمال غرب البصرة . وفى منتصف الطريق ، التقت القوتان الاسلاميتان . ودارت المعركة حول جمل كانت عائشة تعتليه فى محفة تقود منها قواتها . ومخالفة لكل تعاليم محمد ﷺ التى تدعو الى اخوة المؤمنين ، دفعت موقعة الجمل المسلمين ضد بعضهم البعض .

وكسب على المعركة . غير أنه لم يعد قط الى المدينة ولم يضع نفسه فى الحقيقة على راس الدولة الاسلامية . وطالب حاكم سوريا وأقاربه الأمويون بالخلافة . ونظرا لأن عليا فقد غالبية مؤيديه فى موقعة الجمل ، فقد اضطر الى الاعتماد على الجيش الموجود فى الكوفة للدفاع عنه ضد المغتصبين الأمويين . غير أنه كانت هناك عناصر داخل الجيش تكره عليا والأمويين كذلك . وقد عرفوا باسم الخوارج ، وكان معظمهم من البدو الذين كانوا يشعرون بأن أبواب الامبراطورية الجديدة موصدة أمامهم ومن ثم كانوا يسعون الى تأكيد قوتهم . ودعا الخوارج شعراءهم الى نظم أشعار تدعو للانتقام ، ووجهوا لعلى نفس الاتهامات التى وجهوها لعثمان ـ وهى محاباة الأقارب . وفى عام ٦٦١ ، غادر على منزله متوجها الى المسجد للصلاة . وفى الطريق هاجمه أحد الخوارج واغتاله **. وعاد ابنه الحسن ، الذى تخلى عن كل مطالبه فى لقب الخليفة ، الى قصره بالمدينة وانتهت حقبة « الخلفاء الراشدين » ، أصحاب الرسول ﷺ . كما انتهى التقليد الذى أرسته الدولة الاسلامية عقب وفاة محمد ﷺ ،حيث نصب الأمويون ، الذين يمثلون الطبقة العليا لمكة ، أنفسهم فى السلطة . وبمعنى آخر ، انتهى عصر البراءة فى الاسلام . وانتقلت العاصمة الاسلامية الى دمشق فى اقليم سوريا الذى فتح مؤخرا وكان يتسم غالبا بالتقاليد الادارية والسياسية الملتوية للشرق الأوسط القديم .

وكانت دمشق تبعد عن مكة بأكثر من الأميال . فقد كانت مكة ذات طبيعة صحراوية وتتمسك بالتقاليد . أما دمشق فكانت ضمن الهلال الخصيب ، مدينة عرفت أنها تربط البحر المتوسط غربا بالفرات شرقا . لقد كانت مدينة فهمت وعاشت بسبل أخرى قبل أن يكون هناك إسلام بأمد طويل . وفى عام ٦٨٠ ، واجه أسلوب القبيلة أسلوب المدينة للسيطرة النهائية على الخلافة .

ذلك أن نجاح الأمويين فى إقناع إبن على بالتخلى عن الخلافة لم يؤد الى تسوية مسألة كيفية اختيار الخليفة ، فقد كان المدافعون عن تقاليد القبيلة من خصوم الأمويين ، يعتقدون بأن أى مؤمن ، مهما كان أصله ، جدير بمنصب الخليفة اذا إختاره المؤمنون . ونظرا لأن الخليفة الأموى معاوية كان مرفوضا باعتبار أنه ليس من حقه أى سلطة لأنه ينحدر مباشرة من نسل النبى (ﷺ) ولم

* ربما كان السبب هو الحادث الذى وقع قبل عدة سنوات عندما تخلفت عن ركب النبى ﷺ للبحث عن قلادة فقدتها . وعندما وصلت متأخرة الى المدينة بصحبة أحد البدو الشبان ، تشكك على علانية فى سلوكها .

** تقول سيرة الشيعة بأنه بينما كان علىّ على فراش الموت من جروح الطعنة التى أصابته ، همس بأن يوضع على جمل وأن يدفن حيث يبرك . وهكذا أصبحت النجف فى العراق هى المكان الذى دفن فيه .

تختاره جماعة المؤمنين ، فقد قام حلفاء على والخوارج بتشكيل تحالف ضد الأمويين وإستمالوا الى جانبهم الأشخاص الذين إعتنقوا الاسلام ولكنهم ظلوا فى مرتبة اجتماعية أدنى من العرب من سلالة قبائل شبه الجزيرة العربية وأدنى كذلك من طبقة الأمويين العليا . واذا كان مقتل الخليفة عثمان هو أول حرب أهلية فى الاسلام ، فان التمرد ضد الأمويين كان يمثل الحرب الأهلية الثانية .

وتزعم الحسين ، الابن الثانى لعلى وحفيد النبى (ﷺ) ، حركة التمرد ضد السلطة الأموية . ورد الأمويين بحصار قوات الحسين فى كربلاء فى سهل مفتوح ما يسمى الآن بغداد . وتمكن جيش الأمويين ، الذى أصبح قوة محترفة على دراية كاملة بأساليب كل من البيزنطيين والساسانيين ، من قتل الحسين وغالبية قواته . وثارت موجات الألم والغضب لإراقة دماء سليل النبى (ﷺ) ، مما أدى الى إنقسام المسلمين الى طائفتين كبيرتين ـ وهما السنيون ، الذين تقبلوا الخليفة الأموى ، والشيعة المنشقون ، أتباع على والحسين . وحولت كربلاء ما كان بمثابة حركة إحتجاج داخل الاسلام الى طائفة تستمد فكرها من معانى التضحية والشعور بالذنب والموت .

وفى كل عام ، وفى اليوم العاشر من شهر المحرم ، وهو ذكرى مقتل الحسين ، يحتفل الشيعة بيوم عاشوراء . فعقب ظهور أول ضوء من النهار يحتشد الرجال حول محلات بيع الأدوات المعدنية فى السوق لشراء مقابض خشبية تتدلى منها سلاسل بأطراف حادة . وترتدى النساء ملابس الحداد السوداء ، ويفرشن سجاجيد الصلاة والحصر والبطاطين على طول الطريق فى إنتظار الموكب القادم .

وفى منتصف بعد الظهر ، فى ساعة الإطاحة برأس الحسين ، تثير رتابة الأناشيد الدينية ذكرى إراقة الدماء فى كربلاء بين الحشد المجتمع . وبينما يزداد الغناء حدة تبدأ الأجسام فى الارتعاد من الإنفعال إنتظارا للموكب القادم . وفى النهاية يلوح فى الأفق . ويقوم الرجال الملتفون بأقمشة بيضاء كى يرمزوا لإستعدادهم للموت من حين لآخر بضرب رؤوسهم الحليقة بجوانب السيوف غير الحادة ، وتتضخم كتل الدماء تحت الجلد . وفى لحظة مثيرة يضرب السائرون رؤوسهم بحد السيف الحاد وتندفع الدماء كالشلالات الصغيرة وتغطى وجوههم . وبينما تمتزج رائحة الدماء برائحة ماء الورد التى ينثرها المحتشدون ، فإنهم يستمرون فى ضرب الجراح بأكفهم وفى ضرب أنفسهم بالسلاسل ذات الأطراف الحادة التى إشتروها من السوق ، وفى يوم عاشوراء تمتزج الرهبة ، والغرابة ، والجمال معا لتكمل المعنى الرئيسى لإحتفال الشيعة ـ المتمثل فى الاستشهاد * .

ويساعد وضع الشيعة كأقلية مكروهة داخل الاسلام على استمرار مسألة الاستشهاد هذه . وقد إستقر الشيعة شرقا فى إيران وجنوبى العراق ، وفى جماعات حول الخليج ، وفى سوريا وشمالى اليمن والمغرب وفى جنوب لبنان مؤخرا . **

(*) جعلت النظم الحكومية والعادات المتغيرة إراقة الدماء يوم عاشوراء عملا رمزيا أكثر منه عملا فعليا فى معظم الأماكن غرب إيران .

(**) يشكل الشيعة الأغلبية فى كل من العراق والبحرين ولكنهم لا يسيطرون على النظام السياسى .

وتقع مدينة القطيف الشيعية متوسطة الحجم على الجانب الشمالى من خليج يبرز من الساحل السعودى للخليج . وحتى حدوث التقلبات السياسية التى أشعلتها الثورة الايرانية فى عام ١٩٧٩ مما أرغم الحكومة على إنفاق مزيد من الأموال عليها ، كانت القطيف تعيش كطفل من أب آخر فى منزل به العديد من الأطفال ، فقد كانت المحلات والمبانى الحكومية التى تقع على طول الطريق المؤدى الى السوق متداعية ، ولم يكن لها سوى بضعة مدارس ، وظلت فترة طويلة لا تعرف الشوارع الجديدة المضيئة ومشروعات الصرف الصحى التى كانت تنفذ فى المدن الأخرى .

وفى إتجاه الشمال ، فإن القرى المماثلة للقطيف فى العراق يطحنها الفقر وتنتشر على أرض الجنوب المجدبة . وأيا كانت الحكومة التى تتولى السلطة فإنها تتجاهل سكان هذه القرى الذين يحتالون على العيش من أرض مالحة أو من مستوى متواضع من التجارة . وحتى وجود خدمات تصدير بترول العراق هناك لا يحقق الكثير لتضييق الفجوة الاقتصادية بين الشيعة والسنة المهيمنين سياسيا . ونظرا لإفتقارهم لسبل الحياة المادية ، فإنهم يحصلون على مساندة روحية من الحج الى مقدساتهم فى النجف وكربلاء .

وهناك قرى أخرى مثل القطيف فى جنوب لبنان . وقبل الحرب الأهلية اللبنانية ، كان المزارعون يعملون فى حقول أصحاب الأراضى ولم تكن لديهم مدارس أو عيادات طبية . وفى حين كان الأثرياء يشترون حقائب يد جلدية إيطالية الصنع وملابس راقية من محلات بيروت ، كانت نساء الجنوب تخرجن عملات معدنية قليلة من محافظهن البلاستيك لشراء ما يستطعن من أساسيات من أرفف محلات القرى الخاوية من السلع تقريبا . وبعد خمسة عشر عاما من الحرب التى كان يقاتل فيها الشيعة من أجل الحصول على نصيب عادل من إقتصاد لبنان ونظامها السياسى ، فإنه لا يزال يتعين عليهم النضال للوصول الى مكانة متساوية مع الآخرين .

وقد ظل الشيعة على مدى ألف وثلاثمائة عام يطغون فى محيط الاسلام التقليدى الذى يمثله السنة . ورغم أنهم أقلية ينظر اليهم عامة المسلمين بعين الشك متهمين إياهم بتحريف الدين ، فإنهم السلالة الدينية للخليفة على .

ورغم الوحشية التى استخدمت لقمع التمرد الشيعى ، فان الخليفة الأموى معاوية (٦٦١ - ٦٨٠) كان رجلا ذا بصيرة وقدرة على الاحتمال . وقد أوجز فلسفته فى الحكم فى كلمات قال فيها « إننى لا أستخدم سوطى عندما يكون لسانى كافيا ، ولا سيفى عندما يكون سوطى كافيا . واذا كانت هناك شعره تربطنى برفاقى فإننى لا أحاول قطعها . واذا شدوا فإننى أرخى ، واذا أرخوا فإننى أشد » * .

ومع بداية عام ٦٨٥ ، إضطلع الأمويون بعملية التعريب السريعة للرعايا . غير أنه فى عام ٧١٥ وعقب وفاة الوليد ، بدأت الخلافة الأموية تتداعى . وقد أثبت خلفاؤه عجزهم فى أفضل الأحوال وإنغماسهم فى الملذات فى أسوأ الأحوال . وكانوا يجتمعون فى حماماتهم وأماكن لهوهم

(*) أوردها حتى فى عواصم الاسلام ، ص ٦٨ .

ويناقضون المثل الأعلى الذى ضربه النبى (ﷺ) عندما كان يرتق ملابسه فى فناء منزله البسيط المبنى بالطوب اللبن . غير أن ما فجر الحنق من المظالم السياسية والاجتماعية ضد الأمويين هى حياة القصور ، وليست قضية الدين .

وعبر الامبراطورية ، تراجعت راية الأمويين البيضاء أمام راية العباسيين السوداء ، وهم فرع آخر من أسرة النبى (ﷺ) . ففى شهر يناير من عام ٧٥٠ ، قضت قوات العباسيين تماما على إثنى عشر ألف فرد من قوات الأمويين عند أحد روافد نهر دجلة . وفر الخليفة الأموى الرابع عشر مروان الى مصر . وهناك أختبأ فى إحدى الكنائس حيث تم قطع رأسه وأرسلت الى مقر العباسيين المؤقت بالكوفة . وفى الوقت نفسه فتحت الأبواب فى دمشق أمام قوات الخليفة الجديد بينما قامت الجماهير الحانقة على الأمويين بنبش قبورهم ونثر عظام موتاهم .

وقد كان التحول من الحكم الأموى الى الحكم العباسى يمثل أكثر من مجرد تغيير فى الأسرة الحاكمة . فقد تغيرت الخلافة والامبراطورية جغرافيا وسياسيا . وإنتقلت العاصمة مرة أخرى من دمشق الى بغداد . وإتسعت المسافة بين مكة والعاصمة الاسلامية ليس فى الأميال فحسب وإنما من الناحية الثقافية حيث إتجه نظام الحكم الجديد نحو فارس أكثر من شبه الجزيرة العربية . وتقلصت بالتدريج الطبقة العليا بمكة والمدينة التى كانت تبسط سيطرتها على الامبراطورية منذ عهدها الأول . وتوقفت تدريجيا الإعانات التى كانت تقدم للمحاربين العرب من سلالة أولئك الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية إبان الفتوحات الأولى . وتلاشى العرب كجماعة منفصلة معروفة فى جغرافية الامبراطورية الاسلامية . ولم تعد هناك أية فوارق بين المسلمين من شبه الجزيرة العربية وبقية مسلمى الامبراطورية . إنضوى جميع من كان تراثهم فى بلاد ما بين النهرين ومصر ، من مسلمين ومسيحيين ، تحت لواء اللغة العربية الأم . وأصبحوا يعرفون أكثر والى الأبد كعرب .

وشهدت بغداد ، عاصمة الخلافة ، الازدهار الكامل للثقافة العربية التى استمد منها العرب الكثير من هويتهم . وعلى عكس دمشق القديمة ، كانت بغداد مدينة جديدة أنشأها الخليفة العباسى المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) . « . . . لقد وصل الى منطقة الجسر وعبر الى الموقع الحالى لقصر السلام . . . وهناك قضى الليل ، ثم إستيقظ فى الصباح التالى حيث قضى أحلى وأرق ليلة على الأرض . وأقام هناك ، وكل شىء شاهده ملأه بالبهجة . ثم قال : « هذا هو الموقع الذى سوف أبنى عليه » . . . ثم أرسى الأساس . . . . ووضع أول حجر بيده قائلا « بسم الله والحمد لله . إن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » * .

وقد إستغرق بناء بغداد أربع سنوات وإشترك فى بنائها مائة ألف عامل حرفى ومهندس . وكانت دائرية الشكل محاطة بخندق مائى وأسوار من الطوب المزدوج ترتفع الى مسافة تسعين قدما ، وبها أربعة بوابات تخرج منها اربعة طرق سريعة تبرق مثل مكبح عجلة تتجه الى أركان الامبراطورية . وفى وسط كل ذلك يقع القصر الامبراطورى .

(*) فقرة من كتاب تاريخ الشعوب العربية لألبرت حورانى نقلا عن محمد بن جرير الطبرى (كامبردج ، ١٩٩١) ص ٣٣ .

وفى عام ٩١٧ ، وصف مبعوث من اليونان بلاط الخليفة المقتدر ، فقال : إن القصر كان مكونا من أروقة وأفنية وحدائق حيث تختال الأفيال التى تعلوها أغطية موشاة بخيوط حريرية . وفى إحدى الحجرات ، كانت هناك شجرة تقف « وسط حوض كبير دائرى ممتلىء بالماء الصافى . وللشجرة ثمانية عشر فرعا ، وكل فرع تخرج منه فروع عديدة تجلس عليها جميع أنواع الطيور الذهبية والفضية الكبيرة والصغيرة . ومعظم فروع هذه الشجرة من الفضة وبعضها من الذهب ومتفرعة فى الهواء وتحمل أوراقا مختلفة الألوان . وتتحرك أوراق الشجرة كلما هبت الرياح فى حين تزقزق الطيور وتشدو » . أما الخليفة فقد كان يرتدى ملابس مطرزة بالذهب ويجلس على عرش من خشب الأبنوس . وعلى يمين العرش . علقت تسعة أساور من الأحجار الكريمة وكذلك على اليسار وجميعها من الجواهر الشهيرة » * . وخلال أقل من ثلاثمائة عام ، انتقل نموذج الخلافة من شيخ عربى الى حاكم وراثى الى إمبراطور فارس .

غير أن قوة الإمبراطورية الاسلامية المستمرة كانت تكمن فى ثقافتها وليس فى مؤسساتها السياسية . ولم يكن هناك نظير لمدينة بغداد التى كانت تستمد عظمتها من إزدهار الامبراطورية . وكان بلاط الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) هو بلاط ألف ليلة وليلة . فمثل حكايات تلك القصة ، كان يموج بالنشاط الفكرى والفن الرفيع . وكانت تجتمع فيه علوم فارس واليونان وروما وساعدت جميعها فى محو الحدود الجافة لشبه الجزيرة العربية البدائية وخلق الثقافة الاسلامية التى يفتخر بها العرب جميعا اليوم .

وقد حضرت فى عام ١٩٨٣ افتتاح معرض لمقتنيات من العصر الذهبى للاسلام فى صالة عرض فى جدة . وكان هناك جيش من الخدم الباكستانيين المنتشرين بين الضيوف يوزعون الشاى والقهوة وعصير الفاكهة ، وفطائر محشوة بالعسل مرصوصة على صوانى كبيرة ، وقوارير كبيرة من الفضة مملوءة بالشيكولاته الفاخرة . وإزدحمت القاعة بعدد من صغار أفراد الأسرة المالكة ، وأصحاب الأعمال السعوديين ، وكبار مسئولى الحكومة وعدد من الأثرياء اللبنانيين والمصريين والسوريين الذين يعملون أو يقومون بأعمال تجارية فى المملكة العربية السعودية . وكان العرب فى ذلك الوقت ، ولا سيما السعوديين ، حريصين على إلقاء الضوء على الثقافة الاسلامية وإبرازها كشهادة على أن العرب يمتلكون أكثر من مجرد أموال البترول . وقد عبر محمد سعيد فارس ، عمدة جدة ، عن ذلك المعنى فى كلمته التى ألقاها للترحيب بالضيوف . وقال بنبرة تنم عن الرضا « إن المجموعة تثبت الى أى مدى تطور الفن والعلوم الاسلامية بينما كان الملوك والأباطرة فى أوروبا يبددون وقتهم فى معارك صغيرة ولم يتعلموا من الامبراطورية الرومانية » .

وقد بدأت الامبراطورية الاسلامية كمجتمع من المؤمنين ، وكان الاسلام يشكل فكرها الموحد وسبب وجودها . وعندما كان المجتمع الاسلامى موجوداً داخل شبه جزيرة منعزلة ، كان أعضاؤه راضين بورعهم الذى يفتقر الى التفكير والتأمل . ولكن ما أن إنطلق ذلك المجتمع خارج شبه الجزيرة وتضخم من خلال فتوحاته الأولى حتى تغير وجه الاسلام ، ففى سوريا . إصطدم

(*) نفس المرجع السابق ، ص ٣٤ .

العقل البدوى مع الفلسفة اليونانية واللاهوت المسيحى وواجه النظريات الخرافية فى العراق والإزدواجية فى فارس . وكان بوسع أولئك المسلمين الذين خرجوا لتوهم من شبه الجزيرة إختيار محو آثار الثقافة « الوثنية » * .

غير ان أبناء الصحراء هؤلاء أدركوا على نحو ما أنه بخلاف الاسلام واللغة العربية ، بإشعاعها الأدبى البارز ، فان أمامهم الكثير مما يتعلمونه ، ولديهم القليل مما يعلمونه . ولم يرفضوا أو يجيزوا علوم الآخرين ، وإنما إحتضنوا التقاليد الفكرية التى وجدوها ورعوا بذورها . والنتيجة أنه فى حين كانت أوروبا تعيش فى العصور المظلمة ، إحتفظت الامبراطورية الاسلامية بالتراث اليونانى وأفاضت عليه من المعرفة الهندية والفارسية . وظلت الامبراطورية الاسلامية على مدى ثلاثمائة عام ، من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر ، توجه ضوء المعرفة الى الغرب .

وقد بدأ طلب المسلمين للمعرفة من مصادر غير اسلامية بصورة شديدة فى عهد الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) . وتقول الروايات أن المأمون قد رأى فى نومه أنه يجلس على أريكة بجوار رجل أصلع ذى بشرة بيضاء مشوبة بالحمرة وجبهة عريضة وأهداب ثقيلة وعينين زرقاوين وسأله المأمون « من أنت » . فأجابه الرجل « أرسطو » . واذا كان يتعين تصديق الرواية فإنه قام بجمع كتب الفلاسفة القدامى . وبدءا بأعمال أرسطو وأفلاطون ، قام المترجمون بترجمة كل الفلسفة الاغريقية الى العربية * . ومن « دار الحكمة » التى أقامها المأمون تنقل المترجمون والناسخون عبر كتابات أقليدس وبطليموس والكتابات الفارسية والهندية . ولأول مرة فى التاريخ ، نقل العلماء نتائج المسائل الفكرية التى طرحت فى مختلف المناطق والقضايا الثقافية فى لغة واحدة هى العربية . غير أن ذلك لم يكن كله مجرد محاكاة . ذلك أن المفكرين المسلمين أفاضوا عليها من الدين والشريعة والفلسفة وعلوم اللغة ، والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية . وخلال القرنين التاسع والعاشر ، حيث بلغت إبداعاتهم ذروتها ، لم يكن لهم نظير فى أوروبا أو آسيا .

وقد قام محمد بن موسى الخوارزمى ، عالم الرياضيات والفلك بسبر غور الرياضيات اليونانية وبصفة خاصة الهندية . ومن مصادر هندية إستنبط نظام الحساب باستخدام تسعة أرقام ، وأضاف الصفر الذى ربما كان من إبتكاره . وضمن ذلك فى كتاب يحمل عنوان « كتاب الجمع والطرح بالطريقة الهندية ومع مرور الزمن وجد ذلك النظام طريقه الى أوروبا . وأصبحت الأرقام الهندية أرقاما عربية » .

(*) لقيت أسطورة قيام الفاتحين العرب بحرق مكتبة الاسكندرية ، التى إخترعها مسيحى متعصب إبان الحروب الصليبية ، قبولا بسبب توقع حدوث هذه الواقعة المزعومة .

(*) كان إصرار المأمون على أن يكون للتفكير والعقل دور رئيسى فى الاسلام يواجه مقاومة . ذلك أن العلوم الأجنبية ، التى لا تشمل الحساب والفلك والطب فحسب وإنما السحر والكيمياءوعلم التنجيم ، كان يعتبرها العديد من العلماء المسلمين أنها تشكل تهديدا للمعتقدات الدينية وقيم الحياة الدينية . فقد اعتبر ابن تيمية ، وهو فقيه اسلامى بارز عاش فى القرن الثالث عشر ، أن كل المنطق الأرسطى يقوم على نظرية ميتافيزيقية تهدد النظرة الاسلامية العالمية . غير أن آخرين من أكثر المؤمنين بالسنة إعتقدوا وأعلنوا مراراً أن دراسة الشريعة الاسلامية ينبغى أن يسبقها إلمام كاف بالمنطق اليونانى .

وتوجه علماء الفلك المسلمون ، حاملين جداول الخوارزمى الفلكية ، الى الصحراء السورية لاجراء قياسات أرضية . وإرتكازاً على الافتراض بأن الأرض كروية ، فان قياسهم إختلف عن القياس الحديث لطول درجة (نحو ٦٩ ميلا) بـ ٢٫٨٧٧ قدم فقط . وقام علماء فلك مسلمون آخرون بالبحث فى حساب المثلثات الكروية ، وتمكنوا من تصحيح حسابات مدار القمر ، وحددوا بدقة أكبر ميل الخسوف ، وأثبتوا إحتمال حدوث كسوف الشمس سنويا ، وتوصلوا الى نتيجة مغايرة للنماذج البطليموسية الخاصة بالكواكب والتى تماثل نماذج العالم كوبر نيكوس (*) .

وفى حين كان علماء الفلك يبحثون فى ملكوت السماوات ، كان العلماء العرب الآخرون يقومون بإستكشاف جسم الانسان . فقام ابن سينا ، بوضع موسوعة طبية صحيحة تسمى « القانون » أوجز فيها ما تعلمه العرب من الطب اليونانى ، والسريانى ، والفارسى والهندى ، وأثروه بتجربتهم الخاصة . وقام الطبيب الرازى ، مثلا ، بتعليق شرائح من اللحم فى كافة أرجاء بغداد لإختبار درجة التعفن قبل إختيار موقع جديد لاقامة مستشفى . ورغم بدائية هذه الطريقة ، فانها تعطى فكرة عن أسلوب التفكير الاسلامى فى ذلك الوقت . وقبل عدة قرون من معرفة نظرية أمراض الجراثيم ، تحدثت موسوعة « القانون » عن طرق العدوى بالسل وإنتشار المرض عن طريق المياه . وقد إشتملت على الطب العام وعلم الأمراض والعقاقير ، وقدمت وصفات بكيفية علاج الأمراض التى تصيب كافة أجزاء الجسم ، وقدمت أول وصف طبى للجدرى ، وفرقت بينه وبين الحصبة ، وقدمت عملا أصيلا فى البصريات وطب العيون ، وأقرت أهمية النظام الغذائى والمناخ للصحة العامة ، وتناولت العلاقة الوثيقة بين الحالة العاطفية والفسيولوجية . وحتى منتصف القرن السابع عشر ، كانت موسوعة « القانون » تعرف الطب لغالبية أجزاء العالم .

غير أن فن العمارة يظل أبلغ أثر لعصر الاسلام الذهبى . وكما يليق بامبراطورية تربطها أواصر الدين ، فان فن العمارة قد وصل أوجه فى المساجد الكبيرة . فقد وصل بناة المساجد فى أعقاب جيوش الفتح الاسلامى . وفى عام ٦٩١ غيروا معالم القدس الطبيعية باقامة قبة الصخرة العظيمة .

وتقع قبة الصخرة فى المكان التقليدى الذى عرج منه محمد (ﷺ) الى السماء ، ومن ثم فانها تقف كحارس فوق الحرم الشريف ، ثالث المقدسات الاسلامية . ويطغى سقفها المقوس المشيد من الخشب والمغطى بفسيفساء من الزجاج الذى يرتكز فوق خلفية ذهبية تخطف الأبصار على كل ما حولها . وتلوح أعلى حائط مبكى اليهود ، وتفوق فى ضخامتها كنيسة القيامة . ويمكن رؤيتها من جبل المكبر وجبل الزيتون . وربما تتجلى عظمة فنها ورمزها الدينى بصورة لافتة للأنظار من أعلى أسقف الحى الاسلامى للمدينة القديمة . وبعد ظهر يوم من أيام أواخر الصيف ، تسلقت سقف منزل يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر لمشاهدة غروب الشمس . وكان فسيفساء القبة الذهبى والأزرق يجمع ثم يكثف الضوء الخافت قبل أن يعكسه مرة أخرى نحو السماء . وكان ذلك يترك الأثر المطلوب ـ وهو أن يكون نقطة إلتقاء بين الأرض والسماء .

(*) على عكس كوبر نيكوس ، لم يحاول علماء الفلك المسلمون التخلى عن النظام البطليموسى لقياس الأرض من مركزها .

وقد إحتفلت الثقافة الاسلامية فى الفن والعلم بالوحدة التى لم تحققها الامبراطورية قط على الصعيد السياسى ، بإستثناء فترات محدودة . فقد خلق البحث والدراسة واللغة وهم الوحدة . غير أن المسافة ، والصراع العائلى ، والمنافسات المتوارثة ، والانقسامات الاقليمية ولدت حقيقة الانفصال . ففى عام ٧٨٨ ، قام حاكم مستقل بمساندة جيشه المحترف بالاستيلاء على مراكش من الخليفة . وأعقب ذلك إنفصال شمال أفريقيا ومصر فى القرن العاشر . ومع نهاية ذلك القرن لم تعد شمال فارس وشمال الهند تستجيبان لأوامر الخليفة فى بغداد . ومع مرور الوقت ، توقف الخليفة عن ان يكون هو السيد المطاع . ونظرا لأن الخلفاء قد أقاموا جيوشا من العبيد لحماية أنفسهم من رعاياهم ، فانهم وقعوا تحت سيطرة قادتهم العسكريين . وفى بداية القرن الحادى عشر ، لم تعد الامبراطورية الاسلامية إمبراطورية إنما أصبحت مجموعة من الأقاليم شبه المستقلة يحكم كلا منها سلطان خاص بها . ومع ذلك فإن الوحدة النظرية للاسلام ظلت قائمة فى رمز الخليفة . وفى عام ١٢٥٨ ، واجه ذلك الرمز تحديا أيضا .

فقد جاءت حشود المغول من سهول آسيا وإجتاحت دفاعات بغداد . وبسيوفهم البراقة ، ذبحوا ٨٠٠٫٠٠٠ شخص . وكان من بينهم المستعصم ، الخليفة السابع والثلاثون وآخر خليفة عباسى . ولأول مرة فى تاريخ الاسلام ، لم يعد يذكر اسم الخليفة فى خطب صلاة الجمعة .

ثم تراجع المغول . وعاشت الثقافة الاسلامية فى الغرب فى غرناطة حتى عام ١٤٩٢ ، عندما أنهى الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا الوجود الاسلامى الذى دام سبعمائة عام فى أسبانيا . وفى عام ١٥٠٢ ، أقام الصفويون إمبراطورية فارسية جديدة تعتنق المذهب الشيعى . وفى عام ١٥٢٠ ، بدأ سليمان الكبير فترة حكمه على رأس الامبراطورية الثمانية التركية . وكانت الامبراطورية الاسلامية قد تجمت أولا حول الأمويين ثم فتتها العباسيون تاركين العرب تحت رحمة الآخرين .

وهناك من يقولون بأن الامبراطورية الاسلامية لم تكن امبراطورية على الاطلاق ، وانما كانت تعلقا عاطفيا بمثال الوحدة الاسلامية . فالعرب الذين يتعلقون اليوم بذكرى مجد الاسلام لم يخلدوا الامبراطورية فى شعر البدو الأسطورى . وفى حقيقة الأمر ، فانه إبان العصر الذهبى للأدب العربى ، لم تظهر ملحمة شعرية واحدة . وربما يرجع السبب الى أنه لم يكن هناك وجود للخلفية الضرورية لأية حياة قومية تثرى الأعمال البطولية . ويعتقد العرب أن الفترة البطولية للعرب كانت فى الفتوحات الأولى للجيوش العربية . وإبان العصر الاسلامى ، كان العرب يستمدون إحساسهم بالهوية من الطابع الدينى للامبراطورية أكثر من مشاعر القومية التى تنبثق من التاريخ الثقافى المشترك . ولا يزال مثال الامبراطورية الاسلامية كتمجيد للغة والثقافة العربية موجودا وقويا . « لقد أصاب الغزو المغولى مفاهيم الوعى بالاضطراب وقلل من إحتمالات إعادة بعثها من جديد . ورغم ذلك ، فان العناصر الأساسية التى شكلت ذلك الوعى قد تواصلت فى التراث الثقافى ، كما يظهر مرة أخرى فى حركة الصحوة القومية فى العصور الحديثة . وظلت اللغة العربية هى أساس العروبة كما أن التراث الثقافى الذى يتضمن فكرة الأمة العربية بمعناها الثقافى الذى يربط العروبة بالاسلام ظل يشكل أساسا جوهريا مشتركا . وإنطلاقا من هذه الجذور ، وفى إطار التحديات الداخلية

والأفكار الأجنبية ، برز الوعى العربى الحديث لينطلق من العروبة بمعناها الاجتماعى - الثقافى الى العروبة بمعناها السياسى القومى » *.

ان الامبراطورية الاسلامية فى القرنين الثامن والتاسع - دينيا وثقافيا - لا تزال عالقة بأذهان العرب باعتبارها إنجازاً عربيا . وبغض النظر عن إستيعابها للعديد من الثقافات والتقاليد الأخرى ، فان العرب يعتقدون أن شعوب شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب هى أساسا التى أقامت الامبراطورية وأضفت عليها طابعها الفكرى . وبسبب العرب فان قصر الحمراء فى القرن الرابع عشر ، بعد سبعمائة عام وعلى بعد ثلاثة آلاف ميل من محمد (ﷺ) ومكة ، كان يتحدث عن الجزيرة العربية .

وقصر الحمراء الذى يقع على تل لا سابيكا بين سييرا أرانا القاحلة وغرناطة المزدحمة يعني حمرة الغروب . إن أروقته ذات الأعمدة وجدرانه الحجرية المزينة بالنقوش ، وبحيراته الهادئة ، ونوافيره التى تنساب برفق ، تطلق سحرها فى سكون المساء . وفى المساء كانت تحكى حكايات ألف ليلة وليلة وتشدو طيور العندليب . وفى المساء كان يجتمع أعظم العلماء فى مختلف مجالات العلوم ، وفن العمارة ، والفلسفة والأدب للتفكير فى قضايا الكون . وفى المساء كان الحكام المسلمون يقبعون داخل أسوار قصر الحمراء يعيدون سرد تاريخ الامبراطورية الاسلامية .

ويميل العرب ، شأنهم شأن كافة الشعوب ، الى تذكر تاريخهم فى فترات مجدهم . وكانت الامبراطورية الاسلامية تمثل فترة مجيدة . ولكن مع حلول القرن الحادى عشر ، كانت الامبراطورية فى الشرق قد إنهارت ، وسلبت من العرب إحساسهم بالتفوق . واذا كان قصر الحمراء رمزا للمجد العربى ، فان جامعة زبيد تمثل رمز التدهور العربى .

والجامعة عبارة عن مبنى أبيض من الجص ، ذو برج خفيض مزخرف بنقوش أزهار ذات ألوان زرقاء وخضراء فى مدينة زبيد التى تقع على السهل الساحلى لجنوب غربى اليمن . وفى القرن التاسع اشتهرت هذه الجامعة كمركز للعلم . وكان يتوافد عليها الطلاب حاملين معهم شوقهم للعلم ، ويتركونها حاملين معهم ثماره . وفى هذه الجامعة وبين الأشجار ، إستنبط رجل يدعى احمد أبو موسى الجلدى نظاما رياضيا يسمى الجبر الذى يرى البعض أنه أساس الجبر الحديث . واليوم ، فان حماس الاكتشاف قد تبدد ، وتقبع الجامعة فى هدوء تعكس فقر المدينة حولها . وتعيش مدينة زبيد على الكفاف من الزراعة ومن تجارة المصنوعات اليدوية . وباستثناء الطريق الأسفلتى السريع ذى الاتجاهين الممتد من تعز الى الحديدة ، فان شوارعها ليست أكثر من حفر واسعة من الأتربة الكثيفة التى تثيرها أية عربة مارة بين حين وآخر . وفى ذلك اليوم ، كان كل ما يبدو للعيان أربعة شبان فى سن المراهقة ، يرتدون الملابس اليمنية التقليدية ويركبون عربة يجرها حمار وتسير على أربعة إطارات سيارة قديمة . لقد تجاوز الزمن مدينة زبيد مثلما تجاوز الزمن العصر الذهبى للعرب .

(*) أ. ا. دورى ، « التكوين التاريخى للأمة العربية » ص ١٢٥ .

واذا كان قصر الحمراء يقوم شاهداً على ذكاء العرب فان زبيد تمثل محنتهم . وعندما سقطت الأسرة العباسية ، فقد العرب قدرتهم على التحكم فى مصيرهم . فقد إنتقلت السيطرة على الأرض العربية والشعب العربى الى الآخرين ، وبصفة خاصة الى الأتراك العثمانيين ، والعثمانيون هم الذين ينحى غالبية العرب المعاصرون عليهم باللائمة لما حدث لهم من تدهور ثقافى فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . وفى القرن التاسع عشر ، كان الغرب هو الذى بدأ العرب يوجه له اللوم لما وصلوا اليه من ركود . ومنذ ذلك الحين ، أصبح الغرب يمثل الرمز المتقد لكل ما يحدث من أخطاء فى العالم العربى . وهكذا فانه مثلما وحدت الامبراطورية الاسلامية العرب ثقافيا ، فان العداء تجاه الغرب يوحدهم نفسيا .

الفصل الثالث

غــــزو الكفـــــرة

يقع مقهى مودكا فى ركن بارز من شارع الحمراء الذى لا يبعد كثيرا عن البحر فى بيروت . وقبل الحرب الأهلية كان يتمتع بسمعة سرية اكتسبها من بيع القهوة والفطائر للقوميين العرب المتحمسين الذين كانوا يحتشدون هناك . وكان المكتب الثانى ، الذى يمثل مكتب التحقيقات الفيدرالى ووكالة المخابرات المركزية مجتمعين فى لبنان ، على علم بكل شىء عن مودكا . غير انه بالنسبة للذين كانوا يترددون عليه ، فان مخاطر اثارة الشكوك حول جهاز أمن أقل كفاءة كان يزيد من جاذبية المقهى .

وعندما كنت فى مقهى مودكا آخر مرة ، كانت لبنان تعانى من العنف الطائفى الى حد أن أيام ما قبل عام ١٩٧٥ ، عندما كان الناس يزحفون من الزقاق لمعرفة من القادم قبل الدخول ، كانت تبدو وكأنها عصر البراءة . ولم يعد هناك ذلك الجو من التآمر . فقد كان الحوار السياسى يجرى باستخدام المدافع لفترة طويلة الى حد أن مودكا أصبحت مقهى آخر تحاول البقاء فى بيروت التى انهكتها الحرب ، وعندما اقتربت ، كان مساعد النادى يقوم بلا حماس بكنس الأنقاض من أمام الباب ، ويدفعها نحو كومة من الزجاج المهشم فى الزقاق من جراء قصف القنابل والمدفعية أثناء سنوات الحرب الأهلية اللبنانية . وعندما دلفت من الباب لاحظت أن آثار تلك السنين لم تمح بعد ، وكانت الكراسى تبين مدى الدمار الذى ألحقته تلك الحرب الطويلة ببيروت . غير انه وسط هذه الكآبة كانت المشاعر السياسية لاتزال متأججة . وعدت ثانية الى الطاولة حيث كان يجلس حسن ، وحامد ، وفيصل وكمال ، يرتشفون القهوة الداكنة ويدخنون السيجارة تلو الأخرى . وكانوا اثنين من اللبنانيين السنيين ، وسورى ، وفلسطينى . وكانوا يشتركون جميعا فى الشعور باليأس من الوضع العربى ويحملون الغرب مسئولية ذلك .

وألقى حسن بسيجارته فى الهواء وهو يكيل سلسلة من الاتهامات التى رغم تباين أمثلتها فانها تتطابق فى معناها مع تلك التى سمعتها كثيرا من قبل . اذ قال : « ان هناك مؤامرة تحاك فى الغرب من أجل اضعاف العرب . وذلك هو هدف وكالة المخابرات المركزية . وأعرف وأنتم تعرفون أن كل شىء يحدث فى الشرق الأوسط وراءه وكالة المخابرات المركزية فى واشنطن » .

وقاطعه فيصل بنفاد صبر : « لقد دمرت المخابرات المركزية عبد الناصر . وتدفع بالأفراد من

أجل اختطاف الطائرات ثم تنحى باللائمة على العرب . انظروا الى لبنان . لقد بدأت وكالة المخابرات المركزية تتآمر ضدنا فى عام ١٩٥٨ » . وأومأت أربعة رؤوس موافقة على رأيه .

وأمسك حسن بخيط الحديث مرة أخرى وقال : « إنها ليست الولايات المتحدة بمفردها » .

وقبل أن يستطرد فى الكلام ، قفز حامد وقال « ان الأوروبيين يتآمرون ضدنا . انهم يريدون بترول العرب ولكنهم لا يريدون العرب أن يشاركوهم فى تكنولوجيتهم . لماذا ؟ » وهز كتفيه استهزاء وقال ونظرة احتقار تعلو وجهه : « لنظل ضعفاء وفقراء ، بالطبع » .

أما كمال الذى كان مستمعا أكثرمنه متحدثا فقد مال الى الخلف بكرسيه وأصدر الكلمة الأخيرة عن الظلم الغربى : « منذ الحرب الصليبية والغرب يحاول تدمير العرب » .

ان العرب يعيشون فى ظل الغرب المزعج . ويرون القوة الغربية والأساليب الغربية تكمن فى الأفق على استعداد لاسترقاقهم اقتصاديا وتدميرهم ثقافيا . ومهما بدت تلك المفاهيم مبالغا فيها وغير منطقية بالنسبة للغربيين ، فانها تقبع فى اعماق النفسية العربية .

وبمعنى من المعانى ، فان شكوك العرب فى الغرب شكوك دفاعية ، وتفسير مقبول لكل الأخطاء التى وقعت منذ العصر الذهبى . انها تستخدم كمسكن للكرامة العربية التى يعتقد العرب أنها تعانى كثيرا عندما تحكم الدول العربية المعايير الغربية مثل اجمالى الناتج القومى والقدرة على ادارة دفة الحكم وقطاع الأعمال بنجاح وفقا لأساليب القرن العشرين ، انها تمثل عذرا للمجتمعات التى تعجز عن التخلص من عبء التقاليد أو التغلب على أنماط القبيلة العربية بأشكالها العديدة وبذلك يصبح الغرب هو كبش الفداء الذى يمكن تحميله ثقل العار العربى الجماعى .

غير أنه بمعنى آخر ، فان عداء العرب للغرب يحمل فى طياته بذور المنطق . ذلك أن تجربة العرب مع الغرب عبارة عن سلسلة من المواجهات كان العرب فيها هم الخاسرون دائما . ومن خلال المدركات الحسية والحقائق التى امتدت عشرة قرون ، يرى العرب أنهم تعرضوا لسلسلة من الغزوات التى عانوا فيها ، وهم الأعلى ثقافة وأخلاقا ، على أيدى الغرب ذى الطبيعة العدوانية والخبرة التكنولوجية ، فمن الحروب الصليبية لأوروبا فى العصور الوسطى الى التدخل الاقتصادى الأوروبى فى القرن التاسع عشر ، ومن فترة الاستعمار الأوروبى منذ بداية القرن العشرين حتى منتصفه الى اصرار الولايات المتحدة على مساندة دولة اسرائيل ، يرى العرب أنه قد جرى قتلهم ، واغتصابهم ، ونهبهم ، وامتهانهم على نحو متعمد من الغرب لاخضاعهم ثقافيا وسياسيا واقتصاديا . وسواء كان ذلك منطقيا أم لا ، فان عدم الثقة والعداء وحتى الكراهية للغرب تشكل عنصرا أساسيا فى وحدة العرب . ولعل احدى أيقونات هذه الوحدة تتمثل فى الحروب الصليبية فى العصور الوسطى .

ومنذ بداية القرن الحادى عشر ، قلما تلاقت أوروبا الغربية والعالم العربى . فبينما كان الاسلام مزدهرا ، كانت أوروبا المسيحية تغط فى ظلام الجهل . غير أن أوج عظمة الامبراطورية الاسلامية قد انتهى وتحطمت الخرائط التى رسمها المحاربون والمفكرون العرب . وخضع اقليم فلسطين للفاطميين ، وهم أسرة من المذهب الاسماعيلى المنبثق عن الشيعة الذين كانوا يحكمون

مصر . وكان المسيحيون الذين يعيشون داخل حدوده يتمتعون بقدر من الأمن وحرية العبادة ويحظون بقدر من احترام الغالبية المسلمة . وعندما لحقت الأضرار بكنيسة القيامة فى عام ١٠١٠ ، ساعدت أموال المسلمين فى استعادة الرسوم البيزنطية للكنيسة الموشاة بخيوط الذهب وصورة السيد المسيح وهو يتجه الى القدس . كما أن الأوروبيين ، الذين يسعون الى التوبة بالحج الى القدس ، كانوا يأتون فى سلام . غير أنه فى منتصف القرن الحادى عشر تبدد الهدوء . فقد قام الأتراك السلاجقة . وهم قبيلة من البدو الرحل من سهول آسيا ، باجتياح العالم العربى . وفى عام ١٠٧٠ اجتاحوا القدس وطردوا الفاطميين . وأصبح الحجاج المسيحيون يعودون الى أوروبا بأوراق سعفهم وهم يحملون معهم أيضا روايات مخيفة عن الظلم وانتهاك الأماكن المسيحية المقدسة . وهكذا وقف العالم المسيحى يرقب بقلق وينتظر حيث أدار رجال سهول آسيا عجلات عرباتهم شمالا نحو القسطنطينية .

وعلى مدى سبعة قرون ظلت الامبراطورية البيزنطية ، خلال أيام عظمتها وسنوات أفولها ، بمثابة حصن للمسيحية ضد الغزاة القادمين من الشرق ، ومع حلول القرن الحادى عشر لم يعد للبيزنطيين الذين استنزفتهم صراعاتهم الداخلية ، القوة الكافية لمواجهة التيار ، وفى عام ١٠٨٥ وقف الأتراك السلاجقة على البسفور يتطلعون الى القسطنطينية وما وراءها نحو كل أوروبا الشرقية . وكان البيزنطيون يدركون أنهم لا حول لهم ولا قوة وليس بوسعهم صدهم . ومن ثم قام البابا البيزنطى أليكسوس ، الذى نبذ جانبا خمسمائة عام من الصراع بين القسطنطينية وروما من أجل السيطرة على المسيحية ، قام بطلب المساعدة من البابا اللاتينى اريان الثانى . ولبى اريان النداء وهو يضع نصب عينيه توحيد المسيحية تحت لواء روما .

وفى برد نوفمبر من عام ١٠٩٥ ، احتشد آلاف الأشخاص من كافة أرجاء أوروبا لحضور مجلس الكنائس الأعلى . واجتمعت الجماهير الغفيرة التى أقامت فى مخيمات إرتفعت عليها أعلام النبلاء ، اجتمعت فى الهواء الطلق وامتدت مثل محيط عبر الحقول الشاسعة ، ومن منصة مرتفعة أقيمت وسط مكان الاجتماع ، انطلق صوت البابا اريان الثانى مدويا قائلا : أيها الفرنجة يا شعب الله المحبوب والمختار ! . . . لقد جاءنا من القدس ومن القسطنطينية نبأ خطير بأن جنسا ملعونا ومطرودا من رحمة الله قد غزا أراضى المسيحيين وشرد أهلها بالنهب والحرق ، ان القدس أرض مثمرة أكثر من كافة الأراضى ، وجنة لجميع المسرات . ان تلك المدينة الملكية التى تقع فى مركز الأرض تدعوكم للاسراع لنجدتها . فلتقوموا بهذه الرحلة بشوق لمحو آثامكم ، ولتكونوا واثقين من الثواب الخالد الذى ينتظركم فى ملكوت السموات »* . وركع الفرسان لتلقى الصليب والتعهد ببذل أرواحهم وممتلكاتهم من أجل المهمة العظيمة التى دعاهم اليها البابا . وانضم الى الفرسان الحدادون والنحاسون والخبازون والتجار فى حمل الصليب . واستعد العبيد والخدم ، انطلاقا من الالتزام للاقطاع ، للرحيل الى الأرض المقدسة . وخرج الرهبان من أديرتهم والنساك من صوامعهم للانضمام الى جيش المسيح . وحتى أبواب السجون فتحت لتوفير مزيد من الجنود للمسيحية .

* ويل ديوارت « عصر الايمان » (نيويورك : سيمون وشوستر ١٩٥٠) ص ٥٨٧ .

وتحت لواء فكرة واحدة متأججة التقت احتياجات ورغبات البابا اربان الثاني الطموح واوروبا القلقة . ان القدس سوف تنتزع من أيدى « أتباع محمد » ﷺ الهمجيين .

وسار آلاف من الصليبيين الأقوياء من فرنسا متجهين الى القسطنطينية حيث هبطوا مثل الجراد على كنوز الكنائس والقصور والمحلات . وأدرك البيزنطيون ، الذين أصيبوا بالصدمة ، أن الأوروبيين الغربيين الذين استنجدوا بهم للدفاع عنهم كانوا يحملون رائحة البرابرة ويبعدون بقرون عن المستويات الفكرية والثقافية للشرق . وما أن تم استدعاؤهم حتى حملوا لواء حماة العالم المسيحى ضد الأتراك السلاجقة .

ومن القسطنطينية سار الصليبيون خمسمائة ميل نحو « القدس الذهبية » يسلبون ويغتصبون كل ما فى طريقهم . وفى السابع من شهر يونيو عام ١٠٩٩ ، وصل فى النهاية اثنا عشر الفا من الذين ظلوا على قيد الحياة بعد التعرض للأخطار والمعارك الى الأسوار الخارجية للقدس . وقد ظلوا على مدى ثلاث سنوات يسيرون ويقاتلون فى سبيل تحقيق هدفهم . وانتظروا قبل اجتياح « مدينة الله » غير مدركين أن سكان القدس المسلمين كانوا يعانون من حكم الأتراك السلاجقة مثلما يعانى المسيحيون . وقام الصليبيون بذبح من اعتبروهم أشراراً . وانتزعوا الأطفال من صدور أمهاتهم القتلى وقذفوا بهم على أحجار الأسوار والشوارع . وأشعلوا النيران فى أكوام الأجساد المشوهة . وقتل جنود المسيح سبعين ألف مسلم قبل اندفاعهم نحو كنيسة القيامة وهم يبكون من الفرحة ويشكرون اله الرحمة على انتصارهم . وهكذا بدأت ألف عام من حنق العرب على الغرب .

وأصبحت القدس ، بما فى ذلك معظم فلسطين وسوريا ، دولة أوروبية مسيحية ذات سيادة * . وتم تقسيم الأراضى المسيحية الى أربع امارات ـ هى القدس وأنطاكية والرها وطرابلس ـ وأدت تلك الاقطاعيات الى وجود نفس مطامح وجشع مثيلاتها فى أوروبا . وقام اللوردات الغيورون بجمع الضرائب وصك النقود والدخول فى حروب ضد بعضهم البعض . واعتبروا أنهم يملكون كل الأراضى وحولوا الملاك السابقين ـ المسيحيين منهم والمسلمين ـ الى عبيد ، وفرضوا عليهم التزامات اقطاعية . ووقع العرب جميعهم بغض النظر عن الدين تحت وطأة الأوامر الأوروبية القاسية . وهكذا فان الحروب الصليبية ، بدلا من استثارة المسيحية ضد الاسلام ، وضعت أوروبا فى مواجهة العرب فى حرب للثقافات . ومن وجهة نظر العرب فان الغرب لايزال يهاجمهم .

وفى العالم العربى المعاصر ، يقدم الدين غالبا الكلمات الرمزية لما يراه العرب من تصميم غربى على تدمير أسلوب حياة بأكمله . وفى ومضات العبارات البلاغية ، فان كلمتى « مسلم » و « عربى » يمكن استعمال كل منهما بشكل عاطفى مكان الأخرى . وفى عام ١٩٨٠ تحدث الشيخ محمد على الحركان أمين عام رابطة العالم الاسلامى عن مشاعر كافة العرب باستخدام عبارات

* اتخذ فرسان الهيكل من الحرم الشريف عاصمة لهم .

وصور بلاغية من الاسلام ، فقال : « ان المسلمين محاصرون بالأعداء وغير المؤمنين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » * . وفى عبارات أكثر حدة أبرزت صحيفة « عرب نيوز » السعودية فى شهر يناير من عام ١٩٨٣ هذا العنوان : « احتقار الغرب لشعوب الشرق الأوسط يتخذ أشكال التعصب العنصرى » .

وبعد بضعة عقود من العيش فى مناخ المشرق العربى المعتدل وبأساليبه السهلة ، خفت حدة الدولة الصليبية . وساعدت الانشقاقات التى كانت تقسم المسلمين حولها على إستمرارها . غير أنه فى القرن الثانى عشر ، وجد العرب زعيما قادرا على توحيد الأرض والرجال لتحدى الفرنجة * .

وقد ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب فى تكريت بالعراق ، وهى نفس المنطقة التى خرج منها صدام حسين . ومن المفارقات الساخرة أن صلاح الدين ، ذلك الرجل الذى يدين له كل عربى بالفضل ، كان كرديا ، وهى جماعة عرقية تتمسك بقوة بهويتها ، وظلت لعدة قرون تقاوم التعريب . وقد نشأ صلاح الدين فى مدينتى بعلبك ودمشق ، وكلاهما جزء من شبه الامبراطورية التى كان يحكمها نو الدين الكردى . وعقب وفاة نور الدين أصبح صلاح الدين على رأس الامبراطورية بوصفه أعظم قادتها . وبتدعيمه للأراضى التى ورثها . إنتقل صلاح الدين الى شمالى العراق . وفى نهاية الأمر أصبح سلطانا للحجاز والنوبة ومصر . ورغم عظمة صلاح الدين فى الحرب فقد عاش حياة شخصية تتسم بالزهد والبساطة . فكان يرتدى ملابس خشنة للغاية ولم يكن يشرب سوى الماء . وقد نأى بنفسه عن مغانم الحرب وحكم الأراضى التى فتحها بأمانة وإستقامة . وقد خاض الحرب ضد المسيحيين الأوروبيين بصفات تنطوى عليها مثالية الخليفة .

واذا كان صلاح الدين يرمز لأفضل المسلمين فان ريجنالد (أرناط) أمير شاتيلون كان يجسد أسوأ الصليبيين . ومن قلعته فى الكرك ، التى تقع على بعد خمسة عشر ميلا شمال شرق البحر الميت ، إنتهك ريجنالد مراراً الهدنة التى تم الاتفاق عليها بين المسيحيين وصلاح الدين . وفى عام ١١٨٣م أعلن عزمه على غزو شبه الجزيرة العربية لهدم قبر النبى (ﷺ) وتحطيم الكعبة . وإستشاط صلاح الدين غضبا ودعا الى الحرب المقدسة . وفى الرابع من يوليو عام ١١٨٧ ، وفى المعركة الحاسمة فى الصراع الذى دام مائتى عام بين الاسلام والمسيحية ، قضى صلاح الدين على صفوة جيوش الفرسان فى موقعة حطين بالقرب من طبرية فى فلسطين . وتم أسر ريجنالد المهزوم . وعندما مثل أمام صلاح الدين خيره بين الاعتراف بمحمد (ﷺ) كرسول لله أو الموت . وإختار ريجنالد الموت ، الأمر الذى ليس غريبا على شخصيته .

ولا تزال قلعة ريجنالد أمير شاتيلون قائمة فى الكرك . وترتفع عاليا على مرتفع فى جنوب غرب عمان . ولم يعد للباب الخارجى الثقيل الكبير وجود ، غير أن المدخل الرئيسى لا يزال يؤدى

* سعودى جازيت ، ١٣ مارس ١٩٨٠ .

(*) مما يرمز لحرب سوء الفهم بين المسيحيين والمسلمين أن العرب كانوا يشيروا للأوروبيين بالفرنجة ، ويشير الأوروبيون الى العرب بـ«السراكن» ، وهو اسم كان يطلق على قبيلة فى شبه الجزيرة العربية .

الى أعلى كما لو كان ينتظر ريتشارد قادما يمتطى حصانا أبيض كى يدلف من خلاله . وقد قاومت الشقوق الطويلة الضيقة الموجودة فى أحجار الأبراج والأعمدة الحجرية الصغيرة التى كان يطلق منها الحمام حاملا رسائلهم ، قاومت عوامل الزمن المدمرة . وتبدو كما لو كانت قلعة من قلاع القرون الوسطى قد نقلت من فرنسا أو ألمانيا أو بريطانيا ووزعت هنا فى الشرق . وشأنها شأن ريتشارد نفسه ، فانها غير متلائمة على نحو ما مع ما يحيط بها . وربما يكمن الاختلاف فى الأرض البنية أو أشجار الزيتون التى تنمو فى البساتين عبر طريق الأسفلت ، وربما فى الأشخاص الذين يسيرون فى هذا الطريق ويرتدون أغطية رأس وملابس مطرزة برسومات فريدة تميز الشرق . ورغم أن القلعة قائمة هناك منذ ألف عام ، فانها ترمز الى مكان آخر وأسلوب حياة آخر جاء الى عالم العرب ولكنه لم يستطع الاستمرار .

وقد غادر صلاح الدين أرض معركة حطين وواصل مسيرته نحو القدس . وبعد حصار دام إثنى عشر يوما فقط إستسلم المدافعون المسيحيون عن المدينة أمام القائد المسلم . وباستعادة الموقع الاسلامى المقدس ، دخل صلاح الدين الى قبة الصخرة . وسار ببطء حول جدرانها ثمانية أضلاع يرش عليها مياه الورد كى يطهرها من آثار المسيحية . ثم وقف يرقب الصليب الذهبى وهو ينزل من أعلى القبة . وطهر المكان من الخنازير والصلبان وروائح الأوروبيين الكريهة . ومرة أخرى ترجع القدس للاسلام . وباستثناء فترة وجيزة فى القرن الثالث عشر ظلت فى أيدى المسلمين حتى عام ١٩١٧م عندما إستولت عليها بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى .

وقد أدى سقوط القدس الى مجىء أشهر الحملات الصليبية ـ وهى الحملة الثالثة (١١٨٩م-١١٩٢م) . ذلك أن مواجهة صلاح الدين لريتشارد قلب الأسد ربما كانت آخر الصراعات البطولية بين الشرق المسلم والغرب المسيحى . وفى شخصية ودوافع كلا الرجلين يرى العرب المواجهة الثقافية الكبرى بينهم وبين الغرب .

لقد إعتلى ريتشارد الأول عرش انجلترا وهو فى الحادية والثلاثين من عمره . وكان ابن هنرى الثانى واليانولا أميرة أكيتين . وقد ورث عن أمه الشخصية المندفعة والجامحة . وكان منغمسا فى الملذات ويجمع الضرائب من شعبه كى يوزعها على مآدب الشرب والمظاهر البراقة . وبدافع إحساس جامح بالمغامرة ، قام ببيع اعتراف باستقلال اسكتلندا من أجل تمويل حملته الصليبية لاسترداد القدس من يد صلاح الدين .

لقد كانت التصرفات والاتهامات المتبادلة بين ريتشارد وصلاح الدين قاسية للغاية . فقد قام ريتشارد بذبح ٢٫٥٠٠ مسلم عند الأسوار الخارجية لمدينة عكا . ورد صلاح الدين بإصدار أمر بقتل كل الأسرى الانجليز . وفرض ريتشارد حصارا دام سنتين حول عكا ، وتحمل صلاح الدين الحصار . وكان صلاح الدين يتحرك بدافع العقيدة ، أما ريتشارد فكان يتحرك بدافع الحب المطلق للحرب . غير أنه كانت هناك درجة من الاحترام بين الاثنين الى حد أنه عندما فقد ريتشارد حصانه فى المعركة ، أرسل له صلاح الدين جوادا حتى لا تلحق بمحارب شجاع وصمة القتال بدون حصان . لقد كان الاحترام موجوداً لأنهما كانا يقاتلان كندين ، وهو وضع لم يعتده العرب مع الغرب منذ ذلك الحين .

وفى النهاية أرغم ريتشارد على الرحيل الى بلاده تاركا صلاح الدين وقضية الاسلام منتصرة . وفى عام ١١٩٣ توفى صلاح الدين عن عمر يناهز الخامسة والخمسين تاركا امبراطورية تمتد من مصر عبر معظم فلسطين الى سوريا وتنتهى عند السهل الواقع بين دجلة والفرات .

وبالنسبة للعرب فإن أسطورة صلاح الدين لم تمت على الاطلاق . إذا أنه يظل الرمز الدائم لقوة العرب ضد الغرب ، الرمز المجيد لتاريخ العرب فى القرون التى أعقبت أفول الامبراطورية الاسلامية .

ويشكل البحث عن صلاح الدين جديد ، البطل الذى بوسعه إنزال الهزيمة بالغرب ، المطلب الدائم الكبير للسياسة العربية . فقد رأى العرب صلاح الدين فى عبد الناصر إبان الخمسينيات والستينيات . وبعد وفاته حاول معمر القذافى إرتداء عباءة بطل العرب الذى توفى منذ أمد طويل ولكنه لم ينجح . وفى وقت ما فى الثمانينيات سمح العديد من العرب لآية الله خومينى فى إيران ، وهو غير عربى ، بأن يكون رمزهم فى مواجهة الغرب . وفى العام الأول من التسعينيات أمسك صدام حسين بميراث صلاح الدين .

وطوال مائة عام بعد هزيمة صلاح الدين لريتشارد قلب الأسد ، ظلت أرض المسيحية المتقلصة فى المشرق تجذب اليها حملة صليبية تلو الأخرى . وقد أدت الحملة الرابعة ، « حملة الأطفال الصليبية » ، الى قتل أو تشريد خمسين ألف طفل أوروبى . ولم تحقق الحملة الخامسة ، وهى آخر الحملات الحقيقية ، شيئا للأوروبيين . ولم تكن الحملتان الصليبيتان السابعة والثامنة اللتان قام بهما لويس التاسع ملك فرنسا سوى جهود ضعيفة لرجل قديس . وأخيراً إنتهت تلك الحملات . وفى عام ١٢٩١ سقطت عكا ، أقوى المواقع المسيحية فى فلسطين . وأعقبتها الموانىء التى تقع على البحر المتوسط فى صور ، وصيدا ، وحيفا وبيروت . وفى نهاية الأمر رحل الأوروبيون الى بلادهم أو فعلوا ما كان يفعله الغزاة دائما فى الهلال الخصيب ـ حيث إندمجوا مع الناس الذين جاءوا لغزوهم . ولا تزال آثار ما يزعم العرب أنهم سلالتهم موجودة هناك .

وقد وجدت واحداً فى مخيم قلندية للاجئين بالضفة الغربية التى تحتلها اسرائيل . فقد شققت طريقى من خلال الممرات الضيقة للمخيم المزدحم التى تؤدى الى المدرسة ، وشاهدت عشرة أو إثنى عشر من الصبية فى سن المراهقة وكانوا يلوحون لى بأيديهم ويصيحون « أنا ، أنا ، إلتقطى لى صورة » . وكانوا جميعا ذوى شعور داكنة وعيون سوداء ، وبنية قوية الى حد ما ، وصور متطابقة من « العرب » باستثناء صبى واحد . فقد كان أطول قليلا من الآخرين ، وأكثر نحولا . غير أن ما يجعله مختلفا عن الباقين هو شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين الرماديتين . أنه من النوع المعروف فى العالم العربى باسم « الطفل الصليبى » ، وهو بشكل حقيقى أو متخيل من نسل الفرنجة الذين دخلوا وسلبوا وتركوا أثراً دائما فى عالم العرب .

لقد أحدثت الحروب الصليبية تغييرا عميقا فى المجتمع الاسلامى . فقبل وصول الأوروبيين الأجلاف غير المتعلمين ، كانت الحكومات والشعوب الاسلامية متسامحة مع المسيحيين واليهود الذين يعيشون بينهم . غير أنه بعد قرنين من الاحتلال المسيحى القاسى ، تبددت مشاعر الود حيال المسيحيين . وانتهج الحكام ، استمدادا من عداء شعبهم ، مواقف قاسية إزاء أى فرد يشتبه فى

تواطئه مع الكفرة . وبغض النظر عن حقيقة أن المسيحيين كانوا يتماثلون مع جيرانهم العرب أكثر من الأوروبيين الغزاة ، فانهم أصبحوا جميعا موضع شك . وإمتدت قبضة الحكومة القوية الى الكنائس والمدارس ووصلت الى الموارد المالية لمن يدينون بالمسيحية . وكان كل ذلك جزءا من تزايد كراهية العرب للأجانب وتعصبهم .

وبعد الحروب الصليبية عاش العرب فى عزلة ميزت كل مستقبلهم وتفسر بعض الظروف الجماعية التى يعيشها العرب اليوم . ورغم أن الاحتلال التركى فى القرن الخامس عشر كان هو السبب فى تلك العزلة الى حد بعيد ، فان العرب كانوا بالفعل قد فصلوا أنفسهم عن عمد عن الغرب ، وفى حين أن الصليبيين حملوا معهم الى أوروبا ما تعلموه من العرب وإستفادوا منه فى عصر النهضة والتنوير وفى النهاية الثورة الصناعية ، فإن العرب تقوقعوا أكثر داخل التشريعات الاسلامية وأمن أسلوب حياتهم . ومن جوانب كثيرة ، فانهم لم يتراجعوا عن ذلك قط .

وقد زاد من العزلة إعتقاد ظل ينمو داخل وعى العرب الجماعى بأن جيوش أوروبا المسيحية هى المسئولة عن انتهاء العصر الذهبى لحياتهم الفكرية والثقافية . وذلك هو قوام الأسطورة الشعبية . وعندما وصل الصليبيون كان الهلال الخصيب يعيش فى حالة تمزق سياسية . فقد ظهرت عدة جماعات دفعها الاحساس بأفول الامبراطورية الى الهجوم بالفعل عليها من الشرق والشمال والجنوب . وكانت الامبراطورية الاسلامية لا تزال ممزقة عندما إنسحبت جيوش أوروبا المسيحية . وكان توحيد صلاح الدين للمسلمين أمراً مؤقتا . وعندما مات تسببت عائلته فى تمزيق إمبراطوريته .

فقد استقل أحدهم بالقاهرة ، وآخر بدمشق وثالث بحلب ، وحكم أحد الأشقاء شرق الأردن وتنافس مع أبناء إخوته على مصر وسوريا . ومع ذلك فان الاعتقاد بأن الأوروبيين هم السبب فيما آل اليه العرب من عجز مهين لا يزال قويا ومقنعا بشكل يسيطر على النفسية العربية . ذلك أن صورة الصليبى الجاهل ، شبه البربرى ، قاسى القلب لا تزال قوية الى حد أن الامهات السوريات تخفن أطفالهن باستدعاء « ريتشارد قلب الأسد » حتى يهذبن من سلوكهم . إن الحروب الصليبية ، وهى فترة تلاشت من تاريخ الغرب ، لا تزال عالقة فى أذهان العرب . إن قوتها وإلحاحها أمر لا يدركه الغربى تماما سوى بالتجربة .

لقد جلست ذات يوم فى غرفة صغيرة بمدينة سيدى أبو سعيد الساحلية التونسية مع ياسر عرفات . وفى مواجهة مكتبه كانت هناك شاشة تليفزيونية ضخمة موضوعة على قائم معدنى عال ، جلس يشاهد عليها أحد أفلام هوليوود الاستعراضية التى ظهرت فى الخمسينيات . وكان فرسان القرون الوسطى يصطفون أمام طاولة يمزقون اللحم بأسنانهم ويلقون بالعظام الى كلاب ضخمة خشنة المظهر تقبع تحت أرجلهم . وكانت هذه هى الخلفية التى دار حولها حديث عرفات . فبعد إضاءة الأنوار ، بدأ يتنقل فى كلامه بين آثام الغرب ضد الفلسطينيين والآثام التى لحقت بالعرب من الصليبيين الأوروبيين . ووسط حماسه المتدفق بدا كما لو كان يتحدث عن أحداث وقعت فى آن واحد . وكان عرفات يعكس موقف العرب الذى يتلخص فى أن الحروب الصليبية خلقت نمط كافة العلاقات بين الغرب والعالم العربى منذ الاستعمار الأوروبى فى مستهل القرن الثامن عشر حتى دولة اسرائيل الى حرب الخليج .

وخلال الأيام الأولى من أزمة الخليج فى عام ١٩٩٠ ، عندما كانت القوات الامريكية تتدفق على المملكة العربية السعودية ، أعلن وزير الشئون الدينية الأردنى ، وهو نتاج واضح للثقافة العربية ، قائلا « إننا لا نستطيع أن ننتقم من الولايات المتحدة ذاتها نظرا لأن محيطات واسعة تفصل بيننا . ولكن أمامنا الآن فرصة للثأر من القوات الامريكية والصليبيين الآخرين الذين يوجدون على مرمى حجر منها . إننى أؤكد لكم أننا سوف نأسرهم ونكبلهم بالاغلال كما فعل المسلمون مع الصليبيين » * . وهكذا تدور أذهان العرب عبر القرون تصور بخيالها غزو العالم المسيحى للاسلام .

وتغيب عن الأسطورة حقيقة أن التهديد طويل الأمد الذى واجه الحضارة الاسلامية العظيمة قد جاء من قبائل سهول آسيا الشمالية . فقد جاءوا فى أول الأمر كرقيق أو تم شراؤهم من وراء الحدود الأسيوية الوسطى للامبراطورية الاسلامية . وكان هؤلاء الصبية الصغار الذين يتم استجلابهم فى سن مبكرة ، يجرى تدريبهم وتعليمهم وتحويلهم الى الاسلام ، وفى النهاية ضمهم فى صفوف جيوش الامبراطورية . وإبان الحكم العباسى لبغداد ، كان المماليك ، الأرقاء الاسيويون ، هم الذين يسيطرون على الجيش . ولكنهم كانوا مجرد مقدمة للقبائل التركية التى سوف تأتى تحت قيادة زعمائها .

لقد اعتنق الأتراك الرحل الاسلام فى القرن العاشر عن طريق الدعاة وقاموا بزعامة سلالة رئيس قبيلة يدعى سلجق باقتحام قلب الأراضى الاسلامية فى عام ١٠٤٠ . واجتاح الأتراك السلاجقة ، الأشداء ، غير المتعلمين ، الممتلئين بالطاقة والحماس ، الامبراطورية الاسلامية المحطمة والمتدهورة فى طريقهم . ومع حلول عام ١٠٤٢ كانوا يسيطرون على الهضبة الايرانية . وفى عام ١٠٥٥ استولوا على بغداد ، العاصمة الدينية والادارية للعالم الاسلامى . ورغم أنهم كانوا يساندون الخلافة ، فان الأتراك السلاجقة أطلقوا على أنفسهم لقب سلطان الذى كانوا يمارسون من خلاله النفوذ والسلطة . ولكن شأنهم شأن من جاءوا قبلهم ، فانهم خضعوا للتأثير القوى للثقافة الاسلامية .

وعلى مدى أكثر من قرن وثلث (١٠٥٥ - ١١٩٤) ، تمكن الأتراك السلاجقة من توحيد مملكة الاسلام من آسيا الوسطى حتى حدود مصر الشرقية . وكانوا هم الذين وقفوا على أبواب القسطنطينية التى كانت تثير الحروب الصليبية .

وفى القرن الثالث عشر ، عندما كان الأوروبيون يشنون حملتهم الصليبية الخامسة ، برز تهديد آخر للاسلام فى الشرق . فقد تمكن جنكيز خان الأسطورى من جمع القبائل المغولية ووقف على أهبة الاستعداد للاندفاع غربا . وفيما بين عامى ١٢١٩ و ١٢٢١ تقدم عبر تركستان الى ايران وأفغانستان والى القوقاز وجنوبى روسيا . ومات جنكيز خان العظيم فى عام ١٢٢٧ وتوقف زحف المغول . وبعد تسعة وعشرين عاما دفع الأمير هولاكو ، حفيد جنكيز خان العظيم القبائل المغولية غربا . و« مثل الاعصار ، اجتاح المحاربون من موطنهم عبر سهول آسيا عالم الاسلام ، تاركين

★ صحيفة نيويورك تايمز ١٦ ديسمبر ١٩٩١ م

خلفهم أنهارا من الدماء وأكواما من الدمار* . وبين عشية وضحاها أصبح السلاجقة خاضعين للمغول .

وفى عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ، وسلبوا ونهبوا المنشآت العامة التى كانت تجسد القوة الفكرية للامبراطورية الاسلامية . وفى عام ١٢٥٩ ، انطلقت جيوش هولاكو الى سوريا واستولت على دمشق وحلب وتوجهت الى البحر المتوسط . وأنهى المغول ، الذين كانوا أكثر بربرية من المسيحيين ، فترة عظمة الاسلام وهى فى مهدها** .

وبشكل تدريجى ، انصهر المغول فى الكل مثل الآخرين الذين غزوا المنطقة الشاسعة الواقعة بين آسيا وأوروبا . واعتنقوا الاسلام . واندمجوا مع العرب فى امبراطورية جديدة سوف تحكم العالم العربى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى - هى الامبراطورية العثمانية .

لقد بعث الأتراك ، وهم مزيج من السلاجقة والقبائل الأخرى الناطقة باللغة التركية ، قوة جديدة فى الإسلام . وبدافع حقهم فى الخلافة ، وسع الأتراك مرة أخرى الحدود الإسلامية ، وكانت هذه المرة فى البلقان وعلى أبواب أوروبا . ففى التاسع والعشرين من شهر مايو عام ١٤٥٣ إستولى العثمانيون على القسطنطينية ، منهين بذلك الإمبراطورية البيزنطية الواهنة . وبالنسبة لأوروبا كان سقوط القسطنطينية بمثابة نهاية العصور الوسطى . وبالنسبة للإسلام كان بداية عصر إستعمارى جديد .

وقد تمتعت الامبراطورية العثمانية بعصرها الذهبى فى القرن السادس عشر فى ظل حكم سليمان الكبير الذى دام ستة وأربعين عاما . فقد امتدت امبراطورية سليمان من نهر دنيستر فى البلقان ، عبر الأناضول الى الهلال الخصيب وسواحل شبه الجزيرة العربية وعبر شمال افريقيا حتى الجزائر . وضمت بين جوانبها شعوبا بلغ تعدادهم ما بين عشرين الى ثلاثين مليون نسمة ومجموعة من اللغات المتعددة ، والمؤمنين بالأديان الثلاثة الكبرى فى العالم .
غير أنه مع كل تلك الأمجاد التى حققها حكم سليمان للأتراك ، فانه فشل فى وقف تدهور الثقافة العربية . فقد كانت الامبراطورية بمثابة احياء للدولة الاسلامية وليس للثقافة العربية . وقد شكل الأتراك طبقة عسكرية - سياسية حكموا بها خليطا متنوعا من الشعوب ، كان العرب مجرد جزء منها . وكانت اللغة التركية ، التى انضمت الى اللغتين العربية والفارسية كلغة للاسلام ، هى لغة الدولة الوحيدة . ولم يعد الخليفة ، ذلك المنصب الذى عاد الى الحياة فى القسطنطينية ، من سلالة النبى ﷺ أو ممن يعود أصلهم الى مكة . بل انه لم يكن حتى عربيا . غير أن العرب الذين

---

* فيليب ك . حتى « الاسلام : أسلوب حياة » (مينوبوليس ، مطبعة جامعة مينيسوتا ، ١٩٧٠) ص ١٠١ .

** أوقف المماليك تقدم المغول غربا صوب مصر وشمال افريقيا . وقام العبيد الأتراك الذين كانوا يحرسون السلطان بقتل سيدهم فى عام ١٢٥٠ واستولوا على الحكم ، وحكموا مصر على مدى ثلاثة قرون . وكان المماليك هم الذين طردوا فلول الصليبيين من الشرق . وكانت سلطنة المماليك فى مصر هى التى ظلت قلعة الثقافة العربية وأصبحت مصر نوعا من بيزنطة عربية قلعة الثقافة القديمة التى وقفت ضد الموجة الجديدة التى كان يمثلها الأتراك والمغول وخلفاؤهم فى الشمال الذين ضموا مصر الى الامبراطورية العثمانية فى مستهل القرن السادس عشر .

كانوا يندبون انتقال الخلافة من أيدى العرب ، تقبلوا الامبراطورية العثمانية التى بعثت حياة جديدة فى صورة الدولة الاسلامية . وفى ظل هذه الدولة وجد العرب نوعا من الوحدة بينهم وبين الأتراك . وعلى مدى أربعمائة عام ارتبطت الهوية العربية بالامبراطورية العثمانية . غير أن وحدة العرب والأتراك لم تكن تضرب بجذورها فى أى من السياسة أو الثقافة . وكان الاسلام والاعتراف بالخليفة كوريث دينى للنبى محمد ﷺ هو الذى يربط العرب فى حظيرة الامبراطورية العثمانية . وتحت حكم العثمانيين راح العرب فى سبات عميق ، حيث كانت تمزقهم قرون طويلة متواصلة من الغزو الأجنبى ، وظلوا معلقين بين الغرب والقسطنطينية . وتبخر بالتدريج حب المعرفة والرغبة فى الاستكشاف التى كانت تميز العرب خلال العصر الذهبى للاسلام . ثم تبددت وانطفأت تحت غطاء ثقيل من الجمود والتقليد . ومع فقد الاتصال مع جوانبها الخلاقة والمتحررة ، فان ثقافة كاملة قد تراجعت وتقوقعت داخل أمن ماضيها الدينى .

وقد ظل العرب يحتفظون بصورة ماضيهم العظيم من خلال الشعراء الذين كانوا يجوبون القرى يرددون قصص ماضيهم المجيد . وكانت الحقيقة تمثل بذرة عندما تروى بالحنين ويزينها الخيال تتمخض عن أسطورة العرب البطولية . « لقد كان النموذج بمثابة خيال شعبى بسيط يجسد كل الصفات التى فقدها العرب على طول الطريق . ونتيجة لذلك تداخل التاريخ مع الأسطورة وأسفر عن ايديولوجية بدائية بسيطة خلت من ضروريات العصر الحديث* . واذا كان الاسلام فى أوجه قد رفع المجتمع العربى الى آفاق جديدة للتقدم الانسانى ، فانه فى أسوأ عصوره قد وصل الى نقطة متدنية من الركود ، فقد استبدل العرب مفهوم التقدم بالرضا عن النفس الذى تفاقم بشعورهم المبالغ فيه بالتفوق الذى نجم عن الروح البدوية والثقة بالايمان . وترتب على ذلك أن الانجاز والرضا عن الذات قد عاشا على نحو معكوس . وبدلا من التطلع الى المستقبل ، ظل العرب يعيشون فى الماضى معلقين كرامتهم بالاسلام ،منبع عظمتهم ومجدهم . وفى حين تحركت أوروبا نحو الثورة الصناعية ، انجرف العرب على الحدود الخارجية لواحدة من أحداث التاريخ ، وظلوا يعيشون فى ضوء ما كان ، بدلا من المشاركة فيما ينبغى ان يكون .

غير أن العرب لم يتمكنوا من العيش الى الأبد فى عزلة عن الغرب . فبعد خمسمائة عام من انسحاب الصليبيين من المشرق ،هبط الغرب مرة أخرى علي العالم العربي غازيا ، ومرة أخرى تتصادم ثقافات الشرق والغرب على أرض العرب ، غير أن الغرب سوف يكسب هذه المرة .

ففى عشية عام ١٧٩٨ كان نابليون بونابرت يهدد أوروبا باسم الجمهورية الفرنسية . وبدافع رغبة متأججة فى التوسع والصراع من أجل أن تكون له اليد العليا فى التنافس الاستعمارى مع بريطانيا ، وجه نابليون مطامحه نحو الجانب الشرقى من البحر المتوسط - نحو مصر . واعتلى نابليون متن أول سفينة ،*وأبحر الأسطول الفرنسى من مرسليا صوب مالطة ثم جنوبا وشرقا فى اتجاه الاسكندرية . وفى الطريق درس بونابرت القرآن واستغرق فى خيالاته . « لقد رأيت نفسى مؤسس

---

* فؤاد عجمى ، « أزمة العرب » الفكر والممارسة السياسية العربية منذ عام ١٩٦٧ (كامبريدج ، انجلترا : مطبعة جامعة كامبريدج ، ١٩٨١) ص ٤٧ .

دين ، وأسير الى آسيا ممتطيا ظهر فيل وأضع على رأسى عمامة ، وممسكا فى يدى قرآنا جديدا وضعته بما يلائم احتياجاتى » * .

ولدى رسو الأسطول فى المياه الدافئة بعيدا عن الشاطىء ، نزل نابليون ومعه خمسة آلاف فرد على شاطىء بالقرب من الاسكندرية لم يكن هناك من يحميه ، وأعلن نابليون والفرحة تملؤه لنجاح مهمته ، عن اعتزامه نقل فلسفة الثورة الفرنسية الى المصريين . « من الآن فصاعدا ، وبعون الله ، لن يتم فصل أى مصرى من وظيفته . ولسوف يحكم من هم أكثر ذكاء وتعليما وفضلا ، وبذلك سوف ينعم الناس بالسعادة » * . ثم سار الى القاهرة لانتزاع مصر من حكامها المماليك .

وكان نابليون لا يعرف الكثير عن العالم العربي شأنه شأن غالبية الأوروبيين . ولفترة من الوقت ، تقرب ظاهريا من الثقافة بالاشادة بالأزهر ، الذى يعد أكبر مركز للشريعة والتقاليد الاسلامية ، وكان يتحدث يوميا مع المشايخ المستنيرين . غير أنه كان يؤمن بتفوق قوة التكنولوجيا على سلامة التقاليد . وعندما حاول نابليون التأثير على شعبه المحتل باطلاق بالون ملىء بالغاز ، رمز الانجاز التكنولوجي الفرنسى المتألق نظر إليه المصريون بعيون واتجاهات عربية . وأصدر أحد المشايخ حكما جامعا قال فيه « ان الفرنسيين صنعوا وحشا ظنوا أنهم به بالغين عنان السماء بهدف الوصول الى الله واهانته . ولكنه وصل فقط الى ارتفاع منخفض ، ثم هوى في عجز يبعث على السخرية » * .

وفى حين كان نابليون يتلاعب بالرموز الاسلامية والتكنولوجيا الغربية ، كان الشعب يمتلىء غضبا . وبدأ فى السر توزيع منشورات سرية من مسجد الى مسجد تؤكد أن احترام نابليون للاسلام انما هوكذب وادعاء . وجاء فيها « ان الفرنسيين ... ندعو الله العلى العظيم أن يدمر بحكمته بلادهم الملعونة ... كفرة عصاة ، ينكرون وجود خالق أعلى ، وينكرون كافة الأديان والمعتقدات ... فليتحد حماة الاسلام وليسيروا الى المعركة » ** .

وكان عداء المصريين لنابليون يرجع الى التفسير الكلى للمعرفة وأساس الوجود أكثر منه الى القوة العسكرية والمادية . وكانت المواجهة بين نابليون والمصريين « مواجهة بين أوروبا التى تؤمن بقوة ارادة الانسان لتغيير الحاضر وتقرر مستقبله ، والاسلام الذى يسلم بأن المعرفة كلها مكتسبة وأن

* مقتبس من مانسفيلد « العرب » ص ١٠٤ .

* مارشال ب . ديفيد سون « عصر نابليون » (نيويورك ، التراث الأمريكى ، ١٩٦٣) ص ٥٦ .

* ريتشارد باتاى : الفكر العربى (نيويورك ، ١٩٨٣) ص ٢٧٠ .

** الليفتنانت كولونيل ب . ج . الجود . « مغامرة بونابرت فى مصر » ، (لندن : همفرى ميلفورد ، ١٩٣١) ص ١٥٥ .

عملية التعليم انما هى تراكم للمعرفة وليست عملية اكتشاف » * .

ولم تمض فترة طويلة الا وثارت القاهرة دفاعا عن الثقافة العربية ، فقد خرجت الجماهير تدعو الى انتقام الله من الكفرة وتطيح برؤوس الضباط المتأنقين وتطوف بها منتصرة فى الشوارع . وأذهلت الانتفاضة نابليون ، ومن ثم أمر جنوده بالخروج الى الشوارع واطلاق النيران على المصريين الذين حملوا السلاح . وأمام مقاومة العرب لجأ الفرنسيون لصد هذه الهجمات . وقام جنود نابليون بالقاء جثث المصريين بعد قطع رقابهم فى النيل .

واستعاد نابليون النظام فى القاهرة ، غير أنه لم يسيطر قط على مصر . وفشلت محاولات توسيع الوجود الفرنسى فى سوريا . ومن ثم عاد نابليون الى فرنسا . وقد أرغمه على ذلك سيطرة بريطانيا على البحار وتحدى الائتلاف المناهض لفرنسا لامبراطورية نابليون فى أوروبا* . وقد استغرقت كل تلك الأحداث ما يزيد قليلا عن ثلاث سنوات . أما نتائجها فقد امتدت الى عدة أجيال .

ولم يحدث فى التاريخ من قبل أن حقق غزو ذو نتائج عسكرية محدودة مثل هذه النتائج النفسية العميقة والدائمة . لقد غزا نابليون مصر بأكثر من جيش . ونظرا لامتلاكه ترسانة من نتاج اقتصاد صناعى ، فانه أبرز الفجوة القائمة بين الغرب والعرب . وبث فريق العلماء ، والخبراء الزراعيون ، والاداريون الذين أحضرهم معه من فرنسا عصارة أفكار عصر النهضة والتنوير فى العالم العربى المنغلق والذى كان يغط فى سبات عميق . وأظهر الاحتلال الفرنسى ، أساسا ، أمام العرب مدى تخلفهم . وكانت ذكريات القرون المجيدة للامبراطورية الاسلامية بمثابة تحد ضعيف للتفوق الغربى فى التنظيم والاقتصاد والتكنولوجيا ، وفى حين أن صراع القرون الوسطى الذى طال أمده بين العالم المسيحى الغربى والعالم الاسلامى كان صراعا بين المسلمين المستنيرين والأوروبيين أشباه البرابرة ، فان الغزو الغربى الجديد قد جاء بأوروبيين تفوقوا على العرب فى المعرفة . وفى ضوء هذه المعرفة حكموا على عالم العرب بالفشل . وقد أثارت الصدمة الناجمة عن ذلك التساؤلات حول كافة الافتراضات المتعلقة بالأخلاق والدين التى أقام عليها العرب مشاعرهم الدفينة عن القوة واحساسهم الظاهرى بالتفوق . ويشكل التحول المؤلم للمجتمع الاسلامى من مجتمع أثبتت فيه الحقائق الأبدية وحدها شرعيته الى مجتمع يمكنه التنافس مع الغرب وفقا للمعايير التى فرضها الغرب النقاط المهيمنة على التاريخ العربى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . ومنذ اللحظة التى وطأت فيها قدم نابليون أرض الشرق العربى حتى الوقت الحاضر ، ظل العرب يبحثون بكل جد عن رد عربى على تحديات الغرب . ولايزال يتعين عليهم ايجاد السبيل لتحديثهم . وفى ظل مشاعر العجز هذه يعثر العرب على أحد عناصر وحدتهم .

* ميشيل يوسف ، مقتبس فى توماس و . ليمان « مصر بعد ناصر : السادات ، السلام وسراب الرخاء » (نيويورك : باراجون هاوس ، ١٩٨٩) ص ٢٤٢ .

* يعرض المتحف البريطانى معظم انجازات المغامرة الفرنسية . فحجر رشيد ، الذى عثر عليه أحد جنود نابليون على بعد ثلاثين ميلا من الاسكندرية ، فك رموز اللغة الهيروغليفية مما كشف للحضارة عن الثقافة المصرية القديمة بالغة التقدم .

ان أى غربى يتسم بقدر من الغرور وفقدان البصيرة ، يجد نفسه فى العالم العربى منجرفا وسط التوتر الذى يعانيه العرب فى علاقاتهم مع الغرب . وهو يأخذ العديد من الأشكال المستترة فهناك الموقف الدفاعى للسعوديين . وهناك غضب الفلسطينيين . وهناك اللبنانيون المسلمون الذين يجادلون بصخب حول نظرتهم للتاريخ ، وهناك تأكيد المصريين بأن الالتزام العربى بالعائلة والدين هو المقياس الصحيح الوحيد للمجتمع . غير أنه ليس ثمة جنسية تحتكر موقفا خاصا . فالكل يتأرجح من جماعة الى أخرى ويشتركون فى موقف دفاعى يتسم بالكبرياء . وقد لمست ذلك عن قرب بين نساء الطبقة المتوسطة والعليا المتعلمات .

إن نساء العرب مثل الرجال يقسمون العالم الى عالم مادى وآخر روحى . وتندرج منتجات الغرب فى الفئة الممتازة . وفى المناسبات الاجتماعية ، تدور الأحاديث حول المقتنيات من حيث منشاها الأصلى . فهذه بلوزة تم شراؤها من نيويورك ، وساعة يد من جنيف وأحذية من المحلات التى تبيع فقط الواردات الايطالية . وتعلن كل سيدة « انى أشترى فقط سلعا غربية الصنع بالطبع ان نوعيتها أرقى كثيرا من أى شىء آخر » . غير أنه عندما يتحول النقاش الى المبادىء وقيم المجتمع ، فان أى حديث عن التفوق الغربى يختفى . ولا تتطرق المقارنات بين الثقافة الغربية والعربية الى حقوق الفرد أو حكم القانون . وبدلا من ذلك ، ينظر الى المجتمع الغربى على أنه يفتقر الى القيم الحقيقية ويتساهل فى المواقف التى تحط من قدر العائلة وتنزل من قدر الدين الى نفايات ثقافة ملحدة . وفى مجال الأخلاق والقيم يشعر العرب بفوتهم الاجتماعية بالمقارنة للغرب . وبينما كنت أغادر إحدى حفلات الشاى ، قالت لى احدى معارفى مؤكدة بدون حقد « إنك لا تبدين مثل غالبية الغربيين ، الذين يعتقدون أنهم يملكون كل شىء ولكنهم فى الحقيقة لا يمتلكون شيئا » . ولم تكن تتحدث باسمها فحسب وإنما باسم ثقافة بأكملها .

وفى ظل الحكم العثمانى ، ظل المجتمع العربى على ما هو عليه لعدة قرون . فقد ظل الفلاحون يعملون فى حقولهم باستخدام المحراث الذى يمسك باليد وينقلون منتجاتهم على ظهور الحمير . وظل الحرفيون ينتجون مصنوعاتهم التقليدية باستخدام نفس الأساليب القديمة التى كان يستخدمها أباؤهم وأجدادهم . وفى القرن التاسع عشر ضربتهم رياح المصالح الاقتصادية الغربية التى هبت من خلال الباب الذى فتحه نابليون . فقد أزاحت المنتجات الصناعية لبرمنجهام وليل جانبا منسوجات دمشق المقصبة والمنتجات النحاسية لساحل البحر المتوسط . وتولى رجال المصارف الأوروبية مهمة التحكم فى السلطات التى لم تكن على إستعداد إلا عاجزة عن مقاومة سياساتهم الائتمانية . ولم يؤد تدخل الغرب هذا الى تدمير العرب اقتصاديا فحسب وانما اقتحم بعنف نفسية وقيم دين العرب وإحساسهم بوحدة التاريخ والثقافة . ويعتقد العرب أن عملية التحديث التى فرضها عليهم الغرب قد ترجمت الى هجوم على الدين والثقافة الاسلامية .

ورداً على ذلك ، ابتكر العرب فى مبدأ الأمر حجة لتفسير عدم تطورهم ثم إقتنعوا بها ، وهى أن المسلمين ظلوا لفترة طويلة يشوهون قيمهم . وأقر دعاة الاصلاح الاسلاميون فى القرن التاسع عشر ، وهم يتعرضون لآراء المصلحين الأوائل ، بأن القيم السائدة داخل العالم العربى تختلف عما جاء به الاسلام منذ قرون خلت . وبالنسبة لهم ، كان الخلاص العربى يكمن فى إعادة اكتشاف وتنقية تعاليم محمد (ﷺ) الأصلية . ومن خلال الاسلام فإن بوسع العرب القضاء على مواجهة الغرب . وبالتأمل فى الماضى ، فانهم بعثوا بقوة الاسطورة البطولية التى سوف تعيد الحياة الى المجتمع العربى . ولكن أفكار القرن السابع العربية لم توقف الفيضان الغربى . غير أن فشل المصلحين الاسلاميين فى إيجاد اجابة للتفوق الغربى فى العلوم والصناعة أثار التساؤل حول العلاقة بين الاسلام والعالم الحديث . وبصفة عامة ، فان محاولات استكشافاتهم الفلسفية أسفرت عن

تأكيد وضع الاسلام الرفيع فى عالم الأخلاق ودعوة العرب لأن يلتمسوا فى الاسلام سبيلا لنقل ما يجدونه مفيداً فى الغرب للمجتمع العربى .

وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر استمر التغلغل الاقتصادى الغربى يهدد الوجود العربى والثقافة العربية بلا هوادة . وأخضع رأس المال الغربى . والتجارة الغربية الدول بكفاءة تفوق ما فعله الجيوش . فقد أعلنت الامبراطورية العثمانية ذاتها إفلاسها فى عام ١٨٧٥ ، ومصر فى عام ١٨٧٦ وتونس فى عام ١٨٨١ . وفرضت بريطانيا حمايتها على مصر فى عام ١٨٨٢ ، وفى العام التالى سيطرت فرنسا على تونس .

وأطلقت موجة جديدة من دعاة الاصلاح الاسلاميين نداء يستحث فيه العرب على الصحوة القومية وعودة الخلافة العربية حتى يمكن مواجهة الغزو الغربى ودرء آثاره المدمرة على المجتمع الاسلامى . وبدلا من استخدام الاسلام كذريعة منطقية للانسحاب الى الماضى ، فقد فتحوا الأبواب أمام الفكر الاسلامى وتوسيع مجاله وإعادة تفسير بعض المفاهيم الاسلامية بما يمكن الاسلام من الالتقاء بالعالم الحديث . ومن خلال التركيز على اللغة العربية وتراث العرب فى أسلوب الحياة ، فان هؤلاء القوميين العرب الجدد ألبسوا المفاهيم التقليدية معان حديثة .

وكان ذلك هو النجاح اليمينى للقومية العربية الوليدة * . وكان جناحها اليسارى يتكون من الصفوة المتعلمة التى ستقف فى طليعة حركة القومية العربية فى القرن التالى ** . وكانوا يعتقدون أن نجاح العرب فى التحديث يتطلب فصل الدين عن الحياة السياسية . وإبان العقدين السابقين للحرب العالمية الأولى كانت قوميتهم تنادى بأنه من خلال اللغة والثقافة يجب ربط العرب معا فى مختلف المناطق والأديان من أجل مصلحة الجميع .

إن كافة القوميين فى حاجة الى أسطورة ومثل أعلى . . وبالنسبة للعرب فإن توحيد كافة الشعوب الناطقة بالعربية فى أمة واحدة يخلق أرضا مشتركة بين العائلات ، والقبائل ، والأقاليم والأديان . . وبتوحيد وتمجيد الأمة العربية الأسطورية ، بدأ المفكرون العرب فى البحث عن نظام يحطم قيود التقاليد ويتخلص من سموم ونفوذ الغرب . وانطلاقا من جهودهم ظهر اجماع علم بين العرب المتعلمين على أن شعوب شبه الجزيرة العربية ، والعراق ، وسوريا ، ومصر وشمال أفريقيا يشكلون أمة تربطها معا مفاهيم وحقائق النسب والوطن والدين ، وأهم من ذلك كله ، اللغة . ورغم إفتقار القومية العربية لتعريف محدد ، فانها كانت تبشر بالقوة حيث كان الضعف وتحمل الرسالة حيث كانت العزلة .

ومع بداية القرن العشرين ، إنتقلت القومية العربية التى بدأت كرد فعل تجاه الغرب الى التساؤل حول وضع العرب داخل الامبراطورية العثمانية . وقد دعت إحدى قصائد المتنبى ، الشاعر الذى عاش فى القرن العاشر ، لايجاد هوية عربية محددة خارج نطاق الاسلام حيث جاء فى معناها

(*) لم يكن دعاة الاصلاح الاسلاميون القوميين . فقد هاجم العديد منهم فكرة القومية بوصفها نوعا من الهرطقة العلمانية التى قسمت المجتمع الاسلام العالمى . وغالبا ما يتم الاعراب عن وجهة النظر هذه فى الحركات السياسية الاسلامية الموجودة فى العالم العربى حاليا .

(**) أنظر الفصل الرابع .

أن الرعايا مثل الملوك يتساءلون : هل بوسع العرب الازدهار والنجاح والتفوق على من يحكمونهم من غير العرب ؟ »*.

لقد كان بوسع العرب التحدث كثيرا عن الأضرار التى لحقت بهم فى ظل حكم العثمانيين ـ والمتمثلة فى سوء الادارة ، ونقص التعليم على نحو مؤسف والظلم والاستبداد الذى عانوا منه على أيدى الحكام المحليين . ومن سوء المعاملة إنبعث إحساس غامض بالوطنية العربية راح يحوم حول صورة الوطن . وقد كانت كلمات الكاتب الكواكبى تستصرخ المواطنين الناطقين بالعربية : « أيها الناس ، إتركونا ندير شئوننا بأنفسنا ، ونتواصل بين بعضنا البعض باللغة العربية البليغة ، ونظهر إحترامنا وتفهمنا كل منا للآخر كاخوة . . . إتركونا ندير شئون حياتنا ونجعل الدين هو الحكم فى آخرتنا . دعونا نجتمع حول نفس الرسالة . عاشت الأمة . وعاش الوطن »* . غير أنه بعد سرد أمثلة سوء المعاملة التركية وتمجيد صورة الأمة العربية ، ظل غالبية العرب يشعرون بأنهم مضطرون للبقاء داخل الامبراطورية العثمانية ، داخل بيت الاسلام . ذلك أن الحقيقة المهيمنة كانت تتمثل فى أن الرباط الاسلامى بين العرب والعثمانيين كان يشكل الدفاع العربى الوحيد القابل للحياة فى مواجهة الخطر الغربى .

ومنذ بداية اليقظة العربية فى مستهل القرن التاسع عشر ، نأى العثمانيون بأنفسهم عن بحث العرب عن ذاتهم . غير أن الشكل الذى إتخذته القومية العربية فى النهاية جاء نتيجة للتحركات التى حدثت فى إسطنبول أكثر من الأساليب التى اتبعها العرب أنفسهم . فخلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، طالب زعماء تركيا الفتاة ، وهى جماعة سرية من المصلحين ، بتحرير النظام العثمانى بأكمله ** . ومع حلول عام ١٩٠٧ ، أصبحوا بمثابة قوة دافعة للتغيير داخل النظام العثمانى الضعيف . واعتبر العديد من القوميين العرب برنامج تركيا الفتاة بمثابة برنامج لهم . وفسروه على أنه حركة تدعو الى لا مركزية الامبراطورية ووضع العرب ، البالغ عددهم ١٠٫٥ مليون نسمة ، على قدم المساواة مع الـ ٧٫٥ مليون تركى . غير أنه فى عام ١٩٠٨ تفجرت قومية تركية محضة قلب الامبراطورية العثمانية . ذلك أن زعماء تركيا الفتاة الذين تولوا السلطة ، حولوا فجأة الامبراطورية العثمانية من امبراطورية متحدة تحت لواء الاسلام الى امبراطورية تدعم المصالح والثقافة التركية . وتوارى التسامح حيال العادات والتقاليد المحلية خلف المراسيم الصادرة من القسطنطينية . وفى مواجهة القومية التركية ، خبت الروح العثمانية أمام الصفوة المثقفة العربية . غير أن غالبية العرب ـ من فلاحين وتجار ومثقفين ـ كانوا يثقون فى أنه لا يمكن أن تحل القومية العربية الهشة محل الامبراطورية العثمانية التى كانت لا تزال تعتبر حصن العرب ضد الانتهاكات الغربية . وتمثلت المفارقة فى أنه أثناء الحرب العالمية الأولى ثار العرب ضد الحكم العثمانى بزعامة حاكم مكة بالتحالف مع الغرب .

(*) أ . أ . دورى ، « التكوين التاريخى للأمة العربية » ، ص ١٩١ .

(*) نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(**) المعروفة أيضا باسم لجنة الاتحاد والترقى .

ففى عام ١٩١٤ وبينما كانت سحب الحرب تتجمع فى أوروبا وتلفظ الامبراطورية العثمانية أنفاسها الأخيرة ، بدأ حسين ، شريف مكة ، يفكر فى إقامة دولة عربية مستقلة * . وكان ذلك الشريف المهيب يعبر عن هالة السلطة . فلحيته البيضاء المميزة وغطاء رأسه الأبيض وعيناه السوداوان ذاتا النظرة الثاقبة كانتا تؤثر بشدة فيمن يحدق فيه . ورغم أنه ولد فى مكة فقد تربى ونشا فى القسطنطينية كحضرى وسليل مستنير للنبى (ﷺ) . وظل على مدى خمسة عشر عاما يعيش مكرما كرهينة لدى الخليفة عبد الحميد الذى كان لا يثق فيه لاعتقاده بأنه متآمر . وفى النهاية نجح ذلك المتآمر . ففى أول نوفمبر عام ١٩٠٨ أصبح حسين شريفا لمكة وحامى حماها ، وهو فى سن الخامسة والخمسين . وبتقوية مركزه لدى قبائل الحجاز ، حقق حسين نفوذا سياسيا سرعان ما تجاوز نفوذ الحاكم التركى الذى اضطر الى إذلال نفسه علانية بتقبيل طرف ثوب الشريف .

وفى مستهل عام ١٩١٤ ، أرسل حسين إبنه الثانى عبد الله الى القاهرة للتلميح على نحو غامض للورد كتشنر ، المقيم البريطانى ، بأن الشريف يمكن أن يقوم بمساعدة بريطانيا ، بثورة ضد الأتراك . . ورغم أن الرسالة كانت ذات طبيعة حذرة ، فانها أوضحت أن حسين يريد عقد نفس الصفقة التى عقدها البريطانيون مع المشايخ العرب فى المشيخات الواقعة على طول الساحل الغربى للخليج » ففى كل من هذه الدويلات الصغيرة ، كان هناك وزير بريطانى مقيم يغدق الأموال ويقف على استعداد لاستدعاء الأسطول البريطانى إذا لاحت فى الأفق أول اشارة تنم عن حدوث انتهاك من جانب قوة معادية .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، تذكر كتشنر الحديث الذى دار بينه وبين الأمير عبد الله فى عام ١٩١٤ ، ومن ثم بعث برسالة الى الحجاز للتشاور مع حسين بشأن اقامة تحالف بريطانى ـ عربى ضد الأتراك . وغادر المبعوث « المجهول » السويس فى الخامس من أكتوبر حيث وصل جدة بعد ثلاثة أيام . وفور وصوله الى مكة إمتطى حمارا ووجد « أن كل رجل قابله ، حتى وإن كان يرتدى ملابس رثة ، مدجج بالسلاح »* . ونظرا لأن بريطانيا كانت تتطلع الى تمزيق جبهة الامبراطورية العثمانية على البحر الأحمر ، فقد قررت التعهد لمنح العرب نوعا من الاستقلال طالما كان العرب ، بقيادة الشريف حسين يساعدون بريطانيا فى الحرب . وهكذا بدأت الاتصالات الشهيرة بين السير هنرى مكماهون المندوب السامى فى مصر والسودان وحسين حامى الأماكن المقدسة وأمير مكة . وبعث اليه برسالة جاء فيها « الى السيد رفيع المقام سليل الشرفاء ، تاج

(*) الشريف هو سليل النبى (ﷺ) . وفى النظام العثمانى كان يمكن تعيين الشريف للقيام بمهمة محددة بوصفه حا
الخليفة .

(*) راندل بيكر « الملك حسين ومملكة الحجاز » (نيويورك ، ١٩٧٩) ص ٥١ .

الكرامة ، سليل شجرة محمد (ﷺ) وفرع الجذع القرشى عالى المقام ، قطب الايمان وراعى كل المؤمنين الأنقياء . . . فلتعلم بركاتك على الناس جميعا ** . وكان تبادل الرسائل هذا يعنى لحسين ومن يؤيدون قضيته وعدا بريطانيا بقيام دولة عربية عندما تنهزم الامبراطورية العثمانية *** ، وقد اعتبرت هذه الرسائل أيضا أنها تعهد جاد بامتناع بريطانيا عن عقد أية معاهدة سلام لا يتضمن على وجه التحديد إقامة دولة عربية . وفى المقابل أعلن حسين بصورة قاطعة أنه لن يقبل تحت أية ظروف بأن يصبح أى جزء من شبه الجزيرة العربية من ممتلكات أى قوة .

وفى الوقت الذى كان يتبادل فيه مكماهون وحسين الرسائل ، كانت بريطانيا وحلفاؤها فى الحرب يتفاوضون سرا لعقد اتفاقيات بتقسيم أراضى الامبراطورية العثمانية بينهم . وفى شهر فبراير عام ١٩١٦ قسمت اتفاقية سايكس ـ بيكو ، سيئة السمعة ، الأراضى التى كان العرب يعتقدون أنها ملكهم ، بين الأوروبيين . غير أن العرب لم يدركوا خيانة بريطانيا الا بعد أن كشف البلاشفة عن الوثائق * .

واعتقادا منه بأنه حصل على وعد باقامة دولة عربية ، رفع حسين بنفسه السلاح على الثكنات التركية فى مكة وأطلق أول طلقة فى الثورة العربية ضد الحكم التركى . وقد أدى الاتجاه العلمانى والتحمس القومى لزعماء تركيا الفتاة ، بالاضافة الى تحريض بريطانيا وفرنسا وروح القومية العربية الى قطع روابط العرب العاطفية مع الاسلام العالمى ، ومكنهم من الثورة على الامبراطورية العثمانية بتأييد من التحالف الغربى .

غير أنه سرعان ما أدرك العرب أنهم ليسوا جزءا من تحالف المجهود الحربى وانما هم أحد أهدافه . وبخداعهم ، تم بيع العرب كالعبيد .

ويعتمد تقييم الثورة العربية على وجهة نظر المراقب لها . . ويقول الملك حسين عاهل الأردن وحفيد الشريف حسين « ان الثورة العربية كلها كانت دفاعا عن الهوية العربية ـ ولتحقيق حرية العرب ووحدتهم * » . ان الملك يتحدث بادراك تام لما حدث فى التاريخ . ذلك أن ما كان يريده الشريف هو قيام أمة عربية مستقلة يحكمها هو وأبناؤه . ولم يكن قط قوميا عربيا وانما كان رجلا طموحا يتسلح بالدين . وفى محاولته تعريف القومية العربية وجذب العرب الذين يقفون خارج نطاق تحالفاته السياسية الى القضية ، قال « اننا عرب قبل أن نكون مسلمين ، ومحمد (ﷺ) عربى قبل أن يكون نبيا . وليس بيننا أقلية أو أغلبية ، وليس هناك شىء يقسمنا . اننا جسد واحد . ونحن عرب حتى قبل عهد موسى ومحمد (ﷺ) وعيسى وابراهيم * » .

(**) مانسفليد ، « العرب » ، ص ١٦٥ .

(***) تخيل حسين واعتقد أن بريطانيا تعهدت بمنحه دولة تمتد من الاسكندرونة حتى الحدود الايرانية شرقا وجنوبا حتى الخليج وتضم شبه الجزيرة العربية ، باستثناء ميناء عدن ومشارف سوريا غرب دمشق ، وحماة وحمص وحلب .

(*) تضمنت اتصالات حسين ـ مكماهون واتفاقية سايكس ـ بيكو أيضا نصوصا خاصة بفلسطين . أنظر الفصل الرابع .

(*) مقتبس فى ميلتون فيورست ، « البيت الهاشمى » ، النيويوركر ، ٧ يناير ١٩٩١ ، ص ٤٦ .

غير أن الثورة العربية والشريف حسين لم يكونا يعنيان الكثير بالنسبة لأى شخص سوى أتباعه . وكان أفضل ما عبر عن مشاعر العرب هو بروتوكول دمشق عام ١٩١٥ الذى حدد الشروط التى يمكن أن يؤيد بها الزعماء العرب الثورة العربية . وطالب البروتوكول ، الذى صدر عن اجتماع موسع للزعماء العرب ، باستقلال العرب التام عن أى قوة أجنبية . ورسم حدود دولة عربية تضم شبه الجزيرة العربية وفلسطين وما يعرف الآن باسم سوريا ولبنان والعراق . وتلتزم هذه الدولة العربية باقامة تحالف دفاعى مع بريطانيا وتمنح الامبراطورية البريطانية مزايا اقتصادية داخل حدودها . وبدلا من الاستقلال الكامل ، كان العرب يسعون لاقامة نوع من الكومنولث مع قوة امبريالية كانت تدرك حقيقة أن العرب كانوا لا يزالون لا يعرفون ما تعنيه فى الواقع القومية العربية . وحتى اللغة العربية لم تكن تفسر فى حقيقة الأمر ما تعنيه كلمة القومية . وبصفة عامة فان أولئك المجتمعين فى دمشق كانوا يشتركون فى بحث أيديولجى عن شىء يحل محل « العثمانية » . ونظرا لأن العرب اعتادوا طويلا على عضوية دولة اسلامية عالمية ، فانهم عجزوا عن بلورة احساس بالهوية الوطنية بين عشية وضحاها . كما أنهم لم تكن لديهم الرغبة فى تقبل الشريف حسين كخليفة للعرب .

وقد كانت الثورة العربية فى جوهرها مغامرة بريطانية هاشمية ، قام البريطانيون بتمويلها وقادها الهاشميون ، ففى الثانى من شهر نوفمبر عام ١٩١٦ نصب الشريف حسين نفسه ملكا على أرض العرب فى احتفال فى الحرم الشريف . وفى الوقت الذى كان يعلن فيه ذلك ، هدد الأتراك بالسير الى مكة لشنق « ذلك الشيطان العجوز » . ولم يكن جيش حسين الذى كان يمتلك أسلحة خفيفة فقط ، ويتكون معظمه من البدو ، ويتراوح عدده بين عشرة آلاف وأربعين ألف رجل ، لم يكن ندا للمدفعية التركية . ونظرا لأن قوات حسين كانت تشارك فى المعركة بحكمة البدو ، فانها كانت تختار القتال عندما يكون النصر مؤكدا وتنسحب لصنع القهوة عندما تلوح الهزيمة . ونظرا لأن بريطانيا كانت ترغب فى توفير بعض النظام وتقديم بعض التوجيهات للعرب فى شئون الحرب ، فقد أرسلت القيادة البريطانية فى القاهرة عددا من الضباط البريطانيين الى هناك ، من بينهم الرجل الأسطورى تى . إى . لورانس ـ لورانس العرب .

ان قصة لورانس هى قصة العلاقة المعقدة بين رجل انجليزى يعوزه الانسجام مع مجتمعه وبين سليل أبرز عائلة اسلامية . انها من نواحى هامة مغامرة رومانسية تمثل الآمال المبالغ فيها والمصالح المتعارضة وخيبة الأمل المريرة التى جعلت العرب يتحدون ضد الغرب .

وفى خريف ١٩١٦ ، قابل تى . إى . لورانس ، ذلك الشاب الانجليزى غريب الأطوار الذى تلقى تعليمه فى أوكسفورد وتمرس على أساليب حياة العالم العربى ، قابل فيصل ثالث أبناء الشريف حسين الذى كان على دراية بأساليب حياة الصحراء وجاهلا بأساليب حياة الغرب . وعندما وصل لورانس الى مقر القيادة العربية فى حماه بسوريا ، كان فيصل يقف بثوبه الأبيض فى الحديقة داخل إطار أعمدة مدخل أسود اللون . ويقول لورانس « لقد شعرت من الوهلة الأولى أن ذلك هو

(*) مانسفيلد ، « العرب » ، ص ٢٢٣ .

الرجل الذى ـ قدمت الى الجزيرة العربية للبحث عنه ـ الرجل الذى سوف يشعل نار الثورة العربية »(*) . وقد هاجم فيصل العربى الأسمر طويل القامة ولورانس ـ الانجليزى الأشقر ضئيل الحجم ـ خطوط السكك الحديدية والحاميات التركية فى غارات خاطفة سوف يشتهر بها دائما مقاتل حرب العصابات . ورغم إبتهاجها بالنتائج ، كانت بريطانيا لا تزال ترى أن الجهود العربية ليست أكثر من عنصر مساعد فى هزيمة حليف ألمانيا المتداعى ، وهى الامبراطورية العثمانية . غير أنه اذا كان القائد البريطانى اللنبى قد رأى أن جيش فيصل هو مجرد جناحه الأيمن ، فان فيصل وحسين كانا يعتبران نفسيهما بمثابة القوة الرئيسية فى حركة تحرير العرب .

ولم تكن أى من الأهداف التى ضربتها القوات العربية استراتيجية حتى العقبة . ففى التاسع عشر من شهر يونيو عام ١٩١٧ ، غادر لورانس ومعه أربعون رجلا من قوات الشريف مدينة الوجه على ساحل شبه الجزيرة العربية واتجه الى الصحراء . وتعرض الرجال والجمال لشدة حرارة شمس الصيف القائظة . وساروا ما يزيد على ثمانمائة ميل ينشرون الوعد بالنصر وبريق الذهب البريطانى بين القبائل البدوية . وفى النهاية ، وبمساعدة أكثر من ألف رجل هاجم لورانس والعرب من جانب البر ميناء العقبة التركى الذى يقع أعلى البحر الأحمر . وكان انتصارا كبيرا للحلفاء على الجبهة مع تركيا العثمانية .

وقد تمكنت الثورة العربية من شل حركة القوات التركية البالغة ثلاثين ألف رجل على طول الخط الحديدى الممتد من عمان الى المدينة وذلك للحيلولة دون وصول القوات التركية المرابطة فى سوريا للانضمام الى الحامية التركية فى اليمن . واستفاد الحلفاء بصورة أكبر من منع الأتراك الموجودين فى الجزيرة العربية من الانضمام الى الألمان فى شرق افريقيا لإغلاق البحر الأحمر أمام سفن الحلفاء . وقد كسب العرب مكانا لهم فى تسوية السلام . واعتقد الأمير فيصل ، وربما الشريف نفسه ، أن لورانس والبريطانيين سوف يحققون لهم الاستقلال . واذا كان العرب قد اعتقدوا أن ما حدث هو اعادة تنظيم عالم العرب وعالم الغرب ، فانهم كانوا على خطأ . فقد تقرر مصير الدول العربية فى حجرات مغلقة مليئة بدخان السجائر فى باريس وفقا لاتفاق سايكس ـ بيكو .

وعندما عقد مؤتمر باريس للسلام فى الثامن عشر من يناير عام ١٩١٩ ، انضم فيصل ، وبرفقته لورانس ، الى الساسة والدبلوماسيين ورجال المصارف والبترول وحملة الأسهم والمبعوثين ، المجتمعين لدعم مصالحهم الخاصة فى معاهدة السلام . وربما كان الرئيس الامريكى وودرو ويلسون هو الوسيط النزيه الوحيد الذى كان موجودا .

ففى حين كان المنتصرون الآخرون يخططون لتقسيم الأراضى ، كان ويلسون يدعو الى اقرار سلام يرتكز على اعلانه الذى تضمن أربع عشرة نقطة وقبله الحلفاء أثناء الحرب . غيرأنه مع حلول السلام تخلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا عن النقاط الأربع عشرة من أجل مصالح ونفوذ وممتلكات الامبراطورية البريطانية . وقد اعتبر جورج مصر وبلاد ما بين النهرين ، والجزيرة

(*) تى . اى . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، (جاردن سيتى ، نيويورك ، وبلداى وشركاه ، ١٩٦٦) ص ٦٤ .

العربية ، وفلسطين ، وايران ، وقبرص والقوقاز جوائز مشروعة من حق بريطانيا . ومجمل القول أن الشرق الأوسط بأكمله ، باستثناء سوريا والمناطق المسيحية فى شمال بيروت ، قد اعتبر بمثابة مناطق اقتصادية ضرورية للامبراطورية البريطانية . وكان يضاهى النهم البريطانى نهم جورج كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسى . فقد أصر على سيطرة فرنسا على سوريا وجنوبى الأناضول واقترح وضع مستشار فرنسى على مقربة من سلطان تركيا المتقلصة . ووسط حفلات الاستقبال والعشاء الراقصة المرحة التى كانت تقام فى عطلات نهاية الأسبوع فى قصر تم استئجاره على مقربة من باريس تحدد مستقبل الشرق الأوسط .

ورغم أن المؤتمر بدأ فى منتصف شهر يناير ، فانه سمح لفيصل بالتحدث على مضض ولمدة عشرين دقيقة فى السادس من شهر مارس . ورغم أن فيصل كان أصغر سنا وأقل خبرة من شقيقه عبد الله ، فانه كان يمثل الشريف نظرا لعلاقته الوثيقة بلورانس الذى كان يثق فيه الشريف . وكانت تلك هى المرة الأولى التى يزور فيها فيصل أوروبا وكان يرتدى ملابسه العربية الغربية . وكانت تجربته فى المناورة السياسية مقصورة على منطقته . ومن ثم كان يعتمد على لورانس الذى كان يجلس بجانبه بملابسه العربية . ولم يكن لورانس ، ذلك الممثل الكوميدى غريب الأطوار على مسرح الشرق الأوسط ، يحظى باحترام كبير داخل الوفد البريطانى . ولم يكن وجوده يعنى الكثير ، حيث أوضح فيصل أمام المؤتمر الذى كان يسيطر عليه الغرب أن والده يطالب بحق تقرير المصير للعرب والاعتراف بوجود دولة عربية ذات كيان جغرافى مستقل .

وبينما كان المؤتمر يستمع الى الالتماسات المقدمة من أولئك الذين يعيشون فى أراضى الامبراطورية العثمانية السابقة ، كان مخططو الخرائط البريطانيون والفرنسيون يرسمون من وراء الأبواب المغلقة حدود ما سوف يصبح دول : لبنان ، وسوريا ، وشرق الاردن والعراق . وكانوا منهمكين أيضا فى رسم حدود أخرى هنا وهناك ـ لمصر ، وفلسطين ، والكويت والمشيخات الأخرى بالخليج . ولم ينج من رسم الخرائط هذه سوى وسط شبه الجزيرة العربية الخالى تقريبا . وفى كل حالة كانت الحدود تفى باحتياجات الاستعمار الأوروبى . وفى سبيل تحقيق المصالح الغربية تم وضع الجماعات العرقية ، والقبائل والأديان معا فى كيانات سياسية تفتقر الى المنطق . وباستثناء فلسطين وبعض التعديلات الطفيفة هنا وهناك ، فان أيا من هذه الحدود لم يتغير(*) . ولا تزال الدول العربية التى أقيمت وفقا لارادة ونزوات الآخرين تدفع الثمن .

وقد تواطأت بريطانيا وفرنسا ، اللتان كبح جماحهما الى حد ما التأييد الدولى لاعلان وودرو ويلسون ، لاقامة نظام من الانتدابات فى ظل عصبة الأمم يمكنهما من السيطرة على أراضى الشرق الأوسط التى كانتا تتطلعان اليها . وقامت بريطانيا ، انطلاقا من الاحساس الى حد ما بالذنب ، بالاعتراف بحسين ملكا على الحجاز ، وسوف تضع فى نهاية الأمر اثنين من أبنائه على عرش المحميتين البريطانيتين فى العراق وشرق الأردن . وقد رفض حسين الاذعان للأمر الواقع حيث ظل يعتقد بأنه ملك العرب ـ ملك بدون أرض فيما وراء الحجاز .

(*) تفجرت حرب الخليج فى عام ١٩٩١ بسبب محاولة صدام حسين ضم الكويت للعراق .

ويوجد كل ما تبقى من الثورة العربية فى الصحراء ، شمال مكة . اذ لا تزال الآثار السوداء لثلاث عربات للركاب بادية بين كثبان الرمال . ومن حين الى آخر تظهر عاصفة شديدة أجزاء من خط سكة حديد الحجاز القديم الذى كان يجرى فى وقت ما من دمشق حتى مكة . ومن خلال سعى حسين وراء حلمه بقيام أمة عربية واحدة ، قام العرب من أتباعه بقيادة لورانس باجتياز كثبان الرمال ومهاجمة الوجود التركى فى عالم العرب . وتعد الأطلال التى خلفوها وراءهم بمثابة أثر ينم عن نجاحهم ضد الأتراك وحجر موضوع على قبر آمال العرب . إن لمس الحديد الساخن يعنى لمس التاريخ وفشل الثورة العربية . وفى منتصف بعد الظهر ، عندما كانت الحرارة ترسل أمواجها فى الأفق ، تنامت الى أذنى صرخة القبائل وهى تندفع عبر الكثبان وتصيح « لقد أصبح للموت مذاق حلو أيها العرب » .

لقد خرج العرب من الحرب العالمية الأولى ليس ككيان مستقل فى الامبراطورية العثمانية ولا يملكون أمة عربية تمتد من مصر حتى فارس ومن الاسكندرونة حتى عدن . وانما تم تقسيمهم بدلا من ذلك الى مناطق صغيرة كانت فى حقيقة الأمر مستعمرات تخضع للسيادة البريطانية والفرنسية . وبانهيار الامبراطورية العثمانية ، غير العرب سادتهم من الأتراك المسلمين الى المسيحيين الأوروبيين .

الفصل الرابع
الأمة والاستعمار

كان القرن العشرون يطلع على فلسطين القديمة . ومن الغرب ومن الشرق كانت الطرق الترابية والصخرية تتجه نحو القدس الخالدة . وحسب من يحملق فى أسوارها الحجرية السميكة ، كانت المدينة المقدسة تقف على قمة تل الرب ، أو يهوه ، أو الله .

وكانت أسوار المدينة الخارجية الرمادية اللون ، التى أنشأها سليمان الكبير العثمانى فى القرن السادس عشر ، تحدد القدس اقليميا وفلسطين زمنيا . وعلى مدى أربعمائة عام كان الزمن يقاس فى فلسطين من خلال النمو البطىء لأشجار الزيتون الملفوفة . وكانت الفصول تتحول الى سنين ثم الى أجيال حيث كان الفلاحون ، الذين يلبسون ثياب المسيحيين الأوائل ، يحصدون بأناة قمحهم ويرعون ماشيتهم . غير أنه مع حلول القرن العشرين ، بدأ ايقاع الحياة يتغير على نحو ملحوظ . فقد استوطنت جماعات من الأجانب ، معظمهم من اليهود القادمين من أوروبا الشرقية بأعداد متزايدة السهل الساحلى لفلسطين . وأثار وجودهم قلق جيرانهم العرب ولكن لم يصل الأمر الى حد الانزعاج البالغ . الا أن ما غير فلسطين قرب نهاية العقد الثانى من القرن العشرين هو وصول البريطانيين .

ففى الحادى عشر من شهر ديسمبر عام ١٩١٧ ، انتشر الجنود البريطانيون بزيهم العسكرى الكاكى اللون بقيادة الفيلد مارشال أدموند اللنبى ورابطوا على بعد ميل واحد من القدس . وعند اقترابهم قام سكان المدينة ، الذين تقلص عددهم الى النصف بسبب الجوع والترحيل والنفى الذى كان يلجأ اليه الحاكم العثمانى اليائس عزت بك ، قاموا بفتح بوابة يافا التى طال غلقها أمام المحررين . ولأول مرة منذ استعادة الحكم الصليبى للمدينة لفترة وجيزة فى مستهل القرن الثالث عشر ، وطأت الأقدام الغربية الشوارع العتيقة لما يطلق عليه المسلمون اسم القدس . وربما أدرك اللنبى ، الذى كان يتسم بالذكاء والحساسية تجاه العرب ، معنى تلك اللحظة . فقد دخل المدينة مترجلا ورأسه عارية . ووقف أمام القلعة تحت برج داود . ونطق بالكلمات النبوية « حتى لا يخاف أحد منكم » . ولكن بالنسبة للعرب كان هناك الكثير مما يخشونه .

وعندما دخلت القوات البريطانية فلسطين فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، استقبلت بالترحاب كمحررة لشعب يعانى من طغيان الحكم العثمانى . وحامت من حولها الآمال الغامضة بتحقيق استقلال العرب الذى أذكى نيران الثورة العربية . ورأى فيها العرب للحظة خلاصهم . غير

أن مصالح الامبريالية البريطانية تضافرت مع المصالح الفرنسية فى تحطيم تلك الآمال ليس فى فلسطين فحسب وانما عبر الهلال الخصيب .

وفى نهاية الحرب العالمية الأولى ، انتقل العرب من سيطرة امبراطورية ، هى امبراطورية العثمانيين ، الى سيطرة امبراطوريات الغرب . غير أن التغيير تضمن أكثر من مجرد تغير الحكام المستعمرين ، فالامبراطورية العثمانية ، رغم أخطائها ، كانت تحمل معها هالة الاسلام الذى ارتكزت عليه الثقافة العربية . أما المستعمرون الجدد للعرب فقد حملوا معهم طابع الغرب المقيت . وقد وصلوا كمحتلين ، كنابليون جديد ، لإذكاء احساس العرب مرة أخرى بتخلفهم التكنولوجى ولجرح كرامتهم الحصينة من جديد . وكان وضع الغرب أنفسهم كسادة هو الذى حفز العرب على المضى فى البحث عن تعريف للقومية التى يمكن أن تنقل الأمة العربية من المستوى الفلسفى الى المستوى العملى . غير أنه قبل أن يرد العرب على التساؤل حول كيفية ايجاد قوميتهم والتعبير عنها ، فانهم سوف يحققون وحدتهم بالغضب . وفى فلسطين واجهت القومية العربية كلا من الامبريالية البريطانية والصهيونية . وفى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، كانت هذه المنافسة بين قومية العرب وقومية اليهود هى التى بدأت تخيط الراية المستفزة التى يلتف حولها كافة العرب وهى اسرائيل . ولفهم المشاعر والحماس تجاه الوحدة العربية ، فانه ينبغى من المنظور العربى فهم ما حدث فى فلسطين فيما بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٤٨ . ذلك أن الأحداث التى شهدتها فلسطين وصورة القومية الغربية وعجز العرب الذى أظهرته هى التى غذت مشاعر الوحدة العربية منذ ذلك الحين .

وعندما استسلمت الامبراطورية العثمانية فى عام ١٨٩١ ، سيطرت ثلاث قوى على منطقة الهلال الخصيب وقد سيطر جيش حرب العصابات التابع للشريف حسين بقيادة ابنه فيصل على الحجاز حتى دمشق وسيطرة فرنسا من خلال نفوذها الذى يرجع الى منتصف القرن التاسع عشر على بيروت والمنطقة المسيحية فى الشمال المعروفة باسم الجبل وسيطرت بريطانيا ، بجيش ينتشر من الموصل فى شمال العراق حتى الخليج على منطقة ما بين النهرين . وسيطرت القوات البريطانية بقيادة اللنبى فى الغرب على مصر والمنطقة المعروفة الآن بجنوب لبنان وفلسطين .

وكان كل جيش يمثل مصلحة سياسية . فبالنسبة للشريف حسين ، كانت تلك المصلحة تتمثل فى اقامة دولة عربية تحكمها أسرته الهاشمية . وبالنسبة لفرنسا فانها كانت تتمثل فى الرغبة فى الاستيلاء على أراضى الشرق الأوسط بدافع الوطنية الفرنسية والمصالح الاقتصادية الفرنسية . أما بالنسبة لبريطانيا ، فقد كانت تتمثل فى السيطرة الامبراطورية . وكانت منطقة ما بين النهرين تبشر بوجود البترول مما يكفل لها تزويد أسطولها بالوقود ويوفر لها خطوط المواصلات الى الهند . وكانت مصر تشكل الجناح الأيمن لقناة السويس ، وفلسطين الجناح الأيسر .

وفى شهر ابريل من عام ١٩٢٠ ، صدق مؤتمر سان ريمو على الصفقات الاقليمية السرية التى كانت قد تم عقدها فى اتفاقية سايكس - بيكو خلال الحرب العالمية الأولى . وتحت ستار الانتدابات من عصبة الأمم تولت بريطانيا مسئولية الكيان الجديد للعراق وفلسطين الذى ضم

ما يعرف الآن باسم الأردن * . ومع وضع مصر تحت السيطرة البريطانية نتيجة أزمة الديون فى عام ١٨٨٢ ، وربط المشيخات الواقعة على طول الجانب الغربى للخليج فى تحالفات يرجع تاريخها الى القرن التاسع عشر ، سيطرت على كلا طرفى العالم العربى .

وفى مؤتمر سان ريمو حصلت فرنسا على سوريا . وفى الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٢٠ ، وجه الجنرال جورو ، بمساندة قوات نظامية فرنسية تعزيزات سنغالية ، انذارا للأمير فيصل بالرحيل عن دمشق فى غضون أربعة أيام . ولم يكن أمامه سوى الاذعان لأنه لم يكن يحظى بالتأييد البريطانى . وتغلبت المدافع والدبابات والطائرات الفرنسية على مقاومة عربية غير منظمة واحتلت أرجاء سوريا ، وبذلك حصلت فرنسا على جائزة الحرب العالمية الأولى . وقامت فرنسا ، بدافع تدعيم حلفائها المسيحيين على البحر المتوسط ، باقتطاع غربى سوريا عن طرابلس جنوبا حتى فلسطين وضمتها الى الجبل كى تنشىء دولة لبنان . وأصبحت الخريطة الجديدة للهلال الخصيب كاملة . وهكذا سيطرت يد الغرب الطامعة على العالم العربى من النيل الى الفرات .

وفى حين أطبقت الادارات البريطانية والفرنسية على الأراضى الموضوعة تحت الانتداب ، بدأ العرب يقيمون ما تعنيه فى الواقع القومية العربية الوليدة التى كافحت من أجل الخروج الى الحياة فى القرن التاسع عشر . وكان العرب تحتويهم مشاعر السخط ازاء قرون الركود والمهانة من ارغامهم على انتهاج أساليب غزاتهم ، ويعانون من الاحباط بسبب عجزهم عن ادارة شئونهم ، ومن ثم كان ردهم بمزيج من الكرامة الجريحة وادانة الذات . وفى بداية الأمر قاوم العرب ثم خضعوا على مضض للسيطرة الامبريالية ، مظهرين لسادتهم الغربيين الجدد طابع الاذعان والطاعة التى ربتها فيهم قرون الحكم العثمانى . وفى الوقت نفسه ، جاهدت القومية العربية غير محددة الملامح لكى تخرج للحياة اطارا قابلا للاستمرار تتمكن من خلاله الثقافة والوحدة العرقية للعرب من ايجاد مركز سياسى لها . ومن جراء الفشل الناجم عن كل تقاليد العرب أنفسهم ونمط التحديث الغربى ، واجه العرب حالة الاضطراب التى كانوا يعيشون فيها . ونتيجة لذلك تأججت القومية العربية بين البساطة المتمثلة فى الرفض التام للغرب ، والتعقيد المتمثل فى فلسفة محكمة يمكن للعرب من خلالها اعتناق جوانب من الغرب بدون الحط من قدرهم سواء على المستوى الشخصى أو الثقافى . وطوال العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات احتدمت المناقشات بينما كان العرب يحاولون تحرير انفسهم من الامبريالية الغربية . وأعقب ذلك الاستقلال . وكان لايزال على العرب ايجاد الفلسفة أو الصيغة التى تستجيب للمشاعر العاطفية للعروبة .

ومن السخرية أن العرب الذين لايزال يتعين عليهم اقامة مؤسسات سياسية قوية ، يتنفسون السياسة . وخلال الأيام التى سبقت ارغام الجامعة الامريكية ببيروت على التواجد فى أرض المعركة ، كانت الجماعات السياسية التى تمتد من الأصوليين الاسلاميين الى الماركسيين تتعقب

* كان نظام الانتداب الذى أقرته عصبة الأمم يضع المستعمرات السابقة للامبراطورية العثمانية والمانيا تحت اشراف دولة متقدمة سياسيا . وكان يتعين على هذه الدولة اعداد المنطقة الموضوعة تحت الانتداب سياسيا واقتصاديا للاستقلال . ونظرا لرفض الولايات المتحدة الانضمام ، مما وجه الضربة القاضية لعصبة الأمم ، أصبح نظام الانتداب كما تخيلته دائما بريطانيا وفرنسا أن يكون ، بمثابة ستار للامبريالية التقليدية .

مصائرهم السياسية عبر الحرم الجامعى الظليل وفى المقاهى التى تحتشد على جوانب الشوارع وليس هناك أفضل من فضاء أمسية فى الجلوس والاستماع للاحاديث السياسية البلاغية . وتلون الحقيقة والتصور والخيال فى حجرات معبأة بدخان السجائر المختلط بثقافة تشتهر بالبراعة اللغوية . وقد ظل الأصوليون الاسلاميون مختبئين داخل خلايا محكمة الاغلاق ، بينما كان كل شخص آخر يتنافس على ايجاد مستمع له ، وخلال فترة اقامتى فى العالم العربى استمعت الى مسيحيين مارونيين يشرحون بعناية كيف أنهم ينتمون الى الغرب ، وكيف أنهم هبطوا من الجبال كى يقابلوا الصليبيين الأول وقادوهم الى القدس ، وكيف يمكنهم التعبير عن قوميتهم من خلال الانفصال عن العرب . وقد استمعت الى ناصريين وهم يبحثون عن فلسفة يمكن أن تحل محل جاذبية ناصر الشخصية التى توارت . وتابعت مناقشات حول الاشتراكية العربية والتصور العربى للماركسية . وشاهدت مرارا مشاعر القومية العربية وهى تستحوذ على الرجال والنساء وهم يحاولون ايجاد رد عربى على الغرب .

وقد كانت فترة ما بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية تدعو الى يقظة العرب وهيأت أرضا خصبة لأفكار القومية العربية . وكان الكتاب والمفكرون العرب ، وليس رجال الدولة ، هم الذين وضعوا نظريات القومية العربية هذه . وقد انبثقت من مختلف وجهات النظر وسلكت مختلف سبل الفكر ، غير أنها كانت جميعا تدعو لرؤية جديدة للنهضة العربية . ومن نهر الفكر العربى هذا ، تشكلت عدة تيارات رئيسية . . ولايزال اثنان منها يلعبان دورا فى الفكر السياسى العربى .

وفيما بين الحربين العظميين ، استمر الأصوليون العرب فى الاعتقاد بأن خلاص العرب يكمن فى الاسلام . وفى عام ١٩٢٨ ، قام مدرس مصرى ذو شخصية جذابة يدعى حسن البنا بتأسيس جماعة الاخوان المسلمين . وبحماس المصلح ، دعا البنا أتباعه لرفض علمانية المجتمع الإسلامى والعودة الى تعاليم الاسلام الأصلية . وانتقل البنا من مرحلة البلاغة الى بناء حركة مناضلة ذات مستوى عال من التنظيم كرست نفسها للقضاء على الحكومة العلمانية والنفوذ الغربى . وكان الانضمام للاخوان المسلمين يبدأ بطقوس مهيبة يؤخذ فيها المبتدىء الى غرفة مظلمة حيث يواجه القرآن والمسدس . وعندما ينخرط الأعضاء الجدد فى شبكات من الخلايا ، كان يتم تلقينهم دروسا عن انحلال المجتمع العربى وتحويلهم الى كوادر من المثاليين المستعدين لخوض المعارك ضد الفساد والظلم ، وظلت ماهية ذلك النظام الجديد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية غامضة ، وعندما كان يُسأل حسن البنا عن السياسات الواضحة للاخوان المسلمين ، كان يرد بعبارات مثل « برنامجنا هو القرآن » . أو « برنامجنا هو اقامة حكومة اسلامية وعندما يتم الاطاحة بالحكومة العلمانية فاننا سوف نبحث فيما نفعله فى ضوء الظروف القائمة . وحتى ذلك الحين ، فاننا لن نخوض فى التفاصيل » .

وإبان الأربعينيات ، حوَّل الاخوان المسلمون وحداتهم شبه العسكرية الى الارهاب ضد المسئولين فى الحكومة المصرية والأجانب . وخلال فترة أوج قوتها ، وصل عدد أعضائها الى نصف مليون عضو نشط بالاضافة الى عدد غير معروف من الأعضاء الآخرين والمتعاطفين معهم فى الدول العربية الأخرى . وكان معظمهم من العمال غير المهرة وشبه المهرة أو الطلبة من الطبقة

الفقيرة ، الذين يعانون أكثر من غيرهم من الطبقة العليا البورجوازية فى مصر وحلفائها الأوروبيين .

وزرع الاخوان المسلمون خلايا فى كل مكان - فى المصانع والمدارس ونقابات العمال . وقامت بامتلاك مشروعات تجارية من بينها شركات نسيج وتأمين . وإدارت دار نشر تغرق البلاد بمنشورات وكتيبات للدعاية الدينية . وقامت بتشغيل معسكرات شبه عسكرية وتقديم العديد من الخدمات الاجتماعية . وهكذا شكلت تهديدا قويا لحكومة الملك فاروق . وفى الساعة التاسعة من صباح يوم الثانى عشر من فبراير عام ١٩٤٩ تم اغتيال حسن البنا فى شارع الملكة نازلى على يد اثنين من رجال البوليس كانا يرتديان ملابس مدنية . لقد قتل الزعيم ، ولكن الحركة استمرت ومضت فى طريقها .

وباسم الاسلام ، حاول الاخوان المسلمون إغتيال جمال عبد الناصر فى عام ١٩٥٤ ، ونجح فرع راديكالى فى اغتيال أنور السادات فى عام ١٩٨١ . وفى عام ١٩٨٢ كان الاخوان المسلمون فى سوريا قاب قوسين أو أدنى من الاطاحة بحافظ الاسد . وفى عام ١٩٩٠ ، حصلوا على عدد كبير من المقاعد فى الانتخابات البرلمانية فى الأردن . ولاتزال تيارات الأصولية القوية التى تجتاح العالم العربى فى التسعينيات متأثرة بأفكار حسن البنا . وليس واضحا ما اذا كانت حركة الاخوان المسلمين تعيش كمنظمة واحدة تعمل فى مختلف الدول أو ما اذا كانت هناك جماعات خارج مصر تسعى لاستبدال الحكومات العلمانية بحكم الاسلام . غير أنه سواء كان الاخوان المسلمون مرتبطين تنظيميا أم لا ، فانهم مرتبطون جميعا أيديولوجيا . ويتسم الاخوان المسلمون بالتشدد والتزمت وبُغض الاجانب ، ويتصورون الأمة الاسلامية تضم كافة المؤمنين . وفى أمة تسمو فوق السياسة ، فانه بوسع المسلمين بناء مجتمع يقوم على الأسس التى ارساها محمد (صلى الله عليه وسلم) وتجنب الوسائل الشيطانية التى يعتقدون أن الغرب يستخدمها للتلاعب بالعالم الاسلامى .

واذا كان الأصوليون الاسلاميون يقفون على أحد طرفى المنشور الدينى ، فان المسيحيين العرب يقفون على الطرف الآخر ، لقد كان المسيحيون العرب يشعرون دائما بأنهم مغمورون فى بحر الاسلام . ولهذا السبب ، فان جزءا كبيرا من القوة الفكرية للقومية العربية قد برزت ابان العشرينيات والثلاثينيات من جانب المسيحيين ، وبصفة خاصة اليونانيون الأرثوذوكس* . ومن ثم وجدوا مصلحة ثابتة فى ابعاد القومية العربية عن الاسلام ودفعها فى اتجاه اللغة والثقافة المشتركة للعرب . وقد رأى المفكرون المسيحيون دائما أن العرب ، الذين ينحدرون من البابليين ، والآشوريين ، والفينيقيين ، والأجناس السامية الأخرى ، قد وحدهم تاريخ ولغة وثقافة مشتركة على نحو يفوق وحدتهم الدينية ، وقد كانت هذه العناصر المشتركة هى التى خففت من حدة التفرقة بين المسيحيين والمسلمين ، وبين الدروز والسنيين والشعية . وفى عام ١٩٣٨ ، أوجز الكاتب اللبنانى أمين الريحانى وجهة النظر المسيحية هذه قائلا : « ان العرب قد عاشوا قبل الاسلام وقبل المسيحية . فليدرك المسيحيون ذلك هم والمسلمون . . ان العروبة قبل وفوق كل شىء »*

---

* رفض المارونيون فى لبنان وبدرجة أقل الملكيين الكاثوليك القومية العربية ، ووجدوا فى روابطهم القوية مع فرنسا الحماية من تفوق المسلمين العددى .

* مانسفيلد ، « العرب » ص ٢٢٥ .

وقد أفرخ المفكرون المسيحيون الأيديولوجيتين المهيمنتين فى القومية العربية واللتين ظهرتا قبل نهاية الحرب العالمية الثانية . وتتمثل أولاهما فى الحزب القومى السورى ، الذى أسسه أنطون سعادة فى الثلاثينيات وكان يبلغ الثلاثين من عمره ويعتنق المذهب الأرثوذوكسى اليونانى وكان يعمل مدرسا فى سوريا . ولأنه كان علمانيا يطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ، فان نظريته السياسية كانت تدور حول فكرة وجود هوية قومية سورية تضم السكان الأصليين لسوريا الحالية ، ولبنان ، والاردن ، واسرائيل / فلسطين ، والعراق ، وجزءا من تركيا ، وجزيرة قبرص « النجم داخل الهلال » . ولتجنب تهديد أعداد المسلمين ، ادعى منظرو الحزب القومى السورى من الارثوذوكس اليونانيين أن هؤلاء الذين يعيشون فى المنطقة الجغرافية « لسوريا » هذه يشكلون عرقية فريدة وأرجع سعادة سبب ذلك الى ان السوريين ليسوا عربا انما هم مزيج عرقى من الكنعانيين والأكاديين ، والكلدانيين ، والأشوريين ، والآراميين ، والحيثيين ، والميتانيين كان قد تشكل تماما فى وقت وصول العرب فى القرن السابع الميلادى . وفى هذا الاطار دعت أيديولوجية الحزب القومى السورى لاقامة دولة سورية واحدة بدلا من دولة تضم كل الشعب العربى كما يتصور القوميون العرب .

وقد اكتسب الحزب القومى السورى شهرة فاقت عدد أعضائه . ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان شعاره المتمثل فى « تحيا سوريا » قد ذوى . وفى عام ١٩٤٩ ، تم اعدام أنطون سعادة لتدبيره محاولة انقلاب ضد الحكومة اللبنانية . وظل الحزب القومى السورى باقيا بعد موته وقام بمحاولة انقلاب ضد الحكومة اللبنانية وظل الحزب القومى السورى باقيا بعد موته وقام بمحاولة انقلاب أخرى فى عام ١٩٦١ قبل أن يطويه النسيان كحركة سياسية غير ذات أهمية . وفى عام ١٩٨٢ ، برز الحزب القومى السورى مرة أخرى عندما تورط فى اغتيال الرئيس اللبنانى المنتخب الجديد بشير الجميل . واليوم فانه لا يعدو أن يكون واحدا من المشاركين الصغار فى الفوضى السياسية التى تعم لبنان .

أما الايديولوجية الثانية التى تمخضت عن محاولة القوميين العرب الابتعاد عن الاسلام ، فكانت أكثر فعالية واستمرارا . فقد ظلت أيديولوجية حزب البعث تدمدم خلال السياسة العربية على مدى خمسة عقود . ومؤسسا حزب البعث هما صلاح البيطار ، وهو مسلم سنى من دمشق ، وميشيل عفلق ، وهو مسيحى سورى . وقد درس كلاهما فى جامعة السوربون بباريس بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣٢ . وبعد عودتهما الى دمشق ، كانا يطوفان المدينة مرتدين ملابس غير مهندمة وياقات ممزقة وطرابيش قذرة . ولأنهما غير متزوجين وفى بعض الأحيان بلا عمل ، فانهما اضطرا للعيش على اعانات زهيدة ، ثم بدءا يخططان للنهضة العربية . وبحلول عام ١٩٤٠ ، أى بعد عام من اندلاع الحرب العالمية الثانية فى أوروبا ، كان عفلق والبيطار قد جمعا حولهما بعض الكوادر من المفكرين الذين كانوا يلتقون بهما فى أيام الجمع ، وهو يوم راحة المسلمين . ومنذ بداية رحلتهما السياسية ، كان البيطار يلعب الدور الثانوى لعفلق .

ونظرا لأن عفلق كان غريب الأطوار ومنطويا علي نفسه ، فانه غالبا ما كان يسمى بغاندى القومية العربية . وقد أخذ عفلق بعضا من الماركسية ، وبعضا من القومية الالمانية الرومانسية التى

كانت سائدة فى القرن التاسع عشر واضفى عليها طابعا عربيا وأفرز من كل ذلك قدرا كبيرا من البلاغة القومية . وقد وصف الأمة العربية من خلال كتاباته بأنها تمتد بتاريخها الى غياهب التاريخ . وقد ضم بين جنباتها المشرق والمغرب بالاضافة الى صقلية ، والاسكندرونة فى تركيا وخوزستان وشمالى العراق وشمال غرب ايران . ويعتقد عفلق أنه من أجل تخليص الأمة العربية من التخلف والسيطرة الاجنبية ، فان على العرب أن يحطموا قيود الدين ، والتقاليد ، والقبلية والطائفية . ويعتقد أن حزب البعث الذى أنشاه ليس تنظيما سياسيا بقدر ما هو خلق فنى أخذ مكان رواية أو قصيدة شعرية .. وقد أحبه كما يحب الفنان خلقه*

وقد أكدت أيديولوجية عفلق على القومية ، والوحدة ، والعلمانية ونظرية غامضة للاشتراكية ، غير أنه تحدث فى المقام الأول عن النهضة العربية . « فى ظل ظروف الأمة العربية اليوم فاننا فى حاجة الى حزب وحركة تمثل قبل كل شىء عنصر الروح .. والحزب الوحيد ، والحزب الحيوى ، والحزب الذى بوسعه أداء رسالته فى سبيل الأمة العربية اليوم هو الحزب الذى يضع نصب عينيه هدف مولد أمة ، أو بعثها ... ** » وفى سبيل تحقيق ذلك البعث ، صاغ عفلق شعارات تتباين بين الرؤى - أمة عربية واحدة ذات مهمة خالدة « - وبين الابتذال - « العروبة هى الحب » .

وقد جاءت دعوة عفلق الى الاحياء العربى فى مواجهة المشكلة التقليدية المتمثلة فى كيفية التوفيق بين تحول المجتمع العربى والقيم التقليدية للاسلام . وقد تناول عفلق المشكلة بالتأكيد على أن الاسلام هو أسمى تعبير عن العروبة ، وقد انبثق احدهما من الأخر . فالاسلام بدأ كدين عربى ، وتحدث من خلال القرآن باللغة العربية ، وجسد القيم العربية القديمة ، ودفع العرب الى اقامة امبراطورية . وهكذا تجاوز الاسلام الدين ليصبح ثقافة كشفت عن ازدهار العبقرية العربية*

وقد ظلت كتابات عفلق وأقواله البلاغية محصورة داخل نطاق طبقة المتعلمين حيث وجدت رؤيته الخاصة بإقامة أمة عربية واحدة مستقلة قادرة على تغيير الفكر والروح والسياسة والمجتمع العربى ، وجدت لها أتباعا ، وقد رأى أولئك الذين إنجذبوا نحو حزب البعث بأن شعار « الوحدة والحرية والاشتراكية » رفع العرب فوق صراعاتهم المستعصية وأزال عن نفسيتهم الجماعية عبء الشعور بالنقص الذى فرضه الاتصال بالغرب . ووجدوا فى كتابات عفلق الرومانسية الاجابة على عجز العالم العربى ، وجعلوا من أنفسهم طليعة عصر جديد ، ومتمردون على القيم القديمة . وبهذه المثابة ، إلتزموا بالقضاء على القبلية وغيرها من السمات العتيقة للمجتمع العربى من أجل إفساح الطريق أمام الدولة العربية المستقبلية . غير أنهم ظلوا صفوة صغيرة . وفى الرابع من شهر

* عجمى « أزمة العرب » ص ٤٤ .

** سمير الخليل ، جمهورية الخوف : القصة الخفية لعراق صدام (نيويورك : بانثيون ، ١٩٨٩) ، ص ٢٢٠ .

* أثارت مجادلات عفلق حنق كل من المسلمين والمسيحيين فقد رفض المسلمون ادعاء عفلق بأن الاسلام هو أى شىء غير وحى الله . ولقبه المسيحيون ، الذين رأوا أن أيديولوجيته تروج للاسلام ، باسم محمد عفلق .

أبريل عام ١٩٤٧ انعقد لأول مرة مؤتمر البعث الأول فى دمشق وحضره ٢٥٠ شخصا . وبدأت الدعوة البعثية تجد طريقها الى الظهور إبان الخمسينيات وفى النهاية تولت السلطة فى سوريا والعراق فى الستينيات . ويعتقد أولئك الباقون من البعثيين الأوائل أن رومانسية ومثالية حزب البعث قد انتهت على أيدى أنظمة الحكم التى يرأسها حافظ الأسد وصدام حسين .

وثمة عنصر ثابت ينتظم كافة أيديولوجيات القومية ـ هو الشعور الغامض وغير المتبلور بأن العرب يشكلون شعبا واحدا مقدرا له أن يكون أمة واحدة كبيرة . غير أن البساطة غالبا ما تتحدى الحقيقة . ففى حين قضت أوروبا قرونا تزرع الاحساس بالولاء للدولة القومية ، فان العملية فى الشرق الأوسط قد أوجزت فى عقدين اثنين . وفيما بين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٢٠ حاول المفكرون العرب دون جدوى تحويل ولاءات راسخة الجذور للعائلة والقرية والدين نحو الفكرة البكر عن أمة تمتد من النيل الى الفرات ، غير أن الجهود التى استهدفت تطوير القومية العربية تعثرت وعجزت عن إمتطاء الحقائق القائمة . ولم يكن القوميون العرب قادرين أو على استعداد بصورة جادة لإزالة العراقيل الثقافية التى تقف فى سبيل الوحدة . ولم تستطع قط المشاعر التى أثارتها أحاديث القومية البلاغية أن تتغلب على عقلية الجماعة التى تربط المجتمع العربى وتوجه سياسته . ونتيجة لذلك تأرجح العرب فى كافة أنحاء الشرق الأوسط بين غموض « الأمة العربية » وتحقيق أمن محدود داخل كل منطقة عربية . وفى النهاية انتصرت القوة الساحقة للأولويات المحلية . ولم تعد فكرة القومية على كل المستويات ، باستثناء مستوى المشاعر ، هى التعبير عن عظمة الأمة العربية إنما أصبحت تربط نفسها بجزء محدد من الأرض ومجموعة محددة من الأفراد . ورغم أن العرب قد غذوا الرغبة فى إحياء التكامل الذى كانوا يعيشونه فى ظل الحكم العثمانى ، فان وحدة العرب قد عاشت فى معظم الأحيان من خلال عدائهم للغرب ، لقد كانت الاستراتيجيات التى استهدفت التخلص من السيطرة الغربية على الأرض العربية هى التى غذت عملية البحث عن مصير العرب فيما بين الحربين العالميتين . وبدلا من أن تعمل كل منطقة على الخريطة الجديدة للشرق الأوسط على نحو مترادف ، وهو أمر يكاد يكون مستحيلا تحت وطأة الادارات الاستعمارية ، فانها سارت فى طريقها الخاص . إذ ثارت عناصر فى سوريا ولبنان على الحكم الفرنسى فى عام ١٩٢٥ . وحققت العراق شكلا من الاستقلال عن بريطانيا فى عام ١٩٣٢ ، وفى عام ١٩٣٦ تخلصت مصر من بعض قيودها الاستعمارية . وفى فلسطين تكاتف السكان العرب ضد عبء الاستعمار البريطانى الثقيل وتهديد الصهيونية المدمر . وكان ذلك الصراع المميت هو الذى جعل قضية القومية العربية ماثلة دائما أمام جميع العرب .

ويعيش الفلسطينيون فى الماضى ، فى الوقت الذى سبق اجتماع الاستعمار الغربى والقومية اليهودية وأخطائهم الخاصة على الاستيلاء على أراضيهم . وكما لو كان الحديث قد يسكن جراحهم الى حد ما ، فان الفلسطينيين يروون قصتهم الشخصية والجماعية لكل من يستمع اليهم وعلى مدى سنوات ، غطت القضايا الفلسطينية من الخليج الى بيروت ، ومن الأراضى المحتلة الى تونس . وتحدثت مع فلسطينيين من كل المستويات ، من لاجئين الى رجال أعمال ذوى تعليم غربى الى الأعضاء المؤسسين لجماعة فتح التى يرأسها عرفات فى منظمة التحرير الفلسطينية . إنها عملية مثيرة ومكررة الى حد الملل . وسواء كان هو أو هى متقدما فى السن الى حد يمكنه من التذكر أم

لا ، فان لكل فلسطينى قصة شخصية أو عائلية يصف فيها الحياة فى فلسطين قبل الغزو الصهيونى والغربى . وإبان عقود الحياة فى المنفى أو تحت الاحتلال ، كانت لفلسطين أبعاد تاريخية بالنسبة لأولئك الذين يطالبون بأرضها . ويظل أولئك الذين يحكون القصص مرارا وتكرارا يرددون أن الحقول كانت تنتج أجود أصناف القمح ، والبساتين أحلى أنواع البرتقال وأفضل منتجات الزيتون . وفى فلسطين ، فان السماء أكثر زرقة والبحر أكثر خضرة من أى مكان آخر فى العالم .. تلك هى تخيلات أشخاص يتوقون للعودة الى أرض أجدادهم أو تحطيم أغلال الحكم الأجنبى . وفى أذهانهم ، تجتمع الرغبة والتكرار لتحويل ما كان الى جمال يفوق الواقع القديم . وعادة تستغرق إعادة رواية أسطورة فلسطين جزءا كبيرا من الوقت . غير أننى حينما طلبت من زوجة أحد رجال البنوك الناجحين فى الأردن ، وكانت فى منتصف العمر ، أن تصف رؤيتها للحياة فى فلسطين ، صمتت برهة ثم ردت فى عبارة واحدة : « لقد كنا نعيش فى الجنة » .

وقد كانت فلسطين التاريخية جزءا من نتوء جغرافى يمتد شرقا وغربا بين الشواطىء الشرقية الهادئة للبحر المتوسط ونهر الأردن ، والخط الفاصل بين السهل الساحلى الأخضر والمنطقة الداخلية اليابسة القاحلة . ومن الشمال الى الجنوب كانت تمد من تلال الجليل جنوبا حتى البحر الميت الى كثبان صحراء النقب القاحلة . ولم تكن حدودها الدقيقة واضحة بالمفهوم السياسى لأن فلسطين لم يكن لها وجود قط بمقياس نظام الدولة القومية الحديث* .

وكانت فلسطين ، وهى تحتضن ساحل البحر المتوسط وتجنى ثمار الأمطار التى تحملها رياح البحر ، تبرق مثل جوهرة للقبائل المتباينة التى خرجت من شبه الجزيرة العربية منذ آلاف السنين . وخلال القرن العشرين قبل الميلاد كان الكنعانيون ، وهم مجموعة من القبائل اشتركت معا فى لغة مشتركة وشكلت جزءا من التراث المختلط لفلسطينيى العصر الحديث ، هم الذين يسيطرون على فلسطين . ثم جاء العبرانيون بقيادة موسى يجوبون التلال البيضاء للبرية الشرقية لتأكيد حق أعطاه الله فى أرض « اللبن والعسل » . وظل الكنعانيون على مدى أجيال يتحدون العبرانيين ، والعبرانيون يتحدون الكنعانيين من أجل السيادة . وفى النهاية كان العبرانيون هم الذين سادوا .

وقبل ألف عام من بدء العصر المسيحى ، أعلن داود ، الملك العبرانى ، من عاصمته فى القدس اقامة المملكة التى لا تزال تمثل ذروة التاريخ العبرى . غير أن ذلك لم يستمر طويلا . فقد سقطت مملكته فى النهاية تحت وطأة الفرقة الداخلية وهجمات القوى الخارجية .

ونظرا لموقع فلسطين فى مفترق طرق امبراطوريات المشرق ، فقد ظلت على مدى قرون ميدانا لمعارك القوى المتنافسة . ومع حلول عام ٦٣ قبل الميلاد إستولى الرومان على فلسطين وعلى مدى عدة عقود ظلت تتمتع باستقرار لم تعرفه خلال العديد من سنوات وجودها المستقل . غير أنه بموت هيرود فى العام الرابع الميلادى ، غاصت فلسطين مرة أخرى فى الفوضى . ونظرا لتحدى اليهود للحكم الرومانى ، انقلبت روما ضدهم على نحو عنيف . وفى عام سبعين الميلادى هدم الحكام الرومان المعبد الثانى ، تاركين فقط حائطه الغربى . ومع حلول عام ١٣٥ الميلادى

(*) فلسطين اسم مشتق من الفلسطينيين فى الكتاب المقدس .

وعقب ثورة ثانية قادها باركوخبا ، تفرق اليهود فى الشتات تاركين وراءهم بقية منهم فقط . وقد عاشت تلك البقية جنبا الى جنب مع سكان فلسطين الأصليين ، مكونين واحدا من تلك المجتمعات المتغايرة الخواص التى يتسم بها الشرق .

ولم يتغير الكثير فى هذه العلاقة مع قدوم الاسلام . وكان غالبية سكان فلسطين مسيحيين عندما وصلت الجيوش الاسلامية . وخلال القرون التالية ، ظل عشرة فى المائة من السكان على دينهم المسيحى . وكان الجميع فى فلسطين ، من مسلمين ومسيحيين ويهود ، ينسبون انحدارهم الى أصل واحد ـ هو ابراهيم . وقد أنجب ابراهيم اسماعيل من هاجر واسحق من ساره . واتجه كل منهما لتأسيس أمة ، إسلامية أو يهودية . غير أن كليهما ينحدران من أصل واحد ، وهى حقيقة رئيسية فى الدين الاسلامى . وهناك نقش كان يعلو بوابة يافا فى القدس ذات يوم ، ربما يعد أفضل ما يصف مواقف العرب من اليهود خلال السنوات التى سبقت القرن العشرين ، يقول : «لا إله إلا الله وإبراهيم خليل الله» .

ان الأتراك العثمانيين لم يستعمروا فلسطين قط بهدف زرع عدد كبير من شعبهم داخل حدودها . كما أنهم لم يحكموا فلسطين كوحدة . فقد كان القطاعان الشماليان يرتبطان باقليم بيروت ، وكانت المناطق عبر نهر الأردن تشكل جزءا من سوريا الادارية ، فى حين أن القدس ، وهى الرمز الدينى الرئيسى لشرعية السلطان العثمانى ، كانت تحكم مباشرة من القسطنطينية . وكان اليهود ، الآمنين داخل هويتهم كشعب فريد ومميز ، ينظرون الى العثمانيين كحكام إستعماريين آخرين لا أكثر ولا أقل ، مثلما كان يراهم . العرب المسيحيون ، الذين كانوا يشكلون ٧٫٥ فى المائة من السكان . غير أن العرب المسلمين فى فلسطين ، شأنهم شأن العرب الآخرين ، وجدوا تماثلا مع إمبراطورية ترتكز على الاسلام وتمثل قوة مضادة للغرب . ولم يطلبوا لأنفسهم إسما آخر غير اسم « العرب » . غير أنهم ظلوا يعرفون أنفسهم بأنهم مزيج من السكان الأصليين لأرضهم القديمة ـ الكنعانيين والفلسطينيين والعموريين ، والبعض قد يقول أيضا العبرانيين(*) . وإبان السنوات الأخيرة للامبراطورية العثمانية ، كان العرب هم الذين يعيشون فى فلسطين الى جانب عدد قليل من اليهود . وقبل انتصاف القرن العشرين بثلاثة عقود كان الفلسطينيون منهمكين فى قتال مرير من أجل البقاء ضد جماعة جليلة من اليهود ـ هم الصهاينة .

وقد كان عام ١٨٧٧ هو الحد الفاصل فى فلسطين ، وهو العام السابق على انشاء يهود الشتات لمستعمرة بتاح تكفا ، وكان عدد سكان فلسطين فى ذلك الوقت ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة ـ نحو ٥١٥٫٠٠٠ مسلم عربى ، و ٨٠٫٠٠٠ مسيحى عربى و ٢٥٫٠٠٠ يهودى . وكان السكان اليهود ، وجميعهم تقليديون تقريبا ، هم سلالة المتبقين من هجرة اليهود الكبرى فى عام ثلاثة وسبعين الميلادى . وقد تجمعوا فى مجتمعات مغلقة داخل وحول القدس وتمسكوا بأسلوب الحياة التقليدى . ولم يشكلوا أى تهديد للأغلبية العربية فى فلسطين أو طابعها العربى ، لأنهم كانوا يشكلون أيضا من الناحية الثقافية جزءاً من الجماعات المختلفة بالشرق .

(*) رغم أن اللفظ المميز « فلسطينى » لم يكن استعماله شائعا حتى بعد عام ١٩٤٨ ، فانه سيتم استعماله فى كل هذا الفصل وفى بقية فصول هذا الكتاب لتمييز عرب فلسطين عن عرب بقية العالم العربى .

وفى عام ١٨٨١ ، بدأ يهود آخرون من الخارج يفدون على شواطىء فلسطين . وجاءت الموجة الأولى من الطوائف التقليدية فى أوروبا الشرقية . ومثل اليهود الذين كانوا يعيشون بالفعل فى فلسطين ، فان جميعهم كانوا ورعين غير سياسيين ، يسعون فقط للعيش على أرض ابراهيم . غير انه فى عام ١٨٨٢ ، بدأ اليهود المتشبعون بالأيديولوجية الصهيونية للقومية اليهودية وفكرة اقامة وطن قومى يهودى على الأحجار القديمة لفلسطين ، بدأوا فى التوافد . وبقدومهم أساسا من بولندا وروسيا ، فانهم حذوا حذو بتاح تكفا ، المستوطنة الصهيونية الأصلية ، التى أقيمت بالقرب مما يعرف الآن باسم تل أبيب . وباقامة مجتمعات زراعية صغيرة ، انتشر اليهود المتدفقون الجدد على السهل الساحلى ، وعلى تلال الجليل وفى المداخل الغربية للقدس . وقد ظلوا يعيشون فى عزلة متجاهلين كلا من الطوائف اليهودية الموجودة والسكان العرب الذين كانوا يشكلون الأغلبية فى المنطقة . ذلك أن هؤلاء المهاجرين الجدد كانوا فى فلسطين للمطالبة بأرض اسرائيل وليس للذوبان داخل المجتمع . وهكذا فان النمط الكامل للغزو والاستيعاب الذى ميز تاريخ الشرق الطويل قد تغير ، وتغير معه الشرق ذاته .

لقد ظهرت الصهيونية الى الوجود من جراء المذابح المنظمة التى ارتكبت فى أوروبا الشرقية . وكان الصهاينة الأوائل الذين هبطوا على فلسطين بأمتعة قليلة يحملونها فى أجولة من القماش وحقائب بالية لا يملكون مالا أو نفوذا سياسيا وباعتبارهم روسا وبولنديين ، فانهم كانوا خارج حدود السلطة التى كانت تمارسها أوروبا الغربية فى عصر الامبريالية . ولذلك فانه بالنسبة للفلسطينيين كان الصهاينة الأوائل بعيدين عن سلطة أوروبا الصناعية المهيمنة .

غير أنه فى عام ١٨٩٤ ، ظهرت الصهيونية الى الحياة فى أوروبا الغربية ، فقد أدى كشف أمر فرنسا المناهض للسامية فى فضيحة دريفوس الى دفع صحفى يهودى شاب يدعى تيودور هيرتزل لطرح تصوره العاطفى عن اقامة دولة يهودية . وفى عام ١٨٩٧ ، عقد هيرتزل المؤتمر الصهيونى الأول فى بال بسويسرا حيث تم وضع برنامج الصهيونية الجديد ـ وهو قيام اليهود باستعمار فلسطين بهدف اقامة وطن قومى يهودى . وفى عام ١٩٠٣ ، هبطت أول مجموعة صهيونية غربية أرض فلسطين حاملة معها برنامجها السياسى .

وفى مبدأ الأمر كان العداء الفلسطينى للصهاينة يدور حول الجوانب الاقتصادية . فبالنسبة للتجار ، كان الصهاينة الذين كانوا يتمتعون ببعض المهارات من الممارسات الاقتصادية التى اكتسبوها من أوروبا الصناعية ، يضربون اقتصادا محليا دمرته بالفعل منتجات الثورة الصناعية الأوروبية الأكثر رخصاً . وبالنسبة للفلاحين فإن التهديد كان أعظم . ذلك أن طلب الصهيونية للأرض كان يهدد بإبعاد العائلات عن الحقول التى ظلوا يزرعونها على مدى قرون . ونظرا لأن العديد منهم كانوا يعيشون كمزارعين مستأجرين لدى المرابين العرب ، فإن الفلاحين كانوا يرقبون المستعمرين الصهاينة الجدد وهم يستولون على الأراضى من هؤلاء المرابين ذاتهم بأسعار لم يكن فى وسع الفلسطينيين دفعها على الإطلاق .

غير أن المنافسة الحقيقية بين الصهاينة والفلسطينيين كانت تنطوى فى جوهرها على صراع بين الثقافات . فقد كانت الصهيونية ، بإعتبارها قادمة من أوروبا ، تمثل غزواً آخر للعالم العربى من

الغرب . نظرا لأن اليهود الوافدين الجدد كانوا يجهلون أساليب حياة العرب ولا يدركون عادات فلسطين المحلية ، فإن عددا كبيرا منهم كان يثير حنق من يعيشون بينهم . ورغم أنهم أجانب ، فقد حاول الصهاينة فرض العادات الغربية على مجتمع قديم يحترم التقاليد . وعاشوا فى مستوطنات صهيونية محاطة بأسوار ، ومن ثم حرموا القرى المجاورة من حقوق الرعى المألوفة . وإذا تحدى المزارعون العرب الحظر فإن المستوطنين كانوا يقومون فى أغلب الأحيان بالإستيلاء على القطعان وتحصيل غرامات من الفلاحين الذين يملكونها . وبدا النزاع حول حقوق الرعى أمراً غير هام بالنسبة للصهاينة ، غير أن الفلسطينيين إعتبروه شكلاً من أشكال السيطرة الأجنبية . وعلى عكس اليهود الذين عاشوا دائما فى فلسطين أو حتى المهاجرين الصهاينة الأول ، فإن اليهود الذين إنضموا للصهيونية السياسية كانوا يؤيدون ثقافة وأيديولوجية تشكل خطراً على الشخصية العربية لفلسطين . وفى عام ١٩١٤ ، إنتقد الصهاينة غير السياسيين لجماعة آحاد هاعام الصهاينة السياسيين نظرا لإشعالهم نيران غضب أولئك الذين يذكرونهم بأنه لا يزال هناك شعب آخر فى أرض إسرائيل كان يعيش فيها ولا يعتزم الرحيل عنها على الإطلاق★ . غير أنه فى داخل الحركة الصهيونية قام الصهاينة السياسيون ، الذين كانوا يسعون إلى إقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين ، بعزل الصهاينة الذين جاءوا إلى فلسطين لأسباب دينية محضة .

وقد آزرت المنظمات الصهيونية فى أوروبا الغربية الصهاينة الذين إستغلوا سنوات الحرب من عام ١٩١٤ حتى عام ١٩١٧ لإرساء القواعد الأساسية اللازمة لإقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين . ومن حالة الجمود الدامية على الجبهة الغربية التى إستنزفت شباب بريطانيا ومواردها ، إنتزع الصهاينة من الحكومة البريطانية إلتزاماً علنياً بإقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين . وفى داخل المكاتب ومساكن الصفوة السياسية فى بريطانيا ، قدم الصهاينة من أمثال ليونيل ولتر روتشيلد المهيب وسليل العائلة المصرفية البريطانية ، وحاييم وايزمان زعيم الصهاينة فى أوروبا ، وعوداً بالتأييد اليهودى الدولى للمجهود الحربى البريطانى فى مقابل الحصول على نوع من الإلتزام بإقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين ، وأدت الضغوط المالية إبان الحرب ، والإحتمال المغرى بإقامة طابور خامس من يهود ألمانيا ، وإمكانية إقامة دولة صهيونية ذات توجه غربى فى موقع إستراتيجى قريب من قناة السويس ذات الأهمية البالغة ، إلى إغراء بريطانيا بإصدار الإعلان الشهير المعروف الآن بإسم وعد بلفور ، وكان ذلك بمثابة حد فاصل آخر فى تاريخ فلسطين .

وفى خطاب بعث به اللورد بلفور وزير الخارجية البريطاني إلى اللورد روتشيلد فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧ أصدر الكلمات الشهيرة التى ستكون مصدر عذاب لفلسطين على مدى العقود الثلاثة التالية . « إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين الإعتبار إلى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وسوف تبذل قصارى جهودها لتسهيل تحقيق ذلك الهدف » . وتم توضيح ما يلى : « . . . . على أن يكون مفهوما تماما أن شيئا لن يحدث قد يكون من شأنه الإضرار بالحقوق

★ وليم ب . كوانت ، وفؤاد جابر ، وآن موسلى ليش ، « سياسة القومية الفلسطينية » ، (باركلى ، مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٧٣) ص ١٢ .

المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية التى تعيش فى فلسطين . . . . » وهكذا بجرة قلم ، أصبحت فلسطين أرض ميعاد مؤكدة . وكانت بريطانيا قد تعهدت بالفعل بإستقلال العرب فى مراسلات حسين - مكماهون . ثم قررت مستقبل فلسطين كمستعمرة بريطانية فى إتفاق سايكس - بيكو . والآن وفى بيان يحمل ملامح يانوس ، إله البدايات عند الرومان ، تبنى البريطانيون البرنامج الصهيونى . وحتى أنهم أنفسهم كانوا فى حيرة . وفى ذلك الوقت ، أبدى هيربرت أسكويث رئيس الوزراء هذه الملاحظة : « أنه من الغريب تماما أن يكون الطرف الآخر فى هذا الإقتراح هو لويد جورج الذى لست فى حاجة إلى القول بأنه لا يهتم قط باليهود أو ماضيهم أو مستقبلهم ، ولكنه يعتقد أنه من المهانة ترك الأماكن المقدسة تذهب إلى فرنسا اللا أدرية والمحبة للجمال »★ .

لقد سبق السيف العزل . ومهما كانت الدقة التى قد تستخدم فى بيان ذلك ، فإن الحكومة البريطانية قد كرست نفسها لفكرة إقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين . وإدراكا لأهميته ، فإن الصهاينة تمسكوا بوعد بلفور كوثيقة مقدسة .

وفى عام ١٩١٩ ، وهو العام الذى عقد فيه مؤتمر السلام فى باريس ، كان تعداد سكان فلسطين ٦٢٠,٠٠٠ نسمة ، منهم ٥٥٠,٠٠٠ مسلم ، ٧٠,٠٠٠ مسيحى عربى و ٥٠,٠٠٠ يهودى ، وكان عدد كبير منهم ينظر الى الصهيونية السياسية على أنها هجوم كافر على النبوءة . وكان الصهاينة يشكلون على الأكثر خمسة فى المائة من السكان . غير أنه فى صيف عام ١٩١٩ ، أعلن اللورد بلفور أن بريطانيا ، الحاكم المطلق الجديد لفلسطين ، ملتزمة إزاء الصهيونية . وفضلا عن ذلك فانه لم يكن هناك ما يلزم حكومة صاحب الجلالة بمعرفة رغبات السكان العرب فى فلسطين بشأن هذه المسألة . وعلى نحو ما ، فان الحقيقة المؤلمة بأن نسبة الفلسطينيين الى اليهود كانت تحتم أن يؤدى تنفيذ البرنامج الصهيونى الى اراقة الدماء والقمع العسكرى لم تدخل على الاطلاق فى عالم صنع السياسة البريطانية .

وعندما بدأ عقد العشرينيات ، كانت فلسطين العربية تضم ألف قرية وعشرات من المدن المبنية من الحجارة الصفراء الصلبة المأخوذة من التلال الصخرية . وكان مجتمعها مجتمعا زراعيا هرمى الشكل ، قاعدته الكبيرة من الفلاحين ، تعلوها طبقات صغيرة من العمال والتجار والمهنيين ، وتقف على قمته مجموعة من العائلات من أصحاب الأراضى .

وكان الفلاحون يزرعون الحقول الحمراء - البنية اللون التى تقسم الأودية الخصبة ويرعون قطعان ماشيتهم السمينة على منحدرات التلال . وجيلا بعد جيل ، ظلت نفس العائلات تعمل على نفس الأرض ، تستخرج من أرضها الصخرية وسهلها الساحلى : الطماطم الحمراء ، والخيار الأخضر ، والبطيخ ، والعنب والبلح والليمون ، وبرتقال يافا الحلو من البساتين ذات نفس تاريخ العائلات التى ترعاها .

★إبراهيم أبولغد ، تحويل فلسطين : مقالات عن أصل وتطور النزاع العربى الإسرائيلى (إيفانستون ٣ ، مطبعة نورثويسترن يونيفرستى ، ١٩٨٧) ص ٤٦ .

وفى مدن مثل يافاونابلس والخليل كان الحرفيون والصناع يعملون فى طرق حجرية ضيقة ومغطاة ، ويصنعون نفس المنتجات كما كان يفعل أسلافهم مثل السجاجيد والأوانى الفخارية المرسومة باليد بصورة متقنة ، والصابون المعطر والحلى دقيقة الصنع . وكان آخرون يعملون فى الصناعات الحديثة ـ مثل الكهرباء ، والسباكة والميكانيكا . وفى مكاتب وراء الأسواق ، كانت الطبقة المتوسطة الصغيرة تشتغل بالتجارة عبر البحار أو تمارس بعض المهن . وفى القدس ، موطن غالبية العائلات الكبرى فى فلسطين ، كان ملاك الأراضى يعيشون على عائدات ممتلكاتهم .

وفى مناسبات نادرة ، يمكن رؤية لمحات من فلسطين ما قبل عام ١٩٤٨ . وترسم كل واحدة منها بطريقتها الخاصة صورة للمجتمع الفلسطينى التقليدى . ففى مستهل الثمانينيات كنت أسير دون وجهة معينة على طول طريق أسفلتى خارج القدس الشرقية . وبدون إنذار ظهر أمامى فجأة منزل من الحجر مبنى فى شق أحد التلال . وأوقفت السيارة وتوجهت اليه دون أى سبب سوى إلقاء نظرة على الماضى . وكان المنزل يواجه حقلا من القمح الذهبى . وكانت بضعة أشجار زيتون تحف بالوادى . وفى أسفلها كان هناك رجل يرتدى كوفية وسروالا فضفاضا ويمسك بيده عصا قديمة ووقف يراقب مجموعة من الماعز وهى تنطلق نحو الأعشاب التى تحيط بحقله الصغير . وربما يكون ذلك الرجل قد رحل الآن بسبب التوسع الاسرائيلى فى الأراضى المحتلة . غير أنه فى تلك اللحظة كان يتشبث بعناد بحياة فلاحى فلسطين .

ولا تزال الآثار المتبقية من الطرف الآخر للمجتمع الفلسطينى التقليدى موجودة ومحفوظة داخل أسوار مدينة القدس العتيقة ، ففى مساء صيف منذ بضع سنوات ، دعيت الى العشاء فى منزل كانت تملكه ذات يوم احدى العائلات الكبيرة صاحبة الأراضى فى فلسطين . وقد تجولت فى المدينة المقدسة من خلال بوابة سان ستيفين ، واتجهت يسارا ، وبحذر سلكت طريقى الى شارع ضيق مفروش بالحصى . وتحت أحد الأقواس التى تربط منزلا متعدد الطوابق بآخر عبر الشارع ، وجدت بابا ضيقا . وطرقت مقرعة الباب الثقيلة وانتظرت حتى سمح لى مضيفى ومضيفتى بالدخول . وصعدنا من خلال ما كان يمثل مستوى القرن الثامن من المنزل القديم وتابعنا الصعود الى العاشر والحادى عشر حتى وصلنا الى حجرات القرن السادس عشر فى أعلى المنزل . وكانت حجرة الجلوس ثلاثين فى ثلاثين ويرتفع سقفها الى مسافة عشرين قدما أو أكثر نحو قبة على شكل بيضاوى . وخلف هذه الحجرة كانت هناك حجرة أخرى ذات قبة ضخمة كانت تستخدم كحجرة استقبال حيث كان يأتى المستأجرون وزبائن الرجل الذى كان يعيش هنا فى وقت ما لدفع الايجار أو تسديد ما عليهم . وعندما عدت الى حجرة الجلوس من حديقة السطح ، شاهدت سيدة بدينة قصيرة تجلس على أريكة مستقيمة ، متشابكة الرجلين وتسند معصميها على حقيبة كبيرة من البلاستيك أمام صدرها الرحب . وكان يحيط بها بناتها المراهقات اللاتى كن يرتدين ملابس من الأورجنزا . لقد كانت أمهن تعيش هنا وهى طفلة صغيرة . ولما كانت صغيرة جدا بحيث لا تتذكر شيئا ، فقد روت لى قصصا سمعتها من عائلتها ، لقد كانوا من أولئك الذين يجلسون على قمة الهرم الاجتماعى الفلسطينى . ولأنهم كانوا أثرياء بمكانتهم وليس بمالهم ، فانهم كانوا يحمون النظام القديم .

وإبان فترة الانتداب ، كان المجتمع الفلسطينى ، كحاله على مدى قرون سابقة ، ينظم نفسه من حيث العائلة والمكان . فقد كانت هناك هوة شاسعة تفصل فلاحى الريف عن العمال ، والتجار وأصحاب الأراضى فى المدن . وكان أهل الريف والحضر يعيشون حياة منفصلة ويحتكون فقط كمستأجرين وملاك أراضى ، وكمنتجين ومستهلكين . وفى داخل ذلك الانفصال الشاسع بين الريف والحضر ، كان يكمن أهم مصدر للوجود فى العالم العربى ـ وهو العائلة . وكانت هوية الفلسطينى تبدأ بعائلته الممتدة ، أو « الحمولة » ، والتى تصل جذورها الى قريته وفى النهاية الى منطقته . وكان التنظيم السياسى القليل الذى كان موجودا يتبع الخطوط الرأسية للعائلة ، والمنطقة المحلية ، وفى بعض الأحيان الايمان . أما الخطوط الأفقية للطبقة ، فكانت تعمل فقط كنتاج ثانوى للقوى الرأسية .

وكان الولاء يتركز على الشخصيات ـ كبير العائلة وشيخ البلد . وكان هؤلاء الزعماء المحليون بدورهم يربطون أنفسهم وأتباعهم بزعيم أكثر نفوذا لتكوين عشيرة . وكانت هناك عشائر إسلامية ، وعشائر مسيحية ، وعشائر مختلطة دينيا تدين بدورها بالولاء لواحدة من عشرات العائلات الكبيرة مالكة الأرض فى فلسطين . ومن بين هذه العائلات مالكة الأرض ، التى تبعد عدة درجات عن جموع الفلاحين ، كانت تبرز الزعامة السياسية لفلسطين بأسرها .

لقد كان المجتمع الفلسطينى يعيش داخل تقاليده العريقة . وفى حين ترك المهاجرون الصهاينة وراءهم عن عمد هيكلهم الاجتماعى الراسخ وثقافتهم التقليدية كى يحولوا أنفسهم الى « أناس جدد » يكرسون حياتهم لبناء الدولة الصهيونية ، فان الفلسطينيين كانوا يحملون معهم أثناء الانتداب « نسيج الانتماء » ـ أى السمات الاجتماعية والثقافية التى عاشت طويلا فى فلسطين . وفى حين اتخذ المجتمع الاستيطانى الصهيونى شكلا مسطحا نسبيا ، فان المجتمع الفلسطينى الأصلى ظل متشبثا بشكله الهرمى . ويوضح ذلك كيف واجه الفلسطينيون القوات البريطانية والصهيونية مجتمعة .

ومنذ اللحظة التى أدرك فيها الفلسطينيون ان الاستقلال لن يتحقق للعرب ، فانهم وضعوا الاستعمار البريطانى والصهيونى فى صف واحد . فكان الاحتجاج ضد واحد منهما احتجاجا على الآخر ، لأن بريطانيا كانت تمسك بيدها مستقبل الصهيونية فى فلسطين . وقبل أن تطأ قدم السير هيربرت صمويل ، أول مندوب سامى بريطانى ، رصيف يافا القديم ، كان الفلسطينيون قد احتشدوا بالفعل للاحتجاج فى شوارع الميناء الضيقة على أول بيان عام رسمى يتلى فى فلسطين عن وعد بلفور المقيت . وفى شهر يوليو من عام ١٩٢٢ عندما خولت عصبة الأمم مهمة الانتداب على فلسطين لبريطانيا ، قام الفلسطينيون بتنظيم اضراب عام . وفى عام ١٩٢٥ ، قاطع العرب بدافع الغضب والعداء زيارة اللورد بلفور للقدس لافتتاح الجامعة العبرية . وفى كل عام فى ذكرى وعد بلفور تغلق أبواب المحال الفلسطينية وترفع الرايات السوداء على مبانى الفلسطينيين وتحاط صفحات الصحف الناطقة باللغة العربية بخطوط سوداء . وكان كل ذلك ينم عن احساس الفلسطينيين الغاضب بأنهم ضحية للغرب . فعلى أحد المستويات كان العدو اللدود للمطامح الفلسطينية القومية هو بريطانيا ، القوة الامبريالية . وعلى مستوى آخر كان هو الصهيونية ، القوة المستعمرة .

وقد كان التحدى الذى واجهه الفلسطينيون فى نهاية الحرب العالمية الأولى يتمثل فى كيفية حصول شعب صغير ، منظم تقليديا ويعانى من الفقر ، على الاستقلال من كل من الامبراطورية البريطانية ذات الثقل الكبير ، والحركة الصهيونية ذات العزيمة والاصرار . وقد رأى الكثيرون ان خلاصهم الوحيد يكمن فى الوحدة العربية . ومن ثم تعالت نداءات يائسة وجهت الى سوريا ومصر والعراق والى أى دولة عربية أخرى فى المنطقة على إستعداد للانصات . ورد الجميع بتعبيرات تنم عن التعاطف أو اقتراحات بأن يعقد الفلسطينيون مؤتمرا للقوميين العرب أو الأمة الاسلامية . ولم يتعد الأمر ذلك . ولأن « الأمة العربية » كانت أسيرة الاستعمار الغربى الذى يسعى الفلسطينيون الى الخلاص منه ، فانها لم يكن لها وجود . ولا يزال الفلسطينيون يذكرون ذلك بمرارة وأسى . ويقع فندق القصر الوطنى فى ركن لا يبعد كثيرا عن بوابة دمشق . وهناك شرفة واسعة تطل على الشارع الذى يعج بالنشاط يجعل منها أفضل مكان يجلس فيه المرء فى القدس الشرقية . وقد قضيت فى الفندق قرابة أسبوع ، وكنت أجلس على أحد المقاعد البيضاء اللون المريحة كل مساء تقريبا . وكان من المناظر المألوفة التى كنت أشاهدها يوميا منظر مدير أحد المحال القريبة ، رجل طاعن فى السن منحنى الظهر يبيع صلبانا من خشب الزيتون ومناظر لميلاد المسيح للسياح ، وكان رجلا هادئا يومىء بأدب وقلما يتحدث . وفى ذلك اليوم قرر أن يتكلم . « لقد كنت صبيا صغيرا فى عام ١٩٢٣ . ولم أكن أفهم ما يحدث حولى ، ومن هم أولئك الصهاينة ، ولكننى كنت أدرك أن والدى يعيشان فى قلق . ففى المساء ، عندما ينتهى العمل كان يأتى رجال من الجيران للجلوس هنا تحت الأشجار » . وأشار يسارا الى أشجار ترتفع فى نهاية الشارع قائلا « كانوا يجلسون تحت أشجار كهذه ويتحدثون كثيرا ويدخنون الكثير من السجائر ويقولون مرارا أن كل العرب اخوة ، إن كفاحنا هو كفاحهم . إنهم سوف يأتون من دمشق وحلب وربما حتى من الاسكندرية لنجدتنا » . ثم ينفث أحدهم دخان سيجارته ويقول « لن يكون بوسع البريطانيين والصهاينة تحدى الأمة العربية بأسرها » . غير أنهم لم يأتوا قط بالطبع » .

وعلى مدى السنوات الخمس الأولى من الانتداب ، حكمت فلسطين أربعة كيانات حكومية منفصلة ولكنها متوازية . فقد حكمت الأولى ، وهى الادارة الاستعمارية البريطانية ، كافة الإدارات البيروقراطية المختصة بالشئون المدنية فى فلسطين . وشكلت الطائفة اليهودية الحكومة الثانية . فكان فادليومى ، وهو مجلس وطنى يهودى انتخبه اليهود الذين يعيشون فى فلسطين بصورة غير مباشرة ، يشرف على الشئون الدنيوية والدينية للطائفة اليهودية . وكان يستثنى من ذلك يهود الجاليات اليهودية التقليدية التى كانت تعيش أصلا فى فلسطين واختاروا البقاء خارج نطاق المؤسسات الصهيونية الجديدة . وكانت الثالثة هى أكثرها تفردا وأكثرها تدميرا لحقوق العرب فى فلسطين ، فقد كان هناك ثلاثون تنظيما تمثل الصهيونية العالمية وتتخذ من لندن مقرا لها تشكل جزءا من حكومة الانتداب على فلسطين . وفيما بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٢٩ قام كادر من مسئوليها بالعمل فى فلسطين وتوجيه السياسة الصهيونية بأكملها بدءا من الهجرة حتى الصناعة . ورغم أن الهيكل الحكومى للانتداب حدد فادليومى لتمثيل الصهاينة فى فلسطين ، فان قوة الصهيونية الحقيقية كانت تكمن فى لندن فى التنظيمات الصهيونية الدولية . وكان أى مسئول إستعمارى بريطانى يحاول التدخل فى سياسة الصهيونية فى فلسطين يواجه بالصهاينة الذين يملكون المال والنفوذ فى لندن

ويتحدون بصورة عداونية وفعالة داخل أروقة وستمنستر أو مقر الحكومة فى ١٠ داوننج ستريت اى قرار يقف فى وجه النشاط الصهيونى فى فلسطين .

وفى مواجهة تلك القوة الموحدة للامبريالية البريطانية والمستوطنين الصهاينة فى فلسطين ويهود العالم ، استطاع الفلسطينيون تعبئة المجلس التنفيذى العربى ، وهو أضعف الكيانات الحكومية الفلسطينية . ورغم ان المجلس التنفيذى العربى حاول ان يكون صورة مطابقة لفادليومى ، فانه لم يدن قط فى التشكيل أو الموارد من نظيره اليهودى .

لقد فرض البريطانيون العجز السياسى على الفلسطينيين لأنهم كانوا بوسعهم ذلك . وفى حين كان الصهاينة يمارسون القوة من خلال الصهيونية العالمية ، فان الفلسطينيين لم يكونوا يملكون سوى أنفسهم . غير أنه من الأهمية بمكان أيضا الاشارة الى أن الفلسطينيين كانوا يضعفون أنفسهم بالانقسامات الداخلية . فقد ظل المتنافسون على مدى أجيال ، من أكبر عائلتين موقرتين فى فلسطين ؛ هما عائلة الحسينى وعائلة النشاشيبى ، يتشاحنون على زعامة الحركة الوطنية الفلسطينية . ويطرح منطق الوحدة جانبا ، وصلت العائلتان الى الاقليم والقرية والعائلة للتنافس على التأييد والمكانة وأقدم ضروريات العرب ـ وهو الشرف . ومن ذلك التنافس على الولاء والارادة برز الحاج أمين الحسينى ليتزعم القضية الفلسطينية .

وكان الحاج أمين ارستقراطيا . وقد ولد فى أسرة الحسينى بالقدس ، التى كانت أكبر مكانة وأقل ثراء من أسرة النشاشيبى . وتلقى تعليمه فى القدس والقسطنطينية ثم انتقل الى جامعة الأزهر المهيبة حيث تلقى تعليمه الدينى العالى . وعشية اندلاع الحرب العالمية الأولى قام بالحج الى مكة ، وبذلك حمل لقب حاج . وكشخص ، كان يمكن أن يكون الحاج أمين جذابا ودمثا وساحرا ، وان يكون مخادعا ومجردا من المبادىء الأخلاقية وقاسيا . ونتيجة لذلك ، فان أتباعه كانوا يعبدونه وأعداءه يكرهونه . ومما يظهر حبه للتآمر ، أنه بدأ الحرب العالمية الأولى كضابط مدفعية تركى وانتهى كجزء من الثورة العربية . وفى نهاية الثورة ركز الحاج أمين على الهدف الوحيد فى حياته ـ وهو أن تكون فلسطين للفلسطينيين . وخلال هذه العملية الفاشلة فانه سوف يثبت أنه وطنى ومناور أيضا .

وفى عام ١٩٢١ ، قام سير هيربرت صمويل ، المندوب السامى البريطانى الذى كان يهوديا أيضا ، بتعيين الحاج أمين الحسينى فى منصب مفتى القدس ورئيس المجلس الاسلامى الأعلى الذى أنشىء حديثا ، وهو هيئة أقامتها حكومة الانتداب للاشراف على الشئون الدينية الاسلامية . وبمنحه أعلى لقب دينى فى فلسطين ، فان صمويل أعطى الحاج أمين الورقة التى لا غنى عنها للمطالبة بالزعامة السياسية للهيئة الرئيسية للفلسطينيين ـ وهى الهيئة الدينية . وجمع أمين بين يديه لقبه الدينى ، وسيطرته على أموال الوقف ، أو الهبات الدينية ، ومكانته كسليل أكبر ملاك الأراضى فى فلسطين ، وجاذبيته الشخصية ومقدرته وموهبته فى التآمر ليصبح تجسيدا للقومية الفلسطينية .

وإبان العشرينيات ، كانت أرض المعركة حول فلسطين هى لندن ، فى حلبة صناعة السياسة البريطانية . وقد قام الحاج أمين ، المتميز بأناقته ، وبلحيته التى لا يخطئها أحد ، وحذائه الجلدى الأسود ، وكاحله الأبيض ، بقيادة وفود الفلسطينيين وأعيان المناطق العربية المجاورة الى لندن فى

معركة خاسرة لتغيير السياسات البريطانية الموالية للصهيونية فى فلسطين . وعلى مدى أسابيع طويلة ، ظل العرب يقرعون أبواب الحكومة فى خنوع أو يقبعون متجهين فى فنادق رخيصة منتظرين الاذن لهم بزيارة مسئول غير ذى شأن فى وزارة المستعمرات . وفى الوقت نفسه ، كان الصهاينة يترددون كثيرا على مكاتب الصفوة السياسية فى بريطانيا . وقد كانت المقارنة تعكس بشكل صارخ التحيز الراسخ لبريطانيا الاستعمارية ، فقد كان البريطانيون يعتقدون أن الفلسطينيين ينحدرون من جنس غريب فشل على نحو ما فى أن يكون على مستوى مفاهيم الغرب بشأن قيمة المجتمعات غير الغربية . وعندما وصل الفلسطينيون لندن ، كانوا كمتوسلين يحملون الألقاب الكريهة عن « العرب » و « الشرقيين » و « المسلمين » أما بالنسبة للصهاينة فان الأمر كان مختلفا الى حد بعيد . فرغم أن اليهود الأوروبيين الشرقيين الذين كانوا يعيشون فى فلسطين قد جاءوا الى لندن أيضا ، فان الطبقة العليا من اليهود الأوروبيين الغربيين هم الذين كانوا يوجهون الدبلوماسية الصهيونية . وكانوا من نفس ثقافة وطبقة أولئك الذين يقدمون لهم الالتماسات . وبعاداتهم الغربية وأساليبهم الأوروبية ، باعوا الصهيونية لمن يسيطرون على فلسطين .

وفى الصراع غير المتكافىء ، شد الفلسطينيون والصهاينة السياسة الاستعمارية البريطانية حول أهم عنصر حيوى فى بقاء فلسطين العربية ـ وهو الهجرة اليهودية ، فقد كان السكان والأرض يشكلان جوهر الاستراتيجية الصهيونية فى فلسطين . وفى الخطة التى صاغها الصهاينة ببراعة ، كانت الهجرة الجماعية هى الوسيلة لخلق أغلبية يهودية فى فلسطين فى أقصر وقت ممكن . وعندما تتحقق تلك الأغلبية ، فانه سيتم الضغط على بريطانيا للتخلى عن انتدابها وتصبح فلسطين وطنا قوميا يهوديا . وقد اتخذ مفهومها البسيط شكلا حسابيا ـ فقد كانت الهجرة تساوى أعداد اليهود فى فلسطين ، واليهود فى فلسطين ، يساوون وطنا قوميا يهوديا .ولذلك فانه منذ عام ١٩٢٠ حتى ظهور دولة اسرائيل الى الوجود فى عام ١٩٤٨ كان السلام السياسى فى فلسطين بين العرب واليهود يتقلب وفقا لمعدل الهجرة . وكانت معدلات الهجرة تتحكم فيها بريطانيا التى تجردت من سياسة « الحياد » فى فلسطين وحولت الصهيونية ، من وجهة نظرا عربية ، الى مؤامرة غربية ضد الأمة العربية .

وقد فاقت الهجرة اليهودية بطلبها على الأرض قدرة فلسطين على الاستيعاب . وكانت فلسطين ، تلك البلاد الصغيرة التى يحدها البحر ويطوقها جيران أكثر قوة وتتسم بارتفاع معدل المواليد ، قد وصلت بالفعل خلال العشرينيات الى الحدود السكانية لاقتصاد زراعى . ونظرا لأن الفلاحين كانوا يفتقرون الى التعليم العام الأساسى الذى يعدهم للأعمال غير الزراعية ، ولعدم وجود قاعدة صناعية فى فلسطين التى كانت تعانى من نقص رأس المال لخلق وظائف جديدة ، فانهم كانوا يكافحون من أجل البقاء وسط أرض آخذة فى التضاؤل . وكانت الهجرة اليهودية تعادل بالنسبة للفلاحين انتزاع العرب من أراضيهم .

وطوال عقد العشرينيات ، كانت وزارة المستعمرات البريطانية تصر على ربط معدل هجرة اليهود بالقدرة الاستيعابية لفلسطين . غير أن المعيار الذى تم اختياره لتقرير التأثير الاقتصادى لأى مهاجر لم يكن يعنى شيئا . اذ أن أى يهودى يتمتع بمهارة أو يملك ٢ر٥٠٠ دولار نقدا كان يحصل على التصريح المطلوب لدخول فلسطين . ونظرا لقيام المنظمات الصهيونية باعداد العمال المهرة أو

تقديم الأموال المطلوبة فان معدل الهجرة استمر فى الازدياد . وفى عام ١٩٢٥ وصل ٣٥ر٠٠٠ يهودى كمهاجرين بطرق مشروعة . غير أن عدد اليهود الذين قدموا بصورة غير مشروعة الى فلسطين استجابة لنداء الصهيونية « بتجميع » اليهود من الشتات قد فاق عدد الذين دخلوا بالطرق المشروعة . وعندما حولت المنظمات الصهيونية فى لندن مبدأ « التجميع » بمهارة فائقة الى مسألة أخلاقية ، فان أولئك الذين قدموا الى فلسطين تحت اشرافها كانوا يتمتعون أساسا بالحصانة من الترحيل .

وقد ربطت قضية الأرض نفسها ، مثل الجواد الثانى فى الفريق ؛ بقضية الهجرة . وكان جوهر الفكر الصهيونى يتمثل فى اقامة مجتمع زراعى فى فلسطين . وقد نسج الكتاب والمتحدثون الصهاينة المتأججون بالعاطفة حلم الدولة اليهودية ، وهو يخرج من أرض فلسطين بالعمل اليهودى . غير أن الموشافات (المستعمرات) والكيبوتزات (التعاونيات) المطلوبة لتحقيق الحلم كانت تتطلب مساحات شاسعة من الأراضى باهظة التكاليف . وكانت الأرض المراحة غالبا ما تحتاج للرى . وكانت حقول السهل الساحلى تحتاج للصرف أو الغسيل لمواجهة الملوحة ، فى حين ان الأراضى الموجودة فى التلال كانت فى حاجة لتخليصها من الصخور التى تحفها مثل الأخاديد . وحتى بدون هذه التكاليف فان الأراضى الزراعية الواقعة داخل منطقة مكتظة نسبيا بالسكان كانت تتكلف أربعة أضعاف ما تتكلفه مثيلتها فى الولايات المتحدة . ومن ثم ، فان الاقتصاد الرئيسى جعل الفلاحين وكذلك غالبية الفلسطينيين الأخرين خارج اللعبة .

وقد أفسحت الملكية الطريق أمام قضية أكثر الحاحا ـ هى الاستئجار . فقد ظل العديد من الفلاحين يعملون على مدى عقود كفلاحين مستأجرين لأراضى تملكها عائلات تعيش فى بيروت ، والقاهرة ، ودمشق . وفى هذا المثال التقليدى للفلاح والمالك الغائب ، كانت الأرض تشهد تغير الأيدى من وقت لآخر غير أن ما حدث الآن تغير الملاك وليس المستأجرين . وقد كان ضعف المحاصيل والمطالب المستمرة لجباة الضرائب هو الذى يسيطر على مخاوف الفلاحين وليس الترحيل . وحتى فى بعض العمليات الأولى لشراء الصهاينة للأراضى ، ظلت عائلات الفلاحين العرب راسخة فى مكانها يشتغل أفرادها كعمال لدى الملاك اليهود الجدد . غير أنه عندما بدأ الصندوق القومى اليهودى يشترى مساحات شاسعة من الأراضى من ملاك الأراضى الغائبين ، أصبحت هذه الأراضى ملكية مطلقة للطائفة اليهودية ، وأصبحت عملية زراعتها مقصورة على أيدى اليهود . وفجأة وجد الزراع المستأجرون العرب ، الذين كانت عائلاتهم تزرع نفس هذه الحقول طوال أجيال ، ويقوم أمنهم الهش عليها ، وجدوا أنفسهم فجأة مطرودين . ووقع الفلاحون ضحايا للصهيونية حيث تم انتزاعهم من ديار الأجداد ونقلهم الى أرض هامشية لا تستطيع أن تفى بمستوى المعيشة المتردى بالفعل . وأصبح المشترون اليهود للأراضى مثل سيف مسلط على رقبة كل فلاح . وفى طول فلسطين وعرضها بدأ الفلاحون يعبرون عن مخاوفهم همسا ويتساءلون « من سيكون الدور عليه ؟ » .

وفى عام ١٩٢٩ ، انفجرت الجماهير الفلسطينية فجأة فى تعبير غاضب عن خيبة أمل مكبوتة حيال الانتداب البريطانى وسياساته الموالية للصهيونية ، وتفاقم الأزمة الاقتصادية للفلسطينيين أنفسهم ، وحيال تزايد القلق من أن الصهيونية تستعد لتكون لها اليد العليا على عرب فلسطين . وكان يمكن أن تؤدى عشرات الحوادث الى تفجر العنف ، غير أنه عندما حدث لم يكن السبب أقل

من المشاكل المزمنة التى تثور حول حائط المبكى ، وهو الحائط المتبقى من المعبد الثانى ، الذى يتاخم حرم المسلمين الشريف .

ومن بين كل المفارقات فى النزاع العربى ـ الاسرائيلى ، فانه ليس فيها ما هو أكبر من قرب حائط المبكى من قبة الصخرة . وعندما يقف المرء ساعة الغروب أعلى الساحة المواجهة لحائط اليهود القديم ، يتخيل المصائر المتشابكة بين اليهود والعرب ، ان قبة الصخرة ، التى تعكس أشعة الشمس الغاربة ، تبدو وكأنها جوهرة . وترمى بظلالها تجاه اليمين حيث تقع على جزء من الحجارة القديمة المتآكلة التى تعهد اليهود طوال ألفى عام تقريبا وهم فى المنفى باستعادتها . ان الأثر الذى ينم عن ثقافة اسلامية عالية وبقايا ثقافة يهودية عالية يرتفع أحدهما فوق الآخر .

ورغم أن حائط المبكى فى عام ١٩٢٩ كان يسكن بجانب الحرم الشريف ، فان اليهود ظلوا يؤدون صلاتهم هناك على مدى قرون ، ويمارسون حقوقهم المعتادة باستثناء التجهيزات الكاملة لأداء الطقوس الدينية . غير أنه مع تعاظم القومية الصهيونية إبان العشرينيات ، فإن مسألة الحائط ووصول اليهود اليه بدون قيود لم تعد قضية دينية ، وانما تحولت الى رمز لقوة الصهيونية فى فلسطين . وفى أحد أيام السبت الحارة فى شهر أغسطس عام ١٩٢٩ ، قام صهاينة متحمسون بمسيرة من تل أبيب وظلوا ينشدون خلال شوارع القدس القديمة الضيقة والملتوية متجهين الى الحائط المقدس . وظلت المجموعة الرئيسية تردد نشيد الصهيونية بينما تسلق آخرون الحجارة القديمة الصلبة وقاموا برفع العلم الصهيونى . واعتقد الفلسطينيون أن الصهيونية السياسية تطالب بالقدس .

وفى اليوم التالى ، أصدر الحاج أمين أمرا الى اتباعه بالخروج الى الشوارع . وساروا الى حائط المبكى وأخذوا يخرجون أدعية الصلوات المحشورة فى الشقوق ويلقون بها على الأرض . وبدا الأمر كما لو أنه بتمزيق قصاصات الورق سيكون بوسع الفلسطينيين القضاء على الصهيونية . وامتد غضب العرب الى القطاع اليهودى فى القدس والى الخليل وصفد وغيرها من المدن الأخرى حيث نفست الجماهير العربية عن غضبها من الجماعات اليهودية . وأسفر ذلك عن مقتل ١٣٣ يهوديا . غير أن ١١٦ فلسطينيا لقوا أيضا مصرعهم . وقد قتل أغلبهم على يد القوات البريطانية التى تم استدعاؤها لاستعادة النظام . وتشهد المحاضر التى سجلت الصراع حول فلسطين أن عام ١٩٢٩ كان عام إراقة دماء الفلاحين والعمال العرب ، وهم الضحايا الرئيسيون لسياسات بريطانيا الموالية للصهيونية .

ورغم أن ثورة عام ١٩٢٩ ، أرضت المشاعر الفلسطينية عاطفيا ، فانها أضعفت قضية الفلسطينيين فى أعين حكامهم البريطانيين . وبتجاهل المشاكل الاقتصادية الجوهرية للفلاحين وعدم اثارة الافتراض الكامل لاقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين ، فان الحكومة البريطانية وصفت أعمال العنف بأنها دليل واضح على « تخلف » العرب وعدم تأهلهم للاستقلال . وخلصت الحكومة البريطانية فى حشو لغوى دفنته فى أوراق رسمية الى أن المعارضة للهجرة اليهودية هى التى فجرت العنف وأقرت بأن الفلسطينيين يرون فى الهجرة خطرا على حياتهم وأن أكثر ما يثير التهديد هو وجود حاكم مطلق محتمل فى المستقبل . ورغم عشرة أعوام من القلاقل الطائفية ووجود تقارير حكومية

تثير التساؤلات حول مباركة بريطانيا للهجرة الصهيونية وحيازة الأرض ، فان السياسة البريطانية فى فلسطين ظلت كما هى . ونظرا لعجز الفلسطينيين عن وضع حد لتأييد بريطانيا للصهيونية ، فان أفضل ما كانوا يتمنونه هو تجميد مكاسب الصهيونية . وقد تركز النزاع الثلاثى الأطراف بين الفلسطينيين والصهاينة والبريطانيين الذى امتد طوال الثلاثينيات حول الوضع القائم ـ حيث كان الفلسطينيون مصممين على الدفاع عنه والحفاظ عليه ، والصهاينة على إنهائه والثورة عليه .

غير أن قوة الدفع كانت فى يد الصهاينة . وباستغلال المفاوضات السرية للوصول الى مآربهم ، جنى الصهاينة فى شتاء عامى ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ حصاد تنازلات من بريطانيا ـ اذ سمح لهم ببناء محطات للطاقة الكهربائية على نهرى الاردن والعوجة لتكون أساسا للتنمية الصناعية للطائفة اليهودية فى فلسطين ، واستخراج الأملاح المعدنية من البحر الميت ، وتجفيف الحولة والاستيطان فيها ، واستصلاح كثبان الرمال على طول ساحل البحر المتوسط أسفل حيفا . وبحصول الصهاينة على حق بناء بنية أساسية اقتصادية يهودية خاصة بهم ، فان وزارة المستعمرات البريطانية منحت المؤسسات اليهودية حق استئجار اليهود فقط . كما سمحت للهجاناة ، وهى قوة عسكرية يهودية مستقلة ذاتيا ، بحماية المستعمرات والقطاعات الحضرية اليهودية . وفى النهاية ، سمحت السياسة الاستعمارية البريطانية للوكالة اليهودية بجمع أموالها من الخارج لبناء المدارس والمستشفيات وشبكة كاملة من الخدمات الاجتماعية للاستخدام الخاص باليهود فقط . وخارج ذلك الاطار ، أضطر السكان الفلسطينيون للعيش على فتات الموارد الضئيلة التى كانت تحولها الحكومة البريطانية الى سلطة الانتداب .

وعندما انتهى عقد الثلاثينيات ، كان المهاجرون اليهود يعيشون داخل مجتمع يهودى بالكامل ، لا يعتمدون فى أى جانب من جوانب الحياة على الغالبية العربية فى فلسطين ويتصلون بالعرب عن طريق المصادفة فقط . وتحولت تل أبيب ، تلك المدينة القذرة التى كانت تضم ألفى نسمة فى عام ١٩١٨ ، مع خلول عام ١٩٣٥ الى مدينة صناعية وبدت وكأنها « المدينة اليهودية الصرفة الوحيدة فى العالم » . وعاش الصهاينة داخل مجتمع أكد حق اليهود المطلق فى إمتلاك فلسطين كوطن لهم ، منعزلين عن القضية المقلقة المتمثلة فيما اذا كان العرب حقوق مماثلة أو سابقة .

وقد كان ذلك المجتمع المقتصر على اليهود فقط والذى كانت تغذية الشبكة الصهيونية الخارجية هو الذى شحن الغضب الفلسطينى ضد الغرب . فبالنسبة للفلسطينيين كانت فلسطين اليهودية تعيش أساسا كمشروع تخيله الغرب وساعدت أموال الغرب على تغذيته ومؤازرته . وفيما بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٣٦ جمعت فلسطين الصهيونية ٤٠٠ مليون دولار من مصادر خارجية . وبسبب هذه الأموال ، كان اليهود داخل الحظيرة الصهيونية يتمتعون بمستوى معيشة يفوق موارد حكومة الانتداب . ففى عام ١٩٣٥ ، أعلن اليهود أن دخل الفرد السنوى يعادل ٣٤ جنيهااسترلينيا . أما بين العرب فقد بلغ دخل الفرد سبعة جنيهات استرلينية . وبدلا من جنى أى فائدة ولو ضئيلة من الاقتصاد اليهودى ، واجه الفلسطينيون زيادة حادة فى تكاليف المعيشة نجمت عن إدخال أموال أجنبية لم يكن بوسعهم الحصول عليها .

وهناك منزل صغير يقع على طريق ناء بين الناصرة وحيفا فى اسرائيل . وتمتلىء حديقته ذات السور المنخفض بالورود وشذى زهور البرتقال . وعندما وصلت انحنيت تحت شجرة كرم تظلل كرسى خيزران قديم كان يجلس عليه رجل فى آخر عقده السبعين . ونهض الرجل ببطء وقد أحنته السنون ، الا أن نظرته كانت تشع بكرامة واثقة عندما جاء لاستقبالى . وخلال تناول القهوة السوداء الثقيلة الضرورية ، حدثنى رشيد خليل عن شبابه الذى قضاه فى حيفا .

« قبل مولدى ، كان أبى وجدى يعيشان بجانب اليهود الفلسطينيين . وكنا نعمل معا ، وبسبب الفقر الذى كان يعيش فيه الجميع فاننا كنا نعانى معا ، ولم نكن ضدهم ولم يكونوا ضدنا » . وتوقف عن الحديث حيث هاجمته نوبة سعال عنيفة . وعندما انتهت ، مضى يقول : « كان ذلك قبل قدوم الصهاينة ، الذين إختاروا العيش منفصلين » . ثم أخرج من جيبه بيده المرتعشة منديلا قديما مسح به دموعه التى إنسابت من عينيه ثم تناول خيط الحديث مرة أخرى . « عندما كنت شابا ، قام الصهاينة ببناء مدارس ومستشفيات خاصة بهم . وامتلكوا مزارع كبيرة ، أو أنها كانت كبيرة بالنسبة لفلسطين ، وأقاموا مصانع لم نشهدها من قبل » . ثم توقف مرة أخرى متأملا هذه المرة . وانتظرت . وفى النهاية أدار وجهه بعيدا عنى كما لو كان يشعر بالعار . « ما الذى تعتقدينه أن يكون شعور أى فلسطينى يمر على شقق جديدة لليهود ويرى ملاعب رائعة يلعب فيها أطفالهم فقط ؟ » ثم استدار الى وقال « اننى لا يمكن أن أصف لك مشاعرى لدى مشاهدة مستشفى يهودى جديد بينما لم يكن يوجد أى مكان لأى فرد من عائلتى يتوجه اليه اذا مرض سوى عيادة صغيرة ليس بها سوى زجاجات قليلة من الدواء ، أو رؤية الأطفال اليهود يجلسون فى مدراسهم المريحة فى حين أن أطفالى يحاولون التعلم فى حجرة مزدحمة وعلى يد مدرس غير كفء » . وعاوده السعال . وقال بنبرة تجمع بين الحنق والرثاء . « لقد كان الصهاينة يملكون الكثير ولم يعطوا الفلسطينيين شيئا ، ولا حتى وظيفة » .

غير أن الحياة كانت صعبة فى فلسطين حتى بالنسبة لليهود . اذ ان حالة الركود التى سادت العالم وبدأت فى عام ١٩٢٩ قد أضرت كثيرا بالاقتصاد ، وأوقفت تدفق المهاجرين واستنزفت المستعمرات . وفى عام ١٩٣٣ ، تحول المد حيث دعم أدولف هتلر من نظامه الجديد فى ألمانيا . وبدافع الخوف الذى استولى على اليهود مما يخبئه لهم المستقبل ، وصلت هجرة اليهود الى فلسطين مستويات جديدة ـ ٣٠٫٣٢٧ فى عام ١٩٣٣ ، ٤٢٫٣٥٩ فى عام ١٩٣٤ ، ٦١٫٨٥٤ فى عام ١٩٣٥ . وفشلت جهود بريطانيا الضعيفة لوقف تدفق اليهود على فلسطين فى مواجهة خدع هتلر الشريرة ضد يهود ألمانيا . ومن ثم فان سكان فلسطين من اليهود الذين كانوا يشكلون ١١ ٪ فى عام ١٩٢٢ و١٦ ٪ فى عام ١٩٣١ قفزوا الى ٢٨٪ فى عام ١٩٣٥ . وفجأة وجد الفلسطينيون أنفسهم واقعين فى شرك عالمى لم يكن لهم يد فيه ولم يفهموا سببه . وطالبوا بالاستقلال ولكنهم وقعوا تحت الانتداب البريطانى . وطالبوا بحماية أرضهم من شعب غريب ولكنهم حصلوا على نتاج نظام خلقه رجل بالغ الانفعال . غير أنه فى عام ١٩٣٥ ، كان لا يزال من غير الواضح الى أى حد تتحرك الأحداث التى ستقرر مستقبل فلسطين خارج نطاق سلطة بريطانيا . لقد كانت بريطانيا لا تزال تقف حارسا لبوابات فلسطين . وكانت هى الوحيدة التى تملك بين يديها القدرة على صد الهجوم الصهيونى على فلسطين . ولذلك فان الفلسطينيين كانوا يوجهون هجومهم للبريطانيين .

ومنذ عام ١٩٢٩ ، لم تحقق خطب الحاج أمين النارية شيئا فى النضال من أجل اقامة دولة فلسطين العربية . ، ورغم أن القومية الفلسطينية كانت تحكم حياة المفتى ، فان أخطاء عميقة قد شوهت زعامته وأفسدت قدرته على توحيد الفلسطينيين ضد البريطانيين ، إن أسلاف الحاج أمين ، شأنهم شأن أسلاف غالبية العائلات الكبيرة فى فلسطين ، قد قدموا الى فلسطين فى أعقاب الفتح العربى . ولم تكن لهم أية تقاليد عسكرية ، ومن ثم لم يمارسوا أى نفوذ عسكرى داخل النظام العثمانى . وبدلا من ذلك كانوا يقومون بدور البيروقراطى أو رجل الدين أو القاضى أو العالم . وقد أخذوا مكانتهم من الأرض والنسب والمهام الرمزية المتمثلة فى حماية الأماكن المقدسة . ولذلك فان أسلوبهم السياسى كان أسلوب الوساطة بين مواطنيهم وبين من يمسكون بالسلطة .

وعندما واجه الحاج أمين التهديد الصهيونى ، تصرف داخل اطار تجربته . وباستثناء أعمال الشغب التى تفجرت فى عام ١٩٢٩ ، فانه كان يتبع الاستراتيجية الوحيدة التى بوسعه ممارستها ـ وهى الاقناع . ومن خلال المناقشات والتحذيرات والتلميحات باللجوء الى العنف فى نهاية الأمر ، كان يصر على أن بوسعه اقناع بريطانيا بالتخلى عن التزامها ازاء الصهيونية . وتمثلت المشكلة فى انه رغم شهرته كمثير عنيف للجماهير ضد بريطانيا ، فان المفتى كان يوازن أساسا بين موقفه الوطنى المتأجج وتقبله لحكومة الانتداب بوصفها أداة يمكن لبريطانيا استخدامها لنزع فتيل السخط الشعبى . وفى التحليل الأخير ، فان الحاج أمين كان وطنيا غير مستعد لتعريض قربه من الحكومة للخطر ، وهى الصخرة التى كانت ترتكز عليها مكانته . وقد تحرك آخرون ، غير هيابين ، وخاضوا المشقات بتحدى سياسات بريطانيا الموالية للصهيونية .

وقد اعتبرت فلسطين ، على المستوى العاطفى على الأقل ، بمثابة قضية عربية . فقد كانت الوفود التى رافقت الحاج أمين فى لندن ابان العشرينيات تضم عددا من الشخصيات البارزة من المناطق العربية الأخرى . وكانت القومية العربية البازغة تضرب بقضية فلسطين المثل على مخططات الغرب ضد العرب . وفى شهر ديسمبر من عام ١٩٣١ ، اجتمع حشد من الوفود من عشرين دولة اسلامية فى القدس للتحذير من مخاطر الصهيونية . وبعد عامين طالب العرب بمقاطعة السلع البريطانية ردا على رعاية بريطانيا للصهيونية . وبدأت القضية الفلسطينية تعمل كوسيلة لتعلم القومية العربية . غير أنه بعيدا عن التأييد العاطفى ترك الفلسطينيون لمواصلة كفاحهم ضد أخطار الاستعمار والصهيونية معا .

وحتى قبل تفجر الاضطرابات فى عام ١٩٢٩ ، قام الشيخ عز الدين القسام ، وهو مدرس دين اسلامى معمر وملتح وداعية اصلاحى من حيفا ، بتنظيم مجموعة خلايا ثورية سرية . وباسم الشهداء الأبرار ، كان القسام وكوادره يهاجمون القوات والمنشآت البريطانية المنعزلة للتعبير عن الغضب الفلسطينى . وفى ليلة مظلمة فى أوائل شهر فبراير عام ١٩٣٥ ، قتلت رصاصة بريطانية الشيخ القسام . وبين عشية وضحاها ارتفع عز الدين الى مصاف الشهداء وتولى آخرون قضيته .

وفى الخامس عشر من ابريل عام ١٩٣٦ ، توارت مجموعة من أتباع القسام فى الظلام على طول طريق طولكرم منتظرين ثلاثة من اليهود يسيرون نحو الكمين المنصوب لهم . وعندما ظهروا أمامهم هب الفلسطينيون كرجل واحد وأطلقوا النيران عليهم . وعقب جنازة أقيمت لهم فى تل أبيب

التهبت بخطب بلاغية صهيونية ، بدأ اليهود يبحثون عن كيفية الثأر . ووجدوا هدفهم فى كوخ يقع بالقرب من مستعمرة بتاح تكفا الصهيونية الأصلية حيث كان يعمل اثنان من الفلسطينيين . وفى أعقاب ذلك الحادث تفجر غضب الفلسطينيين ضد الحكم البريطانى والانتهاك الصهيونى . وطالب الحاج أمين ، الذى كان يصارع من أجل الحفاظ على زعامته ، بالقيام باضراب عام امتد الى ثلاثة أعوام من المقاومة المسلحة ضد الحكم البريطانى . وفى مدن فلسطين أغلقت المحال وامتنع العمال عن الذهاب الى العمل . وفى القرى ترك الرجال فى قرى بأكملها أدواتهم وتعهدوا بالولاء للحكومة الوحيدة التى بوسعهم التعامل معها ـ وهى اللجنة العربية العليا التى أقرتها بريطانيا . وتعالت الصيحات مطالبة « بعدم فرض ضرائب بدون تمثيل » ووقف الهجرة اليهودية ومنع بيع الأراضى لليهود واقامة حكومة وطنية تكون مسئولة عن كافة أفراد الشعب . وحتى فى هذه المرحلة المتأخرة من كفاحهم الوطنى ، لم يكن العرب يهدفون الى اخراج الطائفة اليهودية من فلسطين ، وانما ارغام بريطانيا على الاعتراف بأن الصهاينة يشكلون أقلية فى منطقة يسودها العرب . أى ان عليهم الخضوع لحكم الأغلبية ـ حكم العرب .

وقد أسهم الاضراب العام فى توحيد مجتمع فلسطين المقسم على أساس العائلة ، والطبقة ، والمنطقة والدين . وكان المتظاهرون يهتفون « يسقط بلفور ، يسقط بلفور » ، وأوقفوا بالفعل النشاط التجارى وحركة النقل فى القطاع الاقتصادى لفلسطين . وفى يافا اشتبك المتظاهرون الفلسطينيون بالأيدى مع قوات مكافحة الشغب البريطانية ، وظهرت الاضطرابات التى كان يعانى منها الانتداب البريطانى على صفحات كل جريدة فى بريطانيا .

واذا كان الحاج أمين هو واجهة التمرد ، فان الفلاحين كانوا عموده الفقرى . واذا كان الحاج أمين هو زعيمه الروحى فان عبد القادر الحسينى كان بطله .

فقد جمع ابن عمدة القدس السابق ، ذلك الرجل الذى اشتهر باسم القادر ، جمع من حوله جيشا من رجال حرب العصابات لمحاربة البريطانيين مثلما حارب العرب الأتراك فى عام ١٩١٨ . ولكن بينما كانت الأموال والأسلحة البريطانية تساند الثورة العربية ، فان التمرد فى عام ١٩٣٦ كان يعتمد على موارده الخاصة وعلى بضعة رجال وقليل من الأسلحة المهربة من الأراضى العربية المحيطة .

وفى قرية تلو الأخرى ، حمل الرجال أسلحتهم العتيقة وسارعوا للانضمام الى جيش يرفع علم فلسطين المستقلة المكون من اللون الأحمر والأخضر والأبيض والأسود . وكان جيش رجال حرب العصابات ، الذى كان أفراده يمتطون الخيل أو يسيرون على أقدامهم ، مكونا من مئات من الفلاحين الذين يتبعون بضعة من العسكريين النظاميين من الدول العربية المجاورة . وقد قام بنزع خطوط السكك الحديدية ، وتخريب خط أنابيب البترول الذى يعبر فلسطين من العراق حتى ميناء حيفا ، واحراق بنك باركليز ، رمز انجلترا الاستعمارية . ولم يعد الفلسطينيون عاجزين تماما واستطاعوا استخدام قوتهم الجديدة استخداما جيدا .

واستمر الاضراب ستة أشهر . وأذعن الفلسطينيون الذين لم يهزموا ، لنداءات زعماء الدول العربية المجاورة لقبول الوعود البريطانية برفع المظالم عن الفلسطينيين غير أنه فى شهر يوليو عام

١٩٣٧ ، تنفست الانتفاضة نسيم حياة جديدة عندما نشرت حكومة صاحب الجلالة تقرير لجنة بيل حول الاضطرابات ورغم أنه كان يماثل التقارير الأخرى المشابهة التى كانت تعزو الاضطرابات الى رغبة الفلسطينيين فى اقامة وطن مستقل وقلقهم حيال اقامة وطن قومى يهودى ، فقد أوصت اللجنة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود . وكان الصهاينة ، الذين يمثلون ٢٨ فى المائة فقط من عدد السكان ، قد استولوا على ثلاثة وثلاثين فى المائة من مساحة فلسطين الكلية ، بما فيها مناطق الجليل الخصبة والسهل الساحلى من الحدود اللبنانية جنوبا حتى يافا . وفى مئات القرى العربية التى تقع داخل الدولة اليهودية ، فانه سيتم تحويل آلاف الفلسطينيين الى أقلية خاضعة أو يرغمون على الرحيل من الدولة اليهودية . وفى النهاية ، فان المنطقة المقترحة للفلسطينيين واجهت الدمج فى شرق الأردن ليحكمها الملك عبد الله الموالى للبريطانيين . وأكدت لجنة بيل أسوأ مخاوف الفلسطينيين . ومرة أخرى هبوا كرجل واحد ضد البريطانيين .

ومن الصيف حتى مستهل خريف عام ١٩٣٨ ، ظل الريف الفلسطينى بأكمله من بحيرة الحولة فى أقصى الشمال حتى بير سبع فى طرف النقب ، يموج بالثورة والتمرد . وأغلقت مكاتب الحكومة ، والبنوك ، والبريد ، وأقسام الشرطة فى المدن الرئيسية مثل رام الله ، وبيت لحم ونابلس ، مما اضطر القوات البريطانية على مضض الى رفع تقرير الى لندن بأنه لا وجود من الناحية العملية للادارة المدنية لفلسطين . وكان ذلك بمثابة اعتراف صريح بأنه لم تعد لبريطانيا سيطرة على الانتداب .

وحاولت الحكومة البريطانية استعادة سيطرتها فاقتحمت الدبابات ، والقوات الجوية والمدفعية الثقيلة فى القتال ضد جماعات رجال حرب العصابات التى تفتقر الى التدريب والتسليح الجيد . وقامت بارسال عشرين ألف جندى اضافى من قواتها لقمع التمرد وحثت المنظمات الصهيونية شبه العسكرية التى اشتد عودها على الانضمام الى الحرب ضد الفلسطينيين .

ونظرا لفشل بريطانيا فى إخماد الثورة ، فانها فرضت « قوانين الطوارىء » . وقام الحاكم بحل اللجنة العربية العليا وجرد الحاج أمين من منصبه ، مما اضطره للفرار الى لبنان . وأصدرت المحاكم العسكرية أحكاما بنفى بقية الزعماء السياسيين الفلسطينيين ، وأحكاما عاجلة أخرى تضمنت الاعدام شنقا للفلسطينيين الذين تم القبض عليهم بتهم حيازة أسلحة ، وزجت بالآلاف فى معتقلات خاصة . وكان المعتقلون الذين يمثلون كافة قطاعات المجتمع ـ من حرفيين وموظفين مدنيين ، ورجال دين ، وطلبة وفلاحين ـ يتحدون سجانيهم من وراء الأسلاك الشائكة . وكان المثقفون والفلاحون ، من أعلى وأدنى النظام الاجتماعى ، يرتدون نفس الزى الفلسطينى التقليدى . وكان القس المسيحى يجلس جنبا الى جنب مع الزعيم الدينى المسلم كرمز للتضامن الفلسطينى .

ونظرا لاستمرار المقاومة ، فقد مضت بريطانيا فى اتخاذ اجراءات أكثر قسوة ، وفرضت عقوبات جماعية شديدة على القرى والمدن . فكان الجيش يقوم بنسف المنازل بصورة منتظمة فى قطاعات كاملة من المدن التى يسودها التمرد ، واغلاق المدارس ، وفرض غرامات على طوائف بأسرها ، وإيواء القوات على حساب السكان . ولم يسلم أى مكان من قبضة بريطانيا الامبريالية

المتشددة ، ولا حتى مدينة القدس القديمة . فقد تعرضت قلعة الأماكن المقدسة المسيحية واليهودية والاسلامية لحصار دام خمسة أيام استهدف اقتلاع جذور المتمردين المختبئين فى شوارعها وحاراتها الضيقة .

وفى النهاية ، أدت عمليات الترحيل ، والاعتقال ، والغرامات ، والتمزق الاقتصادى ، والقتل ، والاعدام الى تحطيم المجتمع العربى سياسيا ، واقتصاديا ونفسيا . وفى عام ١٩٣٩ ، وبنفى عبد القادر والمفتى ، انتهت الثورة . وحلت الهزيمة بالفلسطينيين بسبب تفوق قوة بريطانيا وفشل زعامتهم أنفسهم .

وخلال الثورة ، كان الشعب هو الذى يدفع زعماءه . ولم يخرج أى من قادة الثورة العسكريين من الطبقة الحاكمة . ذلك أنه فى مجتمع فلسطين التقليدى ، كانت الطبقة الحاكمة تبتعد عن الجماهير وتجفل فزعا من احتمال تفجر العنف من جانب الطبقة الدنيا ، الأمر الذى يتعارض مع مصالح علية القوم . ونظرا للالتزام الصارم بتقاليد الأعيان والفلاحين ، فان من يشكلون الطبقة العليا كانوا يترددون فى تقديم أية التزامات للطبقة الدنيا حتى فى قضية القومية الفلسطينية . وكان يمكنهم الاتصال بالطبقة الدنيا فقط فى حالة عدم وجود تعارض مع مصالحهم الحيوية . وفى عام ١٩٣٩ ، كان الحاج أمين يمارس زعامته بأسلوب مطابق لأسلوب عربى من الطبقة العليا يتظاهر بقيادة ثورة سياسية بدون أن يلوث يديه فى حشد جموع شعبه . وفى نهاية الثورة ، تخلى هو وأعضاء اللجنة العربية العليا عن كل الحكمة العملية التى ربما تعلموها من الثورة كلها ـ والمتمثلة فى الوحدة ، والتنظيم ، وفعالية القوة السياسية للانتفاضة الشعبية . ولذلك ، لم يحقق الفلسطينيون انتصارا كبيرا . فطوال ثلاث سنوات ، أرغموا بريطانيا على مواجهة ثورة مزعجة ومكلفة تحدت السياسة البريطانية فى فلسطين والمصالح البريطانية فى كل أرجاء العالم العربى . وفى النهاية ، منح البريطانيون الحاج أمين فرصة أخرى كى يثبت أنه شخص خيالى .

ونظرا لحاجة بريطانيا الشديدة لاستعادة الاستقرار فى الشرق الأوسط من أجل تركيز طاقاتها على شبح ألمانيا النازية الزاحف ، فانها تراجعت عن النقاط الرئيسية الثلاث فى تقرير لجنة بيل ـ وهى التقسيم ، وقيام دولة يهودية مستقلة ، وحكم شرق الأردن للجزء العربى من فلسطين . وبعد ثلاث سنوات من الحرب الأهلية ، عرضت بريطانيا على الفلسطينيين اقامة دولة فلسطينية واحدة تضم العرب واليهود ، والاستقلال بعد عشر سنوات ، ومنع بيع الأراضى لليهود فى مناطق كبيرة فى فلسطين ، واجراء خفض جذرى فى هجرة اليهود لمدة خمس سنوات ، يتولى بعدها الفلسطينيون السيطرة المطلقة على سياسة الهجرة . والأهم من ذلك أن الكتاب الأبيض الذى صدر عام ١٩٣٩ تضمن التراجع عن وعد بلفور وقبول حق الفلسطينيين فى الحكم الذاتى . ولو لم يستطع غضب وثورة الصهاينة فى لندن نسف هذا المشروع لكان الفلسطينيون قد انتصروا . غير أنه رغم وصول التأثير العربى لذروته ، رفض الحاج أمين ، وهو فى المنفى ، المشروع وأصر على الاستقلال فى غضون خمس سنوات وليس عشرا . ونظرا لافتقاره لصفات السياسى المحنك فضلا عن تعنته وتمسكه بوجهة نظره السياسية ، فانه أهدر أفضل فرصة لاحت للفلسطينيين لاقامة دولة . وحذت اللجنة العربية حذو المفتى ، وهى خطوة تتفق على نحو مفجع مع أسلوب الرفض الأحمق الذى كانت تشتهر به . وكما لو كان ذلك بالأمر ، فان تضحيات الثورة قد ذهبت سدى .

وقلما يذكر الفلسطينيون الحاج أمين . ولكن ذكرى عبد القادر لا تزال عالقة فى الأذهان .

وقد برز ابنه فيصل الحسينى كزعيم فلسطينى خلال الانتفاضة الفلسطينية التى تفجرت فى عام ١٩٨٧ ورافق الوفد الفلسطينى فى مؤتمر سلام الشرق الأوسط عام ١٩٩١ . ويقع منزل فيصل الحسينى فى طرف وادى ضحل عند سفح جبل الزيتون فى شرق القدس . وهو ذو أثاث بسيط خال من الزخارف . وبين مدخلين فى قاعة استقبال تغمرها أشعة الشمس ، علقت على الحائط الأبيض لوحة منقوشة من خشب الزيتون . وسيفان متقاطعان يحيطان برأس رجل . وتشير الصورة الجانبية البارزة والكوفية الى أنه عبد القادر . وكما قاد المقاومة العربية المسلمة ضد السياسة البريطانية الاستعمارية التى كانت تقف الى جانب الصهاينة ، فان عبد القادر سوف يقود مواجهة العرب الأخيرة ضد الصهيونية فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

الفصل الخامس
حرب فلسطين

ينحرف الطريق المتجه نحو الشمال والخارج من مدينة رام الله فى الضفة الغربية الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلى بعيدا عن المدينة المكتظة بالسكان وينعطف داخل تلال وعرة وحقول ذات لون بنى قاتم ضارب للحمرة منثورة بأشجار الزيتون . وكان ذلك هو العام الثالث من ثورة فلسطينية اخرى ، هى الانتفاضة . وعلى الطريق كانت تتسابق شاحنات ذات لون أخضر رمادى للجيش الاسرائيلى مع عربات نصف نقل قديمة تحمل المحاصيل الفلسطينية الى مدينة القدس لتأخذ مسارها على الطريق الضيق . وكانت السيارة الأجرة التى تقلنى تلاحق الركب . وبعد تخطيها مباشرة لمهبط طائرات هليكوبتر ممهد ، حديثا ، هدأ السائق من سرعة السيارة ثم استدار يسارا تجاه مخفر مراقبة خشبى ذى ثلاثة جوانب محفور داخل احد التلال . وداخل المخفر كان هناك منظار ضخم للاستطلاع الليلى يقوم بادارته طاقم من ستة جنود اسرائيليين وموضوع فوق حامل ثلاثى القوائم الى جانب منضدة عليها معدات اتصال تربطه بأقرب معسكر للجيش وفى الوادى أسفل التل يوجد « الجلازون » ، وهو خليط من الأسمنت والكتل الحجرية يحتوى على رفات قتلى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . وتخبطت السيارة فوق الطريق الملىء بالحفر ، ثم هدأت سرعتها من أجل مرور فتاة نحيفة تحاول أن تحفظ توازن صينية من الألومنيوم مكدسة بالخبز تحملها فوق رأسها . ثم توقفت أمام المتجر الصغير الذى يحدد المدخل الى معسكر اللاجئين . وخرجت من السيارة وأخذت طريقى الى أسفل التل . وعند نهاية الطريق القذر شديد الانحدار الذى يعد الطريق الرئيسى للمعسكر ، كان ينتظرنا رجل ربعة ذو رأس أصلع وشارب مهذب بعناية اسمه خليل ، يعمل مدرسا للغة الانجليزية ، وقد كان خليل فى العاشرة من عمره فى عام ١٩٤٨ .

كانت أسرتى تعيش فى قرية تقع بين مدينة طولكرم والبحر . وكنا ستة أفراد ـ أمى وأبى ، وثلاثة أخوات بنات ، وأنا . وكنت أنا أكبرهم سناً . وقد سمعنا صوت قدوم الصهاينة وتملكنا رعب شديد . وقال والدى « أسرعوا ، هيا إهرعوا تجاه التل الموجود خلف القرية ، واتجهت أخواتى وأنا نحو الباب ولكن أمى رفضت الخروج . وجلست على كرسى فى وسط الحجرة الصغيرة فى مدخل المنزل وقالت أنها سوف تبقى . لقد كانت تظن ، ولا أدرى السبب ، أن بامكانها أن تحمى منزلها . وبكينا وتوسلنا اليها أن تأتى معنا ولكنها بقيت فى مكانها . وقال لها والدى إننا سوف نرحل لفترة صغيرة فقط عندما حاولت أن تأخذ أختى الصغيرة وكانت الدموع تتساقط من عينيها عندما قالت أنها سوف تأتى معنا » .

وتوقف خليل عن الحديث ومد يده الى المنضدة الخفيفة الموضوعة أمامه وسحب سيجارة من علبة متهالكة ثم أشعلها وسحب نفسا عميقا . « لقد عشنا تحت الأشجار فوق التل لمدة أربعة شهور . وعندما حل الشتاء البارد ، وجدنا منزلا صغيرا استأجرناه . وبعد ذلك نفدت نقودنا وجئنا الى هنا . وكنا نعتقد أن هذا الوضع سوف يستمر لفترة مؤقتة أيضا . ثم هز كتفيه وأعقب « ولكن كما ترين أنا مازلت هنا . وكل يوم أقضيه هنا ، أذكر العرب بما فعله الصهاينة بالفلسطينيين - وليس فقط الفلسطينيين بل كل العرب » .

ان حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ تؤكد للعرب أكثر من أى شىء آخر الاحساس بالخيانة من جانب الغرب . فبينما يرى الغرب فى ميلاد دولة اسرائيل تتويجا للجهد البطولى لليهود للتغلب على القهر والابادة والعودة الى أرض أجدادهم ، يرى العرب فى ذلك أكثر الأعمال الاستعمارية التى ابتلى بها الغرب الأمة العربية بغضا وكراهية ، ان عام ١٩٤٨ يمثل فى ذهن العرب صراعا آخر من الصراعات غير المتكافئة التى تسببت فيها أموال الغرب ومهاراته التكنولوجية ، التى كانت هذه المرة فى أيدى الصهاينة ، فى اجبار العرب على الركوع . وهناك أساس قوى من الحقيقة فى مفاهيم العرب . اذ لم يكن فى مقدور الصهاينة مطلقا أن ينتصروا أو يستمروا فى الوجود بدون الدعم الغربى . ولكن ربما لم يكن أيضا فى مقدورهم أن ينتصروا لو أن العرب قد حققوا وحدتهم التى تتغنى بها أساطيرهم .

لقد كانت قوة تأثير قضية فلسطين على القومية العربية تتنافس مع قوة تأثير مصالح كل دولة عربية على حدة . ومن ثم ، كانت حرب فلسطين حربا عربية ضد الصهاينة وحربا عربية ضد الدول العربية الأخرى . وأصبح الفلسطينيون ضحايا الطموح العربى وكذلك عمليات الطرد الصهيونية عبر أنه بضياع فلسطين ، وجد العرب فى دولة اسرائيل أعمق رموز وحدتهم . وعشية الحرب العالمية الثانية ، كانت فلسطين المجهدة نتيجة ثلاث سنوات من الاضطرابات ، تلتقط أنفاسها بين ماضيها ومستقبلها . وكان الماضى هو الجهود المكبلة للفلسطينيين من أجل الحفاظ على فلسطين وشخصيتها العربية . وكان المستقبل هو اصرار الصهاينة الشديد على نيل فلسطين من أجل اقامة وطن عليها لليهود .

ومثل نبوءة بالغيب ، اندلعت الحرب العالمية الثانية فى نفس العام الذى انهارت فيه الثورة العربية ضد الحكم البريطانى فى فلسطين . ولما كان المشرق العربى ذا أهمية هامشية بالنسبة للصراع فى أوروبا ، فقد أدرك الفلسطينيون ، بل واليهود على نحو أكبر ، ان سنوات الحرب تعتبر فترة يمكن استغلالها فى الاعداد لعملية الحسم القادم بشأن مستقبل فلسطين . وكانت كل طائفة تعرف أنه بمجرد انتهاء الحرب وعودة السلام الى أوروبا ، فسوف تتطلب المشكلة الفلسطينية حلا لها . كما كانت كل منهما تعرف أن طرفا واحدا فقط يمكن له أن ينتصر . ولكن ما لم يكن يعرفه تماما أى من الطرفين هو أن نتيجة الصراع حول فلسطين هى فى النهاية أكثر ارتباطا بالحرب فى أوروبا منها بالأحداث فى المشرق العربى . فقد قرر أدولف هتلر فى غيه وضلاله نهائيا ليس فقط مصير يهود ألمانيا وانما أيضا مصير عرب فلسطين .

وكان الاشمئزاز العالمى من معسكرات الموت التى أقامها النازى لليهود سببا فى التأييد

السياسى الكامل من الغرب لاقامة وطن لليهود على أرض فلسطين وتحويل شعب فلسطين خلال هذه العملية الى شعب من اللاجئين وتحويل العرب الى شعب يوحده الغضب ضد الصهيونية .

ومع تردد أصداء الحرب عبر أوروبا ، هجعت فلسطين تحت شمس المشرق . فقد تقلص حجم الهجرة اليهودية اليها كنتيجة مروعة لنكبة اليهود فى أوروبا . ولكن السلام النسبى كان أيضا انعكاسا لما حدث للفلسطينيين . فقد أنهى انهيار ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ضد الحكم البريطانى قدرة الفلسطينيين على التأثير على مجرى تاريخهم . فكانوا منهكين تماما ، ومحرومين من حقهم فى اقامة تنظيم سياسى ومحرومين من قيادتهم التى تم نفيها ، ومبعدين تماما عن المسرح السياسى الدولى ، ومن ثم كانوا عاجزين سياسيا . وكان أقصى ما فى وسعهم هو الوقوف بشكل ضعيف ضد الهجوم القوى للصهاينة .

وبينما كانت تضعف همة الفلسطينيين ، كان الصهاينة يستعدون بشكل محموم للصدام القادم حول فلسطين . غير أنه ظلت هناك حقيقة لا يمكن الهروب منها تهدد جميع الخطط الصهيونية - وهى الحقيقة المتصلة بأعدادهم ، لقد كان عدد السكان اليهود فى فلسطين فى عام ١٩٣٩ يبلغ ٤٤٥ ألف نسمة ، وهو ما كان يمثل نسبة لا تتجاوز ٣٠ ٪ من عدد السكان . واذا كان للصهيونية أن تنتصر ، فقد كان من الضرورى استغلال سنوات الحرب فى مضاعفة حجم « اليشوف » ، وهى الطائفة اليهودية فى فلسطين . كانت الهجرة وحدها ، الهجرة الضخمة ، هى القادرة على توفير الأعداد اللازمة لكسب الوطن اليهودى . ولكن بريطانيا كانت لا تزال مسئولة عن حماية مداخل فلسطين . ونتيجة لقلق بريطانيا مما أشيع عن أن المصالح البريطانية فى العالم العربى هى المسئولة عن تسهيل الهجرة اليهودية ، امتنعت لندن عن القيام بدور الشريك المتكيف مع الصهيونية . ولذا ، فان ما كانت تطلبه الصهيونية هو راعى غربى أكثر قوة من الامبراطورية البريطانية المتداعية .

وكما لو كانت صورة القوة فى الغرب قد بدأت تتحول بالفعل عن بريطانيا المعرضة للخطر الى أمريكا القوية ، فان الصهاينة الامريكيين كشفوا النقاب فى اجتماعهم لفندق بلتيمور بمدينة نيويورك فى مايو عام ١٩٤٢ عن برنامجهم الجديد . وباسقاط تعبير « الوطن اليهودى » ، أعلن ما يسمى « برنامج بلتيمور » ان الصهيونية لن تقبل بما هو أقل من اقامة « كومنولث » يهودى فى فلسطين ، وهو ما يعنى بعبارة أخرى اقامة دولة يهودية . وكل ما كان باقيا هو تحديد الجدول الزمنى . وأعلن ديفيد بن جوريون ، وهو يتحدث بثقة نبى ، ان نهاية الحرب العالمية الثانية سوف تحدد اشارة البدء للصهاينة للقيام بخطوتهم الأخيرة نحو فلسطين .

ومع اقتراب الحرب فى أوروبا من نهايتها ، تزايد التأييد الغربى لاقامة دولة يهودية بدرجة لم يكن يتوقعها أحد قط حتى أكثر الصهاينة الأوائل تعصبا ، فقد أكدت جيوش الحلفاء المتقدمة تجاه برلين صحة جميع عمليات التعذيب البشعة التى أوقعها نظام الحكم النازى باليهود وبغيرهم ممن اعتبروا غير صالحين للرايخ الثالث . ويوما بعد يوم ، كانت الصفحات الأولى من جرائد الغرب تحمل صورا لعيون غائرة تحملق فى جيوش التحرير ، وأيد هزيلة تمتد بضعف عبر الأسلاك الشائكة للحصول على قطعة من الشيكولاتة ، وأرجلا كعيدان القصب تبرز من أردية السجن المخططة القذرة . ولكن لم يكن هناك ما هو أكثر تعبيرا عن أهوال « الحل الأخير » لهتلر من الأفران المهجورة

فى « أوشفيتز » ومقابرها الجماعية . واشتعل غضب المجتمع الغربى الذى طالما ظل غير مصغ للشائعات التى كانت تتردد عن المذابح الجماعية .

وقام الحلفاء بنقل نزلاء معسكرات الاعتقال التى أقامها هتلر الى معسكرات جديدة مخصصة من أجل « المشردين » . وسرعان ما أصبح هناك مئات الآلاف من الناجين يعانون من البطالة فى معسكرات مقامة من خيام ذات لون أخضر زيتونى وفى معسكرات الجيش التى تم تحويلها الى معسكرات ايواء فى انتظار التسوية . وبينما كان أولئك المتصورون على شرور هتلر يبكون على « المشردين » ، كانت الجاليات اليهودية المنظمة فى الغرب تقوم باثارة ذكرى مذابح اليهود على أيدى النازى بشكل مثير للشجون وتؤكد « نفاذ الصبر » ازاء مماطلة الغرب فى ايجاد مأوى لأولئك الناجين . ولكن ايجاد وطن ، أى وطن للمشردين لم يكن بالضرورة هو الهدف . فبالنسبة لأولئك الذين ينون الدولة الصهيونية ، فان النقطة الوحيدة التى يجب أن يجتمع حولها الناجون من الهولوكوست (المحرقة) كانت فلسطين . وكان لاجئو أوروبا يشكلون المعين الذى لا ينضب من السكان الذين يحتاجهم الصهاينة لتوفير الأعداد اللازمة للمطالبة بقيام دولتهم . ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، قام الصهاينة الأمريكيون بالضغط على الكونجرس الأمريكى للتمسك بقوة بعدم زيادة الأعداد المسموح بها من المهاجرين اليهود الى الولايات المتحدة . وهكذا ، فانه مع الاغلاق شبه التام للأبواب الذهبية لأمريكا بعد الحرب ، هبط اللاجئون على فلسطين .

وهناك اصطدموا باللوائح التى تحدد أعداد المهاجرين ، والتى وضعها البريطانيون من أجل الحفاظ على السلام . وبرفض الالتزام بالقيود البريطانية ، كان الصهاينة يقومون بانتهاك هذا الحظر عن طريق تسريب الآلاف من اليهود خارج معسكرات اللاجئين ومن خلال خطوط الاسلاك التى كان يقوم بحراستها اللواء اليهودى فى ايطاليا ، وكانوا يقومون بارسال آخرين الى فلسطين على هياكل صدئة تنفث الدخان يدعون أنها سفن . وبوقوع بريطانيا فى النهاية فى مصيدة سياستها المتناقضة التى استمرت زمنا طويلا وكانت تقوم على محاولة تأكيد فلسطين للصهاينة بينما تحاول الحفاظ عليها للفلسطينيين ، حاولت دون جدوى أن توقف هذا المد . وعندما كانت السفن المتهالكة تقترب من شواطىء فلسطين كانت دوريات الأمن البريطانية تعيدها الى حيث جاءت . وقد كان هناك ترتيب ينتظر التنفيذ عن طريق حدث سىء الطالع . وعندما وقع ذلك الحدث كان حدثا مزدوجا . فبعد رفض التصريح للسفينة « بتريا » بالرسو ، غرقت بمن عليها من اللاجئين البؤساء بالقرب من ميناء حيفا ، كما غاصت السفينة « إستروما » بكل ركابها من المشردين فى البحر الأسود بسبب زيادة حمولتها . واشتعل جانبا الاطلنطى بالغضب والاستياء . وزاد الضغط بشكل كبير لفتح أبواب فلسطين أمام مشردى الحرب العالمية الثانية . ومن القدس ، توعد بن جوريون بأنه اذا عادت الحكومة البريطانية لتطبيق أحكام الكتاب الأبيض الصادر فى عام ١٩٣٩ الذى يقيد الهجرة اليهودية وامتلاك الأرض ، فسوف تتعرض لحملة « ارهاب دموى » و « لقوة وحشية لا تكل » فى فلسطين .

وقد كان فى مقدور بن جوريون تحدى بريطانيا فى فلسطين لأن صورة الحلفاء والخصوم كانت قد تغيرت تغيرا جذريا . فخلال الخمسة والعشرين عاما من تاريخ الانتداب على فلسطين ، كانت علاقات القوى فيها ثلاثية الأبعاد ـ البريطانيون ، والصهاينة والفلسطينيون . ولكن فى حقيقة الأمر ، كانت القوة بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٤٠ ثنائية القطب ـ وتتمثل فى محور البريطانيين

والصهاينة ، والفلسطينيين . ومع حلول عام ١٩٤٤ ، حدث أمران غيرا من علاقات القوى هذه . الأول : ان بريطانيا ، حفاظا على مصالحها فى الشرق الأوسط ، اعترفت فى النهاية بوجود مسألة عربية وكذلك يهودية فى فلسطين . والثانى ان الولايات المتحدة خرجت من الحرب العالمية الثانية كنصير جديد للصهيونية .

وتحت ضغط شديد من الكونجرس ، قام فرانكلين روزفلت المريض والمنهك القوى بعد عودته من مؤتمر يالتا بالضغط على الزعماء العرب من أجل التخلى عن معارضتهم للهجرة اليهودية . ورغم حذره هو نفسه من قضية فلسطين ، فقد تقابل روزفلت مع عبد العزيز بن سعود ، الملك الأسطورى للمملكة العربية السعودية ، على ظهر سفينة امريكية رست فى البحيرات المرة بقناة السويس فى فبراير عام ١٩٤٥ . وكان الاجتماع اجتماع الضدين . فقد جلس روزفلت ـ الغربى ، الأرستقراطى ، المحاط بقوة العسكرية الأمريكية ـ من أجل أخذ الصورة الرسمية مع عبد العزيز ـ العربى البدوى ، الذى يصاحبه عبيد نوبيون طول كل منهم سبعة أقدام ومسلحون بالسيوف . وبالروح المرحة والجذابة المعروفة عنه بدء روزفلت الاجتماع . وبصوته العميق الرنان راح روزفلت يعدد لعاهل المملكة العربية السعودية وحامى حمى مكة جميع الأهوال التى أوقعها هتلر باليهود ، وأنهى حديثه بمناشدة عاطفية من أجل السماح بانشاء وطن لليهود فى فلسطين . ونظر عبد العزيز مباشرة الى روزفلت وأجابه بأن العرب لم يلحقوا مطلقا أى أذى باليهود الأوروبيين ، وانما الألمان هم الذين قتلوهم وأخذوا منازلهم ، ولذا فان الألمان هم الذين يجب أن يدفعوا الثمن . اعطوا لهم ولذريتهم أفضل أراضى ومنازل الألمان الذين اضطهدوهم »* . واستمر روزفلت فى محاولته لكسب مساعدة الملك فى تحقيق حلم الصهيونية . ولكن عبد العزيز رفض بصلابة . « فليدفع العدو الظالم الثمن ، هذه هى طريقتنا نحن العرب فى الحرب . . . ما هو الضرر الذى ألحقه العرب بيهود أوروبا ؟ ان الألمان « المسيحيين » هم الذين سرقوا منازلهم وحياتهم . . . فليدفع الألمان الثمن »* .

ومات فرانكلين ديلانو روزفلت بعد شهرين من لقائه الفاشل مع عبد العزيز . وفى شهر ابريل من عام ١٩٤٥ ، تولى هارى ترومان رئاسة الولايات المتحدة الامريكية ، وبمقدمه جاء التزام عاطفى تجاه اهداف الصهيونية . وبتغطية الجبهة الدبلوماسية ومع انتظار الآلاف من اليهود الذهاب الى فلسطين لتعزيز عدد السكان اليهود ، قطع الصهاينة رباطهم المتآكل مع بريطانيا التى خرجت منهكة من الحرب . وكفت بريطانيا ـ التى كانت لا تزال تحتفظ بفلسطين تحت الانتداب بموجب قرار عصبة الأمم المنحلة ـ عن تأييدها للصهيونية وتحولت بدلا من ذلك الى خصم لها . ولتسليم فلسطين كدولة يهودية فى أقصر وقت ممكن ، كان على الصهاينة أن يجبروا بريطانيا على التخلى عن حقها فى فلسطين .

● كولونيل وليام ا . إيدى ، « فرانكلين ديلانو روزفلت يقابل ابن سعود » ، (نيويورك ، ١٩٥٤) ص ٣٤ .

● نفس المصدر السابق .

وفى خريف عام ١٩٤٥ ، بدأت القوات المسلحة الصهيونية الثلاث فى فلسطين وهى الهاجاناه ، والارجون زفاى ليومى ، وعصابة شتيرن ـ عملياتها المنفصلة ضد المنشآت البريطانية والجنود البريطانيين . وقد تم تنظيم الهاجاناه ، التى كان يبلغ عدد المنضمين اليها ما يقرب من ستين ألفا ، فى العشرينيات كجيش سرى للدفاع عن المستوطنات اليهودية المعزولة من الهجمات العربية . وخلال الثلاثينيات ، ومع ضعف النفوذ البريطانى ، انتشرت الهاجاناه داخل كل جماعة يهودية فى فلسطين . وفى منتصف الاربعينيات ادارت شبكة للأسلحة المتطورة كانت تشترى من الخارج وتهرب داخل فلسطين كل شىء ، بدءا من الأسلحة الجنية الصغيرة الى مدافع الهاون والمعدات اللازمة لتصنيع الذخيرة . وبينما كانت الهاجاناه تقترب من مرتبة جيش الوكالة اليهودية ، كانت جماعتا الارجون وشتيرون لا تزالان تأخذان شكل منظمات حرب العصابات . وكانت كلتاهما من فصائل المعسكر التحريفى للصهيونية . وبقيادة فلاديمير جابوتنسكى ، كان التحريفيون يشكلون حركة يمينية مغالية فى الوطنية على غرار الحركات الأوروبية الفاشستية إبان فترة العشرينيات والثلاثينيات . وكانوا يجتذبون الأتباع بأزيائهم العسكرية واحتفالاتهم العسكرية ومؤتمراتهم الجماهيرية المشحونة بالعاطفة والتى كانت تعد عن طريق قوة السلاح بتحرير فلسطين الكبرى التى تمتد عبر المشرق العربى من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى الحدود الشرقية للاردن وبالتلويح براية عليها رسم ليد مرفوعة تقبض على بندقية مطوقة بشعار « هكذا فقط » . أصبحت جماعة الارجون وجماعة شتيرن المتفرعة عنها الجناح الارهابى لحركة الصهيونية . وبقيادة مناحم بيجين كمخطط لجماعة الارجون واسحاق شامير كزعيم لجماعة شتيرن ، فقد استهدفا فى البداية رجال البوليس البريطانى . وبعد ذلك ، وفى صيف ١٩٤٤ دفعت عصابة شتيرن الثمن الذى سوف تدفعه بريطانيا لبقائها فى فلسطين بدخولها مجال الاغتيالات السياسية . وفى الثامن من أغسطس فشلت العصابة فى محاولتها اغتيال السير هارولد ماك مايكل ، المندوب السامى البريطانى ، ولكنها نجحت فى نوفمبر فى قتل اللورد وولتر موين ، وزير الدولة البريطانى المقيم بالقاهرة وصديق ونستون تشرشل .

وبالعمل كفصائل منفصلة فى اطار استراتيجية عامة ، شن كوماندوز البالماخ التابعة للهاجاناه ، وجماعة الارجون وعصابة شتيرن الحرب على البريطانيين فى أكتوبر عام ١٩٤٥ . وتحت وطأة الهجوم وجدت بريطانيا نفسها تتأرجح بين مطلب العرب بوقف الهجرة اليهودية الى فلسطين واصرار الولايات المتحدة على السماح بدخول مائة ألف مهاجر يهودى فورا . وبينما كانت حكومة صاحب الجلالة فى ترددها وحيرتها ، انتشر العنف فى فلسطين . وكانت عمليات سرقة الذخيرة ، وتفجير القنابل ، والتخريب ، وسرقة البنوك ، وتدمير الجسور ، والمزيد من حوادث القتل بين الجنود البريطانيين تؤكد الهجوم الصهيونى على بريطانيا . وأخيرا ، قامت بريطانيا بالانتقام لنفسها . فقام الجيش باعتقال زعماء الوكالة اليهودية ، والقبض على أعضاء « البالماخ » التابعين للهاجاناه ، والاستيلاء على مخابىء السلاح ، بما فى ذلك أحد المخابىء فى المعبد الكبير فى تل أبيب ، وكان المجموع ٢٦٧٥ يهوديا خلف القضبان . ومن داخل قفص الاتهام فى المحكمة كانوا يصرخون بتحد : « فى الدم والنار سقط يهوذا ، وفى الدم والنار سوف يقوم مرة أخرى » * .

* التايم ، ٨ يوليو ١٩٤٦ .

وفى شهر أغسطس ، أرسل الصهاينة الى بريطانيا إنذارا آخر بشأن الهجرة . فقد إستيقظت القدس لتجد أن احد أجنحة فندق الملك داود الفخم ، مقر القيادة العسكرية البريطانية ، قد تحول الى تراب بفضل القنابل التى وضعتها الارجون فى الدور السفلى للفندق . وبذلك اضيفت إحدى وعشرين ضحية أخرى الى القائمة المتزايدة لضحايا الكفاح من أجل فلسطين .

وأصبحت فلسطين عبئا لا يطاق بالنسبة لبريطانيا . فقد كانت تكلفة الاحتفاظ بما لا يقل عن مائة ألف رجل فى الانتداب ، من أجل فرض أى نوع من النظام تشكل وحدها عبئا ضخما ، بالنسبة لدولة استنزفتها تماما الحرب العالمية وأصبحت على شفا الافلاس . ولأنها كانت غارقة لأذنيها فى مشاكلها الاقتصادية ، وواقعة تحت ضغط الالحاح المستمر من الراى العام الغربى من أجل ازالة الحواجز التى تعوق الهجرة ، وعاجزة عن وقف العنف المتصاعد بين الصهاينة والفلسطينيين ، فقد سعت بريطانيا المجهدة للعثور على مخرج لها .

وفى شهر يناير من عام ١٩٤٧ ، استدعى ايرنست بيفن وزير الخارجية البريطانى زعماء الطائفتين العربية واليهودية الى لندن من أجل مناقشة تقسيم فلسطين الى دولتين دولة عربية وأخرى يهودية . وفى مواجهة بعضهم البعض عبر منضدة ثقيلة من خشب البلوط ، رفض كلا الجانبين فكرة التقسيم . وشكر بيفن كلا الوفدين على حضورهما وقام بتوديعهما . لقد قامت حكومة صاحب الجلالة بمحاولتها الأخيرة . وفى شهر فبراير عام ١٩٤٧ ، سلمت بريطانيا مشكلة فلسطين الى منظمة الأمم المتحدة الوليدة .

وكانت أحداث فلسطين ، التى تسبب فيها تحدى النازى للميثاق الأخلاقى للغرب ولمصالح عدد غير قليل من زعمائه السياسيين ، تدور ، رغم ذلك ، داخل محيط العالم العربى ، فقد أدت تأثيرات الحرب العالمية الثانية الى رفع الحكم الاستعمارى عن آخر دولتين عربيتين فى المشرق هما سوريا ولبنان * وأخيرا حصل العرب على استقلالهم ليس كأمة واحدة ولكن كدول منفصلة . لقد كانت توحدهم اللغة والثقافة المشتركة ، وتقع على أرضهم طرق مواصلات ونقل استراتيجية ، ويملكون ثروات ضخمة ، ويتمتعون بتعداد سكانى كبير . ولكنهم كانوا ضعفاء من الناحية السياسية والعسكرية .

وفى خريف عام ١٩٤٤ ، بدأ الحديث عن استراتيجية تستطيع بها الدول العربية مواجهة القوى الكبرى ، وفى الثانى والعشرين من مارس ١٩٤٥ ، كونت مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن والمملكة العربية السعودية واليمن جامعة الدول العربية . ولكن الجامعة ، مثلها مثل الوحدة العربية ، كانت ذات ثقل كشعار ، ولا وزن لها فى الجوهر . لقد قامت أساسا لتأكيد التعاون فى مجال الاتصالات والشئون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والصحية . ولكن فى تجسيدها ضمان سيادة كل عضو من أعضائها ، عجزت الجامعة عن الزام الأعضاء باتفاق أمن جماعى أو دفاع مشترك . وقد كان التعاون فى الوقوف ضد تقسيم فلسطين هو أكثر التزامات الجامعة تحديدا ، وقد

* حاولت فرنسا الاحتفاظ بحقوقها بعد الحرب ، ولكن المعارضة البريطانية والأمريكية والعربية أرغمت الحكومة الفرنسية على منح الاستقلال للدولتين عام ١٩٤٦ .

عبر عبد الرحمن عزام باشا ، أول أمين عام للجامعة العربية ، عن احتقاره للصهيونية فى قوله : « لقد ذهب أخونا الى أوروبا والى الغرب وعاد شيئا آخر . لقد عاد يهوديا روسيا ، ويهوديا بولنديا ، ويهوديا المانيا ، ويهوديا انجليزيا . لقد عاد بمفاهيم مختلفة عن كل شىء ، مفاهيم غربية وليست شرقية . . لقد عاد ابن عمنا القديم بأفكار مادية ، بأفكار رجعية أو ثورية ويحاول أن يطبقها ، أولا بالضغط البريطانى ثم بالضغط الأمريكى ثم بالارهاب الذى يقوم به - انه ليس ابن العم القديم ونحن لا نرحب به بيننا . ان الصهيونى اليهودى الجديد ، يريد ان يفرض سيطرته ، وهو يتظاهر بانه مكلف بمهمة حضارية خاصة يعود بها الى جنس متخلف وضيع من أجل غرس عوامل التقدم فى منطقة لا تتمتع بالتقدم . حسنا ، لقد كان ذلك هو ما تدعيه كل قوة أرادت أن تستعمر وكان هدفها السيطرة . لقد كانت الحجة دائما هى أن هذا الشعب متخلف وأنها جاءت بمهمة انسانية من أجل وضعه على طريق التحضر . . . ولكن العرب ببساطة يقفون ويقولون « لا » ، اننا لسنا رجعيين ، ولسنا متخلفين . . وحتى اذا كنا جهلة ، فان الفرق بين الجهل والمعرفة هو عشر سنوات فى المدرسة . . اننا أمة حية وقوية جدا ، اننا نعيش عصر نهضتنا . . ان لدينا ميراثا من الحضارة والحياة الروحية . اننا لن نسمح لأنفسنا بأن تتحكم فينا الأمم الكبرى أو الأمم الصغرى أو الشعوب المشتتة »* . وهكذا عبر عبد الرحمن عزام باشا عن عاطفة العرب تجاه فلسطين . وعندما دعيت الأمم المتحدة لتقرير مستقبل فلسطين ، فانها كانت أيضا تقرر ، بالمعنى العاطفى مستقبل العرب .

ومن مقرها المؤقت فى المبنى المنخفض ذى السقف المسطح فى فلشنج ميدو بنيويورك ، أرسلت الجمعية العامة للأمم المتحدة لجنتها الخاصة بشأن فلسطين والمكونة من أحد عشر عضوا ممثلين لاحدى عشرة دولة الى المنطقة لاستطلاع طرق حل النزاع حول فلسطين الذى استمر عشرات السنين . وحيث أن اللجنة كانت تربط بين فلسطين ومشكلة اللاجئين اليهود ، فانها طافت بمعسكرات اللاجئين فى أوروبا قبل ذهابها الى فلسطين ، وخلال شهرى يونيو ويوليو ١٩٤٧ ، بينما كانت اللجنة تقوم باجراء تحقيقاتها فى فلسطين ، قام الصهاينة باستعراض قوتهم . فقامت جماعة الأرجون ، بصفتها اليد المنتقمة للصهيونية ، بخطف وشنق اثنين من الجنود البريطانيين برتبة رقيب وتركت جثتيهما تتدليان من فوق اشجار الزيتون ليراها الجميع . وكان ذلك انتقاما لقيام بريطانيا بتنفيذ حكم الاعدام فى ثلاثة من اليهود . الا أن الحدث الأهم الذى جرى ترتيبه من أجل مساعدة الزوار التابعين للأمم المتحدة ، كان وصول سفينة أخرى صدئة يتسرب منها الماء الى المياه الدولية قرب فلسطين - وهى السفينة « اكسودس » . وظلت تطفو بحمولتها من اليهود الذين تم جمعهم من معسكرات المشردين والبالغ عددهم ٤٥٥٤ يهوديا بالقرب من فلسطين كرمز أمثل للمشكلتين المترادفتين للاجئين والهجرة . وعلى الرغم من قيام السلطات البريطانية بالاستيلاء على السفينة فى ميناء حيفا واعادتها ثانية الى مرسيليا الا أن الصهاينة حققوا ما كانوا يهدفون اليه .

وعادت اللجنة الخاصة الى الأمم المتحدة وأوصت بتقسيم فلسطين . ومثل سليمان الزمن الحديث ، قامت اللجنة بتقسيم منطقة الانتداب البريطانى السابقة الى ثلاثة أقسام لليهود وثلاثة أقسام للعرب ، مع « تدويل » القدس وبيت لحم ، باعتبارهما أماكن مقدسة ذات أهمية خاصة بالنسبة للأديان الثلاثة . ووفقا لهذا الاقتراح تكون نسبة السكان العرب فى الدولة اليهودية من ٤٥ الى ٥٠٪ ويكون ١٪ من سكان الدولة العربية يهودا . وبالنسبة للعرب كانت خطة التقسيم هذه أسوأ من الخطة التى سبق ان اقترحتها لجنة بيل فى عام ١٩٣٧ ، فاليهود الذين يمثلون ٣٥٪ فقط من السكان ويملكون ٧٪ فقط من الأرض سوف يحصلون على مساحة من فلسطين أكبر بألف ميل مربع من المساحة التى أرادت لجنة الأمم المتحدة ان تتركها للعرب . والأكثر سوءا من وجهة نظر العرب ان كل بساتين الموالح تقريبا و ٨٠٪ من الأرض التى تزرع حبوبا و ٤٠٪ من الصناعات القليلة التى يمتلكها العرب كانت فى الدولة اليهودية ، كما أن يافا ، الميناء الرئيسى ، كانت معزولة عن باقى الأراضى العربية . وقد رفض الفلسطينيون الخطة وساندتهم الدول العربية فى هذا الرفض .

ووفقا للمواقف العربية التى شكلها تاريخ طويل من الاحتلال والخديعة ، فانه لا يحق لأية هيئة دولية أو أية قوة أجنبية أخرى أن تعطى أرضا عربية لشعب غريبا . ولكن الأكثر من ذلك أن العرب قد اشتعلوا غضبا من فكرة التقسيم ذاتها التى صاغتها القوة الغربية لتلبية حاجات ومطالب الصهاينة فى فلسطين الذين كان من ٨٠ الى ٩٠٪ منهم من الأوروبيين ، وبرزت الصورة القديمة للحروب الصليبية لتؤرق شعبا طالما ظل يتشكك فى نوايا الغرب تجاه المشرق العربى . وتخطت فكرة انشاء دولة يهودية فى فلسطين حدود عملية التقسيم ذاتها لتثير من جديد شبح الاستعمار الغربى وتمس بذلك اعماق النفس العربية .

ولايزال العرب ينظرون الى تقسيم فلسطين على انه كان تلاعبا من جانب الغرب بالعالم العربى ، فعندما قامت الأمم المتحدة بالاقتراع على قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود فى التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٧ كانت الدول ذات الثقافة الغربية (بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى وأمريكا اللاتينية) تحتل ستة وثلاثين مقعدا فى الجمعية العامة بينما كان للعرب ستة مقاعد . وعلى الرغم من أنه لم تكن جميع الدول « الغربية » غنية وصناعية ، ولم تصوت كل الدول المتقدمة اقتصاديا الى جانب التقسيم ، فان الصورة التى ظلت راسخة على مر السنين . وظل قرار منح الصهاينة جزءا من فلسطين ، فى الأساطير العربية ، يمثل محاولة أخرى من جانب الغرب لايقاع الموت بالعرب « بألف طعنة » .

ان منصور رجل قصير القامة ممتلىء الجسم ، يدير مطعما صغيرا أسفل أحد التلال فى عمان . وهو يبدو دائما هاشا باشا حيث يلقى بالمزح بأسرع من تقطيعه الطماطم التى يزين بها طبق التبولة الذى يقوم باعداده ، وتبرز موهبة منصور فى كل ما يتصل بالسياسة ، وحيث أن الماضى والحاضر يتداخلان بدرجة كبيرة فى ذهن العرب ، فان مناقشة أحداث اليوم ما هى الا مناقشة للقرون العشرة الماضية . ولا أذكر موضوعا معينا كان يدور فى ذهنى ، ولكن منصور أمسك بسكين كبيرة من سكاكين الجزارة وقال : « هل ترين هذه ؟ » فأجبت « نعم » . فأشار الى قطعة طويلة من اللحم موضوعة فوق قطعة خشب ثقيلة لتقطيع اللحم وسأل : هل ترين هذه ؟ » ومرة أخرى أجبت « نعم » . وبضربات خاطفة أعمل السكين فى اللحم تقطيعا - قطعات رأسية وقطعات أفقية ، وفى خلال دقائق تحولت الى كومة من المكعبات . وانفجر منصور فى الضحك قائلا : هذا ما يفعله الغرب بالعرب » .

* ورد فى مانسيفلد ، العرب ، ص ٤٧٤

وبعد قرار التقسيم تم اعفاء بريطانيا من حكم الانتداب فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ . وفى نفس الفترة ما بين نوفمبر ١٩٤٧ وحتى مايو ١٩٤٨ تجمعت سنوات الغضب المكتوم فى فلسطين لتتحول الى حرب صريحة ومعلنة ، وأصبح العنف هو طابع الحياة اليومية تماما مثل شروق الشمس وغروبها ، وكانت عمليات العنف من جانب الصهاينة تتم بشكل منظم ، أما من جانب الفلسطينيين فقد كانت عشوائية ، حيث كانت تصطدم مجموعة من الفلسطينيين مع الصهاينة دون تخطيط مسبق ولكن بغرض معروف ، لقد كانت تنقصهم الاستراتيجية أو التوجيه بدرجة ما لأنهم لم يكن لهم زعيم .

وكان الحاج أمين قد حمل راية الجهاد الفلسطينية الى منفاه الذى فرضه عليه البريطانيون فى عام ١٩٣٧ . فى بيروت ثم فى العراق واستغله فى خلق شعور معاد للبريطانيين . وعندما طرد من بغداد تحت الضغط البريطانى فر الى ايران وأخيرا الى روما . وحيث أنه كان ينظر الى الحرب العالمية الثانية فقط من منظور المثل العربى القديم الذى يقول « عدو عدوى صديقى » ، فقد انضم الى جهاز الدعاية لدول المحور . ولاحباط محاولات تقديمه لمحاكمات نورمبرج بتهمة أنه قد قام بوضع خطة النازى لابادة اليهود ، فقد فر متنكرا الى مصر ليكون فى حماية الملك فاروق . ونتيجة لنشاطه المريب ابان فترة الحرب ، رفضت بريطانيا أولا ثم الأمم المتحدة ثانيا قبول الحاج أمين كمتحدث باسم فلسطين ، وبذلك حرمناهم من زعيم له عيوبه . ولكنه زعيمهم المنطقى .

وقد شكلت مسأله من يتولى قيادة قضيتهم فى فلسطين عائقا كبيرا أمام الفلسطينيين المنهارة قواهم بالفعل . وكانت جماعة الاخوان المسلمين ، فى قمة نفوذها فى مصر ، تمثل أبرز القوى فى حرب العرب ضد الصهيونية فى عام ١٩٤٧ * . ولكن عندما أصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم تشكلت قوة عربية مشتركة فى دمشق . وتم ارسال فوزى بك القاوقجى ، وهو لبنانى كان يعمل فى السابق مع الجيش التركى ، الى فلسطين لتولى قيادة العشرة آلاف متطوع فى جيش التحرير العربى . وفى مارس ١٩٤٨ ، خرج القاوقجى من سيارة سوداء فى القدس تتدلى من على كتفه عباءة من الصوف المخطط . وعندما رأى أحد السوريين هذا المشهد صرخ قائلا : « ان تاريخ العرب يعيد نفسه . لقد قام صلاح الدين بتحرير القدس من الكفرة فى الحروب الصليبية . واليوم ، فان فوزى بك هو صلاح الدين الجديد » * .

ولم تكن هذه القوة الضعيفة التى تشكل جيش التحرير العربى لا تزيد عن خمسة آلاف رجل فى ساحة المعركة فى آن واحد . وكانت تضم متطوعين أخذوا من أزقة بغداد ، ودمشق وبيروت وتم تسريبهم داخل فلسطين بشكل متقطع . وبأفرادها غير المتعلمين وغير المدربين والمسلحين تسليحاً ضعيفاً ، كانت هذه القوة تمثل إعلاناً عن الرفض العربى للصهيونية أكثر منها قوة قتال .

* كان الإخوان المسلمون فى فلسطين تحت إشراف الحكومة المصرية . وكان إرسال الإخوان المسلمين إلى فلسطين لمحاربة الصهيونية محاولة من الحكومة للسيطرة على أعمال العنف المتزايدة للإخوان المسلمين فى مصر .

* التايم ، ١٥ مارس ١٩٤٨ .

وقد قاوم الحاج أمين قرار الجامعة العربية بتجنيد متطوعين . ولأن المفتى كان يميل دائما إلى حماية نفوذه ، فقد كان يريد ان يحتفظ لنفسه بالإشراف على تمويل وتدريب أولئك الذين يحاربون فى فلسطين . ولعدم قدرته على ممارسة ذلك الإشراف الكامل ، رأى الحاج أمين أن المتطوعين تحت قيادة القاوقجى يمثلون منافسا خطيرا لقوة المتطوعين الخاصة به . وهى جيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسينى .

وكان عبد القادر ، البطل الشهير لثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، قد عاد من منفاه فى يناير ١٩٤٨ . وبمجرد عودته بدأ فى تنظيم المقاومة العربية ضد تقسيم فلسطين . وكانت عشر سنوات قد إنقضت منذ ان قاد عبد القادر ، الجندى المقدام ، الفلسطينيين . ولكنهم كانوا يذكرونه . وخرج الرجال من القرى مرة أخرى يحملون بنادقهم المحظورة وخزائنهم الخفيفة من الذخيرة . وبدون زى موحد يجمعهم سوى الكوفية الملتفة حول رؤوسهم ، تبع الفلاحون عبد القادر مرة أخرى إلى المعركة ضد الصهاينة .

غير أنه كما سيتضح من حرب فلسطين ، لم يكن الفلسطينيون مستعدين عسكريا ولا سياسياً لمواجهة اليشوف الذين كانوا مموليين ومنظمين بدرجة عالية وتحركهم دوافع قوية . وعلى الرغم من ان فرق القنابل الفلسطينية قد قامت بتوجيه بعض الضربات المدمرة ضد الصهاينة ، إلا أن الحرب أثبتت من البداية أنها حرب غير متكافئة* . لقد إندفع الفلسطينيون بغضب إلى الحرب مثقلين بعبء حكم الإنتداب السيء ومكبلين بالإنقسامات الموجودة داخل مجتمعهم دون ان تكون لديهم أية رؤية واضحة سوى الرغبة فى طرد الصهاينة قبل ان يستولوا على أرض فلسطين . ولكن ذلك لم يكن كافيا لمقاومة اليشوف الذين كانت توحدهم دعوة مقدسة لتكوين دولة تم نقشها على الستارة الخلفية للمحرقة . وبينما اندفع الفلسطينيون للقيام بغارات حرب العصابات التى تقوم على الكر والفر ، واطلاق النار المتقطع ، والهجمات العشوائية ، اخرج الصهاينة مخازن اسلحتهم من المخابىء السرية تحت الارض وبدأوا فى تنفيذ خططهم الاستراتيجية التى وضعوها بفهم تام . وقبل انتهاء حرب فلسطين ، كانت « قضية الترحيل » التى شغلت اليشوف لاكثر من عشرين عاما قد وجدت الحل .

وفى ديسمبر عام ١٩٤٧ ، بدأت الهجاناة بتنفيذ « خطة جيمل » التى تم وضعها لأحتلال المواقع الاستراتيجية على السهل الساحلى لفلسطين وفى يافا ، وحيفا وحتى القدس ، تحول الخوف الذى كان يمتلك الفلسطينيين منذ قرار التقسيم الى هياج شديد .

وقام الاغنياء بسحب حساباتهم من البنوك واغلقوا منازلهم الفخمة واستقلوا السفن والسيارات الى بيروت ، أو القاهرة أو دمشق انتظارا للحرب ، أما أفراد الطبقة المتوسطة ، فقد اتجهوا فى قوافل نحو الشرق حاملين حقائبهم وأطفالهم لينضموا الى أقاربهم فى مدن تقع على مسافة آمنة من

* كانت أسوأ القنابل الفلسطينية اثرا هى تلك التى انفجرت فى شارع بن يهود المزدحم بالقدس ، حيث قتلت ٨٩ شخصا ، معظمهم من اليهود .

المستوطنات اليهودية المكتظة بالسكان . ومع رحيل أعيان الطبقة القادرة والمتوسطة ، رحلت معهم الصفة السياسية الوحيدة للفلاحين ، وهى ولاءهم للشخصيات الهامة فى العشيرة . وبين عش
وضحاها ، كانت الدعامات قد انتزعت من المجتمع الفلسطينى ولم يبق غير هيكل متداع

وفى فبراير ١٩٤٨ ، قامت الهاجاناة فى أول عملية طرد مخططة ومنظمة للعرب بإخلاء مدينة « قيصرية » القديمة من مواطنيها من الفلسطينيين . وكان إختيار مدينة كهذه تقوم بإمداد سوق حيفا بالخضروات والتى كان معروفا عنها جهودها لتجنب الصراع ، كافياً لأن يدفع سكان القرى الأخرى المعزولة عن مراكز تجمع السكان العرب إلى الفرار المحموم . غير أن الهاجاناة لم تكن هى التى بث هذا الرعب المحموم فى قلوب الفلسطينيين ، وإنما كانت جماعة الإرجون الخمسة

إن نادية العطار معلمة ذات جمال باهر ، فى أواخر الأربعينيات وتعيش فى القدس الشرقية ولم يحدث أن ذهبت إلى إسرائيل دون أن أتناول معها على الأقل فنجاناً من الشاى . وعلى مدى السنين ، وجدت فيها شخصية متشبعة بالتجربة الفلسطينية ولكنها لا تستعمل اللغة العاطفية المعا فيها مثل باقى الفلسطينيين . وفى يوم من الأيام إستقللنا السيارة فى جولة فى شمال وغرب القدس وعندما وصلنا إلى منزل حجرى قديم مربع الشكل نزلنا من السيارة ومشينا عبر الطريق الذى تقطعه الشاحنات الثقيلة المحملة بالأسمنت وهى تزأر عبر منحنى شديد الإنحدار . ولم يقل أى منا كلمة واحدة ، وإنما ألقينا ببصرنا فقط على الموقع الذى كانت تشغله أشهر قرية فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . وبعد لحظات قليلة إلتفتت نادية تجاهى ثم قالت : « أتعلمين ، إن لدى اليهود هذا المثل الذى يقول أنه إذا لم تكن يهودياً فلن يكون بوسعك فهم ماذا تعنى محرقة النازى . إننى واثقة من أن هذا القول لابد أن يكون صحيحاً . ولكننا نحن الفلسطينيين لدينا أيضاً مثل يقول أنه إذا لم تكن فلسطينياً فلن تستطيع أن تعى تماماً ما تعنيه مذبحة دير ياسين . إنها لم تكن أكثر ولا أقل من إخطار بالطرد موجه لشعب بأكمله » .

ففى التاسع من أبريل عام ١٩٤٨ ، قامت جماعة الإرجون بالإشتراك مع بعض عناصر عصابة شتيرن بالزحف على دير ياسين ، وهى قرية عربية عادية تحتضن منطقة صخرية فى غرب القدس . وعند الفجر قام رجال حرب العصابات فى هدوء بالقضاء على حرس القرية وإستولوا على محيطها الخارجى المكون من الحجر ونبات الصبار . وهبت الأسر من مضاجعها ووقف أفرادها مذهولين أمام إنهيار خمسة عشر منزلا من منازل القرية وتحولها إلى أنقاض بفعل الديناميت الذى وضعه رجال الإرجون . وتحولت الحوائط الحجرية الباهتة للمنازل المتبقية إلى مردات لرصاص اليهود الذى كان يخترق على نحو مستمر أجساد الفلسطينيين . وفى حمى التدمير والقتل ، قامت عناصر الإرجون وشتيرن الإرهابية بشق بطون الفلاحين العزل بأنصال سكاكينهم ، مريقين دماءهم ومخرجين أحشاءهم فوق الأرض الرملية . وكانت النساء اللاتى تجرين بعيون يملؤها الخوف تسقطن على الأرض ويقوم المهاجمون بإغتصابهن . ومع حلول الظهيرة ، إنتهت العملية وأصبحت دير ياسين ملكاً للصهاينة . وقد تكلف ذلك مائتين وأربعة وخمسين فلسطينياً ، كان معظمهم من النساء والأطفال .

ومع غروب شمس ذلك اليوم على ما تبقى من القرية المنكوبة تبادر السؤال الثقيل إلى

الأذهان . لماذا دير ياسين ؟ إنها لم تكن أكثر من مجتمع صغير ليست له قيمة إستراتيجية خاصة ، وقد حاولت جاهدة أن تتحاشى الدخول فى النزاع الذى يشتعل حولها . ومن سخرية القدر أن ذلك كان هو السبب الذى قاد دير ياسين إلى هذا المصير المأساوى . لقد كانت دير ياسين هى الرسالة الدموية التى أرسلتها الإرجون إلى العرب كى يخرجوا من فلسطين .

وعلى الرغم من أن الفلسطينيين قد قاموا بالثأر لأنفسهم بعد ذلك بثلاثة أيام حيث قتلوا سبعة وسبعين من أطباء وممرضين ومدرسين بالجامعة وطلبة كانوا فى طريقهم إلى الجامعة العبرية ومستشفى هاداسا المحاصر فوق جبل المكبر ، فإن دير ياسين ، وهى قرية عربية نمطية قد ثبت أنها أكثر الضربات النفسية تدميراً بالنسبة للفلسطينيين خلال معركة الكفاح الفلسطينى كلها . وعلى الرغم من أن القيادة الصهيونية الرئيسية قد أدانت هذه المذبحة علنا ، فإنه عندما تحركت القوات الصهيونية نحو طبرية وحيفا سبقتها عربات جيب للهاجاناة مزودة بمكبرات الصوت لتذيع صرخات وعويل صفارات الإنذار ودقات أجراس عربات المطافىء ، كان صوت كئيب ينادى باللغة العربية : « إنقذوا أرواحكم ، أيها المؤمنون ! فروا بأنفسكم ! اليهود يستخدمون الغاز السام والأسلحة الذرية أستحلفكم بالله أن تنجوا بأنفسكم ! » وهرب الفلسطينيون .

وتدفق الفلسطينيون خارج القرى والمدن الساحلية تحت تهديد مدفعية الهاجاناة ، بعد أن تخلت عنهم قيادتهم التقليدية ، يملؤهم الرعب مما يشاع عن الأعمال الوحشية التى يقوم بها اليهود* . ووسط هذا الهرج والمرج ، ضاعت أوهام بريطانيا فى إتمام عملية نقل الإنتداب بشكل منظم . فقد كان الجنود البريطانيون يقبعون داخل ثكناتهم بينما كانت قرى الجليل الشرقى تتساقط مثل قطع الدومينو بسبب عجزهم عن القيام بأى دور وسط هذه الفوضى . ولم يكن هناك أحد آخر ليوقف هذا المد . إذ قبل ذلك بثلاثة أشهر ، وفى نفس اليوم الذى ذبحت فيه الإرجون سكان دير ياسين ، توفى عبد القادر الأسطورى رمز المقاومة الفلسطينية ، فى معركة للسيطرة على الطريق بين تل أبيب والقدس .

وقد كانت الشمس على وشك الغروب على سنوات الإنتداب البريطانى فى فلسطين . وفى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ ، عزفت خارج القدس أربعة من مزامير القرب الإسكتلندية لحناً حزيناً على سنوات بريطانيا فى فلسطين . وعلى الشاطىء ، حيث أعادوا سفناً كثيرة محملة باليهود المهاجرين ، قام الجنود البريطانيون تحت حماية دباباتهم بالتجول خلال شوارع يافا المشورة بالأحجار لينهو بذلك آخر دوريات الحراسة . وفى حيفا أخلى الجنود البريطانيون المشتاقون لوطنهم ثكناتهم الخشبية التى تطل على الميناء وتجمعوا فوق الزوارق المتجهة إلى السفن التى تنتظرهم لتحملهم إلى وطنهم فى إنجلترا . وعلى الرغم من أنه كان لايزال هناك ثمانى ساعات على إنتهاء الإنتداب ، فإن الجنرال سير آلان كانينجهام ، آخر مندوب سامى بريطانى ، كان قد ركب الطراد « يوريالس » بالفعل . وهناك جلس فى إنتظار أن يزحف الليل على الساحل الشرقى للبحر الأبيض

---

* فرت نسبة صغيرة من الفلسطينيين بدافع من قيادتهم التى كانت تسعى لخلق حالة من الفوضى فى الإقتصاد الفلسطينى الذى كان يسيطر عليه اليهود . وهناك خلاف حول العدد الفعلى للفلسطينيين الذين فروا لهذا السبب .

المتوسط . وفى عام ١٩١٧ ، كان اللنبى قد دخل بالبريطانيين منتصراً إلى القدس ، والآن فإنهم يرحلون دون تكريم ودون أناشيد ، تاركين القدس تحت علم الصليب الأحمر الدولى ، وفلسطين لحرب جديدة .

وفى تل أبيب اليهودية ، غنت الجموع فى الشوارع النشيد القديم « نحن لم ننس ، ولن ننسى أبداً وعدنا المقدس » ، وفى الداخل ، فى الممر الرئيسى لمتحف تل أبيب الحديث للفن ، المكون من طابقين ، والذى يقع فى شارع روتشيلد وقف ديفيد بن جوريون وحوله وزراؤه الإثنى عشر فى المجلس القومى تحت صورة مرسومة لتيودور هرتزل ، وفى تمام الساعة الرابعة مساء ، دق دقة واحدة على مائدة المتحدثين الطويلة الموضوعة أمامه قائلاً : « إننا نعلن تأسيس الدولة اليهودية فى فلسطين ليصبح إسمها إسرائيل » . وفى غضون ست عشرة دقيقة من إعلان بن جوريون ، أعلن هارى ترومان رئيس الولايات المتحدة ، معارضاً نصيحة وزير خارجيته وأمام الدهشة التامة للجمعية العامة للأمم المتحدة التى كانت تناقش فى نفس اللحظة مسألة فلسطين ، إعتراف الولايات المتحدة الفعلى بدولة إسرائيل .

وفى اليوم التالى ، وهو يوم ١٥ مايو ، أصبحت حرب فلسطين حرباً عربية ، فقد تحرك المصريون خارج سيناء بطول الساحل فى إتجاه تل أبيب ومن خلال صحراء النقب إلى بير سبع . كما عبرت قوة عراقية نهر الأردن وتقدمت نحو البحر الأبيض المتوسط . وجاء بضع آلاف من السوريين عبر الجليل ، مما كان له أثر فى تخفيف حدة الخوف المنتشر فى القرى العربية . بل إن لبنان أرسلت قوة صغيرة لتنضم إلى القضية العربية ، كرمز عميق للصفوة الحاكمة التى كانت تتمسك إلى حد التقديس بإصرارها على الإبتعاد عن عالم السياسة العربية ، وكان الفيلق العربى لشرق الأردن يأخذ خط الوسط . وبإعتباره القوة القتالية الفعالة الوحيدة على الجانب العربى ، فقد كان يحتل مناطق شرق نهر الأردن ويسيطر على القدس العربية . وإنتقل التحكم فى الحرب على الجانب العربى من الفلسطينيين إلى الدول العربية . وكانت لكل دولة من هذه الدول مصالحها الخاصة فى فلسطين ، ولكن كانت أكثرها هى شرق الأردن التى كان يحكمها الملك عبد الله .

وكان الملك عبد الله قد وافق بالفعل فى إجتماعات عقدها فى السر مع جولدا مائير على أنه فى حالة حدوث حرب بين الصهاينة والدول العربية ، فإن جيش الملك عبد الله سوف يبقى خارج المنطقة المخصصة لليهود فى فلسطين وفقاً لخطة الأمم المتحدة الخاصة بالتقسيم وذلك فى مقابل موافقة اليهود على إستيلاء عبد الله على الجزء العربى منها ، ونتيجة لذلك أعطى الصهاينة لشرق الأردن حق السيادة على الضفة الغربية لنهر الأردن شمال نابلس وجنوب الخليل بما فى ذلك مدينة القدس القديمة . وعندما بدا أن الأردن منضمة للدول العربية فى غزو فلسطين ، أرسلت جولدا مائير التى ساورها القلق رسالة إلى عبد الله تسأله عما إذا كان ينوى الإلتزام بكلمته ، فرد عبد الله مستاءً مذكراً إياها بثلاثة أمور - أنه رجل بدوى شريف ، وأنه ملك كريم المنبتين ، وأنه رجل لا يخلف قط وعداً لإمرأة . وهكذا ، بينما كان الفلسطينيون والجيوش العربية تحارب ضد الصهاينة ، كان عبد الله يحارب من أجل مصلحته .

وعلى الرغم من أن الاذاعات والصحف العربية كانت تزعم تحقيق نصر بعد الآخر ، فان الجيوش العربية كانت تخسر على أرض المعركة ، فمع افتقاد المعدات والقيادة والحماس ، كان الفشل الأساسى للجامعة العربية هو عدم الاتفاق على هدف مشترك . وكان قرار العرب بغزو فلسطين من أجل انقاذ فلسطين للفلسطينيين مثلما كان أيضا من أجل احباط أى محاولة من جانب الملك عبد الله لاستغلال النصر هناك وفرض سيطرته على سوريا والمشرق العربى . وكان عبد الله يعرف ذلك . وعندما التقت القوات العربية مع القوات الاسرائيلية كان عبد الله يسيطر بقوة على زمام فيلقه العربى المدرب والمسلح جيدا انتظارا لانتهاء الحرب حتى يحق له المطالبة بالمكافأة . وهكذا فانه بتحييد الفيلق العربى على نحو فعال ، كانت القوات الاسرائيلية مع حلول شهر أكتوبر قد اخرجت المصريين من معظم المواقع التى احتلوها فى النقب ، وطهرت شمال فلسطين ، واجبرت جيش التحرير العربى على التقهقر إلى داخل لبنان وسوريا . وفى شهر ديسمبر ، قامت القوات الاسرائيلية المزودة بالمصفحات بدفع المصريين داخل ممر ضيق فى غزة ثم عبرت إلى شبه جزيرة سيناء . وسعت الحكومة المصرية إلى طلب السلم .

وفى فبراير ١٩٤٩ ، بدأ تطبيق اتفاق الهدنة بين اسرائيل والدول العربية . وكانت اسرائيل قد وضعت يدها على كل الأراضى التى خصصتها خطة الأمم المتحدة للتقسيم للدولة اليهودية ، بالاضافة إلى نصف الأراضى التى خصصت للفلسطينيين فى البداية ، أما بالنسبة لغزة ، وهى شريط ضيق من الأرض على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فقد انتقلت لمصر . واخذ عبد الله عاهل شرق الأردن ما تبقى من فلسطين العربية . وامتد سلك شائك ملفوف بطول طريق الأميرة مارى ليقسم مدينة القدس بين العرب واليهود . ومع سريان الهدنة لم يعد أمام اسرائيل سوى طرد العدد الباقى من الفلسطينيين الذين يمثلون خطرا على دولة اسرائيل وأن تقوم باغلاق الحدود .

وفى خلال صيف عام ١٩٤٨ وما تبعه من خريف كئيب ، رحلت الأنقاض البشرية لحرب فلسطين عبر التلال العتيقة المليئة بالصخور فى طريقها إلى جهات غير معلومة ، لقد كانوا يتحركون فى شكل أسر ، وحتى كقرى باكملها ، تجاه الأردن ، أو تجاه شريط الأرض بطول البحر الابيض المتوسط المعروف بغزة ، وعبر مرتفعات الجولان إلى سوريا ، وعبر الحدود المفتوحة إلى لبنان ، وداخل هذه الجموع المتحركة من البشر ، كان يئز على الطرق الوعرة قليل من العربات القديمة الصدئة محملة بمراتب ملفوفة باحكام وبأجولة الدقيق والمرضى . ولكن فى الأغلب كان هؤلاء الفلسطينيون الهاربون يأخذون طريقهم سيرا على الأقدام . وكان الأصحاء والمعاقون ، والشباب وكبار السن يمشون جميعا بخطى يحددها أكثرهم ضعفا ، ولا يتوقفون الا فى حالات الوضع أو الوفاة . ثم يكملون مسيرتهم بعد ذلك . وعندما انتهت فى النهاية عملية الفرار الجماعي ، كان هناك سبعمائة الف فلسطينى بلا مأوى ، وتحول ستون فى المائة من شعب مجتمع باكمله إلى لاجئين .

واليوم ، فوق قمة تل من منطقة الجليل إلى الغرب من الناصرة ، تتحرك الرياح مثل الأشباح من خلال مجموعة من أشجار الصنوبر الضخمة . وعلى الرغم من أن السيارات على الطريق القريب المؤدى إلى حيفا تسرع وهى مارة بها ، ويضحك الأطفال وهم يلعبون فوق ساحة تزدهى بالألوان فى المدينة اليهودية أسفل التل ، فان هذه المنطقة يخيم عليها سكون غريب . وتكتسح

الرياح الموحشة الأغصان المنخفضة للأشجار عبر ساحة مهجورة وتثني الأعشاب فوق مصاطب مستطيلة كانت فى يوم من الأيام منازل . وحتى النبع الذى كان يتدفق أسفل نتوء صخري قد نضب وجف . وكل ما تبقى فى ما كان ذات يوم قرية مسيحية فلسطينية هو كنيسة مهجورة ، وتتشابك أغصان الكرمة عبر حوائطها الحجرية السميكة وتجدل العوارض الخشبية العارية التى كانت فى وقت ما تدعم السقف وتغطى صحن الكنيسة . لقد استولت اسرائيل على هذه الأراضى ليس فقط بالقوة العسكرية ولكن أيضا بازالة كل ما على وجه الأرض بواسطة الديناميت والبلدوزرات مما يدل على ان هذه التلال كانت ذات يوم عامرة بالفلسطينيين . ولم تبق سوى كنيسة كتذكار مزعج لفلسطين قبل عام ١٩٤٨ .

وقد كان من الممكن ان يموت اللاجئون جوعا فى ذلك الشتاء الأول لو لم يتدخل الكويكرز ومنظمات خيرية أخرى قليلة ، فقد قامت منظمات الاغاثة بالحصول على الخيام من مخلفات الحرب العالمية الثانية وأقامت المخيمات التى يمكن ان تحمى اللاجئين الى ان تقوم اسرائيل والدول العربية بعقد اتفاق سلام دائم يعودون بمقتضاه الى منازلهم . وفى نفس الوقت ، كان اللاجئون ينتظرون فى مدن واسعة من الخيام ذات اللون الأخضر الزيتونى الممتدة بطول حدود اسرائيل . وتكاثرت خيام اللاجئين فوق السهل الرملى لغزة لتحصر سكانها بين حدود اسرائيل والبحر الأبيض المتوسط ، وعلى الضفة الغربية لنهر الأردن ، بمجرد أن يهبط الطريق بين القدس واريحا من الجرف العميق الى السهل المنبسط للبحر الميت ، كانت مساحات واسعة من الخيام وبيوت الشعر تغطى الأرض الكالحة ، وفوق هذا الموقع وحده كان يوجد خمسة وعشرون الف فلسطينى ، وفوق موقع آخر كان يتكدس ثمانية آلاف داخل خمسمائة خيمة دائرية الشكل فوق التل ، وخمسة آلاف فى موقع آخر فى الشمال بالاضافة الى ثلاثة عشر الف وخمسمائة يأوون الى داخل شوارع « أريحا » التى تعج ذاتها بالمارة . وبالنسبة للمائة والسبعين ألف لاجىء فى لبنان ، فقد اختار كل منهم المأوى الذى يناسبه ماديا . فاستأجر الأغنياء شققا فى بيروت . واستأجر آخرون منازل صغيرة اقل ايجارا وأحيانا أكواخا فى قرى جنوب لبنان . وتكدس مائة وخمسون آخرون داخل كهوف فى التلال . وذهب الباقون الى مخيمات اللاجئين .

وقد تعلق اللاجئون بدون أمل بين الأرض التى لم يستطيعوا العودة اليها والأراضى التى لم يكن فى مقدورهم أبدا الانتماء اليها ، فمصر ، التى تخنقها الزيادة السكانية والاقتصاد المكبل ، عزلت نصيبها من اللاجئين فى منطقة قناة السويس وقطاع غزة حيث تفصلهم صحراء سيناء عن مراكز التجمع السكانى فى مصر . وسوريا ، التى لديها مساحات واسعة ولكن ليس لها موارد ، احتفظت بالفلسطينيين المتجردين من ممتلكاتهم بالقرب من مرتفعات الجولان كما لو كانت تضع أمام أعين اسرائيل أداة مساومة تدعو للشفقة . أما المؤسسة السياسية فى لبنان فقد لجأت بسبب الخوف من أن يتسبب وجود الأغلبية المسلمة من الفلسطينيين فى قلب ميزان القوى الحساس بين المسيحيين والمسلمين الذى يرتكز عليه الوجود السياسى فى لبنان ، الى حرمان اللاجئين من جميع الخدمات الحكومية بما فى ذلك التعليم والرعاية الصحية . وكانت الأردن هى الدولة الوحيدة التى دمجت الفلسطينيين فيها . ذلك أنه بالنسبة للملك عبد الله ، كان الفلسطينيون يمثلون سلعة سكانية قيمة . فقد ضاعفوا العدد الضئيل لسكان الأردن ، وكمواطنين أعطوا الشرعية لمطالبة الملك عبد

الله بالضفة الغربية . غير أن ما كان فى مقدور الملك عبد الله أن يقدمه سياسيا لم يستطع تقديمه اقتصاديا ، وعلى الرغم من تسلل نسبة من اللاجئين الى الحياة الاقتصادية فى الأردن ، فقد ظل الباقون سجناء داخل المخيمات* .

وقد كانت الحياة فى جميع المخيمات تسير على نفس الوتيرة من الكآبة والرتابة على الرغم من اختلاف مواقعها . فكانت الخيام ترشح . وبرودة الشتاء تتسرب من خلال بطاطين خفيفة جدا ، وأمطار الربيع تجرف مخلفات الناس من مراحيض غير صحية الى قنوات تمثل مصادر لمياه الشرب والاستحمام والغسيل مما كان يعرضهم لخطر أمراض الدوسنتاريا والملاريا والتيفود وحمى الدنج . وكان عدم وجود الكيروسين من أكثر الأمور تأثيرا فى حياة اللاجئين . . ففى كل يوم مع غروب الشمس ، كانت المخيمات تغرق فى ظلام دامس .

وقد كان لكل شىء ثمنه . فقد كان الأطفال يجرون خلال المخيمات مثل حيوانات صغيرة متوحشة ، لأنه لم تكن توجد مدارس . وتحولت النساء الى كناسات طرق فى بحثهن كل يوم عن بعض عيدان الخشب من أجل تحويل الاعانات الضئيلة من الدقيق الى خبز لاطعام اسرهن ، ومع الأسر التى كن يحاولن الابقاء على بعض مقوماتها ، كانت النساء تجدن هدفا لهن فى حياتهن التعسة . أما الرجال فكانوا بلا عمل ، يفتقدون الاحساس بالكرامة التى تستمد من خلال اعالة الأسرة والانفاق عليها ، ويجلسون فى الخيام الممزقة يقتلون الوقت . ومع انتهاء حالة الخوف التى دفعتهم الى الفرار ، كان يتملكهم شعور بفتور الهمة . وكانوا يجلسون فى حالة من الخواء العاطفى بعد أن سلبوا كرامتهم .

وكان معظم السكان اللاجئين من الفلاحين الذين لم يكونوا يعرفون أكثر من استخراج المحاصيل من أرض فلسطين . وكانت أرضهم هى كل عالمهم وكل كيانهم . وعندما ضاعت ، ضاع معها كل شىء حتى قدرتهم على خلق نوع من النظام فى حياة الفوضى . ومن المحزن أنه لم يكن من بين الفلاحين من يستطيع أن يتحمل المسئولية ، فقد كان « المخاتير » ، وهم أعيان القرى يعانون من نفس الاحساس بالعجز مثلهم مثل أتباعهم . ولم يكن يصدق القول العربى القديم « أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة » فى مجتمع تمزق الى أشلاء .

وقد اصبحت العبارة المشوبة بالعاطفة « العام القادم فى القدس » مبعث قوة نفسية للفلسطينيين فى حياة الشتات التى يعيشونها مثلما كانت لليهود فى شتاتهم . واينما استقر

* كان بعض الفلسطينيين يرفضون ترك المخيمات عندما كانت تلوح لهم الفرصة لذلك . وكان أغلب هؤلاء يصرون على البقاء على حدود اسرائيل استعدادا « للعودة » . وكان بعضهم ينظر الى المخيمات باعتبارها دليلا واضحا على الظلم الذى حاق بالفلسطينيين .

الفلسطينيون كانوا يندبون حسرة على أرضهم المفقودة ويكتبون القصائد عن المأساة الفلسطينية ومن ذلك قول أحدهم :

« لقد ازداد الشر شرا بأمة حكمتنا بالقهر والخديعة
خلقت من أوهام الصهيونية وطنا نما وتضخم بوحشية :
فليغتصب الوطن من أهله ، وليطرد العرب خارجه » *

وفى عام ١٩٥٠ ، كان كل فرد تقريبا - ماعدا الاسرائيليين - لايزال يعتقد ان بعض الفلسطينيين سوف يعودون الى وطنهم بمجرد ان توقع اسرائيل والعرب على معاهدة سلام . ولكن السلام الرسمى الذى أبقى على الأمل الوحيد للفلسطينيين فى العودة لم يأت أبدا . فقد رفض كلا الجانبين بروتوكول لوزان الذى صدر فى ١٢ مايو ١٩٤٩ ووافق فيه الطرفان على قبول حدود التقسيم الذى تم فى عام ١٩٤٧ . ووافقت اسرائيل على عودة مائة الف لاجىء . لقد رُفض لأن السلام كان يمثل مخاطر لكل من اسرائيل والدول العربية ، فبالنسبة لاسرائيل ، كانت أية معاهدة سلام تعنى حلا وسطا بخصوص قضية اللاجئين ، وهذا الحل الوسط لن يعيد فقط الفلسطينيين الى الدولة اليهودية وانما سيفتح أيضا قضية المطامع الصهيونية فى الأرض . ففى عام ١٩٤٩ ربط ايجال يادين ، رئيس أركان قوات الدفاع الاسرائيلية ، بين قضية اللاجئين والحدود النهائية لاسرائيل حين قال : « اننى أرى أنه ينبغى علينا أن نقول بكل قسوة : ان مشكلة اللاجئين لا تعنى اسرائيل بأى شىء » * .

وكان السلام مع اسرائيل يعرض الدول العربية لسلسلة من المشاكل الحادة ، فلبنان ، أكثر الدول العربية عداوة لاسرائيل من الناحية السياسية ، سوف تضطر من الناحية الاقتصادية الى اقتسام تجارة الترانزيت المربحة بين المشرق العربى والمغرب فى بيروت مع ميناء حيفا الاسرائيلى . وبالاضافة الى ذلك ، فان نسبة من الدخل الذى تحصل عليه كل من لبنان وسوريا من خطوط الأنابيب ومعامل تكرير البترول التى يوفرانها لصناعة البترول المزدهرة فى الخليج ، ربما تتحول جنوبا الى اسرائيل . ومن المحتمل أيضا أن تصبح اسرائيل بعد قبولها كدولة فى المنطقة منافسا قويا فى أسواق الشرق الأوسط التى تضع دولا مثل مصر ، التى دخلت عصر التصنيع ، عينها عليها . وبخلاف الاقتصاد ، كان هناك خوف مقلق من عزم اسرائيل على توسيع حدودها فيما وراء حدود عام ١٩٤٨ ، كما أن السلام الرسمى سوف يؤدى فقط الى ادخال اسرائيل الى الساحة السياسية فى الشرق الأوسط ويعطيها حرية المناورة بين الدول العربية المنافسة مع القوى الخارجية ، وبصفة خاصة الغرب من أجل تحقيق أطماعها التوسعية المرية .

---

* محمد الحوت ، أورده أ . ل الطيباوى فى « رؤى العودة : اللاجئون الفلسطينيون العرب فى الشعر والفن العربى » ، صحيفة الشرق الأوسط ، ١٧ (خريف ١٩٦٣) ص ص ٥٠٧ - ٥٢٦ .

* أورده بينى موريس فى « مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧ - ١٩٤٩ » (كامبريدج ، انجلترا ، ١٩٨٧) ص ٢٦١ .

غير ان العائق الكبير امام السلام من وجهة النظر العربية كان عائقا نفسيا ، وقد عبر عزام باشا عن ذلك خير تعبير وهو يتحدث مرة أخرى باسم الجامعة العربية ، حيث قال : « اننا نمتلك سلاحا سريا بامكاننا استخدامه أفضل من البنادق والرشاشات وهو سلاح الوقت ، فطالما لا نعقد سلاما مع اسرائيل ، فان الحرب لم تنته ، وطالما أن الحرب لم تنته فليس هناك منتصر أو مهزوم . وبمجرد اعترافنا بوجود دولة اسرائيل ، فاننا بذلك نسلم بهزيمتنا » * . وبعد مرور أكثر من أربعين عاما على حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ لاتزال الفلاحات فى جنوب العراق يندبن : « اليزابيث ، أيتها الملكة العظيمة اليزابيث ، لماذا تخليت عنا فى فلسطين ؟ » * وصرح أحد ملوك المملكة العربية السعودية بقوله : « ان فلسطين جمرة من النار تشتعل فى قلوبنا - ان احتلالها مثل جرح عميق ينزف بداخلنا » ** .

لقد ترجم ضياع فلسطين الى خسارة لا تحتمل لكرامة الأمة العربية . فبعد أن حملت وسام التحرر من الصليبيين ، تحولت فلسطين الى رمز مؤلم لاذلال العرب على يد الغرب المتعجرف ولم يكن ميلاد دولة اسرائيل بالنسبة للعرب أقل من جريمة وافق عليها الغرب ضد الأمة العربية لم تُنس ولم تُغتفر . وبعد أن نمت وترعرعت بفضل الدعم الاقتصادى والدبلوماسى الغربى ، ظهرت اسرائيل بوصفها القلعة الجديدة للغرب ، وظهر اللاجىء الفلسطينى باعتباره شعارا للغضب العربى من قوات لم يستطع العرب أن يتغلبوا عليها أو أن يباروها . وبذلك أصبحت اسرائيل هى الدولة الصليبية الجديدة والعميل الغادر للاستعمار الغربى ، وفى اسرائيل اجتمعت معا تسعة قرون من الغزو والحرب والتبعية الاقتصادية ، والاستعمار والصراع الثقافى بين العرب والغرب ، وتوحدت كل قواهم العاطفية والنفسية . وأيقظ الغزو الصهيونى - كما لم يحدث من قبل - عواطف العالم العربى . ومتجاهلين للدور العربى بكل مستوياته فيما حدث من ضياع لفلسطين ورفض معظم الدول العربية قبول اللاجئين الفلسطينيين ، شعر العرب بالذلة والمهانة . لقد حزنوا لأنهم فشلوا مرة أخرى فى الوقوف فى وجه الغزو الأجنبى . وبدأت الكراهية العربية تجاه اسرائيل فى ظل هذا المزاج النفسى . ومع ما قامت به اسرائيل بعد ذلك من تصرفات وأفعال ضد جيرانها العرب ، وأصبحت الدولة اليهودية البوتقة المشتعلة للوحدة العربية .

---

* أورده ناداف صفران فى « من حرب لحرب : المواجهة العربية الاسرائيلية ١٩٤٨ - ١٩٦٧ » (نيويورك ، ١٩٦٩) : ص ٣٩ .

* اليزابيث وارنوك فيرنيا ، « ضيوف الشيخ : وصف الأعراق فى قرية عراقية » جاردن سيتى ، نيويورك ، ١٩٦٩ ، ص ١٢١ .

** عرب نيوز ، ١٢ فبراير ١٩٨٠ .

فاصل : « الوحدة والانقسام »

هناك أمران ثابتان يؤثران دائما فى العالم العربى هما الوحدة والانقسام . وقد شكلت مقومات الاحساس شبه الباطنى بالتوحد لدى العرب القسم السابق من هذا الكتاب ، ويتضمن القسم اللاحق عوامل انفصالهم . ففى الدين ، والثقافة ، والتاريخ واللغة يجد العرب أسباب القوة لوحدتهم . وبالاسلام واللغة العربية تتغذى هذه الوحدة . وبانعدام الثقة والمرارةالموجودة فى علاقة العرب بالغرب تقوى وتتعزز . وبالفشل فى تحدى مطلب اسرائيل فى أرض يعتبرها العرب أرضا عربية تبقى هذه الوحدة وتستمر . وفى أعماق النفس العربية يرسخ مفهوم الأمة العربية الذى يعد بتأكيد الكرامة والقوة والنفوذ للشعب العربى . وتجسد هذه الرؤية ، القومية العربية التى ليست حزبا سياسيا ولا حركة سياسية وانما مفهوم مثالى بأن العرب أمة واحدة . ورغم هذا فان العرب منقسمون على نحو لا مفر منه الى دول قومية تؤرقها مشاكل عميقة ، بعضها من صنع العرب أنفسهم وبعضها من صنع الآخرين .

وتختلف الدول العربية عن بعضها البعض اختلافات أساسية فى المزاج والطباع والسلوك مع تنوع فى المناخ والطبيعة الجغرافية ، والتاريخ ، والاقتصاد ، انها تعبر عن العداوات القديمة التى كانت موجودة بين النيل والفرات ، وبين الأمويين والعباسيين . وتعد شاهدا صادقا على حقيقة أنها ليست كيانات سياسية طبيعية الا فى حالات نادرة .

ان الدول العربية تعتبر ، بدرجة كبيرة ، من صنع الغرب الذى يكرهه العرب الى حد بعيد . فحدودها التى رسمت لتناسب احتياجات القوى الاستعمارية الأوروبية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، تضم جماعات لديها القليل مما يتطلبه تكوين الدولة . ومما زاد من تعقيد مستقبلها أن هذه الكيانات المصطنعة قد دخلت متأخرة فى عالم الدول المستقلة . فقد انتصف القرن العشرين قبل أن تحصل جميع دول المشرق العربى على حريتها واستقلالها . وفى حين أن الدول الأوروبية جميعها قد مرت بقرون من التجربة والنضج السياسى قبل دخول القرن العشرين ، فان معظم الدول العربية قد قفزت فى غضون خمسين عاما من مقاطعات مهملة فى الامبراطورية العثمانية المتداعية الى مستعمرات لبريطانيا وفرنسا ثم لتصبح دولا مستقلة . وبينما كانت هذه الدول الضعيفة تحاول أن ترسخ أقدامها ، أحاطت بها حالة عدم استقرار اقليمية ساهمت فى اضعافها وذلك نتيجة لاستعمار الأراضى العربية بواسطة شعب أجنبى ومنافسات القوى العظمى .

وفى ظل هذه الظروف التى خلفتها أطراف خارجية ، واجهت المجتمعات المتشبعة بالتقاليد ، قليلة الخبرة بالأنظمة السياسية الغربية فى القرن العشرين ، تحدى حركة التحديث السريعة . وأمام هذا التحدى يشهد العرب أنفسهم على فشل تاريخهم الحديث . إذ أنه داخل كل دولة من دول العالم العربى ، لم يتوصل بعد أى من دعاة الحداثة أو دعاة التقليد إلى حل لقضية

العلاقة بين الله والدولة فى القرن العشرين . كما لم يتمكنوا بعد من وضع شكل من أشكال القومية يحدد بقدر من الدقة معنى الدولة القومية للأغلبية الكبيرة من الشعب الذين لا يزالون إلى حد بعيد يحددون هويتهم فى الأسرة ، والعشيرة ، والطائفة والأصل العرقى . ولا يزال الحكم يعتمد على الرجال أكثر من اعتماده على المؤسسات . ونتيجة لذلك يقوم الرجال الأقوياء بالحفاظ على كيانات الدول الهشة ويوجهونها وفقاً لرؤيتهم الخاصة . ولهذا السبب ، سوف نقوم فى الجزء التالى من هذا الكتاب بدراسة وضع كل دولة من الدول العربية الحالية بالإضافة إلى أوضاع الفلسطينيين الذين يعيشون بلا دولة وذلك من خلال زعيم معين ، إن كل رجل من هؤلاء الرجال قد قام بدوره أو لا يزال يقوم به فى منطقة تعمل على تمزيق الوحدة العربية فيها الأيدولوجيات المختلفة ، وأنظمة الحكم ، والتفاوت فى توزيع الموارد ، والمصالح الوطنية المتضاربة ، والعداوات الشخصية بين الزعماء الأقوياء ، بل وحتى الإحساس الذاتى لدى كل دولة بالتفوق على غيرها . وفى هذا الجو من التنافس ، أصبحت « العروبة » ، بدلاً من أن تعبر عن وحدة العالم العربى ، سلاحاً تستخدمه دولة أو يستخدمه زعيم ضد دولة أو زعيم آخر .

إن الوحدة العربية حقيقة وأسطورة ، فالعرب أمة واحدة فى إحساسهم العميق بالأخوة ، ولكنهم فى نفس الوقت يعيشون فى مجتمعات ودول تعتبر فى صراع دائم . وفى داخل هذا الإطار العام يعبر المثل القائل « أنا وأخى على إبن عمى ، وأنا وإبن عمى على الغريب » . عن أسطورة الوحدة العربية أكثر من تعبيره عن الواقع الفعلى .

الباب الثانى

حقيقة الانقسام

الفصل السادس

عبد الناصر : المخلص العربى

كان ذلك فى أوائل شهر سبتمبر من عام ١٩٦٢ ، وكانت القاهرة فى أوج نفوذها وقوتها . ومن إحدى الشرفات فى الطابق الخامس من فندق هيلتون النيل ، مددت بصرى عبر النهر الأسطورى تجاه الهرم الأكبر لخوفو والأهرامات الأصغر لخفرع ومنقرع التى ترتفع مثل تلال بعيدة من داخل الصحراء المحيطة بها ، وكان فندق هيلتون النيل ، الذى يشكل توليفة فريدة من ا لديكور المصرى الكلاسيكى واللمسات الأمريكية الواضحة ، يتسيد كملك لفنادق القاهرة . وكانت خطوطه الحديثة والنظيفة وطوابقه المتعددة من الزجاج التى تطل على النيل تعطيه مكانة لم يعد بإمكان الفنادق العتيقة والعريقة فى القاهرة أن تنافسه عليها . والأكثر من ذلك أن هيلتون النيل كان يعكس صورة مصر ذاتها فى العقد السابع من القرن العشرين ، لقد كانت المداخل والأفنية التى تبعث النافورات البرودة فى أجوائها لفندق ميناهاوس الأنيق ، أماكن للجلوس والشرب فى موقع آلاف السنين من تاريخ مصر . وعلى عكس ذلك ، كانت شرفات هيلتون النيل من أجل النظر والتعرف على مصر الحاضر .

وبعد الساعة الرابعة مساءا بقليل ، أى بعد ساعة واحدة من إستيقاظ القاهرة من قيلولتها ، بدأت أسمع أصواتا من الشارع ترتفع وتنخفض فى إيقاع رتيب . وبالتدريج إقتربت الضجة حتى ملأت أذنى « ناصر ، ناصر ، ناصر » . ومن شرفة الفندق شاهدت مئات من طلبة الجامعة ، وموظفين فى الحكومة من المستوى المتوسط ، وبعض أصحاب المتاجر وخليطا من العاطلين يسيرون أسفل الشرفة ملوحين بلافتات حمراء وسوداء وخضراء عليها صورة جمال عبد الناصر مبتسما . وبعد ذلك إختفت المسيرة ، فهى لم تكن أكثر من مظاهرة تأييد أخرى لعبد الناصر . ولكنها كانت تقول كل شىء عن مصر فى السنوات التى تخطى فيها عبد الناصر ذروة قوته ونفوذه بفترة وجيزة ، ففى عام ١٩٦٢ ، كان عبد الناصر الباهر والساحر ، هو مصر ، وكان معظم المصريين يؤمنون بأنهم مع عبد الناصر قد أسقطوا ماضيهم ووجدوا حاضرهم ويمضون بفخر نحو مستقبلهم .

غير أنه فى الفترة من ١٩٥٥ وحتى ١٩٦٧ كان جمال عبد الناصر أكثر من مجرد مصر ، فقد كان بالنسبة لجموع الشعب العربى تجسيداً لفكرة القومية العربية والصوت الداعى للنهضة العربية .

لقد كان سليل خالد بن الوليد « سيف الإسلام » ، وسليل « صلاح الدين » . وبدعوته العرب مرة أخرى لاستعادة مجدهم ، إستطاع أن يحشد الجماهير العربية ضد النفوذ الغربى الذى خلفه نابليون داخل العالم العربى ودعم وجوده المغتصب الصهيونى الكريه ، لقد كان عبد الناصر بما فى شخصيته من جاذبية وبما فى خطبه من بلاغة يعد بتحقيق الوحدة التى ينادى بها التاريخ والثقافة العربية . وكانت تلك هى السنوات التى كان يؤمن فيها الكثيرون فى العالم العربى بأن عبد الناصر سوف يحول أسطورة الوحدة العربية إلى واقع سياسى فعلى .

ولكن عبد الناصر كان مصرياً قبل أن يكون عربياً . وشكل ذلك الجانب المصرى بصفة خاصة فلسفته السياسية . وكانت الظروف التى صنعها تاريخ مصر الطويل تحت الإحتلال والقهر الأجنبى هى التى أتت به الى السلطة السياسية . وكانت مصالح مصر ، المقترنة بحبه للسلطة ، هى التى حولت جمال عبد الناصر إلى مخلص للعرب ، وفى حطام حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ ، إكتشف العالم العربى ما كان يعرفه الكثير من العرب ـ وهو أن عبد الناصر كان أكثر إهتماما بمصالح مصر الخاصة من كونه قوميا عربيا . وفى أعقاب تلك الحرب دار عبد الناصر دورة كاملة . وأسقط لواء القومية العربية ليمسك بقوة أكبر علم مصر .

إن مصر هى النيل وعبر آلاف السنين قبل أن يتحكم سد أسوان فى إستخدام مياهه ، كان النيل ينظم إيقاع الحياة فيها . ففى شهر يونية من كل عام كان النيل يبدأ فى الإرتفاع ، ومع حلول شهر سبتمبر كان يصل إلى حد الفيضان ويغمر الحقول المحيطة به ، وفى منتصف شهر أكتوبر كانت تنحسر مياهه داخل شواطئه ، وفى أواخر شهر أبريل كان يصل الى أدنى مستوى له ، وفى شهر يونية كان يبدأ الدورة من جديد ، وعندما ترتفع المياه فى وادى حلفا فى الجنوب ، تتدفق مياه النيل ذات اللون البنى الداكن نحو الشمال لمسافة أكثر من ألف ميل . وينقسم عند الدلتا فى شمال القاهرة ليصب بعد ذلك فى البحر الأبيض المتوسط . وحيث أن النيل ليست له روافد فى طريقه عبر مصر ، فإنه يصنع شريطاً خصباً ضيقاً من المناطق السكنية محصوراً بين صحراوين شاسعتى الإتساع . ويعنى الحديث عن مصر الحديث عن خمسة عشر ألفا من الأميال المربعة ، أى ٥٪ من مساحة اراضيها ، التى يولد ويعمل ويتكاثر ويموت عليها ٩٨٪ من المصريين .

إن نهر النيل وواديه يفصلان مصر جغرافيا ونفسيا عن الدول العربية الأخرى . إذ على خلاف باقى العرب ، الذين كانوا حتى منتصف القرن العشرين يعيشون فى مناطق إدارية غير محددة أو متغيرة تحت حكم إمبراطوريات متعاقبة ، كان المصريون يتمتعون بشخصية قومية متميزة تصل فى تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد . وفى أقدم عصور التاريخ الإنسانى المسجل صنع شعب وادى النيل حضارة ذات تنوع وغنى يفتن الألباب . وفى ظل حكم عدد من الفراعنة المتعاقبين ، بنوا الأهرامات ، والمعابد الفخمة والمقابر المهيبة التى تمتد عدة أميال على طول حافة الصحراء الغربية . وأرسلوا السفن البحرية عبر البحر الأبيض المتوسط ، وأدخلوا فى فن العمارة بناء العمود وصفوف الأعمدة ، وطبعوا العقيدة الدينية بفكرة الحساب فى الحياة الآخرة .

إن عظمة مصر القديمة تجدها على شاطىء النيل المواجه لوادى الملوك . وهناك يوجد منحدر صغير من الأرض نجا من ضغط الإنفجار السكانى المستمر فى مصر . ومن هناك يصبح من

الممكن فى عزلة تامة مشاهدة السفن الشراعية الصغيرة المارة بالمكان . ومن فوق التلال المنخفضة التى دفن فيها ماضى مصر ، تتوارد إلى الذهن كلمات الكاتب الفرنسى أندريه مالرو : « إن مصر هى التى اخترعت الخلود » .

وفى عام ٥٢٥ قبل الميلاد إنتهى العصر الفرعونى عندما سقطت مصر أمام قوات الفرس . وبانتهاء هذا العصر ، فقد المصريون تحكمهم فى مصيرهم السياسى ، ولكن لم يفقدوا جوهرهم كمصريين . وفى أقل من قرنين سقط الحكم الفارسى فى مصر أمام الإسكندر الأكبر . وبعد موته أسس البطالمة المقدونيون الأسرة التى حكمت حتى موت كليوباترة فى عام ٣٠ قبل الميلاد . وأثناء فترة حكمهم ، أخذ البطالمة الكثير من الطابع المصرى أكثر مما أخذت مصر من الطابع الاغريقى . وعندما جاء الرومان لم يغيروا كثيراً سوى فرض طبقة حكام أجانب أخرى على الحضارة المصرية . وجاء الغزو الحضارى من المسيحية أكثر مما جاء من الرومان . وكانت المسيحية هى التى أمدت المصريين بالوسيلة التى عبروا من خلالها عن شخصيتهم القومية داخل الأمبراطورية الرومانية . وجاء قدر كبير من المعارضة الحضرية للحكم الرومانى من كنيسة الاسكندرية ، وفى نفس الوقت ، قامت الكنيسة المسيحية فى المناطق الريفية فى دلتا النيل بإحياء اللغة القبطية ، وهى آخر شكل من أشكال اللغة المصرية القديمة . ومن خلال الأقباط تحيا المسيحية فى مصر إلى حد كبير . ويمثل الأقباط اليوم نحو ١٠٪ من سكان مصر . ومن الناحية التاريخية ، فإن نفوذ الأقباط فى مصر فاق عددهم ، مما أعطى لمصر مجتمعاً ثنائيا على نحو أكبر مما هو موجود فى معظم الدول العربية الأخرى ، غير أن مصر إستطاعت تحاشى الكثير من الإنقسامات الطائفية والقبلية المدمرة التى يعانى منها الكثير من الدول العربية الأخرى . وعلى الرغم من النزاعات والتوترات بين المسلمين والمسيحيين ، فإن المصريين فى جوهرهم شعب متجانس ذو ملامح واضحة ومتميزة .

وفى عام ٦٤١ ميلادية ، قام العرب بفتح مصر . ومثل الشعوب الأخرى التى إحتكت بالجيوش الإسلامية ، إعتنق المصريون الإسلام والثقافة العربية . وترك معظم السكان اللغة القبطية واستبدلوها باللغة العربية ، والدين المسيحى بدين محمد ﷺ وفى غضون خمسمائة عام ، أصبحت مصر عربية فى الفكر والعقيدة والتقاليد ، ومع حلول القرن التاسع ، أصبحت مصر مجتمعا مسلما عربيا هاما ومركزا للثقافة العربية الإسلامية . ومع هذا ، بقيت أجزاء من الثقافة المصرية لتؤكد الجوهر الخاص بمصر .

وبتركزهم فى وادى النيل وإنفصالهم عن المنطقة العربية الخلفية بواسطة الصحراء الشرقية ، يرى المصريون بوجه عام أنفسهم جزءا من حوض البحر المتوسط وكذلك جزءا من العالم العربى . ونتيجة لذلك ، فإنهم يعانون من درجات التناقض الثقافى ، إنهم عرب ، وهم بلا ريب مصريون . وهم ٩٠٪ مسلمون و ١٠٪ مسيحيون متشددون يعتبرون أنفسهم مصريين أكثر مما هم عرب . وهم ينتمون إلى العالم العربى وينتمون إلى مصر . وقد لخص لويس عوض ، الناقد الثقافى ، المعضلة بين تأثير العالم العربى وإحساس المصريين بتفردهم الخاص فى قوله : « هل سنصبح فى مصر شعباً متعدد الثقافات ، وطرفا فى الجسد الكبير للإنسانية ، أم سنظل نعيش فى الجحيم المنعزل المسمى الشرق » ؟* وربما لا يقولها الآخرون بنفس هذه القوة ولكنهم يعبرون عن نفس الرأى . ففى إحدى أمسيات الشتاء الباردة ، جلست فى كافيتريا صغيرة فى الجانب الشرقى لمانهاتن مع

كاميليا السادات ، إبنة الرئيس السادات من زوجته الأولى . وتشعب الحديث إلى موضوعات كثيرة وفى النهاية تطرق الحديث إلى ما يعنيه أن تكون عربيا ، وترددت كاميليا ثم قالت أنه من الصعب عليها كمصرية أن تناقش أحاسيسها كعربية . « كما تعلمين ، إن المصريين ليسوا عرباً بالمرة . إننا ننتمى إلى حوض البحر الأبيض المتوسط » . ويختلف الكثير من المصريين ، وربما أغلبهم ، بشأن هذه الملاحظة . غير أن هناك دائما فى مصر إحساس واضح بالوطنية يفصل المصريين بدرجة ما عن هويتهم العربية . فمصر التى ترتبط بالعالم العربى عن طريق اللغة والثقافة كان لها تاريخ مختلف بشكل واضح تماما عن تاريخ منطقة الهلال الخصيب . ولعل تلك التجربة التاريخية هى التى تفسر ظهور جمال عبد الناصر .

ومنذ نهاية الأسرة الأخيرة من العصر الفرعونى الطويل إلى أن رَدّ ناصر للمصريين حقهم فى حكم وطنهم كانت مصر تعيش تحت شكل أو آخر من أشكال الحكم الأجنبى* . وبين عامى ١٢٥٠ و١٧٩٨ ، كانت مصر تحت حكم المماليك ، وهم فى الأصل عبيد جلبهم صلاح الدين من آسيا الصغرى لدعم وتعزيز جيشه وإنتهى الأمر بهم إلى خلافته فى الحكم . وحكم المماليك مصر خمسة قرون متعاقبة أولا كحكام مستقلين ثم بعد ذلك كتابعين للسلطان العثمانى . وفى أعقاب الغزو الفرنسى لمصر فى عام ١٧٩٨ سقط المماليك تحت حكم محمد على .

وقد جاء محمد على إلى مصر فى عام ١٨٠١م كضابط عثمانى صغير مع الكتيبة الألبانية ضمن الحملة التركية التى أرسلت للوقوف فى وجه الفرنسيين ، ومع حلول عام ١٨١١م ، كان محمد على هو الحاكم الموالى ظاهريا للسلطان العثمانى . وفى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، ثار ضد التبعية العثمانية وأسس أسرة حاكمة إستمرت فى حكم مصر حتى ثورة عام ١٩٥٢م التى أتت بجمال عبد الناصر للسلطة . وبينما كان محمد على ، القوى ، والداهية والتقدمى يحكم مصر بإسم السلطان العثمانى ، جعل مصر مستقلة من الناحية السياسية والإقتصادية والمالية . ولكن فى عام ١٨٨٢م ، رهن إسماعيل حفيد محمد على مصر لسيد آخر ، هو بريطانيا . وكانت لإسماعيل نفس رؤية محمد على الكبير بجعل مصر جسراً اقتصادية وثقافيا بين الامبراطورية العثمانية وأوروبا . ولكن لسوء الحظ ، فإن القوة الاقتصادية التى حققتها أوروبا عن طريق الثورة الصناعية جعلت هذا الجسر فى اتجاه واحد للإستعمار الاقتصادى الأوروبى . وقد ساعد فى الاسراع بهذه العملية إسراف إسماعيل وتجاوزاته الإقتصادية . فعندما جاء إسماعيل إلى الحكم فى عام ١٨٦٣ كانت ديون مصر الخارجية فى حدود ثلاثة ملايين جنيه مصرى . وعلى مدى الإثنى عشر عاما ، التالية ، قام إسماعيل بمد خطوط السكك الحديدية ، وشق الترع والقنوات وإستصلاح

★ أورده ليمان فى « مصر بعد ناصر » ، ص٢٦٣ .

★ من الناحية السياسية ، كان المصريون يحكمهم غيرهم . ومن الناحية الدينية ، كان المصريون يشعرون بأنهم جزء من الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية العثمانية .

الأراضى . ومن أجل تأكيد إستقلاله الفعلى عن القسطنطينية أرسل هدايا قيمتها ملايين الدولارات الى السلطان العثمانى . وربما كان فى إمكانه تحمل انفاقه على البنية الأساسية والإستقلال السياسى لو لم يبالغ فى بذخه الشخصى . وكان إسماعيل يجوب المجتمع الأوروبى خلال رحلاته المتكررة للخارج مبعثراً الهدايا السخية . وفى الداخل ملأ قصوره بمجموعات ضخمة من الكنوز والتحف الثمينة بما فى ذلك أدوات مائدة من الذهب الخالص ، مرصعة بالماس ، وفى نوفمبر ١٨٦٩ أنفق إسماعيل مليون جنيه مصرى على عرض باهظ التكاليف من أجل الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وقد أبحرت الامبراطورة أوجينى امبراطورة فرنسا التى كانت ترمز لعلاقة مصر بأوروبا على متن السفينة الأولى فى موكب من ثمانية وستين سفينة عبر القناة ، كما جلست فى دار أوبرا القاهرة الفخمة لتستمع الى « ريجوليتو » كبديل عندما عجز فيردى عن إنهاء أوبرا « عايدة » التى كلف بإعدادها ، فى الوقت المحدد . وفى عام ١٨٧٥ أدى إندفاع إسماعيل الى تحديث مصر وطبعها بالطابع الغربى الى بلوغ ديونه الخارجية ثمانية وستون مليون جنيه مصرى . ولم تستطع السياط التى كانت تلسع ظهور الفلاحين أن تستنزف مزيداً من الأموال من أولئك الذين لم يعد لديهم شىء يقدمونه .

وكان اسماعيل فى حاجة شديدة للمال ، وكان الشىء الوحيد الذى يملكه للبيع هو حصته البالغة ٤٤٪ من أسهم شركة قناة السويس ، التى كانت قابلة للتداول ، وكانت بريطانيا الإستعمارية تطمع فى الحصول على نصيب أكبر فى شركة قناة السويس من أجل تأمين طريقها الملاحى الهام الى الهند . وسارعت أسرة « روتشيلد » ، وهى الأسرة المصرفية الكبيرة ، بإقراض حكومة بريطانيا المال من أجل شراء نصيب إسماعيل . وبهذه الصفقة المالية ، ثبتت بريطانيا قدمها بإحكام على بوابة مصر .

ومع حلول عام ١٨٧٩ ، فرض الحكم البريطانى نفسه على الأسرة الشركسية التركية التى كانت تحكم مصر والتى كانت مرتبطة نظريا بالسلطان العثمانى . وهكذا أصبحت هناك طبقتان من الأجانب على الأقل تفصلان المصريين عن حكم بلادهم . وقد كانت مصر فى عام ١٨٨٠ مختلفة إختلافا تاما عن مصر فى عام ١٨٤٠ وذلك لأن حب إسماعيل للأساليب الأوروبية ، فرض الطابع الغربى على الإسكندرية والقاهرة . ومع وجود آلاف من الأوروبيين المقيمين فى القاهرة ، وبتعليم الأمراء فى أوروبا كان إسماعيل يتيه بقوله أن مصر جزء من أوروبا . ولكن مصر كانت تتكون من القرى والإسلام وطبيعتها الخاصة بها .

وبمعنى من المعانى فإن ثورة ١٩٥٢ التى أتت بجمال عبد الناصر الى قلب الحياة السياسية فى مصر قد بدأت فى مايو عام ١٨٨٢ عندما طالب ضابط بالجيش المصرى إسمه أحمد عرابى بعودة مصر الى المصريين . لقد مست صرخة عرابى الوطنية أعمق مشاعر الاغتراب عند المصريين . ومن داخل المدن زحفت جموع الشعب الى عرابى والى الجيش . وفى الحادى عشر من يونيو عام ١٨٨٢ ، اندلعت أعمال الشغب فى الاسكندرية وقتل أو جرح عدة مئات من الناس بما فى ذلك القنصل البريطانى . وانتهزت بريطانيا هذه الفرصة ، مستخدمة سلامة القناة كذريعة ، للتدخل وقامت بارسال قوة قوامها ثلاثون ألف جندى الى مصر . وأثناء ابحار هذه القوة فى القناة اشتبكت مع المصريين فى معركة التل الكبير . وعندما انتهت المعركة كان حصادها عشرة آلاف

قتيل مصرى مقابل سبعة وخمسين من الجانب البريطانى . وأثناء الثورة العرابية ، اختار الخديوى توفيق الذى كان يحكم مصر آنذاك الوقوف الى جانب البريطانيين بدلا من الوقوف مع المصريين . وكانت النتيجة أن كل شىء كان مهيئا أمام بريطانيا لتحويل مصر الى مستعمرة لها . ولكن عملية ضم مصر إبان توهج التنافس الاستعماري فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تعنى الحرب مع منافسى بريطانيا من الدول الأوروبية . وكان من نتيجة ذلك ان حكمت بريطانيا مصر من خلف العرش ومن خلف ستار من الوزراء المصريين فى نظام لقبه الاستعماريون البريطانيون أنفسهم بـ « الحماية المستترة » * . وكان أن استمر بقاء القوات البريطانية اللازمة لتأكيد الوجود البريطانى فى مصر لمدة أربعة وسبعين عاما الى أن انتهى بها الأمر الى الانسحاب فى عام ١٩٥٦ بعد أن فشلت فى اسقاط جمال عبد الناصر فى حرب السويس .

وقد التهبت الوطنية المصرية خلال فترة الحماية البريطانية على مصر . وفى نهاية الحرب العالمية الأولى طلب الوطنيون من بريطانيا السماح لهم بارسال وفد الى مؤتمر باريس للسلام من أجل عرض قضية استقلال مصر . ولكن البريطانيين رفضوا الطلب وأرسلوا بهم الى المنفى فى جزيرة مالطة . وعمت اضطرابات الطلبة وموظفى الحكومة أرجاء القاهرة وامتدت الى الريف حيث ألقى الفلاح المطيع فأسه ورفع صوته احتجاجا . وكان ما يعرف بثورة ١٩١٩ نتاج محاولة المجتمع المصرى بعث الروح فيه وإحياء حضارته . وفى مواجهة ثورة شعبية لم تكن مستعدة لها ، قامت بريطانيا بمنح مصر قدرا من الاستقلال الذاتى وفى اعقاب ذلك انتعشت الروح الوطنية بين طبقة الصفوة .

وفى الفترة من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٣٠ . نما تيار واضح من الفكر الوطنى فى مصر فقد طالب دعاة الفرعونية المنشقون عن المفكرين ذوى الاتجاه العربى الذين يدعون الى الوحدة بين العرب عبر حدود دولهم ، بوطنية مصرية خاصة . ووفقا لرؤيتهم لمصر بأنها « هبة النيل » ، فانهم كانوا يجادلون بأنه لا يوجد مكان حددت فيه الأرض وصنعه كدولة بشكل قاطع أكثر من مصر . وعلى الرغم من تعدد الحقب التاريخية التى توالت على مصر وتنوع أنظمة الحكم فيها ، فقد ظل المصريون شعبا متجانسا ، يتمتع بتجربة تاريخية جماعية تعود الى خمسين قرنا مضت من الزمان . وبالنسبة « لدعاة الفرعونية » ، فإن المصريين المعاصرين ، الفقراء والمضطهدين طوال أجيال من الحكم الأجنبى ، هم رغم ذلك السلالة المباشرة للمصريين القدماء . ولاتزال جميع الصفات والخصائص التى صنعت عظمة المصريين القدماء موجودة فى الجينات الوراثية الخاصة بهم . وقد ذكر الكاتب محمد زكى صالح : « ان دماء رمسيس لم تتوقف عن التدفق فى عروق المصريين » . ان هذا القول ليس من نسج خيال الكاتب ولكنها حقائق علمية يقبلها الآن الكثير من العلماء* .

وصرح أحمد حسين ، وهو كاتب شهير من دعاة الفرعونية بقوله : « انه لمن العبث البالغ ادعاء أن مصر عربية أو أن الدم المصرى قد أصبح عربيا ، ويؤكد العلم والتاريخ سخف هذا

* فى عام ١٩١٤ ، عندما اجتاحت الحرب أوروبا ، اعلنت بريطانيا رسميا الحماية على مصر .

* أورده اسرائيل جيرشونى وجيمس جانوسكى فى « مصر ، والاسلام والعرب : البحث عن الوطنية المصرية ١٩٠٠ - ١٩٣٠ » نيويورك ١٩٨٦ ، ص ١٥٥ .

القول . ان المصرى المعاصر فرعونى بطبعه ـ انه فرعونى بدمه الى حد انه لم يستطيع اى دم آخر أن يتغلب عليه أو يؤثر فيه »* .

وقد تحولت الأيديولوجية الفرعونية الى فن أخذ شكل المسرحيات والأوبريتات والأفلام الموسيقية ، مثل « الكاهن الأكبر لمعبد آمون » و « عظمة الملك رمسيس » ، التى تمجد الموضوعات الفرعونية . وفى عام ١٩٢٣ ، وصلت النزعة الفرعونية الى أوج تأثيرها العاطفى عندما اكتشف رجال الآثار مقبرة توت عنخ آمون . فمن تحت الأرض الترابية فى وادى الملوك جاء قناع الذهب الجنائزى للملك الصغير ، والتمثال الرائع للاله سلخت ، والأوانى المصنوعة من المرمر ، والصناديق التي تعد تحفة فى صنعها . وقد أثبتت هذه الأشياء مرة أخري العظمة والمكانة التى بلغها المصرى القديم . لقد أكدت كنوز توت عنخ آمون للشعب ، الذى كانت تحرك عواطفه موجة الوطنية المتصاعدة ، العظمة التى يمكن أن تبلغها مصر مرة أخرى اذا ما نفضت عنها الحكم الأجنبى .

وقد تأثر عبد الناصر بالفلسفة الفرعونية من خلال « مصر الفتاة » ، وهى منظمة أسسها الكاتب احمد حسين فى عام ١٩٣٣ . وعلى الرغم من أن أحمد حسين كان ينادى بروح وطنية متعصبة ترتكز على الفرعونية من أجل احياء مصر ، الا انه فى نفس الوقت رفض أن ينكر مكانة مصر الاسلامية . ونتيجة لتأثره بالتفكير السائد فى ذلك الوقت بالنسبة للعرب كأمة واحدة ، فإنه وضع مصر داخل اطار العالم العربى حيث قال : « ان مصر هى قلب العالم الشرقى وزعيمة الاسلام . وينبغى أن تنهض من جديد . . . وهذه المهمة تحتاج الى أولئك الذين لديهم الاستعداد للموت ، وتحمل الصعاب ، وتقبل التضحية ، وهذه الصفات لا يمكن أن توجد بين الأجيال الأكبر سنا » . ان الشباب ، والجيل الجديد ، جنود « مصر الفتاة » هم الذين تقع على أكتافهم مسئولية احياء مجدنا القديم »* . واستمع عبد الناصر الشباب لهذه الدعوة واستعد لليوم الذى يتولى فيه قيادة الجيل الجديد لتحقيق ما تنادى به « مصر الفتاة » .

وعلى الرغم من رومانسية الفلسفة الفرعونية ، فقد كانت مصر فى فترة العشرينيات والثلاثينيات غارقة فى الفساد والفوضى . ففى الفترة من ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٣٦ ، وهى الفترة التى كبر فيها عبد الناصر ، كانت هناك ثلاث قوى سياسية هامة تتصارع من أجل فرض سيطرتها على مصر ـ هى البريطانيون ، وحزب الوفد الوطنى ، وهو تحالف غريب من المصلحين وملاك الأراضى الأغنياء الذين كانوا يعارضون الاصلاح ، والملك . وقد حاول البريطانيون الذين كانوا لا يثقون فى وطنية حزب الوفد أن يساندوا الملك فى الوقت الذى كان الملك يكره البريطانيين بقدر ما يكره الوفد تقريبا . ولم يكن للملك فؤاد ، سليل أسرة محمد على الذى تولى العرش ، أى دور فى حل مشاكل شعبه . فقد تربى فى ايطاليا ولم يكن يعرف سوى القليل جدا عن البلاد التى يحكمها لدرجة أنه لم يتقن اللغة العربية أبدا . وعندما توفى فى عام ١٩٣٦ ، ترك ابنه الوحيد فاروق ، وهو شاب صغير فى السادسة عشرة من عمره ، مدللا ، ووسيما ليتولى العرش من بعده .

---

* نفس المصدر السابق .

* أحمد حسين ، أورده بى . جيه . فاتيكيوتيس فى « ناصر وجيله » (نيويورك ، ١٩٧٨) ص ٧٣ .

ولم يكن فاروق ، الذى عاش منفصلا عن بلاده الفقيرة ذات الكثافة السكانية الكبيرة ، بحكم مركزه وثروته ، أكثر دراية ببلاده من والده . ومع ذلك ، فانه عندما تولى العرش استقبل بحماس جارف من جموع الشعب المصرى كأمل جديد فى المستقبل ، فبرغم كل شيء كان فاروق على الأقل لا يجد صعوبة فى فهم اللغة العربية .

وقد عاش فاروق حياته كملك بنفس الطريقة التى تربى عليها ـ معزولا فى قصور بناها أجداده ، ولا تزال موجودة كشاهد على أسرة محمد على . وهناك اثنان يحددان بشكل خاص الفواصل القاطعة بين الحاكم والمحكوم . فقصر عابدين فى القاهرة يعكس الميول الغربية للخديوى اسماعيل المبذر . ويقع القصر المطلى بالجص ذو اللون الأصفر الفاتح ومداخله ذات الأعمدة الرائعة وزخرفة عصر النهضة الايطالية وسط حدائق منثورة بأشجار النخيل الباسقة . ويأخذ قصر رأس التين فى الاسكندرية من طابع البحر الأبيض المتوسط أكثر مما يأخذ من الطابع المصرى مثله مثل اسماعيل . وقد بدأ بناءه محمد على الكبير فى عام ١٨٣٤ واستعمله من خلفوه باعتباره مقر الاقامة الصغير الرسمى . والأعمدة الجرانيت الست التى كان يعلوها ذات يوم التاج الملكى المصرى والتى نقشت عليها أيات من القرآن تميز بوابته الشرقية . وفى عهد فاروق كانت هذه البوابة دائما مغلقة فى وجه أفراد الشعب المصرى العاديين . وفى عام ١٩٥٢ قضى فاروق يومه الأخير كملك لمصر فى قصر رأس التين . وعندما انتهى اليوم نزل فاروق درجات القصر الموجودة على الجانب المواجه للبحر ليترك مصر الى الأبد .

وقد جاء فاروق بشخصيته ذات العيوب الخطيرة الى وسط اعصار من الاحساس الوطنى المتقد وجوسياسى تعمه الفوضى ، وقد اضطر الأسد البريطانى ، الشرير الأكبر بالنسبة للوطنيين ، للرضوخ أمام الوطنيين المصريين بعد أن أفزعته طموحات موسولينى فى افريقيا . وفى عام ١٩٣٦ ، أعطت الاتفاقية المصرية الانجليزية مصر سيطرتها الكاملة على حكومتها وقصرت الاحتلال البريطانى على قوة من عشرة آلاف جندى ترابط فى منطقة قناة السويس* .

وقد حدث تغير كبير فى السياسة المصرية ، وإن كان أكثر حساسية ، عندما فتحت الكلية الحربية فى عام ١٩٣٧ أبوابها أمام الطلبة من خارج طبقة الأرستقراطية الإقطاعية . ودخل جمال عبد الناصر ، الإبن الأكبر لموظف بالبريد من مدينة أسيوط فى صعيد مصر مع طلبة السنة الأولى . وكان طلبة دفعة عام ١٩٣٧ ، على خلاف من سبقوهم من الأرستقراطيين ، قد عرفوا سياسة الشارع وتشبعوا بآراء الوطنيين بدءاً من الإخوان المسلمين وإنتهاءً بالفاشية الأوروبية . وكانوا جميعا داخل الكلية الحربية يشعرون بالإستياء المرير تجاه النظام السياسي الفاسد والمنحل تماماً فى مصر ، من البريطانيين إلى الملك إلى العاملين الصغار بالحكومة الذين يعيشون فى كنف الطبقة المتميزة .

ومع حلول عام ١٩٥٠ ، كانت مصر ناضجة للثورة . فقد كان يتراجع ٢ ٪ من السكان بالغى الثراء الذين يملكون ٥٠ ٪ من الأراضى الزراعية فوق رؤوس ملايين الفلاحين المعدومين المحرومين . وبسبب عدم قدرتهم

---

* احتفظت بريطانيا بحق اعادة احتلال مصر بالاستخدام غير المقيد للمطارات والموانىء والطرق المصرية فى حالة وقوع حرب . وقد استخدم هذا الحق فى الحرب العالمية الثانية .

على مواصلة حياتهم فى القرى ، زحف المعدمون إلى المدن للبحث عن مورد للرزق وتكدسوا فوق بعضهم البعض . وبينما كانوا يحاولون التشبث بوجودهم ، كان رجال السياسة المصريون الذين يمثلون النظام الحاكم يتنازعون ويدبرون المكائد والدسائس لبعضهم البعض تاركين البلاد بلا قيادة حقيقية .

وفى نفس الوقت ، كان مائتا ألف من الأجانب الذين يعملون فى مجال الأعمال والتجارة والمال يعيشون كطبقة متميزة فوق أصحاب الأعمال المصريين وعدد متزايد من خريجى الجامعات الذين يجاهدون من أجل الحصول على نصيب أكبر من الفوائد الإقتصادية المتقلصة . وعلى رأس كل هؤلاء كان يجلس فاروق . البدين ، الفاسد والمنحل - رمزاً لكل مصائب مصر . لقد كانت بلاد النيل فى إنتظار فرعون جديد ليطهر مصر من النظام القديم الذى كان يسيطر عليه الأجانب وطبقة الصفوة المتميزة .

وفى عام ١٩٥١ ، بعد خمس سنوات من حصول دول المشرق على إستقلالها ، كانت القوات البريطانية لا تزال تحتل مصر . وفى الذكرى الخامسة عشرة لمعاهدة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا ، قام رئيس وزراء مصر الوطنى مصطفى النحاس باشا ، البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً ، بلوى ذيل الأسد الإستعمارى حيث طلب من بريطانيا سحب الخمسة والثلاثين ألف جندى الباقين لها فى منطقة القناة والجلاء عن مصر . وإتخذ المصريون بريطانيا كرمز ؟ وتدفقوا إلى الشوارع للتنفيس عن مشاعرهم تجاه الإستعمار وتجاه الحرمان الإقتصادى ، وتجاه العار الذى كانوا لا يزالون يشعرون به بسبب الهزيمة العربية فى عام ١٩٤٨ . ولأن بريطانيا كانت تعتمد على قناة السويس كشريان هام يربطها ببترول الشرق الأوسط ، أصدرت أوامرها إلى قواتها بأن تتهيأ للقتال وإلى الأسطول البريطانى بالتوجه سريعاً من مالطة إلى السويس . وكان من نتيجة ذلك أن إنفجر الغضب الشعبى فى مدينة الإسماعيلية الواقعة فى وسط منطقة القناة . وقام الجنود البريطانيون فى محاولتهم لإستعادة النظام بالهجوم على نقطة شرطة مسلحة تسليحاً خفيفاً ، مستخدمين الدبابات البريطانية ، مما أسفر عن مقتل ستة وأربعين مصريا . وإشتعل غضب مصر كلها ونادت بالإنتقام .

وفى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢ ، قامت حشود من المصريين الغاضبين التى إنضم إليها عدد من العرب الذين يعيشون فى مصر بالخروج إلى شوارع القاهرة لتدمير رموز بريطانيا بدءاً من أصغر شىء إلى أكبر شىء . فقاموا بتدمير كل حانة تخدم الأجانب ، وبإحراق ثلاثة دور للسينما يمتلكها بريطانيون وأمريكيون . كما أحرقوا بنك باركليز . وقامت الجماهير بالهجوم على « نادى السباق » ، وفى النهاية أشعلوا فيه النيران ، وهو الملعب الخاص بالبريطانيين . ولكن أكثر الأهداف تأثراً بهذه الإضطرابات كان فندق شبرد . ويوجد المبنى ذو الثلاثمائة وخمسين حجرة ، وهو مزيج لافت للنظر من فن العمارة الغربى والأندلسى ، فى قلب الحى الأوروبى فى القاهرة منذ عام ١٨٩١ . ولأجيال عديدة كان مشاهير رجال الغرب ينزلون فيه . فقد جاء اللورد كتشنر إلى شبرد بعد معركة أم درمان . كما أن المستكشف البريطانى السير هنرى مورتون ستانلى نزل به بعد أن وجد الدكتور ليفجستون . وتناول جون بيربونت مورجان ، آخر وجبة له فى حجرة الطعام الفخمة بالفندق . وبالنسبة للمصريين كان فندق شبرد يمثل التجسيد الحى للنفوذ البريطاني فى مصر . ولكنه أصبح ركاماً وأنقاضاً يتصاعد منها الدخان .

إن « السبت الأسود » ، وهو اليوم الذى قتل فيه إثنان وستون شخصاً ودمرت فيه ممتلكات قيمتها ثلاثمائة مليون دولار ، لم ينجح فى طرد البريطانيين من مصر . وبدلاً من ذلك كان بمثابة مقدمة ملتهبة للثورة التى قام بها الجيش المصرى ضد الملك فاروق ، وهى ثورة غيرت القوى المحركة للشرق الأوسط وقدمت للعرب « صلاح الدين جديد » .

ولعدة شهور سابقة على يوليو عام ١٩٥٢ ، كانت مجموعة من ضباط الجيش عرفت باسم « الضباط الأحرار » برئاسة جمال عبد الناصر تقوم بوضع خططها . ولما كانت المجموعة تفتقد أى هيكل تنظيمى متماسك ، فقد كانت لها نواة من حوالى إثنى عشر عضواً ، وصف ثانٍ من حوالى خمسين عضواً ، ثم مستوى ثالث ربما إقترب عدده من ألفى شخص ، وهم الذين كانوا يؤيدون بشكل غير واضح هدف الضباط الأحرار فى الإطاحة بالحكومة ولكن ليست لهم عضوية رسمية فى المجموعة . وكانت المجموعة تضم نقباء ، وروادا ومقدمين تتراوح أعمارهم بين ثمانية وعشرين وخمسة وثلاثين ، ولم تكن لهم أيديولوجية مشتركة سوى الوطنية الصرفة . لقد كانوا ثوريين أنصاف متعلمين جاءوا نتاج مزيج مضطرب من الإيمان الدينى ، والوطنية ، وأفكار مشوشة إستقوها من النشرات السياسية الفاشيستية التى كانت موجودة فى الثلاثينيات . ولكن كانت تجمعهم علاقة الجيل الواحد . فبصفتهم جزءاً من الجيش المصرى ، قاتلوا فى حرب فلسطين وعانوا جميعاً من عار الهزيمة ، وهى هزيمة ألقوا بمسئوليتها على السياسة فى القاهرة . وبقيامهم بالإطاحة بالحكومة الفاسدة ، وإزالة نير السلطة العسكرية والإقتصادية للغرب سوف يحرر الضباط الأحرار مصر . وعندما يتم ذلك يصبح فقط من الممكن التفكير فى الإستراتيجيات الضرورية من أجل حل آلاف المشاكل الأخرى فى مصر .

وفى ليلة الثانى والعشرين من يولية جاء خبر إلى عبد الناصر بأن رجال الصفوة العسكرية فى مصر كانوا يعقدون إجتماعاً فى مقر القيادة العامة لوضع خطة للوقوف ضد الثورة التى كانت تختمر بين صفوفهم . فقام عبد الناصر بسرعة بقيادة سيارته الأوستن السوداء من وحدة إلى أخرى ليخطر القواد الثائرين بأن تلك هى الليلة التى سوف يأخذ الجيل فيها مصر . وبمجموعة مكونة من تسعين ضابطاً فقط ، قام الضباط الأحرار بالإستيلاء على مقر القيادة العامة ، والوحدات العسكرية ، والمبانى الحكومية ، ومحطات الإذاعة ، ومراكز الإتصالات الهاتفية . وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، تم إعلان مصر بأن الثورة قد تمت بنجاح . وقد قرأ أنور السادات الذى أختير بسبب جودة صوته بيان الضباط الأحرار : « يا شعب مصر ، لقد عاشت مصر فترة من أحلك فترات التاريخ . لقد تلوث الجيش بعملاء الإحتلال وكان ذلك أحد أسباب هزيمتنا فى فلسطين . إذ تحت قيادة الحمقى والخونة وغير الأكفاء كان الجيش عاجزاً عن حماية مصر ، ولهذا السبب قمنا بعملية تطهير بين صفوفه . إن الجيش الآن فى أيدى رجال يمكنكم أن تثقوا ثقة كاملة فى قدرتهم ونزاهتهم ووطنيتهم »* . ودون أن تعرف مصر أى شىء عن أهداف ونوايا نظام الحكم الجديد ، عمت القاهرة موجة من الفرحة والغبطة . وكان من الطبيعى أن تتم الإطاحة بساسة النظام القديم . وكانت البداية بالملك . وفى صباح السادس والعشرين من يولية أعطى نظام الحكم العسكرى إنذاراً إلى

* أورده هيو ماكليف فى « الفرعون الأخير : فاروق ملك مصر » (نيويورك ١٩٦٩) ص ٢١ .

فاروق طالباً تخليه عن العرش . وفى الساعة السادسة من ذلك المساء إعتلى فاروق وزوجته الملكة إبنه الطفل ومائتان من الصناديق التى تحوى الغالى والثمين من متعلقات ملكه متن « المحروسة » فى الإسكندرية . وبذلك إنتهى عهد الأسرة المالكة التى أسسها محمد على الألبانى والتى إستمر حكمها لمدة مائة وخمسين عاما . ولأول مرة فيما يقرب من ألفين وخمسمائة عام حكم المصريون أرض النيل . إذ على مدى حكم فارس القديمة ، واليونان ، وروما ، والإمبراطورية البيزنطية ، وبعد ذلك العرب والمماليك ، والأتراك ، والفرنسيين والبريطانيين كان الأجانب يحكمون مصر ، ونتيجة لخضوع المصرى العادى لسوط شخص آخر لقرون عديدة ، أصبح متقبلاً لأن تكون يد القدر قد حكمت عليه للأبد بالخضوع لأى أجنبى يحكم بلده . والآن ذهب فاروق المكروه والمنحل هو وكل آثار النظام القديم .

ومنذ أن قام الجيش بثورته ضد الحكومة ، كان جمال عبد الناصر هو القوة المحركة للسياسة المصرية . وأصبح الضباط الأحرار الذين قاموا بالتخطيط بقيادة عبد الناصر يشكلون « مجلس قيادة الثورة » وهو مجلس أقلية كان يهيمن عليه عبد الناصر . وكانت مهمة هذا المجلس هى رسم مسار الثورة ـ ثورة عبد الناصر . وفى الفترة من عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٥٤ قام عبد الناصر بتدعيم سلطته خطوة خطوة . فالجيش ، الذى كان قد تم تطهيره من النظام القديم فى خلال ثمانية وأربعين ساعة من الثورة ، تم تطهيره مرة أخرى بعد ستة شهور من أولئك الذين قد يناقشون توجيهات ناصر ، وفى أبريل عام ١٩٥٤ ، فرضت الإقامة الجبرية على الفريق أول محمد نجيب الذى كان يتمتع بالإحترام وأكبر الضباط الأحرار سناً والذى إختاره المجلس لمنصب رئيس الوزراء .

وبعد تولى عبد الناصر رئاسة الوزارة ، تم إلغاء الأحزاب السياسية ووضع الزعماء السياسيون فى السجن ، وأغلقت الصحف الحرة ، وفرضت القيود على النقابات المهنية وإتحادات العمال ومنظمات الطلبة أو حُد من نشاطها . ومع حلول عام ١٩٥٦ ، حمل عبد الناصر لقب الرئيس ، والقائد الأوحد ، وزعيم مصر .

وقد ولد جمال عبد الناصر فى الإسكندرية فى الخامس عشر من يناير عام ١٩١٨ . وكانت وفاة والدته وهو وفى الثامنة من عمره بداية لطفولة مضطربة حيث تعرض ناصر الصغير للتنقل بين أقاربه ، ومنزل والده وعدد من المدارس الداخلية . وفى مدرسة « النهضة » ، وهى مدرسة عرفت بأنها أرض خصبة لنمو الوطنية المصرية ، بدأت تظهر إهتمامات عبد الناصر السياسية . ففى المدرسة كان أحد مدرسيه يقوم بتمجيد الأبطال المسلمين . وكان آخر يُعلى من شأن الأيديولوجية الفرعونية وما تقوم عليه من فكرة البعث المصرى تحت قيادة زعيم معبود ذى شخصية جذابة . ومع بلوغه سن السابعة عشرة ، إستحوذت على عبد الناصر تماماً فكرة البطل فى تاريخ مصر البالغ خمسة آلاف سنة . وفى خطاباته لأصدقائه ، كان عبد الناصر يعبر عن عاطفته المتوهجة . « إن مصر . . فى حالة من اليأس الكامل . من الذى يستطيع إزالة هذا الشعور ؟ . . أين الرجل الذى يستطيع إعادة بناء البلاد حتى يتمكن الشعب المصرى المهان والضعيف من النهوض مرة أخرى وأن يعيش أبناءه كرجال أحرار ، مستقلين ؟ ؟ »* وقد كانت هذه الرؤية لمصر متحررة من السيطرة الأجنبية

* أورده أنتونى ناتنج فى « ناصر » ، (نيويورك ١٩٧٢) ص ٧ .

هى التى دفعت عبد الناصر لدخول الكلية الحربية ثم إلى العمل السياسى السرى وفى النهاية إلى الثورة . وكانت صورة مصر ـ فخورة ، وقوية ، ومحترمة ـ هى التى دفعته إلى زعامة العالم العربى .

ومنذ البداية وعد ناصر المصريين بالعزة والكرامة . وبقيت الكرامة محور إهتمام وطنية عبد الناصر . وفى خطاب له فى الثالث من مارس عام ١٩٥٥ تحدث عبد الناصر قائلاً : « إننا شعب لا ينسى أبداً الإساءة ، ولكن الإساءة إلينا تزيد من عزمنا ومن صلابتنا »* . وفى كل خطاب أو حديث له تقريبا على مدى الثمانية عشر عاماً من حكمه ، كان عبد الناصر يركز فى حديثه إلى مستمعيه على أن الكرامة تتطلب الإستقلال وأن الإستقلال يتطلب القضاء الكامل والنهائى على كل إحتلال وتدخل أجنبى فى شئون العرب . ووفقاً للعام الذى يتحدث فيه كان المجرم الأساسى الذى يقف فى طريق الإستقلال العربى إما بريطانيا ، أو الولايات المتحدة أو إسرائيل .

ومن المفارقات فى شخصية عبد الناصر أنه كان حتى خريف عام ١٩٥٤ رجلا منطويا خجولا يقرأ خطبا جافة لمستمعين متململين . وفى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٤ ، بينما كان يلقى خطاباً أمام عشرة آلاف من العمال الذين تجمعوا فى أحد ميادين الإسكندرية ، رفع أحد أعضاء الإخوان المسلمين ، وإسمه محمد عبد اللطيف بندقية وأطلق ست رصاصات تجاه عبد الناصر مباشرة . وعلى نحو ما أخطأته جميع الطلقات . وفجأة تحول عبد الناصر الذى كان لا يزال يقف فى مكانه على المنصة إلى خطيب حيث هتف : « أيها الرجال ، ليبقى كل رجل فى مكانه . . . إن حياتى ملك لكم ، ودمى فداء لمصر . إننى أتحدث إليكم بعون الله بعد أن حاول الأثم قتلى . إن حياة جمال عبد الناصر ملك لكم ، لقد عشت من أجلكم وسوف أستمر كذلك إلى أن أموت مناضلاً من أجلكم »* .

وقد كانت محاولة إغتيال عبد الناصر نتيجة لما قام به من الإنقضاض على الجماعات السياسية المعارضة التى أجبرت الإخوان المسلمين على العمل السرى . وقد أعطت هذه الحادثة عبد الناصر المبرر لسحق الإخوان المسلمين الذين كانوا يمثلون الخطر الوحيد الباقى الذى يمكن أن يهدد سلطته . وبقيام ناصر بإصدار أوامره بالإعدام شنقاً لستة من الإخوان المسلمين وإعتقال عدة مئات منهم ، قمع بدرجة مؤثرة جماعة الإخوان المسلمين كقوة سياسية فى مصر . وبالتدريج تحول عبد الناصر إلى محدث ذى تأثير مغناطيسى يجمع فى حديثه بين اللغة العربية الفصحى ولغة رجل الشارع والفلاح فى الحقل بالإضافة إلى الأسرار الخفية التى يحكيها أب لأسرته . ونتيجة لذلك أصبح عبد الناصر الأستاذ المتمكن فى فن الحديث الملقى وأكثر المتحدثين العرب لباقة فى العصر الحديث . وفى ثقافة تعد اللغة فيها سحراً ، كان صوته هو مصدر قوته وتأثيره . وكان الجرس والنغمة ، والصورة تسحر الناس وتشدهم إليه . ولكن عبد الناصر لم يكن يقدم أسلوباً فقط وإنما أيضاً رسالة .

* نفس المصدر السابق .

* أورده فاتيكيوتيس فى « ناصر » ، ص ١٤٤ .

لقد كان عبد الناصر رجلاً وطنياً وفقاً للصورة التى كانت سائدة فى الخمسينيات ، عندما كان نهرو ، ونكروما وسوكارنو يندددون بالإستعمار الغربى . وكوطنى مصرى ، ذهب عبد الناصر إلى مؤتمر دول عدم الإنحياز الذى إنعقد فى مدينة باندونج فى غرب جزيرة جاوة الناعسة فى أبريل عام ١٩٥٥ . وإحتفاء من زعيم الهند جواهر لال نهرو وزعيم الصين شوين لاى تصدر عبد الناصر منصة المؤتمر . وعندما تحدث ، لم يكن يتحدث فقط باسم العرب وإنما بإسم ١ر٤ بليون من المحرومين فى العالم . وعندما قال « هناك تشابه كبير جداً بين الظروف السائدة فى دولنا ، إنه تشابه يعمل كقوة موحدة ، لقد خرجنا لتونا من فترة طويلة من النفوذ الأجنبى ، من الناحية السياسية وأيضاً من الناحية الإقتصادية »* ، كان عبد الناصر يطلق دعوة واضحة ضد الغرب تردد صداها عبر معظم دول العالم الثالث ، ففى أندونيسيا البعيدة ، أعاد عبد الناصر مصر إلى مكانة بارزة على المصرح العالمى وأعطى لشعبها الكرامة التى إشتاق إليها طويلاً . ونتيجة لذلك ، عاد عبد الناصر إلى الوطن بطلاً فى عيون شعبه ـ الفرعون الجديد .

وأصبح عبد الناصر بعد ذلك المعبود الذى تتعبد فى محرابه « ملايين من البشر » دون تفكير أو تعقل . وبدون صوت مستقل ينبعث من بين صفوفهم أصبحوا مجرد جموع من الأذرع الملوحة والأيدى المصفقة والأفواه المهللة . إنه الزعيم من موقعه المهيمن يعلو فوقهم من منصته ، يتحدث وحده لساعات طويلة ولا تقاطعه سوى الهتافات الهستيرية : « ناصر ، ناصر ، ناصر »* وكان الحب الجارف يبلغ ذروته عندما كان عبد الناصر يمر عبر الشوارع فى عربته الكاديلاك المكشوفة ذات اللون الأحمر ، ويقتحم رجال من الفلاحين بجلابيبهم الواسعة صفوف رجال الشرطة بشكل هستيرى لتسلق السيارة ومعانقة « الريس » . ومن هذا الحب الجارف الصادر عن العامة تجمعت حول ناصر حالة من عبادة الشخصية ، وغذتها أبواق الدعاية الخاصة به . وفى ذروة ذلك ، كانت تعلق ألواح من الخشب على أعمدة النور بإرتفاع عشرين قدماً فى شوارع القاهرة مرسوم عليها عبد الناصر الوسيم ، الجرىء ، وهو يلوح بيديه لشعبه الذى يعبده ، وتعلو خاصرته راية كُتِبَ عليها « لقد أرسله الله عوناً لبلدنا » .

وفى دوره الجديد ، تملكت عبد الناصر شهوة للأسلحة ، الأسلحة التى كان يحتاجها ليستبدل بها ترسانة الأسلحة القديمة من أجل الوقوف فى وجه إسرائيل . وقد زاد إهتمام عبد الناصر بالأسلحة بسبب الأحداث التى وقعت فى منطقة غزة المصرية التى غزتها إسرائيل وإحتلتها فى فبراير ١٩٥٥ . وكانت المصادر الغربية للأسلحة قد أغلقت فى عام ١٩٥٠ بموجب الإتفاق الثلاثى بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، فقد إتفقت الدول الثلاث ، فى محاولتها الحد من خطر الحرب فى الشرق الأوسط على تحديد مبيعات الأسلحة إلى كل من إسرائيل والدول العربية . ولكن فى منتصف الخمسينيات كان الإتفاق الثلاثى يستخدم كمانع ملائم لمبيعات الأسلحة لناصر وما إعتبره الغرب عداءه الشديد لكل ما هو غربى . وفى أكتوبر عام ١٩٥٥ ، هز عبد الناصر الغرب

* خطب هامة ، ١ يونيو ١٩٥٥ ، ص ١٢٥٦ .

* توفيق الحكيم ، أورده فاتيكيوتيس فى « ناصر » ، ص ٢٩١

بإعلانه أن مصر سوف تشترى أسلحة من تشيكوسلوفاكيا وهى أكبر دولة تصنع الأسلحة فى الكتلة السوفيتية فى أوروبا الشرقية . وأثارت هذه الصفقة أجواء العالم العربى . ذلك أن عبد الناصر بتحديه المفهوم الكامل بأن العرب جزء تابع للنظام الغربى ، قد أطلق الثورة العربية الثانية . غير أنه بالنسبة لمعظم أنظمة الحكم فى العالم العربى ، لم يكن عبد الناصر مقبولاً كزعيم أكثر مما كان الشريف حسين فى الثورة الأولى ، فقد كان عبد الناصر رجلاً ثورياً ، مكروهاً من أنظمة الحكم الملكية فى الأردن ، والعراق والمملكة العربية السعودية . وكان معادياً للغرب ، ومزعجاً للحكومة المسيحية فى لبنان ، الموالية للغرب . وبالنسبة لسوريا ، كانت زيادة قوة عبد الناصر فى القاهرة تعنى تقلص نفوذ دمشق . ولكن جاذبية ناصر بالنسبة لجماهير العالم العربى أدت بشكل مؤثر إلى تحييد المعارضة له على القمة . وبين عشية وضحاها أصبح عبد الناصر زعيم الشارع العربى بسبب تحديه للغرب .

وفى أوائل عام ١٩٥٦ ، رست قافلة من السفن التى تحمل الأسلحة من الإتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية على شاطىء الاسكندرية . ومعها جاء مخطط إستراتيجي كامل جديد للشرق الأوسط . فباتجاه عبد الناصر نحو السوفييت طلباً للأسلحة ، قذف بالروس داخل مصر والشرق الأوسط ، داخل إطار الحرب الباردة .

وإذا كانت الوطنية المصرية قد دفعت بمصر إلى داخل الحرب الباردة ، فإن عبد الناصر السياسى الموهوب قد عمل على إستغلالها أفضل استغلال ، ففى ذروة المناورات السياسية أثناء الحرب الباردة فى فترة الخمسينيات كانت الولايات المتحدة تغدق علي أوروبا وآسيا وأفريقيا مساعداتها الإقتصادية من أجل إغلاق الطريق أمام السوفيت فى أى تحرك لهم . وأحس عبد الناصر بذلك وقرر أن يحذو حذو نهرو زعيم الهند وتيتو زعيم يوغوسلافيا بأن يضرب الولايات المتحدة بالإتحاد السوفيتى . وكان عبد الناصر يحلم بالحصول على الطاقة الكهربائية ومياه الرى من بناء سد على النيل عند أسوان ، وإستطاع أن ينتزع سبعين مليون دولار منحة من ميزانية المساعدات الخارجية الأمريكية . ولأنه كان مفاوضا ذكياً ، فقد أجل بمهارة قبوله للمنحة مشيراً إلى أن الإتحاد السوفيتى مستعد لان يدفع أكثر ، وفى مارس عام ١٩٥٦ صعّد من المخاطر بإعترافه بالصين الشعبية . وقام جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية بالرجوع عن إتفاق المساعدات . وكان رد عبد الناصر على ذلك هو تأميم قناة السويس ، أحد شرايين الملاحة الهامة التى تمد أوروبا ببترول الشرق الأوسط . وبأخذه القناة ، راح عبد الناصر يضرب بقوة على وتر الكرامة المصرية ، حيث قال : « فى هذه اللحظة ، يقوم بعض من إخوتكم أبناء مصر بإدارة شركة قناة السويس وتولى شئونها »* .

وبينما كان عبد الناصر يأخذ وضعه والبريطانيين والفرنسيين يهددون بقطع يد عبد الناصر التى تأخذ بخناق أوروبا ، كان جون فوستر دالاس يحاول نزع فتيل الأزمة التى كان التناقض الأمريكى سبباً فيها بدرجة ما . ولكن فى أكتوبر ١٩٥٦ تلاقت مصالح بريطانيا وفرنسا فى حماية قناة السويس

* أورده روبرت ستيفنز فى « ناصر : سيرة ذاتية سياسية » (لندن ، ١٩٧١) ص ١٩٧

مع مصالح إسرائيل فى الإستيلاء على شبه جزيرة سيناء . وانضم الصهاينة المغتصبون إلى الإستعماريين الغربيين فى حرب قُصِدَ بها الإطاحة بجمال عبد الناصر .

وفى التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦ ، تم إنزال جنود المظلات الإسرائيليين فى صحراء سيناء قرب « ممر متلا » الذى يبعد ثلاثين ميلاً فقط عن قناة السويس . ومع وصولهم للأرض ، إندفعت أرتال محمولة من الجيش الإسرائيلى نحو جنوب سيناء . وأصدرت بريطانيا إعلانها - بأن بريطانيا وفرنسا سوف تغزوان السويس من أجل حماية القناة . ومع صيحات العالم بأن هناك مؤامرة ، أنكر أنتونى إيدن بوجه مكفهر أن تكون العمليات البريطانية والعمليات الإسرائيلية أكثر من مجرد سعى كل منهما لتحقيق مصالحها الخاصة .

وبعد ذلك بيومين ، قامت الطائرات المقاتلة النفاثة البريطانية والفرنسية بضرب المطارات المصرية ومعسكرات الجيش وقطع خط السكة الحديد الرئيسى من الخرطوم إلى القاهرة . وبعد ثلاثة أيام أخرى قامت القوات البريطانية والفرنسية بالهجوم من البحر على بورسعيد بينما قام الإسرائيليون بهجوم شامل بطول جبهتهم فى سيناء .

وقد تسببت القوات الجوية لإسرائيل وحلفائها الغربيين فى إلحاق الدمار الكامل ببورسعيد ، وضرب القوات الجوية المصرية على الأرض ، والقضاء تماماً على ربع جيش عبد الناصر . وبينما كانت مصر على وشك الهزيمة كان زعماء معظم الدول العربية يقفون كمتفرجين ، راضين عن أن ناصر سوف يتم القضاء عليه قبل أن تهدد شعبيته الكبيرة أنظمة حكمهم . ولم يكن فى مقدور عبد الناصر أن يرد على الهجوم الذى شنته قوى أكبر من قوته بكثير سوى بتدمير سفنه لتسد تماما قناة السويس .

غير أن المعركة الحاسمة فى حرب عام ١٩٥٦ لم تتم فى منطقة القناة وإنما فى الأمم المتحدة . فقد قام دوايت إيزنهاور ، الذى إستشاط غضباً نتيجة لتصرفات حلفاء الولايات المتحدة التى إعتبرها مدخلاً لجر الإتحاد السوفيتى إلى منطقة الشرق الأوسط ، بإلقاء ثقل أمريكا وراء عدة قرارات من الأمم المتحدة تهدف إلى إزاحة إسرائيل وحلفائها الغربيين عن مصر . وقام علنا بتوبيخ بريطانيا وفرنسا ، وفى السر قام بإخبار إسرائيل بأنها ستكون وحدها إذا قامت بضم سيناء . ومع توتر العلاقات فى الحلف الغربى ووصولها إلى نقطة خطيرة ، قام أنتونى إيدن العجوز المنهك بإقناع رئيس فرنسا بالموافقة على وقف إطلاق النار بشكل فورى ، وذلك فى الخامس من نوفمبر . وقاومت إسرائيل . وفى السادس من نوفمبر أعلن ديفيد بن جوريون من فوق منصة الكنيسيت كما لو كان نبياً : وتحققت كلمات النبى « أشعيا » (فى ذلك اليوم سوف يصبح المصريون مثل النساء ، وسوف يرتجفون من الخوف بسبب إهتزاز يد رب الجيوش فوقهم . لقد أصبحت سيناء ملكاً لإسرائيل . ولن يستطيع أحد إجبارها على الجلاء) . غير أنه بعد يومين ، وقف بن جوريون على منصة الكنيسيت مرة ثانية ليعلن الإنسحاب الإسرائيلى من سيناء بمجرد أن تأخذ قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة مواقعها .

لقد قامرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على هزيمة سريعة لعبد الناصر ، ولكنها فشلت . وقد كسبت معركة السويس ، ولكنها خسرت الحرب من أجل السيطرة على وطنية ناصر المتقدة . فقد

أجبر إستياء أمريكا ، والتهديد بالتدخل السوفيتى ، والإستياء المعنوى لغالبية العالم الحر ، الدول الثلاث على الإنسحاب دون أن تحقق أهدافها . ولكن خسارتها الحقيقية كانت على الصعيد النفسى . فقد أكد التواطؤ بين إسرائيل وبريطانيا وفرنسا فى عام ١٩٥٦ إيمان العرب الراسخ بأن إسرائيل كانت - كما كانوا يعتقدون دائما - خادمة للإستعمار ، وعازمة على إبقاء العالم العربى رهينة للمصالح الغربية . وكانت أقوال جمال عبد الناصر صادقة . وإكتسبت الحقيقة التى كان يؤكد عليها - بأن إزالة الإستعمار يتطلب تدمير أو القضاء على إسرائيل - مزيداً من الحماس . وبدلاً من الإطاحة بعبد الناصر أعطت الدول الثلاث المتواطئة فى حرب السويس شهادة ميلاد « للناصرية » ، وهى مزيج من القومية العربية ، والعداء للإستعمار ، والمبادىء الإشتراكية ، وعبادة الشخصية التى أحاطت بجمال عبد الناصر . ومع إنسحاب القوات الأجنبية من مصر وقف جمال عبد الناصر أمام الجامع الأزهر بالقاهرة ليستقبل هتاف وإعجاب مئات الآلاف من أتباعه الذين تملكهم الجنون . وفيما وراء القاهرة ومصر ، إتجه العرب بعيونهم وقلوبهم إلى عبد الناصر باعتباره الزعيم الذى طال إنتظارهم له والقادر على طرد الغرب .

وفى غضون أربع سنوات ، بزغ نجم جمال عبد الناصر من مقدم غير معروف فى الجيش المصرى ليصبح الزعيم الذى لا ينازع للعالم العربى . لقد بدأ طريقه السياسى كمعارض لنظام ملكى فاسد وضعيف ، ثم ظهر كمدافع عن المصالح المصرية ، ثم وطد قدميه كزعيم لحركة عدم الانحياز ، ثم أصبح الآن على وشك الدخول فى حقبة جديدة سوف يصبح فيها الزعيم المعبود لحركة عربية شاملة تمتد من شمال افريقيا الى حدود ايران . انها حقبة سوف تحدد فيها أمانيه وأولوياته خطط حلفائه وأعدائه على السواء . ذلك أنه فى الفترة بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ لم يحدث شىء فى الشرق الأوسط لم يكن لعبد الناصر دور فيه .

وفى اليوم التالى للانسحاب النهائى لقوات الحملة الانجليزية - الفرنسية ، كشف عبد الناصر فى خطاب له فى بورسعيد عن برنامجه للعمل العربى أمام قاعدة أعرض جديدة من العرب بأسلوب بارع انصهرت فيه العروبة مع الاسلام . وقبل مجىء عبد الناصر كان مبدأ الأمة العربية الواحدة هو عالم المثقفين والصفوة . ومع تحقيق النصر فى حرب السويس ، أخذ ناصر النظرية والانجذاب العاطفى لها من العالم العربى وأعطاها للجماهير . ومن خلال خطبه القوية كان ينقل الى الفلاح ، والعامل ، ومن لا يجد عملا فى العالم العربى الاحساس المثير بالتحول ، والتطلع لغد أفضل . وبهذا الذى كان يقوم به ، أعطى ناصر لحركة القومية العربية وضعها تحت الشمس . وفى المقابل ، ساعد العرب فى خلق أسطورة عبد الناصر .

ومن سخرية القدر أن الناصرية ظهرت الى الوجود بطريق الصدفة المحضة تقريبا وذلك كنتيجة لنجاح عبد الناصر فى تحركاته وسياساته التى قام بها باسم المصالح الوطنية الخاصة بمصر . وعلى الرغم من أن العرب عبر الشرق الأوسط كله احتشدوا من خلفه وأنه حقق أعظم أمجاده كزعيم عربى ، فقد ظل عبد الناصر مصريا يقرن سعيه لتحقيق المصالح الوطنية لمصر باهتماماته بالأمة العربية ككل ، غير أنه مع صعود عبد الناصر الى أعلى مكانة كزعيم العالم العربى ذى الشخصية الآسرة ، فانه تسبب فى اثارة شكوك المصريين وايمانهم بشخصيتهم الوطنية الخاصة ، لقد كانت مصر أقل الدول العربية عروبة ، ولكن تحديا للتاريخ والفردية كان عبد الناصر يطلب من المصريين

أن يندمجوا بالكامل داخل الأمة العربية الأكبر وان يضحوا باحساس مصر المنفردة بنفسها قربانا من أجل شخصية عربية أوسع وأكثر شمولا . وباعلان عبد الناصر : « ان العروبة وليس الفرعونية هى أيديولوجيتنا السياسية »* ، نبذ وراءه مدرسة كاملة من الفكر الوطنى المصرى .

وفى عام ١٩٥٨ ، اندفع عبد الناصر بحماس نحو تحقيق أوج قوته عن طريق اثارة القومية العربية بصورة لم تعهد فى أى زعيم عربى من قبل . وقد قام بذلك عن طريق سيطرته على سلاحين هامين . هما جهاز دعاية محكم ، وشبكة مخابرات رهيبة . وعمل أحد السلاحين على السيطرة على الشارع العربى ، والأخر على الحكومات أو جهاز الدولة فى البلدان العربية . وعبر الشرق الأوسط ، كانت أجهزة الراديو الرخيصة التى وفرتها الثورة التكنولوجية فى أيدى الجماهير العريضة من الشعب تذيع كلمات عبد الناصر من خلال الاذاعة المصرية . وكانت اذاعة « صوت العرب » تغطى المنطقة من المغرب العربى حتى ايران ومن قبرص حتى موزمبيق ، المستعمرة البرتغالية وكانت تذيع على أربع موجات الأغانى العربية المليئة بالحماس للقضية العربية والتعليقات النارية التى تتدفق بأسلوب يستحوذ على العواطف . وتضافرت الكلمات والموسيقى معا لتثير فى نفوس العرب كل كراهيتهم واستيائهم من القوى الاستعمارية القديمة . واستولى عبد الناصر بتحديه أو على الأقل بتأكيده لمكانته بين « الفرنجة » على أعمق مشاعر الجماهير العربية . ولعب على نغمة الشعور بالاضطهاد لدى العرب بكشفه عن صورة الحروب الصليبية باعتبارها بداية عصور الظلام بالنسبة للعرب ، وصور الولايات المتحدة واسرائيل على أنهما الخليفة الجديد للصليبيين ، وكان عبد الناصر يدعو الى التمرد والثورة والعصيان ، والى كراهية المستعمرين . وكان يعد باستعادة شرف العرب ، الشرف الذى دمره الغرب وعميلته اسرائيل . وكان يؤكد على أنه من خلال الوحدة العربية سوف يتبوأ العرب مرة أخرى مكانتهم العظيمة بين العالم . « اتبعونى ، اتبعونى ! » وقد اتبعوه . ومن القرى الساحلية فى اليمن الى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الى قاعات الجامعة الأمريكية ببيروت ذات القدسية الخاصة ، كانت صورة عبد الناصر المفعم بالحياة والنشاط تملأ الحوائط وترفع فى المظاهرات الصاخبة فى الشوارع .

وما أن سيطر عبد الناصر تماما على رجل الشارع حتى انتقل الى السيطرة على الحكومات العربية وفى الفترة بين عام ١٩٥٩ ومنتصف عام ١٩٦١ لم تفلت دولة عربية من اهتمام عبد الناصر أو تدخله . وخيم ظله على كل نظام حاكم ٨ وعاش أولئك الذين رفضوا إتباع عبد الناصر وبرنامجه السياسى فى رعب من ثورة الشارع عليهم وكان عبد الناصر يعكس فى خطاباته هجومه ضد أنظمة الحكم الهاشمية فى العراق والأردن* بل إن حزب البعث حامل شعلة القومية العربية ، إتخذ ناصر بطلا له . وأصبح جمال عبد الناصر أكبر من الحياة ذاتها بالنسبة لكل من العرب والغرب .

* أورده فاتيكيوتيس فى ناصر » ، ص ٢٣٥ .

* كان عرشا العراق والأردن لازالا تحتلهما سلالة شريف مكة التى نصبته بريطانيا فى نهاية الحرب العالمية الأولى . وكان النظامان الملكيان ينظران الى الغرب للحصول على مساعدته لاستمرار بقائهما فى الحكم .

وفى أوائل عام ١٩٥٥ ، حاولت الولايات المتحدة التى أزعجها ازدياد نفوذ عبد الناصر أن تحتوى مصر داخل حلف بغداد الذى كانت تتبناه بريطانيا ، وهو اتفاق أمن اقليمى ، اتخذ النظام الهاشمى فى العراق الموالى للغرب مركزا له . وراح ناصر يندد بالاستعمار ، وكان له عذره فى ذلك . الا أن معارضة عبد الناصر لحلف غربى مع دولة عربية ، كانت تعنى أيضا استنكاره لمحاولة الغرب خلق منافس لزعامته للعالم العربى . وفى الأول من فبراير ١٩٥٨ ، فاجأت مصر والنظام البعثى فى سوريا الغرب وأنظمة الحكم غير المستقرة والمعادية لعبد الناصر ، باعلان الوحدة بين مصر وسوريا لتصبحا الجمهورية العربية المتحدة*.

وثار الناصريون من عمان الى عدن من أجل وحدة بلادهم مع مصر بقيادة عبد الناصر . وخلال شهر مايو ، عمت الاضرابات والاحتجاجات لبنان ضد سياسات الرئيس المسيحى كميل شمعون الموالية للغرب بينما انضمت وفود من العراق والأردن الى المسلمين فى لبنان فى التردد على القاهرة لمقابلة عبد الناصر المهيب . وفى يولية أثمرت كراهية عبد الناصر لملك العراق الموالى للغرب ، ففى الساعات الأولى من يوم الرابع عشر من يولية اكتسحت فرقتان من الجيش العراقى بغداد وحاصرت القصر الملكى . وقتل الملك فيصل ملك العراق البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما ، أثناء عملية الاستسلام*

وقد كانت هذه لحظة من لحظات النصر الكبيرة لعبد الناصر . فقد تم القضاء على أكثر منافسيه العرب قوة ، وانضمت العراق التى كانت فى يوم من الأيام ركيزة النفوذ الغربى فى العالم العربى ، الى الدول العربية المحايدة . وفى دمشق أعلن عبد الناصر فى خطاب له : « أخيرا تحررت القومية العربية من قيودها . . . وأصبحت الشعوب العربية واثقة فى نفسها ومطمئنة فى وطنها . . . ولسوف يرفرف علم الحرية أيضا فوق عمان وبيروت »** . ولكن فى اليوم التالى اقتحم خمسة آلاف من مشاة البحرية الأمريكية شواطىء بيروت . ومن وسط سفن المتعة والترفيه ومقاهى الشواطىء ، أعلنت الولايات المتحدة بيانها ـ ان ناصر لن يطيح بحكومة لبنان الموالية للغرب .

وفى صيف عام ١٩٥٨ بدت القومية العربية ذات الصبغة المصرية لعبد الناصر على وشك تحقيق نصر عظيم . ولكن فى سبتمبر ١٩٦١ بدأت الأمور فى التفكك . فقد انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة لعجزها عن تقبل حب السلطة الذى تملك عبد الناصر . وفى العام التالى أدخل عبد الناصر جيشه ومكانته فى حرب قبلية حول صراع ايديولوجى فى اليمن . وكانت اليمن تقع على طرف شبه الجزيرة العربية تمثل الدرك الأسفل من العالم العربى . فقد كانت متخلفة ، ومنقسمة بين السهل الساحلى الجنوبى والجبال الشمالية . ولم يكن النزاع الداخلى بين الجنوبيين سكان السهل الذين تأثروا بالحضارة الحديثة ودولة الامام فى الشمال المتخلفة ، يعنى

* انظر الفصل العاشر .

* أنظر الفصل الحادى عشر .

** ستيفز ، « ناصر » ، ص ٢٩٠ .

الكثير خارج نطاق السياسة الناصرية . وكانت هذه الحرب الأهلية فى اليمن البعيدة ، التى اعتبرها عبد الناصر صراعا بين القومية العربية الثورية ونظام حكم رجعى تؤيده المملكة العربية السعودية ، تتيح لعبد الناصر الأمل فى استعادة المكانة التى ضاعت مع تفكك الجمهورية العربية المتحدة ، ولكن بدلا من ذلك اغرقته فى مستنقع كبير . وكان من نتيجة ذلك أن بدأ وضع عبد الناصر فى الانحدار مع حلول عام ١٩٦٦ بسبب الهجوم الذى يواجهه من أولئك الذين ارهقهم تدخله فى شئون دول عربية ذات سيادة وانتقاد تجمع جديد من الأنظمة العربية المحافظة بقيادة المملكة العربية السعودية ، وفى عام ١٩٦٧ ، سقط عبد الناصر من عل خلال ستة أيام من الحرب مع اسرائيل ،

وكانت سياسة عبد الناصر تجاه اسرائيل مرتبطة دائما بشكل أساسى بسعيه من أجل تحقيق مصالح مصر . وقد شكل هذا السياق أحد اعتراضاته الأساسية على اسرائيل . فقد قامت الدولة اليهودية كحاجز جغرافى بين مصر والأرض الداخلية لبلاد العرب ، يحرم مصر من طريق برى يربط بينها وبين سوريا . وبخلاف ذلك فانه حتى عام ١٩٥٤ كانت اسرائيل بالنسبة لناصر تمثل احد توابع الخطر الحقيقى على العرب وهو الاستعمار الغربى . ولكن ما أن التزم عبد الناصر بتحقيق الوحدة العربية تحت قيادة مصر حتى وجد نفسه مضطرا الى ابراز فكرة الكفاح «العربى المستمر ضد اسرائيل» . وفى هذا الوقت فقط تحولت الصهيونية الى قاعدة أمامية للاستعمار والتهديد القاتل للأمة العربية والدخيل الغريب الذى ينبغى ازالته من قلب الأرض العربية .

وبدءا من عام ١٩٥٦ أصبحت خطب عبد الناصر تركز على تواطؤ الاستعمار الغربى مع الصهيونية . فبريطانيا ، بتسليمها للصهاينة ، سلمت فلسطين للصهيونية . والولايات المتحدة سلمت وساعدت اسرائيل وبذلك مكنت «اليهودية العالمية والصهيونية من غزو جزء حبيب من أرض العرب حتى تصبح رأس حربة للاستعمار داخل الأمة العربية ومصدرا للخطر والخوف»* . وبوضع قوات الطوارىء الدولية على الحدود بين مصر واسرائيل فى نهاية حرب السويس أعطى ذلك لعبد الناصر فرصة عشر سنوات من النضال دون التعرض لخطر صدام عسكرى آخر . ولكن عبد الناصر لم يستطع تحمل «حالة اللا حرب واللاسلام» للأبد .

وباشتباكها فى حرب ارادات منذ أزمة السويس فى عام ١٩٥٦ ، وجدت اسرائيل نفسها هى وجيرانها من الدول العربية متجهة نحو الحرب . وفى هذا الوقت كان العرب منقادين للبعثيين أكثر من انقيادهم لمصر . وفى عام ١٩٦٣ ، تولى البعث ، الذى يمثل الأيديولوجية الداعية لوحدة الأمة العربية والتى كان يروج لها ميشيل عفلق ، السلطة فى سوريا ، ومع حلول عام ١٩٦٦ ، كان نظام الحكم المتحمس وغير المفهوم فى دمشق يتهم عبد الناصر بأنه أصبح متساهلا بالنسبة لموضوع اسرائيل . ولأن الحكومة السورية كانت تنوى الاندفاع فى حرب مع اسرائيل مهما كلفها ذلك ، قامت أو سهلت القيام بهجمات للفدائيين على الدولة اليهودية عبر حدودها . ولخوف عبد الناصر من ثمن الحرب ، حاول أن يحد من اندفاع المسئولين المتهورين فى دمشق ولكنه فشل . وعندما هددت اسرائيل سوريا بالانتقام ، وجد عبد الناصر نفسه مضطرا إما للوقوف الى جانب سوريا أو تعرض وضعه المهتز للانهيار .

* فاتيكيوتيس ، «ناصر» ص ٢٥٢ .

ولما شعر اعداء عبد الناصر بضعفه راحوا يغرسون إبرهم فى الجلد الرقيق للرجل القوى الذى طالما هاجمهم . وارتفع صوت إذاعة المملكة العربية السعودية قائلاً : «إن من يتصور أن مصر سوف تشن اى نوع من المعارك ضد إسرائيل . دفاعاً عن سوريا أو أية دولة أخرى سوف ينتظر طويلا»* وسخر الملك حسين ملك الأردن من إزدواجية عبد الناصر الذى يرتدى عباءة بطل العرب بينما يسمح للسفن الإسرائيلية بالمرور فى المياه المصرية لتصل إلى مينائها الجنوبى فى إيلات . ووجد عبد الناصر نفسه مضطراً لإتخاذ قرار إما بدخول الحلبة أو فقدان لقبه . ولما كان إحساسه العظيم بنفسه يمنعه من الإنسحاب ، قرر عبد الناصر المضى قدماً .

ومع حلول ربيع عام ١٩٦٧ ، دفعت خطب عبد الناصر النارية ، وهجمات جماعات الفدائيين من سوريا ضد المستوطنات فى شمال إسرائيل ، وتهديدات إسرائيل القوية بالإنتقام - دفعت عبد الناصر والعرب للدخول فى سلسلة من الأحداث أدت إلى الحرب بدرجة أسرع مما كان يتوقع السوريون أنفسهم ، وفى يونية قام عبد الناصر المختال بنفسه بإرسال مزيد من القوات إلى غزة ، وأطقم مدفعية مدربة لتعتلى مرتفعات شرم الشيخ التى تطل على مضيق تيران الضيق ، ثم أعلن فى تباه إغلاق خليج العقبة فى وجه السفن المتجهة إلى ميناء إيلات الإسرائيلى . وقامت إسرائيل بدورها بإشهار أسلحتها ، وردت غاضبة بأن إغلاق خليج العقبة يمثل عملاً من أعمال الحرب .

وبوصول الجانبين إلى حافة الحرب ، هرع «يوثانت» الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك إلى القاهرة لمقابلة عبد الناصر . وعندما وصل وجد الدبلوماسى الهادىء ذو النظارات نفسه يصطدم بحشد من العمال خارج مكتب عبد الناصر يهتفون : «الله أكبر ، يحيا ناصر ، النصر لمصر» .

وكانت الحسابات الخاطئة قد بدأت بالفعل . فقد إرتكب عبد الناصر ، الذى حذر علانية مراراً وتكراراً من أن العرب تنقصهم القوة اللازمة لتحدى إسرائيل ، غلطته الأولى بتوقيعه إتفاق دفاع مشترك مع خصمه سوريا . وكان الهدف من هذا الإتفاق هو أن يكون وسيلة لوقف هجمات الفدائيين الذين ترعاهم سوريا ضد إسرائيل ، إلا أن الإتفاق فى جوهره جعل من عبد الناصر رهينة لما تقوم به سوريا من مغامرات رعناء ، وإرتكب ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل الخطأ الثانى بتهديده بشن حرب على سوريا إذا لم توقف تلك الهجمات ا لتى كان يخشاها ناصر بدرجة كبيرة ، وأخذت سوريا قول ليفى أشكول ماخذ الجد وطالبت عبد الناصر بأن يوفى بإلتزاماته تجاه إتفاق الدفاع المشترك بينهما ، ولم يكن أمام عبد الناصر ، من أجل أن يظل بطل العرب ، سوى الإستجابة لطلب سوريا . ولكن كانت أمامه ورقة يلعب بها فى هذه الورطة ، وهى قوات حفظ السلام التى تقف على الحدود بينه وبين إسرائيل منذ عام ١٩٥٦ ، وقام عبد الناصر فى مناورة منه لإختلاق أزمة قد تدفع الأمم المتحدة للتدخل وفرض تسوية بإصدار أوامره لقوات حفظ السلام بالإنسحاب من على الحدود . وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد إرتكب يوثانت الخطأ الأخير . فقد إستجاب السكرتير العام لطلب ناصر دون إستشارة أحد أمام دهشة الجميع . وفتحت الحدود بين

* أورده باتريك سيل فى «الأسد : الصراع على الشرق الأوسط» ، (باركلى ، ١٩٨٨) ص ١٢٩ .

مصر وإسرائيل . وتحركت قوات المشاة والعربات المدرعة السورية إلى مرتفعات الجولان . وفى القاهرة تدافعت الدبابات والعربات نصف المجنزرة السوفيتية الصنع فى الشوارع فى طريقها إلى سيناء الوعرة . وبدأ راديو القاهرة فى إذاعة الموسيقى العسكرية ويدعو الدول العربية للإنضمام من أجل الدفاع عن سوريا فى « المسيرة المقدسة نحو إسرائيل » ، بينما كانت تتردد الدعوة بين جنبات المساجد تدعو المؤمنين للجهاد ، بل إن الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية الحذر ، الذى كان يكره ناصر أعلن أن « أى عربى يتخاذل عن الدخول فى هذه المعركة لا يستحق أن يكون عربياً »* وقام الملك حسين ملك الأردن خوفا من ثورة شعبه بإبتلاع كراهيته لناصر ودخل فى إتفاق عسكرى مع مصر فى الأول من يونية عام ١٩٦٧ . ومع تصاعد التوتر إلى ذروته غنت أم كلثوم بصوتها الرنان الملىء بالغضب :

« راجعين بقوة السلاح ، راجعين نحرر الحمى . راجعين كما رجع الصباح ، من بعد ليلة مظلمة . جيش العروبة يا بطل الله معك ، ما أعظمك ما أروعك ما أشجعك . مأساة فلسطين تدفعك نحو الحدود ، حول لها الآلام بارود فى مدفعك . الله معك وكل حر شريف غيور ، وبالك وجنبك فى لهيب المعركة » .

وعند الغروب يوم الرابع من يونية عام ١٩٦٧ ، ظهرت مجموعة من جنود المشاة الإسرائيليين تتبعهم عربات نصف مجنزرة على كلا جانبى طريق ترابى يؤدى إلى سيناء . وحتى يذهبوا عنهم ملل المرور الروتينى كانوا يثيرون الغبار بأحذيتهم العسكرية الثقيلة ليفزعوا أسراب الطيور الصغيرة خارج الشجيرات التى تغير لونها من أشعة الشمس . لقد كان يوماً عادياً آخر على حدود إسرائيل .

وطلع فجر يوم الخامس من يونية . وقبل أن يعلو ضوء الشمس الأرجوانى حافة التلال ، إندفعت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية واحدة تلو الأخرى من على الممرات الطويلة إلى أعلى المياه الزرقاء الهادئة للبحر الأبيض المتوسط . وإنحرفت واحدة بعد الأخرى فى إتجاه الشرق وفى إتجاه الغرب ثم دارت مرتدة مرة أخرى تجاه الأرض وهى تزمجر . وأثناء إنخفاضها كانت تسقط حمولتها من المتفجرات على مطارات بير جفجافة ، وبير الحسنة ، وفايد ، والإسماعيلية ، وحلوان ، والقاهرة والاسكندرية . حيث قضت على طائرات مصر التى أمدتها بها روسيا ، وعلى المفرق والقاعدة الجوية قرب عمان حيث دمرت القوة الجوية الملكية الأردنية ، وعلى مطار سوريا الوحيد للطائرات المقاتلة شمال دمشق . وعندما إنتهت الغارة كانت ٣٥٠ مقاتلة ميج - ١٦ ، وهوك ، وبعض الطائرات الأخرى المتنوعة قد دمرت فوق ممراتها ، لقد دمرت إسرائيل القوة الجوية للدول العربية قبل أن تدرك معظمها أنه كانت هناك حرب .

ومع عودة الطائرات المقاتلة الإسرائيلية من أولى طلعاتها ، إندفعت ألوية مدرعة تحت العلم الإسرائيلى ذى اللون الأزرق والأبيض جنوباً فوق رمال سيناء . وتقدمت القوة الأساسية تجاه قناة السويس متخذة نفس الطريق الذى إتبعه الإسرائيليون فى عام ١٩٥٦ . وتحركت قوة ثانوية تجاه الشمال لإغلاق قطاع غزة . وفى إتجاه الشمال الشرقى ، أقامت المدفعية الإسرائيلية سداً من

* التايم ، ٢ يونيو ١٩٦٧ .

النيران على رجال المدفعية السوريين الذين كانوا يربضون فوق مرتفعات الجولان المسيطرة على سهل الحولة . وفى الشرق تحركت الدبابات عبر حدود الضفة الغربية التى يبلغ طولها خمسة وسبعون ميلاً حيث إلتقت مع الجيش العربى للملك حسين .

وبدون غطاء جوى تبدد جيش مصر . ومع حلول اليوم الثانى للحرب حوصر عشرة آلاف جندى مصرى فى جيب يطول حدود غزة مع سيناء . وعلى طول الطريق إلى السويس جلس آلاف الأسرى المصريون القرفصاء أو ألقوا بأنفسهم على الرمال الصفراء الساخنة تحت الأعين المتقمة لجنود المشاة الإسرائيليين ، أما الباقون فقد تركوا دباباتهم وبنادقهم وأحياناً أحذيتهم وفروا إلى مصر .

وكان الجيش العربى للأردن الذى يدافع عن القدس هو الذى وقف بفعالية أمام الهجوم الإسرائيلى . وخلال اليوم الثانى للحرب قصفت المدفعية الأردنية القدس الغربية اليهودية . وبقوة مرعبة أصابت هدفاً قريباً من منزل ليفى أشكول حيث سقطت القذائف فى حديقة فندق الملك داود وإخترقت إحدى نوافذ مركز هاداسا الطبى ذات الزجاج الملون ، غير أنه فى الوقت الذى كان فيه الأردنيون يهاجمون القدس قامت القوات الجوية الإسرائيلية بضرب تلال عمان المنثورة بنبات الخشخاش ، كما قامت القوات البرية الإسرائيلية بشكل متواصل بإحكام كماشتها العسكرية ذات الثلاث شعب حول المدينة القديمة منزلاً منزلاً وبناية بناية .

وفى فجر اليوم الثالث للحرب ، بدأ هجوم إسرائيل الأخير على مدينة القدس المسورة . وزحفت ببطء شاحنات محملة بالقوات الإسرائيلية إلى أعلى المنحدرات المليئة بأشجار الصنوبر لجبل المكبر وجبل الزيتون ، وفوق القمة ، إنتظروا حتى إنتهت أربع طائرات نفاثة إسرائيلية من إسقاط قنابل النابالم على آخر المدافعين الأردنيين عن القدس . ثم تحركوا بعد ذلك . وعندما إقتربوا من الدفاعات الحجرية السميكة للقدس القديمة من ناحية الشرق ، توقفت القوة الإسرائيلية المتقدمة عند بوابة سانت ستيفن ، على مسافة كافية تتيح لدبابة من طراز باتون بالتقدم وتسديد نيرانها نحو البوابة القديمة لتدمرها تماما ، وصرخ الجنود مهللين وإندفعوا بزيهم الكاكى الذى يحمل نجمة داود من خلال البوابة . وتبعهم الحاخام « شلوموجورين » كبير حاخامات الجيش الإسرائيلى حاملاً التوراة . وخلال دقائق كان يقف أمام حائط المبكى قائلاً : « لقد أخذنا مدينة الله . إننا ندخل عهد خلاص الشعب اليهودى »* . وبعد ذلك نفخ فى البوق . فقد إستولى الإسرائيليون الكريهون على القدس .

وفى اليوم الرابع للحرب ، سعى الملك حسين المنهك الغائر العينين من أجل السلام . ثم تبعه جمال عبد الناصر المقهور . وكانت مصر قد خسرت سيناء وغزة ، وخسرت سوريا مرتفعات الجولان ، وخسرت الأردن الضفة الغربية لنهر الأردن . وخسر الإسلام معها القدس ، وفى التاسع من يونية ، إعترف بطل العروبة العظيم بهزيمة أوسع نطاقاً وأكثر تأثيراً من هزيمة عام ١٩٤٨* . ولم

* النيوزويك ، ١٩ يونية ١٩٦٧ .

* رغم أن عبد الناصر تنحى عن الحكم يوم ٩ يونية ، فإن المظاهرات الشعبية التى إندلعت يومى ١٠ و ١١ يونية أعادته للسلطة .

تعد إنجازات حكم عبد الناصر فقط محل تساؤل وإنما أيضا منطق ورموز حقبة كاملة من الفكر والممارسة السياسية للعرب .

لقد وضعت الأيام الستة من حرب عام ١٩٦٧ نهاية الحقبة المصرية من تاريخ السياسة العربية . فقد أجبرت الكبرياء المصرية نفسها على التراجع لتتوازن مع مواردها المادية المحدودة . وبالهزيمة توارت هالة المجد لتفسح الطريق أمام الواقع الأكيد للفقر . وبدون عبد الناصر ككبير للوعاظ بالنسبة للعرب ، لم يعد فى مقدور مصر بعد الآن أن تشكل الأمة العربية وفقاً لإرادتها . كما أصبح على عبد الناصر نفسه أن يواجه حقيقة وضعه المتقلص فى المرحلة الجديدة . « وعندما يدفع الرجال والمجتمعات نحو الحائط بلا أمل ولا موارد ، فإنه لا مجال للثورة : وبدلاً من ذلك يملأهم اليأس ، ويستسلمون ويقبلون الحلول الوسط » . وهذا ما كان على عبد الناصر أن يفعله . . . . لقد أصبحت لعبته الجديدة دفاعية خالصة : كيف يتعامل مع ميراثه الخاص وطموحاته السابقة ، كيف يدعم الإرادة الشعبية فى مواجهة الشعور باليأس ، كيف يمتص أحاسيس الإحباط والغضب لدى الشباب ، كيف يعالج مشكلة الإحتلال الإسرائيلى ، والشئون العربية الداخلية ، وإحباطات الدبلوماسية الدولية . إن ثورته ، مثله ، قد إستنفدت وانتهت* .

لقد مات جزء من عبد الناصر يوم الخامس من يونية عام ١٩٦٧ ، ولكن بقى الجسد الحى بطريقة أو بأخرى . وعلى الرغم من أن العلاقة السحرية بين عبد الناصر وجموع الشعب العربى التى تكونت أثناء الأيام المجيدة لباندونج وحرب السويس كانت قد ضعفت ، فقد بقى فى الحكم كشخصية تراجيدية ، رمزا لعزم العرب على مقاومة أولئك الذين يعتقدون أنهم يريدون تدميرهم . وبمعنى من المعانى ، استمر عبد الناصر لأنه كان كل ما يمتلكه المصريون . وعلى مدى أحد عشر عاما ، منذ عام ١٩٥٦وحتى عام ١٩٦٧ ، كان يثير عواطفهم ويعدهم بمستقبل أفضل . ومن ثم ، فانهم فى الهزيمة كانوا لايزالون يتطلعون اليه ليجمع الأجزاء المبعثرة ، وليعطى معنى للكارثة التى حلت بالعرب . وقد كان حائرا بين أولئك الذين كانوا يريدونه أن يتفاوض مع اسرائيل لينهى المشكلة الكبرى بين العروبة والصهيونية وأولئك الذين يصرخون طلبا للانتقام واستعادة الكرامة وكان محصورا بين قوة عظمى مستعدة دائما للدفاع عن عدوه والقوة العظمى الأخرى التى تهتم فقط باستغلاله من أجل خدمتها . وهكذا وجد ناصر نفسه يسير فوق حبل مشدود .

وكان على عبد الناصر ، كى يستعيد الكرامة العربية ، أن يستعيد الأرض العربية . ولكنه لم يستطع أن يؤثر على الولايات المتحدة لتضغط على اسرائيل من أجل أن تتخلى عن الأرض التى احتلتها وأن تنسحب من قناة السويس دون اعتراف العرب باسرائيل ، وهو ما رفض ان يقوم به العرب رفضا نابعا من احساسهم العميق بالاهانة . وبانتزاعه المزيد من السلاح من الاتحاد السوفيتى غير الراغب فى ذلك ، استعد عبد الناصر لشن حرب استنزاف ضد القوات الاسرائيلية على طول قناة السويس . وقد تسببت هجمات جس النبض على المواقع الاسرائيلية فى شن غارات انتقامية شديدة التأثير ، ولكنها أيضا أعطت عبد الناصر الوقت ليجد نوعا من المسكن لما تعانيه الكرامة

* عجمى ، « المحنة العربية » ، ص ٨٥ .

العربية المهدرة . وفى الهجمات الدموية المتبادلة عانت مصر أكثر مما عانت اسرائيل ولكن قوة الميزان المصرية حققت اصابات كافية لاثارة آلام الاسرائيليين ، ومع حلول عام ١٩٧٠ ، كان كلا الطرفين مستعدين للدخول فى مفاوضات من أجل حل وسط تحت ما كان يسمى « مبادرة روجرز » التى اضطلع بها وزير الخارجية الأمريكى . وفى السابع من اغسطس ١٩٧٠ قبل الرجل الذى اكتسب صفات اسطورية وبطولية بتحديه للغرب . وقفا لاطلاق النار مع اسرائيل تحت رعاية أمريكا . وبذلك توصل عبد الناصر الى تفاهم مع أولئك الذين كان يمقتهم مقتا شديدا .

لقد ضعف جمال عبد الناصر سياسيا ، كما أنه كان مريضا جسديا . فقد كان يعانى من مرض السكر منذ عام ١٩٥٨ . ثم بدأت صحته فى التدهور فى أوائل الستينيات ، لتزداد سوءا عاما بعد آخر ، وقد تسبب السكر فى اصابته بمرض تصلب الشرايين . كما كان يعانى من تورم فى الجزء العلوى من ساقيه كان يسبب له ألما شديدا خلال سنوات عديدة من سنوات مجده . وفى عام ١٩٦٥ ، تعرض عبد الناصر لأزمة قلبية بسيطة . وفى صيف عام ١٩٦٨ أمضى عدة أسابيع فى الاتحاد السوفيتى للمعالجة بالماء من أجل ازالة التورم من ساقيه . وفى عام ١٩٦٩ ، رقد فى الفراش لمدة ستة أسابيع بسبب تعرضه لأزمة قلبية أكثرخطورة ومع هذا كان يدخن ما لا يقل عن ستين سيجارة يوميا .

وتوفى عبد الناصر نتيجة أزمة قلبية قوية مفاجئة فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠ ، عن اثنين وخمسين عاما . ومن سخريات القدر أنه أمضى الساعات الأخيرة من عمره فى التفاوض من أجل وقف اطلاق النار فى الحرب الأهلية الأردنية ، محاطا برؤساء الدول العربية ، ومثبتا لرفاقه المصريين على أنه على الرغم حرب يونية لاتزال مصر تحتل موقع الريادة فى المجالس العربية .

وفى يوم تشييع جنازة عبد الناصر ، هرع مئات الألاف من المصريين على أسطح القطارات ، واعتلوا الشاحنات القديمة ، وركبوا الحمير والدراجات أو ساروا على الأقدام مندفعين من الدلتا ، وأسوان ومدن الصعيد نحو القاهرة ، وفى الوقت الذى كان يوضع فيه نعش عبد الناصر الخشبى البسيط الملفوف بالعلم المصرى فوق عربة مدفع ، كان أربعة ملايين شخص يصطفون على طول الطريق البالغ طوله ستة أميال من قصر القبة الى مقبرته التى تم بناؤها على وجه السرعة ، وبالبكاء والنحيب الهستيرى ، وبرفع صور الزعيم الراحل ، ودع المصريون الرجل الذى أعطاهم الاحساس بالكرامة . وقد كانوا يعرفون على نحو ما أنهم لن يتمكنوا من استعادتها خلال حياتهم . ولذلك كانوا يبكون على ناصر وعلى مصر وعلى أنفسهم . وربما كان أصدق تعبير ما قاله أحد المسئولين فى الحكومة باكيا : « لقد كان عبد الناصر كل شىء لمصر ـ الصديق ، والأب ، والرئيس ، والملك . والآن أصبحنا وحدنا »*

وكان عبد الناصر رجلا ذا شخصية مركبة ، وكتوما بدرجة زائدة عن الحد وحذرا ، ومن ثم لم يكن له صديق حميم . وقد قال السادات عنه بعد وفاته : « لم يكن من السهل على عبد الناصر أن

* النيوزويك ، ١٢ أكتوبر ١٩٧٠ .

يصادق أى شخص ، وبالمعنى الكامل لهذه العبارة ، وذلك بسبب ميله للحذر والتشكك والمرارة الشديدة والتوتر العصبى البالغ * .

وفيما يختص بذوقه وعاداته اليومية ظل مثل أى رجل بسيط ينتمى للطبقات الدنيا . ولم يكن يقرأ الأدب ، وانما فقط الصحف . وعن ذوقه الموسيقى كان متشبعا بأم المغنيات المصريات الشهيرات ، أم كلثوم ، التى كانت تعبر بآهاتها عن آلام شعبها . أما وسائل الترفيه الأجنبية فلم تدخل حياته الا فى التنس ، والسجائر الأمريكية ، وأفلام هوليود من حين لآخر .

وقد عاش عبد الناصر فى منزل بسيط فى أحد ضواحى القاهرة كزوج وفى وأب مخلص . ومثل معظم المصريين كان يأكل الجبن الأبيض المحلى ، والخيار ، والطماطم والأرز والخضار . وكانت متعته الكبيرة الوحيدة هى الملابس ، وبصفة خاصة أربطة العنق التى كان يعلق فى دولاب ملابسه ما لا يقل عن مائتين وخمسين منها . ومثل معظم العرب الذين حققوا مستوى من النجاح ، كان عبد الناصر يكدس حمامه بعشرات من زجاجات الكولونيا والعطور .

كانت مكانة عبد الناصر فى مصر أقرب ما تكون الى مكانة السيد الذى لا ينازع . وكان يظهر للناس على أنه الشديد الكراهية للاجانب ، والسياسى البارع المستعد دائما للوقوف الى جانب الفقراء والمضطهدين من جماهير الشعب فى الريف والحضر ، والرجل المعارض لأنظمة الحكم الراسخة والمحرك للجماهير ، والزعيم الشعبى دمث الخلق الذى حقق الولاء بين أتباعه المتعصبين لشخصه ، والقائد الذى يسأل بصفة دائمة وبأسلوب بلاغى الفريق الذى يقوده اذا كان يحافظ على عهده معهم فيردون عليه من اللاوعى فى صوت واحد بالايجاب * .

وكان عبد الناصر يؤمن بأن العالم العربى المتحرر من النفوذ الأجنبى سوف يتيح لمصر القيام بدور قيادى فى شئونه وتقرير مصيره . وكزعيم لمصر فان جمال عبد الناصر نفسه سوف يقود الأمة العربية .

لقد كانت فترة حكم عبد الناصر خليطا من القومية المصرية والعروبة . وقد اجتمعت الاثنتان فى الناصرية التى أصبحت ملحمة العرب العظيمة فى العصر الحديث * .

---

* السادات ، « البحث عن الذات » ، ص ١٠١ .

* فاتيكيوتيس ، « ناصر » ، ص ٣٤٩ .

* عندموت عبد الناصر ، حمل معمر القذافى دعوة الناصرية ، وزعم أن عبد الناصر قد اختاره ليكون الأمين على القومية العربية . وكان غاضبا عندما مر العالم العربى بفترة عداء للناصرية بعد موت عبد الناصر . وفى عام ١٩٨٠ ، قدم القذافى عرضا بدفع ٥٠٠ مليون دولار للموافقة على نقل رفات عبد الناصر الى ليبيا ليدفن فى مقابر المؤمنين به .

الفصل السابع

الملك حسين : العاهل الثابت

المرة الأولى التى رأيت فيها الملك حسين ، كان جالسا وسط منصة كبيرة ، غارقا فى أحد المقاعد عالية الظهر وقدماه الصغيرتان منتظمتان على نحو دقيق فوق كرسى منخفض للقدمين مربع الشكل يجعله متصلا بالأرض . وكان يجلس منتصبا ، يشد كل مليمتر من جسمه ذى الأقدام الخمسة فى ثلاثة . وعندما تكلم كان صوته العميق الرنان يتناقض مع وزن جسمه البالغ مائة وخمسة وعشرين رطلا أو أكثر قليلا الذى يصدر عنه هذا الصوت ، وبينما كنت أجلس منصتا للكلمة الافتتاحية المميزة تماما بـ « نحن » الدالة على الشخصية الملكية لم يسعنى الا أن أتكهن بأن الملك حسين لو التقى بالشيطان نفسه لتعامل معه بلا ريب بنفس الأدب الرفيع والسلوك القويم الذى يعد من الصفات المميزة تماما للرجل العام . غير أنه وراء هذه الكياسة المدروسة بعناية ، يعكس حسين من خلال عينيه السوداوين المتأملتين قدرا من الحزن العميق المتولد عن أربعة عقود مضطربة جلس خلالها على عرش الأردن .

فى الثانى من مايو ١٩٥٣ ، كان دوايت أيزنهاور يجلس فى البيت الأبيض ، ويرأس ونستون تشرشل مجلس الوزراء فى ١٠ داوننج ستريت ، ويجلس شارل ديجول مستكينا فى كولومبى ـ ليه ـ دوايجليز فى انتظار الدعوة ليقود فرنسا ، ويجمع جمال عبد الناصر زمام السلطة فى القاهرة ، ويقوم حسين بن طلال وهو فى سن السابعة عشرة من على كرسى من الحرير ليحلف اليمين كملك للأردن .

وبعد مراسم الاحتفال البسيط ، تجول الملك الصبى عبر شوارع عاصمته فى سيارة لينكولن زرقاء مكشوفة ، وكان حسين يرتدى حلة زرقاء وكتافتين ذهبيتين ، وكانت تتقدمه صفوف من محاربى البدو ، يمتطون خيولا بيضاء ، حاملين فى كبرياء أعلام الفيلق العربى . وفيما كان الموكب يمر تحت أقواس النصر المصنوعة من الخشب والورق والتى كانت تمتد على طول شوارع عمان المتواضعة ، كان الأردنيون يلوحون بالأعلام وقد ملأتهم فرحة غامرة تعبيرا عن عواطفهم الجياشة تجاه سليل الجيل الثالث والثلاثين للنبى محمد (ﷺ) . وكان ذلك بشير خير للملك شبه الضال ، بيد أنه داخل السلك الدبلوماسى ، لم يكن أحد يتوقع أن يظل الملك الصغير الجرىء فى الحكم أكثر من عام واحد على الأكثر .

ولم يكن شباب الملك فقط هو الذى يتحدى بقاءه ، انما أيضا طبيعة مملكته ، فالاردن الذى تزيد مساحته بالكاد عن مساحة ولاية سوث كارولينا ، والذى تشغل الصحراء ثلاثة أرباع مساحته ، والذى حرمته العناية الإلهية من آية موارد طبيعية تقريبا ، كان يحتال على العيش من صناعة الفوسفات والمعونات التى كانت تتصدق عليه بها الحكومة البريطانية ، ومع إنقسام اراضيه الى شطرين ـ الضفتين الشرقية والغربية ، اللتين يفصلهما نهر الأردن الضحل ـ تفرع سكانه البالغ عددهم مليونى نسمة الى ثلاث مجموعات . فى الضفة الشرقية ، مجموعة من أصل بدوى كانت تعتبر نفسها تمثل الأردنيين الأصلاء ، والرعايا المخلصين لمليكهم . والفلسطينيون ، الذين استقروا فى المدن الصغيرة والقرى فى الضفة الغربية ، كانوا ينظرون الى الأردن وحسين على انه مجرد محطة فى الطريق نحو مستقبلهم الغامض . وعلى جانبى الضفتين ، كان لاجئو حرب فلسطين المحبوسون فى الخيام يعتبرون حسينا ومملكته جزءا لا يتجزأ من محنتهم المريرة ، وكان ذلك يمثل عبئا ثقيلا على كاهل فتى يافع ، ولم تأخذ الأوضاع فى التحسن على الاطلاق . فقد أمضى حسين ما يقرب من أربعين عاما وهو محاصر سياسيا بين رؤيته الخاصة لواجبه بالحفاظ على بلاده وعرشه خالصين للأسرة الهاشمية ، وبين الشعب الفلسطينى الذى لم يروض نفسه أبدا على الخضوع لحكمه . وعلى الصعيد الاقتصادى ، كان يناضل بأرض بدون موارد وبشعب كان دائما على شفا الهاوية المالية . وعلى الصعيدين الدبلوماسى والعسكرى ، كان يحارب العديد من القوى التى استطاع إحتواءها فى بعض الأحيان ولكنه أبدا لم يتمكن من تحييدها . وبالسير على الطريق الوحيد الصعب

ظل حسين باقيا من خلال الدفاع عن مصالح أسرته الخاصة فى إطار المتطلبات الإيديولوجية للوحدة العربية . ومن خلال وقوفه بعيدا متى كان ذلك ممكنا ودخول الخيمة العربية متى إستلزم الأمر ذلك ، صمد حسين أكثر من أيزنهاور وتشرشل وديجول والاستعماريين البريطانيين وجمال عبد الناصر . ولكن مع كل سنة جديدة تمر ، تتحرك القوى التى تعمل على تقطيع مملكته وعرشه رويدا رويدا خارج نطاق سيطرته . وبعد أن فقد دور اللاعب الفاعل وأصبح ضحية بدرجة أكبر ، فإنه يتعين عليه أن يستجيب باستمرار لسياسات الآخرين ـ لسياسات الدول العربية وإسرائيل والولايات المتحدة وحلفائها الغربيين ، وأخيرا لشعبه الفلسطينى . وفى النهاية قد ينتهى الرجل ومملكته .

ويمتد داخل حدود الأردن تركيب غريب من عناصر متباينة ترجع إلى الزمن الماضى ، فمدينة عمان ، القائمة داخل تجويف أرضى تكونه التلال السبعة المحيطة بها ، يرجع تاريخها إلى العصر البرونزى . وكانت تعرف فى العصور التوراتية باسم رابات . غير ان أحداث ماضى الأردن التوراتى تنتهى فوق جبل نيبو ، غربى عمان وجنوبها . فمن قمة أحد التلال الشاهقة الذى يرتفع من أرض قاحلة ، يمتد وادى نهر الأردن كله ـ من بحر الجليل فى الشمال حتى البحر الميت فى الجنوب . وفيما بين الإثنين يرسم نهر الأردن حزاما أخضر فى المنظر الطبيعى الذى كان يمكن بدونه أن يكون موحشا . وعند هذه النقطة تؤكد السيرة اليهودية ـ المسيحية أن موسى رأى لأول مرة « أرض اللبن والعسل » .

وفى عهد الرومان ، كان الأردن يمثل جزءا من مخزن القمح الوفير الذى يقيم أود الإمبراطورية . ولازالت الأحجار التى تحمل آثار عوامل التعرية للمسرح الرومانى المستدير المؤلف

من ستة آلاف مقعد ، تهمس بأحداث تلك الفترة الزمنية حينما كانت عمان ، التى كانت تعرف باسم فلادلفيا آنذاك ، تعد من أرفع المدن الرومانية شأنا . ولكن ملكة هذه المدن كانت جرش الواقعة على بعد ثلاثة وعشرين ميلا شمالى عمان . ودخول مدينة جرش انما هو دخول مدينة روما القديمة الفخمة . فقوس نصر هادريان يؤدى إلى الأعمدة الكورنشية الشاهقة المصطفة على شكل دائرة يبلغ قطرها ثلاثمائة قدم فى وسط المدينة . ولازالت الحمامات والأسواق ، والشوارع الواسعة المرصوفة بالحصى ، على وجه الخصوص ، تحمل آثار عجلات ألف عربة تثير أشباح القوة الرومانية على حدود إمبراطوريتها .

والى الجنوب من العقبة ، أقام النبطيون ، الذين كانوا يحتكرون قوافل التجارة بين المناطق الداخلية من الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر ، مظاهر عظمتهم خلال القرن الثالث قبل الميلاد فى الصحراء الجرداء بالقرب من البتراء . وخلف أحد المنحنيات فى جدران الحجر الرملى الحمراء العالية فى وادى موسى ، وعبر ممر ضيق يكفى بالكاد لمرور فارس فوق فرسه ، يتسع مجرى النهر الجاف عارضا آثاره من الأروقة والأعمدة والقباب المحفورة فى الجدران الشاهقة . وفى القرن الثانى عشر ، وفد الصليبيون وشيدوا آثارهم الخاصة ـ الممثلة فى قلعة الكرك . ثم جاء العثمانيون وغاص الأردن فى طى النسيان .

وبحلول القرن التاسع عشر ، كان الأردن مجرد ركن منعزل غير محدد الشكل فى الامبراطورية العثمانية . وكان أرضا قاحلة لا اسم لها ، يعيش فيها ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين الفا من السكان يعملون إما فى زراعة الأرض المحيطة بمدن التلال الشمالية فى أربد وعجلون والسلط ، أو يجوبون الجنوب كرعاة من البدو . ونظرا لتمسكهم الصارم بنزعة المحافظة على القديم وبالتقاليد ، فإنه نادرا ما كان الفلاحون والبدو بسبب جهلهم يتأثرون بأحداث المشرق . ولم يكن للحرب العالمية الأولى والثورة العربية أى صدى بالنسبة لهم إلى أن أدت تلك الأحداث إلى شل حركة التجارة وتفشى الجوع والمرض . وحينما وصل البريطانيون عام ١٩٢٠ ، لم يكن ما يعرف الآن باسم الأردن يعلم سوى القليل عن سيطرة البريطانيين عليه وحكمهم له . ونظرا لعدم ترويضهم وعيشهم فى ظل شريعة البدو التى تتسم بالحرية المطلقة وعدم التقيد بأية قيود ، فقد رفض سكان المنطقة التى حددتها وزارة المستعمرات البريطانية بأنها شرق الأردن ، الخضوع لبريطانيا تماما كما رفضوا الخضوع للعثمانيين . ولكنهم استسلموا فى النهاية لحكم الهاشميين ، عبد الله أولا ، ثم حسين .

وفى نوفمبر ١٩٢٠ ركب عبد الله ـ الإبن الثانى لشريف مكة والرجل الذى عرض القضية العربية فى مؤتمر فرساى ـ قطار خط السكة الحديد التركى القديم فى المدينة واتجه صوب الشمال ، وحينما توقف القطار الصغير الذى يعمل بالبخار فى المحطة فى « معان » فى جنوب شرق الأردن ، هبط عبد الله ومعه ثلاثمائة رجل وستة رشاشات على رصيف المحطة وأعلن عزمه على غزو سوريا باسم شقيقه فيصل* . وبدون جيش أو خبرة عسكرية أو أية رغبة فعلية فى التوجه إلى

* كان فيصل ، الشقيق الأصغر لعبد الله ، قد طالب بعرش سوريا واعترفت الحكومة البريطانية ، التى أحرجها ما مارسته من نفاق وخداع فى الحرب العالمية الأولى ، بحكومته المؤقتة . ولكن فى الجولة الثانية من جولات النفاق والخداع بعد الحرب ، أصبح لفرنسا السيادة على سوريا وقامت بطرد فيصل .
أنظر الفصل العاشر .

دمشق ، استقر عبد الله فى معان وراح يمضى الوقت فى قرض الشعر العربى الرقيق ولعب الشطرنج وبناء قاعدة سياسية . وفى مارس ١٩٢١ ، توجه شمالا صوب الكرك ، حيث استقبله المقيم البريطانى ، الذى حار فيما يفعله مع أمير هاشمى ، بالترحاب باسم التاج البريطانى . وعملا بقواعد البروتوكول البريطانى الذى كان بمثابة عباءة الاعتراف السياسى ، نزل عبد الله على عمان ، حيث استدعى زعماء القبائل البدوية لتبليغهم بأنه قد عقد العزم على أن يصبح ملكهم الجديد . وبالنسبة للبدو ، كان نسب عبد الله يعطيه شرعية الحكم . وبوجهه المستدير كالبدر ، وأنفه المائل الى الانحناء ، وشعر ذقنه الذى يبعث على السخرية ، وعمامته ، كان عبد الله يبدو أقرب شبها بسلالة جنكيزخان منه إلى سلالة النبى . ولكنه كواحد من أفراد عشيرة بنى هاشم التى تنتمى لقبيلة قريش ، كان عبد الله ينتسب مباشرة الى نسل النبى محمد ﷺ من خلال إبنته فاطمة وزوجها على وابنهما الشهير الحسين . وقد تولى الهاشميون مقاليد الأمور فى الحجاز وأصبحوا حماة الأماكن الاسلامية المقدسة منذ القرن الثالث عشر ، ولما كان عبد الله يعكس طابع المنطقة التى يقيم فيها نسبه فقد كان ، برغم شخصيته المنبسطة التى لا تتوقف عن المرح ، انسانا تقليديا محافظا تماما ، متشبعا الى أقصى حد بأخلاق المجتمع البدوى وتقاليده وقيمه . وهكذا اجتمع السحر والميراث والفترة الزمنية التى أمضاها فى معان لتعطى عبد الله تأييد شيوخ القبائل البدوية ودعمهم . وبعد أن ضمن ولاء قوة من ثمانية آلاف رجل مسلح ، عرض على بريطانيا حل مشكلاتها الخاصة بإحكام السيطرة على هذه البرية بأقل عدد من الرجال والأموال .

وقام ونستون تشرشل ، وزير المستعمرات البريطانى الجديد ، برسم حدود شرق الأردن وولى عبد الله عليها « مؤقتا » وأمده بإعانة بريطانية سنوية ومستشارين بريطانيين . وفى خطاب بعث به إلى الجنرال جورو ، حاكم فرنسا فى لبنان ، فى مارس ١٩٢١ ، أوضح تشرشل ، « لقد أبرمت اتفاقا مع عبد الله بصفة غير رسمية ومؤقتة يمارس بمقتضاه نفوذه الكامل ليحول دون إثارة أية اضطرابات فى المنطقة الفرنسية من شرق الأردن » .★ وبحلول عام ١٩٢٣ ، أصبح الاتفاق الذى أبرم بين عبد الله وراعيه البريطانى اتفاقا دائما .

وحينما تولى عبد الله مقاليد الحكم ، كان البدو هم القوة المهيمنة وسط الفوضى التى كانت تسود شرق الأردن ، وقد أدار عبد الله مملكته وفقا للتقاليد البدوية . ولأنه من أبناء الحجاز ، ولعمله كقائد ميدان فى الثورة العربية ، فقد عرف كيف يكسب ولاء البدو . وكان رجال الصحراء يريدون سهولة الوصول الى من يرغبون فى زعامتهم ، ويتوقعون نوعا من الكرم مقابل ولائهم . ولذلك كان عبد الله ينفق كل ما يستطيع جمعه من أموال فى شراء ولاء الشيوخ . وكان يقاتل من لا يستطيع شراء ولائهم . وحينما شرع فى تكوين جيش ، كان يتألف من البدو الذين يستمد العون منهم ، وفى مقابل ذلك ، كان هؤلاء البدو يدينون بالولاء والاخلاص الشديد لملكهم ، الذى ينتمى اليهم وينحدر من سلالة النبى ﷺ نفسه . وحينما أصبح حسين ملكا ، استمر الارتباط بين البدو والهاشميين قويا لا ينفصم .

★ أوردته آن سيناى وآلن بولاك فى « المملكة الأردنية الهاشمية والضفة الغربية » (نيويورك ، الجمعية الأكاديمية الأمريكية للسلام فى الشرق الأوسط ، ١٩٧٧) ، ص ٣٢٨ .

وفى أحد الأيام فى أواخر السبعينيات ، كنت أمر عبر الطريق الرئيسى الطويل الضيق الممتد من عمان حتى العقبة . ولمحت عن بعد على مقربة من الطريق خيمة بدوية سوداء من شعر الماعز فى حضن أحد التلال المنخفضة العارية . وكان منظرا نادرا لافتا للانتباه فى الوقت الذى تعمل فيه سياسة الحكومة واقتصادها على انتزاع البدو من الصحراء ونقلهم للعيش فى المدن . وأبطأت السير وترددت قليلا ثم أوقفت السيارة . وأسرعت بتغطية شعرى بوشاح ، وبدأت فى الاقتراب بحذر من سور المخيم . وحينما اقتربت من المكان ، شاهدت عجوزا شمطاء ملتفة بعباءة تجلس فوق بساط رث تقوم بنسج خيوط سميكة كريهة الرائحة من شعر الماعز الأسود مع عشرات من الخيوط المجدولة المربوطة بغير إحكام الى عارضة خشبية مستندة الى صخرتين كبيرتين ، وكنت أسمع أصوات الرجال فوق التل الوعر المجاور وهم يسوقون الخراف الشاردة . وفيما كنت أجول ببصرى فى المكان بدا لى أنهم تركوا رجلا عجوزا واحدا ، تتدلى منه ذراع مشلولة ، فى صحبة المرأة .

ولا يدخل أحد مخيما للبدو دون إعداد مسبق . وقد أسهبت فى تقديم سلسلة من التحيات ، وعلقت على المنظر الأخاذ فى أعلى التل ، وأثنيت على قطيع الأسرة من الحيوانات الرائعة . وبعد أن وازن قراره بحذر ، طلب حارس المخيم احضار الوسائد والشاى وأشار الى بالجلوس . ودار الحديث حول أشياء تافهة قبل ان اصل الى السؤال الرئيسى ـ ما رأيك فى الحياة فى ظل حكم الهاشميين ؟ وتردد قليلا واعتدل فى جلسته على الوسادة الاسفنجية التى كان يجلس عليها ، ثم أجاب قائلا ، « إن البدو متكبرون للغاية بالنسبة لسياسة المدن ، ونحن لا نطلب سوى الحرية ، والعيش فى الخلاء . وكان عبد الله يفهم ذلك . ويفهمه حسين » .

ومع أوائل الثلاثينيات ، كان عبد الله قد وضع بصمته على شرق الأردن حيث قام ببناء قصر رغدان فوق أحد تلال عمان الشمالية وبجواره المنزل الصغير الذى ولد فيه حفيده حسين عام ١٩٣٥ . وبالنسبة لأى هاشمى ، كانت عمان تمثل نقلة مهينة من مدينتى مكة والمدينة . ولأنها لا تتمتع بأية مكانة نابعة من الدين أو الجغرافيا ، لم تكن عمان سوى بلدة صغيرة وسط الصحراء تتركز حول المسرح الرومانى القديم . وربما لم يتعلم عبد الله أبدا عشق هذه الأرض الصخرية المعزولة ، كما يعشقها حسين ، بسبب تواضع عاصمته ومملكته . فقد كان شرق الاردن دائما بالنسبة لعبد الله أرضا برية هيأت له المملكة التى كان القدر قد أعدها له . وانطلاقا من فخره واعتزازه بسلالته ونسبه ، كان عبد الله يرى ، تماما كما يرى حسين ، أن الهاشميين قدر لهم ان يحكموا . ومن ثم كان شرق الاردن يمثل مجرد الحلقة الأولى فى خطة عبد الله الكبرى لإحياء الخلافة الاسلامية . وكان عبد الله يحكم بتوحيد شرق الاردن وفلسطين وسوريا ولبنان تحت التاج الهاشمى . وقد أثارت فكرة « سوريا الكبرى » هذه ، التى أسماها عبد الله « ذلك الهلال العظيم الذى يطل على بحرين » ، غضب فرنسا المستكنة فى سوريا ولبنان ، والوطنيين السوريين الذين كان لديهم تصورهم الخاص عن سوريا الكبرى ، والحاج أمين الحسينى ، المفتى الأكبر للقدس ، الذى كان يتطلع بشدة الى حكم فلسطين . ولم تفلح المعارضة كثيرا فى تثبيط عزيمة عبد الله . واذ استحوذ على عبد الله حلمه فى تكوين امبراطورية وكثر حديثه عنه ، أشاع حكاية انتشرت فى أسواق عمان زعم فيها ان قطة الملك العجوز العوراء « قطنه » تتثاءب وتخرج من الغرفة عند ذكر كلمتى « سوريا الكبرى » .

وكان عبد الله يفضل فلسطين على كل ما عداها ، وكان على استعداد للتضحية بوحدة العرب المقدسة من أجل فلسطين . وفى أثناء الفترة الخاصة بين تصويت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين وانسحاب البريطانيين ، أعلن عبد الله « لابد ان اسيطر على مواقع استراتيجية فى فلسطين » فهذه المواقع ضرورية بالنسبة لشرق الأردن من الناحيتين العسكرية والاقتصادية . انى أتمتع بحقوق ومطالب فى فلسطين لا يستطيع شرق الاردن البقاء بدون الحصول عليها . * ولكى يستحوذ على هذه المواقع فى فلسطين ويحول دون دخول خصمه البغيض الحاج أمين الى عالم فلسطين السياسى عقد عبد الله صفقة مع الصهاينة تنص على انه اذا نشبت الحرب فى فلسطين فلن يقوم عبدالله بتوجيه فيلقه العربى لمساعدة القوات العربية اذا التزم الصهاينة من ناحيتهم بالوقوف جانبا للسماح للملك الهاشمى بضم الاراضى المخصصة للعرب وفقا لخطة التقسيم التى أعدتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ .

ومع اقتراب حرب فلسطين ، كان حسين البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما يرقب جده عبد الله وهو يرقص حول العرب ويتودد الى الصهاينة . وعندما نشبت الحرب بين دولة إسرائيل الجديدة والعرب ، قام عبد الله بضم الضفة الغربية لنهر الأردن ، بما فى ذلك مدن الخليل وأريحا ونابلس والقدس الشرقية . وبتحرر عبد الله من قيود الوحدة العربية ، واجه تهديد الجامعة العربية له بطرد الأردن من عضويتها بسبب نفاقه وسياسته المزدوجة . وكان على عبد الله أن يختار بين أقل الشرين ضررا ــ إما العزلة فى العالم العربى أو الاراضى التى احتلها فى فلسطين . واختار الحفاظ على ما جناه من مكاسب فى فلسطين . وبإظهاره عدم احترامه وثقته بالزعماء العرب الذين تجمعوا ضده ، إستمر عبد الله فى تدعيم علاقاته مع إسرائيل ورعاياه الفلسطينيين الجدد .

وفى ديسمبر ١٩٤٨ ، اجتمع عبدالله بمجموعة من الفلسطينيين المرنين فى مجلس مدينة أريحا . وبعد ان أقروا عبد الله على رأيه بان فلسطين والاردن تربطهما روابط تاريخية مشتركة . منحت الوفود الفلسطينية ملك الأردن تفويضا كاملا بتمثيلهم . وكان المؤتمر مهيئا لذلك . فقد كان الفلسطينيون منقسمين انقساما شديدا فى مواقفهم ازاء دور عبدالله فى تحديد مستقبلهم السياسى ولكن فى عام ١٩٤٨ أعرب كثير من الفلسطينيين عن ترحيبهم بقبول عبدالله لانه لم يكن لديهم ملجأ آخر . وكتب الكونت فولك برنادوت ، وسيط الأمم المتحدة فى فلسطين ، تقريرا فى سبتمبر ١٩٤٨ جاء فيه « ان الفلسطينيين العرب لا يتمتعون فى الوقت الراهن بإرادة حرة . كما انهم لم ينموا لديهم فى أى وقت أية نزعة وطنية خاصة . ومن ثم فإن المطالبة بدولة عربية منفصلة فى فلسطين يعد مطلبا ضعيفا نسبيا . وفى ظل الظروف القائمة يبدو كما لو ان معظم الفلسطينيين العرب قانعين تماما بالإندماج فى شرق الأردن » .

وبعد ثلاثين عاما من إنعقاد مؤتمر أريحا ، وقفت على أطلال أريحا القديمة ونظرت الى أحد الوديان الضحلة تجاه المهاجع ذات الحوائط الطينية المنهارة التى كانت تأوى ذات يوم آلاف اللاجئين الفلسطينيين الذين وقعوا تحت سيطرة عبد الله . وكان صفا بعد صف من الأكواخ ، التى لا يفصلها عن جيرانها سوى جدران مائلة تحدد مساحة صغيرة من الفراغ ، يزحف فوق التل القفر العارى من الأشجار . وفى عام ١٩٤٨ كانت هذه المحارات الفارغة تمتلىء باللاجئين الغاضبين المشتتين بين

* مجلة تايم ١٦ فبراير سنة ١٩٤٨.

كراهيتهم لاسرائيل وازدرائهم لعبد الله . وقد أصبحت هذه المهاجع خالية الآن ، حيث انجذب سكانها الى اقتصاد الضفة الغربية أو اندفعوا تجاه الضفة الشرقية . وبينما كنت أقف فوق هذه الأرض القاحلة ، رجعت بذاكرتى الى الوراء لقد أصبح هذا المخيم المهجور بيانا حيا عن القوى التى دمجها عبد الله بمكره ودهائه فى مملكته .

وعقب ذلك مباشرة تقريبا . انقسم رعايا عبد الله بين أردنيين وفلسطينيين . وكان تغيير اسم البلاد من شرق الأردن الى المملكة الأردنية الهاشمية ، فى يونيو ١٩٤٩ ، انعكاسا لتطلع عبد الله الى امتداد مساحة بلاده وليس توحد السكان داخل تلك الحدود الممتدة ، وفى عام ١٩٥٠ ، أحس عبد الله والأردنيون بالتأثير الكامل للتسعمائة ألف فلسطينى من سكان الضفة الغربية وما يقرب من خمسمائة ألف من اللاجئين الفلسطينيين ، فالفلسطينيون الذين منحهم عبد الله حقوق المواطنة الكاملة فى عام ١٩٤٨ فاق عددهم عدد الأردنيين بنسبة اثنين الى واحد . ونظرا لأنه كان هناك عدد قليل للغاية من الأردنيين يعيشون غربى النهر ، فقد تركزت التوترات الاجتماعية المثيرة بين السكان الأردنيين المحليين والفلسطينيين الذين اندمجوا معهم فى الضفة الشرقية ، حيث كان رعايا عبد الله الأصليون يمثلون الحدود السكانية . وتفاقمت عداوتهم للفلسطينيين ، الذين سرعان ما تحول كثيرون منهم بحكم أنهم نتاج مكتمل النضج لسواحل البحر المتوسط أو المشرق ، الى الطبقات المهنية ، حيث أصبحوا تجارا وملاك أراضى وحرفيين مهرة وأصحاب محلات . ونظرا للفجوة الاقتصادية الكبيرة التى ظهرت بينهم وبين الأردنيين الأقل مهارة ، فقد أصبح الفلسطينيون ضيوفا غير مرغوب فيهم ومتهمين بحرمان الأردنيين من مكانتهم وحقوقهم كأسياد لبلادهم . ومن جانبهم لم يشعر الفلسطينيون بولاء كبير أو عرفان بالجميل للأردن . وكان انمتعلمون والمهرة منهم يمثلون خطرا على مملكة عبد الله . غير أنه إنطلاقا من اعتبار أنفسهم أفضل وأرقى من الأردنيين على نحو مطلق ، كان الفلسطينيون ممن ينتمون الى الطبقات الوسطى والعليا ، استنادا الى الحتمية العربية للكرامة ، يرون أنه من المستحيل تصور أن يحكمهم حاكم « بدوى » ، أما بقية الفلسطينيين - غير المهرة ، والأميين غالبا ، والقطاعات الفقيرة عادة من اللاجئين - فلم يشعروا بالولاء لعبد الله حتى على أساس المصلحة الاقتصادية . ولأنهم كانوا يعتبرونه صنيعة اسرائيل وأصل مصيبتهم وسببها ، فانه لم يكن بالنسبة لهم سوى حاكم أجنبى آخر .

وبالنسبة لعبد الله ، فانه لم يكن يثق بالفلسطينيين ولا يحترمهم على وجه الخصوص ، غير أنه فى الوقت نفسه ، كانت مصالحه السياسية ، والاقليمية المحلية تتطلب أن يكون له قاعدة بين أولئك الذين يحتقرونه ، على الأقل . وبحصوله على بعض التأييد من الفلسطينيين المميزين ، حاول عبد الله محو أى شعور بوجود كيان فلسطينى منفصل داخل مملكته . وتم استبعاد التاريخ والثقافة الفلسطينية وكذلك علم فلسطين من المدارس والمنتديات العامة . ودفاعا عن مصالحه الخاصة ، استنكر عبد الله النزعة الانفعالية الفلسطينية باعتبارها « ضربة موجهة لمعنى الوحدة المقدسة فى ضمير كل عربى » * . غير أن الحاج أمين الحسينى ، الذى كان يضطرم غيظا فى منفاه ، لم يكن ليدع الكيان الفلسطينى يموت .

* المرجع السابق ص ٢٩ .

وفى اليوم العشرين من شهر يوليو الحار عام ١٩٥١ ، غادر عبد الله عمان متوجها لأداء صلاة الجمعة . وكان على علم بمؤامرة لاغتياله . وكان السفيران الامريكى توسلا اليه ألا يذهب الى القدس وخاصة المسجد الأقصى . لكن عبد الله كان يدرك دمج الضفتين الشرقية والغربية معا بالاختباء فى عمان .

وقبيل الظهيرة مباشرة ، خلع عبد الله ، الذى كان يرتدى ثوبا أبيض ناصع البياض تصل حتى كعبيه ، وحسين ، الذى كان يرتدى زيا عسكريا ، حذاءيهما عند باب إستعدادا للانضمام الى أربعة آلاف مسلم آخرين فى الصلاة . وكانا قد عبرا عتبة خطا مصطفى شكرى ، وهو صبى حائك ينتمى الى « جيش الخلاص القادم » التابع من خلف أحد الحواجز الحديدية وأفرغ خمس رصاصات من سلاح آلى أمريكى الصنع عبد الله وصدره* . وفى غضون ثوان قليلة اندفع المصلون الذين أصابهم الرعب يدوسون جسد عبد الله المسجى تحت أقدامهم . واندفع أفراد من الفيلق العربى المكلفون الملك ، وسط الزحام ، وهم يطلقون الأعيرة النارية ويشقون طريقهم وسط الحشد وقتلوا عشرين شخصا على الأقل من المتفرجين فى ثورة غضبهم . وفى النهاية حمل جسد المحطم والمليء بالثقوب ملفوفا فى بساط ملطخ بالدماء ، خارج المسجد الأقصى . جون باشا جلوب ، المستشار البريطانى للفيلق العربى والصديق الحميم لعبد الله ، مصطحبا حسين الصغير المرتجف بعيدا عن مسرح الحادث وعاد به الى عمان .

وفى أعقاب اغتيال عبد الله ، تحول العداء الكامن بين الأردنيين والفلسطينيين علنى ، حيث هاجم العرب عربا آخرين بينما فر الفلسطينيون الذين يحملون السلاح أمين الى التلال الشمالية وجنود الفيلق العربى فى أثرهم . وأخذ الشاب اليافع حسين ، يرتدى غطاء الرأس ذا التربيع الحمراء والبيضاء الذى يرتديه البدو ، يتجول فى أرجاء الضفة طلبا للمساعدة . وعملا بتقاليد أهل الصحراء ، راح يتودد الى الشيوخ المحليين ويقوم بزياراتهم ، ويعرض خدماته على من يرى أن ولاءهم له فى المستقبل من الأمور الحاسمة . ولكن طلال ، حسين وأكبر أبناء عبد الله ، كان هو الملك .

وكان طلال ، الذى يعانى من الوحدة وتقلب المزاج ، مصابا بالفصام وكثيرا ما كان يسقط صريع نوبات من الهياج الذى لا يمكن السيطرة عليه* . ففى شهر مايو من عام ١٩٥٢ وفى حفل عشاء هادىء فى القصر ، قفز الملك فجأة عن كرسيه ، وسحب سماط المائدة بما فوقه من أطباق وأكواب ، وتحول الى زوجته يكيل لها الصفعات . وأثناء وجوده فى باريس ، كان طلال محزون الفؤاد يهرب من مرافقيه أحيانا ليهيم على وجهه بمفرده بينما كانت أسرته التى كان يصيبها الذعر

---

* أصابت الطلقة الأخيرة حسينا وارتدت بعد اصطدامها بميدالية مثبتة فى زيه .

* فى الليلة التى وضعت فيها الملكة زين إحدى بناتها ، اندفع طلال صارخا الى داخل غرفتها بالمستشفى . وحاول قتل زوجته وطفلته حديثة المولد بسكين ، وأخذ يتحسر على انجاب طفل فى عالم يعج بالفوضى .

والحنق تجوب الشوارع بحثا عنه . وفى الحادى عشر من أغسطس عام ١٩٥٢ ، أصدر البرلمان قرارا بخلعه عن العرش ، لخطورة حالته . وكان نايف ، الابن الثانى لعبد الله ، الذى لم يكن يصلح لقيادة دولة وتسيير أمورها ، والذى كرس حياته لمطاردة النساء ، غير جدير بتولى مقاليد الحكم . وهكذا أصبح حسين بن طلال ملكا للمملكة الأردنية الهاشمية وهو فى سن السادسة عشرة . وبعد فترة قصيرة من الوصاية على العرش والقيد فى كلية ساند هيرست بلغ حسين السابعة عشرة من عمره ، واعتبر عمره ثمانية عشر عاما بحساب التقويم الهجرى ،حيث وقف أمام رعاياه ليحلف اليمين كملك للبلاد . ولأن القدر فرض عليه تبعات البلوغ ، فانه لم يمر مطلقا بمرحلة المراهقة .

ويتسم حسين بشخصية إنقباضية وانطوائية على العكس من عبد الله الذى كان يتسم بالمرح والشخصية المنبسطة . ويطارده احساس عميق بالقدرية نابع من تعرضه لاحدى عشرة محاولة اغتيال ثابتة حتى أن احتمالات موته كانت تفوق احتمالات بقائه على قيد الحياة . ومع ذلك فانه يتباهى بثقته الطبيعية فى نفسه كملك ويتضح ذلك من خلال احساس طاغ بالكرامة والنظام .

وبغض النظر عن سلوكه وتصرفاته الملكية الفخمة ، فان هناك القليل من المظاهر الملكية التى تحيط بحسين . وقد نشأ فى بيت يفتقر الى التدفئة وبه دورة مياه واحدة . واضطر فى سن العاشرة الى بيع دراجته بريطانية الصنع لحاجة أسرته الى المال . وما يطلق عليه قصره الحالى عبارة عن مجمع متواضع من المبانى المنخفضة تربط بينها مجموعة من الحدائق بالغة الروعة . واللمسة الوحيدة من لمسات الفخامة فى محيط حسين تتمثل فى حراسة الجراكسة الرسميين الذين يحرسون الردهات فى قبعاتهم الرائقة المصنوعة من الفراء ، وأحذيتهم الطويلة وزيهم الأسود مع الخناجر الفضية المغمدة فى النطاق .

ونظرا لأنه ينتمى مباشرة الى سلالة النبى (ﷺ) وباعتباره الحفيد الأكبر للرجل الذى أشعل نار الثورة العربية ، يعد حسين من أقرب سائر الحكام الحاليين فى الشرق الأوسط الى العرب . ومع ذلك فانه أكثرهم ميلا الى الغرب . ولغته الانجليزية تخلو من الأخطاء نتيجة ما تلقاه من تعليم فى احدى المدارس التبشيرية المسيحية فى عمان ، وكلية فيكتوريا فى الاسكندرية وايتون وكلية ساند هيرست ، بالطبع . وهناك زوجتان غربيتان من بين زوجاته الأربع ، اللاتى تلقين تعليمهن جميعا فى الغرب* .

---

* تزوج حسين وهو فى التاسعة عشرة ابنة عمه دينا عبد الحميد ، التى طلقها بعد ثمانية عشر شهرا . وفى عام ١٩٦١ أصاب رعاياه العرب بالدهشة بزواجه من انطوانيت جاردنر ، ابنة أحد الضباط البريطانيين الذى كان يخدم فى الأردن وطلقها عام ١٩٧٢ وكانت تعرف بالأميرة منى . وفى العام نفسه تزوج من علياء ، وهى فتاة شديدة الجاذبية تنتمى لعائلة طوقان الفلسطينية المرموقة بالضفة الغربية . وهى خريجة كلية هنتر بنيويورك ، وكانت أولى زوجات حسين التى تحمل لقب ملكة . وفى فبراير ١٩٧٧ لقيت مصرعها فى حادث سقوط طائرة عمودية . وتزوج حسين من ليزا حلبى ، وهى أمريكية وخريجة برنستون فى يونيو عام ١٩٧٨ . وأطلق عليها لقب الملكة نور ، وهى أنشط زوجاته فى المجال السياسى . وقد رزق حسين ونور بأربعة أطفال . وله سبعة أطفال آخرين من زيجاته السابقة .

ومع ذلك يبدو أن حسين يعتنق فكر عبد الله نفسه . فهو كجده يؤمن أنه قدر للهاشميين أن يحكموا . وعلى نحو غامض يصعب فهمه ، فقد دفع إيمان حسين ببقاء واستمرار السلالة الهاشمية والواجب المقدس الملقى على كاهل الأسرة بتوجيه بلاد فقيرة لا حول لها ولا قوة عبر مخاطر سياسات الشرق الأوسط الغادرة ، الى العيش ما يقرب من أربعين عاما من الصراعات والأزمات .

أن حسين ملك فى منطقة تعانى من مخاض التحديث . وهو يحكم دولة مصطنعة يعتبر معظم السكان الذين يعيشون فيها أنفسهم فلسطينيين فى المقام الأول ، وليسوا أردنيين . وهو يعيش محصورا بين سوريا فى الشمال والمملكة العربية السعودية فى الجنوب والعراق فى الشرق . وفى الغرب يواجه أقوى قوة عسكرية فى الشرق الأوسط ـ اسرائيل . وبرغم أن موت جده العنيف كان تحذيرا له من أن التفاوض المباشر مع اسرائيل دون موافقة العرب يعنى الموت ، فقد ورث حسين عن عبد الله ما يكفى من واقعيته لكى يدرك أن القبول الضمنى باسرائيل هو السياسة الوحيدة الرشيدة التى تضمن بقاء الأردن . ولكن البقاء يتحدى حسين أيضا لكى يتحمل ضربات السياسة العربية ومشاعر العرب التى تضغط عليه على نحو مستمر . وسعيا وراء مصالحه الخاصة ، اضطر حسين أكثر من مرة الى السباحة ضد تيار السياسة العربية . وفى الوقت نفسه عمل على حماية هويته العربية لكى يظل جزءا من الكيان العربى الشامل . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، وأبدا لن يكون . وعلى مر السنين ، وخلال مئات اللقاءات ، كان حسين يردد جملة واحدة ثابتة : « اننى متشائم » .

ومنذ بداية حكمه ، واجه حسين كملك للأردن سلسلة من الحاجات المتداخلة . فقد كان عليه التوفيق بين الأردنيين والفلسطينيين . وكان عليه أن يحافظ على استمرار تدفق المساعدات البريطانية السخية على بلاده . كما كان عليه الحفاظ علي تحالفه مع الغرب ليحمي مملكته الصغيرة من جيرانه العرب الأكثر قوة . وكان عليه أن يلعب بالقومية العربية وينأى بنفسه فى الوقت ذاته عن صحوتها . وقد تصادمت كل هذه العوامل فى عهد جمال عبد الناصر .

وقد كان حسين فى العشرين من عمره فقط حينما واجه مشاعر القومية العربية التى فجرها عبد الناصر . وبينما كان عبد الناصر يشجب الامبريالية الغربية ويبرم صفقة أسلحة مع الاتحاد السوفيتى ، ظل حسين معتمدا على المشورة والمساعدات البريطانية للابقاء علي جيشه البدوى ومملكته . وقد أقسم عبد الناصر ، الذى وصف حسين بأنه أداة تنطوى علي مفارقة تاريخية للغرب الامبريالي ، أن يجره الى حظيرة القومية العربية . ولذلك حينما عرض عليه جون فوستر دالاس الاشتراك فى حلف بغداد عام ١٩٥٥ ، رأى حسين فى ذلك ملاذا طبيعيا بالنسبة لملك محافظ يواجه حركة ثورية ملتهبة المشاعر . بيد أنه ليس هناك شىء طبيعى على الاطلاق فى الأردن . فبينما كان أردنيو الضفة الشرقية يؤيدون اقامة تحالف بين المملكة والغرب ، كان قلوب فلسطينيى الضفة الغربية ولاجىء المخيمات تصفق لخطب عبد الناصر الطنانة . وكان اذاعة القاهرة ، فى عصرها الذهبى تصب جام غضبها على الملك الهاشمى وتصف حسين بأنه « عاهر » و « فاجر » يلبى رغبات الغرب .

وفى أواخر عام ١٩٥٥ ، خرج حشد من أطفال المدارس ، بتحريض من مدرسيهم ، يجوبون شوارع الضفتين الغربية والشرقية فى مظاهرات تردد شعارات عبد الناصر الثورية . وبعيدا

عن الشوارع ، كان آباؤهم يتآمرون لاسقاط الحكومة . ووقف حسين على حافة الهاوية . ولادراكه أنه لا يستطيع أن يستنجد بأية حكومة عربية طلبا للعون ، قام باستدعاء البريطانيين ، فأصدر أنتونى ايدن أوامره لكتائب المظليين فى قبرص بالنزول فى عمان وأرسل اليها طائرات فامباير . وعلى الأراضى الأردنية ، قام رجال الفيلق العربى من البدو التابعين لحسين باخلاء الشوارع باستخدام قنابل الغاز والطلقات التحذيرية . بيد أنه قبل الوقوع تماما فى شرك الحماية الغربية ، أبرم حسين صفقة مع عبد الناصر أتاحت له العودة الى الحظيرة العربية . فاذا أوقف عبد الناصر حملته الدعائية ضد حسين ، فلن ينضم الأردن الى حلف بغداد .

وهكذا أنقذ حسين نفسه فى الجولة الأولى من المعركة المستمرة بين عبد الناصر فى مصر وحسين فى الأردن . ومنذ عام ١٩٥٥ الى أن جثا كلاهما على ركبتيه نتيجة حرب ١٩٦٧ ، كان عبد الناصر يتخذ المواقف ويهدد بينما كان حسين يراوغ ويناور فى صراع المصالح والارادات . وكان عبد الناصر يخاطر بمكانته التى يتباهى بها كزعيم للعالم العربى ، بينما كان حسين يخاطر بالعرش الهاشمى .

وفى عام ١٩٥٦ ، أصبح حسين وهو فى الحادية والعشرين من عمره محصورا مرة أخرى بين القومية العربية ومناصرته الغربيين . وبرغم أنه رفض الاشتراك فى حرب السويس ، فان الآثار المترتبة عليها أجبرت حسين على التخلى عن بريطانيا التى تقدم له المعونة ، وبنبذه لبريطانيا ، خسر حسين ما يزيد قليلا عن نصف اجمالى ميزانية الأردن ، وهومبلغ ضخم للحفاظ على حامى العرش ـ أى الفيلق العربى . وهكذا أصبح المال هو المطمح الأساسى لدولة تعتمد اعتمادا دائما على المساعدات الأجنبية . وكانت المساعدات العربية سريعة الزوال ـ اذ كانت تطفو على السطح أمام الملك المحاصر ثم تختفى حينما يتقدم للامساك بها . وكانت المساعدات الأمريكية تحمل نفس رائحة التواطؤ العربى العفنة مثل المساعدات البريطانية . ولكى يوفر لنفسه الغطاء الذى يعفيه من تهمة التعاون مع الغرب ويضمن له استمرار حصوله على الاسلحة والأموال الامريكية ، توجه حسين بهجومه على « الشيوعية الملحدة » باعتبارها تهديدا خطيرا للاسلام والثقافة العربية . ومع سير المصالح الأمريكية والأردنية جنبا الى جنب ، تدفقت المساعدات والأسلحة الأمريكية باعتبارها الضامن لبقاء النظام الهاشمى ، وبحلول صيف ١٩٥٨ ، ألزم حسين الذى كان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عاما الأردن بالتحالف مع أمريكا وأصبح المصدر الأساسى لغضب عبد الناصر وحنقه .

وكان عبد الناصر قد بلغ ذروة قوته ، وأخذ يشكل السياسة العربية وفق حاجاته ورغباته . وذهبت الأمور الى ما هو أبعد من السياسة ، حيث كان أتباع عبد الناصر يقفون وراء قتلة ابن عم حسين ، ملك العراق وأدى ذلك الى نزول القوات الأمريكية فى بيروت لدعم الحكومة اللبنانية الموالية للغرب وكذا دعم حسين فى الأردن ضمنيا . ومع توقف شحنات النفط من جيرانه العرب بضغط من عبد الناصر ، أصبح حسين محاصرا . وقامت وحدات من صفوة الفيلق العربى بتطويق مدينة عمان لحمايتها . وفى الليل كانت فرق من الجنود الأردنيين المسلحين بالهراوات والتروس الواقية من الشغب ورشاشات ستين الصغيرة ، تبيت ساهرة فوق أسطح المبانى العامة . وأثناء النهار كانوا يتدربون ، على صوت موسيقى القرب الاسكتلندية غالبا . ومن خلال ترتيب انطوى على اهانة وخطورة بالنسبة لحسين ، كان النفط الأمريكى والمظليون الأمريكيون يأتون جوا من فوق اسرائيل .

وفى النهاية ، ظل حسين باقيا . وبحلول شهر اكتوبر هدات الأزمة . حيث عادت القوات البريطانية الى موطنها ورست ناقلات البترول مرة أخرى فى ميناء العقبة . غير أن أتباع عبد الناصر لم ينسوا خيانة حسين . ففى العاشر من نوفمبر ١٩٥٨ ، تسللوا عبر القطاع السورى من الجمهورية العربية المتحدة التى تسيطر عليها مصر .

وكان حسين يحلق بطائرته فوق الأراضى السورية فى طريقه لقضاء أجازته فى أوروبا حينما أصدرت دمشق أوامرها له بالهبوط . وبعد أن سلم مهمة القيادة الى طياره الاسكتلندى ، شاهد حسين الطائرة تغوص فى شاشة الرادار ، وتنزلق نحو الأرض بسرعة مائتى ميل فى الساعة وتسابق طائرتين ميج - ١٧ سوريتين حتى حدود الأردن . وكان هذا الحادث مجرد بداية لحملة ماكرة من جانب عبد الناصر لتخليص الأردن من ملكه .

وفى الفترة من ١٩٥٨ الى ١٩٦٠ ، كانت حياة حسين فى أيدى القوميين العرب المرتبطين بعبد الناصر . وداخل قصره ، اكتشف أن طباخ حسين كان عميلا لعبد الناصر بعد أن قتل خمسة عشرقطة من قطط القصر التى كان يجرب فيها جرعات مختلفة من السم . وقام شخص آخر بوضع حامض فى زجاجة نقط الأنف الخاصة بالملك ولم يكتشف ذلك الا حينما قامت احدى مديرات المنزل التى كانت تصب ما تبقى فى احدى الزجاجات فى زجاجة أخرى بملاحظة تآكل الجزء العلوى من القطارة . وكثيرا ما كانت تحاك المؤامرات أيضا خارج القصر . فأثناء توقفه لتفقد موقع جامعة عمان الجديد ، نجا حسين من محاولة تفجير قنبلة وضعت داخل مكتب رئيس الوزراء ، حيث كان الملك سيلتقى بأحد عشر شخصا قتلوا جميعا عند انفجارها . ومع كل محاولة ، كان غضب حسين وحنقه على عبد الناصر يزداد باطراد ويجد فى بحثه عن مزيد من الحماية . وفى الوقت الذى كان يلعب فيه بلغة الوحدة العربية الطنانة ، كان يوجه تحالفه وجهة أخرى .

وبحلول عام ١٩٦٠ ، كان حسين يقدم نفسه بشجاعة باعتباره الحصن الذى يقى الغرب ضد ضربات موجات عبد الناصر النضالية المعادية للغرب وضد شحنات الأسلحة السوفيتية للعالم العربى . ومن خلال تلاعبه بالمخاوف من الشيوعية ، التى كانت ترهب المسلمين والغرب على حد سواء ، وضع حسين نفسه فى مراكز السياسة الأمريكية فى العالم العربى . ونتيجة لذلك كانت الولايات المتحدة تقوم بضخ الأموال بانتظام داخل الاقتصاد الأردنى . وقد جعل المصدر الجديد للمال وصورة البطل العربى الذى يمكن الدفاع عنه والذى يقف فى مواجهة الزحف الشيوعى ، حياة حسين أكثر سهولة الى حد ما .

بل ان حسين أبدى استجابة مقبولة للقومية العربية . فمن خلال اعتراضه على الوحدة العربية على أساس قيام دولة عربية واحدة ، عمل حسين بحماس على تدعيم فكرة أن النموذج الأمثل للوحدة العربية يمكن أن يتحقق على نحو أفضل من خلال الابقاء على الحدود العربية القائمة . واذ أعاد الى الأذهان موضوعا مماثلا لموضوع دعاة الفرعونية فى مصر فى الثلاثينيات ، أشار حسين ببلاغة الى أن قوة العرب تكمن فى التنوع والتباين ، وأن وجود مزيج من النظم الملكية والجمهورية يعطى قوة وحيوية للأمة العربية العظيمة بأسرها .

وخلال فترة أوائل الستينات ، تحسنت القوى المحركة الداخلية لمملكة حسين فقد كان اللاجئون الفلسطينيون يتركون بإطراد بيئة المخيمات الكئيبة لينضموا للأنشطة الاقتصادية الأساسية . وباعداد صغيرة بالنسبة لنسبتهم المئوية من السكان ، إنضم الفلسطينيون للمؤسسة الحاكمة . ومع إنتشار الضواحى المزدهرة التى بنيت بأموال فلسطينية حول عمان والقدس ، بدأ أن حسين ، لو أتيح له الوقت الكافى ، قد يستطيع بالفعل تحويل الفلسطينيين إلى أردنيين مخلصين .

بيد أن حسين إستطاع فقط تهدئة شعبه الفلسطينى ، وليس الهرب منه . وفى عام ١٩٦٤ ، فكر عبد الناصر فى تكوين منظمة التحرير الفلسطينية ، ككيان يجمع الفلسطينيين المشتتين★ ووافق حسين على مضض ولكن بشرط ألا تصبح منظمة التحرير الفلسطينية منافسا لسلطته التى يمارسها على الفلسطينيين فى الأردن . ولكنه فشل فى الحصول على تعهد بعدم قيام الفدائيين الفلسطينيين باستخدام الأراضى الأردنية فى الإغارة على إسرائيل .

وكانت جماعات الفدائيين من الضفة الغربية تخترق الحدود الإسرائيلية وتوجه ضرباتها ، ثم تنسحب داخل الأردن . ونظرا لخشيته من الأعمال الانتقامية ، قام حسين بوضع جيشه البدوى على الحدود لقطع الطريق على الفدائيين الذين يمرون بين الأردن وإسرائيل . وفى المحصلة النهائية قام جيش حسين بقتل أعداد من الفدائيين الفلسطينيين يفوق ما قتله الإسرائيليون ، بيد ان ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لحكومة إسرائيلية لا تتحمل الحدود التى يحكم حسين بموجبها . ومع مشرق اليوم الثالث عشر من نوفمبر ١٩٦٦ ، كانت قوة إسرائيلية من أربعة آلاف رجل وخمس دبابات من طراز باتون تقعقع بأصواتها المرتفعة فى طريقها صوب قرية السموع بالضفة الغربية . وباسم تحقيق الأمن ضد الفدائيين ، قام الجنود الاسرائيليون باستخدام أسلحة عوزى فى إخراج مواطنى السموع المذعورين الى الشوارع . وقامت فرق الإزالة الاسرائيلية ، أمام ناظريهم ، بتدمير المنازل ، وعيادة طبية ومدرسة ومسجد القرية . ثم إنسحب الاسرائيليون ، مخلفين وراءهم ثمانية عشر قتيلا فلسطينيا من رعايا الملك حسين .

وراح سكان الضفة الغربية يرددون عبارات الشجب ضد حسين لإحجامه عن مهاجمة إسرائيل . وأخذت مصر وسوريا فى توبيخه وتعنيفه . وبين عشية وضحاها ، إنفجرت أحزان الفلسطينيين المكبوتة ومشاعرهم الغاضبة ضد نظام حسين . وخرج رعاياه الثائرون من الفلسطينيين إلى الشوارع ، وأخذوا فى إنتزاع صور الملك من الأماكن العامة وتمزيقها بينما كانوا يصرخون بعبارات الاتهام ضد العرش الهاشمى . ومع تحول المظاهرات إلى أعمال شغب ، أخذت مصر وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ترقص حول النيران المحدقة بحسين . وبينما كان جيشه البدوى يقمع الاضطرابات كانت إذاعة القاهرة تصرخ منددة بالملك المحاصر .

وكان الدخول فى حرب مع إسرائيل هو آخر ما يريده حسين ، ومثل عبد الله من قبله ، كان يسعى الى التوصل الى تسوية مع الدولة الصهيونية . بيد أن هذا الخيار تلاشى بعد أحداث السموع ، على الأقل فى الأمد القريب . ومع الدعم والتأييد الكاملين من العالم العربى ، كان

★ أنظر الفصل الثانى عشر .

فلسطينيو الأردن يطالبون بالدم الإسرائيلى . ولم يكن بوسع حسين القيام بأى شىء سوى توزيع شحنة أخرى من شحنات الأسلحة الأمريكية على الفيلق العربى .

وخلال الستينيات ، بذل حسين غاية جهده فى العناية بمعنويات قواته ورفاهيتها . ولم يكن يمر أسبوع واحد تقريبا فى عمان دون أن تكون هناك فرصة لإلتقاء الملك بأنصاره العسكريين وكان من المشاهد المثيرة دائما مراقبة تقوية هذه الرابطة بين الحاكم والمدافعين عنه والتى كانت الهدف الأساسى لهذه المناسبات ومن خلال نظارة الملاح المناسبة لحماية عينيه من أشعة الشمس الملتهبة ، كان حسين يشاهد القوات الجوية تندفع عبر السماء أثناء العمليات التدريبية . وكان يرتدى الغترة والعقال الخاصين بالفيلق العربى ، وهو يقوم بتثبيت الشارات المميزة على صدور الخريجين من الأكاديمية العسكرية . وفى أحيان قليلة كان يهبط من السماء بالمظلة من إحدى الطائرات العمودية لينضم الى رجال الدوريات الإسرائيلية على الحدود . وكان الملك لا يبخل بوقته واهتمامه وأمواله على قواته المسلحة لأن هذه القوات ، وعلى رأسها الفيلق العربى البدوى كانت سلاح حسين الوحيد فى مواجهة أعدائه الكثيرين . ولكن حتى الفيلق العربى لم يكن يستطيع حماية حسين من الأحداث الدائرة خارج نطاق سيطرته .

وفى أثناء ربيع ١٩٦٧ وبينما كان عبد الناصر على شفا الحرب مع إسرائيل عن طريق المخادعة ، أصبح حسين واقعا فى شرك الوحدة العربية أكثر من أى وقت مضى . فقد كانت الإرادة الشعبية ، خاصة فى الضفة الغربية ، تطالب حسين بدعم عبد الناصر فى تحديه لإسرائيل . وإدراكا منه بأنه يواجه قدره ، رأى حسين أنه اذا دخل عبد الناصر الحرب فستتعين عليه إما السير معه أو يواجه حربا أهلية مع الفلسطينيين داخل حدوده . وفى نهاية مايو ١٩٦٧ ، إستسلم حسين ودخل عرين الأسد مع جمال عبد الناصر .

وفى صبيحة الثلاثين من مايو ، جلس الملك حسين ملك الأردن البالغ من العمر إثنين وثلاثين عاما وراء أجهزة قيادة إحدى طائرات الكارافيل التابعة للخطوط الجوية الأردنية وإنطلق صوب القاهرة . ورافقته طائرتان من طراز هنتر تابعتان للسلاح الجوى الملكى حتى الحدود . ثم واصل طيرانه بمفرده . وعند وصوله الى القاهرة ، كان زيه العسكرى والمسدس المثبت فى خاصرته موضع مداعبة من عبد الناصر . ورد عليه الملك عابس الوجه فى لباسه العسكرى بقوله إنه يرتدى هذا الزى منذ أسبوع .

وكان حسين قد تحمل لسنوات الإهانات التى تبثها إذاعة القاهرة . وها هو الآن يواجه عبد الناصر وجها لوجه . وما حدث بعد ذلك لايمكن لأحد وصفه حتى حسين نفسه . واقترح عبد الناصر إبرام معاهدة « بين بلدينا هنا فى هذا المكان وعلى الفور » . وتم ارسال أحد الأشخاص « لإحضار الملك الذى يضم معاهدة الدفاع الثنائية بين مصر وسوريا التى ربطت البلدين معا منذ شهر ابريل . وقد كنت أتوق للتوصل الى اتفاق ما حتى أننى ألقيت نظرة سريعة على النص وقلت لعبد الناصر : « إعطنى نسخة أخرى » وضع الأردن بدلا من سوريا وتكون المسألة قد سويت . وفى

جو من الارتياح المتزايد والمودة المتبادلة ، وافق عبد الناصر ، ووقعت أنا المعاهدة بعد ذلك بوقت قصير . ★

وبجرة قلم الزم حسين نفسه بمعاهدة للدفاع المشترك لمدة خمس سنوات يتولى بموجبها لواء مصرى قيادة قواته العسكرية العزيزة على نفسه إذا نشبت حرب . وطيرت إذاعة القاهرة النبأ على الفور ، ورفعت حسين من « حاكم هاشمى » الى بطل مقدام .

وعاد حسين الى عمان فى اليوم نفسه . وحينما خرج من طائرته ، تسابق آلاف المتظاهرين الذين توافدوا من كافة أرجاء الأردن لتحية مليكهم . وفر منهم داخل سيارته « التى رفعتها الجماهير تعبيرا عن النصر . فقد كان رجل الشارع يرى ان الملك قد تخطى العقبات التى تثير الخلاف والشقاق بين العرب .

وفى عام ١٩٦٧ ، لم يحارب الأردن سوى ثلاثة أيام فقط فمع الساعات الأولى من بعد ظهر اليوم الأول ، كانت إسرائيل قد دمرت إحدى وعشرين طائرة مقاتلة من طائرات حسين الإثنتين والعشرين من طراز هنتر . ولم تكن اسرائيل تريد استمرار الحرب مع الاردن تماما مثل الاردن . وبرغم ان رئيس الوزراء أشكول بعث برسالة الى حسين من خلال قائد قوات الأمم المتحدة فى القدس بأن اسرائيل لن تبادر بالحرب ضد الأردن ما لم يهاجم الأردن اسرائيل ، فإن الرسالة لم تصل الى حسين فى الوقت المناسب . ونتيجة لذلك ، لم تترك الموجة الأولى من الهجمات الجوية الاسرائيلية لحسين سوى قواته البرية .

وكانت أربع فرق من المشاة تسيطر على الضفة الغربية . وكانت فرقتان مسلحتان أخريان تتمركزان فى المؤخرة ، إحداهما عند جسر داميا فوق نهر الاردن والأخرى فى مدينة أريحا . وكانت بقية الجيش فى الضفة الشرقية . وطبقا لبنود إتفاق حسين مع عبد الناصر ، كانت جميع هذه القوات تحت قيادة اللواء المصرى عبد المنعم رياض . وفى اليوم الثانى للحرب ، أصبح رياض متشائما ، وحث حسين على سحب كل قواته الى الضفة الشرقية وان يسعى للسلام . ورفض حسين ذلك ، واصدر رياض أوامره بالانسحاب ، ونقض حسين هذا الأمر وألغاه . فكان الجنود الأردنيون الذين تتجاذبهم أوامر قائدين يتقدمون ويتقهقرون ويقاتلون أحيانا ويستسلمون أحيانا أخرى نتيجة لحالة الفوضى . وانسحبت الوحدة شديدة البأس التى كانت تسيطر على مدينة القدس القديمة المسورة ، ولم تترك سوى بضعة رجال من القناصة . وفى ثالث أيام الحرب فقد حسين القدس وجميع أراضى الضفة الغربية . وهكذا كلفته حاجته الى اثبات ولائه للقضية العربية ميراث عبد الله . وانتقلت المدن العربية الآهلة بالسكان مثل بيت لحم والخليل ورام الله ونابلس من أيدى الأردن الى اسرائيل ، وخرجت القدس ، بما فيها قبة الصخرة المقدسة ، من قبضة الهاشميين .

وكان احساس حسين بالعار واليأس أفظع من أن يلاحظه المرء . فقد راح يتجول على نحو مستمر فى أرجاء مملكته يرافقه عدد كبير من الحرس من قوات البدو ، وكان نادرا ما يخلع عنه زيه العسكرى . وكان الضغط العصبى والعاطفى يدفعه الى ان يصر على أسنانه بقوة لدرجة أنه اضطر

★ حسين ملك الاردن ، « حربى مع اسرائيل » (نيويورك : مورو ، ١٩٦٩م) ص ٤٦ .

فى يناير ١٩٦٩ الى اجراء عملية جراحية بالفك فى لندن . وكان الأردن يعانى أيضا مثلما يعانى حسين . فعلى الصعيد السياسى ، دفعت حرب يونيو بمائتين وخمسة وخمسين ألف لاجىء فلسطينى آخرين الى داخل المملكة ، جاءوا محملين بغضبهم وحنقهم . وعلى الصعيد الاجتماعى ، خسر الاردن سكان الضفة الغربية الأفضل تعليما والأكثر مهارة ، الذين كانوا يمثلون العمود الفقرى للخدمات المدنية والحياة الثقافية والفكرية فى الأردن . وعلى الصعيد الاقتصادى ، ضاع ٨٥ بالمائة من انتاج المملكة الزراعى و٤٨ بالمائة من انتاجها الصناعى مع ضياع الضفة الغربية .

لقد تحطم اقتصاد الأردن . ولكى ينقذ ما تبقى من مملكته ، كان على حسين ان يحصل على أموال جديدة . ومع احتفاظه بالمساعدات الغربية ، جمع مائة واثنى عشر مليون دولار أخرى تقريبا من ليبيا والنظم الملكية فى الخليج . وسعى الى توجيه المتعلمين من سكانه نحو الحصول على وظائف فى دول الخليج النفطية لكى يوفروا الأموال اللازمة لاقتصاد الأردن المتداعى من خلال التحويلات . وأعاد حسين بالتدريج التوازن الى اقتصاده المحفوف بالمخاطر . بيد ان ذلك لم يعوضه عن الضفة الغربية الثمينة .

وكان حسين يرغب بشدة فى بدء التفاوض مع اسرائيل أملا فى استعادة أراضيه . غير انه لم يكن يستطيع الالتقاء علنا بالاسرائيليين خارج إطار مؤتمر عربى . وقد فسر ناشر احدى الصحف العمانية ذلك بقوله : « فى اللحظة التى يجلس فيها الملك مع اليهود ، فإنه يوقع تفويضا بقتله . فمن المؤكد أنه سيقتل على يد أحد الفلسطينيين تماما كما قتل جده » ★.

لقد أصبح حسين يواجه راديكالية الفلسطينيين ، بعد ان تعرض لسنوات عديدة لخطر راديكالية عبد الناصر . ونظرا لما لحق بها من عار من جراء هزيمة ١٩٦٧ أفسحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التى أقامها عبد الناصر الطريق أمام منظمات الفدائيين التى كانت تشن غارات فدائية داخل اسرائيل . وأصبح الفدائيون يمثلون الأبطال العرب الذين لا يشق لهم غبار والمثال الجديد للوحدة العربية . ومع ظهور منظمة فتح بقيادة ياسر عرفات فى مقدمة الصفوف ، استقر الفدائيون فى مملكة حسين وأدى قيام منظمات الفدائيين باقامة أسوار جديدة من الأسلاك الشائكة وزرع فدائيين يحملون الأسلحة الآلية عند المداخل الى ابعاد الموظفين الأردنيين عن المخيمات الفلسطينية . وبالتدريج ، أحكموا سيطرتهم الكاملة على هذه المخيمات ، وأنشأوا دولة داخل دولة الأردن . وبرفضهم تذكرة حسين بأن الأردن قد أتاح للفلسطينيين المشردين فرصا تفوق كثيرا ما يتمتعون به فى سائر الدول العربية ، قام الفدائيون بشن حملة شعواء ضد محاولات حسين لإخضاعهم للحكم الأردنى . وبحلول عام ١٩٦٨ ، كان حسين يواجه عشرين ألفا من الفدائيين المسلحين وعددا من السكان .

وبينما كان حسين يكافح للإمساك بزمام سلطته ، كان الفدائيون الذين يحملون أسلحتهم الآلية يجوبون شوارع عمان وسائر مدن الأردن ، وفى حين كانوا يشعرون بالخوف فى البداية ، فإنه بحلول خريف عام ١٩٦٨ بدأوا يختالون أمام الجنود ورجال الشرطة الأردنيين الذين كان الكثير منهم

★ النيوزويك ٢٤ يوليو ١٩٦٧م

من أصل بدوى ، ويبدون إحتقارهم للفدائيين من أبناء المدن . ورد حسين على جرأة الفدائيين بإصدار أوامره بوضع حواجز للطرق وعربات تفتيش معرضا نفسه لمزاعم الفدائيين بأنه يعتزم وقف العمليات الفدائية ضد إسرائيل . ونظرا لعدم إرتداعهم ، أصدر الملك أوامره بتشكيل قوات من الجنود الأردنيين لجمع الشبان الفلسطينيين من الشوارع وترحيلهم الى معسكرات صحراوية نائية للحيلولة دون إنضمامهم الى صفوف الفدائيين .

ولو كانت حركة الفدائيين كتلة واحدة ، لربما تمكن الملك حسين وياسر عرفات من التوصل الى حل وسط . ولكن عرفات وفتح كانا مجرد أغلبية ضعيفة داخل حركة منقسمة بين شخصيات وأيديولوجيات مختلفة . فبينما كان عرفات مقتنعا بالتعايش مع حسين ، كان القضاء على النظام الهاشمى هو لب الأيديولوجية اليسارية للفصائل الأخرى داخل حركة الفدائيين ـ ممثلة فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . ولم تكن مواجهة حسين أمرا مطلوبا فحسب بل كانت ضرورة أيديولوجية بالنسبة لمن يقرنون الماركسية بالنضال من أجل العودة إلى فلسطين . ومع تزايد حدة التوترات بين حسين والفدائيين ، أطلق جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مؤيديه فى الشوارع صائحين ، « الطريق إلى القدس يمر عبر عمان » .

وكان حسين والفدائيون يدورون حول بعضهم البعض ويوجه كل منهما الطعنات واللكمات الإستكشافية للآخر ، ففى ديسمبر ١٩٦٩ ، أوقف الفدائيون زوجة الملك ، الأميرة منى ، أثناء تجوالها بالسيارة فى شوارع عمان واحتجزوها ولم يطلق سراحها إلا بعد إصدار أوامر عاجلة من الحرس الملكى . وفى العاشر من فبراير ١٩٧٠ ، أصدر حسين مرسوما من أحد عشر بندا حظر فيه على الفدائيين حمل الأسلحة داخل المدن وأمر فيه الفدائيين بترخيص عرباتهم وحمل بطاقات هوية . وكان ذلك كافيا لإشعال أعمال شغب إستمرت أربعة أيام وأسفرت عن مقتل ثمانية عشر شخصا وسيطرة الفدائيين على نصف عمان .

وفى أواخر يونيو ١٩٧٠ ، إصطدم جيش حسين والفدائيون مرة أخرى حينما قام أحد الفدائيين بإطلاق النار على ضابط بالجيش الأردنى من إحدى الوحدات شديدة الولاء لحسين . وفى اليوم التالى وجه الفيلق العربى نيران غضبه إلى معسكرات الفدائيين التى رد عليها الفدائيون بالمثل . وإزداد العنف بين جيش حسين والفدائيين فى كافة أرجاء البلاد مع إمتداد القتال تجاه عمان . وفى التاسع من يوليو ١٩٧٠ ، ترك الملك فيلته الصيفية خارج عمان وإنطلق نحو العاصمة . وبينما كان ينعطف فى إحدى الطرق ، دخل بسيارته فى كمين للفدائيين الفلسطينيين الذين أخذوا فى إطلاق النار من رشاش روسى الصنع عيار ٥٠ مم على موكب السيارات المرافق له المؤلف من ست عربات لاندروفر مصفحة وسيارة الملك المرسيدس ، ورد حسين على النيران بإطلاق الرصاص من مسدسه عبر نافذة السيارة ، ونجح فى النهاية فى الفرار بفتح باب السيارة والتدحرج نحو خندق على الطريق . وفى اليوم التالى رد الجيش الإهانة التى لحقت بمليكه بصب وابل من القصف المدفعى على مخيمات الفلسطينيين .

وفقد حسين السيطرة على مملكته . فمع تصاعد أعمال العنف ، قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بإقتحام فندق إنتركونتننتال الفخم فى عمان وإحتجزت إثنين وستين من النزلاء الأجانب

كرهائن . وكان بينهم أصغر أبناء الرئيس اللبنانى الأسبق كميل شمعون ، وأربعة عشر أمريكيا ومجموعة من الأوروبيين وعددا قليلا من الجنسيات الأخرى ربضوا فى الدور السفلى من الفندق حيث كانوا يعيشون على الهمبورجر والبيرة المثلجة والبوظة إلى أن قصفت صواريخ الفدائيين محطة الطاقة الرئيسية فى عمان ، كذلك قام الفدائيون اليساريون بالإستيلاء على فندق فيلادلفيا واحتجزوا خمسة عشر رهينة أخرى قبل هجومهم على إذاعة عمان . وتصاعد غضبهم وثورتهم . فقاموا بسرقة السيارات ونهب المنازل . ثم وجهوا ضرباتهم إلى نصير حسين ومؤيده ـ الولايات المتحدة . فقام فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بإحتجاز موريس درابر ، السكرتير الأول بالسفارة الأمريكية وهو فى طريقه لحضور حفل عشاء وقتلوا روبرت ب . بيرى ، الملحق العسكرى الأمريكى البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاما والذى كان يتحدث العربية ، حينما فتح باب شقته .

وكان حسين يتجاذبه قطبان ـ قطب التوصل إلى تسوية مع الفدائيين وقطب الحرب الشاملة . ولكن القرار لم يكن لحسين وحده . فجيشه البدوى المعتز بكبريائه ، الذى لحق به الخزى بسبب الإهانات التى وجهها إليه الفدائيون ، كان على وشك إعلان التمرد والعصيان فحينما كان حسين يتفقد إحدى الوحدات المسلحة فى الزرقاء ، رفعت إحدى الدبابات صديرية للثديين فى هوائى الراديو الخاص بها ، كإشارة بالغة القسوة من جيش يرى أنه يعامل كإمرأة . ولدى عودته إلى قصره ، تحمل الملك الذى كان عمره أربعة وثلاثين عاما لوم قواده ثم مناشدتهم له لإطلاق العنان للجيش لضرب الفدائيين . وصرح حسين الذى بدا عليه الإكتئاب بوضوح ، فى حفل عشاء : « إننى لا أستطيع ان أكبح جماح جيشى أكثر من ذلك »* .

وقد أجبر حسين على إتخاذ قراره فى السادس من سبتمبر ١٩٧٠ ، حينما كانت طائرة شركة تى دبليو إيه رقم ٧٤١ تئز فوق ألمانيا الغربية . فعند حدود لوكسمبورج ، قفز فدائيون من مقاعدهم وأمروا قائد الطائرة بالتوجه صوب البحر المتوسط . وبعد ساعات كانت الطائرة البوينج ٧٠٧ تدور فى سماء حالكة السواد فوق الأردن . وفجاة ، بدأت الكشافات وأضواء عربات الجيب توضح الطريق عبر الأرض الصحراوية ذات الصخور الصلبة . وهبطت الطائرة لتضرب الأرض بقوة وتتوقف فوق أحد الممرات الجوية المهجورة التى كانت تستخدم فى الحرب العالمية الثانية يعرف بإسم ممر داوسون . وفى غضون أربعين دقيقة أخرى ، كانت أصوات محركات طائرة شركة سويس آير دى سى ـ٨ التى تم إختطافها غربى باريس تئز فى السماء نفسها حالكة السواد . وأسرع الرجال حاملو الكشافات الضوئية مرة أخرى وعادت الكشافات الأمامية للسيارات للإضاءة من جديد . وهبطت الطائرة للتوقف على بعد خمسين ياردة فقط من الطائرة البوينج ٧٠٧ . وبعد ذلك بثلاثة أيام تم إختطاف طائرة بى . أو . إيه . سى . فى سى ـ١٠ كانت فى طريقها بين البحرين ولندن لتأخذ مكانها فوق « مهبط طائرات الثورة » .

ومع الأزمة الناشئة عن مصير ثلاث طائرات وأربعمائة وتسعة وثلاثين راكبا ، بدا الأمر كما لو أن حكومة الأردن لم يعد لها وجود . بل إن مفاوضى الصليب الأحمر كانوا يتعاملون مباشرة مع الفدائيين وليس مع الحكومة . وفى أحد المؤتمرات الصحفية ، قال متحدث بإسم الجبهة الشعبية

---

*النيوزويك ، ١٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

لتحرير فلسطين عرف نفسه بإسم بسام فقط ، « إن الحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئا لإيقافنا . وإذا إقترب الجيش من الطائرات ، فسيتحمل النتائج المترتبة على ذلك . ونحن نخاطب من يطلقون النار وليس الحكومة »* . وفى الثانى عشر من سبتمبر أطلقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين سراح جميع الرهائن بإستثناء ستة وخمسين منهم ، وفى الفصل الأخير من مأساة ممر داوسون ، قام المختطفون بتفجير الطائرات الثلاث المعبأة بالمتفجرات فى السماء الصافية غير الملبدة . وتوجه الركاب الذين أطلق سراحهم إلى فنادق فى عمان وإختفى بقية الرهائن فى المعسكرات الفلسطينية وامضوا الأيام التسعة الأخيرة من أسرهم وسط الحرب الدائرة بين حسين والفلسطينيين .

وفى السادس عشر من سبتمبر ١٩٧٠ توجه الملك حسين إلى إذاعة عمان لإعلان الأحكام العرفية « لقد أصبح لزاما علينا إتخاذ سلسلة من التدابير لفرض القانون والنظام لحماية أرواح المواطنين وممتلكاتهم وشرفهم »** . وكان قد بدأ « أيلول الاسود » .

وأغلقت عمان . ووضع أصحاب المحلات أقفالا ثقيلة على أبواب محالهم وأسرعوا بالعودة إلى بيوتهم . وتوقفت الحافلات وسيارات الأجرة . وترك رجال الشرطة مواقعهم . وأغلق المطار . وقبيل طلوع فجر السابع عشر من سبتمبر ، تحركت خمسون دبابة من فيلق حسين العربى وعشرات من حاملات الجنود المصفحة من الإستاد الرياضى الذى تكلف ملايين الدولارات فى الجزء الشرقى من المدينة وبدأت فى الزحف على المدينة . وفى غضون دقائق ، كانت الطوابير الطويلة المغبرة تجوب الشوارع الضيقة لجبل عمان وجبل وحدة وتنتشر فوق تلال عمان السبعة ذات الألوان القاتمة . وفى مدينة مبنية بالحجر الجيرى ، قام الجيش المزود بالآليات بشق طريقه بتوجيه وابل من قذائف المدفعية التى ضربت بعنف مواقع الفلسطينيين المحصنة وهدمت مبانى كاملة وسوتها بالأرض للحيلولة دون وجود أى مواقع للقناصة أعلى المبانى ، ورد الفدائيون الأكثر تفوقا ، والذين كانوا يقاتلون من وراء حواجز من أكياس الرمل وحواجز الشوارع ، بوابل من نيران الرشاشات والصواريخ المضادة للدبابات .

وكان حسين يتوقع أن يسفر هجومه السريع المفاجىء عن نصر مؤزر خلال ساعات . وكان يريد أن تكون الحرب قصيرة ، لأن صراعا طويلا ضد الرمز الحالى للعروبة كان من شأنه أن يوجه الرأى العام العربى الواحد ضده . ولكن بدلا من الإستسلام تمركز الفدائيون خلف جدران مئات المنازل ذات الحجارة السميكة المنتشرة فى أنحاء عمان والمدن الأخرى . وساعة بعد ساعة ، ويوما تلو آخر ، ظل الجانبان مشتبكين فى القتال بينما كان ياسر عرفات والملك حسين يسعيان على نحو محموم للتوصل إلى صيغة من شأنها إنقاذهما معا . بيد أنه حينما دعا الملك إلى وقف إطلاق النار ، أصدر قادته « إنذاراً نهائيا » للفدائيين بالإستسلام أو التعرض للإبادة .

وبإستخدام تفوق قوتهم ، قام رجال جيش حسين البدوى بشق طريقهم عنوة من منزل إلى آخر بحثا عن الفدائيين الفلسطينيين وكان المدنيون الأردنيون والفلسطينيون على السواء يقبعون وهم

---

*إدوارد ر . ف . شيهان ، « فى شوارع عمان الملتهبة » ، مجلة نيويورك تايمز ، ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ ، ص ٢٧

**النيوزويك ، ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

في مسيس الحاجة للطعام والماء ، في الأدوار السفلى وداخل الغرف . وبعث الصليب الاحمر والهلال الأحمر العربي ، اللذان لم يستطيعا الوصول إليهم ، رسالة تقول : « إن أطفالكم يموتون من العطش . ولن نستطيع مساعدتكم إلا بإبلاغكم أنكم قد تستطيعون إنقاذ أرواحهم بأن تدعوهم يشربون بولهم »*.

وبتصميمهم الذي لا رجعة فيه على القضاء على الفدائيين قضاء مبرما ، قام جنود وحدات الصفوة التابعة لحسين بإحياء العادة البدوية القديمة بتكسير أصابع أسراهم حتى لا يستطيعون إطلاق النيران عليهم مرة أخرى بعد فترة وجيزة . ومع ذلك إستمرت عجلة الحرب في الدوران .

وصمد الفدائيون بالتحامهم مع السكان الفلسطينيين . ومن ثم أصبحت المخيمات أهدافا رئيسية لهجوم الأردنيين . ومنذ الأيام الأولى للحرب ، زحفت الدبابات نحو مخيمات اللاجئين المعروفة بأنها معاقل قوية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفتحت عليها النيران . وتحولت أجزاء من مخيم وحدات اللاجئين الذي تعمه الفوضى ، على الفور الى مجمع للموتى والقتلى . وفي مخيم الحسيني ، الذي كان يسكنه خمسة وأربعون ألف فلسطيني تحولت عشرة أكواخ الى أجزاء متناثرة وبعد أربعة أيام متتالية تحت وابل القصف المدفعي ، لم يبق قائما من المنازل الآيلة للسقوط سوى عشرين بالمائة فقط . ومع ذلك لم ينكسر الفدائيون .

وبالنسبة لحسين الذي يؤمن بالقضاء والقدر ، بدا الوضع ميئوسا منه . فقد تبين أن سائقه الخاص واحد من الفدائيين ، وحاول طباخ آخر من طباخيه أن يدس له السم في الطعام ، وحينما ألقى القبض على هذا الطباخ وجدوا في حوزته قنبلة يدوية . وقام العراق وسوريا ، باسم الوحدة العربية ، بوضع قوات في حالة استعداد لمساعدة الفدائيين . واذ أعد نفسه لنهاية حكم أسرته ، أمر حسين جميع نسائه وأطفال عائلته بالتوجه الى العقبة .

وطوال فترة صيف عام ١٩٧٠ ، وبينما كانت الأحداث في الأردن تتجه نحو أيلول الأسود ، كان الرئيس ريتشارد نيكسون يعد ويخطط للرد الأمريكي على ذلك . ومع اختطاف طائرة شركة تي دبليو ايه في شهر سبتمبر ، تم وضع طائرات الطوارئ الأمريكية التابعة للقوات العسكرية الأمريكية في شرقي البحر المتوسط وأوروبا في حالة استعداد للقتال . وفي الوقت الذي بدأت فيه الحرب الأهلية ، كانت الولايات المتحدة قد حشدت قدرا كافيا من القوة في المنطقة لدعم حسين ، وتبعتها اسرائيل من خلال القيام بمناورات عسكرية واسعة على طول حدودها مع الأردن . وعلى الجبهة العربية ، تردد العراق ثم قرر سحب قواته المتمركزة في شمال الأردن ، ولم يتبق سوى سوريا . ولكن حينما عبرت الدبابات السورية الحدود الأردنية من الشمال ، صعدت الولايات المتحدة حالة الاستعداد للقتال مرة أخرى كتحذير للسوفيت لابعاد السوريين . فقد كانت مصالح الاتحاد السوفيتي ومصالح حافظ الاسد ، وزير الدفاع السوري وأحد المعارضين لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ملتقية معا . وتراجعت الدبابات صوب الشمال . وفي النهاية أعلن عبد الناصر ، الأب الروحي

* نيوزويك ، ٥ اكتوبر ، ١٩٧٠ .

للقومية العربية ، انه غير مستعد لارسال قوات للأردن* ، فعبد الناصر الذي خاض حروب ١٩٦٧ ، لم يكن على استعداد للقيام بأي شيء سوى لعب دور الوسيط في حرب تمزق روح الوحدة العربية .

وفي السابع والعشرين من سبتمبر ، وقف عبد الناصر مبتسما بين عرفات وحسين في قاعة [illegible] بفندق هيلتون القاهرة ليعلن انتهاء الحرب بين الملك والفدائيين* . وفي السابع من نوفمبر قام آخر الفدائيين بتسليم سلاحه لحسين وغادر وسط عمان مكرها . وأصبح يفصل حسين عن الفدائيين وعن الكثيرين من سكانه الفلسطينيين خمسة وثلاثون ألف قتيل وجريح ونهر من الدماء** . وقد انتصرت الروابط الروحية التي أقامها الهاشميون مع البدو وانحياز عدد كبير من الفلسطينيين الى جانب الملك ضد منظمة التحرير الفلسطينية مما سمح لحسين بالحفاظ على التوازن السياسي .

وفي النهاية لم تفعل الدول العربية شيئا لمساعدة الفدائيين المحصورين ، المحببين الى قلوب الجماهير العربية .

غير أن حسين خرج من الحرب ضعيفا من كل النواحي فيما عدا علاقته بالبدو التابعين له . فالاسرائيليون ، الذين استولوا على أراضيه ، أصبحوا يحتقرونه لما أشاع من فوضى في مملكته . والسوريون والعراقيون ، بحكومتيهم الثوريتين كانوا يكرهونه ويتطلعون للاستيلاء على أجزاء من صحاريه لأنفسهم . والأمريكيون ، الذين استمرت علاقته بهم ثابتة طوال أربعة عشر عاما ، قاموا بتعويضه عن الأسلحة التي خسرها بمعدات عتيقة تماما . ثم كانت هناك الأمة العربية .

وبرغم أن الدول العربية كانت ترقب بنوع من الرضا قيام حسين بالقضاء على الفدائيين الفلسطينيين الذين خرجوا عن نطاق السيطرة ، فان متطلبات الوحدة العربية كانت تملي عليها طرد المسئولين عن كبح جماح حركة الفدائيين من الحظيرة العربية . وأصبح حسين خائنا عربيا . وظهرت على حسين ، الذي كان لايزال في الخامسة والثلاثين من عمره ، الآثار الجسدية لأزمة أخرى ، حيث كان يخضع لفحوص طبية في احدى مستشفيات لندن لعدم انتظام ضربات قلبه .

وفي أعقاب الحرب الأهلية ، اتجه الملك الى رعاية الفلسطينيين الذين أيدوه وساندوه ووضع الذين وقفوا ضده منهم تحت المراقبة الشديدة ، وفي الوقت نفسه ، أخذ في البحث عن وسيلة للتوصل الى تسوية مع اسرائيل يستعيد بها الضفة الغربية . ومن وقت لآخر ، كان الملك وأبا ايبان ، وزير خارجية اسرائيل ، ينزلان على نحو غامض في فندق واحد في لندن . وفي أكثر من مناسبة واحدة ، كان هناك قاربان ، أحدهما أردني والآخر اسرائيلي ، يتعطلان عن السير مصادفة

* أورده فاتيكيوتيس في « ناصر » ، ص ٢٤٥ .

* حينما وقف عبد الناصر ليودع آخر قادة الدول العربية في مطار القاهرة ، أحس بآلام حادة في الصدر . وأسرع به مساعدوه الى المنزل ، ليموت بعد أربع ساعات .

** جريدة الدراسات الفلسطينية ، مجلد ٤ ، رقم ١ .

فى ساعة متأخرة من الليل على مقربة من مياه خليج العقبة . وفى مارس ١٩٧٢ ، عرض حسين خطته بشأن « مملكة عربية متحدة » ، وهى اتحاد فيدرالى لضفتى الأردن مما يتيح للفلسطينيين قدرا كبيرا من الحكم الذاتى تحت العلم الأردنى . والواقع أن حسين كان يؤكد من جديد أحقيته فى الضفة الغربية بلغة كان يأمل أن تروق للفلسطينيين المعتدلين . ولكن الرفض الاسرائيلى واد هذه الخطة قبل أن يعرف حسين رد فعل رعاياه السابقين فى الضفة الغربية .

وبينما كان حسين يفكر فى مستقبل مملكته وينتظر طرده من الحظيرة العربية ، كان أنور السادات يدبر حرب ١٩٧٣ العربية ضد اسرائيل . ولم تكن حرب مصر هذه المرة حرب الأردن فقد وافق حسين ، الذى كان يدرك تمام الادراك كارثة ١٩٦٧ ، فى آخر لحظة أن يكون بمثابة جبهة ثالثة لمصر وسوريا . غير أنه لم يفعل شيئا سوى وضع جيشه فى حالة استعداد وانتظار الأحداث . وحينما التزم الجيش الأردنى فى النهاية بالمعركة ، كان ذلك ليبقى جبهة حسين الداخلية هادئة ، وليس ليرفع راية الوحدة العربية . ومع خسارته لثمانية وعشرين رجلا وثمانى عشر دبابة وتسع عشرة عربة مصفحة ، خرج حسين من الحرب وهو يشعر بالرضا عن شرفه العسكرى ودون أن تمس مملكته فى الضفة الشرقية . ولكن الضفة الغربية ظلت بعيدة عن متناول يده . واذا كان عليه اقناع اسرائيل بالتخلى عنها ، فقد كان عليه أولا اقناع الفلسطينيين بالسماح بتمثيلهم .

وقد حاول حسين منذ عام ١٩٦٧ اقناع الفلسطينيين والعرب الآخرين بأن الأردن يعد الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن يمارس الفلسطينيون من خلالها أى شكل من أشكال الحكم الذاتى . وكانت تلك الرسالة موجهة للعرب الذين لا يريدون الانصات اليها . وفى أكتوبر ١٩٧٤ ، انعقدت الجامعة العربية فى الرباط بالمغرب لتحديد من يمثل الفلسطينيين . وفى الفترة بين ١٩٧٠ الى ١٩٧٤ كان ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية يزحفان للخروج من هوة الهزيمة التى منيا بها فى الأردن ليمسكا مرة أخرى بزمام القضية الفلسطينية التى كانت لاتزال تمثل بوتقة الوحدة العربية . وقد جاءت منظمة التحرير الفلسطينية الى الرباط وهى ترتدى عباءة تفويض الفلسطينيين . وبينما كان حسين يجلس بلا حول له ولا قوة ، أعلنت الجامعة العربية ، التى كانت تتحدث باعتبارها صوت الأمة العربية ، أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وقامت الدول العربية ، التى تلعب بوحدة وهمية ، بدفن حسين فى مقبرة الذل والخزى . ولكنه قبل القرار ، علنا على الأقل ، وهناك بيت من الشعر العربى يقول معناه . . . « أينما تذهب قبيلتى ، أذهب . . . وكجزء من الأمة العربية التى تسعى دائما نحو وحدتها ، فاننى أذهب مع الاجماع العام بغض النظر عن أية مشاعر سابقة »*

وقد أدى قبول حسين على نحو كريم للقرار العربى باعادته داخل حظيرة السياسة العربية . وادرك الواقعيون السياسيون بين العرب وحتى بين قطاع من الفلسطينيين أن اسرائيل لن تتفاوض مطلقا مع منظمة التحرير الفلسطينية . ومن ثم فان الفرصة المثلى أمام فلسطينيى الضفة الغربية للفرار من الاحتلال الاسرائيلى وممارسة شكل من أشكال الارادة السياسية كانت مع حسين . وكما قال أحد اللاجئين من حرب ١٩٦٧ ، « ان عرفات يستطيع أن يثير الكثير من المشكلات والمتاعب

د نيوزويك ، ١١ نوفمبر - ١٩٧٤ .

لاسرائيل ، ولكنه لا يستطيع إعادتنا الى الوطن » . * وكانت تلك فرضية ترفضها منظمة التحرير الفلسطينية . ومنذ عام ١٩٧٤ حتى ١٩٨٨ ، كان حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية يتصارعان حول مسألة أيهما يمثل فلسطينيى الضفة الغربية ، الذين كانوا لا يزالون يعيشون تحت الاحتلال الاسرائيلى بعد انقضاء سبع سنوات على حرب ١٩٦٧ . وكان التنافس حاسما بالنسبة لحسين ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، فبالنسبة لحسين ، كان اعتراف الفلسطينيين بحقه فى التفاوض مع اسرائيل نيابة عنهم من شأنه أن يهيىء له فرصة استعادة الضفة الغربية . وبالنسبة لعرفات ، كان ابرام اتفاق مع حسين يعنى تسليم سيطرة الفلسطينيين على مصيرهم الى الشخص الكريه الذى قام بهزيمة الفلسطينيين عام ١٩٧٠ . وبالنسبة لفلسطينيى الأردن والضفة الغربية ، كان حسين يمثل فرصة سانحة لكسر سيطرة اسرائيل على الاراضى الفلسطينية ، بينما كان عرفات يتمسك بشدة على نحو لا سبيل الى مقاومته بوعده المحير بدولة فلسطينية .

ان استطلاع رأى الفلسطينيين فى الاردن يعد دائما عملا غير دقيق ومحفوفا بالمخاطر . فالمخيمات بقرار حكومى وبالسيطرة الفلسطينية الداخلية تكاد تكون محظورة تماما بالنسبة للصحفيين . وتستطيع اجهزة الأمن التابعة لحسين تحويل أى فلسطينى يعتمد على الاقتصاد الاردنى الى مؤيد متحمس للملك فى وجود أحد الأجانب ، ولا يتم إرساء أساس من الثقة الا بعد فترة طويلة من الاتصالات لكى تظهر أعماق مشاعر الفلسطينيين الذين يتوقون الى قيام حكومة خاصة بهم . وبمجرد عبور هذا الجسر ، يقوم أى فلسطينى بتحويلك الى آخر .

وقد كنت أنزل ذات مرة فى فندق القدس فى عمان . وبينما كنت عائدة لتوى فى المساء بعد سلسلة من اللقاءات ، أجفلت فجأة على صوت يشير الى قادم من خلف أحد أعمدة ردهة الفندق الضخمة . وكان الصوت قادما من رجل يميل الى البدانة ، غزا الشيب مفرقه مبكرا . ويدا شبه مختبىء بين العمود وأحد النباتات وأشار الى بالتقدم نحوه . وإعترفت له بأننى « ساندرا » بالفعل ردا على سؤاله . ونظر حوله بحذر ، ثم همس قائلا ، « لقد أرسلتنى نادية . وأنا أريد أن أخبرك ، باعتبارى أحد الفلسطينيين ، اننى لا أريد أن يكون حسين ملكى » . وقبل أن أستطيع أن أتفوه بكلمة واحدة ، استدار ودلف خارجا من أحد الأبواب الجانبية .

ان امكانية قبول حسين كأداة تفاوض للفلسطينيين كانت ترتفع وتنخفض وفقا لظروف منظمة التحرير الفلسطينية وقدرة حسين على إبقاء الباب مفتوحا أمام اسرائيل دون أن ينأى بنفسه عن العرب . وقد حدث الاختبار الحاسم الأول عام ١٩٧٩ ، حينما إلتقى الرئيس المصرى أنور السادات ومناحم بيچين رئيس الوزراء بالرئيس الامريكى جيمى كارتر فى كامب ديفيد . ولم توجه الدعوة الى حسين . ورفض أن ينحو منحى مصر لتصبح الاردن الدولة العربية الثانية التى تعقد سلاما مع اسرائيل . وكان حسين يرفض اتفاقات كامب ديفيد لأنها فشلت فى معالجة أكثر الأمور الحيوية بالنسبة له ـ وهى مستقبل الضفة الغربية والقدس العربية . وقام جيمى كارتر ، الذى أغضبه ذلك ، بارسال مستشاره للأمن القومى ، زيجنيو بريزينسكى ، الى عمان لتهديد حسين بشأن شحنات الأسلحة الامريكية القادمة . ولكن سايروس فانس ، وزير خارجية كارتر آنذاك ، كان يفهم

* نيوزويك ٢٢ يوليو ١٩٧٤م

موقف حسين . (إن حسين) يسير فى طريق وعر تحفه المصاعب . فالضغوط التى تعرض لها إبان كامب ديفيد كانت ضغوطا شديدة لدرجة أنها لا تدع مجالا للدهشة من أنه لن يقدم على المخاطر ـ فهناك المخاطر الاقتصادية المحيقة بالبلاد ، والمخاطر الجسدية التى تنتظره هو شخصيا . فهو يعتمد اعتمادا كبيرا على المعونات السعودية . وهناك عملية التوازن الصعبة مع سوريا والعراق ، بالاضافة الى المشكلات المعروفة مع الفلسطينيين » . ●

واتباعا لخطى « جبهة الرفض العربى » قام حسين بقطع علاقاته الدبلوماسية مع مصر بسبب ما أعتبره خيانة أنور السادات للقضية العربية . ★★ غير أنه بينما كان يلتزم بخط العناد والتصلب العربى ، كان حسين يناور ليحتل موقعا محوريا يصبح فيه لا غنى عنه فى أى حل للقضية الفلسطينية بالنسبة للدول العربية المعتدلة ، وبالنسبة للولايات المتحدة وبالنسبة للفلسطينيين أنفسهم .

وقد تجمع ذلك كله فيما يبدو فى صيف ١٩٨٢م حينما تحولت الحرب الأهلية اللبنانية الى حرب بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فقد كان ناقوس الموت يدق حول ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية فى الوقت الذى كان يبدو فيه الملك حسين آمناً داخل مملكته أكثر من أى وقت مضى . وتحسن الاقتصاد ، هذه المرة ، بسبب البليون دولار أمريكى التى كان يحولها الثلاثمائة وخمسون ألف أردنى الذين كانوا يعملون فى دول الخليج إلى الوطن . وأدى إنتعاش السوق العقارية إلى انتشار المنازل الفخمة والشقق الواسعة ، التى كانت ملكا لكثيرين من الفلسطينيين ، فوق تلال عمان . وبلغ حسين حدا من الثقة حتى أنه عند طرد منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت فى أغسطس ١٩٨٢ ، وافق على بقاء ألفين من الفدائيين داخل الأردن .

وفى أول سبتمبر ١٩٨٢ ، تقدمت الولايات المتحدة ، إنطلاقا من سعيها للبحث عن وسيلة لتهدئة الوضع فى الشرق الأوسط بعد الصيف الذى قامت خلاله القوات الجوية الإسرائيلية بتحويل بيروت الى جحيم ، ـ بمبادرة ريجان ـ التى كانت فى جوهرها إحياء لمشروع حسين لعام ١٩٧٠ الذى دعا فيه إلى فيه الى ان يتولى الأردن مسئولية الضفة الغربية وفلسطينيها مقابل اعتراف العرب بإسرائيل . ووافق حسين على الخطة ، مثلما كان سيقبل أية خطة من شأنها ان تعيد الضفة الغربية الى السيادة الأردنية . غير أنه لم يستطع التقدم بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية على اتفاق يسمح لحسين برئاسة وفد أردنى ـ فلسطينى مشترك للتباحث مع إسرائيل . وتوجه ياسر عرفات جوا الى عمان ، حيث مكث يومين بحث خلالهما مع حسين كافة التفاصيل . بيد أن ياسر عرفات ، الذى كان يواجه معارضة من فصائل منظمته التى تدعمها سوريا ، لم يستطع اعطاء موافقة منظمة التحرير الفلسطينية . وفى العاشر من أبريل ١٩٨٣ ، اعترف حسين ، والدموع تترقرق فى عينيه بفشل جهوده فى إقناع منظمة التحرير الفلسطينية بالانضمام اليه « ونتيجة لذلك . . لن نتخذ . .

● چون نيو هاوس « الملك » ذى نيويوركر ١٩ سبتمبر ١٩٨٣م ص ١٠٠ .

★★ أنظر الفصل التاسع .

نحن فى الاردن أى إجراء على نحو منفصل ولا نيابة عن أى شخص ، فى مفاوضات السلام فى الشرق الأوسط » . ★

وفى شهر نوفمبر التالى ، قام الملك المرهق ، وقد أحبطه رفض منظمة التحرير الفلسطينية ومواجهة التهديد العسكرى من حافظ الأسد فى سوريا ، الذى كان عازما على الحيلولة دون قيام أى تعاون أردنى ـ فلسطينى من أجل تحقيق مطامحه الخاصة ، بإجراء مقابلة مع صحيفة آراب تايمز . وبدا متعبا مجهدا ، وقد ظهر الألم والأحباط على وجهه .

والقى حسين باللائمة لفشل محادثاته مع منظمة التحرير الفلسطينية على أشقائه العرب . « إنه لمن المؤلم أن نرى فرقتنا التى تجعلنا هدفا لمطامح الكثيرين » . ★

وحينما بدا أن المرض قد أبعد الرئيس السورى حافظ الأسد عن المعادلة السياسية ، حاول حسين إجتذاب الفلسطينيين مرة أخرى إلى عملية التفاوض . وطوال عام ١٩٨٤ ، أخذ فى إطلاق سراح الفلسطينيين من معتقلاته ، والتقى علنا بعرفات ، وعمل على تشجيع وتدعيم المشروعات الاجتماعية الأردنية فى الضفة الغربية ، وذهب الى واشنطن للحصول على تأييدها ، وأعاد علاقاته الدبلوماسية مع مصر ، وإستضاف اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى السابع عشر فى عمان ، كل ذلك كمحاولة لإقناع الفلسطينيين بالتفاوض مع اسرائيل تحت رعايته .

ومع مطلع عام ١٩٨٥ عاد عرفات الى عمان لتثبيت دعائم اتفاق تم التوصل اليه منذ عامين كانا حافلين بالاقتتال داخل منظمة التحرير★ وفى الحادى والعشرين من فبراير وقع الشريف حسين وعرفات الأشيب إتفاقا ينص على أن الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية سوف يعملان معا للتوصل الى مبادرة للسلام تستند الى مبدأ مبادلة الأرض بالسلام مع اسرائيل وبعد ان خرج من كارثة ١٩٦٧ ، وعزلة ١٩٧٠ ، ورفض ١٩٧٤ ، هاهو حسين يحظى الآن بأفضل فرصة تسنح له لاستعادة الضفة الغربية . وقد أضفى عليه الإتفاق الذى أبرمه مع عرفات نوعا من المصداقية فى أعين العالم العربى . مما يتيح له الشروع فى التباحث مع إسرائيل ، وقد بدت الحكومة الاسرائيلية فى ظل رئاسة شيمون بيريز مستعدة لوضع التفاوض مع الاردن داخل اطار دولى كى تمنح حسين قدرا آخر من الشرعية أمام العرب . وهكذا بدا حسين فجأة فى وضع يسمح له بإنقاذ مملكة عبد الله الهاشمية .

بيد أن الاتفاق كان محكوما عليه بالموت منذ مولده ، فقد كانت لغته مبهمة وغامضة تماما بحيث جعلت الأردنيين يتصورون وجود إرتباط دائم بين ضفتى الأردن مع تولى عمان الاشراف على شئون الدفاع والسياسة الخارجية ، وجعلت منظمة التحرير الفلسطينية تتصور قيام « إتحاد كونفيدرالى » ، يتمثل فى ارتباط طوعى بين دولتين تتمتعان بالاستقلال والمساواة ، ويمكن فصمه بنزوة من أى منهما . ومع ذلك ، فقد تجاهل الطرفان حينذاك العيوب الأساسية فى الإتفاق .

★ نفس المصدر

★ آراب تايمز ، ٥ نوفمبر ١٩٨٣ .

● أنظر الفصل الثانى عشر .

وبقبول وجهة نظر حسين كموجه مقبول للفلسطينيين ، سمحت إسرائيل للملك الهاشمى أن يفرض من جديد شكلا من أشكال السلطة على الأراضى التى خسرها فى حرب ١٩٦٧ . وبإنتهاز حكومة بيريز الفرصة لإضعاف سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية على سكان الضفة الغربية واستعداد حسين للعمل داخل إطار الإحتلال الاسرائيلى ، أصبحت الأردن واسرائيل تعملان معا . وكانت الإستراتيجية الكبرى للشراكة تتضمن خطة خمسية تتكلف ١٫٣ بليون دولار يرعاها الأردن لتنمية الأراضى المحتلة . وعلى المستوى العملى كان هناك اعادة فتح بنك القاهرة ـ عمان فى نابلس . وفى أكتوبر ١٩٨٦ ، قام عمال الطلاء بوضع طبقة الطلاء الأخيرة فوق جدران بنك ظل مغلقا تسعة عشر عاما . وحينما بدأت أعمال النظافة ، دخل العمال الى مكان توقف فيه الزمن وتجمد . فقد كانت الصور التى يعلوها الغبار للأطفال الذين بلغوا مرحلة الرجولة قابعة فوق المكاتب بجوار التقاويم التى تشير الى ٦ يونية ١٩٦٧م . وعلى جدار حجرة المدير كانت لا تزال هناك صورة ذات إطار ذهبى يعلوها الغبار معلقة على الحائط يبدو فيها الملك حسين فى سن صغيرة . وكرمز للعصر الجديد ، تم أنزال الصورة وتنظيفها بعناية وأعيد وضعها على الحائط ، كما لو أن السنين بين الحدثين لا وجود لها . ولكن الضفة الغربية كانت قد شهدت الكثير من التغيرات ، فالفلسطينيون المختلفون أبدا مع الهاشميين ، لا يمكن إعادتهم .

وبعد مرور عام واحد على توقيع إتفاق عرفات وحسين ، تفجرت الإنقسامات داخل منظمة التحرير الفلسطينية حول معنى هذا الإتفاق على الملأ . وبدون موافقة فلسطينية لم يكن حسين ليستطيع السير قدما . ونتيجة لذلك ، قام فى فبراير ١٩٨٦ بإنهاء كافة أشكال التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية التى كان يمكن أن تجعل الأردن المظلة التى يتوجه الفلسطينيون تحتها الى أى مؤتمر دولى يتعلق بمستقبل الأراضى المحتلة . وكان ذلك أول جزء ينتهى من لغز حسين السياسى الذى صاغه بعناية فائقة . وكانت الحكومة الاسرائيلية على وشك أن تتحول قيادتها الى اسحاق شامير المتشدد ، ليحل محل حزب العمل الذى كان يسيطر على اسرائيل والذى لا يخفى على حسين فهمه ومعرفته . وأخيرا قامت الولايات المتحدة بدورها فى ضرب حسين . فبينما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تندفع فى إتجاه وإسرائيل فى إتجاه آخر ، قام الكونجرس الأمريكى بتأجيل صفقة لبيع الأسلحة كان قد وعد بها حسين إلى أجل غير مسمى الى ان يوافق على التفاوض مع اسرائيل . وبرغم الغاء قرار التأجيل الذى أصدره الكونجرس ، بأمر رئاسى ، فإن هذا القيد ترك الملك محطما .

ولكن الفلسطينيين فى الضفة الغربية هم الذين سيعملون على قطع آخر رابطة تربط الملك حسين والنصف الغربى المحتل من مملكته ، ففى التاسع من ديسمبر ١٩٨٧ ، بدأت الإنتفاضة الفلسطينية فى الأراضى التى تحتلها إسرائيل . وباستخدام الحجارة ، تحدى الفلسطينيون العاديون القوة الاسرائيلية تحديا هائلا سياسيا ومعنويا على نحو لم تحققه الأمة العربية فى أى وقت من الأوقات ، وبينما كان المراهقون رماة الحجارة يقاتلون الجنود الاسرائيليين حاملى أسلحة عوزى ، إندفع العالم العربى ليمنحهم بركاته . وفى شهر يونية ١٩٨٨ ، توجه أعضاء جامعة الدول العربية إلى الجزائر ، حيث أكدوا من جديد ان منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . ووجد حسين مثلما اتهم بشكل خبيث بالسعى لتقويض نفوذ منظمة التحرير

الفلسطينية بين الفلسطينيين ، كما حدث فى مرات كثيرة فى الماضى ـ نفسه فى نزاع مع الوحدة العربية الخيالية .

وواجه حسين الحقيقة الكالحة بأن الانتفاضة المشتعلة فى الاراضى التى تحتلها اسرائيل كانت تعبيرا ملتهبا عن الوطنية الفلسطينية التى كانت موجهة ضده مثلما هى موجهة ضد اسرائيل . وكان ذلك فى حد ذاته يهدد بإنتشارها وانتقال عدواها بين السكان الفلسطينيين فى الضفة الشرقية . وتحولت المخاوف الى واقع فى شهر مايو ١٩٨٨ حينما تصادم رجال شرطة مكافحة الشغب مع الشباب الذين يلقون الحجارة فى الضفة الشرقية . وبرغم احتواء الحادث ، استمر العنف يغلى داخل السكان الفلسطينيين وكان يطفو فوق السطح على فترات متباعدة . وجاءت لحظة الصدق فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٩٨٨م ، توجه حسين بن طلال ، ملك المملكة الأردنية الهاشمية إلى مبنى التليفزيون ليتخلى عن كل حق له فى الضفة الغربية . « نظرا لأن هناك قناعة عامة بأن النضال من أجل تحرير الأرض الفلسطينية المحتلة يمكن أن يتعزز ويتدعم من خلال فك الروابط القانونية والإدارية بين الضفتين ، فإنه يتحتم علينا النهوض بواجبنا والقيام بما هو مطلوب منا . وقد تم اتخاذ هذه الخطوات لتلبية رغبة منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى ، والقناعة العربية السائدة بأن هذه التدابير ستسهم فى نضال الشعب الفلسطينى وإنتفاضته المجيدة » *

لقد وضعت الانتفاضة المسمار الأخير فى نعش الحل الأردنى للقضية الفلسطينية . وأصبح على حسين الآن إنقاذ مملكته فى الضفة الشرقية . وكان ذلك يعنى رعاية فلسطينى مملكته ، لأن السكان الأردنيين ، الذين يمثلون أساس قوته ، كانوا يتناقصون كنسبة مئوية من إجمالى السكان . ولم يعد الجيش الأردنى الذى كان فى وقت ما شديد الولاء لحسين ، يمثل دفاعا حقيقيا لنظامه . ومع إنتشار التحضر والحاجة إلى إستكمال قواته المسلحة بأفراد من الفلسطينيين ضعفت الروابط التى تربط الملك بالجنود تدريجيا . وحتى ولاء البدو أنفسهم بدأ فى التراجع فيما يبدو فى أبريل ١٩٨٩ حينما إندلعت أعمال الشغب إحتجاجا على تدنى مستويات المعيشة بمدينة معان فى الجنوب والتى ألقى فيها عبد الله مراسيه أول مرة . وقد أدت أعمال الشغب إلى إجراء أول إنتخابات خلال إثنين وعشرين عاما ، وأسفرت عن فوز جماعة الإخوان المسلمين بأكبر عدد من المقاعد . وبالإضافة إلى مشكلاته الأخرى ، أصبح حسين يواجه الآن الأصولية الإسلامية . غير أنه أعقب ذلك مشكلة أخرى أعظم . ففى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ ، قام صدام حسين رئيس العراق بغزو الكويت .

وبينما وقف العالم العربى أجمع تقريبا ضد إعتداء دولة عربية على دولة عربية أخرى ، إنحاز الملك حسين إلى صدام حسين . وبالإحساس القدرى نفسه الذى عبر عنه عام ١٩٦٧ حينما تبع عبد الناصر على طريق الكارثة ، تبع حسين صدام حسين الآن .

وكانت علاقات عمان مع بغداد قد إزدهرت أولا خلال الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨ إبان الحرب العراقية ـ الإيرانية . فقد كان حسين منذ البداية يعتبر الجيش العراقى بمثابة قوة كابحة

* نيويورك تايمز ـ ١ أغسطس ١٩٨٨.

لكل من خصميه الرهيبين الأبديين حافظ الأسد وآية الله خومينى ، الذى أصدر حكما بالموت بإسم الثورة الإسلامية ضد جميع النظم الملكية العربية المرتبطة بالغرب . وبلغة الخومينى الطنانة ، كان حسين بإعتباره « شاه الأردن » يأتى بالقرب من رأس القائمة . ومع إستمرار الحرب عاما بعد آخر ، كان حسين يسمح لأساطيل من الشاحنات الأردنية بنقل أطنان من الأسلحة والإمدادات برا من العقبة إلى جبهة الحرب ، مما هيأ للعراق فرصة تجنب قيام إيران بإغلاق موانئه على الخليج . ومع نهاية الحرب كان العراق الجريح الذى ما زال يتمتع بالثراء يضخ داخل الإقتصاد الأردنى العملات الأجنبية التى تعد دائما عماد الحياة .

بيد أن العوامل الإقتصادية كانت تلعب دورا أقل أهمية فى قرار حسين بتأييد العراق مقارنة بالعوامل السياسية . فقد كان الفلسطينيون ، الذين نظروا إلى غزو الكويت على أنه رفض جرىء غير هياب لنظام يرفل فى الثراء مرتبط بالغرب ، يرون فى صدام حسين منقذهم ومخلصهم الأخير . ونظرا لأن السكان الفلسطينيين فى الضفة الشرقية يمثلون سبعين بالمائة تقريبا من السكان ، لم يستطع حسين المخاطرة بإغضاب رعاياه لإرضاء الدول العربية . وبعد إنقضاء عقدين على أحداث سبتمبر الأسود ، تقدم رئيسا الجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين ، جورج حبش ونايف حواتمه ، داخل رواق المركز الثقافى الملكى فى عمان المغطى بالبساط ، بتأييد من مئات الفلسطينيين الهائجين . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يطأ فيها أى منهما بقدميه الأراضى الأردنية منذ محاولة فدائييها اليساريين الإطاحة بحسين فى عام ١٩٧٠ . وهاهما يعودان الآن بمباركة من الملك .

وقد حصد حسين الفوائد المترتبة على إستجابته لمشاعر سكانه الفلسطينيين . وكان المتظاهرون أثناء مسيراتهم عبر الشوارع يهتفون « دماؤنا فداؤك يا صدام » ، ويرفعون أيضا صور مليكهم . وبدأ الصدع الفاصل بين حسين ورعاياه الفلسطينيين فى التلاشى ، بصفة مؤقتة .

وبتأمين الجبهة الداخلية ، إندفع حسين بشكل محموم لتوفير بعض الحماية من غضبة الدول العربية التى تعارض العراق ولتدعيم موقفه الدولى . وأعلن بكبرياء أن الأردن سوف يلتزم بالحظر الذى فرضته الأمم المتحدة على العراق ، أكبر شريك تجارى له . وكان من شأن هذا القرار أن يكلف الأردن ما يقدر بمائتين وثمانين مليون دولار سنويا من الصادرات بالإضافة إلى مائتين وخمسين مليونا أخرى تمثل رسوم عبور البضائع المتجهة من العقبة إلى العراق . غير أن تلك كانت مجرد مشكلة واحدة من مشكلات الأردن الإقتصادية الناجمة عن الفوضى فى الخليج . فقد إنهارت السياحة ، مما أسفر عن ضياع مائتين وثلاثين مليون دولار أخرى . وتدفق آلاف اللاجئين بحثا عن الطعام والمأوى عبر الحدود ، وتوقفت المملكة العربية السعودية والكويت ، اللتان أغضبهما تأييد حسين للعراق ، عن تقديم مساعداتهما الإقتصادية وقامتا بفصل آلاف الأردنيين من وظائفهم ذات المرتبات المرتفعة . وإجمالا ، قدرت حكومة الأردن أن خسارتها من جراء الأزمة ستزيد على بليونى دولار ، أى ما يزيد على نصف إجمالى الناتج القومى . وبدأ الدينار الأردنى الذى كان من العملات القوية فى الإنخفاض الشديد .

وأخذ حسين ، الذى تأقلم مع الأزمة ، يشق طريقه من جديد للعودة إلى دائرة الضوء السياسى فى الشرق الأوسط . وبعد شهور من إنتهاء حرب الخليج ، بدأت بعض أموال النفط العربى تتدفق

من جديد على إقتصاد الأردن المنهار . ومن أكبر المفارقات فى السياسة العربية ، أن حسين أخذ الفلسطينيين فى اولى جولات مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط عام ١٩٩١ كجزء من الوفد الأردنى - الفلسطينى المشترك الذى سعى جاهدا إلى تشكيله فى منتصف الثمانينيات . وقد نجا حسين من عاصفة ١٩٩١ جزئيا لأن موقع الأردن الجغرافى يجعل المملكة الهاشمية محورا رئيسيا فى السياسة الإقليمية . والأكثر من ذلك أن حسين ظل من الشخصيات الفاعلة على المسرح العربى لسنوات عديدة حتى انه حظى بقدر من إحترام أعدائه وأصدقائه غالبا فى آن واحد . وعلى الأرجح ، يستطيع حسين الإستمرار مثلما إستمر لما يقرب من أربعين سنة يتلاعب بمهارة بمصالحه ومطالب الوحدة العربية - إذ إستطاع الإحتفاظ ببلادة والسيطرة عليها .

وفى عام ١٩٨٢ ، بدأ آريل شارون ، منادى البلدة لسياسة الليكود المتشددة ، صيحته اللافتة للنظر : « إن هناك دولة فلسطينية » يطلق عليها الأردن ، ورد حسين ، « أن الأردن وطن الأردنيين . فكما أن هناك إعتزاز بالهوية الأردنية . نعم ، إننا أشقاء ، ولكن الأردن لن يكون وطنا بديلا للفلسطينيين »●. ولكن كما هو الحال فى الكثير من شئون حكمه المضطرب ، يرتهن مستقبل الأردن بالأحداث والظروف التى لا يستطيع حسين التحكم فيها . وفى السعى للتوصل إلى حل للمشكلة الفلسطينية ، وقد تصبح مملكة حسين فى النهاية هى الدولة الفلسطينية الجديدة وقد يحدث ذلك بطريقتين . ففى الحالة غير المتوقعة كثيرا وهى تنازل إسرائيل عن الضفة الغربية وتحويلها إلى دولة فلسطينية ، فإن سكان الأردن من الفلسطينيين سينضمون إلى الدولة الفلسطينية الجديدة ، ويجرون الأردن معهم . أو الأكثر إحتمالا ، أن يستسلم الأردن بتأثير المجتمع الدولى إلى حجة الصهاينة الحاليين التى تمنح الفلسطينيين دولة وتسمح لإسرائيل بضم الضفة الغربية . وقد عرض أ . م . روزنتال القضية التى تتردد كثيرا بتحويل الأردن إلى دولة فلسطينية مثله مثل غيره بقوله : « إن هناك دولة . وهى تلك الدولة التى إقتطعتها بريطانيا من فلسطين تحت الإنتداب فى عام ١٩٢٢ والتى تعرف الآن بإسم الأردن . وبالنسبة للدولة الفلسطينية ، فإنها موجودة بالفعل ، عبر نهر الأردن الضيق ، وسوف يطلق عليها يوما ما إسمها الحقيقى »●● .

ان حسين لم يبلغ الستين بعد . وهو يبدو أكبر من سنه . فقد خف شعره وتغضن وجهه . ورغم اعترافه بالارهاق والاحباط ، فانه مستمر مع ذلك فى الدفاع عن العرش الهاشمى . وهو يشد انتباه مشاهديه كما كان يفعل دائما ويتحرك حول مملكته المضطربة ليلمس أحوال رعاياه على الطريقة البدوية التى لقنه اياها عبد الله . وحينما يشاهد المرء حسين ، فانه يشاهد شخصية ذات أبعاد مأساوية لا تتفق مملكتها الفقيرة الهشة أبدا مع المواهب الرائعة لحاكمها . وليست قدرة حسين على الصفح عن أعدائه هى أقل صفاته . والسؤال هو ما اذا كان أعداء حسين والمتطفلون على أراضيه سيصفحون عنه بالقدر الذى يسمح له بالانتصار فى معركة البقاء السياسى التى ظل يخوضها طوال حياته .

● آراب تايمز ، ٥ نوفمبر ، ١٩٨٣ .
●● أ . م . روزنتال ، نيويورك تايمز ، ٢٦ مارس ١٩٩١ ، ص ١ - ١٥ .

ان الطريق غربا خارج عمان ينحدر صوب حافة حادة تجاه جسر اللنبى على نهر الاردن . وفوق أحد التلال على الجانب الآخر ، يوجد هيكل من الخرسانة والصلب مواجهة للقدس يستكن فى عزلته . وكان قد شرع فى بنائه ليكون قصرا يطل منه حسين على قبة الصخرة المهيبة ، ولم يكتمل البناء أبدا ، حيث انتزع من الاردن فى حرب ١٩٦٧ . وهو يتحدث عن ماضى حسين على نحو مستمر . وربما يتحدث عن مستقبله أيضا .

الفصل الثامن

« آل سعود : الملكية الجماعية »

كان عام ١٩٨٤ هو العام الأخير لفترة اقامتى فى المملكة العربية السعودية التى استمرت أربعة أعوام . ونظرا لأنه لم يكن مسموحا لى بقيادة السيارة لكونى إمرأة ، فقد كنت أتجول فى شارع العاصمة الذى يقع عند الحافة الغربية لحى الناصرية بالرياض . وتوقفت لأشاهد مجموعة من العمال يقومون بتثبيت الأعلام الوطنية متعددة الألوان لعشر دول عربية علىٰ الأقل ، جنبا الى جنب ، على الأعمدة القائمة على طول الطريق الواسع لمركز المؤتمرات الكبرى الحكومى . ويعد المبنى الذى شيد فى أواخر السبعينيات شاهدا بالغ الدلالة على القوة الاقتصادية السعودية . وفى اليوم السابق على افتتاحه رسميا فى السبعينيات ، كان أحد المقاولين قد قام بتهريبى من الاجراءات الأمنية السعودية غير المحكمة لتفقد المكان والتجول فيه .

وتحيط بقاعة الاجتماعات ذات القبة المذهبة زخارف من خشب الجوز الداكن الثمين وتزينها ثريا ضخمة من الكريستال تتعدى تكلفتها مليون دولار . وهى تتصل بفندق متعدد الطوابق ينزل فيه الضيوف الوافدون على السعودية . وفى المستوى الأول تنتشر الصلونات الواحد تلو الآخر ، المؤثثة ببذخ على الطريقة العربية من طراز صالونات لويس الرابع عشر التى يعشقها السعوديون . وخلف الصالوناتتوجد قاعة كبيرة للمآدب حيث تئن صفوف الطاولات . التى يتسع كل منها لجلوس شخصين على الأقل ، تحت ثقل الكريستال الالمانى والصينى من ماركةليموج وأدوات المائدة الفضية الكريستوفل . وفى الطابق العلوى يوجد الجناح الكبير للملك فهد . ويمتد سقف قاعة مقابلاته الرسمية عشرين قدما على الأقل ، مما يجعل الامكتب الخشبى الرائع المزخرف بالسيفين المتقاطعين والنخلة اللذين يمثلان شعار المملكة العربية السعودية يبدو أصغر حجما . وفى غرفة الطعام الخاصة به تغطى الجدران بالحرير المشمشى اللون ، والمائدة مجهزة بأدوات مصنوعة من الذهب . ولأن المبنى بكل ما فيه يتناسب مع أغنى دول العالم العربى ، فقد أضحى مسرحا يتباهى فيه السعوديون على أشقائهم العرب الفقراء .

وقد صحوت من حلمى مع ارتفاع آخر الأعلام وأصوات رتل من سيارات المرسيدس الطويلة السوداء على مقربة من الشارع وعهبورها البوابات . وكانت تحمل وفود مؤتمر آخر من ال الغامضة التى تعقد بين العرب ويمولها آل سعود بسخاء ويستغلونها لاقامة شعائر الوحد

ولكن تحالفات المملكة العربية السعودية الحقيقية توجد فى مكان آخر . فبينما كنت أتوجه لمواصلة سيرى عبر الشارع ، رأيت احدى طائرات الأواكس ، التى تتميز بالطبق المنبسط الكبير الخاص بمعدات الرادار الحساسة الممتد فوق جسمها ، وهى تهبط ببطء فوق أرض مطار الرياض القديم . وكانت هذه الطائرات التى تملكها المملكة العربية السعودية ، تحمل طاقما امريكيا كبيرا يقوم بتزويد القواعد الأرضية التى يشرف عليها الامريكيون بالبيانات التى تجمعها . وحتى فى عام ١٩٨٤ ، كان الجميع يدركون أنه اذا احتاجت المملكة الدفاع عن نفسها ، فسوف يستدعى آل سعود الامريكيين وليس العرب .

ان المملكة العربية السعودية تعانى من مطالب الوحدة العربية . ونظرا لعزلتها الجغرافية عن الهلال الخصيب وتمسكها الشديد بالتقاليد الاسلامية ، وانقسامها الى قبائل متخاصمة ، فقد حافظت المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية على حياتها الخاصة لقرون عديدة . وبرغم أنها توحدت الى حد كبير فى العشرينيات وأخذت مكانها بين الدول العربية فى عام ١٩٣٢ ، فقد اختارت المملكة العربية السعودية عدم ارتصال بمن يقعون وراء صحاريها المحرقة الخالية . بيد أن اكتشاف النفط واطراد أهميته فيالاقتصاد العالمى عملا على انهاء عزلة المملكة العربية السعودية التى فرضتها على نفسها . وفى الخمسينيات بدأت أيديولوجية القومية العربية فى المطالبة الضمنية بالموارد السعودية بينما أخذت السياسة الراديكالية المتطرفة تدق بعنف أبواب المملكة المحافظة وللدفاع عن ثروتها وأسلوب حياتها أخذت المملكة العربية السعودية تبحث عن الأمن فيما وراء حدودها . وفى نطاق هذه العملية أخذت أسرة آل سعود توازن ببراعة بين ثلاث ضرورات هى تأييد الوحدة العربية والدفاع عنها ، والابتعاد عن السياسة العربية الراديكالية التى تهدد استقرار المملكة وثروتها ، واللجوء الى الولايات المتحدة للدفاع عنها ، باعتبارها دولة قليلة السكان وغنية بالموارد . وفى عام ١٩٩٠ ، حينما وقف العراق على عتبة المملكة ، حيث اضطرت المملكة العربية السعودية الى الاختيار بين أسطورة الوحدة العربية وحقيقة الالتزام الامريكى بالدفاع عنها ، قامت بتنشيط تحالفها الامريكى وإدخال القوات المسلحة للغرب الكريه الى العالم العربى . ونجا آل سعود من الخطر المباشر لصدام حسين وغضب الكثيرون فى العالم العربى الذين صبوا عليهم لعناتهم لتحالفهم مع الغرب . وقد أوضحت سلسلة الأحداث كلها أنه بعد أربعة عقود من الثراء الهائل ، مازال يتعين على آل سعود التوصل الى معادلة لحماية المملكة العربية السعودية من مشاعر الغيرة والاستياء والتهديدات التى تثيرها ثروتها داخل الأمة العربية .

ويصل جو الأبدية الذى يحيط بالكثير من العالم العربى الى ذروته فى صارى المملكة العربية السعودية . فمن الوديان الواسعة التى تتخلل المنظر الطبيعى الملتهب تظهر آثار ماضى يعود الى قبل بداية عصر ظهور الانسان . وببعض مبادىء الجيولوجيا ، وبقبعة متينة للوقاية من الشمس ، وقدرة على الاحتمال لا تعرف الكلل ، يمكن رؤية هذا الماضى ولمسه وجمعه . فحفريات البحار (وهو حيوان رأسيات الأرجل) والأسقلوب والمحار تختفى داخل الجدران الشاهقة التى كانت ذات يوم وديانا مغطاة بمياه البحار . وصور بصمات السرخسيات والأشنات والطحالب المختفية داخل الطين الصفحى لجروف الحجر الجيرى تحكى تاريخ الفترة الزمنية التى كانت فيها هذه الصحارى مغطاة بالنباتات الخضراء المورقة .

وقد جاء الانسان الى شبه الجزيرة العربية بعد انحسار مياه المحيطات . واستقر هؤلاء الذين لم يهاجروا صوب الشمال فى الواحالت المتناثرة أو ظلوا يجوبون الصحراء سعيا وراء المراعى المتفرقة لإطعام قطعانهم من الحيوانات . وعلى مر آلاف السنين لم تشهد الصحارى التى بها المملكة العربية السعودية أحداثا عظيمة الى أن جاء محمد (ﷺ) بدينه فى القرن السابع بعد الميلاد . غير أن التحول الكبير فى المد التاريخى الذى فرضه الاسلام ، حدث خارج شبه الجزيرة العربية . وقد، دمجت الجزيرة العربية نفسها عقيدة محمد (ﷺ) فى أسلوب حياتها ذاته . وتأثرت المناطق الساحلية المطلة على الخليج والبحر الأحمر بالتجار ومؤسسى الامبراطوريات . ولكن نجد ، التى تمقل قلب شبه الجزيرة الكبير والخالى ، ظلت مقصورة على القبائل . وظل الجمل الذى ينتقل عبر الاراضى القاحلة الخالية هو الرمز الثابت فى نجد .

وفى القرن الثامن عشر ، تحركت نجد . فقد عمل محمد بن عبد الوهاب ، وهو أحد المصلحين الاسلاميين ، بحماس على اعداة البدو وسكان المدن الى تعاليم ديانة محمد (ﷺ) الأصلية . وقبل وفاته فى عام ١٧٨٧ ، كسب تأييد اسرة قبلية محدودة الشهرة فى مدينة واحة الدرعية الصغيرة الواقعة شمال غرب مدينة الرياض الحالية . وبالجمع بين الدين والسياسة ، عمل آل سعود على جمع شمل الجزء الأكبر من الجزيرة العربية المتناثرة لتحدى السلطان العثمانى باسم المذهب الوهابى . ورد السلطان على ذلك بارسال قوات لمحاصرت الدرعية . وبعد ستة أشهر استسلم الأمير عبد الله .* وقامت القوات العثمانية ، بعد أن صبحت جام غضب السلطان على آل سعود ، بتدمير بلدة الدرعية تماما ، واجتثت أشجار النخيل التى تمثل مصدر حياتها ، وشحنت عبد الله الى اسطنبول لتضرب عنقه .

ورحل آل سعود ، الذين استنزفتهم الخسائر التى منوا بها ، الى واحة الرياض التى تقع فى الجنول الشرقى على بعد خمسة عشر ميلا . وفى عام ١٨٢٤ ، انتفضوا مرة أخرى وراء حماسهم للمذهب الوهابى لتحدى أسرة آل الرشيد المنافسة لهم . فقد كانت الصحراء مقسمة بين عائلتين حتى عام ١٨٧٦ ، حينما انقلب سعود ضد سعود . وفى الفترة بين عامى ١٨٧١ و ١٨٧٦ ، تغيرات زعامة الاسرة سبع مرات ، مما أضعف قوة آل سعود . وفى عام ١٨٧١ خسر الأمير الحاكم ، عبد الرحمن ، الرياضى لتنتقل الذ أسرة آل الرشيد المنافسة . وفر عبد الرحمن آل سعود الى الكويت ، بعد أن وضع ابنه ، عبد العزيز ، البالغ من العمر عشر سنوات داخل حقيبة كيرة من القماش فوق ظهر أحد الجمال .

وثمة قطعة خشنة من الحجر الجيرى بها حفرة بيضاوية الشكل فى أعلاها يطلق عليها « عين الجمل » موجودة على حدود الرياض ، وقبل أن تصدر الحكومة أوامرها بمنع الوصول الى الطين الصفحى المتساقط منها ، كنت أحيانا أزحف داخل هذه الفجوة المفتوحة وأستند الى أحد جوانبها الخشنة ، واشخص ببصرى نحو الرياض . وكنت بالمعنى الحرفى للكلمة أجلس داخل مهد التاريخ ، لأن دولة المملكة العربية السعودية بدأت من « عين الجمل » .

* تشير كلمة امير على نحو اكثر دقة الى الزعيم الذى يتم اختياره بموافقة عامة المجتمع عليه .

ففى عام ١٩٠١ ، غادر عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الكويت ، وهو فى سن الثانية والعشرين ، عاقدا العزم على استرداد الرياض واعادة آل سعود الى نجد . وبأربعين رجلا بصحبته ، دار حول السهل الساحلى الثابت قبل أن يتجه عبر الصحراء صوب الرياض ، مقر حكم الأسرة السابق ، وانطلق يدعو الناس الى قضيته تحت راية المذهب الوهابى . وفى ليلة الخامس عشر من يناير ١٩٠٢ حالكة السواد ، توقف جيش من عدة مئات عند عين الجمل ، وقام عبد العزيز بتسلق أسوار الرياض الطينية بمصاحبة خمسة عشر رجلا من المصطفين بعناية . وقبل أن ينتهى الصباح ، أعلن أن مشيئة الله قد نفذت ، وعاد آل سعود مرة أخرى ليكونوا سادة الرياض . وتم وضع حجر الأساس للمملكة العربية السعودية .

ولم يلتفت أحد كثيرا لما حدث . فقد كانت نجد تقع بعيدا عن مصالح وسياسة الدول الكبرى ، وكان العثمانيون يسيطرون على ساحلى شبه الجزيرة ويقتسمون الجانب الشرقى منها مع مجموعة من المحميات البريطانية . وكانت نجد ملكا للبدو ، وانطلاقا من كراهيتهم للأجانب ، وعدم قبولهم لأية أفكار غير أفكار المذهب الوهابى ، كانوا يعيشون خلف محيط صحاريهم . ونظرا لأن الحرب العالمية الأولى أو الثورة العربية لم تمسهم على الاطلاق ، فانه لم تخطر ببالهم أبدا فكرة الدولة السياسية العلمانية . ولكن ذلك لم يكن ينطبق على عبد العزيز .

فعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها شخص عبد العزيز ببصره صوب الأراضى التى كان يسيطر عليها العثمانيون سابقا . ونظرا لعدم وجود الموارد اللازمة لاعداد جيش ، فقد قام بتعبئة أنصار الحركة الوهابية . وأصبحت تعاليم النبى (صلى الله عليه وسلم) بأكثر أشكالها الأصلية نقاء هى الرابطة الأساسية التى تربط أمير الرياض بالرجال الذين سيساعدونه فى اقامة مملكته ، وجاب عبد العزيز أرجاء شبه الجزيرة وزار جميع القبائل والنجوع . وانطلاقا من مركزه فى الرياض اتجه صوب الشمال والجنوب ثم الشرق تجاه الخليج . وفى النهاية اتجه صوب الغرب الى أراضى الهاشميين ، القائمين على حماية مدينتى مكة والمدينة المقدستين ، ورأى البريطانيون ، الذين كانوا حلفاء لكلتا العائلتين ، بحسن ادراكهم أن حركة المد التاريخى كانت فى صالح عبد العزيز وتخلوا ع قائد الثورة العربية ، وتركوا شريف مكة يواجه المد الوهابى بمفرده . وأخفق الشريف ، ففى أكتوبر ١٩٢٤ استسلمت مكة للوهابيين وانتقلت مسئولية حماية حمى أقدس الأماكن الاسلامية من الهاشميين الى آل سعود . وبعد ذلك بأسبوعين ، خلع عبد العزيز غترته والتف بلباس أبيض مفتوح الصدر ودخل مكة . وكان يردد الكلمات التى يرددها كل حاج : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك »• .

وانطلق عبد العزيز ومحاربوه من البدو . فقاموا بضم الحجاز وجبال عسير الى السهل الساحلى الشرقى ونجد . وفى سبتمبر ١٩٣٢ ، أعلن عبد العزيز ، نفسه ملكا للمملكة العربية السعودية .

• ظل آل سعود والهاشميون متنافسين . وفى ١٩٢٤ قام جنود عبد العزيز بغزو مملكة شرق الأردن التى كان يحكمها عبد الله بن الشريف . وتقدموا بأعداد كبيرة وسط دوامة من الغبار صوب عمان ، ولم تعترض سبيلهم سوى طائرتين وأربع عربات مصفحة تحت قيادة أحد المشارين العسكريين البريطانيين .

وفيما عدا عدا سكان المناطق الساحلية ، كان رعايا عبد العزيز من أكثر الناس عزلة فى العالم . فقد كانوا مرتبطين ارتباطا تاما بالأسرة والقبيلة ، ويتشككون فى أى انسان لا تربطه بهم صلة قرابة بل ويخشونه ، وكان يربطهم معا مفهومان فقط ، هما احساسهم بأنهم يمثلون العرب الخلصاء بالدم واللغة ، وانتماؤهم للمذهب الوهابى . وكانوا يرون أن سلالاتهم ، التى لم يفسدها الاختلاط العرقى بالهلال الخصيب ، تؤكد أنهم وحدهم دون غيرهم ، يمثلون العرب الخلصاء الأصليين ، وقد أهلتهم لغة البدو ، التى تعد أقرب اللغات ارتباطا باللغة العربية الفصحى ، للحفاظ على اللسان العربى الأصيل ، وكان انتماؤهم للمذهب الوهابى يؤكد أنهم من أنقى العناصر الاسلامية وحماة حمى العقيدة المحمدية الرشيدة .

وقد اجتمع النسب واللغة والطائفة معا لتخلق فى السعوديين نوعا من التعالى ، وفى أوائل السبعينيات كانت الثروة الطائلة التى هبطت عليهم كهبة من السماء بمثابة التأكيد الأخير على سمو مركز السعوديين بين العرب ، وبرغم أن هناك عربا آخرين يتمتعون بالاحساس بالتفوق على غيرهم ، فان أيا منهم لا يسخر ممن يعتبرونهم أقل منهم شأنا بنفس القدر من الازدراء الذى يبديه السعوديون تجاه الآخرين . فالمصريون والأردنيون والسوريون ، وسائر العرب جميعا يمكنهم أن يشهدوا بكبرياء السعوديين الشديد وبرغم أن السعوديين قد يرددون كلمات الأخوة ، فانهم يفضلون السير بمفردهم فى عالم العرب .

وقد أصبحت المملكة التى أسسها عبد العزيز تمتد من الغرب الى الشرق من البحر الأحمر حتى الخليج ومن الشمال الى الجنوب من شمالى العراق وحتى جبال اليمن . وكانت هذه المملكة التى تضم قبائل شرسة ، كما تضم المدن الاسلامية المقدسة تتحدى أية حكومة . وسعى عبد العزيز، الذى كان يواجه سكانا لا يجمعهم أى ولاء مشترك ، الى كسب ولاء شعبه بجعل نفسه حاميا لحمى الاسلام .

وهكذا أصبح المذهب الوهابى بديلا عن القومية . وبتوجه من الملك ، سيطر المذهب الوهابى على تقاليد المجتمع وسلوكه ، وهيمن على التصورات والاتجاهات وأصبح محركا للسياسات ، وجسد نظام القيم الذى استندت عليه شرعية آل سعود . وانضم العلماء الى الملك وزعماء القبائل ليكونوا ثالوثا يعمل على توحيد هذه الأرض البرية وجمعها معا . ونتيجة لذلك أصبحت حكومة المملكة العربية السعودية حكومة شبه دينية صارت فيها مسائل مثل ما اذا كانت الشريعة الاسلامية تبيح استخدام الراجة داخل المملكة الوهابية من قضايا الحكم الهامة .

وباعتبار الحكم ذا الطابع الشخصى للنبى (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة المثل الوحيد لنظام الحكم الذى عرفه ، أصبح عبد العزيز مؤسس المجتمع وشيخه الجليل ، والأب الذى يعاقب ويكافىء . وكان يجوب مملكته الواسعة ومعه خزانة الدولة فى صندوق خشبى يتمايل فوق ظهر أحد الجمال وكان يدير شئون مملكته من خلال مجلس شيوخ القبائل ، وكان الملك المهيب طويل القامة يجتمع بمستشاريه وكبار رجاله غالبا فى خيمة ، حيث كان يقيم العدالة بنفسه ويقدم الخدمات الحكومية لرعاياه . وكان يربط القبائل بشخصه بالزواج من خلال معاشرة عدد كبير من الزوجات .

وكان عبد العزيز دائم الاحتياج الى المال لسبب بسيط هو أن أى شيخ لا يستطيع الاحتفاظ

بولاء شعبه الا من خلال قدرته على رعايتهم والاهتمام بهم ، وكان الناس يتوافدون يوميا على ملكهم طلبا لكيس من الأرز أو عباءة أو حتى مجرد وجبة . ولم يكن أى منهم يرجع خالى الوفاض ، حتى وان كان عبد العزيز ، الذى كان يحكم بلادا لم تكن تعرف من الموارد الطبيعية سوى التمر ، لا يملك سوى القليل ليمنحه .

وكان الحج إلى مكة بمثابة أوزة عبد العزيز الذهبية شبه الجائعة التى يتساقط ريشها . فالرسوم التى كان يدفعها الحجاج مقابل الطواف والإنتقال والطعام والإقامة والخراف أو الماعز الخاصة بعيد الأضحى ، كانت تذهب إلى صناديق خزانة عبد العزيز الخشبية . وفى العشرينيات كانت تلك الرسوم تدر على الملك عائدا سنويا يقدر بسبعمائة وخمسة وعشرين ألف دولار . وكان مصدر دخله الآخر الوحيد المعروف يأتى من الإعانة السنوية البريطانية التى كانت تقل عن ثلاثمائة ألف دولار فى السنة . لقد كان عبد العزيز ودولته فقيرين يعيشان على الإعانات .

وفى عام ١٩٣٣ أفاضت عليه العناية الإلهية بعوائد جديدة حينما منح عبد العزيز بلك لهفة إمتيازا للتنقيب عن النفط لمدة ستين عاما لشركة ستاندرد أويل فى كاليفورنيا مقابل مائتين وسبعة وخمسين ألف دولار . وقد أتاح هذا الإتفاق للملك ما هو أكثر من المال - إذ ربط مملكته برابطة قوية مع الغرب تفوق ما أدركه آنذاك . فقد أدت تكنولوجيا الغرب وحاجته إلى النفط السعودى إلى خلق الثروة السعودية ، وأدت الثروة السعودية إلى وجود الحاجة الى شكل من أشكال الدفاع الوطنى لم يستطع السعوديون توفيره لأنفسهم . وفى الخمسينيات ، واجهت المملكة العربية السعودية الغنية ذات الإرتباط الوثيق بالغرب ، القومية العربية فى عهد جمال عبد الناصر .

وفى عام ١٩٥٢ ، وهو نفس العام الذى تولى فيه الضباط الأحرار مقاليد الحكم فى مصر بزعامة عبد الناصر ، تخطى عبد العزيز عامه السبعين . وكان كثيرا ما يجلس فوق سطح قصره الجديد على كرسيه المتحرك الذى أهداه إليه فرانكلين روزفلت حينما إلتقى به فى البحيرة المرة الكبرى لبحث مستقبل فلسطين . ونظرا لعدم حصوله على عائدات النفط بسبب الحرب العالمية الثانية ، قام عبد العزيز بتشييد قصر لا يزيد كثيرا فى فخامته عن البناء القديم ذى الجدران المصنوعة من الطين الذى كان يحكم منه مملكته الفقيرة . وكانت الرياض ، التى كانت تمتد خلف حديقة القصر الجديد الجرداء ، لاتزال أكبر قليلا من قرية قابعة وسط الصحراء العربية الواسعة . ولكن عاصمة عبد العزيز المتواضعة كانت تناقض إنجازات ملكها . فخلال الخمسين عاما التى حكم فيها البلاد ، أثبت عبد العزيز بن سعود أنه أعظم حاكم حكم الجزيرة العربية منذ النبى محمد (ﷺ) نفسه . فقد سعى بين القرى والمدن الصغيرة بوعده بإحلال الإستقرار . وإستطاع إخضاع البدو الشرسين بما تحلى به من الجمع بين النقاء الدينى والحكم الأبوى والقبضة القوية . وقام وحده تقريبا بتأسيس الدولة الوحيدة التى عرفها هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية آنذاك . وكانت دولة إتحدت فيها الطبيعة الجغرافية الجرداء الواسعة والتاريخ الذى لم يدنسه التدخل الأجنبى تقريبا ، والحكومة التى زاوجت بين السلطة العلمانية والدينية والشعب الذى يتملكه الخوف من الأجانب ، ليكون منها دولة متفردة بين الدول العربية . ومن خلال التجربة والإختيار ، ظلت المملكة العربية السعودية بمعزل عن الآخرين . وفى نظر العرب الآخرين كانت المملكة بمثابة منطقة نائية ، ومجرد

صحراء يسكنها جماعة من الهمج تقع خارج إهتماماتهم أو رغباتهم حيث تركوا للسعوديين غير المتعلمين وغير المروضين حرية البقاء فى عزلتهم التى فرضوها على أنفسهم . وحينما توفى عبد العزيز فى الطائف فى التاسع من نوفمبر ١٩٥٣ ، كان على ورثته ضمان أن مملكته ستظل بمنأى عن الإضطرابات المتزايدة فى العالم العربى .

ولم يحدث من قبل أن إنتقلت عباءة الملك إلى ملك جديد . فقد كان عبد العزيز حاكم المملكة العربية السعودية الأول والوحيد . ومن ثم تحول آل سعود إلى النموذج الوحيد المعروف الذى عرفوه - وهو الأسلوب الذى أختير به خليفه محمد (ﷺ) فقد إجتمع زعماء القبائل وأعضاء الأسرة المالكة والعلماء معا للتوصل إلى إتفاق جماعى فى الرأى . وإتفقوا على إختيار سعود ، أكبر أبناء عبد العزيز العظيم . ولسوء الحظ ، لم يكن سعود ، طويل القامة الذى يضع نظارات على عينيه مهيئا أبدا ليكون ملكا . فحينما خطت المملكة العربية السعودية أولى خطواتها المترددة للخروج من عزلتها ، لم يكن سعود يعرف شيئا عن إدارة شئون دولته ، بدءا من شئونها المالية إلى شئونها الخارجية .

وقد أدت حاجة الغرب للبترول السعودى الرخيص عقب الحرب العالمية الثانية إلى إنهاء
ش٦ مشكلات ملوك آل سعود الإقتصادية المتزامنة . ففى عام ١٩٥٤ ، كانت شركة أرامكو ، الشركة العربية - الأمريكية للنفط ، تنتج ما قيمته ٢٣٤٫٨ مليون سنويا ، تذهب كلها إلى خزائن سعود الشخصية . وإبتعد سعود عن أسلوب الحياة المتواضعة الذى كان يحياه عبد العزيز ، وإنتقل بأسرته إلى الناصرية ، وهى مدينة صغيرة ذات لون أرجوانى مشرق تقع على أطراف الرياض . وأحاط نفسه هناك بحاية كان الملك يعنى بالنسبة لسعود مجرد الزواج بأجمل نساء المملكة والإجتماع برجال البلاط ، وإنفاق عائدات المملكة من النفط المتزايدة بإستمرار .

وقد وضع سعود أساس البذخ الملكى . فحينما كان يسافر إلى الخارج ، كانت محلات البيع الكبير تفتح على آخرها من أجل الحاشية الملكية التى كانت تشترى كل شىء بدءا من فوط الحمام حتى معاطف الفراء . وكان الملك نفسه يشترى العديد من سيارات الكاديلاك ، وهى السيارة الأولى فى الخمسينيات . وحينما ذهب إلى بوسطن لإجراء عملية بعينيه عام ١٩٦٢ ، قام سعود بحجز طابقين فى فندق كوبلى بلازا الفخم . وكان مطعم النيل فى بوسطن ينقل يوميا الطاووس المستوى ، وأفراخ الحمام ، والحملان المشوية الكاملة والحمص المهروس إلى مصعد الملك الخاص المغطى ببساطة شرقى . وحينما غادر سعود المكان ، قام بتوزيع ساعات قيمتها أحد عشر ألف دولار كبقشيش . ويبدو كل ذلك تافها بالمقارنة بأشكال الإسراف والتبذير الملكى التى شهدها العالم إبان فترة إرتفاع أسعار النفط فى السبعينيات . ولكن ذلك كان قبل أكثر من عشر سنوات ، حينما كانت المملكة العربية السعودية تبيع نفطها بأقل من دولارين للبرميل .

وضل سعود وابتعد عن التعاليم التى حددها المذهب الوهابى المتزمت . ونظرا لعدم وجود سوابق لإزاحته ، أقام أهل « الحل والعقد » - وهم أفراد الأسرة وزعماء الأسرة وزعماء القبائل والعلماء - مجلسا للوصاية على العرش على نحو غير مرتب برئاسة الأمير فيصل . وبعد ست سنوات من الإقتتال العائلى ، أصدر العلماء فتوى أعلنوا فيها عدم أهلية سعود للحكم . وبعد سبعة أشهر ، وفى أول نوفمبر عام ١٩٦٤ ، تنحى سعود ، وذهب إلى المنفى .

وترك لفيصل ، ثانى أبناء عبد العزيز ، مهمة تطهير المملكة وديناً على البلاد يقدر بمليون دولار . وكان فيصل ، ذو القوام الممشوق والأنف المعقوف والعينين الواسعتين البارزتين المفعمتين بالعاطفة ، شخصية تتسم بأفضل السجايا ، وأشهر الصور التى تصور فيصل ، وهى تلك الصورة التى تظهر عادة فى كل المطبوعات التى تصدرها الحكومة السعودية عن ملكها السابق ، يظهر فيها فيصل وقد إرتدى ثوباً ناصع البياض وهو جالس للصلاة وقد رفع أصابعه الطويلة فى تضرع وإبتهال إلى الإله الواحد . وبدءاً بنفسه كمثل للتقوى ، منع الملك الصارم إستخدام سيارات الكاديلاك ، التى كانت من أكثر رموز الفساد الملكى وضوحاً ، وأغلق الباب أمام أسلوب حياة العائلة الملكية الباذخ . وبفرض القيود على أسرته ، كان فيصل يضع فى إعتباره المُنتقدين الوهابيين لآل سعود وأيديولوجية عبد الناصر الثورية المعادية للنظام الملكى .

وقد خرجت ثورة عبد الناصر عن حدود مصر فى عام ١٩٥٥م بعد ثلاث سنوات من وفاة عبد العزيز . ووجهت طاقاتها الى إستحكامات المملكة العربية السعودية . وأضطر المد الناصرى المتزايد آل سعود الى السير على حبل مشدود تحفه المخاطر بين الولاء للعالم العربى الواسع والحفاظ على مصالح المملكة الخاصة . وكان شعار سياسة حقبة الخمسينات والستينات هو « بترول العرب ملك للشعب العربى » . وقد ولد من أمة عربية مقسمة بين من يملكون آبار البترول تحت رمالهم ومن لا يملكون . وهكذا أخذ من لا يملكون بزعامة عبد الناصر فى مصر يعلنون بصوت عال رسالة القوميين العرب ـ وهى أن الحدود الوطنية حدود مصطنعة وخطوط لا معنى لها فرضتها القوى الاستعمارية . فالعرب شعب واحد ، وأمة واحدة ، ووحدة اقتصادية واحدة .

وقد تقبل عدد قليل من السعوديين فلسفيا الحركات الإشتراكية العربية . فالمملكة العربية السعودية بلد المذهب التقليدى والتزمت الوهابى . ومعظم السعوديين الذين كان لديهم قدر كاف من التعليم يمكنهم من فهم أو الاعتراف بشعار عبد الناصر الخاص بالقومية العربية ثاروا ضد هذا الشعار بإعتباره قوة علمانية تنتقص من قدر الدين وكان ذلك على المستوى الفلسفى . أما على المستوى الاقتصادى ، فقد تملك الرعب نفوس السعوديين حينما وصف عبد الناصر ، وهو يثير مشاعر جماهير مستمعيه ليحولها إلى أصوات عالية محمومة ، البترول السعودى بانه بترول عربى . ورفض الحاكم ورعاياه أية نظرية سياسية تشير ضمنا الى ضرورة توزيع ثروات البترول العربية الغنية بالبترول بين الدول العربية الشقيقة الفقيرة . وكانت الفكرة المزعجة بضرورة توزيع عائدات النفط السعودى على العالم العربى تروع الشعب الذى ظل يعانى من الفقر المدقع لقرون عديدة . وبرغم أن عبد الناصر والوحدة العربية الشاملة كانا يحظيان ببعض الأعجاب من معارضى آل سعود ، فإن هذا الاعجاب كان ينطوى على سياسة جمهورية وليس اقتصاديا تعاونيا

وفى عام ١٩٥٨ ، وهو العام الذى جعل فيه سعود المملكة العربية السعودية على شفا الإفلاس ، كانت عظمة جمال عبد الناصر والاعجاب الخفى به قد بلغا أوجهما . ومع تصدر إذاعة القاهرة للصفوف هزت الوحدة العربية الشاملة الثورية بوابات مملكة آل سعود المحكمة . وكانت كماشات الراديكالية العربية تضغط من القاهرة ودمشق وبغداد . وكانت مصر وسوريا تمثلان جبهة واحدة ممثلة فى الجمهورية العربية المتحدة . وأطاحت الثورة برأس الملكية فى العراق . وسقط الملك سعود فى فخ مؤامرة هزلية لإغتيال عبد الناصر . وأخذت أسطورة الخطر المحدق تطارد

آل سعود . وبينما كان الراديكاليون العرب يعملون على تدعيم روابطهم بالإتحاد السوفييتى ، كان آل سعود يعملون على توثيق علاقتهم بالولايات المتحدة الأمريكية .

وبحلول عام ١٩٦٢ ، كان الأمير فيصل يسيطر على شئون السياسة الخارجية للمملكة . وبخروج البلاد من عزلتها ، وضع المملكة تماما فى مواجهة عبد الناصر والراديكاليين العرب . وبإستخدام الإسلام كأساس منطقى ودرع واق ، رسم فيصل خطا حول الدول الصغيرة الضعيفة الواقعة على حدود المملكة العربية السعودية الشرقية والجنوبية . وأعلن ان هذا الخط يمثل مجال نفوذ المملكة العربية السعودية ، وينبغى حمايته فى مواجهة الوحدة العربية الشاملة بالوسائل الدبلوماسية وبالمال . وهكذا تم إعداد خشبة المسرح لحسم النزاع بين راديكالية عبد الناصر ونزعة فيصل المحافظة . ووقعت الأحداث فوق أبعد أطراف العالم العربى ـ فوق أرض اليمن .

وتحيط اليمن ، وهى أرض وعرة تتميز بجمال الطبيعة ، برأس شبه الجزيرة العربية كقطة نائمة . وتنحدر الجبال الشمالية نحو سهل ساحلى يصل الى ميناء عدن . وفى الوديان وفوق التلال ، تنتشر المنازل الحجرية المزينة بأفاريز دائرية سميكة تجعلها تبدو مثل كعكات الزفاف ، فى مجموعات بين شجيرات القات الكثيفة ، التى تنتج الأوراق المخدرة التى تمثل أحد الهموم الوطنية . واليمن بلد قبلى . ويميل سكانه إلى العنف والخشونة . ورمز الرجولة عند جميع السكان هو « الجنبية » وهى عبارة عن خنجر مقوس حاد الطرف يشد الى الخصر . والفقراء الذين لا يستطيعون شراء سكين ، يستخدمون نحتا خشبيا مفرغا على شكل خنفساء كشارة تدل على استعدادهم للقتال . وكانت تلك البيئة التى نشبت فيها حرب اليمن .

وفى إحدى نوبات العداء فى عام ١٩٦٢ إحتشد سكان عدن المنخفضة والمشيخات المحيطة بها خلف جيش يتشدق بشعارات جمهورية وماركسية وتحدوا رجال الجبال فى الشمال الذين تجمعوا للدفاع عن إمامهم ، محمد البدر . وفى السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ ، صف جيش الجنوب دباباته حول قصر الإمام فى صنعاء ، وأطلق النار وأسقط الطابق الثانى من القصر . ولم يكن الأمر سوى نزاع قبلى مرتبط بشعارات ايديولوجية يدور فى أحد أطراف العالم العربى المعزولة تماما والتى لم تر زجاجة كوكاكولا فى حياتها . ولكن فى جو بداية الستينيات المشحون للغاية ، لم يكن أى نزاع يتعلق بالعرب يبقى معزولا . ففى غضون أيام ، أرسل عبد الناصر قوات الى اليمن بإسم الثورة الاشتراكية والقومية العربية . ورد فيصل على ذلك بتدعيم الامام والنظام الملكى بالدولارات النفطية . وطوال السنوات الخمس التالية كان اليمن ساحة قتال واجهت فيها قوات عبد الناصر الثورية قوات فيصل المحافظة لتحديد مستقبل العالم العربى .

ووضع عبد الناصر خمسة عشر ألف رجل ، أى ما يعادل سدس الجيش المصرى ، فوق جبال اليمن الشمالية الشاهقة الوعرة . وبينما كانت القبائل شديدة الولاء لإمامها تتحصن فى كهوف داخل أرض مألوفة لها وتعيش على الامدادات السعودية من الطعام والذخيرة ، .كانت قوافل الشاحنات والعربات المصفحة التى تحمل القوات والامدادات المصرية تزحف ببطء صاعدة الطرق الملتوية الممتدة من ميناء الحديدة على البحر الأحمر حتى صنعاء . وقد وجه أحد الصحفيين سؤالا لعقيد بالجيش المصرى كان يتصبب عرقا وهو يصرخ بالتعليمات لرجاله ، عما يفعله الجيش المصرى فى

اليمن فأجابه : « إننا عرب وينبغى ان نساعد أشقاءنا . هذا هو واجبنا » . ★

ونظرا لعجز عبد الناصر عن زحزحة قوات الإمام ، فقد أمر الطائرات المصرية عام ١٩٦٣ بقصف مدينة نجران السعودية الواقعة على الحدود وكذا السهل الساحلى حول جيزان ، مما أدى الى فرار أربعين ألف شخص فى رعب وفزع . بيد أن هذه الإستراتيجية أخفقت فى وقف مساعدات فيصل للإمام . وبحلول عام ١٩٦٤ ، كان هناك أربعون الف رجل من جنود عبد الناصر فى اليمن يستنزفون إحتياطياته من الأموال والموارد .

وطالت الحرب التى لم يستطع أى من مناصريها إحراز نصر فيها أو الانسحاب منها ، وتطلبت أساليب حربية جديدة . وبدءا من شهر نوفمبر ١٩٦٦م أخذت مصر ترسل عملاء يمنيين الى داخل المملكة العربية السعودية ، حيث قاموا بزرع قنابل داخل وزارة الدفاع فى الرياض ، وقصرين من القصور الملكية وخط أنابيب التابلاين الجوى الذى ينقل البترول السعودى إلى موانىء البحر المتوسط . وكانت الأضرار السياسية تفوق كثيراً الأضرارالمادية . فقد أعلنت العديد من « حركات التحرير » عن نفسها بعد أن شجعتها أعمال التخريب ، وظهرت الإنقسامات داخل أسرة آل سعود على الملأ . ففى الوقت الذى نفى فيه فيصل أحد أشقائه ذا الميول الجمهورية ، سعى الملك سعود المخلوع إلى إسترداد عرشه من خلال إذاعة القاهرة . وإنتهى ذلك كله بهزيمة عبد الناصر المهينة فى حرب ١٩٦٧م .

وقد قضت الوحدة العربية الشاملة المناضلة نحبها عام ١٩٦٧م وأسفرت حرب الأيام الستة عن تحطيم قوة الدول الراديكالية وثقتها بنفسها ، مما أتاح عقد صفقة بين النظم الوراثية الحاكمة فى الخليج والدول المصرية . وبرغم أن متطلبات الوحدة العربية كانت تحول بين إعرابهم عن ذلك صراحة ، فقد كان آل سعود « يشعرون بشىء من الراحة لأن من عملوا على زعزعة الإستقرار لفترة طويلة قد دفعوا ثمن آثامهم ، وأصبح (السعوديون) يستمتعون بفترة السلام النسبى نتيجة للهزيمة » . ★

ولكن السعوديين عانوا أيضا من الآلام المرتبطة بهزيمة العرب فى ١٩٦٧ ، فالسعوديون ، الذين يشاركون فى الشرف الجماعى للعرب ، شاركوا فى مهانة الهزيمة العربية المنكرة . وكانت هناك القدس . إذ فقد المسلمون ثالث الأماكن الإسلامية المقدسة . وكان الملك فيصل يحلم طوال الأيام المتبقية من حياته بأداء الصلاة مرة أخرى فى المسجد الأقصى . وكان الشغل الشاغل للسعوديين بعد ١٩٦٧ هو مسألة القدس وليس قضية الفلسطينيين وأرضهم الضائعة . بيد أن السعوديين لم يستطيعوا تجاهل الفلسطينيين .

وعشية كارثة العرب فى ١٩٦٧ ، إنطلق الفدائيون الفلسطينيون من مخيمات اللاجئين ليعلنوا إنتقامهم من الأنظمة العربية التى تتوانى عن دعم مطالبهم بالعودة إلى أرض فلسطين . وإنكمش

★ أورده ديفيد هولدن فى « أهداف متعارضة فى رمال اليمن » ريبورتر ، ١٤ فبراير ، ١٩٦٣ . ص ٣٧

★ عجمى ، المأزق العربى ، ص ٧١ .

آل سعود خوفا من هؤلاء الرسل الجدد للعروبة . وفى مواجهة تلك الحركة السياسية التى تغذيها هجمات الفدائيين ، كان على آل سعود الدفاع عن نظام إنتاج البترول وتوزيعه المعرض للخطر ، وعن الآلاف من أعضاء الأسرة المالكة ، وعن تحالفهم مع الأمريكيين . وفى الثلاثين من مايو ١٩٦٩ ، أظهرت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مدى تعرض المملكة للخطر بشكل فعلى . فقد إنفجر خط التابلاين ، وهو خط الأنابيب الذى ينقل ٢٣ مليون طن من النفط سنويا الى موانىء البحر المتوسط ، وتناثر الى شظايا بفعل قنبلة إرهابية .

وكان على آل سعود ، المعرضين لهجوم الراديكاليين بسبب تحالفهم مع الأمريكيين ، أن يفعلوا شيئا لدعم القضية الفلسطينية لحماية أنفسهم من غضب الرجال الذين يتربصون بهم خارج حدودهم . وكانت إثارة مشاعر رعايا آل سعود تتوقف إذا تحركت القضية الفلسطينية خارج نطاق مسألة إستعادة القدس . ومن خلال المنظور السعودى ، لم يكن الفدائيون الذين يشار اليهم بلبنان فى سائر بلدان العالم العربى سوى عصابات وحشية تعكر صفو السلم والنظام اللذين يتوق السعوديون إلى إحلالهما .

وفى سلسلة من التحركات الرامية إلى حماية المملكة العربية السعودية من الراديكالية الفلسطينية وتأكيد توجهاتها العربية ، مارس فيصل ضغوطا على إدارة نيكسون بشأن النزاع العربى الإسرائيلى ، متعللا بأن هذا النزاع يأتى فى صميم المتاعب السعودية للإبقاء على التحالف الأمريكى فى حلبة الصراع السياسى العربى . وفى الوقت نفسه راح يضخ الأموال فى خزائن فتح ، أكثر جماعات الفدائيين الفلسطينيين إعتدالا ، وأصدر أوامره بأن تقوم المملكة بتطبيق المقاطعة العربية المفروضة على البضائع والسلع الإسرائيلية والشركات الغربية التى تتعامل مع إسرائيل . وقد كانت المقاطعة العربية هى الشىء الوحيد الذى هيأ للسعوديين أكثر الوسائل أمنا لتأكيد عروبتهم . وكلما إزدادت المملكة العربية غنى ، إرتفع صوت المقاطعة معلنا إلتزامها بالموقف ضد العدو الصهيونى .

ولم يكن فيصل يرغب فى أن يعمل إحلال السلام بين العرب وإسرائيل على إخماد الراديكالية العربية فقط ، بل كان يسعى أيضا إلى إضعاف النفوذ السوفيتى بين الدول العربية . فقد كان فيصل المسلم والملك المحافظ يريد إبعاد الإتحاد السوفيتى عن العالم العربى . وعندما مات عبد الناصر ، إغتنم الفرصة لإبعاد مصر عن الروس .

ووضع الملك فيصل وأنور السادات معا خططا لشن حرب عربية ضد إسرائيل . ومقابل قيام السادات بطرد الروس من مصر فى شهر يوليو ١٩٧٢ ، قام فيصل ، بالإضافة إلى الإعانة السعودية السنوية لمصر التى كانت تبلغ مائتين وخمسين مليون دولار ، بجمع ما يقرب من خمسمائة مليون دولار أخرى من دول الخليج الأخرى من أجل شراء الأسلحة لمصر وكذلك ما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة مليون دولار من أجل تدعيم ميزان المدفوعات . وفى صيف ١٩٧٣ توجه فيصل إلى القاهرة ليؤكد تعهده بأن المملكة العربية السعودية ستفرض حظرا بتروليا على الدول المؤيدة

لإسرائيل إذا قامت مصر بمهاجمة إسرائيل فى الأراضى التى إحتلتها فى حرب ١٩٦٧•. المملكة العربية السعودية مثلت فقط عمليات الحظر البترولى من قبل - فى الحربين العربيتين الإسرائيليتين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . وكان سعود أولا ثم فيصل من بعده قد رفضا تسليم عبد الناصر المروع سلاح العرب الأخير ضد الغرب . ولكن السادات كان مختلفا . إذ لم يكن يتمتع بالقدرة ولا الإرادة اللتين تمكنانه من إحتلال مكان عبد الناصر كبطل أسطورى للجماهير العربية . وبقيادته لمصر بعيدا عن سياسات عبد الناصر ، وإستعداده للتفاهم مع السعوديين مقابل مساعدته على إنقاذ إقتصاد بلاده الذى يعانى من الخراب ، لم يكن أنور السادات يمثل تهديدا لآل سعود . ونتيجة لذلك ، حينما قامت مصر وسوريا بحربهما ضد إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت المملكة العربية السعودية شريكا صامتا فى الإئتلاف .

وبينما كان الآخرون يقاتلون ، كان الملك فيصل يصدر تحذيرات جادة للولايات المتحدة بتطبيق حظر بترولى وشيك إذا لم تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية التى إحتلتها فى ١٩٦٧ وتجاهل إدارة نيكسون لحقيقة أن الولايات المتحدة تستهلك بترولا مستوردا من الخارج بمعدل مليون برميل يوميا ، فقد رأت أن تحريك شخصية المتطفل الهزلى كمتحدث بإسم حملة تطوعية للحفاظ على الموارد هو كل ما تحتاجه الولايات المتحدة لإدارة الأزمة . فبالنسبة للحكومة الأمريكية ، لم تكن مصالح المملكة العربية السعودية الدفاعية والإقتصادية الأساسية لتسمح لها على الإطلاق بمواجهة الولايات المتحدة . وربما كانت هذه العوامل ستقيد أيدى السعوديين إذا كانت القوات العربية البرية قد إحتفظت بمواقعها وإذا كانت الولايات المتحدة قد إمتنعت عن تعويض الخسائر الإسرائيلية .

وبعد مرور يومين على إندلاع حرب أكتوبر ، كانت القاهرة والرياض مرتبطتين بخط تليفونى مباشر . ونظرا لأنه لم تكن ثمة مخاطر مماثلة لحيلة عبد الناصر بعدم إبلاغ الملك حسين بأى شىء عن الموقف العسكرى فى عام ١٩٦٧ ، كان السعوديون يتمتعون بحرية الوصول إلى المخابرات المصرية ويراقبون سير الحرب من أرض القاهرة . وفى الأسبوع الثانى من الحرب ، أبلغوا فيصل أن الجيوش العربية بدأت تخسر ما أحرزته من مكاسب فى الأيام الأولى . وفى التاسع عشر من أكتوبر ، طالب نيكسون ، الذى كان ينظر إلى الحرب من خلال منظور التنافس الأمريكى - السوفيتى فقط ، الكونجرس بتخصيص ٢ر٢ بليون دولار كمساعدة عسكرية لإسرائيل . وفجأة واجه الملك فيصل الخطر المحقق بأن تتعرض المملكة العربية السعودية للعزلة فى بحر الغضب العربى الذى أشعله الدعم الأمريكى لإسرائيل . وفى اليوم التالى إستل فيصل سلاح البترول من غمده ، وتوقف عن ضخ الستمائة ألف برميل من النفط التى كان يرسلها يوميا للمساعدة فى تغذية الإقتصاد الأمريكى بالوقود . وسرعان ما إلتفت صفوف السيارات كالثعابين العملاقة حول مضخات الوقود . ودفعت أسعار البترول التى إرتفعت إرتفاعا كبيرا الإقتصاد إلى حافة

• أنظر الفصل التاسع .

الخطر . ووجه الرئيس نيكسون الذى أصابه الهياج تحذيرا فى أحد المؤتمرات التى عقدها أنصار البيئة قائلا : « إذا تجمد المرء حتى الموت ، فليس ثمة فرق أن يكون الهواء نقيا أو ملوثا »• .

وفى إحدى الصور الكاريكاتورية صورت المملكة العربية السعودية على شكل شيخ ذى أنف معقوف يمسك نسرا أمريكيا نصف عار بإحدى يديه بينما يقوم بنزع الجزء المتبقى من ريشه بيده الأخرى . وبالنسبة للعرب ، عادت المملكة العربية السعودية لتحتل مكانتها بين الصفوف العربية . لقد واجه السعوديون المحافظون الولايات المتحدة بإسم الأمة العربية .

وإستمر الحظر حتى مطلع العام الجديد . وقفزت أسعار البترول من ٣ر٠١ دولارا للبرميل قبل الحرب إلى ١١ر٦٥ دولار . بينما تعهدت الدول العربية المنتجة للبترول بمواصلة فرض الحظر إلى أن يتوقف الدعم الغربى لإسرائيل . ولم يكن فيصل يشعر بالإطمئنان . فبينما كان على قناعة تامة بأن الولايات المتحدة لابد أن تواجه حقيقة أن الشرق الأوسط لن يعرف الإستقرار أبدا ما لم تحل المشكلة الفلسطينية ، فإنه لم يكن مستعدا للضغط على الولايات المتحدة من أجل السياسات الإشتراكية والراديكالية التى ينتهجها كثيرون فى العالم العربى من وجهة نظره . وأدرك فيصل وأشقاؤه ، الذين يتخذون القرارات الخاصة بآل سعود ، أنهم فى نهاية الأمر يعتمدون على القوة والإرادة الأمريكيتين لحمايتهم من أعدائهم - المحليين والأجانب . وفى مارس ١٩٧٤ ، ومع فصل القوات المصرية والسورية الإسرائيلية بفضل الجهود الدبلوماسية الأمريكية ، قامت المملكة العربية السعودية برفع الحظر عن حليفتها المستمرة منذ أمد طويل . وفى الرشهر التالى وصل فريق تابع لوزارة الدفاع الأمريكية إلى الرياض لوضع إستراتيجية عسكرية أمريكية - سعودية مشتركة لضمان أمن المملكة .

لقد أضفى الحظر البترولى معنى جديدا على لفظ العرب . وتم ترقيع الإستعماريين النهابيين فى الغرب الذى لا يقهر . وسوف يدفعون وهم صاغرون ثمن الضربات النفسية والثقافية والسياسية التى وجهوها للعالم العربى . وتبددت قرون الخزى والعار مع ركوع قوة العالم الصناعى وجبروته امام منتجى البترول العرب . ولم يؤدى الحظر إلى إسترداد الشرف العربى الذى طالما سعى العرب لإستعادته فقط . بل حقق لهم أيضا شىء لم يعرفوه من قبل - وهو القوة . لقد ولد العرب من جديد من الخليج عبر قلب العالم العربى وحتى بلاد المغرب .

إن العصر العربى ، الذى يرتبط حتما بإسم عبد الناصر ، تراجع أمام العصر السعودى ، حينما اعتقد كثيرون أن ثروات السعوديين ونفوذهم ستصبح فى خدمة جميع العرب . بيد أن ثروة العرب وقوتهم اتضح أنهما سريعتا الزوال بالنسبة للعرب الذين يعيشون خارج الدول النفطية وحدهم . والواقع أن الإنفجار الذى شاهدته أسعار البترول فى ١٩٧٣ - ١٩٧٤ ، أدى إلى إتساع الفجوة بين أغنياء العالم العربى وفقراءه . وفى عام ١٩٧٤ ، بينما كان دخل الفرد فى المملكة العربية السعودية يصل الى ٦٩٩١ دولارا ، وفى سوريا ٣٤٠ دولارا ، ولا يزيد عن ٢٤٠ دولارا فى

• نيوزويك ، ٢٢ أكتوبر ، ١٩٧٣!

مصر . وأصبح السعوديين شعبا بالغ الثراء وسط جيران يعانون من الفقر المدقع . وتصاعدت تلميحات الستينيات بأن البترول السعودى ملك للعرب لتطالب المملكة العربية السعودية بتوزيع ثروتها على الأمة العربية . غير أنه سرعان ما تبين أن ثروات المملكة العربية السعودية الجديدة الهائلة لن تنتقل الى الأمة العربية إلا فى شكل مساعدات للحكومات المتذمرة والى العمالة العربية التى تستقدم إلى المملكة للقيام بالأعمال التى لا أو لن يستطيع السعوديون القيام بها بأنفسهم . ولقد لخص أحمد الشقيرى ، الزعيم السابق لمنظمة التحرير الفلسطينية حالة الإحباط والعداء بقوله : « لقد إنتصر بترول العرب على العرب »* .

ولكى يفهم المرء ما أحدثته الثروة السعودية فى نفوس عرب الدول العربية غير النفطية ، فإنه لم يكن عليه إلا أن يمضى ظهيرة أحد الأيام فى بهو أى فندق من فنادق بيروت . ففى الفترة من ١٩٧٣ الى ١٩٧٥ ، كانت بيروت بمثابة فردوس مباهج الحياة حيث كان يفد إليها السعوديون لعقد الصفقات والفرار من القيود الصارمة فى مجتمعهم . وكان الثرى السعودى النمط الجديد ، يجلس فى أحد أركان البهو وقد خلع صندله عن إحدى قدميه ومعه أحد الأشقاء أو أبناء العم أو كليهما ، وخادم يحوم حولهم خلف المكان الخالى الذى يجلس فيه أصحاب الحاجات . وفى هذا المكان الخالى كان يتقدم أصحاب الأعمال من كل حدب وصوب وهم يقبضون على العقود فى إنحناء وتذلل كما لو كانوا على إستعداد للركوع إذا طلب منهم ذلك . وكان تجار المجوهرات يحملون الحقائب المخملية ويترددون إلى من يقدرون على شراء قلائدهم وأساورهم الذهبية وبورشاتهم ذات القطع الماسية . وحولهم جميعا ، كان الندلاء يطوفون بصوانى الشاى والقهوة وزجاجات المياه ويحصلون الفواتير الضخمة التى يدفعها أثرياء العالم العربى الجدد على المائدة بإزدراء . وكان الحال يستمر على هذا المنوال طوال فترة ما بعد الظهيرة وحتى المساء .

لقد أمضيت فترة الازدهار النفطى فى المملكة العربية السعودية وفى هذه الفترة إتخذ تعبير الأثرياء الجدد معنى جديدا . فقد كان البدوى يتوجه فوق جمله الى المدينة ، ويترجل عنه فى إحدى الحظائر التى أعدها أصحاب معارض بيع السيارات ، ثم ينطلق عائدا يقود شاحنة خفيفة جديدة بيضاء . وكان الشباب الذين تحولوا بين عشية وضحاها من طلاب الى أصحاب أعمال يجوبون فى أسواق الذهب حاملين أكياس البقالة الورقية الضخمة بنية اللون المليئة بالريالات . وتولد عن هذه الثروة الجديدة المكتسبة دون عناء أو جهد نظام اجتماعى جديد ، يضم مئات الآلاف من الأجانب الذين يعملون فى المملكة ، وعلى القمة كان يجلس السعوديون ، كسادة للنظام كله . وكان يأتى بعدهم الغربيون . وقد كنا نتمتع بوضع الطبقة المميزة ، وكانوا يتساهلون معنا لأن الغربيين فى أواخر السبعينيات هم الذين كانوا يملكون المهارات والتكنولوجيا التى كان يحتاجها السعوديون لبناء عالمهم الجديد . وكانت تأتى بعدنا فى المرتبة طبقة من العرب المثقفين والمدربين

● عجمى المأزق العربى ، ص ٨٦ . لم يكن إزدهار البترول وإرتفاع أسعاره مقصورا على المملكة العربية السعودية وحدها . بل أثر على كافة مشاخات الخليج . وقد أثرت التوترات نفسها التى أوجدتها الثروة النفطية بين السعوديين وسائر العرب أيضا على العلاقات بين العرب والدول الأخرى المنتجة للنفط .

مثل الغربيين وفى القاع كان هناك العمال غير المهرة الذين ينتمون لعشرات الجنسيات ومما يدعو الى السخرية ان القوى النفسية المحركة لم تكن بين السعوديين والغربيين بل كانت بين السعوديين والعرب . فنظرا لأنهم كانوا يحتلون لقرون المرتبة السابقة على اليمنيين مباشرة فى سلم المكانة العربية ، فقد كان السعوديون يطالبون أقرانهم العرب بالاحترام الذى طالما حرموا منه .

وفى أحد الأيام فى إحدى نوبات الغضب قال لى موسى ، وهو ممرض لبنانى حسن الطلعة ذو شخصية عملية متميزة وعمل فى العديد من المستشفيات فى مناطق مختلفة من المملكة ، « سوف أخبرك بما سيقوله لك كل عربى . إن السعوديين يعاملوننا كحثالة . فهم لا يدفعون لنا نفس الأجر الذى يدفعونه للأوروبيين . وهذا جانب واحد فقط من المشكلة . ان ما يجلعني أصاب بالجنون حقا هو أنهم لايريدون ان تكون لهم أية علاقات معنا . فهم يتصرفون كما لو كنا غير صالحين بدرجة كافية للإتصال بهم .

وقد كان الوضع داخل المملكة بين السعوديين وعمالهم العرب يعكس حال العالم العربى ككل . ففى فترة إزدهار النفط التى حولت المملكة العربية السعودية الى دولة واسعة الثراء ، لم يزدهر سوى القليل من العرب بينما خسر الأخرون . ولم يكن الخاسرون مقتنعين بأن الفائزين يستحقون كل ما نالوه فعرب الهلال الخصيب ناشرو الحضارة الاسلامية العظيمة ، كانوا يثرثرون ويرددون فى استياء من أن يصبح سكان شبه الجزيرة العربية بهذا الثراء الفاحش بينما هم يعانون من الفقر المدقع .

وقد شعر آل سعود بهذا العداء . واذا كان عام ١٩٧٣ هو عام ظهور السعوديين داخل دائرة ضوء الشئون العربية ، فقد تميزت فترة ما بعد ١٩٧٣ ببحث السعوديين عن مهرب للخروج من دائرة مطالب الأمة العربية . ونظرا لرفض آل سعود السماح بإستنزاف موارد المملكة العربية السعودية فى الحفرة التى لا قاع لها فى مصر ، وسعيهم للحصول على الحماية من الحكومات البعثية فى سوريا والعراق ، وخشيتهم من غضب الفلسطينيين الذين لا وطن لهم وانتقامهم فقد تطلعوا الى هدف أكبر من الأمة العربية . ووجدوا الحل فى كتابات أحد الكتاب الأصوليين عام ١٩٦٩ التى دعا فيها الى إحياء الخلافة الاسلامية بزعامة الملك فيصل . ولتدعيم وضعه باعتباره الزعيم الموقر للمحافظين الدينيين الاسلاميين ، أعد فيصل منهاجا للسياسة الخارجية يعتمد على الاسلام . وعبأ آل سعود أموالهم ووضعهم كحماة لمكة والمدينة لملء الفراغ الايديولوچى الناجم عن موت الوحدة العربية الشاملة باتباع سياسة يعد أفضل وصف لها انها سياسة « بترو – إسلامية » ولم تنبثق هذه السياسة كحركة للاحياء الدينى بل كانت بالأحرى بمثابة ترسيخ لايديولوچية أخلاقية وسياسية محافظة تدعمها الثروة النفطية . وأصبح الاسلام بمثابة الدرع الذى يحتمى وراءه آل سعود ومملكتهم من رياح العالم العربى المعادية وسقط الملك فيصل الرمز الذى كان سيقام حوله « البترو - اسلام »

او الاسلام البترولى صريعا برصاص القتلة فى الخامس والعشرين من مارس ١٩٧٥ * ومرة أخرى حلت العملية الغامضة غير المحدودة لاختيار من يخلفه . وفى هذه المرة وقع الاختيار على خالد رابع أبناء عبد العزيز .

وكان خالد ملكا حينما وصلت الى الرياض فى ربيع عام ١٩٧٨م وكنت هناك أيضا حينما مات فى يونيو ١٩٨٢ وكان رجلا بسيطا لم يتلوث بتصرفات العائلة المالكة الصارخة بأخذ نسبة على التعاقدات التى تبرمها الحكومة وكان قصره بسيطا متواضعا يتكون من بناء من الحصى من طابقين على طريق الدرعية ، وكان يحتاج دائما لطبقة من الطلاء . وبرغم انه كان يعيش فى الرياض ، فقد كانت حياة الصحراء مع البدو هى بيته الروحى . وكما كان الحال أيام عبد العزيز ، كان يتوافد المئات على مجلسه الاسبوعى . وكان رعاياه يحيونه بعبارة « يا خالد » ويدفعون اليه بقصاصات صغيرة من الورق تحتوى على كل ما يطلبونه بدءا من طلب الحصول على أموال سائلة وتسديد الديون الصغيرة حتى الحصول على شاحنة للماء . وكان خالد لا يتمتع بنفس مكانة فيصل ، بيد ان سلوكه الورع وعائدات المملكة العربية السعودية السنوية من النفط التى كانت تقدر بسبعة وثلاثين بليون دولار جعلت منه إداريا فعالا للإسلام البترولى .

ومنذ اقامتى بمستشفى الملك فيصل التخصصى وعملى بوزارة التخطيط ، وهما من المواقع التى يزورها أصحاب المقام الرفيع فى جولاتهم الكبرى بالرياض ، أتيح لى مشاهدة مواكب الشخصيات السياسية الاسلامية بأزيائهم القومية وهم يجوبون العاصمة السعودية لجمع مستحقاتهم باعتبارهم أعضاء فى المجتمع الاسلامى . وكانوا يتوافدون أسبوعيا من افريقيا الوسطى وآسيا الصغرى وجنوبى الصين ومن الفلبين وأريتريا وجنوبى الاتحاد السوفيتى . كذلك كان يتوافد العرب من المشرق ، ليس كعرب يذكرون السعوديين بواجبهم الأساسى إزاء المحن التى يعانى منها العالم العربى وانما كأعضاء فى العالم الاسلامى الذى يتطلع آل سعود للسيطرة عليه . غير أنه برغم الستة عشر بليون دولار التى تم توزيعها بإسم الاسلام ، لم يستطع آل سعود الفرار من مطالب الوحدة العربية أو تحقيق سيطرتهم التامة على الاسلام .

وفى عام ١٩٧٨ وافقت مصر فى كامب ديفيد على احلال السلام مع اسرائيل . وكانت ادارة كارتر تتوقع ان تحذو المملكة العربية السعودية حذو مصر . وظل آل سعود عاجزين عن اتخاذ قرار لأسابيع طويلة . وتطايرت الشائعات عن الاقتتال داخل الأسرة المالكة على نحو متزايد والتى بدأت بالهمس وانتهت بقصة تزعم بأن الأمير فهد ولى العهد قد أطلق الرصاص على الأمير عبد الله ، رئيس الحرس الوطنى السعودى ، ثم تردد ان فهد طار الى أسبانيا غاضبا لأن الملك وكثيرين من افراد العائلة المالكة رفضوا الانضمام الى عملية السلام . وكانت التقاليد الراسخة فى السياسة

★ جاء إغتيال فيصل كنتيجة لمظاهرة عنيفة قام بها الأصوليون الدينيون عام ١٩٦٥ بسبب قرار الملك بإدخال التليفزيون الى المملكة . وأثناء الصدام بين المتظاهرين ورجال الشرطة ، سقط أحد الرجال صريعا . وبعد ذلك بعشر سنوات قام شقيق هذا الرجل بإطلاق النار على الملك فيصل بينما كان يغادر القصر الأحمر فى الرياض بعد عقد مجلسه الأسبوعى .

السعودية ان يتم اتخاذ القرارات خلف جدران القصر ، أما الشائعات فكان يغذيها من يعملون خارج تلك الجدران . ولم يستطع أحد تأكيد إصابة عبد الله بجرح ناتج عن طلق نارى بمن فيهم أطباء العائلة المالكة وتوجه فهد الى أسبانيا جزئيا على الاقل لبدء نظام غذائى صارم ، وحتى مع ذلك ، فقد وقعت اتفاقات كامب ديفيد ، التى قررت بمقتضاها أكبر دولة عربية سكانا انهاء حالة الحرب بينها وبين اسرائيل ، على آل سعود كالصاعقة ، وواجهتهم بالقرار المحفوف بالمخاطر — وهو الاستجابة لرغبات الولايات المتحدة أو الوقوف الى جانب الدول العربية التى احتشدت ضد مصر . وفى النهاية قرر الملك خالد وكبار الأمراء أنه من الافضل للمملكة العربية أن تواجه غضب الولايات المتحدة على ان تخاطر بالخروج من الحظيرة العربية . ولعل ما أخفقت خطة جيمى كارتر الخاصة بالسلام فى الشرق الأوسط فى حسابه هو أن المملكة العربية السعودية ظلت بعيدة عن إضطرابات العالم العربى من خلال عدم ظهورها على الاطلاق أمام الرأى العام العربى . *

وبعد ان أخفق « الاسلام البترولى » فى حماية المملكة العربية السعودية من مطالب الوحدة العربية ، واجه ضربةً أكبر من الثورة الاسلامية فى ايران . ففى يناير ١٩٧٩ ، نزل آية الله روح الله خومينى المنفى من على سلم إحدى الطائرات التابعة للخطوط الجوية الفرنسية ليقود شخصيا ثورة تقاتل بإسم الاسلام . وتمت الاطاحة بمحمد رضا شاه بهلوى الذى أفسده الغرب . وظهرت فى الأفق جمهورية اسلامية عازمة على احياء الاسلام . وجاءت كلمات آية الله لتقول : « انا نقوم بتصدير ثورتنا الى العالم كله . وسوف يستمر النضال حتى تتردد صيحة لا إله إلا الله فى كافة أرجاء العالم »* ومن خلال رؤية الخومينى التى تبشر بالخلاص ، سوف يتم تطهير عالم الاسلام من « الشيطان الأكبر » وهو الشيطان نفسه الذى يوفر للمملكة العربية السعودية مظلته الأمنية لحمايتها — أى الولايات المتحدة . وفجأة ضعف اهتمام ال سعود بمكة وعنايتهم الفائقة بها ، وهدايا المساجد والمنح والعطايا الدينية ، وترددهم باهظ الثمن للزعماء المسلمين أمام عاطفة آية الله المتأججة . وقد وصف أحد الدبلوماسيين الأمريكيين حالة المعاناة التى كان يكابدها ال سعود بقوله : « كان الأمر كما لو ان الروس قد التفوا حول اليسار ، أو نفى جورج والاس ، فى الأيام الخوالى ، الى الجنوب » * وبالنسبة لال سعود كان خطر الاسلام المتشدد بإنفعالاته الثائرة يفوق الخطر الذى كانت تمثله القومية العربية فى الخمسينيات والستينيات .

وارتجف ال سعود خوفا حينما وقعت مدينة مكة المقدسة لفترة مؤقتة فى أيدى متمردين دينيين فى نوفمبر ١٩٧٩ . وإرتعدوا هلعا حينما إنتفض سكان المملكة العربية السعودية من الشيعة فى المنطقة الشرقية ، وتميزو غضبا حينما انفجرت قنابل وضعتها جماعات سرية عقب رسالة الخومينى فى البحرين والكويت المجاورة . وأضحى الخطر الذى يهدد النظام الذى يستمد شرعيته من

★ فى عام ١٩٨١ ، تقدمت المملكة العربية السعودية بخطة فهد الى مؤتمر فاس كخطوة لرأب الصدع مع حليفها الأمريكى . وقد رفضت الخطة التى كانت تنطوى على اعتراف ضمنى باسرائيل ، وتمت الموافقة عليها بعد ذلك فى ١٩٨٢ .

★ أورده روبن رايت فى « باسم الله » : حقبة الخومينى (نيويورك ١٩٨٩) ص ١٠٨ .

★ نقلا عن جوزيف كرافت ، « خطاب من المملكة العربية السعودية » ، النيويوركر ، ١٤ يوليو ١٩٨٣ ، ص ٤٦

الاسلام واقعا فعليا وخطرا حقيقيا . واذا كانت الاتهامات التى وجهها عبد الناصر بان آل سعود مجرد تابعين خاضعين للإمبريالية الغربية قد أثارت أعصابهم ، فإن الاتهامات التى راح يكيلها لهم آية الله بان « هؤلاء السعوديين الفاسدين الآثمين لا يستحقون تولى شئون الحج والكعبة » كانت تصيبهم بالهلع » ووفقا للرسالة الساحرة للخومينى ذى اللحية البيضاء ، تم تشبيه آل سعود بالشاه بسبب اتصالاتهم بالغرب . ونتيجة لذلك راحوا يبحثون عن غطاء يقيهم عدوان الخومينى الايديولوجى .

ويرفضهم الاستجابة لطلبات الولايات المتحدة الملحة بإقامة قواعد عسكرية يمكن من خلالها تنظيم عملية الدفاع عن المملكة ، تحرك آل سعود مرة أخرى صوب الخيمة العربية . وحينما قام صدام حسين بشن الحرب ضد جمهورية إيران الإسلامية فى سبتمبر ١٩٨٠م ، وجدت المملكة العربية السعودية نفسها جانحة بين العراق الاشتراكى وحكومة إيران الدينية ، ومنذ انتصار البعث عام ١٩٦٨ والسعوديون يخشون العراق ، العملاق الظاهرى القابع على حدودهم والذى يدعو الى القومية العربية . بيد أنهم حينما اضطروا الى الخيار بين العراق العربى وايران الفارسية انحاز السعوديون الى العرب . ونتيجة لذلك تدفقت الأموال السعودية على المجهود الحربى العراقى حينما أعلن الملك فيصل « ان دول الخليج دول عربية ومصالحها هى مصالح سائر العرب »*

غير أن آل سعود كانوا لا يزالون يتطلعون الى بديل للعروبة . ووجدوا مخرجا لذلك من خلال مجلس التعاون الخليجى . وجمع مجلس التعاون الخليجي الذى تأسس فى شهر مايو ١٩٨١ بتوجيه من آل سعود واشرافهم ، المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين وعمان وقطر والامارات العربية المتحدة فى منظمة دفاعية مشتركة . وكانت المملكة العربية السعودية تأمل فى ان تؤسس من خلال هذه المنظمة نظاما للأمن الاقليمى متحررا من التدخل الامريكى الذى تحفه المخاطر ، لتتمكن من صد ايران وتشكيل تحالف عربى تهيمن عليه المملكة العربية السعودية وأوضح السعوديون منذ البداية ان مجلس التعاون الخليجى ليس جزءا من الجامعة العربية وأنه كان منفصل خارج الروابط التقليدية للسياسات العربية .

وحينما أصبح فهد ملكا فى ١٩٨٢ بدأت المملكة العربية السعودية تدريجيا تضطلع بدور أكبر فى الشئون الجارية خارج حدودها ، وقد أعدت تقارير صحفية عن فهد طوال السنتين الأوليين من حكمه . وهو مختلف تماما عن أى ملك آخر من سلالة سعود . وتكمن قوته فى الادارة فمنذ بداية حكمه قدم نفسه باعتباره أول ملك تقنوقراطى للمملكة العربية السعودية وانه مهتم بالدبلوماسية والتكنولوجيا الفنية ، وليس بالسياسة القبلية ، وفهد مثل أبيه ضخم وبدين وورث عن آل سعود حول العين اليمنى ، ويتمتع بشخصية ساحرة خلابة . وغالبا ما يشرق وجهه بابتسامة ساحرة اذا ما لوحت له فى غدوه ورواحه أثناء أداء مهامه الرسمية . وهو يتفهم مشكلات المملكة العربية السعودية فى المنطقة .

فقد أدرك فهد خلال السنوات التى قضاها كولى للعهد ان احتياطيات المملكة العربية

* سعودى جازيت ، ٢ ديسمبر ، ١٩٨٠ .

السعودية الهائلة من النفط وقوتها الاقتصادية تملى عليها القيام بدور فى الشئون الاقليمية . وكان يقوم من وقت لآخر بدور الوسيط فى الحرب التى بدأت فى لبنان فى ١٩٧٥ وأخذ فى الدوران حول المحيط الخارجى لسائر الخلافات العربية . وكان يبدو ان المملكة العربية السعودية تستطيع القيام بدور ناجح فى الساحة العربية دون ان تصبح أسيرة لقوى أكبر منها . كما كان يبدو ان المملكة تستطيع الاحتفاظ بهويتها العربية واتفاقيتها الدفاعية الامريكية طالما ظلت القوات الامريكية تلوح فى الأفق وبعيدا عن الأنظار . ولكن كان من المستحيل ان يظل كل شىء سهل القياد .

ففى شهر يونيو عام ١٩٨٤ ، دخلت الحرب العراقية ـ الايرانية شهرها الخامس والأربعين . وكان كل من صدام حسين وآية الله خومينى قد أصابهما اليأس ـ الأول يريد احراز النصر ، والثانى يتوق الى وقف اطلاق النار ، وكان الحل لكل منهما يكمن فى أن يقطع كل منهما شحنات الآخر من البترول كى يتضور عدوه جوعا فيبادر بالخضوع . وترتب على ذلك أن أصبحت ناقلات النفط العملاقة التى تنقل الخام الأسود عبر الخليج أهدافا لنيران الصواريخ العراقية والقنابل الايرانية المنطلقة من القوارب المطاطية ، ونظرا لقيام المملكة العربية السعودية بشحن الجزء الأكبر من نفطها من ميناء رأس تنور ، على الخليج ، فقد أصبحت أسيرة حرب لا تلتزم فيما يبدو بأية قواعد . وفى أسبوع واحد قام العراقيون بضرب ناقلة « العهود » السعودية واخترقت المقاتلات الايرانية المجال الجوى السعودى .

وقد استبد القلق بالمملكة العربية السعودية حينما قامت مقاتلة سعودية من طراز اف ـ ١٥ باسقاط احدى المقاتلات الايرانية من طراز اف ٤ فى مساء نفس اليوم ، وكان وقع هذا الحادث مختلفا عن حالة الفوضى التى سادت المملكة العربية السعودية حينما استولى المتعصبون المسلمون على الحرم المكى . كما كان مختلفا عن القلق العميق الذى اجتاح السعوديين والأجانب على حد سواء عند انفجار سلسلة من القنابل داخل الكويت المجاورة . وكانت هذه الأزمة تحمل فى طياتها مخاطر الحرب بالاسلحة القوية المتقدمة تكنولوجيا . ومن خلال الشرفة العليا فى منزلى كنت انظر الى السماء الحالكة وهى تنبض بوميض الأضواء المنبعثة من الطائرات العسكرية التى كانت قادمة من الشرق لتهبط فوق مطار الرياض القديم ، لتقلع من جديد ، وتتجه مرة أخرى صوب الخليج .

لقد عرضت الولايات المتحدة توفير قوات بحرية وجوية للدفاع عن الأراضى والشحنات السعودية ، بيد أن ذلك كان يتطلب وجود تسهيلات برية داخل المملكة ، ورفض آل سعود تقديم هذه التسهيلات . ذلك أن استدعاء الأمريكيين كان من شأنه أن يجعل العائلة المالكة عرضة للهجوم من كل من المتشددين الاسلاميين والقوميين العرب . وتحاشيا للخلاف والمشكلات ، قصر السعوديون مهام مقاتلاتهم أمريكية الصنع من طراز اف ـ ١٥ على القيام بعمليات المراقبة ، والاحتماء خلف درع مجلس التعاون الخليجى الهش ، وقاموا بضخ ملايين الدولارات داخل خزانة صدام حسين الحربية ، وفى صيف ١٩٧٨ حينما طالبت الكويت الولايات المتحدة برفع أعلامها على الناقلات الكويتية ومرافقتها أثناء مرورها عبر مياه الخليج الهادرة ، التزم السعوديون بالابتعاد وفضلوا المخاطرة بأنفسهم بدلا من المخاطرة باغضاب العرب والايرانيين اذا قاموا بدعوة الولايات المتحدة لدخول الخليج . وفى النهاية وبعد أن استنزفت ثمانى سنوات من الحرب كل من ايران

والعراق الى حد الموت توقف اطلاق النار .

ويتمسك السعوديين بوحدة الصف العربى بتأييدهم للعراق للاحتماء من الخطر الايرانى ساعدوا على تحويل صدام حسين الى وحش . وترتب على ذلك ان حرب الخليج الأولى ادت الى حرب أخرى . ففى عام ١٩٩٠ ، قام صدام حسين بالضغط على الكويت لتقديم تنازلات تتعلق بحقل بترول الرميلة والتنازل عن ديونه العسكرية للكويت * . وبينما كان الصيف يقارب على الانتهاء ، أخذ صدام حسين فى الضغط والكويت تقاوم ، بينما كانت المملكة العربية السعودية تقوم بالوساطة ، وحينما قام العراق بغزو الكويت فى الثانى من اغسطس ، فر الأمير ، الشيخ جابر الأحمد الصباح ، الى المملكة العربية السعودية ، مثلما فر عبد الرحمن من قبل الى الكويت عام ١٨٩١ . وفى مأوى آل الصباح فى جبال الطائف ، رأى آل سعود مدى تعرضهم للخطر ماثلا أمامهم ، فاذا عبرت طليعة الجيش العراقى المؤلف من مليون رجل الموجودة فى الكويت الحدود ، فانها ستغتصب الدولة التى ورثها آل سعود عن ابن سعود . ومقارنة بمثل هذه الكارثة الضخمة فان الاضطرابات السياسية والحضارية الناجمة عن تواجد عسكرى أجنبى فوق الأراضى السعودية تصبح مجرد مضايقات بسيطة .

وفى اليوم السادس للأزمة ، توجه وزير الدفاع الأمريكى ديك تشينى جوا الى الرياض مسلحا بالخرائط وبيانات الاستطلاع ، وخلف الأبواب المغلقة ، شرع تشينى والملك فهد وكبار الأمراء فى التداول والتشاور . وعند خروجهم ، أعلن الملك فهد أن المملكة العربية السعودية قامت باستدعاء القوات الأمريكية للدفاع عن المملكة . فمن أجل انقاذ انفسهم وانقاذ المملكة العربية السعودية ، قرر آل سعود الخروج عن دائرة التحريم السياسى والثقافى الكبرى للعالم العربى واستدعاء القوات الغربية لدخول أراضى دولة عربية .

وفى الفترة بين شهرى اغسطس وديسمبر ١٩٩٠ ، تدفقت على المملكة العربية السعودية والخليج قوة أمريكية قوامها نصف مليون من الرجال والنساء ، واندفعت قوافل من الدبابات وعربات الجيب وحاملات الأفراد صوب المناطق الشمالية من المملكة العربية السعودية وانتشرت فى أرجاء الصحراء التى كان يجوبها البدو بقطعانهم وحدهم دون غيرهم منذ أيام قليلة ، وأكدت تلك القوافل أن آل سعود قد فضلوا القوة العسكرية الأمريكية الحقيقية على مفهوم الوحدة العربية الغامض . وأعلن آل سعود فى وجودها أنه برغم أن المملكة العربية السعودية جزء لا يتجزأ من العالم الاسلامى وعضو من أعضاء الأمة العربية ،فانها أولا وقبل أى شىء عازمة على حماية مصالحها الخاصة . وأطلق الأصوليون الاسلاميون ، الذين اعتبروا وصول الامريكيين الى المملكة العربية السعودية اهانة للاسلام ، سهام حقدهم ضد المسئولين عن استدعاء تلك الموجة الصليبية الجديدة . وكانت شرائط الكاسيت التى تدين آل سعود تباع سرا فى الدهاليز المظلمة لسوق البطحاء بالرياض وتصور كيف أن المجندات اليهوديات المنتشرات فى المملكة العربية السعودية كجزء من القوات العسكرية

* انظر الفصل الحادى عشر

الأمريكية يقمن بالقاء خرق حيضهن عند قاعدة الكعبة * . وفى عمان ، أخذ الشيخ أبو زنت يوجه الفاظا قاسية من فوق منبره قائلا : « ان المعركة ليست بين العراق وامريكا وانما هى بين الاسلام والصليبين .. وقد تنازل السعوديون عن هويتهم كمسلمين حينما سمحوا للقوات الأجنبية بدخول أرضنا المقدسة .. لقد أتوا بالأمريكيين ، وجاء الأمريكيون الى الأراضى المقدسة بمرض الايدز . ان الأسرة المالكة فى السعودية قد خانت الاسلام »** .

ورد آل سعود على ذلك بأقصى ما يستطيعون ، فعلى الجبهة الدينية ، أصدر الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، كبير العلماء الموقر ، فتوى أعلن فيها الحرب المقدسة ضد العراق . « ان الجهاد الذى يتم اليوم ضد عدو الله ، صدام ، حاكم العراق ، انما هو جهاد مشروع من جانب المسلمين ومن يساعدونهم » * . وهكذا بجرة قلم حول الزعيم الدينى الوهابى الجنود الأمريكيين الى محاربين يدافعون عن الاسلام .

وعلى الصعيد الاقتصادى ، استخدم آل سعود عصاهم الذهبية ضد العرب ودولهم التى ساندت صدام حسين ، فتوقفت المعونات وشحنات النفط عن الأردن . وأغلقت حدود المملكة فى وجه الشاحنات الأردنية التى تعتمد على نقل المنتجات عبر المملكة العربية السعودية الى الامارات العربية على طول ساحل الخليج ، ووجدت الأعداد الكبيرة من الأردنيين الذين يعملون فى المملكة العربية السعودية أن الحياة شاقة ان لم تكن مستحيلة مع الاجراءات الأمنية والضربات الانتقامية التى وجهها السعوديون ضد العمالة الأجنبية المشتبه فيها .

وفقدت منظمة التحرير الفلسطينية ، المستفيد الأول بملايين الدولارات كل عام ، الأموال السعودية ، كما خسر الفلسطينيون العاملون فى المملكة وظائفهم أو وجدوا أنه من الصعب عليهم البقاء ، كما تعرض آخرون للمعاناة ، وكان اليمنيون أكثرهم معاناة .

لقد حمل اليمنيون فعليا عبء تشييد البنية الأساسية الحديثة للمملكة العربية السعودية فوق ظهورهم ، وكانوا يقومون بحمل الحجارة والملاط ، وتفريغ السفن والشاحنات ونقل أجهزة التكييف والثلاجات فوق عربات اليد ، وكان هناك ما يقرب من مليونى يمنى يعيشون فى المملكة العربية السعودية حتى أكتوبر ١٩٩١ ، حينما أصدرت الحكومة السعودية أوامرها بطردهم . وباستثناء النسبة الصغيرة التى تحمل الجنسية السعودية ومن يعمل منهم لدى كفيل سعودى ، اضطر ثلاثمائة وخمسون الف يمنى الى عبور الحدود الجنوبية فى خلال أسبوعين بموجب هذه الأوامر . وعندما فقد مواطنوها وظائفهم وأعمالهم ، خسرت الحكومة اليمنية نفسها ثلاثمائة وخمسين مليون دولار شهريا كانت تمثل تحويلات هذه العمالة ، وحدث ذلك كله لأن حكومة اليمن انحازت الى صدام

* كانت الأوامر السعودية وحساسية وضع الأمريكيين تقضى ببقاء الأمريكيين على بعد خمسمائة ميل من مكة .

** نقلا عن فيورست ، « بنوهاشم »

* نيويورك تايمز ، ١ يناير ، ١٩٩١ .

حسين . وقد عكس رجل يقف بسيارته المكدسة بمتاعه عند الحدود ذلك بقوله : « بالأمس كنا أشقاء ، واليوم نحن أعداء » .

ووصلت الحرب الى نهايتها . وخرج آل سعود ومملكتهم سالمين ، بيد أنها لم تكن نهاية طيبة . فبرغم أن القوات الأمريكية بدأت فى الانسحاب بعد أيام من وقف اطلاق النار ، فقد ترك آل سعود ليدفعوا عن أنفسهم تهمة استخدام مرتزقة غربيين للقيام بالحرب . وهاجم كثيرون من العرب المملكة العربية السعودية ليس بسبب ما فعلته بل بسبب ماهية الفعل ذاته ، متجاهلين أن صدام حسين هو الذى أحدث الانقسام فى صفوف الأمة العربية .

ان العالم العربى لم يشف أبدا من بلاء الازدهار الاقتصادى عام ١٩٧٣ الذى رفع بعض العرب الى أعلى درجات الثراء والقوة وحط تماما من قدر وكرامة آخرين ، وبنزوعهم الى الماضى أكثر من الواقع ، مازال العرب خارج المملكة العربية السعودية والدول الأخرى الغنية بالنفط يتعلقون بالزمن الذى كان فيه كل العرب لا يملكون سوى القليل الذى يقتسمونه معا بالتساوى . ومازال ذلك يمثل الينبوع الذى يتدفق منه استياء من لا يملكون .

ومازال بامكان المرء قيادة السيارة لمدة ساعة خارج أية مدينة من المدن السعودية ويختفى فى الصحراء ، وفى هجعة الليل ، وبعد انطفاء نيران الخيام وظهور النجوم فى كبد السماء ، تبدو المملكة العربية السعودية الحديثة وهما ، اذ لا توجد أضواء أو ضوضاء تعكر صفو السكون التام . وتبدو الصحراء الخالية من جميع الجهات لا نهاية لها ، وهذه هى المملكة العربية السعودية التى أقامها عبد العزيز والتى كان يطاردها الجوع والعوز لكنها لم تتدنس بالمشكلات والمطالب القائمة وراء حدودها ، لقد ولت هذه السعودية ، ولا ينعيها الا الرومانسيون ، ان هبة البترول تقضى على الفقر والمرض والجوع والحرمان ، الا أن وفرتها أدت الى استدعاء العالم الخارجى أيضا . وخارج الحدود التى رسمها عبد العزيز مباشرة تتطلع عيون نهمة . وهى عيون غربية وآسيوية وعربية . والعرب ، الذين يتمسكون بقوة بأسطورة الوحدة العربية ، هم الذين يؤمنون بأنهم أحق بالمطالبة بالثروة السعودية .

الفصل التاسع
عصر أنور السادات

كان ذلك فى شهر نوفمبر من عام ١٩٧٩ ، وكانت مصر تنبض بالآمال ، من الظاهر على الأقل ، ففى شهر مارس السابق كان الرئيس أنور السادات قد وضع توقيعه على معاهدة مع إسرائيل أنهت الحرب المستمرة منذ ثلاثين عاما ، ومع إحلال السلام ، كانت مصر تعيش فى حالة من الازدهار السياحى وكانت الطائرات المكدسة بالأوروبيين والأمريكيين تهبط فى مطار القاهرة الدولى قادمة من لندن وباريس وجينيف وفرانكفورت وروما . وقد واصلت إقامتى بفندق النيل هيلتون ، برغم أنه كان متواضعا آنذاك بالمقارنة بالمريديان أو الشيراتون . وكنت أشاهد من شرفة حجرتى أفواجا من السائحين يرتدون القبعات الشمسية وأحذية خاصة وهم يهبطون ويصعدون الحافلات المؤجرة فى بحثهم المجنون عن مصر ـ مصر الفراعنة وأنور السادات . وكانوا يتدافعون فى أنحاء خان الخليلى ، حيث يوجد سوق القاهرة الشرقية المسقوف ، محملين بسروج الجمال البسيطة والنارجيلات الأسطورية ، وكانوا ينتشرون عند سفح الأهرامات ويركبون الجمال كى تلتقط لهم الصور الفوتوغرافية باعتبارها جزءا من الجولة السياحية ، أما الجولات السياحية الأرقى فكانت تنساب فوق صفحة مياه النيل على ظهر باخرة تشبه البارجة تقوم بتشغيلها سلسلة فنادق شيراتون . وكانت هذه الرحلات ، كالفنادق ، محجوزة مقدما حتى أن المسئولين عن الأفواج السياحية كانوا يوقظون عملاءهم الأثرياء من الفراش قبل بزوغ الفجر ويقودونهم عبر الشوارع شبه المظلمة ، ويتركونهم جالسين فى ردهات الباخرة إنتظارا لإحتلال الغرف التى سيتم إخلاؤها فى الظهيرة . وأصبحت مصر ضمن قائمة الضروريات فى مجال السياحة ، بيد أن قليلين ممن وفدوا إليها فهموا مصر الحقيقية ـ مصر الفلاحين والموظفين الحكوميين ، وأصحاب المحلات الذين كانوا يتخبطون بين نظرتهم لأنفسهم كمصريين وعرب .

وخلال السنوات التسع بعد وفاة عبد الناصر ، عمل أنور السادات على إخراج مصر من دائرة الأمة العربية وربطها بالغرب . وكان الرئيس المصرى ، الذى كان يحتفى به الجميع من تل أبيب حتى واشنطن بإعتباره من أعظم السياسيين فى التاريخ ، يحتل بين السائحين فى فنادقهم الفخمة نفس المكانة التى يحتلها رمسيس الثانى العظيم ، بيد أن المصريين الذين يعيشون فى مساكن بسيطة ضيقة فى القاهرة وفى أكواخ طينية مظلمة على طول ضفتى النيل كانوا يعانون من إحساس مرير بالإغتراب ، فقد شهدوا مصر تمر بالتحولات العنيفة التى وصلت أوجها فى عهد عبد الناصر وتعيش أحاسيس الإنتظار النفسى لحرب ١٩٧٣ ضد إسرائيل . وهاهم الآن يقفون خارج دائرة الأمة

العربية ، منبوذين بسبب إتفاق سلام منفرد مع إسرائيل . وكان بعضهم يهز كتفيه تعبيرا عن اللامبالاة عند سؤاله عن رأيه فى السبيل الذى إنتهجته مصر . وكان آخرون يعبرون عن مشاعرهم بطلاقة ففى إحدى الأمسيات قمت بزيارة أحد ضباط الجيش من متوسطى الرتبة وزوجته فى مسكنهما المتواضع المؤلف من أربع حجرات فى إحدى البنايات الشاهقة المنتشرة التى بنيت فى ضواحى القاهرة لإسكان رجال الجيش المصرى ، وتطرق حديثنا إلى قرار السادات بإبرام معاهدة سلام مع إسرائيل . وكان ما ذكره هذا الضابط الذى خاض حرب ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ يعكس شعور العديد من المصريين آنذاك . « إننا نرحب بالسلام ، فقد ضحينا كثيرا لفترات طويلة من أجل القضية العربية ولا يخفى علينا جميعا أن مصر تحملت منذ فترة طويلة الكثير من أعباء حروب العرب مع إسرائيل وكرجل عسكرى وإنسان مصرى ، أقول أن السلام طيب . ومع ذلك ينبغى أن أقول لك إننى أتساءل عما إذا كنا سندفع الكثير من أجل السلام - مثلما دفعنا الكثير من أجل الحرب . إن مصر تعمل وحدها ، وليس ذلك أمرا طيبا . إن مصر هى مصر . ولكن مصر بلد عربى أيضا » .

وفى ١٩٧٩ كانت مصر تتماوج بين حقيقتيها الجغرافية والحضارية الثابتتين - وهما الصحراء والنيل . فالصحراء أورثتها تراث العرب بإحساسها العميق بوحدة المصير . والنيل يحدد طابع مصر ، ويطويها على نفسها . وقد شكلت الصحراء عالم عبد الناصر ، وشكل النيل عالم أنور السادات .

وحتى يوم وفاة جمال عبد الناصر وتوليه مهام الرئاسة ، لم يكن أنور السادات ، نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة الغامض ، معروفا خارج مصر إلا لقلة من الناس . وظن كثيرون أنه لن يبقى إلا لأسابيع قليلة .

وقد ولد أنور السادات فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٩١٨ بقرية ميت أبو الكوم بدلتا النيل ، وبرغم الصورة التى رسمها بعد ذلك عن طفولته القروية البسيطة ، فقد نشأ أنور السادات فى واقع الأمر فى القاهرة كواحد من ثلاثة عشر طفلا لإحدى الأسر المتعلمة . وكان أبوه ، الموظف بالجيش ، أفقر فى المال من المكانة . ومن خلال إتصالاته داخل الجيش ، حصل لإبنه على مكان فى تلك الدفعة الأولى غير الأرستقراطيين التى دخلت الكلية الحربية فى عام ١٩٣٧ ، وهى نفس الدفعة التى إلتحق بها عبد الناصر .

وحينما تخرج السادات فى عام ١٩٣٨ كان وطنيا متحمسا لطرد البريطانيين من مصر . وفى عام ١٩٤٢ ، حينما كان شابا برتبة نقيب ، شارك فى تهريب أحد اللواءات المصريين السابقين إلى ألمانيا كان على دراية بالمنشآت الحربية البريطانية ، وكما نشاهد فى أحد أفلام لوريل وهاردى ، تعطلت السيارة التى فروا بها وتحطمت طائرة الهروب عند إقلاعها وفى النهاية تمت الوشاية بالسادات إلى المخابرات البريطانية . وتم إيداعه فى سجن الأجانب ومعه جاسوسان من النازيين .

وفى الفترة بين ١٩٤٤ ، ١٩٤٩ كان أنور السادات ، يتزعم مجموعة من الضباط الراديكاليين داخل الجيش المصرى . وإنطلاقا من قناعته بممارسة القوة كوسيلة مقبولة ضد حكومة فاروق البغيضة ، قام بإلقاء قنبلة يدوية عبر زجاج سيارة رئيس الوزراء مصطفى النحاس وإشترك فى محاولة

إغتيال أمين عثمان ، وزير المالية المصرى . وعاد السادات إلى السجن مرة أخرى ليقضى فيه واحدا وثلاثين شهرا وكان السجين رقم ٢١٥١ فى سجن القاهرة المركزى .

وبعد خروجه فى أواخر عام ١٩٥١ ، نجح السادات فى العودة إلى مركزه السابق فى الجيش ، وبعد ذلك مباشرة تقريبا ، تم ضمه إلى حركة الضباط الأحرار التى يرأسها جمال عبد الناصر* . غير أنه بعد سنوات من النشاط الوطنى والسجن والعمليات السرية ، كاد أنور السادات أن تفوته ثورة الضباط الأحرار . وتم إستدعاؤه للمشاركة فى الثورة التى طال إنتظارها ليصل إلى القاهرة من موقعه فى غزة فى الثانى والعشرين من يوليو ١٩٥٢ . ونظرا لعجزه عن تحديد مكان أى من رفاقه ، فقد إصطحب زوجته ، جيهان ، لإحدى دور السينما بالقاهرة لمشاهدة أحد أفلام رونالد ريجان . ولدى عودته إلى المنزل فى الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة من صباح الثالث والعشرين من يوليو ، وجد رسالة كتبت على عجل من عبد الناصر يسأله فيها عن مكانه . وبسرعة ، لبس السادات زيه العسكرى ، وإندفع خارجا فى ظلمة الليل . وعند وصوله إلى القيادة العامة ، كانت بالفعل فى أيدى الضباط الأحرار . وكان كل ما تبقى ليقوم به عقيد سلاح الإشارة أنور السادات فى الحدث الكبير الذى حدد بعد ذلك سياسة مصر الحديثة هو قراءة إعلان الثورة فى الإذاعة .

وبعد عام ١٩٥٢ ، إختفى السادات تقريبا من ثورة عبد الناصر ولكن بعد كارثة ١٩٦٧ ، ظهر السادات من جديد على السطح وأصبح قريبا من عبد الناصر . ففى صدمة الهزيمة ، وجد عبد الناصر فى السادات فيما يبدو الصديق القنوع الذى يثق به .

وقد تمت ترقية السادات إلى نائب للرئيس ببساطة ، فحينما كان عبد الناصر متوجها إلى مؤتمر الرباط فى ديسمبر ١٩٦٩ ، قام بتعيين السادات المتلهف الذى لا خوف منه فيما يبدو ، نائبا للرئيس ، وطبقا لما يقوله المقربون ، كان عبد الناصر يعتقد أنه إذا حدث له شىء فإن السادات يستطيع القيام بدور الرئيس شكليا بينما يقوم الإتحاد الإشتراكى العربى والجيش بالحكم . وإستقرت الأمور على ذلك حتى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠ .

فقد تم إستدعاؤه مرة أخرى ليعلن حدثا خطيرا فى تاريخ مصر ، حيث أعلن أنور السادات على الأمة بإعتباره نائبا للرئيس ، خبر موت عبد الناصر . وإنتظر ثلاث ساعات للتأكد من عدم صدور إنذار بهجوم إسرائيلى محتمل وإرسال رسالة عاجلة إلى وحدات الجيش بذلك . ثم وقف أمام كاميرات التليفزيون لينتحب على الملأ . « لقد خسرت الجمهورية العربية المتحدة والأمة العربية والإنسانية أعظم الرجال وأشجعهم وأكثرهم إخلاصا » . وأصبح أنور السادات ، رئيسا لمصر . وكان السبب فى ذلك على وجه الدقة هو أن السادات لم يخاطر أبدا بتولى منصب مستقل ولذا نجح فى النجاة من شكوك عبد الناصر . والسبب الوحيد الذى جعل أنور السادات رئيسا

---

* يزعم السادات فى سيرته الذاتية أنه هو الذى أسس حركة الضباط الأحرار وليس عبد الناصر وأن دخوله السجن هو الذى أتاح لعبد الناصر الهيمنة عليها .

لمصر - هو أنه كان نائب الرئيس عبد الناصر المطيع والذى وقف إلى جانبه طوال ثلاثين عاما من الثورة والمأساة الوطنية . وقد أيدت دائرة عبد الناصر الداخلية أنور السادات وهى كارهة . بيد أنه لم يكن هناك حماس لذلك . وكانت صحيفة الأهرام الناطقة بلسان مؤسسة عبد الناصر السياسية ، هى الوحيدة التى إستجمعت قدرا من الشجاعة لتقول أن تعيين أنور السادات كان « تعبيرا ناضجا ومسئولا عن المقتضيات التى تحكم الوضع المعقد الراهن » . وكانت رغبة زمرة عبد الناصر القوية فى الإستمرار هى العامل الوحيد الذى سمح ببقاء السادات بعد إستفتاء عام دستورى ليصبح رئيسا بحكم حقه الشخصى . وعند هذه النقطة ، وقف أنور السادات وجها لوجه أمام مصر وتركة عبد الناصر .

إن مصر تعيش داخل حدود بيئية ضيقة قاسية ، وفى عام ١٩٧٠ كانت البلاد قد وصلت إلى أقصى مدى . فحينما جاء نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨ ، كان عدد سكانها ٢٫٥ مليون نسمة وفى عام ١٩٧٠ ، بلغ عدد سكانها أربعة وثلاثين مليونا . وفى عام ١٩٨٠ ، أشارت التقديرات إلى أنه سيكون هناك خمسون مليونا مصريا بحاجة إلى الطعام والمأوى والملبس والعمل .

وكانت الزيادة السكانية المستمرة تضغط على القاهرة بقوة . ففى عام ١٩٦٢ ، حينما قمت بزيارة مصر لأول مرة ، كانت القاهرة كبيرة ومكدسة ، ولكنها كانت لا تزال تحتفظ بهذا الجو المريح الذى صوره روائيو الثلاثينيات فى رواياتهم . وفى فترة بعد الظهيرة ، كانت منطقة المرور أمام المتحف الوطنى تكاد تكون خالية الا من احدى عربات الحنطور واحدى السيارات المارة بغير عجلة . وفى عام ١٩٧٠ ، كانت المدينة تئن من وطأة المرور وتختنق تحت ضغط الأعداد الكبيرة من السكان فى مساحة صغيرة للغاية .

وكان الناس يتدفقون على القاهرة لأنهم لم يكونوا يجدون شيئا فى القرى . ذلك ان إهمال الزراعة إبان عهد عبد الناصر جعل حال الناس لا يختلف كثيرا عن حالهم فى عهد الفساد إبان حكم فاروق ، ففى القرى ، كانت الماشية المعصوبة العينين والمقيدة الى القائم المثبت وسط الحلقة الخشبية المتشعبة لأداة رفع المياه البدائية تواصل السير فى الحلقة اللا نهائية بينما كان الرجال لا يزالون يكدحون فى الحقول منذ بزوغ الفجر حتى مغيب الشمس . وكانت النساء ، كما كن يفعلن دائما ، لا يزلن يحملن الماء فى الجرار الفخارية الثقيلة من النهر الى بيوتهن المبنية من الطين ، حيث يقمن فى جو الحرارة الخانقة باعداد الخبز المفرود فى أفران مفتوحة ينبعث منها دخان أسود داخل جميع مهاجع النوم التى لا نوافذ لها والتى يقضون فيها حياتهم . ولعل الشىء الوحيد الذى تغير فى عهد عبد الناصر هو الأعداد المتزايدة من السكان على ضفتى النهر . ومع عجز الريف عن استيعاب المزيد من السكان ، كان يدفع بفائض سكانه الى المدن .

بيد أن الأحوال فى المدن لم تكن أفضل كثيرا من مثيلتها فى المناطق الريفية ، فالسياسة الاقتصادية غير الرشيدة خلقت قاعدة صناعية لا تقدر الا على اعالة نصف السكان فقط . والأشخاص الذين وظفتهم هذه السياسة كانوا يعيشون غالبا فى غرف تسع ثمانية الى عشرة أشخاص فى مساكن تفتقر الى وسائل التدفئة وذات أنابيب مياه وصرف صحى مشتركة ، وأصبحت المدن مزدحمة للغاية حتى أن المساجد كانت تضيق بالمصلين ، فيضطر الناس الى الصلاة فوق الأرصفة .

وقد وجهت خطط عبد الناصر الاشتراكية غير المدروسة موارد البلاد نحو التصنيع على حساب الزراعة وأدت الى إفقار القطاعين معا . يضاف الى ذلك أن عمليات التأميم الشاملة فى عام ١٩٦١ وضعت جميع المشروعات التجارية والصناعية التى يصل عدد العاملين فيها الى خمسين شخصا أو أكثر تحت سيطرة الدولة الفعلية ، وحينما تولى السادات الرئاسة ، كانت الدولة تملك البنوك وشركات التأمين ومحطات تكرير البترول والمرافق والسكك الحديدية ، والخطوط الجوية ، والجزء الأكبر من النقل البحرى ، وصناعة الأسمدة وجميع شركات الانشاء الكبرى ، والصحف ومحلات البيع الكبرى بل واستوديوهات السينما . وبينما كانت الناصرية تنزع أحشاء القطاع الانتاجى ، فقد ألزمت نفسها بالدعم الحكومى المتزايد للحفاظ على تلك الأرضية المتداعية التى يقف عليها الفلاحون وعمال الحضر الذين يضرب فيهم الفقر بأنيابه وبتشغيل الطبقة الوسطى المكافحة فى الجهاز البيروقراطى ، وفى الفترة بين ثورة ١٩٥٢ ووفاة عبد الناصر ارتفع عدد موظفى الحكومة من مائتين وخمسين ألف موظف الى أكثر من مليون ، وباختصار ، أدى نظام عبد الناصر الاقتصادى الى خلق كافة المشكلات المرتبطة بالاقتصاد الصارم الذى توجهه الدولة ، وقد ورث أنور السادات هذه الورطة .

وقد شكلت حقائق الوضع الاقتصادى برنامج أنور السادات منذ الأيام الاولى لتوليه السلطة . غير أن يأس مصر كان ينبع من حاجاتها النفسية والمادية على حد سواء ، اذ ان أية نهضة اقتصادية كانت تعتمد فى جانب منها على استعادة مصر لكرامتها ، ولمواجهة محنة مصر الاقتصادية كان على السادات أن يمحو أولا عار ١٩٦٧ .

وبعد ثلاث سنوات من حرب الأيام الستة ، ظلت الدول العربية واسرائيل متأرجحة بين الحرب والسلام ، اذ لم يتخذ أى من الجانبين أية خطوة أساسية منذ الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٧ ، حينما أقر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم ٢٤٢ ، الذى يدعو اسرائيل الى مقايضة الأراضى التى احتلتها فى حرب يونيو ١٩٦٧ باعتراف الدول العربية « بالسيادة الاسرائيلية ، ووحدة أراضيها واستقلالها السياسى » ، بيد ان التفاوض على ذلك لم يبدأ أبدا . وكانت مصر ، التى كانت تسعى للحصول على ضمانات باستعادة أراضيها السليبة ، تصر على انسحاب اسرائيل قبل بدء المفاوضات . وكانت اسرائيل ، التى كانت عازمة على الحصول على الاعتراف بالدولة اليهودية ، تطالب باجراء محادثات مباشرة مع الدول العربية قبل التخلى عن أية أراضى . وكان عبد الناصر قد قبل ، قبل وفاته بوقت قصير ، خطة روجرز لوقف اطلاق النار تحت رعاية الولايات المتحدة ، بيد أن السلام الحقيقى لم يتحقق على الاطلاق .

وبعد ثلاثة أشهر من توليه الرئاسة ، توجه أنور السادات الى مدينة طنطا فى دلتا النيل لالقاء أول خطاب شعبى له . وأمام حشد من اثنى عشر ألف شخص أعاد الى الأذهان اسلوب عبد الناصر العظيم : « لن تكون هناك مساومة ولن نتخلى عن شبر واحد من الأرض . وسوف نقاتل فى الحقول والمصانع والمدن والقرى وفى الشوارع . هل تعبتم حقا من القتال ؟ » .

وردت الجماهير صائحة ، « سنقاتل . . سنقاتل . . معك حتى النصر يا سادات »• ولكن قبل ان يستطيع السادات مواجهة اسرائيل ، كان عليه أن يدعم أساس سلطته لاحكام قبضته الضعيفة على مصر .

وقد تبين أن أنور السادات ، الذى وافقت عليه دائرة عبد الناصر الداخلية لأنه كان الرجل المطيع الذى وقف الى جانب عبد الناصر ، كانت له أنياب حادة . ففى أوائل ١٩٧١ ، حاول على صبرى ، أحد المقربين الى عبد الناصر ، وأقوى حليف للاتحاد السوفيتى داخل الحكومة المصرية ، تقييد حق السادات فى الحكم بمراسيم رئاسية كما كان يفعل عبد الناصر . ولكن لم ينجح فى ذلك ، أعطت رزمة صغيرة من الأوراق التى تضم ملخصا لمؤامرة يسارية للاطاحة بالسادات المبرر الذى يحتاجه الرئيس لتنفيذ « ثورة التصحيح » فى مايو ١٩٧١ ، وقام السادات بطرد على صبرى وأودع بقية رجال موسكو السجن . ومع القضاء على اليساريين المتشددين ، أخرج السادات مجموعة من الناصريين من السلطة ، بمن فيهم بعض رفاقه القدامى من الضباط الأحرار . وفى الخامس عشر من مايو ١٩٧١ ، قضى أنور السادات على الجهاز السياسى الذى خلفه عبد الناصر . ثم تحول الى الروس .

وأثناء العام الأخير من حكم عبد الناصر ، كانت علاقة مصر بالاتحاد السوفيتى ، القائمة على التحالف الذى تم فى منتصف الخمسينيات ، تتخبط فى بحر من الاحباطات . اذ أن هذا التحالف لم يحقق النصر على اسرائيل ، وقيد استقلال مصر الغالى الذى حققته بثورة ١٩٥٢ بأصفاد المعونة الاقتصادية والعسكرية السوفيتية الحديدية ، وعند وفاة عبد الناصر ، كان هناك ما يقرب من خمسة عشر ألف خبير عسكرى سوفيتى يشرفون على تدريب القوات المسلحة المصرية ، وكان الطيارون السوفيت يحلقون بطائرات الميج ـ ٢١ المصرية ويديرون نظام الدفاع الجوى ، وكان القادة العسكريون السوفيت يتحكمون فى الدخول الى أهم المنشآت العسكرية المصرية . وكان الضباط السوفيت يشغلون مناصب فى جهاز المخابرات والشرطة والوزارات المدنية الحساسة . ونظرا لقدرته على ممارسة نفوذه فى عملية صنع القرار المصرى فقد كان وضع السفير السوفيتى يمثل صورة طبق الأصل من وضع المندوب السامى البريطانى فى ايام الاحتلال البريطانى ، وكان المصريون يرددون فى نكتات الجيش والمقاهى أن التخلص من الروس سيكون أصعب من خروج الانجليز .

ولم يضيع المصريون حبهم على « الروس الكريهين » . فقد كان المصريون يرون أن تكبر الروس لا يفوقه الا بخلهم ، وكان الباعة يستشيطون غضبا بينما كانت النساء السوفيتيات البدينات بملابسهن الرديئة المصنوعة فى الكتلة الشرقية يطفن بأسواق الخضروات ويتفحصن كل برتقالة ويتحسسن كل ثمرة من ثمرات الطماطم ، ويساومن على كل قرش ، وكان منظمو الرحلات السياحية والفنادق وأصحاب المحال يتذمرون لأن الجزء الأكبر من عملهم يعتمد على الروس وأفواج السائحين من أوروبا الشرقية الذين يسافرون على الخطوط الرخيصة ولا يشترون شيئا سوى القليل من

• التايم ، ١٨ يناير ١٩٧١ .

السلع اليدوية الحقيرة التى تدر القليل من الربح . ويمكن بلورة الحكم المصرى على الاقتصاد السوفيتى فى الانفاق من خلال قصة سائق التاكسى الذى طلب منه التوقف أمام كشك لبيع المشروبات الباردة حيث قام ثلاثة من الرجال السوفيت أقوياء البنية بشراء زجاجة بيبسى واحدة واقتسامها فيما بينهم .

وكان السادات يكره قبضة الروس الثقيلة ، وكانت القيادة السوفيتية قد دأبت على الكذب عليه بشأن التعهد بتقديم الأسلحة التى لا تستطيع ، أو لن تستطيع ، تسليمها ، ولكن أهم من ذلك كله ، أن التحالف مع الاتحاد السوفيتى جر مصر الى التنافس الخطير بين القوى العظمى ، فالاتحاد السوفيتى لن يسمح بنشوب حرب فى الشرق الأوسط من شأنها أن تجعله يقف وجها لوجه أمام الولايات المتحدة ، والولايات المتحدة لن تسمح بنشوب حرب بين مصر واسرائيل طالما ظلت مصر مرتبطة بموسكو ، واذا كان أنور السادات يريد الانتقام بسبب مهانة ١٩٦٧ ، فان عليه أن يضع تصرفاته خارج نطاق المصالح المدمرة للقوى العظمى ، وفى الثامن عشر من يوليو ، وقبل خمسة أيام من الذكرى العشرين على قيام ثورة ١٩٥٢ ، أمر السادات بطرد جميع الخبراء العسكريين السوفيت من مصر ، وكان عبد الناصر قد احتضن السوفيت لما أصابه من إحباط من جراء رفض الولايات المتحدة تزويد مصر بالسلاح ، وها هو السادات يقوم بطرد الاتحاد السوفيتى من أجل تحييد الأسلحة الامريكية . ودارت الأحداث دورة كاملة .

وقبل انتهاء العام الثانى على توليه مهام الرئاسة ، انتصر أنور السادات على منافسيه وحد من النفوذ السوفيتى فى مصر . وكان شبح جمال عبد الناصر هو الشىء الوحيد الذى كان يحول بينه وبين النظام الجديد الذى كان يحلم بتنفيذه فى مصر .

لقد كانت روح عبد الناصر تطارد السادات ، فأنور السادات لم يستثر أبدا جموع جماهير العرب . ولم يكن أبدا بطلا بالنسبة للجماهير العربية من بغداد الى الدار البيضاء ، وكانت أسطورة عبد الناصر تشل حركة السادات خارج حدود مصر . وأصبحت الناصرية بمثابة سلاح يسدده منافسو السادات فى النظام العربى فى وجهه ، خاصة معمر القذافى ، غير أنه داخل مصر ، إستطاع السادات منافسة عبد الناصر .

فقد كان السادات يحض المصريين على فضح زيف الأسطورة ، وابعاد عبد الناصر عن وجودهم السياسى وقد استجابوا له فقد خانت دولة عبد الناصر البوليسية الكثير من مبادىء ثورة ١٩٥٢ ، واذا كان الفلاحون قد رفضوا الاعتراف بهذه الحقيقة وتعاموا عنها ، فان الطبقة المثقفة أكدتها . واحتشدوا أمام دور السينما عام ١٩٧١ لمشاهدة فيلم « الكرنك » المقتبس من رواية نجيب محفوظ . ولم يكن هذا الكرنك هو المعبد الفرعونى المصرى العظيم وانما اسم مقهى كان يتردد عليه الطلبة المنشقون فى الستينيات ، وفى هذا الفيلم كان بوليس ناصر السرى يمارس أعمال التعذيب السادية الوحشية ضد الأبرياء ويهمل مصالح مصر الحقيقية ، وقد تلاشت أية شكوك حول مغزى القصة من خلال المشهد الذى يقوم فيه حراس السجن الواقفون تحت صورة شخصية لعبد الناصر وهو يبتسم ، بضرب شاب من الطلبة حتى الموت بينما كانت الطائرات الاسرائيلية تقصف مصر العاجزة عن الدفاع عن نفسها أثناء حرب ١٩٦٧ .

وقد استطاع السادات تخليص مصر من تأثير عبد الناصر لسبب بسيط على نحو مطلق وهو ان المصريين قد ضاقوا بتغطية فقرهم وعجزهم تحت شعار العروبة والوحدة العربية الشاملة . وأفسح السادات الطريق لنظام جديد بإمتطاء صهوة « المطالبين بمصالح مصر أولا » وهم الذين يطالبون بأن تأتى المصالح المصرية فى المقدمة قبل المطالبة بالعروبة والوحدة العربية ، ولم تكن ثمة مصالح تفوق فى أهميتها استعادة سيناء والتوصل الى تسوية مع اسرائيل مما يخفف عن مصر اعباء الحرب الاقتصادية .

وأعلن أنور السادات ان عام ١٩٧١ هو « عام الحسم » الذى تستعيد فيه مصر ارضها التى فقدتها فى ١٩٦٧ وبعد ان أوقفت القيادة السوفيتية تزويده بالإمدادات العسكرية عقابا له على طرد الروس من مصر ، قلب السادات التقويم وأصبح عام ١٩٧٢ هو « عام المعركة الحاسمة » ونفس الموعد مرة أخرى وأصبح عام ١٩٧٣ هو « موعد المواجهة الشاملة » مع اسرائيل . والواقع ان السادات ان لم يكن جيشه أيضا ، كان عازما تماما على الخروج من الورطة مع اسرائيل فى عام ١٩٧١ ولكن الهجوم الذى كان من المقرر ان تشنه مقاتلاته القاذفة الخمسون داخل عمق سيناء المحتلة لجذب اهتمام العالم ، جرى التراجع عنه عندما احتلت أزمة هندية ـ باكستانية أخرى مسرح الاحداث العالمية . وفى عام ١٩٧٢ أصدر السادات أوامره لفرقة من المظليين بالهبوط داخل سيناء لإحتلال رأس جسر لمدة أسبوع أو عشرة ايام . وكان السادات يرى ان هذه العملية ستكون بمثابة أداة تدفع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الى عقد جلسة للخروج من المأزق الدبلوماسى فى الشرق الاوسط ، وتمهيد الطريق امام ليبيا لاغلاق محابس نفطها ، التى كانت تزود أوروبا الغربية بخمسة وعشرين بالمائة من احتياجاتها النفطية ، ودفع الولايات المتحدة للتوسط من أجل انسحاب اسرائيل من الاراضى العربية ، وقد قام جيش السادات نفسه بإجهاض هذه الخطة . وفى عام ١٩٧٣ بدأ السادات فى قرع طبول الحرب من جديد ، ووافق الاتحاد السوفيتى هذه المرة ، ربما لانه كان يتوقع ان يمنى العرب بهزيمة أخرى مما يؤدى الى الاطاحة بالسادات وعودة حكومة موالية لليسار ، على استئناف تزويد مصر بالمعدات وقطع الغيار العسكرية التى كانت قد توقفت عقب عملية الطرد السوفيتى المهين من مصر ، ومع ضمان امداده بالأسلحة ، حذر السادات الجميع قائلا : « ان الجميع يغطون فى سبات عميق بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط . لكنهم سوف يستيقظون عما قريب . . . » .*

وفى الفترة بين ١٩٧٠ و١٩٧٣ ، عمل السادات على تكوين التحالف الذى يضم مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية والذى سيقاتل فى حرب ١٩٧٣ . وكانت المملكة العربية السعودية أهم من سوريا كحليف قوى بالنسبة للسادات ، ففى عهد السادات تحسنت علاقات مصر بشكل واضح مع الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية ، فقد ذهب السوفييت رعاة الماركسية ، التى يخشاها الملك فيصل ، فى العالم العربى * كذلك ولت خطب عبد الناصر

---

* نيوزويك ، ٩ ابريل ١٩٧٣ .

* كان السعوديون فى غاية السعادة حينما طرد السادات الاتحاد السوفيتى حتى أنهم قدموا له طائرة شخصية خاصة قيمتها ١٢ مليون دولار مماثلة لطائرات السلاح الجوى .

الطنانة التى كانت تقسم الأنظمة العربية بخبث الى نظم تقدمية واخرى رجعية ، ولم يكن ذلك يعنى اى فرق بالنسبة للسادات . « ان سياستى الواضحة والمعلنة هى ان مصر لا يمكن ان تميز بلدا عربيا عن آخر على اساس ما يطلق عليه أنظمة تقدمية ورجعية أو جمهورية وملكية ، بل علينا ان نلتزم بشىء واحد ـ وهو شخصيتنا العربية ، النقية البسيطة » * وهكذا سدت الفجوة بين أكثر دول العالم العربى سكانا وأكثرها ثراء .

ومع قناعة آل سعود بأن أنور السادات كان يخطط لشن حرب محدودة لوضع نهاية للمأزق العربى ـ الاسرائيلى وليس القيام بمغامرة عسكرية طويلة الأمد قد تدفع المنطقة كلها الى حالة من الفوضى ، انفتحت أبواب خزائن الأموال السعودية عن آخرها . وفى الوقت نفسه استغل الملك فيصل تحالفه الأمريكى فى تحذير واشنطن من ان السادات لا يخادع وان المملكة العربية السعودية ستنضم الى صفوف اخوانها العرب فى حالة نشوب حرب ، وذلك فى « اشارة الى تضامنها مع مصر » .

وفى شهر سبتمبر ، إتصل السادات بالرئيس السورى حافظ الأسد ، الذى وافق على الانضمام للتحالف فى محاولة لاستعادة مرتفعات الجولان . وفى النهاية تم الصفح عن الملك حسين عاهل الأردن ، الخاسر الكبير فى حرب ١٩٦٧ بسبب الحرب التى شنها عام ١٩٧٠ ضد الفلسطينيين ، واقناعه بأن يكون شريكا ذا دور محدود .

ومع ذلك كانت الحرب تبدو مستحيلة . ففى شهر أكتوبر ١٩٧٣ كانت مصر مفلسة ، وعاجزة عن خدمة ديونها الخارجية أو شراء ما يلزمها من القمح لإطعام شعبها ، وعلى أرض المعركة ، كانت إسرائيل تمتلك قوة عسكرية هائلة . وكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد اتجهتا نحو الانفراج فى علاقاتهما ، مما أدى الى استبعاد ضمان المساعدة الروسية لموازنة الالتزام الأمريكى تجاه اسرائيل . وهكذا فإن تفكير السادات فى الحرب كان يؤكد مدى رغبته فى ايجاد مخرج من عملية تعذيب الذات والأزمة الاقتصادية الملحة التى كانت تعيشها مصر ، وكان على المصريين حل عقدة عدم الثقة بالنفس حتى يستطيعوا التحكم فى مستقبلهم . وكان نجاح مصر فى شن حرب محدودة يعنى عبور مصر الى المستقبل وقيام أنور السادات بأعظم إنجازاته . « ورأيت انه من الأفضل لنا ألف مرة ـ لأربعين ألفا من أبنائى فى القوات المسلحة ولى شخصيا ـ أن ندفن ونحن نعبر القناة من أن نقبل هذا الخزى والعار .*

وكانت الأيام الأولى من شهر أكتوبر تمر طبيعية . وكان ذلك فى شهر رمضان ، شهر الصوم عند المسلمين . وغادر عدد من الجنود والطيارين المصريين وحداتهم العسكرية لقضاء أجازاتهم الدورية مع عائلاتهم فى هذا الشهر المقدس من أشهر السنة الاسلامية ، وكانت أوامر الرئيس بإرسال كميات اضافية من الطعام للقوات بمثابة حركة سياسية تقوم بها حكومة ضعيفة ، وليست دعوة لحمل السلاح . وكان ذلك كله خدعة .

---

* السادات فى « البحث عن الذات » ، ص ٢٣٩

* المرجع السابق ـ ص ٢١٥

ففى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م ، قامت القوات العربية بالهجوم على اسرائيل من جبهتين . وفى يوم كيبور ، يوم الغفران ، أقدس أيام السنة عند اليهود ، قام العرب بتنفيذ ما كانت تعتقد اسرائيل أنه أمر مستحيل التحقيق ـ وهو شن هجوم مباغت ★ وراحت المدفعية السورية الثقيلة تمطر المستوطنات الاسرائيلية فى مرتفعات الجولان بوابل من القصف بينما اندفعت خمسمائة دبابة وفرقتان من فرق المشاة عبر خطوط وقف إطلاق النار لعام ١٩٧٠ وواصلت تقدمها نحو حدود اسرائيل . ولكن مجد العرب الحقيقى كان ينتظرهم فى سيناء ، حيث قام المصريون بعبور قناة السويس الذى طالما تدربوا عليه . وأدت شحنات الديناميت الضخمة التى زرعها رجال الضفادع البشرية المصريون فى الليلة السابقة الى فتح ثغرات فى الحاجز الدفاعى الرملى الذى يصل ارتفاعه الى ستين قدما والذى أقامته اسرائيل على الجانب الشرقى للقناة ، وعلى الجانب المصرى ، وثب مائة جندى من جنود الفرقة السابعة داخل القوارب المنتظرة ، وانطلقوا بأقصى سرعة تحت وابل من نيران المدفعية الثقيلة ، وإندفعوا عبر إحدى الثغرات فى الحاجز الرملى لرفع العلم المصرى مرة أخرى فوق سيناء ، وبإستخدام مضخات المياه ذات الضغط العالى التى صنعت خصيصا فى ألمانيا الغربية لتوسيع الثغرات فى الحائط الرملى الاسرائيلى ، استقبلت طلائع القوات المصرية المهاجمة ثلاث دبابات من خلال معبر تم إنشاؤه عبر القناة ، وامتدت من خلفهم الجسور العائمة من جنوب القنطرة حتى شمال الاسماعيلية عبر الممر المائى الضيق الذى يفصل المصريين عن الأراضى التى تحتلها إسرائيل ، ومع تثبيت آخر حلقة من حلقات الربط فى مكانها ، اندفعت الشاحنات التى تحمل القوات التى ترتدى السترات العسكرية الخفيفة والخوذات لحمايتهم من الرمال التى تذروها الرياح فى موجات متلاحقة عبر الضفة على الجانب الغربى من القناة وشقت طريقها فوق الجسور ، وما أن كانت أقدامهم تلامس الضفة الأخرى ، حتى كان الرجال الذين كانوا لا يزالون يتذكرون ١٩٦٧ يهتفون « الله أكبر » وكان رجال المشاة ذو الخوذات الذين يشعرون بالتعب يتدفقون سيرا على الأقدام فوق رمال سيناء ويرفعون بنادقهم الآلية الى السماء . لقد تم عبور القناة واسترد العرب كرامتهم .

لقد ولد العرب المقهورون ، الذين لحق بهم الخزى والعار من جديد ، وتشبع العالم العربى مرة أخرى بالكبرياء العربى وروح الوحدة العربية ، ولم يعد يهم فيما يبدو أن تظل عناصر النصر النهائى فى أيدى إسرائيل ، ففى هذا اليوم ، وفوق أرض سيناء القاحلة ، تم الدفاع عن شرف العرب . وكتب أحد محررى الصحف اللبنانية العديدة فى هدوء « لقد إنتصرنا ، لقد انتصرنا ، حتى وان تحولت مدننا الى خرائب فى الأسابيع المقبلة »★.

وسرعان ما سقط خمسة وعشرون من التحصينات الاسرائيلية ، ثم سقط خط بارليف كله ، خط ماچينو الإسرائيلى فى سيناء ، وتشهد القضبان الحديدية التالفة والملتوية داخل الغرف

★ غالبا ما يطلق على حرب ١٩٧٣ العربية ـ الإسرائيلية بأنها حرب أكتوبر وكذلك يطلق عليها حرب يوم كيبور وحرب رمضان .

★ نيوزويك ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣م

المحصنة المحترقة تحت الأرض بمدى ضراوة المعركة على الخطوط الأمامية ، وبالاضافة الى ذلك ، كانت الأحذية التى تركها أصاحبها فى الصحراء دليلا على التراجع المتعجل قبل تقدم الدبابات الشرس الذى لا رجعة فيه . وكانت الطوابير الطويلة من أسرى الحرب المذهولين الجالسين على الأرض ، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم ، تنطق بالهزيمة ، بيد أن خسائر المعركة المادية والبشرية هذه المرة ، كانت اسرائيلية وليست عربية . وأخذت إذاعة اسرائيل هذه المرة وليس إذاعة صوت العرب ، تصيح فى هلع « سوف نحيل نهاركم الى ليل حالك ، وسنريكم النجوم فى وضح النهار . سنمرغ وجوهكم وأنوفكم فى الوحل . سوف نجعل قادة العدو يدفعون ثمن ذلك غاليا . سوف نسحق عظامكم .★

وفى اليوم الثانى من أيام الحرب ، بدأ الهجوم الإسرائيلى المضاد ، وأخذت الدبابات الإسرائيلية والمصرية تندفع عبر سيناء وتتبادل إطلاق النيران لساعات طويلة ، وحينما إنتهت المعركة ، كان النصر حليف المصريين ، حيث دمروا اللواء الاسرائيلى المدرع المائة والتسعون تدميرا تاما ، وفى مساء هذا اليوم ، كان قائد هذا اللواء المذهول وطاقم خمس وعشرين دبابة تم الاستيلاء عليها يصطفون لإستعراضهم كتذكار للحرب على شاشة تليفزيون القاهرة ، ومع اصابتها بالرعب الجماعى أدركت اسرائيل ان قواتها البرية الممتازة وتفوق قواتها الجوية الهائل الذى حسم حرب ١٩٦٧ لصالحها قد تم كبح جماحها بالصواريخ السوفيتية والروح المعنوية المدهشة للجيوش العربية . وتلاشت الثقة بالنفس التى كانت سائدة فى ١٩٦٧ .

ودخلت الحرب يومها الثالث . وأخذت مرتفعات الجولان تقع بفعل أصوات الدبابات الاسرائيلية والسورية التى تقف وجها لوجه فوق أرض الهضبة الجرداء المغطاة بالعليق ، بينما توغل المصريون فى سيناء مسافة ثلاثة عشر ميلا شرقى القناة ، واصبحوا على بعد تسعة أميال فقط غربى ممر متلا ، الرمز المؤلم للهزيمة العربية المنكرة فى حرب ١٩٦٧ . وترددت كلمات عبد الناصر التى وردت فى خطاب استقالته من جديد : « ان الامبرياليين يعتبرون ذلك هزيمة شخصية لحقت بعبد الناصر . ولكنها هزيمة لحقت بالشعب العربى بأسره ولن يقبل الشعب العربى هذه الهزيمة » .

ولكن بدخول المعركة أسبوعها الثالث ، إنقلب المد على نحو حاسم ليصبح ضد العرب . ففى مدينة العريش ، التى تقع فى سيناء خلف الجبهة مباشرة ، كانت طائرات النقل الأمريكية تفرغ حمولاتها من الدبابات والأسلحة المتطورة التى تم جمعها من مخازن القوات المسلحة الأمريكية لتعويض الخسائر الإسرائيلية وقلب الموازين فى أرض المعركة ، وردت الدول العربية المنتجة للنفط بفرض حظر على تصدير النفط إلى الولايات المتحدة . بيد أن وقف تدفق النفط لم تكن له آثار فورية عاجلة على الحرب البرية ، فقد قام الإسرائيليون ، بعد أن أعيد تسليحهم ، بمد جسورهم الخاصة عبر القناة ، وسرعان ما وضعوا مائتى دبابة وخمسة عشر ألفا من القوات على الضفة الغربية للقناة . وقامت الوحدات الإسرائيلية ، التى إنتشرت لمسافة خمسة عشر ميلا على

★ المرجع السابق

طول الممر المائى ، بضرب بطاريات الصواريخ أرض - جو ، وفتحت ثغرة فى الدفاعات الجوية المصرية . وسرعان ما تلبدت سماء سيناء بالمعارك الجوية التى إشتبكت فيها المقاتلات التى قامت أمريكا بتزويد إسرائيل بها مع طائرات الميج المصرية .

وعلى الجبهة السورية ، توقفت القوات الإسرائيلية عند قرية سعسة ، على بعد عشرين ميلا فقط من دمشق . وعلى الضفة الشرقية ، تشبث المصريون بالكاد برأس جسرهم الضيق فى سيناء . وفى نيويورك ، أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم ٣٣٨ الذى يدعو إلى وقف فورى لإطلاق النار وإجراء مفاوضات للتوصل إلى تسوية سلمية تحت « الرعاية المناسبة »• وكانت تلك هى اللحظة التى ينتظرها أنور السادات . وقبلت مصر وقف إطلاق النار دون تشاور مسبق مع سوريا . ووافق السوريون على وقف الأعمال العدائية ، حيث لم يكن أمامهم خيار آخر . وبدأ سريان وقف إطلاق النار فى الساعة السابعة من مساء الثانى والعشرين من أكتوبر ولكنه إنهار حينما سارعت القوات الإسرائيلية بالتقدم نحو مدينة السويس على الضفة الغربية لقطع الطريق على الجيش الثالث المصرى . وفى الثالث والعشرين من أكتوبر توقف إطلاق النار نهائيا .

وقد إستمرت الحرب ثمانية عشر يوما من القتال الشرس - أى ثلاثة أضعاف الفترة التى إستغرقت حرب ١٩٦٧ المشينة . وقد منيت جميع الأطراف بخسائر فادحة فى الأفراد والمعدات . ولكن العرب كسبوا الحرب النفسية ، وبصرف النظر عن نتائج الحرب النهائية ، فقد حقق العرب نصرا نفسيا بعبورهم قناة السويس ، الرمز الأكبر للتخلص من وهن الماضى ، وفى الكلمات التالية بعنوان « القرار » تحدث الكاتب المصرى يوسف ادريس عن كل العرب قائلا :

« بقرار واحد بجرة قلم تحققت المعجزة :
وتحولنا من حالة الخزى والهوان ،
حال البهائم والحيوانات ، إلى حال
البشر الذين يتحلون بالشرف والعزة
بقرار واحد بجرة قلم استرجعنا شرفنا
واستعدنا إنسانيتنا . . .
بقراره (قرار السادات) لم يعبر جيشنا
لقناة فقط ،
بل تخطى شعبنا أيضا الفراغ والخزى والعار
تخطى الآلام التى لا تستطيع أن يتحملها بشر »•

• أكد القرار رقم ٣٣٨ من جديد فى جوهره على القرار ٢٤٢ ، الذى صدر بعد حرب ١٩٦٧ ، والذى دعا إسرائيل إلى مبادلة الأرض بالسلام : وكان هذان القراران أساس السلام المراوغ الذى فشل العرب وإسرائيل فى الإمساك به منذ ذلك الحين .

• يوسف إدريس ، « القرار » ، كما أورده باتاى فى ، « العقل العربى » ، ص ٣١٦ .

ولا تزال بانوراما القاهرة تحتفل بما أصبح يعرف الآن ببساطة بـ « العبور » . وهى تقع فى مبنى فخم ذى قبة رمادية يقوم وحده على نحو رائع وسط ميدان مسور تم إعداده بعناية بعيدا عن زحام القاهرة وضوضائها ، وقد وصلت إلى البوابات المرتفعة السوداء المصنوعة من الحديد حوالى الساعة السادسة من مساء أحد الأيام فى أواخر الخريف . وبعد تسليم تصريح دخولى ، توجهت إلى الداخل . وقد شملتنى حالة من المهابة لم أشعر بمثلها أبدا فى مصر ، حتى داخل الأزهر ، بينما كنت أطوف بين آثار حرب ١٩٧٣ ، وكانت تماثيل أبطال مصر البرونزية تطوق إحدى الدبابات الإسرائيلية التى تم أسرها ، ولم يكن يفوقها روعة إلا إحدى طائرات السلاح الجوى المصرى المقاتلة فوق قاعدة ضخمة ذات زوايا حادة تجعلها تتجه نحو السماء ، وبعد صعود بضع درجات عريضة من الحجر التى تفضى إلى بابين نحاسيين شاهقى الإرتفاع دخلت إلى ما يعد فى واقع الأمر معبدا لحرب أكتوبر تم بناؤه من الرخام الوردى والجرانيت الرمادى ، وكان نظيفا يلفه الهدوء والعزلة . وقرب الساعة السابعة ، وفدت مجموعة من الناس يرتدون زى أهل الخليج ، وتبعهم عدد من الأفارقة ذوو البشرة السوداء ، الذين تبعهم عدد من الباكستانيين . وكان ينتشر بينهم عرب من شتى أرجاء العالم العربى يرتدون ملابس فاخرة . وكنت أنا الغربية الوحيدة بينهم .

وقادنا الحراس بزيهم العسكرى نحو سلم ضيق ملتو يفضى إلى قاعة الإستماع والمشاهدة فى أعلى ، حيث وجدت مقعدا خاليا بين ضابط متقاعد بالجيش المصرى وأحد رجال الأعمال الأردنيين ، وأطفئت الأنوار ، ودوت موسيقى عسكرية قوية تصاحبها أصوات عميقة مدوية تنبعث من عشرات من مكبرات الصوت التى وضعت فى السقف الدائرى . وفجأة ، سطعت أضواء قوية رائعة على القسم الأول من لوحة مربعة الشكل ، وبدأت المنصة التى يجلس فوقها المشاهدون تدور ببطء حول اللوحة . وبينما كنا نتحرك ، كانت الموسيقى والراوى يتجهان نحو الذروة - عبور القناة ، وأخيرا إنتهى العرض . وكان الأفارقة والآسيويون يثرثرون على نحو مثير بينما كنا نهبط الدرج . ولكن العرب ظلوا صامتين وهم يستمتعون مرة أخرى بإستعادة الكرامة العربية والإحتفاء بالوحدة العربية .

لقد أشعلت حرب أكتوبر من جديد خيال أكثر أنصار الوحدة العربية الشاملة طموحا ، الذين رأوا أمامهم عالما عربيا موحدا يتغلب على عجزه والإهمال الدولى له . ودام ذلك لمدة عامين .

وقد تلاشت أحلام إحياء العصر الذهبى للعرب حينما وجد السعوديون والكويتيون وشيوخ الإمارات العربية قدرا أكبر من الرضا فى بناء المطارات والطرق السريعة والقصور والإنفاق الإستهلاكى يفوق ما توفره لهم الوحدة العربية . وتوارى الفصل المجيد من تاريخ العرب الذى سطرته حرب أكتوبر ، على المستوى النفسى ، التى هى حرب كل العرب بعد أن إتضح على نحو محزن أن الإرتفاع الهائل فى أسعار البترول والثروات التى نتجت من ذلك لم يستفد منها إلا القلة المحظوظة فقط . ووقف الباقون فى الخارج ، لا يملكون شيئا سوى عبء الإحباط والعجز . ولم يشعر أحد بذلك مثلما شعر به المصريون . فهم الذين تحملوا عبء الحرب ولم يجنوا شيئا يخلصهم من فقرهم المدقع . وبدلا من ذلك ، « إزداد الأثرياء ثراء » ، بينما تعين على من أراقوا دماءهم منذ البداية أن يريقوا ماء وجوههم طلبا للقليل من الثروة المادية التى حصل عليها الآخرون

نتيجة للتضحيات التى قدمها الفقراء »*، لقد أحدث الإزدهار البترولى جرحا نافذا فى النفسية الجماعية فى مصر . ومن آلامها برزت قناعة مريرة بأن العرب الأثرياء يريدون مصر ان « تتضور من الجوع وحدها ، وتموت وحدها ، وتحارب وحدها ، وتفلس وحدها »** . وكانت مصر ورئيسها قد عانيا الكثير . وكانا يريدان الخروج من المستنقع العربى .

إن أنور السادات لم ينظم حرب أكتوبر بإعتبارها محاولة عربية شاملة على الإطلاق . إذ لم تكن حرب ١٩٧٣ بالنسبة له وللمصريين الذين عرفوا معنى الحرب ، بداية لنضال جديد ومستمر ضد إسرائيل ، ولا مرحلة أخرى من مراحل خضوع مصر للسياسة العربية . وربما تنتمى حرب ١٩٧٣ للعرب نفسيا - لكنها تنتمى لمصر وحدها سياسيا . وبمعنى من المعانى ، إنها لم تكن أبدا حربا تقليدية وإنما كانت عملا عسكريا إستهدف تحقيق هدف غير عسكرى - هو تسوية مشكلات الأراضى التى نشأت عن حرب ١٩٦٧ .

غير أنه بعد حرب ١٩٧٣ ، واجهت مصر بإعتبارها جزءا من المجموعة السياسية العربية ، نفس المعضلات التى كانت تواجهها قبل عبور القناة . فقد طالبت إسرائيل بإجراء مفاوضات مباشرة مع الدول العربية ، مما يعنى إعتراف العرب بالدولة الصهيونية دون أية ضمانات بإعادة الأراضى . وأصرت الدول العربية على إجراء مفاوضات جماعية وتعهدت برفض أى إتفاق يخفق فى إقامة دولة للفلسطينيين ، ولم تستطع مصر تحمل إنتظار تغيير الموقف الإسرائيلى او العربى ، فقد كانت بحاجة إلى سلام عاجل . فبعد جرح إسرائيل وإسترداد كرامة العرب الممزقة ، خلق السادات السلطة التى تمكنه من التخلى عن نهج عبد الناصر العربى الشامل إلى الأبد . وبعد ان أصبح ينافس عبد الناصر القوى ، فى الوقت الراهن ، أمكنه تجاهل إحتجاجات سائر العرب والبدء فى السعى من أجل السلام مع إسرائيل . ذلك أنه هو ، وليس هم ، الذى تحدى العدو ، والذى كان بطلا فى الحرب . وفى قمة إنتصاره كقائد عربى ، شرع أنور السادات فى البحث عن سلامه الخاص مع إسرائيل . وفى المرحلة الأخيرة من مراحل نبذ الناصرية تقبل الولايات المتحدة كشريك له .

وفى السادس من نوفمبر ١٩٧٣ ، وصل إلى القاهرة هنرى كيسنجر ، وزير خارجية الرئيس نيكسون . فى أواخر أكتوبر ، إلتقت مصر وإسرائيل فى خيمة عند الكيلو ١٠١ على الطريق بين القاهرة والسويس لتوقيع إتفاق وقف إطلاق النار . بيد أن جيشيهما ظلا متشابكين على طول قناة السويس . وبحلول شهر يناير إستطاع كيسنجر ، الذى كان يقوم برحلات مكوكية بين تل أبيب ومنتجع السادات فى أسوان ، إقناع إسرائيل بالتراجع خمسة عشر ميلا من الضفة الغربية للقناة ، مما أدى إلى إطلاق سراح ثمانية عشر ألف رجل من رجال الجيش الثالث المصرى المحاصرين . وكان نصيب مصر من الصفقة ، التى تم توقيعها بموجب إتفاقية عرفت باسم إتفاقية سيناء الأولى ، هو التخلى عن سوريا ، وترك حافظ الأسد لعقد صفقة خاصة مع إسرائيل حول مسألة الجولان

* رفعت السعيد ، « العرب ، وحدتهم الحرب ، هل يتقسمون الآن بفعل السلام » ؟ الطليعة ، (القاهرة) ، اغسطس ، ١٩٧٥

** عجمى ، « المأزق العربى » ، ص ٨

وجاء ريتشارد نيكسون بنفسه إلى القاهرة فى شهر فبراير ورفعت نفس الجماهير التى كانت تهتف لتوجهات عبد الناصر المعادية للغرب أصواتها تهتف بفرحة غامرة للرئيس الأمريكى وإستئناف العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة ومصر ، وبدا أن أنور السادات لم يجانبه الصواب فى تحليل السأم من الحرب الذى خيم على شعب النيل .

وغادر نيكسون مصر وعاد اليها كيسنجر . وطوال فترة الصيف ، أخذ صديق السادات « العزيز هنرى » ، يقوم برحلات مكوكية مرة أخرى بين عواصم الشرق الأوسط . وفى شهر سبتمبر ، تفاوض بشأن اتفاقية سيناء الثانية ، التى استردت مصر بموجبها ألفى ميل مربع من أرض سيناء ، ولكن بتحقيق هدف مصر الخاص بالأراضى تخاصم السادات مع العرب . وفى بيان ذى دلالات عميقة بالنسبة للسياسة العربية الجماعية تجاه اسرائيل ، تعهدت مصر « بالا تلجأ الى التهديد باستخدام القوة لحل النزاعات مع اسرائيل » وتوارت الوحدة العربية والحقائق الملحة الخاصة بالأراضى والقضية الفلسطينية ، حينما حصلت مصر ، ومعها شريكها الأمريكى ، على اراضيها . وطوال عهد عبد الناصر ، كانت القاهرة وحدها هى التى ترفع علم العروبة ، وكانت ملاذ العرب غير المصريين ووجهتهم من أجل الحصول على الدعم المالى والمعنوى . وكان أصدقاء القاهرة هم المؤمنون بالوحدة العربية والتضامن ، وكان أعداؤها هم عملاء الامبريالية وجواسيسها ، وأتباع الغرب والانفصاليين الذين أخفقوا فى الالتزام بضرورات الوحدة العربية الملحة* . بيد أن مصر لم تعد تصدر عنها صيحة العروبة . وبدلا من ذلك عقد أنور السادات ، بطل حرب ١٩٧٣ ، صفقة من أجل مصر وتحدى الارادة العربية الجماعية . واذا كانت حرب اكتوبر التى خاضها السادات تمثل أوج الوحدة العربية ، فقد كانت اتفاقية سيناء التى وقعت فى سبتمبر ١٩٧٥ تمثل بداية تفكك هذه الوحدة .

وقد أخفق فك الاشتباك فى سيناء فى وقف انزلاق مصر داخل البالوعة الاقتصادية . فبرغم جهود هنرى كيسنجر ، كانت مصر لاتزال تنفق ما يقرب من ٢ر٢ بليون دولار سنويا على قواتها المسلحة ، وكانت لاتزال فى حاجة الى بليونى دولار أخرى سنويا كمساعدة خارجية كى تظل طافية على السطح ، فمنطقة روض الفرج ، القريبة من وسط القاهرة ، تكتظ بـ ٣٤٨ر٢٦١ نسمة فى الميل المربع - أى عشر أضعاف الكثافة السكانية فى مدينة نيويورك . ونظرا لندرة المساكن فى مختلف أنحاء القاهرة ، تدافع الناس واحتلوا مقابر الموتى . وقامت الحكومة ، التى رأت فى هذا التصرف حلا وليس مشكلة ، بمد الخطوط الكهربائية الى هذه المساكن الأضرحة . ومع تزايد السكان وندرة الوظائف بلغ متوسط دخل العامل فى المدينة ٧٢ دولار شهريا . وكان دعم الحكومة للسلع الأساسية يساعد معظم الناس على الاستمرار فى الحياة[٦]، ولكن هذا الدعم كان يمتص دماء خزانة مصر التى تعانى من فقر الدم المزمن .

* فؤاد عجمى ، « بين القاهرة ودمشق : العالم العربى والمأزق الجديد » ، الشئون الخارجية ، ابريل ، ١٩٧٦ ، ص ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .

وفى ربيع عام ١٩٧٤ ، سعى السادات الى تحسين الوضع الاقتصادى من خلال التخلص من شريحة صغيرة من نظام عبد الناصر الاشتراكى بالمبادرة بسياسة الانفتاح ، اى الانفتاح على الاستثمارات الغربية . وقد نفثت سياسة الانفتاح بعض الطاقة فى الاقتصاد المصرى ، لكنها ايضا خلقت نوعا جديدا من الباشوات والقطط السمان ، فمن خلال تقاضى العمولات والمكافآت الأخرى ، المشروعة وغير المشروعة ، من المستثمرين الأجانب ، ظهرت طبقة بورجوازية أصبحت معروفة بتلك الصفة البغيضة وهى « طبقة الانفتاح » . لقد كانت طبقة تستمد أسباب عيشها من الاتجار مع الغرب ، وتقوم هويتها على تقليدها المزرى للتصرفات الغربية . وبرغم بعض الآثار المفيدة الهزيلة التى ترتبت على سياسة الانفتاح ، فانها لم تفعل شيئا لتخفيف حدة الفقر المدقع الذى جعل الدعم الحكومى أمرا حيويا بالنسبة للكثير من الناس .

وفى الثامن عشر من يناير ١٩٧٧ ، استيقظ المصريون على الأنباء المزعجة بأن الحكومة تعمل على وقف نزيف خزانتها من خلال خفض الدعم الضرورى لمعظم المصريين . وبين عشية وضحاها ، قفزت أسعار السلع الأساسية كالدقيق والأرز والصابون والبنزين بنسبة واحد وثلاثين فى المائة . وبحلول الظهيرة ، كانت البلاد تشهد أسوأ أعمال شغب منذ السبت الأسود عام ١٩٥٢ . وطوال اليومين التاليين ، أخذ العامة فى كل المدن الكبرى يشعلون الحرائق ويقومون بالسلب والنهب ، بينما كانت الجماهير تعبر عن سخطها على أنور السادات وغليونه الدانهيل ورابطة عنقه البارسية وحلله اللندنية . « أنت تعيش فى ترف وبذخ ونحن نعيش فى غرفة واحدة ، أنت تغير ملابسك ثلاث مرات فى اليوم ونحن نغيرها مرة واحدة فى العام » . وبينما كانت الطائرة الرئاسية جاثمة فوق مطار أبو صوير استعدادا لنقل الرئيس وعائلته الى طهران ، أرسل السادات الجيش الى الشوارع . ولم يعد النظام الى البلاد الا باستخدام القوة ، واعادة الدعم . وبرغم أن السادات ألقى مسئولية هذا الشغب على الشيوعيين ، فان المائة والستين قتيلا تشهد بمدى اليأس الفظيع الذى كان يعانيه المصريون العاديون . وكان على مصر ايجاد وسيلة للخروج من العجز الاقتصادى والمأزق العسكرى . ولكن لم يكن ثمة صيغة تبدو فى الأفق لجمع مصر والأردن وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل معا والجلوس الى مائدة المفاوضات ، ناهيك عن التوصل الى تسوية . ولم يعد بامكان السادات الانتظار طويلا ، كما كان الحال فى الماضى لمزيد من جولات المهاترات والمزاج النفسى والتهديدات المتخفية وراء الدبلوماسية . ولكى تظل مصر ورئيسها على قيد الحياة ، كان عليه أن يخرج من هذه الورطة بأسرع ما يمكن .

وانطلاقا من الثقة بالنفس أو اليأس ، رأى السادات أن مصر تستطيع العمل بمفردها . وكانت مصر برغم كل شىء مركز الثقل فى العالم العربى . وكان السلام الاقليمى يتطلب مشاركتها ، مثلما تطلبت الحرب قيادتها . واذا رفضت الدول العربية مساعدة مصر على التخفف من عبء المواجهة مع اسرائيل ، فان السادات سوف يبعد مصر عن المعادلة العسكرية ، وبذلك تتدنى قدرات العرب لتصبح قوة لا يعتد بها . ولكنه كان بحاجة الى وسيلة . وقد قدم هذه الوسيلة وولتر كرونكايت المعلق التليفزيونى الأمريكى .

وفى خريف عام ١٩٧٧ ، كان يتردد عبر الأثير حديث عن لقاء قمة بين أنور السادات ومناحم بيجين . بل إن أنور السادات اعلن امام برلمانه أنه سيذهب الى القدس بحثا عن السلام اذا وجهت اليه الدعوة . بيد أنه لم توجه اليه أية دعوة وفى الساعة التاسعة من صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من نوفمبر ، قام كرونكايت بتسجيل مقابلة مع السادات لبرنامج أخبار المساء الذى تقدمه محطة سى بى اس . وعند سؤاله عما اذا كان على استعداد للتوجه الى القدس بحثا عن السلام ، أجاب السادات بقوله : « اننى فى انتظار الدعوة المناسبة » . وتبع كرونكايت ذلك بسؤاله عن كيفية توجيه هذه الدعوة بين بلدين لا تربطهما علاقات دبلوماسية . وقفز السادات الى اجابة السؤال قائلا : « لماذا لا يتم ذلك من خلال اصدقائنا ـ أصدقائنا المشتركين الأمريكيين » ؟

وخلال الساعات الست التالية ، قام مكتب محطة سى بى اس فى تل ابيب بتسجيل مقابلة مماثلة مع مناحم بيجين . وبعد فترة وجيزة من جس النبض ، قال رئيس الوزراء العنيد أنه يعتزم ارسال رسالة الى السادات فى اليوم التالى من خلال سفيرى الولايات المتحدة فى تل ابيب والقاهرة . « فلنجلس معا . . ونتحدث عن السلام » . وفى مساء هذه الليلة ، تم ترتيب اللقاءين معا باستخدام التكنولوجيا الحديثة ، ووضع السادات وبيجين على شاشة واحدة منقسمة كما لو كانا يجريان حوارا مع كرونكايت معا فى وقت واحد . وفى اليوم التالى وصلت رسالة بيجين الى القاهرة وقام أنور السادات بزيارته الى القدس .

لقد كان أنور السادات بمثابة الأداة التى صنعت تاريخ مصر ولم يكن بالضرورة هو صانع هذا التاريخ . فقد انتهز الفرصة وتوجه الى القدس ليس لأنه كان ذا خيال واسع ولكن لأنه أدرك أن موظفى مصر وأصحاب المحلات فيها ، وطلابها وفلاحيها الطيعين غير مستعدين بعد الآن للقتال والنزيف من أجل الأمة العربية ، ولكن اذا كان أنور السادات قد أدرك مدى انهاك مصر واستنزافها ، فان بقية العالم العربى لم يدرك ذلك . وانهالت الاتهامات من كافة العواصم العربية تتهم السادات بإحداث صدع فى النظام العربى كله . وأدى فشل السادات فى تمهيد الأساس مع الزعماء العرب الأخرين قبل أن يقدم على اعلانه المفزع ، الى زيادة حدة هذه الاتهامات ، وأعرب السعوديون على وجه الخصوص ، وهم ممولو مصر ، عن سخطهم الشديد لعدم استشارتهم فى ذلك . وقال الملك خالد بعد ذلك ، الذى كان يؤدى الصلاة فى مكة عشية توجه السادات الى القدس ، لقد كنت أتوجه دائما من قبل الى الكعبة بالدعاء للآخرين ، ولم أتوجه أبدا بالدعاء على أحد . ولكنى وجدت نفسى أقول فى هذه المناسبة ، « اللهم دمر الطائرة التى تقل السادات الى القدس قبل أن تصل هناك ، حتى لا يكون عارا علينا جميعا » . وانى لأشعر بالخجل لدعائى على أحد المسلمين فى الكعبة »* . وقد وصف العاهل الأردنى الملك حسين رحلة السادات بأنها « مغامرة »** .

* محمد هيكل ، خريف الغضب : اغتيال السادات (نيويورك : راندومهاوس ، ١٩٨٣) ص ٩٨ .

** واجه السادات أيضا معارضة داخلية : اذ خسر وزير خارجيته اسماعيل فهمى بسبب قراره بالتوجه الى القدس .

وكانت ليلة التاسع عشر من نوفمبر من الليالى الباردة التى أضاءها هلال القمر الباهت بضوئه الخافت ، وصعد أنور السادات ، الذى كان يرتدى حلة رمادية ذات ترابيع ورباط عنق تقليدى فضى اللون ، سلم احدى الطائرات العمودية من استراحته فى الاسماعيلية الواقعة على قناة السويس متجها الى مطار أبو صوير العسكرى . ولدواعى الأمن ، ظل مكان وساعة رحيله سرا . وبعد ترجله من الطائرة بخطى واثبة ، قام بتحية أعضاء مجلس وزرائه والقليلين من أعضاء البرلمان اللذين كانوا فى انتظاره قبل تفقده حرس الشرف . وتوقف فجأة ليبتسم ابتسامة عريضة ويقهقه قائلا : « باربارا ، اذن فقد حضرت » . وبينما كان يمد يده لمصافحة بابارا وولترز ، بشبكة ايه بى سى ، صاح قائلا : «وولتر » موجها كلامه لوولتر كرونكايت المذيع الرئيسى فى محطة سى بى اس . لقد كان من يهتم السادات حقا بوجودهم حاضرين ، وكان السادات أستاذا فى الدعاية ، وظاهرة فى الثقافة العربية . وكان يتودد الى الغرب على نحو طبيعى أمام أضواء التليفزيون وأصبح أسير ذاته فى سياق هذه العملية . وليعبس العرب ويقطبون جبينهم . فقد كان معه من يستطيعون اقناع حكومة الولايات المتحدة والرأى العام الأمريكى بأن مصر ، مثل اسرائيل ، صديق يستحق رعايتها .

وارتفعت طائرة الرئيس فى عنان السماء المظلمة . وبعد أقل من أربعين دقيقة ، وفى الساعة السابعة وثمانية وخمسين دقيقة ، هبطت الطائرة البوينج ٧٠٧ ، التى كانت حافتها الحمراء المزركشة تتلألأ تحت الأضواء الساطعة ، فى مطار بن جوريون فى تل أبيب . وعزف نافخو الأبواق فى الجيش الاسرائيلى لحنا قصيرا ترحيبا بالضيف القادم . وبينما كان آلاف الاسرائيليين يلوحون بأعلام مصر ذات اللون الأحمر والأبيض والأسود ، تقدم أنور السادات ، رئيس مصر ، عبر باب الطائرة ليبدأ مهمته المقدسة .

ووقف السادات على أرض المطار مشدودا بينما كانت احدى فرق الجيش تعزف النشيد الوطنى المصرى والنشيد الاسرائيلى « هاتيكفاه »* ، ذلك النشيد الذى أشعل الاضطرابات عام ١٩٢٩ فى القدس . ثم بدأ فى تفقد الطابور الذى كان فى استقباله ـ رئيسا الوزراء السابقان جولدا مائير واسحاق رابين ، وموشى ديان وزير الخارجية وبطل اسرائيل فى حرب الأيام الستة ، وآريل شارون قائد القوات الاسرائيلية فى سيناء فى حرب أكتوبر . ووقف على رأس الطابور مناحم بيجين ، المحارب القديم الذى خاض حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

وأمضى السادات ليلته فى فندق الملك داوود ، وهو الفندق الذى قصفته جماعة الأرجون بزعامة بيجين عام ١٩٤٦ . وفى اليوم التالى ، يوم عيد الأضحى ، ذلك اليوم الاسلامى المقدس الذى يمثل ذكرى قبول أب الأنبياء ابراهيم التضحية بإبنه ، أدى السادات الصلاة فى المسجد الأقصى . وتكريما لأقباط مصر المسيحيين ، توجه الى كنيسة القيامة وعرج الى يادفاشم ، النصب التذكارى الاسرائيلى لضحايا المحرقة (الهولوكست) النازية ، ومن المفارقات الشديدة فى هذه

---

* النشيد الوطنى الاسرائيلى أو نشيد الأمل (المترجم) .

الرحلة غير المتوقعة ان رئيس مصر وضع أكليلا من الزهور على النصب التذكارى للجندى الاسرائيلى المجهول .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر ، صعد السادات الى منبر الكنيست وألقى خطابا باللغة العربية استغرق سبعا وخمسين دقيقة ، وفى أقوى اعتراف يدلى به زعيم عربى بحق اسرائيل فى الوجود ، قال السادات ، « . . اننا نوافق على العيش معكم . لقد أصبحت اسرائيل أمرا واقعا يعترف به العالم أجمع » . غير أنه تمسك بمبدأ العرب الأساسى بمطالبة اسرائيل بإعادة جميع الأراضى العربية التى احتلتها أثناء حرب الأيام الستة ـ بما فيها مدينة القدس القديمة ـ والاعتراف بأن ايجاد وطن فلسطينى هو لب المشكلة بين العرب واليهود ، وكان أنور السادات حريصا على حماية وضعه المتداعى فى المجموعة العربية ، لأن التفاوض حول اتفاق منفصل مع اسرائيل من « شأنه أن يؤدى الى انقسام العالم العربى ووضع مصر ووضعى فى موقف مستحيل »* . وفى اليوم التالى توجه عائدا الى الوطن .

وانفجر خمسة ملايين مصرى ـ من النساء المصريات اللاتى إعتقدن أن أبناءهن لن يؤخذن من احضانهن بعد الآن ، والطلبة الذين يرتدون الجينز ورأوا فى النظام الجديد الأمل فى الحصول على وظائف ذات معنى ، والفلاحون ذوو البشرة الخشنة بجلابيبهم الذين كانوا جميعا على استعداد للتعلق بأى شىء قد يخفف من أعباء حياتهم ـ انفجروا فى فرحة غامرة يحدوهم الأمل ، لقد كان شعب بلد منهك القوى تحمل عبء النضال والكفاح العربى ثلاثين عاما يقول نعم للسلام . « مرحبا بالسادات » . « مرحبا ببطل السلام » . نحن معك يا سادات يا بطل الحرب وبطل السلام . ان هؤلاء الذين هتفوا لعبد الناصر حينما كان يحكم كرسول الوحدة العربية الشاملة يحيون الآن السادات من أجل مصلحة مصر . وكانوا فى تلك اللحظة لا يهتمون كثيرا بموافقة السعوديين أو السوريين على ما يفعلونه .

واصبح الفلسطينيون ، رمز الوحدة العربية ، طى النسيان . فقد كان المصريون يتبعون السادات فى طريق العودة الى « الوطنية الفرعونية » . وفى هذا اليوم ، عاد عهد الفراعنة .

لقد تحدى حج أنور السادات الى القدس مبدأ الوحدة العربية كما لم يتحداه شىء آخر . فرغم أن العرب كانوا يريدون تجاهل تمزقهم وتأكيد أسطورة الوحدة ، فقد أظهرت مصر حقيقة تفسخ العرب وتفككهم . « وكان العرب يريدون الاستمرار فى خرافاتهم الوحدوية . وكان المثقفون يريدون التمسك بالآراء والمجادلات نفسها ، بينما ظل الزعماء يتحدثون بلغة العروبة لأمد طويل حتى صار من الصعب عليهم التحول الى لغة أخرى . وقد أجبرتهم مصر جميعا على مواجهة التباين فيما بينهم . وكان الهجوم العاصف على سياسة السادات بمثابة قتال للابقاء على الأسطورة »*

---

* تايم ، ٥ ديسمبر ، ١٩٧٧ .

* فؤاد عجمى ، « النضال من أجل روح مصر » ، الشئون الخارجية ، صيف ١٩٧٩ ، ص ٢٨ .

وقد استطاع أنور السادات ، الذى يرأس مجتمعا كثيف السكان ، يتميز بالتجانس الواضح ويتمتع بإحساس متميز بالذات خارج نطاق العروبة ، أن يسلك طريقا لم يستطع أن يسلكه الآخرون ، ولو أنه كان أقل اصرارا على السفر بمفرده وأكثر احساسا بمشكلات الملك حسين أو حافظ الأسد أو حتى بيت آل سعود الهش ، فربما كانوا قد تسامحوا معه قليلا . ولكن هذا الاسلوب لم يكن أسلوب السادات . فبمجرد قيامه بحركته التاريخية ، طالب الآخرين بأن يتبعوا مصر ، ونتيجة لذلك ، استمر ابتعاد مصر عن المجال العربى تدريجيا فى الفترة بين ١٩٧٧ و ١٩٧٩ ، وحينما أقامت مصر سلاما منفردا مع اسرائيل ، أصبح هذا الابتعاد كاملا .

وقد أدانت المملكة العربية السعودية رحلة السادات للقدس باعتدال ، أما سوريا فقد شجبتها بعنف . غير أنه لم يكن أى من الزعماء العرب يريد معاقبة السادات الى الدرجة التى تدفع المصريين ، الملتفين حول علم بلادهم ، الى الارتماء فى أحضان اسرائيل . وحتى المتشددون ـ فى سوريا وليبيا والعراق والجزائر واليمن الجنوبى ـ الذين اجتمعوا فى طرابلس فى ديسمبر ١٩٧٧ لم يذهبوا الى ما هو أبعد من تجميد العلاقات الدبلوماسية مع مصر وأعلنوا أنهم سيقاطعون حضور اجتماعات الجامعة العربية فى القاهرة . وثار السادات وقام بقطع العلاقات الدبلوماسية وطرد دبلوماسيى الحكومات الآثمة .

ونتيجة لذلك تزايد انفصال السادات وعزلته عن العالم العربى . وحينما التقت الدول العربية فى قمة بغداد فى اكتوبر ١٩٧٨ ، عرضت سوريا والسعودية ، واللتان تمثلان الخطين المتشدد والمتساهل فى معارضة السادات ، شراء خروج مصر من التحالف الاسرائيلى ـ الامريكى الناشىء ، ورفض السادات ذلك . وفى داخل مصر أخذ السكان موقفا هجوميا حول الاتفاق مع اسرائيل . فاتهمت وسائل الاعلام المصرية سائر العرب بأنهم كانوا يسمحون بأن تقاتل مصر دائما حروبهم ضد اسرائيل . وكانت الرسوم الكاريكاتورية فى الصحف توجه اللكمات للفلسطينيين الذين يمارسون كفاحهم الثورى من النوادى الليلية فى بيروت . وكان الكاتب الروائى نجيب محفوظ والكاتب الوطنى توفيق الحكيم يريان أن مصر لم تجن الا الكوارث من ارتباطها بالعالم العربى . غير أن أكثر أشكال الهجوم قسوة على العرب تمثل فى الملصقات التى ألصقت على السيارات التى ظهرت فجأة فى القاهرة وكتب عليها ، «مصر : إما أن تحبوها أو تتركوها» .

وتحت التظاهر بالشجاعة توقفت عملية السلام مع اسرائيل حتى شهر سبتمبر ١٩٧٨ ، حينما قام الرئيس الأمريكى جيمى كارتر بأسر مناحم بيجين وأنور السادات فى غابات ميريلاند .

وطوال ثلاثة عشر يوما ، أخذ الزعماء الثلاثة يتشاورون داخل حجرات كامب ديفيد الريفية ، وهى منتجع الرئيس الامريكى ، بينما كان العالم ينتظر فى الخارج . ومع قيام جيمى كارتر بدور القابلة ، توصل السادات المتلهف وبيجين العنيد الى قدر قليل من الاتفاق . وبالنسبة لمصر ، كان السادات يساوم من أجل استرداد سيناء وانهاء حالة الحرب المكلفة مع اسرائيل ، وفيما يتعلق بالعرب ، كان يطالب بالقدس ووقف بناء المستوطنات اليهودية فى الأراضى التى احتلتها اسرائيل وحل مشكلة الفلسطينيين .

واخذ المؤتمر يتقدم ويتأخر ، وكاد ينهار فى يوم الخميس الرابع عشر من سبتمبر ، وفى يوم الجمعة قام السادات بإبلاغ الامريكيين أن الوضع لا أمل فيه وأنه سيعود أدراجه . وأقنعه كارتر بالبقاء . وفى النهاية ، فى يوم الأحد السابع عشر من سبتمبر ، خرج جيمى كارتر ، بوجه شاحب بادى الارهاق ليعلن التوصل الى اتفاق ، وأن مصر واسرائيل ستوقعان معاهدة سلام فى غضون ثلاثة أشهر مع تطبيع العلاقات بين البلدين خلال عام واحد ، وفى مقابل معاهدة السلام . ستنسحب اسرائيل من سيناء فى غضون ثلاثة أعوام وكانت تلك هى القضايا المصرية . ولم يكن ثمة ذكر للقضايا العربية الكبرى ـ اعادة الضفة الغربية أو غزة أو الجولان ، وتجميد بناء المستوطنات اليهودية فى هذه الأراضى ، وشكل من أشكال الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ووضع القدس . وكل ما حققه السادات فيما يتعلق بهذه القضايا هو مجرد اتفاق غامض تعهدت اسرائيل بمقتضاه بإجراء محادثات للحكم الذاتى مع سكان الضفة الغربية وغزة بهدف التوصل الى حكم ذاتى بعد انقضاء خمس سنوات وتجميد بناء مستوطنات جديدة مع تقدم المفاوضات ، ولم يحصل فلسطينيو الشتات على شىء . وفى اليوم التالى ، تراجع مناحم بيجين عن تعهده بتجميد المستوطنات • . ونبذ السادات الرمز الأكبر للوحدة العربية ـ الفلسطينيين . فبالنسبة له ، كانت مصر هى القضية .

وفى التفكير الامريكى ، كانت اتفاقات كامب ديفيد تمثل بداية لسلسلة من اتفاقيات السلام بين اسرائيل والدول العربية . وطبقا لهذه الخطة ، كان الملك حسين سيتقدم فى الخطوة التالية لإبرام سلام مع اسرائيل ، ثم السعوديون ، وأخيرا المتشددون الذين تتزعمهم سوريا ، وأدركت الولايات المتحدة جيدا أن ليس ثمة شىء فى الاتفاقات يروق لأى من الدول العربية فيما عدا مصر . ولكى يحظى بأية فرصة للنجاح ، كان يتعين على أنور السادات أن يروج السلام مع اسرائيل لسائر العرب ، وكان قد تعهد لكارتر بأن يتوجه الى الاردن والمملكة العربية السعودية لشرح الاتفاق . ولكنه لم يفعل ذلك على الاطلاق . اذ رفض السادات ، الذى استبد به احساسه الكبير بذاته ودفاعه عن صورته التى رسمها له الامريكيون باعتباره صانع السلام العظيم ، التقرب من أولئك الذين قد ينافسونه على حب واشنطن . ونتيجة لذلك أغلق الباب دون ظهور خلفاء محتملين . وقد قال الملك حسين بعد ذلك عن كامب ديفيد : «لنكن صرحاء ، اننى لم يتم التشاور معى أبدا ودعوتى للمشاركة على الاطلاق» • .

• أنظر الفصل الثالث عشر .

• حال السادات دون دخول حسين كامب ديفيد . اذ كان يشعر أنه اكبر من حسين وأرفع منه مقاما ولم يرد أن يشاركه هذا الفصل من التاريخ . وتساءل قائلا ، «من هو حسين هذا على أية حال ؟» .

وقد تردد السعوديون ثم رفضوا الاتفاق انطلاقا من عقلية آل سعود القبلية ، التى تتمسك بضرورة بقاء الدول العربية داخل اجماع الرأى العربى ، والتقت «جبهة الصمود والتصدى» التى تتألف من سوريا والعراق وليبيا والجزائر واليمن الجنوبى ومنظمة التحرير الفلسطينية فى فندق شيراتون فى دمشق لنصب متاريسها ووضع العقبات أمام ما تراه تواطؤ مصر مع اسرائيل .

ومع ذلك ، وفى السادس والعشرين من مارس ١٩٧٩ ، نصب خيمة ذات الوان صفراء وبرتقالية زاهية عبر المروج الجنوبية من البيت الأبيض لإستقبال أنور السادات ومناحم بيجن وشاهد ألف وخمسمائة من الضيوف سليل الصهيونية وسليل الفراعنة وهما يوقعان بإسميهما معاهدة للسلام بين مصر ودولة إسرائيل . وكانت الأنخاب والإبتسامات والأحضان وعلامات البهجة والفرح تضىء مائدة العشاء الرسمى الذى أعقب التوقيع . ولكن فى الشرق ، كان المزاج العام فى مصر مقهورا . ذلك أن الوقت الذى تصرف فيه السادات بمفرده فى عزلة عن الآخرين ، حينما مثل مشاعر مصر الداخلية ، وإستعدادها للتخلى عن الكفاح المقدس والإنزواء خلف هويتها العربية ، كان وقت إنحسار المد . وكانت معاهدة السلام إنتصارا شخصيا لأنور السادات وجيمى كارتر . وكانت بالنسبة لمصر شيئا مجهولا تحيطه الشكوك . وقد عمل السادات حرفيا ومجازيا ، على إبعاد مصر تماما عن العالم العربى من خلال دفعها إلى عقد سلام منفرد مع إسرائيل ، وقد رفض السادات أية محاولة لإصلاح ما ترتب على ذلك من أضرار . وبدلا من ذلك أخذ يهدد ويتوعد قائلا : « إن العرب لا شىء بدون مصر » . وحينما أدان الملك حسين بأنه حفيد عبد الله ، رد حسين بتحفظه الدمث المعتاد ، « أنه من الصعب إلى حد ما أن يشجب السادات جدى لما يتردد عن إتصاله بالصهاينة ، بينما قام هو نفسه بتوقيع سلام منفرد مع إسرائيل »* . وكان الرئيس السورى حافظ الأسد ، زعيم جبهة الرفض ، هو الوحيد الذى رد على هذه المهاترات . غير أن السادات لم يلن على الإطلاق . ورغم أن المصريين قبلوا الكثير مما قاله عن سائر العرب . إلا أن لغة السادات الحادة المسرفة تركت جراحها على شعب يعانى معاناة عميقة من الإحساس بالعزلة .

لقد أدى قرار السادات بإختيار الخروج من الساحة العربية إلى تمزيق إحساس المصريين بالذات . فقد ظلت رؤية جمال عبد الناصر ، التى جعلت من مصر زعيمة للعالم العربى ، محتفظة بواقعيتها ، مهما كان إحتمال فهمها أو إتباعها على نحو منقوص . وبرغم محاولة السادات الإبقاء على صورة مصر حتى بعد إنتقال مقر جامعة الدول العربية من القاهرة ، فإنه لم يكن يخفى على شعبه ، فى واقع الأمر ، أنه جعل مصر مركزا للاشىء .

وقد ظلت مصر على قيد الحياة إقتصاديا بسبب المساعدات الأمريكية التى كانت جزءا من إتفاقات كامب ديفيد ولأن الدول العربية كانت تفرق بين الشعب المصرى وحكومة السادات ، فقد ظل الثمانمائة ألف مصرى الذين يعملون فى الخليج محتفظين بوظائفهم وواصلوا إرسال مدخراتهم إلى الوطن . وبإسم الشعب المصرى أبقت الدول العربية المعتدلة على علاقاتها التجارية وخطوط طيرانها مع مصر .

وبغض النظر عن سياسات السادات ، كان معظم العالم العربى يرى أن المصريين ما زالوا عربا .

وأصبحت قضية عقد سلام منفرد مع إسرائيل قضية ثقافية بشكل حتمى . فمع إبتعاد السادات عن المجال السياسى العربى ، تزايد إعتماده على شريكه الأمريكى . ونظرا لإلتزام الولايات

● نقلا عن هيكل ، خريف الغضب ، ص ١٧٤ .

المتحدة بالدور الذى يخدم مصالحها ومصالح السادات ، فقد ظهرت من جديد مخاوف وشكوك المصريين القديمة بشأن الغرب القوى ووسائله الشريرة . وأعقب ذلك إثارة التساؤلات حول مدى سلامة ثقافتهم . وقد إتخذت التحذيرات التى أثارها اليسارى خالد محيى الدين حينما أقامت مصر علاقات دبلوماسية مع إسرائيل أهمية وبعدا جديدا : « (إننا نلاحظ) ضياع الهوية المميزة لثقافتنا الوطنية ومن ثم شخصيتنا التى تعتمد على الأفكار الوطنية والأيديولوجية التحررية المعادية للإتجاهات الإستعمارية الأجنبية والتبعية الإقتصادية (و) عزلة الثقافة المصرية عن القاعدة العربية العريضة التى يستلهم منها المثقف المصرى أفكاره والتى يوجه إليها بالتالى خبرته التقنية وإبداعاته الأدبية والفنية والعلمية »* .

وحينما إختار المصريون السلام ، فإنهم لم يكونوا يعتزمون التخلى عن زعامتهم الثقافية والسياسية للعالم العربى ، كما أنهم لم يختاروا أيضا الإنفصال عن وعيهم العربى . فأيا كان مدى إعتقاد المصريين بتفوقهم الفطرى على عرب الصحراء ، فإنهم يشتركون مع كل العرب فيما يصفه بطرس بطرس غالى بـ « سوق التفكير المشترك » . فهم جزء من النسيج الثقافى الذى تتكون خيوطه من اللغة والدين والتجربة المشتركة ، وقد تبين بعد ذلك تدريجيا وعلى نحو قسرى أيضا أن السادات فصم مصر عن جذورها حينما جرها بعيدا عن العالم العربى .

وبحلول عام ١٩٨١ أصبح السادات معزولا تماما . وقد تعرض طوال حياته السياسية للعديد من التحولات النفسية العميقة . فالرجل الذى كان يشكو فى أوائل الخمسينيات من أن « الغرب يكره العرب لأنهم يظنون أنهم زنوج » أصبح من أشهر الشخصيات العامة فى الغرب ، خاصة فى الولايات المتحدة . والرجل الذى كان يكره الغرب ذات يوم صار يحتضن رموز ثقافته الشعبية .

وواجه السادات الإتهام الذى وجهه له الكثيرون من أفراد شعبه بأنه أصبح غربيا ويعتزم جعل مصر قطعة من أوروبا . وكان ذلك إتهاما مبالغا فيه . غير أنه كان لا يزال من المؤكد أن السادات قد أخطأ ، حينما عمل على ترسيخ وعى مصر الفرعونى وهويتها قبل الإسلامية ، فى حساب مدى تعلق المصريين ، بتراثهم العربى ، وتبين أنه ليست لمصر هوية وطنية مستقلة كما إعتقد البعض .

وبعد إنقضاء سنتين على توقيع السادات لمعاهدة السلام مع إسرائيل ، فتر الكثير من الحماس الذى صاحب هذه المعاهدة . إذ أن التلميحات العامة أخفقت فى منع إسرائيل من دمج القدس فى الدولة الصهيونية أو ضمها التدريجى للأراضى المحتلة . وبينما كان التوسع الإسرائيلى يفتت روابط مصر الجغرافية بعرب المشرق على نحو يهدد بالخطر ، كانت مصر تعيش كدولة محبطة تشعر بقلق بالغ إزاء دورها الإقليمى والعالمى . فقد تحولت إتفاقية السلام التى أعلن عنها لتصبح ما وصفها به منتقدوها تماما - سلام منفرد بين دولة مصر وحدها ودولة إسرائيل . كذلك لم يسفر التحالف الكبير الذى أبرمه السادات مع الولايات المتحدة عن الرخاء المنتظر .

● ليمان ، مصر بعد عبد الناصر ، ص - ٢٦٤ .

وكان السادس من أكتوبر ١٩٨١ يمثل الذكرى الثامنة لحرب ١٩٧٣ . واستيقظ أنور السادات فى الثامنة والنصف ، وهو وقت مبكر بالنسبة للرئيس . وتناول إفطارا خفيفا ثم بدأ فى ارتداء زيه المشير الذى كان قد وصل لتوه من لندن لحضور العرض العسكرى السنوى . وكان الصديرى الواقى من الرصاص الذى يرتديه غالبا فى المناسبات العامة يشوه شكل زيه العسكرى ، ولذا وضعه جانبا ولم يرتده . وبعد أن غادر مقر إقامته فى الجيزة . وجدت عصا المارشالية ، التى كان يتفاءل بها ، فوق المائدة بجوار الباب . فقد نسيها على نحو ما .

واسترخى السادات الذى كانت تغمره البهجة بينما كانت سيارته الكاديلاك السوداء ذات الغطاء القابل للطى تخترق شوارع القاهرة فى طريقها إلى مدينة نصر ، وهى إحدى الضواحى الحديثة بالقاهرة . ثم قام بوضع إكليل من الزهور على قبر الجندى المجهول ذى الشكل الهرمى وعبر ساحة العرض ليأخذ مكانه على المنصة ، وكان السادس من أكتوبر هو أفضل أيام السنة بالنسبة للسادات ، فهو يوم إحياء ذكرى مجد عام ١٩٧٣ . وبرغم الإضطرابات السياسية التى حدثت فى شهر سبتمبر ، فإن هذا العام لم يكن خروجا عن القاعدة .

وقد بدأ العرض الذى يستغرق ساعتين بضوضاء متنافرة تقطعها الألعاب النارية . وكانت مدافع الهاون تطلق مظلات صغيرة تحمل أعلاما مصرية وصورا صغيرة للسادات إلى أعلى لتعود فتسقط فى أيدى الجماهير المبتهجة . وكانت الدبابات والمدافع تقعقع أمام الرئيس ، بينما كان المظليون يسبحون فى السماء ليهبطوا فى حركات حرة فوق ساحة العرض ، وكان العرض على وشك الإنتهاء . وكانت طائرات الميراج الفرنسية طراز ٥ - إى تنفث سحبا طويلة من الدخان الأحمر والأزرق والبرتقالى والأخضر أثناء إنقضاضها إلى أسفل بينما خرجت إحدى العربات السوفيتية من طراز زيل - ١٥١ عن الطابور وتوقفت أمام المنصة الرئيسية . وترجل منها خالد أحمد شوقى الإسلامبولى ، وهو ملازم شاب على علاقة بأحد أفرع جماعة الأخوان المسلمين المصرية المحظورة ، واقترب من السادات ، ليقدم له التحية كما كان يبدو . غير أنه بدلا من ذلك ألقى قنبلة يدوية قبل أن يقفز فوق الحاجز الأمامى الكبير . وبعد أن أخذ مكانه أمام الصف الأول من المقاعد ، أخذ فى إطلاق الرصاص صوب الرئيس . وفى الوقت نفسه ، تسابق إثنان من شركائه إلى جانبى الصفوف وأخذا فى إطلاق أسلحتهما وإلقاء القنابل اليدوية . وفى غضون ثلاث دقائق على الأكثر ، لقى ستة رجال حتفهم وأصيب ثمانية وعشرون بجراح . وتمدد أنور السادات ، الذى كان جسده مغطى بالدماء ، على الأرض معلقا بخيط رفيع من الحياة .

وفى الساعة الواحدة وعشرين دقيقة بعد الظهر ، كان الرئيس المصاب بإصابات قاتلة ، والذى كان لا يزال يرتدى زيه الملطخ بالدماء ، يدفع فوق حاملة داخل مستشفى المعادى . وكانت عيناه الجامدتان تحملقان إلى أعلى . ولم يكن ثمة أى أثر لنبض أو حركة إنعكاسية . وتم إعلان وفاته فى الساعة الثانية وأربعين دقيقة بعد الظهر .

وعاد أنور السادات إلى ساحة العرض فوق عربة مدفع تجرها ستة جياد كانت تحمل جسده لوضعه داخل تابوت حجرى فى قبر الجندى المجهول . وتوافد المعزون والمشيعون - الرؤساء الأمريكيون السابقون ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد وجيمى كارتر ، والرئيس الفرنسى فرانسوا

ميتران ، ومستشار ألمانيا الغربية هيلموت شميت ، والأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا ، ورئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين . ومن الدول العربية ، قام السودان وعمان والصومال فقط بإرسال ممثلين عنها .

وبعد عشر سنوات من جلوس أنور السادات وهو يبتسم إلى إحدى المناضد المنصوبة فوق خضرة البيت الأبيض لتوقيع معاهدة السلام المصرية - الاسرائيلية ، عدت مرة أخرى الى القاهرة . وكانت القاهرة فى مجملها تبدو أفضل قليلا مما وجدتها عليه فى عام ١٩٧٩ . فقد أدت الطرق السريعة الجديدة الى تخفيف حركة المرور المزدحمة ، وأصبحت الأسواق الجذابة والمطاعم الفاخرة والمسارح ودور السينما تنتشر فى الضواحى الغنية المزدهرة . وكان الكورنيش على طول النيل لا يزال يغرى المارة بالتفكير والتأمل فى عظمة النيل وروعته .

وكان المصريون يبدون على نحو ما أكثر إطمئنانا على أنفسهم ، فقد خلف حسنى مبارك أنور السادات كرئيس للجمهورية . وشرع مبارك فى اعادة مصر الى الامة العربية التى كانت تنتظرها وأثبتت الحرب العراقية - الإيرانية مرة أخرى أهمية مصر فى المجموعة العربية ، وأدى تحسن العلاقات مع المملكة العربية السعودية الى وجود من يرعى عودة مصر الى القافلة العربية . وفى عام ١٩٨٤ انفتح باب منظمة المؤتمر الاسلامى لمصر . وفى عام ١٩٨٧ تم استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الجامعة العربية ، التى اعترفت مرة اخرى بمركزية مصر وأهميتها فى النظام العربى ، وفى عام ١٩٩٠ حينما تفجرت الأزمة فى الخليج . كانت مصر مرة أخرى طرفا أساسيا فى الشئون العربية . وقبل ان تنحسر هذه الأزمة ، أصدرت الجامعة العربية قرارا بإعادة مقرها من تونس الى القاهرة ، التى تعتبر دائما المقر الطبيعى للجامعة .

وقد عمل مبارك ، مثل عبد الناصر والسادات ، على حماية مصالح مصر الوطنية ، وبينما عمل على اعادة مصر ثقافيا الى جذورها العربية ، فقد أبقى سياسيا واقتصاديا على الارتباط بالولايات المتحدة ، ان لم يكن قد دعمه ، وتجعل المساعدات الأمريكية التى تقدم بموجب سلسلة إتفاقيات السلام مع إسرائيل ، مصر ، معتمدة اقتصاديا على الولايات المتحدة ، وعندما احتاجت القوات العسكرية الأمريكية التى أرسلت الى المملكة العربية السعودية الى شريك عربى ، كان مبارك هو هذا الشريك . ولا يزال السلام المنفرد مع اسرائيل قائما برغم أنه تعرض أحيانا للتوتر الى حد الانهيار . وبرغم ما يثقل كاهلها من مشكلات هائلة تؤثر على استقرار البلاد ، فإن مصر تقوم بدورها بالنسبة للأمة العربية وتحدد مصالحها الخاصة وتحميها كما لو كانت لا تعانى من أية متاعب ، ومثلما وجد المصريون فى عهد عبد الناصر أنهم لا يستطيعون ان يكونوا أنصارا للعروبة الشاملة على حساب مصالح مصر الخاصة ، كذلك وجد المصريون فى عهد السادات أنهم لا يستطيعون ان يكونوا مصريين وطنيين يسعون الى مصير منفصل عن العالم العربى الذى يرتبطون به تاريخيا وعاطفيا ، وفى عملية التوازن الدقيق التى لا يفهمها الا المصريون حق الفهم ، وجدت مصر أنه يتعين عليها التعايش مع النيل والصحراء .

وكان آخر ضوء من النهار يلقى على الجانب الغربى من السماء المعتمة بظلال كثيفة من اللون الأرجوانى ، وكان عدم اهتمام الجمهور المصرى بالمكان يخلق نوعا من الفراغ الدائم . وقد تابعت

الســير على طول منصة العرض التى أشرف منها أنور السادات لآخر مرة على قبره وكانت الساحة العامة الواسعة المحيطة به تسبح فى أضواء كهربائية خافتة مما يضفى على الأحجار الصفراء إحساسا بالزمن والسـرمدية ــ مع الصحراء التى احتضنت الشمس لتوها . وإستدرت الى القبر نفسه . وكان ينتصب هناك فى وهج لهب من ألغاز ، الهرم الذى يضم رفات أنور السادات .

الفصل العاشر
حافظ الأسد... ليث دمشق

كانت رحلة الخطوط الجوية السويسرية رقم ٣٠٢ من زيورخ تئز عند هبوطها على أرض مطار دمشق ، فقمت بجمع محتويات حقيبتى المتخمة وسرت ببطء هابطة السلم وخرجت من الطائرة . وأخذت فى السير برشاقة وخفة فى هذه الأمسية من أمسيات الشتاء الباردة ، ودلفت عبر باب كتب عليه « الهجرة » ، وقدمت جواز سفرى الى موظف متجهم الوجه محاط بمجموعة من الحرس مقطبى الجبين يرتدون زيا كاكيا ويحملون أسلحة أوتوماتيكية ، وكان ذلك فى شهر فبراير عام ١٩٨٨ . ومنذ رحلتى الأخيرة الطويلة لسوريا ، كان حافظ الأسد قد سحق كل معارضيه فى الداخل وفرض سيطرة سوريا على لبنان . وكانت لجنة الاستقبال الرزينة هى أول مؤشرات ما حدث فى سوريا من جراء هذه العملية .

وبرغم ان الساعة لم تكن قد تجاوزت الثامنة من مساء أحد أيام الثلاثاء ، كان الممر الرئيسى فى هذا المطار الدولى شبه مهجور وفى هذا السكون المخيف ، أخذ منظفى الأرضيات يدفع مكنسته فى أرجاء المكان الخالى . وكان عدد قليل من المسافرين المتناثرين يقفون هنا وهناك وقد لفهم الصمت والسكون . وكانت صالة المطار خالية الا من المسافرين الذين هبطوا من طائرتى ورجلين كانا يستندان الى لوحة اعلان خاصة بفندق أمية . وبينما كنت أرسل بصرى فيما حولى رأيت سهما ، موضوعا بين اطار أحد الأبواب وصورة شخصية لحافظ الأسد ، يشير الى محطة النقل البرى . وتابعت السهم ، ووجدت أحد الأنوبيسات ، وبادرت بدفع الأجرة للسائق وزحفت ببطء فى الظلام لأتخذ لى مقعدا . وحينما اكتمل العدد ، انطلق الأتوبيس صوب دمشق .

وكان الطريق من المطار الى دمشق مظلما ومنبسطا ومفتوحا لا تقطعه الا دوائر المرور الخالية ذات الاضاءة الواهنة المنبعثة من صناديق الاضاءة الخلفية المثبتة فى أعمدة ارتفاعها أربعة أقدام والتى تحمل صورا واضحة الخطوط ، مرسومة باللون الأسود على الزجاج ، لحافظ الأسد . وكانت الأضواء الأخرى الوحيدة من لافتات مثل « مدرسة حافظ الأسد الابتدائية » أو « مركز تدريب الأسد » .

وفي نهاية الرحلة دخل الأتوبيس مدينة دمشق وتوقف عند فندق شيراتون ، حيث ترجلت منه . وأمام موظف الاستقبال المتجهم وصورة شخصية أخرى لحافظ الأسد المبجل ، تم تسجيل بياناتي . وفيما كنت أتجه صوب المصعد ، كان اثنان من أفراد قوات الأمن العديدة . التابعة لحافظ الأسد المتنكرين يرقبانني لتقدير مدى امكانية تهديدي للنظام . وتوقف المصعد في الطابق الرابع ودلفت الى الخارج واستدرت صوب اليمين ووجدت الغرفة رقم ٤١٨ . وكنت أضع المفتاح داخل القفل حينما لاحظت أن هناك من يراقبني . واستدرت وألقيت نظرة فاحصة عبر الردهة القصيرة وكان ثمة رجل يرتدي المعطف الشهير الواقي من المطر يقف عند ملتقى ممرين جانبيين .

إن سوريا عالم رجل واحد ـ هو حافظ الأسد . وطوال أكثر من عقدين من الزمان ، ظل الأسد ، في سعيه الحثيث من أجل تحقيق المصالح السورية ، هو القومي العربي المطلق والشخص الخارج على السياسة العربية على السواء . وبارادته الحديدية ومعالجته البارعة لتوازن القوى ، عمل على تشكيل النظام العربي وفقا لمواصفاته ومتطلباته ، وفي سياق هذه العملية جعل سوريا الصوت العربي المهيمن على المشرق العربي ، ومع ذلك فان سوريا التي لا يمكن تجاهلها لفترة طويلة في الشئون العربية هي نفسها بلد لا توحد صفوفه الا قبضة حافظ الأسد القوية .

وتمتد سوريا من الناحية التاريخية على شكل قوس يحيط بالهلال الخصيب من جبال طوروس حتى ساحل البحر المتوسط ، وهي تقع جغرافيا في وسط العالم العربي ، حيث تمثل الجسر الشرقي ـ الغربي الذي يربط بين البحر المتوسط ونهر الفرات وهمزة الوصل الشمالية الجنوبية بين تلال سواحل المشرق العربي الشمالية الغنية بالمياه والصحاري القاحلة في شبه الجزيرة العربية . وكانت تشمل ما يعرف الآن باسرائيل ولبنان والأردن والجزء الغربي من تركيا وسوريا . وكانت حركة التبادل التجاري في العالم القديم تتم عبر سوريا . وعلى مر القرون . كانت قوافل الجمال تنقل حمولاتها الثمينة عبر طريق التوابل القديم من اليمن حتى دمشق والممتد بعد ذلك من مدينة حلب حتى آسيا الصغرى . وكانت النزل المقامة في الساحات الواسعة توفر المياه وسبل الراحة لقوافل الدواب ومن يسوسونها على الطرق الشرقية ـ الغربية الممتدة عبر الصحراء من دمشق الى تدمر وحتى الأجزاء الوسطى من نهر الفرات .

وكانت مدن سوريا التجارية ـ وهي دمشق وحمص وحماه وحلب وصيدا وصور ـ تتميز بالثراء بمقاييس المنطقة المحيطة . وكان كل انسان وكل حيوان يمر عبر بواباتها يسهم في اثراء هذه المدن . وداخل أسوارها كان الحرفيون والصناع المهرة يبدعون المنتجات التي جعلت شهرتهم تجوب الآفاق ـ والتي تمثلت في الأصباغ الأرجوانية وأقمشة الدمقس الرقيقة والفولاذ الدمشقي الذي تصنع منه السيوف الدمشقية حادة النصل ، والأواني النحاسية والمصنوعات الخشبية المطعمة على نحو دقيق .

ونظرا لموقع سوريا بين نهري النيل والفرات ، فقد كانت تتمتع بالقوة ولكنها أيضا مطمعا للغزاة ، وكانت المدن السورية على مر القرون موطئا لأقدام كل من المصريين والحيثيين والأشوريين والبابليين والفرس والمقدونيين والرومان والبيزنطيين ، ثم أتى العرب والاسلام فاتحين ـ وكان الفتح هذه المرة فتحا دينيا ولغويا بالاضافة الى الأرض . وبلغت دمشق قمة مجدها حينما

أصبحت عاصمة الاسلام في ظل حكم الأمويين ، بيد أنه حينما ضعفت الامبراطورية الاسلامية ، سقطت سوريا في أيدي السلاجقة الأتراك في القرن الحادي عشر ، ثم سحقها الصليبيون في القرن الثاني عشر ، وتعرضت بعد ذلك لسلب المغول ونهبهم في القرن الثالث عشر ، وأدمجت في النهاية داخل الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر . بل ان الحكم العثماني نفسه تعرض للاضطراب حينما قدم محمد علي من مصر غازيا في عام ١٨٣٢ ، واحتل سوريا حتى عام ١٨٤٠ .

ومع تعرضها للضربات من الشرق والغرب ، تشعر سوريا دائما بأنها معرضة للخطر . ففي الشرق فيما وراء المدن ، يقبع الريف بامتداده الواسع وعزلته . وتبدو الصحراء الغربية بسكانها المتناثرين وامتدادها الخالي من أية حواجز طبيعية فاتحة ذراعيها لأي غزو خارجي . وحتى الاقليم المكتظ بالسكان الذي يقطعه الطريق الرئيسي من جنوب دمشق حتى حدود الأردن . يبدو عاريا . ولا تتجلى دفاعات سوريا الطبيعية للعيان الا حينما يقترب المرء من دمشق عبر جبال لبنان ، وعلى مر التاريخ ، أدى انبساط الأراضي السورية الى تشجيع القبائل والأمم الأقوى على غزوها واحتلالها . وقد جعلت هذه التجارب السوريين مفرطي الحساسية تجاه الأخطار المحتملة التي تهدد أمنهم . وهم يشاركون جميع العرب مشاعر الكراهية المتولدة عن احتلال الأمم القوية .

وكان اليونانيون القدماء هم أول من اطلق اسم سوريا على تلك المنطقة التي تضم في الوقت الراهن كلا من سوريا ولبنان والقسم الأكبر من اسرائيل وجزءا صغيرا من تركيا . وشاع هذا الاسم وظل باقيا على مر السنين . وبالنسبة لمعظم السوريين ، فان سوريا هي بلاد الشام ـ أرض دمشق . وداخل حدودها غير المحددة تحديدا دقيقا ، أخرج هذا الشعب الموهوب أو رعى ثلاث ديانات كبرى . ونشأت في ظله فلسفات وايديولوجيات امتدت من منطق أرسطو الى القومية العربية . وقد شكلت هذه الديانات معا ثقافة متجانسة رسخت جذورها شبكات الأسر الممتدة والروابط الاقتصادية المتصلة من دمشق وحمص وحماه حتى القدس ومن حيفا ويافا حتى صور وصيدا وبيروت . وحينما قامت المستكشفة البريطانية جير ترود بتسجيل رحلاتها في عام ١٩٠٨ في القدس ودمشق وبيروت اطلقت على هذا العمل ببساطة اسم « سوريا » . غير انه مع سقوط الامبراطورية العثمانية ، بدأت أراضي سوريا الكبرى في التفتت تدريجيا ، اذ تولت بريطانيا أمر الانتداب على فلسطين ، واقتطعت بذلك ما كان يعتبره السوريون اقليمهم الجنوبي . ووضعت فرنسا يدها على الأجزاء المتبقية ، حيث قامت باقتطاع أجزاء من غربي سوريا والحقتها بالجزء المسيحي من شمال بيروت واقامت ما يعرف الآن باسم لبنان * . وبضربة واحدة فقدت سوريا بوابتها الغربية ، ومنافذها الى البحر ومطالبتها بالاستقلال .

وفي عام ١٩٢١ ، قامت فرنسا بالاشراف على المرحلة الثانية من مراحل تقليص سوريا ـ وهي تسليم الاسكندرونة ـ انطاكية الى تركيا وكان السوريون ينظرون بلا حول ولا قوة بينما كانت

---

* كان هذا الاقليم ، المعروف باسم الجبل ، تسكنه أغلبية من المسيحيين والمارونيين ارتبط بفرنسا منذ عام ١٨٦١ .

سوريا التاريخية تتعرض للتمزيق على أيدى قوى لا يستطيعون مواجهتها ، تماما كما وقف اسلافهم عاجزين أمام زحف المصريين أو الاشوريين أو البابليين أو الرومان ، وفى غضون عامين ، ادت الحدود التى رسمها الآخرون عبر سوريا الكبرى الى تقسيم العائلات والمجتمعات على نحو الحق بها أضرارا بالغة ، والى احداث الفوضى والاضطراب فى الاقتصاد ، والقضاء على سبل العيش ، وخلق احساس دائم بالمرارة .

بيد أن حقيقة سوريا الكبرى تحدث الأسطورة . فبلاد الشام لم توجد أبدا من الناحية السياسية . ودولة سوريا الراهنة انما هى مجموعة من المجتمعات المتناحرة المتعادية التى تعيش داخل حدود وطنية وتتصارع مصالحها الضيقة ضد احساسها بأنها سورية ، فالمدينة تقف ضد الريف ، والديانات تنفصل عن بعضها البعض، والجماعات العرقية تبغض بعضها البعض أيضا ، وكذا القبائل تتناحر معا ، والولاء هنا مرتبط بالموقع والعقيدة ورابطة الدم ، ونتيجة لذلك ، فان الدولة تمثل ساحة قتال تسعى فيها كل جماعة وراء مصلحتها الخاصة .

والانقسام بمعناه الواسع يثير المدينة ضد الريف . فسوريا بلد زراعى . وكانت القرى على مر التاريخ تمارس الزراعة الجماعية . ولكن هذا النظام تبدل فى ظل الحكم العثمانى . اذ قامت العائلات القوية ، التى استفادت من مزايا نظام الضرائب الذى طبق فى القرن السابع عشر ، داخل المدن بالاستحواذ على مساحات واسعة من الأراضى . وبحلول عام ١٨٥٨ لم يعد يتم حساب ملكيات الأراضى فى السجلات العثمانية بالأكرات* وبدلا من ذلك أصبحت تقاس ثروة الرجل وقيمته بعدد القرى والفلاحين الذين يعملون فى خدمته . ومع قيام فلاحيهم بالعمل بنظام المشاركة فى المحصول ، كان ملاك الأراضى الواسعة ، الذين يعيشون فى المدن فى منازل من الحجر الجيرى الأصفر الباهت والبازلت الأسود ، يجمعون الأموال من الأرض . وأصبحت المدن ـ خاصة دمشق وحمص وحماه وحلب ـ قلاعا للقوة السياسية والاقتصادية . وتحدت هذه المدن ، التى كان يغلب عليها السكان المسلمون السنيون ، المجتمع التقليدى ، الذى أقام فيه « الأعيان » سلسلة من التحالفات مع التجار ورؤساء العشائر الصغيرة المرتبطة بالفلاحين . وأفرخت هذه المدن ، التى كانت بمثابة كيانات منفصلة مستقلة ، أشكالا من التنافس تضارع مثيلتها فى الدول ـ المدن الايطالية فى عصر النهضة . وحتى اليوم ، فان السورى ينتمى أولا الى حلب أو دمشق أوحماه أو حمص .

ويثير هذا الأسلوب من أساليب التفكير العتيقة قدرا كبيرا من الألم النفسى بين أولئك السوريين الذين يشعرون بحاجة بلادهم لترسيخ شكل من أشكال التماسك الداخلى ، وقد سمعت ذلك مؤخرا بعد ظهيرة أحد أيام الجمعة بينما كنت أجلس على ضفة النهر الذى تنساب مياهه فى حركة بطيئة فى مدينة حمص مع مدرسة تعمل فى إحدى مدارس البنات القريبة ، إذ قالت بلهجة مشوبة بالألم والإستسلام وهى تنظر فى مياه النهر المنسابة فى بطء ، « إننا جميعا نعتبر أنفسنا من

* الأكر : مقياس لمساحة الأرض يعادل حوالى أربعة آلاف متر مربع (المترجم) .

مكان ما فى سوريا ، وليس من سوريا نفسها . وهذه هى أكبر مشكلات مجتمعنا ولا يبدو أننا نحرز تقدما سريعا فى حلها » .

وكما أن سوريا مقسمة وفقا للمدينة ، فإنها مقسمة أيضا وفقا للديانة . وقد أدت الطبيعة الجغرافية بوجه عام إلى ظهور مجتمعات دينية طبيعية منفصلة . ففى الثلث الغربى من سوريا ، أدت وعورة تضاريس الأرض إلى جذب مجموعة متباينة من المنشقين الدينيين وحصرتهم داخل مقاطعتهم المقصورة عليهم وحدهم دون سواهم ، وبرغم الجاذبية العاطفية لسوريا الكبرى ، فقد ظلت الهوية متجمدة داخل الإنتساب الدينى . ولم يطرأ تغيير كبير . إذ أن الهوية الدينية تعكس ما هو أكبر من النظام اللاهوتى . فهى تشمل الروابط العائلية والقبلية والعشائرية . كما تحدد المنطقة الجغرافية والمصالح الخاصة الضيقة ، وتصف الأنماط الثقافية وأساليب الحياة .

ومصطلحا « مسيحى » و « مسلم » وصفان بدائيان داخل تركيب دينى معقد ، وفى تاريخ الديانة المسيحية ، وقعت بعض أهم أحداث هذه العقيدة فوق الأراضى السورية . وبعد مرور قرون على هذه الأحداث ، لا تزال آثارها قائمة ، ففى أحد شوارع دمشق الجانبية الملتوية التى يلفها الغموض ، ينفتح أحد الأبواب الضيقة ليفضى إلى عدد من الدرجات شديدة الإنحدار التى تهبط بنا عبر القرون إلى أطلال بيت حنانيا* . ويقع الشارع الذى يطلق عليه إسم « المستقيم » وكذا الجدار الذى أنزل من فوقه بولس الرسول فى سلة فرارا من أعدائه فى الدين على مقربة من هذا المكان . وخارج دمشق ، فى قرية ملولة المنعزلة الواقعة بجانب التلال ، لا يزال السكان المسيحيون يتحدثون اللغة الآرامية التى كان يتحدث بها المسيح . وبغض النظر عن تلك الروابط التى تربطهم بتاريخ الكنيسة العالمية المبكر ، فإن التباين الشديد الناجم عن النظام اللاهوتى والجغرافية والعوامل الإقتصادية والأسرية يقسم المسيحيين إلى مارونيين كاثوليك رومانيين وفرعين من الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ومجموعة صغيرة من البروتستانت . وليست هذه مجرد طوائف دينية . وإنما هى جماعات طائفية مميزة على إستعداد لتخريب العقيدة من أجل مصالحها الخاصة . ومع ذلك فإن الإنقسامات بين المسيحيين تبدو باهتة بالمقارنة بنظيرتها بين المسلمين .

ففى حين أن خمسة وثمانين بالمائة من سكان سوريا من المسلمين فإن واحدا من كل خمسة من هؤلاء المسلمين ينتمى إلى إحدى الطوائف المنشقة ، فالسنيون لهم الغلبة فى المدن والمناطق الريفية من وسط سوريا . والمسلمون غير السنيين ، خاصة الدروز والعلويون ، يتجمعون فى الجبال الشمالية والجنوبية ، وكلاهما مرتبطان بشكل غير وثيق بالمذهب الشيعى ونشأ عن نزاع نشب فى القرن الثامن داخل طائفة الشيعة حول الخليفة الشرعى للنبى محمد (ﷺ) ، وإنطلاقا من مطالبتهم بأن تكون الخلافة لإسماعيل ، إبن الإمام السادس ، جعفر الصادق ، أصبحوا يعرفون بالإسماعيليين أو « السبعين »* .

★ رجل سقط ميتا حينما وبخه بطرس لكذبه ، وقد ورد ذكره فى العقيدة النصرانية (المترجم) .

★ أصبح الفرع الآخر من طائفة الإسماعيليين يعرف بإسم جماعة الإثنى عشرية ، وتنتمى الحكومة الإسلامية فى إيران إلى هذه الطائفة .

وفى القرن الحادى عشر ، فرت جماعة منشقة عن الإسماعيليين من الإضطهاد وهاجرت من مصر إلى جبال سوريا الجنوبية الشرقية ، وداخل منطقة جبل الدروز ، قاموا بتطوير شعائرهم الخاصة المعقدة وأسلوب حياتهم المتميز . وأصبحت هذه الطائفة ، المعروفة بطائفة الدروز ، تتمتع بدرجة من درجات التضامن الإجتماعى تماثل الأساطير* .

وتتناثر فوق تلال جبل الدروز شديدة الإنحدار ، القرى المنعزلة التى يقطنها هؤلاء الدروز . ومن الناحية الطبيعية ، تبدو تجمعات المنازل الباهتة المزخرفة بالجص التى تمتد بمحاذاة الطرق كمثيلاتها فى سائر القرى السورية فى الإقليم الجنوبى ، غير أن كلا منها تعبر عن خصائص خاصة تجعلها منازل درزية صرفة . ويوجد عادة بين أصحاب المحال والعمال الذين يجتمعون فى المقاهى الهادئة المنتشرة على الأرصفة رجل يتميز بطربوشه الأحمر المربوط من قاعدته بشريط طويل من القماش ناصع البياض . وهؤلاء هم صفوة المجتمع ، الذين إنكشفت لهم أسرار الدين . غير أن الناس ، وليس المختارون فى الدين ، هم الذين يضفون على قرى الدروز تلك الشخصية المتميزة . فلم أذهب أبدا إلى أية قرية من قرى الدروز لم يعبر فيها الناس بأدبهم وتحفظهم وحسن ضيافتهم عن إحترامهم الشديد من الأجانب ، كما لم أخرج أبدا من هناك فى أية مرة إلا بإحساس واضح بإنغلاق مجتمع الدروز وإنفصاله وعزلته عن الآخرين . إنه يشترك فى نفس الجنسية ولكن ليس فى نفس التراث .

وإلى الشرق من ميناء اللاذقية ، يرتفع جبل أنصارية خارج السهل الساحلى ، حيث يؤوى طائفة أخرى من الطوائف الدينية السورية ـ هى طائفة العلويين ، وقد أضافت العقيدة العلوية إلى الإسلام جرعات مكثفة من التصوف وقدرا من المسيحية ، وينطوى سر مذهبها اللاهوتى على الإيمان بأن البشر كانوا فى البدء نجوما محلقة فى عالم النور ، وأن الإنسان نزل من القبة الزرقاء بسبب عصيانه ، وأنه لا يستطيع العودة إلى مكانه فى السماوات إلا من خلال سبع مراحل من تناسخ الأرواح والتحول ، حيث يمر بإحدى هذه المراحل فى كل دورة من دورات التاريخ السبع . ونظرا لإتهام السنيين لهم بالهرطقة والإلحاد ، فقد تراجع العلويون بعقيدتهم إلى الجبال فى شمال غرب سوريا وإستقروا هناك فى عام ١٢٤٠ تقريبا .

وقد تضافرت على العلويين أسباب الفقر الإقتصادى المدقع والإضطهاد الدينى . وبعد أن لاذوا بالتلال التى تنتشر فوقها الصخور ، كانوا يعيشون على الماعز والمساحات الصغيرة من الأرض التى يزرعونها بالحبوب . وإبان الحكم العثمانى ، كان الكثير منهم فقراء للغاية حتى أنهم كانوا يقطعون الأميال سيرا على الأقدام حتى يصلوا إلى البحر للحصول على كميات قليلة من الملح اللازم لخبزهم . وكثيرا ما كان الجوع يدفع بعضهم إلى النزول إلى السهول للعمل كعبيد فعليين لدى ملاك الأراضى من السنيين . وعلى مر القرون ظل العلويون طائفة محتقرة ومقهورة إلى أن جاء حافظ الأسد ليجعل منهم أقلية متميزة .

---

* دروز لبنان وإسرائيل جزء من هذه الجماعة .

ويتألف سكان سوريا فى الوقت الراهن من حوالى تسعة وستين فى المائة من السنيين ، واثنى عشر فى المائة من العلويين ، وخمسة فى المائة من الدروز ، وعشرة فى المائة من المسيحيين . وتضم نسبة الأربعة فى المائة المتبقية الأكراد والأرمن والتركمان والشركس ، الذين لا زالوا متمسكين بلغاتهم وثقافتهم الأصلية ، بالإضافة إلى نصف مليون من البدو ، الذين يعيشون فى الصحراء السورية ، وربع مليون من الفلسطينيين ، المنتشرين أساسا حول دمشق ، ونظرا لأن هوية كل سورى لا تتحدد بالضرورة بالديانة فقط ، وانما تتحدد أيضا على أساس الطائفة والطبقة والمنطقة والعرق ، فإن كل سورى يمثل على نحو ما جماعة أقلية . وكل جماعة أقلية لها خصائصها النفسية المشتركة التى تحول كل تصرف من تصرفات أية جماعة معارضا لها إلى تحد يهدد مصالحها أو بقاءها ، ونتيجة لذلك ، فإن سوريا أقرب ما تكون إلى أرخبيل من الجزر وراء مصالحها الخاصة . وفى أواخر القرن التاسع عشر ، أصدرت زوجة قنصل بريطانى حكمها على الطائفية السورية بقولها : « إنهم يكرهون بعضهم البعض . فالسنيون يرحمون الشيعة دينيا وكلاهما يكرهان الدروز ، وجميعهم يبغضون العلويين والمارونيون لا يحبون إلا أنفسهم والجميع يمقتونهم تماما ، واليونانيون الأرثوذكس يمقتون اليونانيين الكاثوليك واللاتينيين ، والجميع يحتقرون اليهود »* وكان هذا هو وضع سوريا التى إستقلت عام ١٩٤٦ ـ مجرد كيان سياسى لا سبيل إلى السيطرة عليه من الناحية الفعلية يسمى نفسه دولة .

وفى عام ١٩٤٦ ، حينما تخلى الفرنسيون عن إنتدابهم عليها ، كانت سوريا بلدا زراعيا يعول فيه مليونان من الفلاحين مليونا ونصف المليون من سكان المدن ، وكان هؤلاء الذين يفلحون الأرض يعيشون فى قرى من الطين والحجارة بدون ماء أو كهرباء أو طرق ممهدة ، كما كانت تنتشر بينهم الأمراض ـ حيث كان التيفود والملاريا والدرن يفت فى عضد الكبار ، بينما كان الإسهال والحصبة وداء الرئة يحصد الصغار . لقد كانوا ضحايا عاجزين لنظام يتحكم فيه الأعيان فى الوظائف وملكية الأرض ، وهما عماد الحياة وأساسها . ولم يتغير شىء مع إستقلال البلاد ، لأن الأعيان كانوا لا يزالون يديرون أمور الدولة الجديدة ، وبحلول عام ١٩٥٠ إنتفضت الثورة على كل النظام الإجتماعى والإقتصادى والسياسى الذى إنتقل من العثمانيين إلى الفرنسيين ثم إلى سوريا المستقلة . وكانت الثورة بقيادة البعث .

وقد نشأ البعث فى سوريا ، وهو الأيديولوجية التى تؤكد على أن الشعب العربى يشكل أمة واحدة تاريخيا وطبيعيا ، وقد إنتشر المذهب البعثى فى صالونات المثقفين إبان فترة الثلاثينيات . وردا على تمزق سوريا التاريخية عقب الحرب العالمية الأولى ، أخذ المفكرون البعثيون فى مناقشة الهوية الوطنية السورية وعلاقة سوريا بسائر المجتمعات الأخرى التى تتحدث العربية . غير أن جاذبية البعث نبعت من واقع سوريا الصغرى ومن الحلم الكبير بعالم عربى يضم كل العرب ، ومن خلال أيديولوجية البعث العلمانية ، أخذ المسيحيون والدروز والعلويون والجماعات الساخطة فى

---

* نقلا عن مارثانيف كيسلر ، سوريا : مركب هش من القوة (واشنطن ، مطبوعات جامعة الدفاع الوطنى ، ١٩٨٧) ص ٢٣ .

سوريا فى تحدى هيمنة عدد صغير من العائلات الحضرية الكبرى وعملائهم السنيين على السياسة السورية ، وشرع البعثيون بمذهبهم الإشتراكى الغامض فى الهجوم على تركز الثروة والسلطة فى أيدى الأعيان ، وأدت دعوة البعث إلى إنتهاج سياسة علمانية وإرساء نظام إقتصادى عادل يتسم بالمساواة ، إلى جذب أفراد من الأقليات فى سوريا ، بمن فيهم الشاب العلوى حافظ الأسد .

وقد ولد حافظ الأسد فى السادس من أكتوبر ١٩٣٠ ، وكان أبوه فلاحا يزرع التين والتبغ ، ويعيش فى منزل من حجرتين من الحجر الخشن فى قرداحة فى التلال الواقعة شمال شرقى ميناء اللاذقية . ولم تكن قرداحه ، وهى مجرد قرية علوية فى قلب منطقة العلويين ، سوى مجموعة من الأكواخ ذات الأسطح المستوية الواقعة فى أقصى طرف أحد الطرق الضيقة . وقد بدأ حافظ الأسد فى تلقى تعليمه فى مدرسة فى الهواء الطلق أعدتها الإدارة الإستعمارية الفرنسية ، وفى عام ١٩٣٩ ، هبط الإبن النابه « للزعيم » (الرئيس السياسى) المحلى ، من الجبل ليلتحق بالمدرسة فى اللاذقية ، وهناك واجه بقوة حقيقة معنى أن يكون المرء علويا فى سوريا .

وفى سن السادسة عشرة ، إنجذب الأسد الذى كان خجولا فى فصله إلى حزب البعث الذى كان يبشر الأقليات بالوصول إلى أعلى المناصب السياسية والإجتماعية فى النظام فى سوريا . وسرعان ما إنتقل الأسد ذو الموهبة الفكرية من رسم الشعارات البعثية فوق الجدران الحجرية إلى كتابة المنشورات السياسية البعثية* .

وفى بداية الخمسينيات إنضم حافظ الأسد إلى القوات المسلحة السورية التى كانت قد طورتها الإدارة الإستعمارية الفرنسية . وكان الجيش غالبا يوفر الوظائف للفقراء ، ويمثل الملاذ الوحيد الذى يهرب إليه هؤلاء الفقراء من العمل كأجراء فى الأرض .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه مع رفض طبقات ملاك الأراضى والتجار مهنة الجندية المتواضعة ، إمتلأ سلك الضباط والرتب الأخرى بالأقليات والفئات الأخرى فى النظام الإقتصادى . ومن خلال سعيها للتحرك الإجتماعى ، إنجذبت نفس هذه الشريحة من المجتمع التى إنضمت إلى الجيش إلى أيديولوجية البعث . ونتيجة لذلك ، إلتحمت القوات المسلحة وحزب البعث معا ، وأمسكت الأولى بالقوة العسكرية فى سوريا وسيطر الثانى على نظامها البيروقراطى . وفى عام ١٩٥٨ ، صعدا معا إلى قمة النظام السياسى المنحرف فى سوريا .

وقد أصبحت سوريا منذ إستقلالها مرادفا للفوضى السياسية ، وكانت الإنقلابات والإنقلابات المضادة الكثيرة تتوالى إثر بعضها البعض حتى أن وكالات الأنباء الدولية نادرا ما كانت تهتم بالإشارة فى كل مرة إلى الدبابات التى كانت تنطلق إلى دمشق لطرد حكومة أو أخرى وتنحيتها عن السلطة . وقد ذهبت جريدة الأهرام المصرية إلى حد وصف سوريا بأنها أقرب إلى أن تكون مستشفى

* فى عام ١٩٤٨ جذبت كتابات الأسد إهتمام جماعة الأخوان المسلمين المنافسة ، التى كانت تعتبر البعث العلمانى لعنة . وقد قامت مجموعة من الأخوان المسلمين فى إحدى الليالى بالقبض على الأسد الذى كان يرتفع نجمه بسرعة بينما كان يتجول بمفرده فى شوارع اللاذقية المعتمة وطعنته بسكين فى ظهره . ولم يُبل من هذا الحادث إلا بعد عدة أسابيع .

للأمراض العقلية منها إلى الدولة . وحينما تولت حكومة البعث السلطة ، تبين لها أنها لن تستطيع أن تفعل ما هو أفضل مما فعله الآخرون للسيطرة على مظاهر التنافس بين طوائف المجتمع المختلفة .

ولم يكن البعث ، الذى قصر نفسه على الجيش والنظام البيروقراطى ، يتمتع بأى تأييد شعبى سواء لتحقيق برنامجه الإقتصادى أو للبقاء فى السلطة . ونظرا لإلتزامه الأيديولوجى بمبدأ العروبة الشاملة ، فقد تمسك البعث بفكرة الوحدة مع مصر تحت حكم عبد الناصر بإعتبارها أفضل الآمال والوسائل للإلتفاف حول النظام السياسى التقليدى الذى يسيطر عليه السنيون . بيد أن الوحدة مع مصر تحولت إلى كارثة .

فقد كان الثمن الذى طلبه عبد الناصر ، الذى كان مترددا ، مقابل الوحدة هو أن تكون له السلطة المطلقة على كل من الشطرين المصرى والسورى من الجمهورية العربية المتحدة . ووافق البعثيون السوريون إعتقاداً منهم بشكل ساذج بأنه سيتعين على عبد الناصر أن يحكم سوريا من خلالهم ، فقد كانوا هم الذين أججوا الشعلة الأولى للقومية العربية . ومن ثم كانوا هم الذين سيقومون بتعليم مصر معنى العروبة . وبدلا من ذلك قام عبد الناصر بإفساد السياسة السورية وقيد حركة القوات المسلحة ، وهى بوتقة تأييد البعث . ووجد الضباط المشتبه فى عدم ولائهم التام لعبد الناصر أنفسهم ينقلون من سوريا إلى مصر . وقد أمضى حافظ الأسد الذى كان واحدا من هؤلاء الضباط الجزء الأكبر من تاريخ الجمهورية العربية المتحدة بالقاهرة* . وفى أكتوبر ١٩٥٩ ، قام عبد الناصر بتعيين المشير عبد الحكيم عامر ، وهو من أقرب مساعديه ، كحاكم فعلى لسوريا ، وأصبحت دمشق بتغاضيها عن ذلك عاصمة إقليمية لإمبراطورية مصرية .

وبدات جميع الفصائل المتنازعة داخل الكيان السياسى السورى فى التلاحم ضد الجمهورية العربية المتحدة ـ من التجار وملاك الأراضى ورجال الأعمال ، الذين كانوا يكرهون سياسة عبد الناصر الإشتراكية ، والموظفين ، الذين أعربوا عن إستيائهم من البيروقراطيين المصريين الذى فرضوا عليهم ، ورجال الجيش الذين أخذوا فى الغليان من وطأة الهيمنة المصرية ، والبعثيين ، الذين كانوا يرون حزبهم الأثير لديهم تتمزق أوصاله على يدى عبد الناصر الطموح .

وفى أعقاب الإضطراب الذى أصاب مجتمع رجال الأعمال نتيجة قرارات التأميم التى أعلنها عبد الناصر فى يوليو ١٩٦١ ، إنفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١ ، بعصيان يمينى مسلح قاده المقدم عبد الكريم النحلاوى . وطوال الشهور

* لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يقيم فيها الأسد فى مصر . ففى عام ١٩٥٥ تلقى دورة تدريبية فى الطيران هناك . وبينما كان يهبط بإحدى الطائرات ذات الفرامل المعطوبة ، أدرك الأسد أن الطائرة ستخرج عن الممر . وقام بفتح كابينة القيادة ، وتشبث بقوة بجوانب الطائرة إنتظارا للإصطدام . وإرتطمت العجلات بماسورة للمياه ، مما أدى إلى قفز الطائرة والأسد بداخلها فوق أحد الجدران وخروجها إلى أحد الطرق الرئيسية ، وأخطأت بالكاد الإصطدام بأحد معسكرات اللاجئين الفلسطينيين .

التسعة عشر التالية ، راحت سوريا تدور فى دوامة عنيفة أخرى من الإنقلابات والإنقلابات المضادة . وبالقرب من الوسط كانت هناك اللجنة العسكرية ، وهى تنظيم سرى من شباب الضباط العسكريين البعثيين الغامضين ممن يؤمنون بأفكارهم البعثية الخاصة . وكان من بينهم حافظ الأسد .

وفى ليلة السابع من مارس ١٩٦٣ ، أصدرت اللجنة العسكرية أوامرها للدبابات وقوات المشاة بالتحرك صوب دمشق* . وسقطت العاصمة بسرعة البرق ، وتقبل السكان فى أرجاء سوريا الانقلاب غير الدموى تقريبا . وقد تحقق النجاح بسهولة لأن الحكومة القائمة ، حسبما جاء على لسان حافظ الأسد ، « كانت حكومة بلا تأييد شعبى وبلا جيش ، حيث كانت عبارة عن حكم طبقة تتمتع بالقوة والسلطان »** . وقبل أسبوع واحد من الإنقلاب كان حافظ الأسد البالغ من العمر ثلاثين عاما وشركاؤه الخمسة فيه يعيشون حياة مبهمة تحفها المخاطر ويلفها الغموض ، والآن أصبحوا أكبر قوة فى السياسة السورية . وبدأت هذه اللجنة العسكرية فى تدعيم مركزها من خلال تطهير سوريا من العناصر « غير الموالية » . ومن أجل خلق بديل لحكم الأعيان التقليدى ، قامت الزمرة العسكرية بإستبعاد المئات من المناصب الحكومية وإحلالهم بأعضاء من الحزب ، وقامت بزرع البعثيين داخل كل وحدة من وحدات القوات المسلحة لتلقين الجيش السورى مبادىء الأيديولوجية البعثية . وفى النهاية إندمج الجناحان العسكرى والمدنى لحزب البعث ليشكلا أداة ثورية واحدة للقضاء على النظام القديم ، غير أنها برغم كل ما لديها من طاقات ، كانت اللجنة العسكرية مجرد جزء صغير من الأقلية البعثية ، تمثل جماعة عسكرية منشقة عن الحزب الضعيف الذى لا يتمتع بأية قاعدة شعبية . وعلى مر السنوات السبع التالية ، كانت الإضطرابات السياسية تعمل على إثارة وتحريض النظام السياسى التقليدى ضد البعث ، والبعث ضد الناصريين والأخوان المسلمين ، والبعث ضد نفسه .

وفى مايو ١٩٦٣ ، قام البعثيون ، إستناداً إلى القوة التى يتمتعون بها داخل الجيش ، بسحق المحاولة التى قام بها الناصريون السوريون للإطاحة بحكومتهم بإسم العروبة الشاملة بزعامة مصر .

بيد أن أحد أشكال التهديد إستبدل بشكل آخر . ففى ربيع ١٩٦٤ ، واجه البعث تمردا من السنيين ضد النظام السياسى الذى تسيطر عليه الأقليات . وأخذ أئمة المصلين فى المدن المرتبطون بالاخوان المسلمين يلقون الخطب الملتهبة ضد البعث العلمانى . وكانت رسالتهم الدينية تنطوى على رسالة أخرى إجتماعية تدعو أعيان المدن إلى الإنضمام إلى المعركة ضد الهراطقة الذين يسيطرون على الحكومة . وفى مدينة حماة ، التى كانت معقلا للمحافظة على تقاليد ملكية الأرض ، ظهرت الأسلحة من مخابئها ، وأقيمت المتاريس فى الطرقات ، وأخذت الضربات القوية تنهال على أعضاء حزب البعث ليتساقطوا صرعى . وأنزل البعث جيشه إلى الشوارع . وبعد يومين من القتال وسقوط سبعين قتيلا إنتهت الإنتفاضة .

* قررت اللجنة العسكرية العمل بعد الإنقلاب البعثى الناجح فى العراق فى الثامن من فبراير . أنظر الفصل الحادى عشر .

** نقلا عن سيل ، الأسد ، ص ٧٢ .

وبعد ان أحكم البعث قبضته على المدن وعلى السنيين ، تحول بعد ذلك إلى نفسه ، إلى البعث نفسه . ففى أعقاب إنقلاب ١٩٦٣ ، قامت اللجنة العسكرية ، التى كانت عديمة الخبرة تقريبا فى إدارة شئون الدولة ، بإدخال ميشيل عفلق وصلاح البيطار ، وآخرين من البعثيين الأوائل ، فى الحكومة . وبعدها مباشرة تقريبا ، إنقسم البعث إلى قوتين ـ الحرس القديم والجديد ، حزب ميشيل عفلق وحزب اللجنة العسكرية بقيادة حافظ الأسد . وبالنسبة لعفلق ، كان الحزب هو ينبوع الفكر العربى ، والحارس القيم على طهارة الحكومة الأيديولوجية . وبالنسبة لحافظ الأسد واللجنة العسكرية ، كان الحزب بمثابة المحرك للتغيير الإجتماعى ، والمؤسسة المركزية للدولة . وكان ذلك هو لب الخلاف الفلسفى . وعلى المستوى الداخلى ، أدى الصراع داخل البعث إلى إثارة الفقراء فى الريف ضد المثقفين فى المدينة .

وفى الثالث والعشرين من فبراير ١٩٦٦ ، قام شباب الريف الذين يسيطرون على الجيش بتطهير الحزب . وفى حدث يماثل شجب الحزب الشيوعى لماركس ولينين ، قام الجناح العسكرى بحزب البعث بإلقاء القبض على صلاح البيطار ووضعه فى السجن ولاذ ميشيل عفلق بالفرار إلى لبنان* . وتولت الأقليات ـ من العلويين والدروز ـ فى النظام الجديد مقاليد الحكم وسرعان ما تم طرد الدروز ، ولم يبق سوى العلويين وجرت عملية تطهير أخرى لم يتبق على أثرها إلا العلويون الموالون لحافظ الأسد .

وفى الثانى عشر من نوفمبر ١٩٧٠ ، قام حافظ الأسد بخطوته الأخيرة التى أهلته لاحكام سيطرته المطلقة على حزب البعث السورى والحكومة السورية . وطوال ثلاثة أيام ظلت البلاد معلقة ، تتخبط فى التساؤل عما حدث . وفى اليوم الرابع كان حافظ الأسد يضع اللمسات الأخيرة لبيان أعلن فيه توليه السلطة ، ووصل الرئيس الليبى معمر القذافى إلى مطار دمشق دون إعلان مسبق . وأسرع الأسد ، الذى أصبح الشخص الوحيد المناسب لإستقبال الرئيس الليبى ، إلى المطار . وعلق ساخرا وهو يستقبل القذافى بقوله « من المناسب تماما أنك لم تصل مبكرا عن ذلك بنصف ساعة »* . فقد أعلنت إذاعة سوريا مساء هذا اليوم عن « حركة التصحيح » . وكان حافظ الأسد يبلغ من العمر أربعين عاما آنذاك .

وقد أصبح الأسد على رأس النظام السياسى السورى بإسم البعث ، غير أنه لم يتقيد أبدا بأيديولوجية الوحدة العربية الشاملة التى كان يعتنقها البعثيون الأوائل ، وكانت دوافعه نابعة بالأحرى من واقع المجتمع السورى . وربما لم يكن حافظ الأسد يدرك حتى مجرد مدى صعوبة السيطرة على هذا المجتمع . ففى عام ١٩٧٠ قال الأسد لأحد أصدقائه ، « لماذا تظن أن حكم هذا البلد من الأمور الصعبة ؟ الواقع أن المسألة بسيطة للغاية . دعنا ننظر إلى الشعب . إن من لا يملك سيارة يريد سيارة . ومن لا منزل له يريد منزلا . ومن يتقاضى مرتبا محددا يريد ضعف هذا المرتب أو ثلاثة

* لم ير عفلق موطنه الأصلى بعد ذلك أبدا . فقد كانت عملية نفيه هى ذروة النزاع غير المفهوم أحيانا بين فرعى حزب البعث العراقى والسورى . أنظر الفصل الحادى عشر .

* سيل ، الأسد ، ص ١٦٥ .

اضعافه . وأنا أؤكد لك أنا نستطيع تلبية جميع هذه المطالب . وإذا فعلنا ذلك ، فمن الذى سيبقى فى المعارضة فى سوريا ؟ مائة أو مائتان من الأشخاص الذين يأخذون السياسة مأخذا جديا . وهم سيظلون ضدنا مهما فعلنا . وقد تم بناء سجن المزه من أجلهم »* . لكن حافظ الأسد لم يجد حكم سوريا بمثل هذه السهولة .

وفى السنوات الخمس والعشرين الأولى التى أعقبت الإستقلال ، كانت سوريا تعانى من آثار حدوث إنقلاب أو محاولة إنقلاب بمعدل مرة كل عام . والآن . وفى تحد صريح للتقاليد المستمرة من قرون عديدة بأن يحتفظ السنيون بالسلطة فى أيديهم ، ها هو أحد العلويين يسيطر على مقاليد الحكم . وكانت الصورة التى رسمها حافظ الأسد لحزب البعث هى مؤسسة الدولة الأساسية . وبرغم بعض المحاولات المخلصة لإشراك كافة عناصر المجتمع السورى الممزق فى العملية السياسية ، فإن حكم الأسد لم يضرب بجذوره إلا بين من يستطيع الثقة بهم - وهم العلويون . وقد كانت الرابطة التى تربط العلويين بحافظ الأسد هى التى جعلتهم يصبحون خلال فترة السبعينيات من الصفوة السياسية السورية المميزة إقتصاديا ، بعد أن تعرضوا لقرون عديدة - للنبذ والحرمان والإضطهاد .

وفى عام ١٩٧٣ ، تدفقت الثروات الهائلة الناتجة عن الحظر البترولى العربى عبر الحدود السورية . وأفتتح فى دمشق فندق أمية الجديد ، الذى تم تزويده بالأرائك المصنوعة من الأصواف البيج الطبيعية التى تعود إلى فترة الخمسينيات ، وشهدت أسواق الأروام والحميدية ، التى تعد من أكبر أسواق دمشق ، عمليات تحديث نجحت فى أن تسلبها طابعها الجذاب ومظهرها الخالد . وكان ميدان مرجه ، المعروف عادة بإسم الميدان المعلق ، هو الميدان الوحيد الذى نجا فيما يبدو من الرتابة الناجمة عن السخاء السورى الذى ترتب على الإزدهار البترولى ، وأخذت العوائد التى كانت تتدفق من إقتصاديات الخليج المتفجرة تزيل من المجتمع السورى الجهل والظلم الذى كان يعانيه العلويون الذين يعملون فى الأرض مقابل جزء من المحصول والذى شهده الأسد فى شبابه ، ومع الوظائف والعقود الحكومية التى كانت تقدمها حكومة الأسد للعلويين ، أزاح العلويون السنيين والمسيحيين جانبا ليصبحوا طبقة متوسطة جديدة تعيش فى بحبوحة . وأصبح بعضهم يتمتعون بالثراء .

وقد أضر إرتفاع شأن العلويين بالعديد من السوريين خاصة السنيين الذين لحق بهم ضرر بالغ يفوق الآخرين . فقد تجرد الأعيان من النفوذ السياسى ، وأدت الأموال الجديدة إلى تدنى طبقة التجار ، وعمل نظام الأسد العلمانى على الحط من شأن الزعماء الدينيين وكان الجميع يضطرمون بالإستياء . وقد تعدى غضبهم نطاق طبقتهم من خلال شبكة العلاقات الراسخة منذ أمد بعيد والتى تربط الأسر والجماعات السنية . وكانت جماعة الأخوان المسلمين هى التى تتزعم المعارضة ضد النظام المرتبط بالطائفة العلوية البغيضة .

---

* ستيلى ريد ، «أسد سوريا : سلطته وخطته» ، مجلة نيويورك تايمز ، ١٩ فبراير ١٩٨٤ .

ففى عام ١٩٦٣ ، حينما تولى البعثيون لأول مرة أمور الدولة ، قامت مجموعات صغيرة من المتشددين الإسلاميين سرا بتنظيم حركة للمقاومة المسلحة ضد البعث العلمانى . وطوال السنوات الست عشرة التالية أخذت الخلايا السرية فى تكديس الأسلحة ، وإتخذت أسماء مستعارة ، ودخلت إلى المساجد لتجنيد المقاتلين وضمهم إلى صفوفها . وفى عام ١٩٧٩ ، كانت جماعة الأخوان المسلمين ، التى تضم عشرة آلاف من الفدائيين ، على أهبة الإستعداد لإعادة سوريا إلى أغلبيتها السنية .

وفى شهر مايو قام الأخوان المسلمون بإرسال أولى رسائلهم إلى حافظ الأسد حينما أطلقوا النار على سيارة كان يستقلها فى شوارع دمشق . وفى الشهر التالى ، فى السادس عشر من يونية ، قام احد أعضاء هيئة التدريس بمدرسة حلب للمدفعية من المتعاطفين مع الأخوان المسلمين بجمع الطلبة المستجدين الذين كان أغلبهم من العلويين فى قاعة الطعام وأغلق جميع الأبواب بإستثناء باب واحد . ودخل من خلاله الأخوان المسلمون وأطلقوا أسلحتهم الآلية دون تمييز . وتم قتل الطلبة المحاصرين مثل السمك داخل برميل . وبهذا العمل الدموى المذهل ، أعلن الأخوان المسلمون الحرب صراحة على العلويين والبنية السياسية لحزب البعث الذى يرأسه الأسد .

وإمتد العصيان المسلح شرقا حتى الفرات وغربا حتى اللاذقية ، المدخل الخارجى للمنطقة العلوية . وإندفعت حشود كبيرة من السوريين غير المنتمين للأصوليين لتأييد قضيتهم ، مما أدى إلى زيادة صفوف الأخوان المسلمين . كما إنضم إليهم البعثيون الذين إستبعدتهم حركة التصحيح التى قام بها الأسد . كذلك ساهم الحزب الشيوعى بثقله المحدود . وفى الوسط ، كانت هناك الطبقة المتوسطة من السوريين ، التى تعمل على تدعيم التحالف المضاد للأسد ، بزعامة تجار الأسواق الذين يمثلون العمود الفقرى للمجتمع السورى التقليدى .

وفى الفترة من منتصف ١٩٧٩ حتى منتصف ١٩٨٠ كان المتمردون يمسكون بزمام المبادرة . وخرج الفدائيون من مخابئهم الآمنة فى المدن القديمة المكتظة بالسكان مثل حلب وحماة . وكانوا يقومون أثناء النهار بتنظيم المظاهرات المعادية للحكومة ، وإغلاق المحال وإشعال النيران فى المبانى . وفى الليل ، كانوا يطلقون فرق الهجوم ضد أعضاء حزب البعث الموالية للأسد ، وغالبا ما كانوا يقتلونهم فى فراشهم .

وحتى عام ١٩٨٠ ، كان حافظ الأسد يرفض فيما يبدو مواجهة حقيقة أن سوريا التى صنعها بنفسه كانت تنزلق إلى حرب أهلية فعلية . ولكن حينما أعلنت حلب الإضراب العام إستيقظ حافظ الأسد . وبعد أن قام بتزويد مؤيديه بالأسلحة الثقيلة من أجل الحماية والمساندة ، أرسل قوات الأمن لإقتحام المدينة . وبرغم سقوط مائتى قتيل فى حلب ، فإن المعارضين لم يهدأوا ولم يستسلم الأسد .

وفى التاسع من مارس ١٩٨٠ قامت القوات المنقولة بالطائرات العمودية بشن عملية بحث وتدمير وحشية على مدينة جسر الشغور المجاورة لحلب . ثم تحولت القوات المسلحة إلى حلب . وقامت فرقة من عشرة آلاف رجل ومائتين وخمسين عربة مدرعة بإغلاق أحياء كاملة من المدينة

وأعلن اللواء شفيق فياض أنه مستعد لقتل ألف رجل يوميا لتخليص المدينة من حشرات الأخوان المسلمين . ولم يخضع أحد ، وإنتفض معارضو الأسد بجراءة فى حماه وإدلب ودير الزور وحمص .

وقد أخفقت الرقابة الصارمة المفروضة على الصحف فى منع إنتشار الشائعات التى كانت تجتاح سوريا بشأن حسم النزاع بين الحكومة التى يسودها العلويون ومعارضيها الذين يغلب عليهم السنيون . وفى الرياض ، حيث كنت أقيم آنذاك ، لم يستطع السوريون المعزولون عن عائلاتهم فى المدن المتمردة أن يفعلوا شيئا سوى الإنتظار فى قلق ولهفة لمعرفة بعض الأخبار عن مصيرهم . وفى أحد الأيام إستقل أحد التقنيين العاملين بقسم الأشعة بمستشفى الملك فيصل التخصصى الذى كانت تعيش زوجته وأطفاله فى حمص ، سيارته التويوتا لاندكروزر واتجه صوب الشمال عبر الصحراء ، وتسلل إلى سوريا من بين نقاط التفتيش المقامة على الحدود . وترك سيارته على بعد ثلاثة أميال من حمص وإخترق الحصار سيرا على الأقدام . وبعد أن أخذ فى الإندفاع والعدو من شارع إلى آخر ، وصل إلى منزله ليجد أسرته لم يلحق بها أى أذى مباشر . ثم إقتفى أثر خطواته الأولى فى العودة وظهر من جديد فى الرياض بعد ثلاثة أيام .

وفى السادس والعشرين من يونية ١٩٨٠ ، تزايدت حدة العنف من جديد . فبينما كان حافظ الأسد يقف عند بوابة قصر الضيافة فى دمشق ليرحب برئيس دولة مالى الزائر ، إندفعت سيارة مسرعة وأطلقت وابلا من النيران الآلية وألقت قنبلتين يدويتين سقطتا عند قدمى الأسد . وسارع الرئيس بركل إحدى القنبلتين بقدمه ودفعها بعيدا عن الطريق بينما قام أحد الحراس بالتضحية بحياته وإرتمى على القنبلة الثانية بجسده . ومع زيوع نجاة الرئيس بأعجوبة ، إجتاحت الطائفة العلوية موجة من الغضب والتعطش للإنتقام .

وفى صبيحة اليوم التالى هبطت إثنتان وعشرون طائرة مروحية محملة بأفراد من المغاوير داخل سجن تدمر بالقرب من أطلال تدمر القديمة . وبدأوا فى مهاجمة الزنزانات المحتجز فيها أعضاء الأخوان المسلمين الذين ألقى القبض عليهم خلال العام السابق ، وقام هؤلاء المغاوير بقتل ستمائة سجين . وفى الأسبوع التالى ، أعلن حافظ الأسد أن الإنضمام للأخوان المسلمين جريمة عقوبتها الموت* . ولكن التمرد إستمر دون توقف .

وألزم الخوف أعضاء حزب البعث منازلهم ، التى كانت أشبه بالحصون فى تأمينها . وإنكمش الأسد داخل مكتبه الأمن ، الذى كان يحرسه أفضل رجال الحراسة فى العالم . وأخفقت ثلاث سنوات من الجهد فى القضاء على الحركة السرية التى كانت تعمل على قتل نخبة الطبقة المهنية العلوية وتثبيت تهمة عدم شرعية رئاسة حافظ الأسد . وقد ثبت أن المعارضة ضعيفة بحيث لا تستطيع الإطاحة بالبعث وقوته بحيث لا يمكن القضاء عليها والتخلص منها . وفى ليلة الثانى من فبراير ١٩٨٢ ، بدأت أحداث الفصل الأخير من المسيرة الدموية تتكشف فى مدينة حماة .

* لم تنصب أعمال الإنتقام على الإخوان المسلمين وحدهم . فقد قتل صلاح الدين البيطار ، الذى ساهم فى تأسيس البعث ، فى ٢١ يوليو ١٩٨٠ فى باريس ربما على أيدى رجال نظام الأسد .

ففى الساعة الثانية صباحا ، قام أحد القناصة الرابضين فوق سطح أحد المنازل بقتل عشرين جنديا من جنود الأسد الذين كانوا يجوبون الحى القديم بالمدينة أثناء دوريتهم الليلية . وفجأة أضيئت أنوار مساجد المدينة وأخذت صيحات الجهاد المرتجفة ضد البعث تتردد من المآذن . « الله أكبر . جميع السوريين ينتفضون ضد النظام الملحد . هلموا إلى المساجد ، حيث ستوزع الأسلحة لإقتناص الكفرة الملحدين »* . وخرج مئات من الإخوان المسلمين وحلفائهم من مخابئهم . وفى موجة من القتل والنهب ، أخذوا فى التفتيش عن الأسلحة وقاموا بقتل سبعين شخصا من المسئولين فى حزب البعث . وفى الصباح أعلن الفدائيون المنتصرون عن تحرير المدينة من النظام العلوى البغيض وحكومته البعثية .

وأخذت إذاعة البعث فى دمشق تصرخ قائلة إن المتمردين « إنساقوا وراء حقدهم الأسود كالكلاب المسعورة ، وإنقضوا على رفاقنا وهم نائمون فى منازلهم وأعملوا القتل فى كل من وقع فى طريقهم من النساء والأطفال ، وأخذوا فى التمثيل بجثث الشهداء فى الشوارع »* . وقرر حافظ الأسد الماكر فى الخفاء وبعيدا عن أعين الجماهير أن تصبح حماه أرضا للمعركة التى سيحسم فوقها مصير البلاد . وكان يدرك تماما أنه إذا سمح لأعداء العلويين بتولى زمام الأمور حتى فى أحد الأحياء بحماة ، فسوف تتدفق دماء العلويين فى سوريا تدفق الماء . ذلك أن وراء هذا العصيان المسلح كان يكمن عداء السوريين المعقد والمتراكم بين المدينة والريف ، وبين السنيين والعلويين ، وبين الإسلام والبعث .

وإستمرت معركة حماه مشتعلة لمدة ثلاثة أسابيع كئيبة ، وقد سيطر الإخوان المسلمون على المدينة طوال الأيام الأربعة الأولى ، وقتلوا المئات من أنصار الأسد المشتبه فيهم . وفى اليوم الخامس إستسلم الإخوان المسلمون للجيش ، الذى أطلق العنان لأعمال القتل والسلب والإغتصاب بصورة جماعية . وبعد سلسلة متواصلة من القصف المدفعى على قلب المدينة ، انحبس الناس داخل متاهات شوارع الأحياء القديمة دون طعام أو ماء أو وقود . وخرج آخرون فى العراء فى الشتاء القارص بينما كانت الدبابات تدمر العديد من المنازل المبنية من الطين التى يشتبه فى إيوائها للمتمردين . وتم تدمير حماة ، أجمل مدن سوريا ، حيث تم دفن ما بين خمسة آلاف وعشرين ألف ضحية من ضحايا غضبة حافظ الأسد . وتم إخماد التمرد بالتدمير والموت . ولكن اسم حماة أصبح بعد ذلك مرادفا لكلمة مذبحة .

وقد قال حافظ الأسد ببساطة فى أول بيان علنى له عقب المذبحة ، « إن ما حدث فى حماة قد حدث ، وإنتهى »* . ولكى يضفى الأسد معنى جوهريا على كلماته ، قام بمحاولة أخرى لترسيخ نزعة وطنية سورية مميزة . فقد شرعت حشود من العمال فى تنظيف جدران قلعة دمشق

* ريد ، أسد سوريا ، ص ٥٧ .

* التايم ، ٨ مارس ، ١٩٨٢

* المرجع السابق .

الضخمة عسلية اللون التى بناها الأمويون ، وأخذت البيانات الحكومية الرسمية تنادى المواطنين السوريين بـ « أبناء الأمويين » . بيد أن الرمز الحقيقى للنزعة الوطنية السورية كان هو حافظ الأسد . وبدأت عبادة الفرد مع إنتشار الصور الضخمة للرئيس فى كافة المبانى العامة والمدارس ومواقع الجيش وفى جميع التقاطعات الرئيسية وإشارات المرور ، وفى كافة المدن والقرى فى شمال البلاد وجنوبها ، كانت تلوح تماثيل الرئيس الضخمة . وشرع حافظ الأسد فى ترسيخ وضعه كوصى على المؤسسات السورية وحكما بين مصالحها المتعارضة ، وقد لخص هذا الوضع بنفسه بقوله : « إننى رئيس الدولة ، ولست رئيس الحكومة »*.

غير أنه خلال نفس الفترة ، إحتجب حافظ الأسد أكثر فأكثر عن الظهور على الملا . وكان مرجع ذلك جزئيا لأسباب صحية ولأسباب تتعلق بشخصية الرجل . إذ أن الأسد يعانى منذ أمد طويل من داء البول السكرى . وقد أدى جدول أعماله المتصل على مر السنين إلى إنهاك جسده . وفى عام ١٩٨٢ تعرض للضغوط العصبية الناجمة عن التمرد الإسلامى . وفى الثانى عشر من نوفمبر ١٩٨٣ ، سقط الأسد منهارا . وظل محتجبا عن الأنظار لشهور عديدة بينما إنتشرت الشائعات بأنه سقط صريع الإجهاد ، وأصابه العمى ، ولم يعد يستطيع السير . وفى النهاية تعافى أسد دمشق من الأزمة القلبية التى ربما كان قد أصيب بها . ولكنه ظل منعزلا . ونظرا لإفتقاده متعة الإتصال بالجماهير ، وإستحواذ الشعور بالأمن على فكره ، وقلة مشاهدته خارج نطاق الحراسة الشديدة المفروضة حوله ، أخذت صفة الإنعزالية تطغى على الأسد الخجول . وعلى العكس من عبد الناصر والسادات والملك حسين وآل سعود ، فإنه لا يظهر على رعاياه إلا من خلال صورته التى تظهر على شاشة التليفزيون ، وربما لا يراه أعضاء مجلس وزرائه إلا مرتين طوال فترة بقائهم فى المجلس - أثناء حلف اليمين وخروجهم من المجلس . ورئيس الوزراء ، وكبار القادة ورؤساء الحزب يعرفون الرئيس بشكل أفضل من خلال إتصالاته التليفونية . ويحكم حافظ الأسد وحده ، ولا يحتاج فيما يبدو لمشورة أحد ، ولا ينسى أو يغفر أبدا الخيانة أو العصيان .

وقد كانت صورة الرجل الذى كان يراقب غرفتى بالفندق ليلة وصولى إلى دمشق تطاردنى أثناء جولاتى . ونظرا لأننى دخلت سوريا بتأشيرة دخول سياحية هربا من القيود السورية المفروضة على الصحفيين ، فقد كنت أشعر ببعض القلق ولكنى لم أكن أشعر بالخوف . وبعد عدة أيام تضاعف ظلى . وحينما تضاعف إلى ثلاثة أشخاص ، أصبحت عصبية . وقد كان ذلك فى صبيحة اليوم الذى سألنى فيه موظف الإستقبال فى الفندق عما إذا كنت كاتبة . ونظرا لأننى كنت جاهزة دائما بقصة ملفقة ، فقد تلاعبت بولع السوريين بالأحداث المثيرة وقلت له إننى كاتبة روائية وإننى قدمت إلى سوريا للإعداد لرواية عاطفية عن جندى سورى وفتاة لبنانية حوصرا فى مأساة الحرب اللبنانية . ولم أعرف مطلقا ما إذا كان قد إقتنع بروايتى أم لا ، لأننى صعدت الدرج وأعددت حقيبتى ، وإستقللت سيارة أجرة أخذتنى عبر الطريق البرى إلى عمان ، وبعد ذلك بعدة أسابيع بعد عودتى إلى الولايات المتحدة ، تلقيت مكالمة هاتفية مثيرة من مصدر معلوماتى الرئيسى فى سوريا ، وهو

---

* سيل ، الأسد ، ص ٣٤٣ .

شخص له صلات وثيقة بكبار رجال الحكومة . وكان يريد معرفة ما الذى كنت أفعله فى دمشق بحيث يدفع سلطات الأمن إلى تخصيص ثمانية عشر رجلا لاقتفاء أثرى .

وطالما هو باق فى السلطة ، فإن سوريا هى حافظ الأسد . والأسد ، الذى تستحوذ عليه النزعة البيزنطية ويمتلك ما وصفه ريتشارد نيكسون بأنه لمسة من العبقرية ، هو رجل مجتمعه العلوى وهو فى نفس الوقت رجل سوريا الكبرى . فهو يسعى وراء تحقيق مصالح سوريا بنفس التصميم الذى يحمى به جماعته العلوية . وإنطلاقا من غرائز البقاء التى تمارسها جماعة من الأقلية فى الشرق الأوسط ، فإن الأسد يدرك حقائق السلطة والقوة فى الشرق الأوسط وخارجه . وعلى العكس من أسلافه البعثيين الذين كانوا يؤيدون قوى العروبة بجنون ، فإن الأسد لا يعول كثيرا على قيمة ما تستطيع أن تقدمه الوحدة العربية سريعة الزوال لسوريا . وإنطلاقا من تسليمه بأن بلاده لا تتمتع بقدر كبير من القوة عدا ما وهبته لها الجغرافيا ، فإنه يعمل وفقا لحقيقة أن وضع سوريا داخل المشرق العربى والعالم العربى الأكبر يعتمد على مهارة زعيمها فى إدارة موارد بلاده المحدودة . ومن خلال التلاعب بميزان القوة بمهارة ، نجح الأسد فى ترسيخ أقدام سوريا الضعيفة بالقرب من مركز السياسة العربية .

وإنطلاقا من خبرة جماعة من الأقلية العربية ، يستخدم الأسد السرية كسلاح ، حيث يستخدمها لتغطية خطوات صنع قراراته ويوظفها لكسب المبادرة النفسية والسيطرة عليها فى آن واحد . ولكى يزيد من قوته إلى أقصى حد ، يستفيد الأسد من ضعف الآخرين فى اللعبة السياسية - مثل إخفاقهم فى إدراك الأوجه المتعددة لقضية ما ، ونفاد صبرهم وعجزهم عن معرفة الإتجاه الصحيح ، ونزوعهم إلى تدمير الإستراتيجيات طويلة الأمد بالعمل بطريقة متهورة . ويتسم الأسد بالحذر فى كل ما يفعله . وبرغم أن تحركاته معقدة تعقد المتاهة ، فإن أهدافه النهائية لا تتغير أبدا . وقد أدى أسلوب الأسد البارع فى المناورة مثل رفض الحلول الوسط حتى الساعات الأخيرة وظهور دلائل المرونة المفاجئة التى تأخذ أعداءه على غرة - إلى إستفادة سوريا من مكانتها المحدودة إلى أقصى حد وحجب نقاط ضعفها عن الأنظار ، وليس هناك من يشعر بموارد سوريا المحدودة أو يدرك أنها محاصرة بالفعل أكثر من حافظ الأسد . وقد أصابته حرب ١٩٦٧ بصدمة نقلته لمرحلة النضج السياسى ، وأمضى الأسد الربع الماضى من هذا القرن فى السعى لإسترداد الأراضى السورية .

ومن نواح هامة ، كانت حرب الأيام الستة نتاج فصام سوريا السياسى فى الستينيات ، إذ أن حكومة البعث التى تولت السلطة إثر إنقلاب ١٩٦٣ أخذت تصرخ بشن الحرب على إسرائيل بأى ثمن . وبينما كانت الأردن ومصر وحتى العراق البعثية مترددة ، كان البعثيون السوريون المتحمسون يحرضون الفدائيين الفلسطينيين على الهجوم داخل إسرائيل ، وكما يفعل المشجعون الذين يصيحون من مقاعد المتفرجين فى إحدى المباريات الرياضية ، كانوا يسخرون من عبد الناصر بأنه « النمر الورقى للقومية العربية » لرفضه قيادة العرب فى حرب أخرى ضد إسرائيل ، وفى عام ١٩٦٦ ، دفعت السخرية السورية فى نهاية الأمر عبد الناصر الطموح إلى إقامة تحالف عسكـ وبجرة قلم ، ألزم عبد الناصر مصر بالدفاع عن نظام ثورى متهور ليست لديه أية فكرة عن [illegible]

المشرق العربي . وبينما كان الفدائيون الفلسطينيون فى معسكرات التدريب السورية يوجهون ضرباتهم ضد إسرائيل ، كانت إذاعة دمشق تدعو جميع العرب إلى « خوض معركة التحرير التى ستمزق قلوب اليهود البغيضة من أجسادهم وتسحقها فى التراب »* .

وحينما وقعت الحرب التى كانت تريدها سوريا ، ثبت أنها لا حول لها ولا قوة . وكانت التدريبات أو الخبرة القتالية الوحيدة التى يعرفها الجيش السورى المؤلف من خمسين ألف رجل هى تلك التى إكتسبها من الغارات الإنتقامية التى كانت تقع على طول الحدود الإسرائيلية . وفى ظل هذه الظروف ، كانت ترسانة سوريا من الأسلحة التى تخلص منها الجيش السوفيتى تفى بالغرض . ومن خلال العمل فى نفس الظروف لم يفكر أحد كثيرا فى سلاح الضباط الذى شله حافظ الأسد بعمليات التطهير السياسى فى ١٩٦٦ . وحينما جاءت آلية الحرب الإسرائيلية سريعة الحركة ، إنهار الجيش السورى .

وقد دمرت القوات الجوية السورية الصغيرة فى الساعات الأولى من الحرب . وكانت خسارتها خسارة رمزية لعجز سوريا عن الدفاع عن نفسها . ومع اليوم الخامس ، كانت القوات الإسرائيلية قد إعتلت مرتفعات الجولان وإستولت على مدينة القنيطرة ، البالغ عدد سكانها سبعة عشر ألف نسمة ، وإجتاحت القرى المجاورة . وتم تجريد تسعين ألف سورى من كل ما يملكون ، وطردهم خارج الجولان ووضعهم فى مخيمات . وهكذا أصبحت الجولان العلامة المميزة الدالة على هزيمة سوريا ، والشعار المتأجج للكراهية السورية لإسرائيل . وبالنسبة لحافظ الأسد تقف الجولان كعلامة مميزة على المطالبة بإسترداد الأراضى .

وبعد انقضاء ربع قرن على حرب الأيام الستة ، يبدو ممر ضيق من الجولان كالشبح . وتحرك نسمات الهواء الباردة الأعشاب عريضة الأوراق التى لا يطعمها حيوان ، وتدفىء الشمس الأرض التى لا تفلحها الأيدى . وفى أعلى نقطة فوق هضبة الجولان ، يمكن رؤية مئذنة وحيدة تقف فى سكون مهيب داخل حدود مدينة القنيطرة . والى الخلف منها ناحية الغرب ، يوجد أحد المواقع العسكرية الاسرائيلية الذى يشرف على الطريق المفتوح الى دمشق . وفى الجزء الأسفل من الحافة الجبلية ، تقف احدى الدبابات الاسرائيلية الصدئة المهجورة التى تسلقت المرتفعات فى حرب ١٩٦٧ لتشهد على احتلال اسرائيل لأراضى الجولان . وتؤكد مساكن المستوطنين التى تزحف فى كتل سكنية الى جانب بعضها البعض على طول الحد الغربى لهذه الأراضى ملكيتهم لها ، ووجود اسرائيل فوق الجولان حقيقة واقعة لا يقبلها رئيس سوريا ولا شعبه . ويهبط مئات السوريين كل عام منحدرات جبل الشيخ الى عين التين ، آخر القرى السورية على حدود الجولان المحتلة . ويقفون فوق أسطح المنازل وهم مسلحون بالأبواق حيث يأخذون فى النداء على أصدقائهم وأقاربهم المتجمعين فوق أسطح منازلهم فى مجدل شمس ، وهى أول قرية داخل الأراضى الاسرائيلية . وفى هذه الطقوس من الانفصال ، فان الكلمات بسيطة وعميقة معا : « نحييكم . ونحن معكم . وسوف نجتمع معا يوما ما » .

* التايم ، ٢ يونية ، ١٩٦٧ .

لقد كانت مهمة حافظ الأسد كوزير للدفاع أن يدير المجهود الحربى . ولكنه أخفق وانهار الرجل الذى أرسل فى جرأة وتحد الفدائيين الفلسطينيين لمهاجمة اسرائيل ، والذى شارك فى التمثيل المسرحى الذى أجبر عبد الناصر على القاء القفاز فى وجه اسرائيل ، وتجمد نفسيا فى الساعات الأولى من الحرب . وخلال الأيام الستة القصيرة ، انهارت جميع مبادىء الأسد الدفاعية السابقة أمام حرب اسرائيل الخاطفة سريعة الحركة . وتصدع أساس فكره السياسى مع سماح القوى العظمى لاسرائيل باعادة رسم خريطة الشرق الأوسط . وحينما توقف القتال ، توجه الأسد الى بيته ليمعن التفكير فى عزلة عن الآخرين لمدة ثلاثة أيام . وخرج من عزلته حاملا معه مجموعة جديدة من القناعات هى : ان اسرائيل بطبيعتها قوة توسعية ، وأنه لا يمكن احتواء هذه النزعة التوسعية الا من خلال الجهد العربى المكثف . ونزل حافظ الأسد الى ساحة المعترك السياسى العربى مسلحا بهذين المبدأين كما لو كانا زوجين من السيوف .

وفى أعقاب حركة التصحيح فى ١٩٧٠ ، وضع حافظ الأسد كل من جوانب الدفاع والسياسة الخارجية السورية تحت سيطرته المباشرة . وكانت سنوات شبابه المبكرة كأحد أنصار الوحدة العربية الشاملة قد غرست فى نفسه حقيقة بديهية أساسية عن العروبة . وقد كان يعمل انطلاقا من هذه الحقيقة البديهية . وكانت مصر وسوريا تمثلان محورى تاريخ العرب . فحينما كانت مصر وسوريا متحدتين انتصر العرب . وحينما انفصلتا ، تداعى العرب وترنحوا . ونتيجة لذلك اما ان تقف مصر وسوريا ومجموعة الدول العربية معا أو تسقط معا . وقد كانت هذه النظرة هى التى دفعت حافظ الأسد الى الاشتراك فى خطة السادات الكبرى لحرب ١٩٧٣ .

وقد حجبت النتائج الطبيعية للوحدة العربية الحقيقة القاسية المتمثلة فى أن تكتيكات أنور السادات كانت تختلف عن تكتيكات حافظ الأسد . فقد كان الأسد يسعى للحرب لأنه كان يعتقد أن اسرائيل لن تتفاوض أبدا بشأن الأراضى التى احتلتها فى حرب ١٩٦٧ الا بعد ان يستعيد العرب بعض أراضيهم بالقوة . وكان السادات ، من ناحية أخرى ، يرى أن الحرب بمثابة أداة سياسية لفتح الطريق أمام العملية الدبلوماسية المتوقفة . وكان الأسد يبحث عن الجولان وسيناء ، والسادات عن مائدة المفاوضات . وكان أنور السادات يدرك جيدا أوجه اختلافه مع حافظ الأسد ، ولكنه أقنع الرئيس السورى بأنهما يتبعان استراتيجية مشتركة .

وقد أمضى حافظ الأسد يوم عيد ميلاده الثالث والأربعين فى غرفة الحرب فى مقر القيادة العامة فى دمشق ، وفى ساعة الصفر فى السادس من اكتوبر ١٩٧٣ ، عبر الجيش السورى القطاع الأوسط من خط وقف اطلاق النار فى حرب ١٩٦٧ على الجولان . وقامت المدفعية الثقيلة بفتح الطريق للدبابات التى شقت طريقها عبر القوات الاسرائيلية التى كانت تقف بعناد خلف بطاريات المدفعية وحقول الألغام تجاه الحافة الحادة التى تنحدر صوب وادى الحولة فى اسرائيل ، وكان هذا التقدم قصير الأمد .

وطوال الأيام الثلاثة التالية عانت القوات السورية فوق مرتفعات الجولان من ضراوة ضربات القوات الجوية الاسرائيلية . فمع بزوغ الضوء الأول من كل يوم ، كانت الموجات المتتالية من الطائرات تنقض على حشود القوات والدبابات السورية وتقصفها بوابل من القنابل . ونجح السلاح

الجوى الاسرائيلى فى وقف تقدم القوات السورية حيث كان يشن عليها ألف غارة يوميا . ثم تحول بعد ذلك الى سوريا نفسها ، وأخذ فى ضرب محطات الطاقة ومستودعات الذخيرة ومصفاة البترول فى حمص وميناء اللاذقية . وفى العاشر من اكتوبر انهالت النيران الاسرائيلية على مقر القوات السورية فى دمشق .

ولم يخطر أنور السادات حافظ الأسد مسبقا بمشروعه لوقف اطلاق النار الذى عرضه على الهيئة التشريعية فى مصر فى السادس عشر من اكتوبر . ورد الأسد المهتاج على ذلك بتوجيه رسالة غاضبة لحليفه كانت تتسم بقدر اكبر من اللياقة مما كان يستلزم الموقف . « لقد كنت أفضل رؤية المشروع الذى عرضته على مجلس الشعب قبل اعلانه على الملأ . . . . ويحزننى أن أكتب اليك بهذه الكلمات ، لكنى لا أرغب فى اخفاء أفكارى وآرائى عنك لأننا مشتركان معا فى معركة حياة أو موت »* . ولكن استراتيجية الجبهتين التى شارك الأسد على أساسها فى الحرب كانت قد انهارت بالفعل . اذ تفكك محور دمشق ـ القاهرة الذى تم تكوينه باسم العرب مع قرار مصر بقبول وقف اطلاق النار . وترك الأسد ، الذى كان ملتزما تمام الالتزام باسترداد الأراضى بحيث لم تكن لديه فرصة للتقهقر ، واقعا بمفرده . وقرر حافظ الأسد ، السياسى الاستراتيجى البارع ، الذى تعلم الكثير من حرب أخرى جديدة بين العرب واسرائيل ، جعل سوريا القوة العربية الأساسية فى المشرق العربى . وأخذ منذ ذلك الحين يتغنى بقضية الوحدة العربية متى كان ذلك مناسبا ويمزق هذه الوحدة متى تطلب أمن سوريا ذلك .

وقد دفعت دبلوماسية هنرى كيسنجر المكوكية فى ١٩٧٤ حافظ الأسد ، ذلك الفتى العلوى القادم من جبال سوريا ، الى دائرة الضوء العالمية . فعلى مدى ستة وعشرين حفل استقبال وتوديع من مطار دمشق ، كان يظهر وزير الخارجية الامريكى والرئيس السورى معا على شاشات التليفزيون فى أنحاء العالم . وخلف الجدران أخذ كيسنجر والأسد يتصارعان على مدى مائة وثلاثين ساعة من المحادثات المباشرة وجها لوجه . وكان الأسد فى اجتماعه مع كيسنجر يعمد الى استخدام اسلوبه التفاوضى المعروف عنه . وقد كان غريزيا فى البداية ثم صار متعمدا بعد ذلك . فالأسد ، بدأ كلامه بخطبة مطولة عن التاريخ ، قد تمتد لساعات* . وحينما ينتهى من هذه المرحلة ، يشرع فى اثارة حشد من الموضوعات التى ليست لها صلة بالموضع بهدف واحد هو تحقيق مزية نفسية كمقدمة للسيطرة النهائية على العملية . وفى النهاية ، وبقدر محسوب من الدعابة الهادئة ، يعمل على جر تلك الاجتماعات الى الحد الذى يدفع شريكه فى التفاوض الى قبول كل مايقوله الأسد بلا مقاومة لمجرد الهرب . وخلال صراعه مع كيسنجر الذى تم تغطيته اعلاميا تغطية جيدة ، اشتهر حافظ الأسد بأنه البطل العنيد المدافع عن المصالح السورية والعربية . ولكن شهرته الشخصية التى اكتسبها تفوق ما استردته سوريا من أراضى .

---

* سيل ، الأسد ، ص ص ، ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

* فى أول لقاء له مع جورج شولتز ، وزير الخارجية الامريكى فى عهد رونالد ريجان ، قدم الأسد لشولتز ـ الذى نفد صبره ـ درسا فى تاريخ المشرق العربى استغرق خمس ساعات .

ذلك ان سوريا لم تسترد شيئا من خلال اتفاقية فصل القوات فى الجولان التى أنهت حرب ١٩٧٣ سوى القنيطرة وشريط الأراضى الضيق المحيط بها . ولم يؤد استرداد سوريا للقنيطرة الى تخفيف جراح ١٩٦٧ ، حيث كانت تقع داخل المنطقة العازلة التابعة لقوات الأمم المتحدة ، ودمرها الاسرائيليون تماما تقريبا قبل انسحابهم منها ، كما أنها كانت محرومة من الأراضى الزراعية المحيطة بها التى كانت تمدها بأسباب العيش . ونتيجة لذلك لم يتم اعادة بناء المدينة مطلقا . ولا تزال الأشكال الحادة الصارخة الناجمة عن انهيار الأسطح وتهدم المساجد وأطلال أحد المستشفيات قائمة كآثار متحفية . وفى رأى الأسد ، فان اعادة بناء القنيطرة قد يعنى ببساطة قبول ضم اسرائيل للجولان . ومن خلال هذا المفهوم تحولت القنيطرة من مدينة مهجورة الى واحدة من أعظم علامات الوحدة السورية . وبعد استرداد الجولان وحماية الأراضى السورية من التعرض لمزيد من الانتهاكات ، القضية الوحيدة التى تضفى على الصراع الطائفى والعزلة السياسية والتى تربط حافظ الأسد وشعب سوريا معا . وباسم الجولان فان حافظ الأسد على استعداد للتضحية بوحدة العرب الغامضة الواهنة .

وفى عام ١٩٧٥ ، شجب حافظ الأسد اتفاقية سيناء الثانية بين مصر واسرائيل ، والتى أدت فى واقع الأمر الى انهاء حالة الحرب على جبهة اسرائيل الغربية ، ففى تقييم الأسد ، كان من شأن قبول سوريا لاتفاقية سيناء الثانية أن يجعل من سلالة الأمويين ذوى الكبرياء مجرد دولة ضعيفة أخرى على حدود اسرائيل ، وكانت سوريا ، مثل الاردن تواجه خطر العيش على الاحسان وتكريس الجزء الاكبر من طاقاتها العسكرية لحماية اسرائيل من غارات الفدائيين . وتعهد الأسد بدلا من ذلك بمواصلة القتال ، وتحدى محيط عربى بدا مستعدا لقبول التفوق الاسرائيلى والتسليم به . بيد أن احدا لم يستجب له . فقد كان أنور السادات قد شق طريقه بمفرده . وكان منافسوه البعثيون فى العراق يعترضون تلقائيا على أى شىء يفعله . وكان الملك حسين يدبر أمر تسويته الخاصة مع اسرائيل . وكانت المملكة العربية السعودية مترددة . وهكذا وقفت سوريا مكشوفة فى ظل اسرائيل ، لا يقف بجانبها الا لبنان الضعيف وجماهير الفلسطينيين المتقلبين اليائسين وفى ربيع ١٩٧٥ ، بدأ آخر دفاعات سوريا ، وهو جانبها الغربى الضعيف فى التمزق مع انغماس لبنان فى الحرب الأهلية .

ويقسم الدين والقبيلة والعائلة لبنان مثلما يقسم سوريا ، وطوال عقدى الخمسينيات والستينيات ، كان لبنان يعيش على أمل أن يشكل المسيحيون المارونيون واليونانيون الأرثوذكس ، والمسلمون السنيون والشيعة ، والدروز ، والفلسطينيون كلا متجانسا داخل الدولة التى أطلق عليها الرومانسيون « سويسرا الشرق الأوسط » . بيد أنه فى الثالث عشر من ابريل ١٩٧٥ ، وقع حادث دموى بين الفلسطينيين والمسيحيين المارونيين أدى فى النهاية الى تحطيم الحلم ووضع لبنان على طريق الحرب الأهلية الطويل . ونشب صراع لم تستطع سوريا الابتعاد عنه .

ان لبنان هو ساحة سوريا الأمامية ، فمن ناحية الثقافة واللغة والصلات الأسرية ، بل وحتى المأكل والمشرب ، نجد ان السوريين واللبنانيين يمثلون نسيجا واحدا . ومن الناحية العاطفية ، نجد أن معظم السوريين وبعض اللبنانيين لم يقبلوا أبدا فصل لبنان عن سوريا الأصلية . غير أن

هناك اختلافا جوهريا يفرق بين البلدين ـ وهو أن السلطة فى لبنان ظلت فى أيدى المسيحيين المارونيين ، الذين يعتبرون أنفسهم «فينيقيين» أسطوريين أكثر ، منهم عربا . وفى أوائل عام ١٩٧٦ ، وضعت الحرب فى لبنان فى أبسط صورها المارونيين ضد العرب من أجل السيطرة على الدولة اللبنانية . وكان المارونيون يخسرون حتى أول يونية ١٩٧٦ ، حينما وجه حافظ الأسد ضربة عنيفة للعالم العربى بدخوله الحرب الى جانب المسيحيين .

وقطعت الدبابات وحاملات الجنود السورية وادى البقاع فى طريقها الى بيروت لتلبية نداءات المارونيين بالمساعدة ، وأضحى الحلفاء الطبيعيون للبعثيين السوريين ـ وهم اللبنانيون ، الذين يزعمون أنهم من أصل عربى ، والفلسطينيون ـ هدفا للقوة العسكرية السورية * . ومع ادراكه لمخاطر التدخل فى لبنان الممزقة ، انغمس الأسد مع ذلك فى دوامة العنف الطائفى لإنقاذ دفاعات سوريا الغربية من النتائج التى لا يمكن التكهن بها لإنتصار قد يحرزه التحالف العنيد الذى يجمع المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين . وقد وضع الأسد ، بقراره بغزو لبنان ، المصالح السورية الخاصة بوحدة أراضيها قبل متطلبات الوحدة العربية . ولكى يبرر موقفه أمام العرب ، زعم حافظ الأسد أنه لو ترك المارونيين لشأنهم فإنهم سيسعون لإقامة تحالف مع اسرائيل ، تكون بموجبه صهيونية مسيحية فى قلب الأراضى العربية . وأضاف إنه حينما ألقى الى المارونيين بطوق النجاة فانه كان يشجعهم على البقاء داخل الحظيرة العربية . وقد قبلت معظم الدول العربية ـ التى لم تكن مسئوليتها عن المذبحة التى شهدها لبنان تقل عن مسئولية الأسد ـ هذا الأساس المنطقى . بل إن الأسد حظى بموافقة العرب لفترة من الوقت . وباعترافها بأن الأسد هو العربى الوحيد الذى عمل باخلاص على منع انجراف لبنان الى الفوضى السياسية ، أضفت الدول العربية المجتمعة فى الرياض الشرعية على تواجد سوريا فى لبنان . ولكن بحلول عام ١٩٧٧ ، تراجع تسامح العرب وتغاضيهم عن سلوك الأسد المؤيد للمارونيين أمام الكراهية الشديدة للتواجد السورى فى لبنان . ومع وجود جيش من المشاة ، استطاع الأسد ممارسة نفوذه على الفلسطينيين وكذلك اللبنانيين المشاكسين ، كما استطاع تخويف الأردن وارهابه . وقد اثار ذلك بدوره المخاوف فى مصر والعراق والسعودية من أن تصبح دمشق شديدة القوة . وانتشرت الهمسات المحتومة فى أرجاء العواصم العربية ـ بأن حافظ الأسد يعمل على احياء سوريا الكبرى .

وقد نجح الوجود السورى لفترة اعادة بعض النظام الى لبنان . ففى أوائل خريف ١٩٧٧ ، استأجرت سائق سيارة أجرة سورى ذا شعر أحمر من دمشق ليقلنى الى بيروت . وعلى طول خط الحدود ، كان طريق دمشق ـ بيروت البرى الرئيسى يعج بالتحركات العسكرية ونقاط التفتيش ذات المتاريس . وعند كل نقطة نتوقف فيها ، كان السائق النحيل يأخذ جوازى سفرنا ، ويتوجه سيرا على الأقدام الى الأكواخ الخشبية حيث يقوم الجنود السوريون بفحص الأوراق ، ويعود بتصاريح المرور المطلوبة المختومة بالعديد من الأختام الملونة البراقة التى تحمل شعار سوريا .

---

* ساهم دعم الأسد لمسيحيى لبنان فى الاضطرابات الداخلية فى سوريا التى وصلت الى ذروتها فى الفترة بين ١٩٧٩ ، ١٩٨٢ . وفى الأيام الأولى لتدخل الأسد فى لبنان ، احتشد المتظاهرون فى دمشق وأخذوا يهتفون : يا أسد ، اننا نستطيع أن نهضمك كعلوى لكننا لن نهضمك كمارونى .

وصلنا الى ميدان الشهداء ، المنطقة المركزية فى بيروت ، لنتبين أنه قد تحول الى أرض يحتلها السوريون . فقد كانت الأسلحة الآلية تأخذ مواقعها خلف حوائط من أكياس الرمل المنتشرة فى جميع الأركان . وعند الطرف الشمالى من الميدان ، تحول أحد المبانى القديمة الجميلة الى مقر للجيش مزود بصورة عملاقة لحافظ الأسد . لقد كانت بيروت مختلفة تماما عن بيروت التى رأيتها من قبل .

ولعدة أيام سافرت أنا وسائقى عبر الطرق المؤدية الى صيدا وصور وعالية وزحلة ، حيث كنا نلتقى عادة بالجنود السوريين المتجهمين ، العدائيين أحيانا والعصبيين غالبا ، وهم يحاولون كبح جماح الثورة القاتلة التى يشنها اللبنانيون ضد اللبنانيين واللبنانيون ضد الفلسطينيين .

وقد أكد الوجود السورى فى لبنان ، الذى رحب به القليلون وقبله البعض على مضض ، وأدانه آخرون بشدة ، مركزية الدور السورى فى العالم العربى وبروز حافظ الأسد المطرد فى المجموعة العربية . ومهما كانت مشكلات الأسد الداخلية المتزايدة مع معارضيه السنيين ، فقد نجح تدخله فى لبنان فى تحويل سوريا من هدف تتلاعب به جاراتها الأقوى الى لاعب رئيسى قائم بذاته . وكم من لاعب برز عندما استعد أنور السادات للتوجه الى القدس .

وقد خاض حافظ الأسد معركته الأخيرة مع السادات فى دمشق فى ليلة السادس عشر من نوفمبر ١٩٧٧ . فبرغم تجربة ١٩٧٣ المريرة ، كان حافظ الأسد لا يزال يلتزم بمبدأ عبد الناصر بأن العرب يمكنهم الدفاع عن أنفسهم حينما يتحدوا . ومن ثم لم يستطع السادات التوجه الى القدس دون نزع الدعامات من الدفاعات العربية ضد اسرائيل . وطوال سبع ساعات عاصفة ، حاول السادات استمالة الأسد الى عرضه للسلام مع اسرائيل . ولكن الأسد ، رفض أن يتزحزح عن موقفه * . وفى الصباح ، كان كلاهما شديدى الغضب من بعضهما حتى أنهما لم يعقدا مؤتمرا صحفيا مشتركا وواجه السادات الصحافة بمفرده . وكانت تلك الليلة الطويلة المريرة هى ذروة التباعد المتزايد الذى استمر أربع سنوات بين محورى العالم العربى والذى بدأ مع حرب اكتوبر . وكانت تلك المرة الأخيرة التى يلتقى فيها السادات بالأسد .

وفى اليوم الذى طار فيه السادات الى القدس توقفت الحكومة وقطاع الأعمال عن العمل باعتبار أن ذلك اليوم يوم حداد قومى . بيد ان هذا الاجراء الرمزى لم يثن أنور السادات الذى واصل السير فى الطريق الذى قاده الى كامب ديفيد وعقد سلام منفرد فى النهاية مع اسرائيل . وقد حاربه الأسد فى كل خطوة كان يخطوها على هذا الطريق .

فبالنسبة للأسد ، كان خروج مصر النهائى من التحالف العربى يعرض سوريا للخطر . وبدون الكتلة الحاسمة التى يمثلها المصريون ، أصبحت الاردن وسوريا والفلسطينيون تتقاذفهم الرياح لمواجهة مطامع اسرائيل فى الأراضى التى كان حافظ الأسد يعتقد أنها تحرك الدولة اليهودية . وكان أى خروج آخر عن الصفوف العربية يمكن أن يكون بمثابة اعلان وفاة المشرق العربى . وشرع

---

* التايم ، ٧ أغسطس ١٩٧٨

الأسد، الذى كان يتمثل بصورة بسمارك، فى اعداد خريطة للشرق الأوسط تتفق واحتياجات سوريا الأمنية. وفى الخامس من ديسمبر ١٩٧٧، وبعد أسبوعين من حديث السادات أمام الكنيست، قام حافظ الأسد بجر سوريا وليبيا والجزائر وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ومنظمة التحرير الفلسطينية لتكوين «جبهة الصمود والتصدى». مع ارتباط أضعف أعضاء التجمع السياسى العربى كحلفاء، قام الأسد باستخدام دول المواجهة العربية فى عملية نضال تنطوى على مخاطرة كبيرة لمنع لبنان أو الاردن أو الفلسطينيين من الانضمام لأية مفاوضات مع اسرائيل قد تؤدى الى عقد اى اتفاق تستبعد منه سوريا. وكان الأسد يرى أن السلام - السلام الحقيقى - يتطلب مراجعة كل علاقة القوة بين اسرائيل والدول العربية. وكان الأسد يسعى وراء تحقيق التكافؤ المتمثل فى عجز اى من سوريا أو اسرائيل عن انتهاك حدود ما قبل ١٩٦٧، الخاصة بالأخرى.

ومع وضوح أهدافه أمام ناظريه وبتشجيع من فيض الأسلحة السوفيتية، شرع حافظ الأسد فى العمل على اخضاع اللبنانيين والاردنيين والفلسطينيين. وفى خطته الكبرى، التى أحيت صور الأمويين التى كانت قائمة منذ ألف ومائتى سنة، عمل الأسد على خلق جبهة قوية فى المشرق العربى تكون دمشق مركزا لها. بيد أنه مع عجزه عن التحكم فى تصرفات القاهرة، فانه لم يستطع أيضا السيطرة على النقطة الأخرى من المثلث العربى - بغداد.

وقد دفع الهلع الناجم عن إتفاقات كامب ديفيد كلا من سوريا والعراق فى البداية إلى تكوين تحالف تحدى التنافس إلا قليمى والخلاف الحزبى والعداء الشخصى المستحكم بين حافظ الأسد وصدام حسين•. ولم تفت الأسد روح السخرية. فقبل توقيع «ميثاق العمل القومى» العراقى - السورى فى السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ تحول الأسد إلى صدام حسين قائلا فى سخرية، «أخى صدام، أليس ذلك كما لو كنا ولدنا من جديد»؟••. ولكن تبين أن التحالف كان مجرد مولود ميت ناقص النمو. فحينما قام العراق بغزو إيران فى سبتمبر ١٩٨٠، شجب الأسد حرب صدام ضد إيران ووصفها بأنها حرب خاطئة ضد عدو غير حقيقى فى الوقت غير المناسب. غير أن إهتمامه الحقيقى كان إحتمال أن يتمكن صدام حسين البغيض من إلحاق هزيمة فعلية بإيران، مما يعطى العراق قوة هائلة بالنسبة لسوريا. ونظرا لخوفه الشديد من أن إنتصار العراق السريع على إيران سيجعل سوريا محصورة بين إسرائيل المتصلبة والعراق الناهضة، إختلف الأسد مع العرب ليقدم الدعم والتأييد للفارسيين، منافسى العرب الدينيين والعرقيين منذ قرون عديدة.

وأخذت الشحنات الضخمة من السلاح تطير فوق سوريا فى طريقها إلى إيران، وسمح حافظ الأسد لسوريا بأن تكون جسرا بين منبع الشيعية المتشددة فى إيران وطائفة الشيعة الثائرة فى جنوب لبنان•. وصب العرب جام غضبهم على حافظ الأسد. فمن الناحية الأيديولوجية، تحدت الدول

• أنظر الفصل الحادى عشر.

•• مجلة الأيكونوميست، ٤ نوفمبر ١٩٧٨.

• كان من بين الأسباب التى دفعت الأسد إلى التحالف مع إيران هو إثناء طهران عن تصدير ثورتها إلى سوريا. وفى منتصف ١٩٨٥، صرح وزير الدفاع السورى مصطفى طلاس فى صلف «... ت لنا مصلحة فى خلق أعداء من اربعين مليون فارسى». نقلا عن كيسلر، سوريا، ص ٨٨.

العربية الأخرى إلتزامه بالقومية العربية. ومن الناحية الإقتصادية، تقلصت المساعدات المالية التى تحتاجها سوريا كثيراً من دول الخليج نتيجة السخط العربى. وقد إمتص الأسد الضربات لعزمه على التفوق على القوة العراقية.

ومع إحتواء العراق بتحالفه مع إيران، تحول حافظ الأسد إلى العاهل الأردنى الملك حسين. وكان الصراع الأساسى بين حافظ الأسد والملك حسين ينطوى على أكبر شهوات الأمم - وهى القوة. وكان الأسد يعمل جاهدا على مد النفوذ السورى على كل المشرق العربى، وكان حسين عازما بنفس القدر على البقاء كلاعب فاعل مستقل.

وقاطع الأسد قمة عمان التى دعا حسين إلى عقدها فى نوفمبر ١٩٨٠ كى يحصل على تأييد العرب لمفاوضاته المقترحة مع إسرائيل بهدف توسيع نطاق الإدارة الأردنية فى الضفة الغربية. ولكى يؤكد داخليا أن سوريا لن تسمح بإتمام مثل هذا الإتفاق، قام الأسد بوضع قوات على حدود الأردن. ولم تنفرج الأزمة إلا بعد أن وافق الأسد، الذى رأى أنه بالغ فى رد فعله، على الإنسحاب «بشجاعة نظرا للأوضاع الراهنة فى الوطن العربى»*. وفى عام ١٩٨١، عمل الأسد على نسف خطة المملكة العربية السعودية التى تقدم بها الملك فهد كمقترحات تجريبية لإسرائيل حول مسألة الإعتراف العربى. ومع كل خطوة على الجبهة الدبلوماسية، كان حافظ الأسد يثبت أنه يتمتع بقدر كبير من القوة يمكنه من الإعتراض على أية مبادرة سلمية فى الشرق الأوسط لا يوافق عليها. ولكن الأسد كان يسير وحيدا في طريق محفوف بالمخاطر يحيط بها الأعداء العرب من كل جانب.

فقد اثار الأسد غضب مصر وسخطها بهجومه اللاذع على معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية. وإنحاز إلى إيران ضد العراق، مما دفع صدام حسين إلى ارسال أعداء الأسد داخل سوريا بشاحنات محملة بالأسلحة عن طريق الصحراء الشرقية، وأدى تحركه العسكرى فى مواجهة حدود الأردن إلى وضعه فى موقف حرج مع حسين لا سبيل إلى التسامح فيه. وأدت مشاعر بين كثير من العرب تجاهه بالكيان السياسى - العسكرى الفلسطينى فى لبنان إلى تجاهل محاولات الأسد للسيطرة عليه. وفى أبريل ١٩٨٢، واجه الأسد أقوى خصومه حينما قامت إسرائيل بغزو لبنان الذى يتمتع بالحماية السورية.

وحينما بدأ الهجوم المكثف على جنوب لبنان، أدرك الأسد شيئين - إن قتال إسرائيل كان مع منظمة التحرير الفلسطينية، وليس سوريا، وأن سوريا لا تستطيع مقاومة الغزو الإسرائيلى وتنتصر فيه. ومن ثم حينما إندفعت القوات والدبابات الإسرائيلية صوب الشمال تجاه بيروت، جمعت سوريا ترسانتها السوفيتية وقواتها الجوية المعرضة للضرب. وإنسحبت صوب الشرق داخل سهل البقاع بعيدا عن خطوط القتال. ومع عدم وجود قوة عسكرية منظمة تقف فى طريقها، طوقت الكماشة الإسرائيلية بيروت، وحاصرت ياسر عرفات وفدائييه. وطوال سبعين يوما، سيطرت

---

* عرب نيوز، ١٦ ديسمبر، ١٩٨٠.

القوات الجوية الإسرائيلية على المدينة العاجزة . ولم يفعل حافظ الأسد شيئا سوى إرسال رسالة إلى منظمة التحرير الفلسطينية المحاصرة :

« أحبائى ، إننى أعيش معكم ليل نهار . . إن عروبة بيروت أمانة فى أيديكم . . وإننى أطالبكم بأن تظلوا صامدين : الشهادة أو النصر »* .

وأخذت بقية دول العالم العربى ، العاجزة تماما مثل سوريا عن وقف الهجوم الإسرائيلى ، تصب جام غضبها على الأسد . وألقى ياسر عرفات بالتهمة الجارحة بأن الأسد قد أنقذ المارونيين ولكنه لم ينقذ الفلسطينيين . وإتهم صدام حسين الأسد بأنه مشترك فى تواطؤ خائن وغير محدد مع إسرائيل . كما إتهمه الملك حسين « بتصفية القضية الفلسطينية » . ولم يلزم الصمت سوى حلفاؤه الإيرانيون الجدد .

وفى أواخر صيف ١٩٨٢ ، وصل نصيب حافظ الأسد من الحظ أدنى درجاته . ففى الداخل ، كان يواجه الآثار المترتبة على أعماله الوحشية فى حماة . وعلى الصعيد الإقليمى ، كان يواجه الوجود الإسرائيلى فى لبنان . وإدراكا منه أن الخوف من الخسائر فى الأرواح كان الشق الوحيد فى درع إسرائيل ، شرع الأسد فى إستغلال هذا الخوف . ففى نهاية شهر سبتمبر بدأ القناصة والسيارات المفخخة والقنابل اليدوية التى تقذف من العربات المارقة فى شن حرب إرهابية ضد الوجود الإسرائيلى فى لبنان . وفى الحادى عشر من نوفمبر ١٩٨٢ ، بلغت هذه الحرب ذروتها حينما ألقيت إحدى القنابل داخل مقر هيئة الأركان فى صور مما أسفر عن مقتل سبعة وستين إسرائيليا .

ووجد حافظ الأسد سبيلا لاستئناف القتال ، ليس فقط ضد إسرائيل بل ضد أعدائه العرب أيضا . وأصبح الرعب هو الأداة التى يستخدمها الأسد فى خلق مجال نفوذه الذى يشتهيه فى المشرق . وداخل هذا المجال سيصبح لبنان محمية من محمياته ، والفلسطينيون ولاته التابعون والأردن تابع له . وسيكونون معا بمثابة الدائرة السياسية - العسكرية التى تطوق إسرائيل والتى يرى حافظ الأسد أنها ضرورية من أجل الدفاع عن سوريا .

وكان إتفاق السابع عشر من مايو ١٩٨٣ الإسرائيلى - اللبنانى هو الهدف الأول الذى حدده الأسد . وقد كان هذا الإتفاق ، الذى توسطت فيه الولايات المتحدة ، بمثابة معاهدة بين إسرائيل وحكومة لبنان تمثل كارثة بالنسبة لحافظ الأسد . وألقى بكل ما فى جعبته من مكر ودهاء وبذل كل ما فى وسعه من طاقة ، ولجأ إلى كل الوسائل ، فى المعركة لمنع اللبنانيين من التوصل إلى تسوية مع إسرائيل . وإنتشرت فرق تفجير القنابل ، وتوجهت المنظمات الشيعية الموالية لإيران للعمل لسوريا . وبحماسهم وتطرفهم ، كانوا يختارون أهدافهم بأنفسهم ويتبعون نظامهم الخاص بهم .

* نقلا عن سيل ، الأسد ، ص ٣٩٠ .

وقد أدى إغتيال الرئيس اللبنانى المنتخب بشير الجميل فى ، الرابع عشر من سبتمبر ١٩٨٢ ، والذى إشتبه البعض فى قيام سوريا بتنفيذه ، إلى تعويق المعاهدة اللبنانية مع إسرائيل . ولكن القوات الأمريكية كانت لا تزال فى لبنان لتعمل ، فى رأى الأسد ، كوكيل لإسرائيل . وكان ذلك سببا كافيا لإضافة الولايات المتحدة إلى طلقة أعداء الأسد . وفى غضون ستة أشهر ، دمرت القنابل الإرهابية السفارة الأمريكية فى بيروت وقتلت مائتين وواحدا وأربعين فردا من مشاة البحرية فى إنهيار الثكنات العسكرية بالقرب من مطار بيروت . وربما لم تكن سوريا متورطة فى هذا الحادث ، لكنها كانت تؤيد الأصوليين الإسلاميين الذين قاموا بذلك ، وإستفاد حافظ الأسد مما فعلوه . ومع تصور أنه يقف وظهره إلى الحائط ، كان حافظ الأسد يقاوم بكل ما يملك من وسائل .

وقد قامت الولايات المتحدة بسحب قواتها من لبنان فى فبراير ١٩٨٤ . وفى الخامس من مارس ، ألغت الحكومة اللبنانية إتفاقها مع إسرائيل . وعلى عكس كل التوقعات ، أحبط حافظ الأسد محاولة إسرائيل فرض هيمنتها على لبنان . وأصبح فى إستطاعته السيطرة على المشرق العربى . بيد أن الجهود المبذولة للدفاع عن المشرق العربى فى مواجهة إسرائيل كانت تعنى أيضا تجاهل المصالح الخاصة للفلسطينيين والأردنيين ، الذين كانوا يناضلون لتقرير مصيرهم متحررين مما تمليه عليهم دمشق من أوامر .

وكان من بين خطط الأسد ، ضرورة أن يصبح الفلسطينيون تحت السيطرة السورية ، لأن المشكلة الفلسطينية كانت تمثل أكثر من مجرد أرض متنازع عليها أو تقرير مصير الشعب الفلسطينى ، فبالنسبة للأسد ، كان الشكل الذى ستسوى على أساسه القضية الفلسطينية فى النهاية هو الذى سيحدد الحكم الذى سيعيش المشرق فى ظله - هل هو الحكم السورى أم الإسرائيلى . ومن ثم كان عليه منع أى إتفاق قد يتم بين الفلسطينيين والأردن وإسرائيل لا تكون سوريا طرفا فيه بشروط مقبولة له .

وقد دقت أجراس الخطر فى دمشق فى أواخر ١٩٨٢ حينما بدا أن ياسر عرفات على وشك منح الملك حسين تفويضا بالتفاوض نيابة عن الفلسطينيين فى إطار خطة ريجان . وقام الأسد بهجوم مفاجىء لخلع عرفات والقضاء على جناحه فى منظمة التحرير الفلسطينية . وبوصوله إلى مواطن التنافس المزمن داخل المنظمة ، قام الأسد بتسليح وتمويل حركة تمرد داخل المنظمة ضد قيادة ياسر عرفات* . وفى ديسمبر ١٩٨٣ ، قام المتمردون بطرد عرفات من لبنان للمرة الثانية ، مما عرض قيادته للمنظمة للخطر على نحو غير مسبوق . وفى العاشر من أبريل ١٩٨٤ ، تراجع عرفات ، إثر تعرضه للموت السياسى ، عن صفقته مع حسين .

وفى عام ١٩٨٣ ، حينما كانت الدلائل تشير إلى أن حسين قد ينجح فى تشكيل وفد فلسطينى - أردنى للتفاوض مع إسرائيل ، قام الأسد بشن هجوم شامل ضد الملك حسين . وتحت شعار « الحركة الوطنية الأردنية » ، قام الأسد بدعم أعداء حسين داخل الأردن . ولكن القوة

* أنظر الفصل الثانى عشر .

الحقيقية فى الحرب ضد حسين كانت تتمثل فى حملة إرهاب على مستوى العالم . ففى أكتوبر ١٩٨٣ ، أصابت نيران الأسلحة الآلية سفيرى الأردن لدى كل من الهند وإيطاليا . وفى شهر نوفمبر ، أطلقت النيران على مسئولين أردنيين فى آثينا ، بينما قام خبراء المفرقعات بإبطال مفعول ثلاث قنابل . وفى شهر ديسمبر ، سقط مسئول قنصلى أردنى فى مدريد برصاص احد القتلة . ومع ذلك واصل حسين مسيرته .

وفى منتصف عام ١٩٨٤ ، كانت وحدة العالم العربى تقف على شفا الكارثة . وقد عكست رسالة الملك فهد التى وجهها فى شهر رمضان مدى الكرب : « ربما كان العالم الاسلامى اليوم فى مسيس الحاجة الى الالتزام بروح الصوم الحقيقية أكثر من أى وقت مضى »● وكان نداء فهد ضربة مفاجئة للأسد العنيد . وفى شهر نوفمبر التالى ، نجا القائم بالاعمال الأردنى فى أثينا من الموت بأعجوبة حينما تعطل مسدس الشخص الذى هاجمه عن العمل . وفى شهر ديسمبر لقى القنصل الأردنى فى بوخارست مصرعه برصاصة أصابت هدفها . وفى شهر ابريل ١٩٨٥ ، وفى اعقاب محاولة أخرى بذلها حسين لبدء مفاوضات أردنية ـ فلسطينية مشتركة مع اسرائيل ، انطلقت النيران بعنف على السفارة الأردنية فى روما وعلى احدى الطائرات الأردنية فى مطار أثينا ، وفى شهر يوليو ، قام رجال مسلحون باطلاق نيران اسلحتهم على مكتب شركة عالية بمدريد ، وهى شركة الخطوط الجوية الوطنية الأردنية ، وقتلوا السكرتير الأول فى السفارة الأردنية فى أنقرة● .

وبحلول خريف ١٩٨٥ ، كان حسين قد نال ما يكفيه . وحينما خسر حزب العمل ، شريك حسين المحتمل فى عملية التفاوض ، الانتخابات الاسرائيلية ، تخلى حسين عن معاركه القاتلة مع الأسد . ونتيجة لذلك ، أعلن الأردن رسميا فى العاشر من نوفمبر رفضه أية صفقات جزئية أو منفصلة مع اسرائيل . وفى شهر فبراير ١٩٨٦ ، حينما أوقف حسين فجأة فى نهاية الأمر مفاوضاته مع منظمة التحرير الفلسطينية ، سلم بالهزيمة أمام الرئيس السورى .

فى سعيه من أجل تحقيق رؤيته الخاصة بالمشرق العربى ، قام حافظ الأسد مرارا وتكرارا فى الفترة بين ١٩٨٢ و ١٩٨٧ بعبور الخط الدقيق الفاصل بين العنف والدفاع عن المصالح الوطنية ولم يكن هو الوحيد الذى يفعل ذلك . فقد شهدت فترة منتصف الثمانينيات إنغماس العالم العربى فى أعماق جديدة من العنف الذى نجم عن لتأثيرات المتراكمة والمتداخلة للحرب الأهلية اللبنانية ، والثورة الايرانية ، والحرب العراقية ـ الايرانية ، وغزو اسرائيل للبنان . واستنفدت الفوضى طاقات العالم العربى حيث كانت وكالات الاستخبارات المتنافسة والميليشيات المتقاتلة والجماعات الارهابية ، تقاتل بعضها البعض من أجل السيادة والتفوق . ووقف حافظ الأسد كشخصية مركزية فى هذه الفوضى .

● عرب نيوز ، ١ يونيو ، ١٩٨٤ .

● لم تفلت سوريا من الانتقام . فقد تم مهاجمة المنشآت والأفراد السوريين فى أثينا وروما وجنيف والرباط ولندن ، ودمشق فى النهاية ، حيث انفجرت سيارة مفخخة فى يوليو ١٩٨٥ خارج مكاتب وكالة الأنباء العربية السورية وزارة الداخلية ، مما أسفر عن مقتل عشرات الأشخاص . ولم تتحدد حتى الآن هوية المسئولين عن كل هجوم ـ هل هم أعداء الأسد من العرب أم المعارضة السورية أم اسرائيل .

وبعد أن نجح فى تحقيق أهدافه السلبية الخاصة بمنع أية تسوية بين اسرائيل وجيرانها العرب ، بدأ حافظ الأسد فى شغل سوريا فى عملية تحقيق الاستقرار فى المشرق العربى والعودة بسوريا الى وضع الاحترام الدولى . وكانت أولى خطواته فى تلك هى طرد أبو نضال من سوريا .

وبحلول عام ١٩٨٨ ، كان الأسد يشعر بمزيد من الراحة بالمقارنة بما كان عليه حاله منذ ١٩٧٨ ، حينما بدأ التمرد الذى تزعمه الأخوان المسلمون . فبعد أحداث حماة ، أصبحت صراعات سوريا الداخلية تحت السيطرة . وبدا لبنان آمنا على نحو معقول . وواصل صدام حسين ترنحه وغوصه فى رمال حربه مع ايران . وفى اغسطس ١٩٨٨ ، وضعت هذه الحرب أوزارها . واتجهت ايران الى الداخل بينما تحول العراق الى الغرب ، صوب سوريا . فبعد أن تحرر صدام حسين من المعركة ، شرع فى تصفية الحسابات مع أولئك الذين كانوا يعارضونه . ونتيجة لذلك ، بدأ تدفق الأسلحة العراقية على آخر أعداء الهيمنة السورية على لبنان ـ وهم المسيحيون المارونيون بزعامة ميشيل عون . وفى الوقت نفسه ، أدت التجارة والأموال العراقية الى اقامة تحالف مع العاهل الأردنى ، الملك حسين ، وكانت تلك هى مشكلات الأسد فى الساحة العربية . وفيما وراء تلك الساحة ، بدأ الأسد يفقد مورده من الأسلحة مع تفكك الامبراطورية السوفيتية وانتهاء الطموحات التوسعية السوفيتية . وبدأت سوريا فى الاحساس مرة أخرى بأنها معرضة للخطر .

ولم يعد أمن سوريا يوجد فى « جبهة الصمود والتحدى » . كما لم يعد الأسد يستطيع مواصلة العيش فى البرية العربية المقفرة . ومن خلال الدوران حول أولئك الذين اغضبهم وأثار حنقهم ، شرع الأسد فى اصلاح علاقاته مع مصر وأرسل اشارات الى الولايات المتحدة لجس النبض . وفى الثانى من اغسطس ١٩٩٠ ، سلم صدام حسين للأسد تذكرته التى عاد بها الى القافلة العربية حينما قام العراق بغزو الكويت . وعندما توجه الى القاهرة لحضور الاجتماع الطارىء لجامعة الدول العربية ، دفع حافظ الأسد بسوريا الى التحالف المعارض لخصمه اللدود القديم صدام حسين . « فسوريا حافظ الأسد ، التى جعلت من نفسها قلعة العروبة ، وحامية « الراديكاليين » الفلسطينيين ، والسوط المسلط على مصر وكامب ديفيد . . . والحصن الواقى من الهيمنة الأمريكية على المنطقة » انحازت الى أكثر النظم العربية محافظة ومع الولايات المتحدة لشن حرب ضد دولة عربية شقيقة● . وفجأة أصبح الأسد المعادى يقف فى نفس التحالف مع مصر والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة .

وقد قدم الأسد تفسيرا استعرض فيه أسباب هذا التحول السياسى . ففى خطاب ألقاه فى الثانى عشر من ديسمبر ١٩٩٠ ، اعترف بوجود من « يتعجبون من كيفية وجود قوات عربية فوق الأراضى السعودية برغم وجود القوات الأجنبية (قوات الولايات المتحدة) هناك »● . واخذ تفسيره لذلك مباشرة من معجم الوحدة العربية . فسوريا لا تعتزم قتال الشقيق الآخر المعتدى ، وانما منعه من الاعتداء ـ ومن ثم تعمل على مساعدته●● .

● ديفيد هيرست « العالم العربى ينقلب رأسا على عقب » ، الجارديان ويكلى ، ١٩ اغسطس ، ١٩٩٠ .

● نيويورك تايمز ، ١١ أكتوبر ، ١٩٩٠ .

●● المرجع السابق .

وباعتباره القوة العربية المسيطرة فى المشرق ، أصاب حافظ الأسد فى يوليو ١٩٩١ أشقاءه العرب بالدهشة مرة أخرى . فبعد أن مزق الوحدة العربية لكى يمنع جيرانه من التفاوض مع اسرائيل ، أعلن حافظ الأسد عن عزمه على الجلوس مع اسرائيل فى مؤتمر للسلام فى الشرق الأوسط تحت الرعاية الأمريكية ـ السوفيتية .

وكان يبدو من الظاهر أن حافظ الأسد قد غير فجأة نظرته كلها للمصالح السورية . ولكن أهداف الأسد كانت لاتزال هى نفس الأهداف التى كان يسعى وراءها حينما تولى السلطة فى ١٩٧٠ ـ وهى وقف التوسع الاسرائيلى ، واسترداد الجولان السليبة ، وأن يضمن لسوريا صوتا مسموعا ومهيمنا فى شئون الشرق الأوسط . كذلك لم تتغير حتى وسائله التقليدية تغيرا جذريا . وكانت لعبة الأسد المرسومة تدور دائما حول أهداف ثابتة يسعى وراء تحقيقها بعزم وتصميم محسوب . وحينما بدأ العالم يشهد تحولا شاملا فى عام ١٩٨٨ ، قام الأسد ببساطة باجراء تعديلاته بما يتفق والحقائق الجديدة .

وفى عشية اعلان سوريا عن عزمها على التفاوض مع اسرائيل حول مسألة الجولان على الأقل ، امتلأت صحف العالم بصورة حافظ الأسد . وبرغم التقاط تلك الصور فى أوقات مختلفة ، وفى أوضاع مختلفة ، فانها جميعها كانت متشابهة بدرجة ملحوظة ، لأن حافظ الأسد يتخذ وضعا عاما واحدا . فبحلة العمل التقليدية ، وشعره الخفيف المفروق جانبا على جبينه العريض ، وابتسامته الغامضة المرسومة على وجهه ، يجلس الى هذا أو ذاك من أصحاب المقام الرفيع من الأجانب . وفى سعيه لجعل سوريا مركز المشرق العربى ، فان الأسد لا يتعلق بأية أوهام حول قداسة الوحدة العربية . كما لا يتردد فى عزل سوريا عن سائر الدول العربية لفترات طويلة من الزمن اذا كان ذلك من شأنه ان يدعم أهدافه النهائية . ولأنه غالبا ما يتدخل فى شئون جيرانه العرب ويفرض عليهم خططه باصرار شديد ، فان الأسد قد جعل من سوريا قوة داخل الأمة العربية التى يتجاهلها كثيرا . وتقوم راية العروبة التى يرفعها عاليا احيانا بنفس الوظيفة التى كانت تقوم بها بالنسبة لعبد الناصر ـ وهى السعى وراء مصالح بلاده الخاصة . وترتبط هذه المصالح ارتباطا مباشرا وقويا باحساس سوريا ونظرتها لنفسها . فانطلاقا من معاناتها مما ورثته من ميراث تاريخى ، واحساسها الدائم بالخطر ، أصبحت سوريا دولة متشككة تميل الى اتخاذ وضع الدفاع وتستحوذ عليها فكرة اعادة تحديد حدودها . ويظل استرداد الجولان بمثابة القضية الوحيدة التى يجتمع عليها رأى حافظ الأسد وجميع السوريين ويتحدون حولها ، والمسألة التى تمنح الأسد الشرعية داخل بلاده التى يحكم سيطرته عليها . وقضيتا أمن سوريا ومستقبل الجولان هما اللتان ستحددان اتجاهات الأسد وقراراته فيما يتعلق بكل من اسرائيل ومكانة سوريا فى العالم العربى . غير أن اغراء استرداد الأراضى لا يمكن أن يكون مهربا من حقائق الكيان السياسى السورى .

ولا توجد فى دولة الأسد مؤسسات تسعى لرأب التصدعات الكبيرة التى تفصل بين السنيين والعلويين والقرية والمدينة والدين والعلمانية . وحتى حزب البعث . من ناحية وظيفته الايديولوجية ، صار على وشك الانتهاء . فعلى مر السنين ، تقلصت قاعدة الأسد السياسية باطراد من حزب البعث السورى بوجه عام ، الى الجناح العسكرى للحزب ، ثم الى الضباط داخل الجناح

الذى ينتمى الى طائفة الاقلية العلوية ، والآن الى أعضاء عشيرته داخل الجماعة العلوية . ولم ينجح حافظ الأسد والبعث على الاطلاق فى ان يجعلا الايديولوجية تحل محل الروابط التقليدية الاجتماعية والطائفية والاقليمية بل وحتى القبلية فى سوريا . وبشكل ما يعد حافظ الأسد حزبه ضحايا لهذه القوى مثل الشعب السورى نفسه . فبعد أن تخلى عن نزعته الأولى فيما يتعلق بالعروبة الشاملة ، أصبح البعث السورى بمثابة آلية يفرض الأسد من خلالها ارادته على سوريا .

وعلى الصعيد الخارجى . حقق الأسد لسوريا دورا مركزيا فى الشئون العربية . وعلى الصعيد الداخلى ، سعى لتشكيل دولة .

الفصل الحادى عشر

صدام حسين : حاكم بغداد !!

يجرى النهران العظيمان ، دجلة والفرات ، عبر مجريهما المنفصلين مخترقين الأراضى المنبسطة فى وسط العراق ، ويقتربان من بعضهما البعض عند بغداد ، ثم ينفصلان مرة أخرى ، وفى النهاية يتصلان معاً عند شط العرب حيث يصبان فى الخليج ، وعلى ضفتيهما توجد آثار الماضى العراقى ـ الأطلال التى كانت ذات يوم نينوى ، وبقايا قصر المدائن الساسانى ، وبابل الأسطورية ، وأخيرا الهيكل الهرمى المتهدم فى أور الذى خلفه الكلدانيون . وقد تعرض كل منها لتأثيرات الغزاة فى فترات كثيرة من الشرق ومن الغرب على حد سواء .

ويعنى القيام بجولة فى الجبال الواقعة شمال العراق إلى الأهوار الواقعة فى الجنوب ، أن ترى وتسمع وتشعر بالجاذبية الشديدة لأراضى وثقافات تتجاوز حدود العالم العربى ، فقباب المساجد هنا أقل إرتفاعاً وأقل فخامة وتعكس فن العمارة الكلاسيكية الإيرانية أكثر مما تعكس فن العمارة المصرية . واللغة العربية المقدسة مختلفة إلى حد ما حيث تختلط بها كلمات تركية وفارسية . وحتى الإسلام يتسم بالتنوع والإختلاف ، بما يعكس شعبا يضم الشيعة والسنة . ويبدو الأمر كما لو أن العراق يجاهد كى يبقى داخل محيط العالم العربى السنى ، وفى البصرة ، بالقرب من النقطة التى يلتقى عندها نهرا دجلة والفرات ، يتجسد هذا الأمر بشكل مادى فى أهم أثر ذى دلالة فى العراق الحديث ، فخارج الكورنيش وأمام شط العرب توجد تماثيل لثمانين ضابطا عراقيا قتلوا فى الحرب العراقية ـ الإيرانية يشيرون بأصابعهم البرونزية بتحد ناحية الشرق . والمغزى هنا عميق . فالوقوف أعلى شط العرب يعنى الوقوف عند البوابة الشرقية للعالم العربى .

وتلامس الصحراء الغربية الخالية فى العراق ، الأراضى العربية فى كل من سوريا والأردن والسعودية ـ ولكن المنطقة الشرقية من العراق المكتظة بالسكان ، والتى يغذيها نهرا دجلة والفرات ، تقع فى مواجهة بلدين كبيرين غير عربيين ـ هما إيران وتركيا . وعشرون فى المائة فقط من سكان العراق من السنة الذين يمثلون مركز الثقل فى العالم العربى . ومعظم الباقين ينتمون إلى طائفة الشيعة من المسلمين المنشقين أو الأكراد ذوى الأصول الهندية ـ الأوربية . وبإعتبار أن ستين فى المائة من سكان العراق من المسلمين غير السنة ، كما أن الأقلية غير العربية تتساوى فى العدد مع السنة ، فإن العراق يمثل هوية عربية وغير عربية فى ذات الوقت ، وبالرغم من وجوده داخل

نطاق العالم العربي ، فإن جذور العراق ليست وطيدة داخل المنبت العربي الذى يشكل المسلمون التقليديون من السنة غالبيته . ولأن العراق قد تشكل بفعل قوة إمبريالية فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، فإنه محكوم بإستمرار بقوى مركزية ذات قبضة قوية داخل شعب لا يتمتع بهوية مشتركة أو مفاهيم متبادلة ، ومن ثم فإن الإدارة الحديدية والقبضة القوية لرجل مثل صدام حسين هى التى ظلت تحول دون تشرذم هذا البلد .

ويثير العراق إحساساً بالزمن الذى يحرك وعياً عميقاً بالتاريخ البشرى ، فقبل أن يكون هناك عراق ، كان هناك غموض وعظمة أرض الرافدين القديمة . وقبل العصر المسيحى بستة آلاف سنة ، ضرب الإنسان بفأسه فى التربة الغنية التى يغذيها نهرا دجلة والفرات ، وقد قدم النهران العظيمان هديتهما المتمثلة فى الخصوبة ، ولكنهما قدما معها كذلك عنفهما المروع ، ففى كل عام من شهر مارس إلى شهر مايو ، كانا يأتيان معهما بالفيضانات الهادرة التى تغمر السهول وتدمر كل شىء فى طريقها . وقد تعلم الإنسان أنه لكى يعيش على أرضه الخصبة ، فإن عليه أن يسيطر على المياه الهادرة فى فترة الفيضان وأن يروى الأرض العطشى فى موسم الجفاف . وكان كلا الأمرين يحتاجان إلى إدارة جماعية ، وهكذا ولدت الحضارة السومرية . وبحلول عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، كان السومريون قد أقاموا أول حضارة مدنية فى العالم . وإخترعوا العجلات ، وصنعوا البرونز ، وخلقوا فناً عظيماً ورائعاً ، وإستحدثوا شكلا للكتابة هى الكتابة المسمارية ، وقد تركزت الحضارة السومرية أولا فى أور على نهر الفرات على بعد مائتى ميل إلى الجنوب من مدينة بغداد الحالية ، وبحلول عام ١٨٠٠ قبل الميلاد ، ساد الأكاديون منافسى السومريين ، وإستوطنوا الشمال فى بابل الأسطورية* .

وقد نقش الملك حمورابى العظيم (١٧٩٢ - ١٧٥٠ قبل الميلاد) ، الذى قاد المجتمع بعيدا عن قيود القرابة والنسب ، قانونه على عمود حجرى أسود ، نصب فى جميع أنحاء مملكته . وبعد إثنى عشر قرنا من الزمان كان نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢ قبل الميلاد) على رأس دولة بابل فى أوج قوتها وعظمتها .

وقد كانت بابل هى أعجوبة أرض الرافدين القديمة ، وقد وصف هيرودوت الصفين المزدوجين من الحوائط الدفاعية ، التى كانت تتسع كل منها لعربة تجرها أربعة جياد سريعة . وخلف الحوائط كان هناك طريق عريض يقطع وسط المدينة حيث توجد المعابد والحوانيت والمنازل . وبين كل ذلك كان يبرز قصر نبوخذ نصر العظيم إلى الجنوب . وكانت صفوف بعد صفوف من الزهور تلف الحوائط العالية مشكلة فى النهاية حدائق بابل المعلقة الأسطورية .

وفى عام ٥٣٩ قبل الميلاد ، سقطت بابل المجيدة فى يد قورش العظيم وأصبحت أرض الرافدين التى ظلت لألفى عام معقل المتحدثين باللغة السامية ، تحت حكم فارس . وبعد

* دامت بابل ١٣٠٠ سنة ، أولا تحت حكم الأكديين ، وبعد ذلك تحت حكم الساميين .

احد عشر قرنا سادت هذه الثقافة مرة أخرى تحت حكم الساسانيين عندما جاءت الجيوش العربية الإسلامية من جهة الغرب معلنة تحول أرض الرافدين إلى الإسلام عام ٦٣٧ ميلادية .

وبالنسبة لرجال مكة والمدينة كانت أرض الرافدين هى المركز الأمامى للإمبراطورية الإسلامية الأولى . وحتى بمقاييس الشرق الأوسط ، فإن المناخ مروع . فالشتاء قارس البرودة . وفى الصيف ترتفع درجة الحرارة إلى حوالى ٤٥ درجة مخلفة « لوناً ضارباً للصفرة على المرتفعات والسهول . . . (مسببة) نوعا من الجنون »* . غير أن مدن أرض الرافدين إتسعت فى الحجم عندما أصبح العرب القادمون من شبه الجزيرة العربية ملاكا للأرض وإنتقل المهاجرون من غير العرب لفلاحة التربة ، وبحلول القرن التاسع الميلادى ، كانت بغداد ، التى إقتربت فى الحجم من القسطنطينية ، هى عاصمة الإسلام . وبالتطلع شرقا إلى فارس وغربا إلى مكة ، وصل الخلفاء العباسيون بالثقافة الإسلامية إلى أوج عظمتها . وبحلول القرن العاشر بدأ العباسيون وعاصمتهم فى التدهور . وفى القرن الثالث عشر لحق بهم الدمار .

وفى عام ١٢٥٨ ، إجتاح بغداد المغول القادمون بخيولهم القوية من سهول آسيا بقيادة زعيمهم الهمجى هولاكو . وكتب الرجال القادمون من السهول الشمالية نهاية الخلافة العباسية قبل قتل كبار علماء وشعراء وأئمة الإسلام وجعل جماجمهم هرما من البشاعة . وعلى مدى أكثر من أسبوع راح المغول يعملون سيوفهم فى عامة الناس حتى إمتلأت الشوارع بجثث مائة ألف شخص وفاض نهر دجلة بالدماء . ومثل أسراب الجراد ، إنقض المغول على كنوز بغداد الفخمة ودمروا آثار الحضارة العباسية . ودون تقدير أو معرفة بكيفية إدارة نظام الرى الذى كان يتميز بالدقة الشديدة ، دمر المغول الأرض مع كافة الأشياء الأخرى .

وعلى الرغم من أن جيوش هولاكو شقت طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط ، فإن أرض الرافدين وحدها هى التى دمجت ، بالقهر وسفك الدماء ، فى الإمبراطورية المغولية . وعلى مدى ثلاثمائة عام ، ظلت منقطعة عن العالم العربى ، وعلى مدى الثلاثمائة عام التى تلت ذلك ، ظلت تعانى كإقليم فقير ومتدهور من أقاليم الإمبراطورية العثمانية . وكمنطقة عازلة ، إستوعب أطماع الأتراك فى الغرب والفرس فى الشرق . وفى العقد الذى سبق الحرب العالمية الأولى فقط ، جذبت أرض الرافدين أنظار الغرب الإمبريالى الطامع .

وقد أثارت رائحة البترول فى المنطقة الواقعة شمال شرق الموصل ، وتقدير وضع أرض الرافدين كخط إتصال بالهند ، أطماع الأسد البريطانى ، ومن خلال إتفاقية سايكس - بيكو ومعاهدة سان ريمو راحت بريطانيا تطارد فريستها . وبتجاهل ما تمليه الجغرافيا والتاريخ والأصول العرقية ، وصلت قبضتها القوية إلى قفور أرض الرافدين للإيقاع بثلاثة من الأقاليم المنفصلة من الإمبراطورية العثمانية المتهاوية - هى بغداد والموصل والبصرة ، وكانت تهيمن على كل منها جماعة عرقية أودينية يربط بينها رباط الدم أوالدين ولكن لا يربطها شىء بالإثنتين الأخريين . وبالإرتباط معا ، وبعدم الإستقرار المزمن ، أصبحت تسمى العراق .

* إيجون فريدل ، نقلا عن جوريف ، كرافت « خطاب بغداد » ، النيويوركر ، ٢٠ أكتوبر ١٩٨٠ ، ص ١٦٥

وقد احتل العرب السنيون الذين يشكلون أقل من ربع مجموع السكان « المثلث الذهبى » ، وهو منطقة تبدأ من الحدود الغربية لإيران على بعد خمسين ميلا فقط إلى الشمال من بغداد وتمتد إلى حدود سوريا والأردن والسعودية ، وإذا كان لأرض الرافدين مركز سياسى ، فإنه كان يقع هنا . وفى الفترة التى سادت فيها تركيا أرض الرافدين ، فإنها كانت تحابى العرب السنيين ، فقد إحتلوا معظم المناصب العسكرية ، وهيمنوا على الجهاز البيروقراطى ، وإستفادوا من المدارس التى كانت موجودة آنذاك . وعلى الرغم من أنهم كانوا من الناحية الجغرافية منعزلين عن مركز العالم العربى ، فإن هويتهم كانت تميل إلى العرب السنة فى الغرب .

وتميل توجهات المدن السنية على طول نهر دجلة إلى الصحراء الغربية وقلب العالم العربى . وفى كل صباح تعج الممرات المائية بحركة الناس والتجارة ، وتدور أحاديث أولئك الجالسين على الأرائك تحت الظلال التى تقى من حرارة الشمس ، حول القاهرة ودمشق بأكثر مما تجرى عن طهران أو إسطنبول أو حتى البصرة . وتنصب إهتماماتهم على السياسة العربية بين الدول العربية السنية . وبالنسبة لهم فإن مكان العراق هو بين العرب .

ويفسح العراق السنى الطريق أمام العراق الشيعى جنوب بغداد . وتنتشر المدن والقرى الصغيرة التى تكتظ بالسكان الشيعيين بين النهرين العظيمين وحتى رأس الخليج ، ومع القرى الشيعية الواقعة غرب الفرات ، فإنها تجعل من العراق المكان الوحيد فى العالم العربى الذى يعج بأغلبية شيعية غير مشيخة البحرين الصغيرة* . ويتجاوز الوجود الشيعى فى العراق مجرد الأعداد .

فقد حدث الإنقسام الأول فى جسد الإسلام على الأرض التى تعرف الآن بإسم العراق وفى ثرى العراق توجد رفات شهيدى الشيعة العظيمين ـ على والحسين . ويعتبر قبر الحسين فى كربلاء وقبر على فى النجف بمثابة مكة والمدينة بالنسبة للشيعة حيث يجذبان الحجاج الشيعة من إيران والهند وباكستان والأماكن الأخرى وأثناء موسم الحج تتلألأ كربلاء بالأنوار الساطعة وترتفع فيها الرايات الملونة ، وتعلق على جميع الحوانيت راية الحسين ـ ذات اللون الأخضر الذى يرمز للإسلام واللون الأسود الذى يرمز للحداد . وبعض هذه الرايات مجرد شرائط من القماش مربوطة حول عصا مغروسة فى كومة من الرمان . وبعضها عبارة عن أبسطة جيدة الصنع ذات حواف سوداء مرسوم عليها صورة الأحداث الهامة فى حياة الشهيد . وتجتمع الحشود بالآلاف فى المدينة تستمع إلى آيات القرآن الكريم عبر مكبرات الصوت الموضوعة فوق المساجد . وتنشر الأسر الفقيرة التى لا تستطيع الإقامة فى الفنادق ، حصر النوم ، والحقائب البلاستيك ، ومواقد الغاز ، وأدوات الشاى على جانبى الطريق . ويقيم الأثرياء فى الفنادق المحيطة بالمكان . غير أن الجميع يركزون أنظارهم على نفس المكان ـ مآذن مسجد الحسين .

ويرمز مسجد الشهيد الحسين فى كربلاء ، مثل مسجد على فى النجف ، للمشاعر العاطفية لطائفة الشيعة . ويقع الإثنان إلى الجنوب والغرب من بغداد داخل عمق الحدود الشرقية للعراق . وعلى مدى قرون من الزمان ، إستغلت فارس العقيدة المشتركة لممارسة نفوذها على المنطقة

* معظم الشيعة فى العراق عرب ، ولكن نسبة غير معروفة من أصول فارسية تتحدث اللغة الفارسية .

وتحدى دعاوى تركيا العثمانية فى جنوب العراق . وخوفا من الإستيعاب داخل نطاق العالم العربى الذى تهيمن عليه السنة ، نأى الشيعة فى جنوب العراق بأنفسهم عن تيار القومية العربية . وأصبح الخليج الذى يسكنه نحو ثلاثين مليونا شيعيا هو عالمهم .

وكما هو الحال فى سوريا ، فإن مجموعة من الأقليات الصغيرة تضيف مشاكلها إلى قائمة المشاكل المتعلقة بالدين والعرق واللغة فى العراق فهناك الأشوريون من المسيحيين النسطوريين الذين يرتبطون عرقيا بإيران أكثر مما يرتبطون بالعرب . وهناك الأرمن والتركمان . وهناك وجود فلسطينى قدم بعد عام ١٩٤٨ . وأخيرا هناك الأكراد الذين يمثلون خمس سكان العراق .

ويعيش الاكراد تحت الجبال المكسوة بالثلوج فى شمال العراق . وهم من شعوب الجبال القديمة التى تتحدث بعدد من اللهجات ذات الصلة بالفارسية . والاكراد هنود ـ أوربيون من ناحية اللغة وسنة من ناحية الديانة ، ويعيشون على طول قوس واسع من الأرض يمتد من غرب ايران الى شرق سوريا ويمر عبر جنوب تركيا وشمال العراق . ولأنهم يملكون احساسا قويا بهويتهم الخاصة ، فقد قدمت لهم الوعود باقامة دولة كردستان المستقلة وذلك فى نهاية الحرب العالمية الأولى . ولكن ما تستطيع ان تخلقه القوى الكبرى تقوم بتدميره . فقد ألغت اتفاقية لوزان عام ١٩٢٣ كردستان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الأكراد يمثلون مصدرا دائما للشقاق فى كل من ايران وتركيا . ففى العراق أصبحوا قوة انفصالية كبرى . ومنذ عام ١٩٥٨ والحكومات العراقية المتعاقبة تعيش اما فى حالة حرب مع الاكراد أو فى أحسن الأحوال حالة هدنة مسلحة غير مستقرة .

ومنطقة شمال العراق ، أو « كردستان » ، ذات طبيعة جميلة ووحشية . فرقة الطبيعة التى يصفها الشاعر الكردى بأنها تشبه هدير وهمس زبد البحر ، وصوت الغدير الناعم ، يقابلها شعب يعرف الحرب جيدا . وقد لمست ذلك بنفسى فى أحد أصدقائى . وهو متعلم تعليما عاليا ، ومن عائلة كردية ثرية ، ويلتزم بالسلوك القويم . وقد حدثنى مرة عن طفولته فقال « لقد كنت أريد دائما ان أعزف على البيانو . وقد توسلت لوالدتى ان تشترى لى بيانو وأن تدبر لى مدرسا يعلمنى العزف عليه . وكانت الاجابة دائما لا . ومثل أى طفل فاننى كنت أسأل لماذا ، لماذا ؟ وفى احدى المرات نفد صبرها وقالت لى « السبب هو أن الاكراد يقاتلون ، وان الاكراد لا يعزفون على البيانو . وعرفت أن هذه هى الكلمة الأخيرة فى الموضوع » .

ويغطى الخليط الدينى والعرقى فى العراق النزاعات بين المناطق والقبائل والعائلات الممتدة داخل كل من التقسيمات الأكبر . ومثل وعاء زجاجى ساخن يتم غمره فى ماء بارد ، فان العراق يعانى من التصدع والتجزئة والتشرذم . وبشعب يفتقر الى أى شعور موحد بالقومية ، فانه يكافح كى يحافظ على وحدته . واذا كان العراق يعرف نفسه بأنه بلد فريد يقع عند مفترق ثقافات متصارعة ، فان عوامل التوتر ربما لا تكون على قدر كبير من الحجم . ولكن الأقلية السنية التى تهيمن على الحكم بشكل تقليدى ، تبذل جهدا كبيرا كى تبقى على العراق جزءا من العالم العربى ، فالأكراد ، باعتبارهم غير عرب ، لا يريدون أن يكونوا جزءا من الأمة العربية . والشيعة ، وان كان معظمهم من العرب ، يريدون حماية أنفسهم من أن تبتلعهم الأغلبية السنية فى غرب العراق . وربما لا يكون هناك شىء يوضح غموض وضع العراق الغريب فى العالم العربى أكثر من اللغة ، فاللغة العربية ،

التى تمثل أكبر قوة موحدة للعرب ، أقل انتشارا فى العراق من اى بلد عربى آخر . وعلى الرغم من ان خمسة وسبعين فى المائة من السكان يتحدثون العربية ، فان الربع الباقى يتحدث الكردية او التركية أو الفارسية . أولئك الذين يدعون أن العربية هى لغتهم الأولى ، يتحدثون بلهجة متميزة تحتوى على كلمات كثيرة من الكردية والتركية والفارسية ، وهى لغات الأقليات فى العراق . وهكذا فان العراق منذ نشأته يتذبذب بين الدعوة الى قومية عراقية خاصة وجاذبية الوحدة العربية ، وقد بدا هذا التذبذب مع الملك الأول ، الملك فيصل ، ووصل الى ذروته تحت قيادة صدام حسين .

ففى عام ١٩٢٠ ، شرعت بريطانيا فى اقامة حكومة فى الدولة المصطنعة التى خلقتها . وكان قد تم تنصيب فيصل ، الابن الأكبر لشريف مكة ، رأس حربة الثورة العربية ، على عرش سوريا الوليد وذلك من قبل وزارة المستعمرات البريطانية . ولكن بسبب المكائد الدبلوماسية التى حدثت فى ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ تولت فرنسا أمر سوريا ، وقامت الحكومة الفرنسية التى أرادت التخلص من الميراث البريطانى ، «بدعوة» فيصل لمغادرة سوريا فى يوليو ١٩٢٠ . ووصل فيصل الى لندن شخصا حزينا ومحبطا حيث وضع نفسه على أعتاب الحكومة البريطانية التى كانت تشعر بالحرج . وكان فيصل ، الذى وعد بدولة عربية أثناء الحرب العالمية الأولى ، بلا عرش . ولم تكن لبريطانيا حكومة فى العراق . وفجأة توحدت احتياجات الهاشميين مع مصالح بريطانيا ، وفى بغداد تمت دعوة مرشح بريطانيا السابق ليكون ملكا الى تناول الشاى مع زوجة الحاكم حيث نقل على عجل فى عربة مدرعة الى اقامة طويلة فى سيلان ، وفى ٢٣ ابريل عام ١٩٢٣ ، أصبح فيصل ، بعد جولة عاصفة بين معظم المشايخ ، ملكا على العراق .

وقد كان العراق الذى صار فيصل ملكا عليه يعانى من آثار الاهمال ، فالقنوات التى كانت فيما مضى تنظم تدفق مياه دجلة والفرات فى خزانات ، سدت بفعل الطمى ، مما أدى الى تكوين مستنقعات عديمة الفائدة فى الأراضى التى كانت تتمتع بالخصوبة من قبل . ولم تكن الموصل ، الواقعة عبر دجلة على أطلال نينوى القديمة ، أكثر من مدينة تجارية ذات مبان من الطين يأتى اليها العرب والأكراد للاتجار فى منتجاتهم الضئيلة . وفى بغداد التى كانت مدينة عظيمة ذات يوم ، كان الناس يعبرون الفرات بأقدامهم على جسور متمايلة كانت توفر أيضا مراس لقوارب البوص المستديرة التى وصفها هيرودت قبل ألفى سنة . وداخل المدينة ، كان القرميد زاهى الألوان الذى يزين المساجد يمسك بالكاد بالجدران التى يبدو أن أحدا لم يمسها منذ أيام الامبراطورية الاسلامية . وعندما وصل فيصل الى عاصمته ، كانت الدلائل الوحيدة على العراق الجديد تكمن فى الشعب نفسه ، فقد كان العرب السنيون بأرديتهم الطويلة يجلسون على أرائك خشبية طويلة خارج المقاهى المقامة على طول النهر ، بينما كان الأكراد الذين يرتدون قلنسوات وعمائم من اللباد يعملون فى نقل البضائع ، والحجاج الشيعة يمرون فى طريقهم الى كربلاء .

وعلى الرغم من تعويق البريطانيين له فقد أثبت فيصل أنه ملك صالح لتلك البلاد المتباينة . واستطاع بشخصيته الجذابة وذكائه وتسامحه الواسع مع الأقليات فى العراق ، أن يكبح جماح المعارضة ، غير أن فيصل كان سنيا شب عن الطوق محاطا بمشاعر القومية العربية المتنامية . وبالاتفاق مع البريطانيين ربط العراق بشكل أوثق بالعالم العربى الذى يهيمن عليه المسلمون

السنة . وبالسيطرة على الجيش عن طريق قصر الرتب العليا فى الجيش على المسلمين السنة ، وبالاستفادة من التفاعلات الطبيعية للسياسة القبلية التى ابقت على انقسام وخضوع الشيعة ، تمكن فيصل من الاحتفاظ بالعراق داخل المجال العربى ولكن بصورة ضعيفة .

وفى عام ١٩٣٢ ، أصبح العراق أول بلد من بلدان الامبراطورية العثمانية السابقة يمنح الاستقلال من قبل دولة استعمارية أوروبية . وعلى الرغم من الاكتشافات البترولية الجديدة التى كانت تبشر بجعل العراق ثانى أكبر منتج للبترول فى الشرق الأسط ، فان بريطانيا لم تعد فى استطاعتها الاستمرار فى فرض انتدابها ، فالمسافة بين الحاكم والمحكوم كانت من الاتساع بحيث جعلت من الاحتفاظ بجيش العراق أمرا صعبا . وبالثقة فى فيصل وبالاحتفاظ بالامتيازات العسكرية والاقتصادية للدولة الأم ، تخلت بريطانيا عن انتدابها . وفرح القوميون فى جميع أنحاء العالم العربى ، ورفعوا فيصل الى وضع قريب من وضع الأب المؤسس للدولة العربية فى المستقبل . ونتيجة لذلك ، اتخذ العراق وضعه فى صدارة حركة القومية العربية . ودفع فيصل بالمدرسين الفلسطينيين والسوريين من ذوى الميول القومية الى النظام التعليمى العراقى وبالأيديولوجيين العرب الى مجالات الخدمة المدنية الوليدة فى بلاده ، ولكن فيصل ، برغم سنى شبابه التى أمضاها فى الثورة العربية لم يعد شديد الحماس للقومية العربية . وانطلاقا من اقراره بعمق التباين العرقى فى بلاده كان يسعى الى توليف قومية جديدة ينضوى تحت لوائها كافة العراقيين ، ولكن الاخلاص والتنوير لم يستطيعا التغلب على حقيقة أن شعب العراق كان منقسما بين العرب ـ المنقسمين بين أقلية سنية مهيمنة وأغلبية شيعية محرومة من حقوقها الشرعية ـ وباقى السكان ومعظمهم من غير العرب تماما ، وقد كانت كراهية الامتيازات البريطانية وحدها هى التى استطاعت فى أوقات مختلفة وبدرجات متفاوتة أن تتغلب على النوازع القبلية العرقية والدينية والاقليمية ـ وأمام اقراره بمشاكل بلاده الوليدة ، لم يكن فيصل يملك سوى التفجع بقوله : « اننى أقول والحزن يملأ قلبى انه لا يوجد فى العراق حتى الآن ، شعب عراقى » * .

وبعد أن نال منه التعب وتحرر من الوهم ، مات فيصل بشكل مفاجىء عام ١٩٣٣ عن ستة وخمسين عاما ، وبموته ربما يكون العراق قد فقد الشخص الوحيد الذى كان يملك من المكانة ما يؤهله للبدء فى العملية الصعبة لبناء أمة عراقية والتوفيق بينها وبين حقيقة القوة البريطانية .

واصبح غازى ، ابن فيصل ، ذلك الشاب الوسيم الضحل ، ملكا . ولولعه بمباهج الحياة ، فانه لم يكن يتمتع بالسلطة والمكانة اللتين كان يتمتع بهما والده . وفى الرابع من ابريل عام ١٩٣٩ اصطدم بسيارة السباق التى كان يقودها بعمود انارة ، مخلفا العرش لابنه فيصل الثانى البالغ من العمر ثلاث سنوات .

وفى الفترة من عام ١٩٣٩ الى عام ١٩٥٨ ، تولى أمر المملكة اثنان ـ هما عبد الاله الوصى على عرش فيصل ، ونورى السعيد ، أكثر الشخصيات العراقية بقاء قبل ظهور صدام حسين ومثل

* كرستين موسى هيلمز ، « العراق ، الجناح الشرقى للعالم العربى » ، واشنطن ، ١٩٨٤ ، ص ٩ .

ممثلين فى احدى التراجيديات ، وقع الرجلان فى شرك بين حاجة المملكة للدعم البريطانى وبين القومية العراقية الصاعدة التى قامت على كراهية الوجود البريطانى ، وكما كان يتطلب الموقف ، كان عبد الاله ، أو بالاحرى نورى السعيد ، يتقرب الى القومية العربية أو يوجه دفة العراق بعيدا عن الرياح السياسية القادمة من غرب الفرات* ، وبالتقرب الى القومية العربية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ساعد نورى السعيد فى اقامة الجامعة العربية ، فقد تقدم للأمم المتحدة باقتراح لتوحيد سوريا ولبنان وشرق الاردن فى سوريا الكبرى ، التى تستطيع بعد ذلك اقامة وحدة عربية مع العراق وأى دولة عربية أخرى ترغب فى الانضمام اليها .

وأرسل عشرين ألف جندى الى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ باسم الأمة العربية . ووصلت استراتيجية نورى السعيد العربية الى نهايتها فى العام الذى وصل فيه فيصل الثانى سن الرشد وبدا جمال عبد الناصر يثبت أقدامه فى مصر ، وفى الثانى من مايو ١٩٥٣ ، وهو نفس اليوم الذى أصبح ابن عمه ملكا على الاردن ، أخذ فيصل الثانى البالغ من العمر ثمانية عشر عاما مكانه أمام مجموعة من كبار الشخصيات السنية الحضرية ، وبعض شيوخ الشيعة ، ووجود رمزى من كبار رجال الأكراد . وبينما كان المؤذنون يؤذنون من على مآذن المساجد وتطلق المدفعية مائة وواحد طلقة على ضفاف نهر دجلة كان يقسم « بالله أن يحمى الدستور واستقلال البلاد » . وسار الملك الشاب فى ردائه الأبيض المرصع بالذهب عبر شوارع بغداد فى عربة حمراء تسبقها عربة حربية تجرها الخيول تشبه الى حد كبير تلك التى كان يستخدمها الفرس فى غزو بلاد ما بين النهرين .

وفى عام ١٩٥٣ ، كانت العراق تحت حكم فيصل تبدو مبشرة بالخير . فقد كانت مساحتها ١٧٥ ألف ميل مربع ، وتبشر باحتياطيات بترولية تبلغ خمسة مليارات برميل ، وعلى النقيض من أى بلد آخر فى الشرق الأوسط كان لديها أراضى خصبة ومياه وفيرة للرى . وكانت الصادرات البترولية المتزايدة والانفاق الحكومى المسئول يحققان ارتفاعا مطردا فى مستوى معيشة الجماهير . ولكن الملكية ، التى كانت خائفة من أن تفقد مظلتها الأمنية ، ظلت مرتبطة ارتباطا وثيقا ببريطانيا . ونتيجة لذلك ، استمر وجود القوات البريطانية على الأراضى العراقية واستمرت المصالح البترولية البريطانية والغربية تحكم قبضتها على البترول العراقى . وبسبب تلك الروابط مع الامبريالية البريطانية ، واجهت الملكية فى العراق قوى القومية العربية التى أطلقها جمال عبد الناصر .

---

* لم يكن الرجال الذين يقفون خلف العرش يستطيعون دائما التحكم فى الأحداث ففى عام ١٩٤١ أصبح رشيد عالى ، شديد التطرف فى قوميته ، رئيسا للوزراء بعد انقلاب عسكرى أرسل كلا من نورى السعيد والوصى على العرش الى المنفى . ووصل مفتى القدس ، رمز القومية العربية المتأجج والذى كان هو نفسه منفيا من فلسطين ، لاقامة « اللجنة العربية » . وبمشاركة رشيد عالى ، كانت مهمتها بحث أوجه التعاون العربى - النازى . وسرعان ما جاء الرد البريطانى بارسال قوات الى البصرة والتقدم نحو بغداد . وفى غضون شهرين ، أعادت القوات البريطانية الملكية وأعلن العراق الحرب على المانيا ، مع توفير نقطة مرور للبضائع للجبهة الروسية . وليس هناك ما زاد من المشاعر الوطنية فى العراق أكثر من الغزو البريطانى عام ١٩٤١ .

وقد تجاوزت الدعوة الناصرية المناهضة للامبريالية والتى كانت تنطلق عبر اذاعة القاهرة القوية ، حدود الانقسامات العرقية والدينية فى العراق . ومات ما تبقى من مشاعر مؤيدة للقومية العربية داخل القصر فى بغداد أمام هجوم عبد الناصر على عملاء الامبريالية الغربية ، وفى ٢٤ فبراير عام ١٩٥٥ ، وافقت العراق على الاشتراك فى حلف بغداد الذى ترعاه بريطانيا ، والذى تعرض لهجوم شديد من عبد الناصر . واعلن نورى السعيد فى تبريره للابتعاد عن حركة القومية العربية ان الأمن الذى سيوفره الحلف سيحقق التقدم للعراق من الناحية الاقتصادية ويخلق مجتمعا عراقيا - ليس شيعيا أو سنيا أو كرديا . وفى معرض حماسه ، اعاد الى الأذهان المجد الغابر الذى عاشته بغداد أيام هارون الرشيد . ولكن نورى السعيد لم يفصح عن الثمن الذى كان يتعين على العراق دفعه لقاء هذه المكتسبات وهو أن يصبح حارس المصالح الغربية فى العالم العربى .

وفى يوليو عام ١٩٥٨ ، أرسل نورى السعيد قوات عراقية الى الأردن كى تكون على أهبة الاستعداد للتدخل فى لبنان لدعم حكومة كميل شمعون المحاصرة الموالية للغرب . ولكن الفريق الأول عبد الكريم قاسم الذى رفض قيادة قواته ضد العرب الآخرين ، تحول ضد بغداد . وبهذا العمل الذى يتسم بالتحدى ، تجمعت كافة عوامل الاستياء فى العراق - الفقر ، وسيطرة طبقة كبار ملاك الأراضى على الحكم ، ونظام التعليم السىء ، والظروف الصحية التى أدت الى أن تبلغ نسبة وفيات الأطفال ٣٤١ لكل ألف طفل . ولكن الغضب لم يقف عند هذا الحد . فقد كان لكل طائفة همومها ، فالأكراد كان يؤرقهم عدم تمتعهم بالحكم الذاتى . والشيعة كانت همومهم تنصب على عدم المساواة مع السنة فى القوتين السياسية والاقتصادية . والسنة من الطبقتين الفقيرة والمتوسطة كانت تهمهم دعوة القومية العربية . وقد قاموا جميعا لتخليص العراق من الملكية وميراث الامبريالية .

وكانت بغداد نائمة فى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٨ . وبهدوء تحرك الجنود الموالون للفريق أول عبد الكريم قاسم الى التقاطعات الرئيسية ومحطة السكك الحديدية ومكاتب البرق ومحطة الاذاعة ، وفى القصر ، كان الملك فيصل الثانى البالغ من العمر ٢٣ عاما ، يرتدى ملابسه الداخلية فقط ويقف أمام المرآة ليحلق ذقنه . ودون انذار أعلنت طلقات المدافع عن حصار الجيش للقصر . وبدون أى أمل فى المقاومة استسلم الملك على وعد بتأمين خروجه هو وأسرته من البلاد . وبينما كان فى وسط ساحة القصر التفت الضابط المسئول وأطلق النار من مدفع رشاش فقتل الملك وعبد الاله .

وبسرعة وضع جسد الملك فى سجادة ونقل بعيدا حيث ووري التراب ، ان هذا الملك ، الذى كانت تعوزه الموهبة السياسية الحقيقية ، والذى كان مولعا بالتزحلق والفن الحديث وموسيقى الجاز ، لم يحكم مطلقا فى حقيقة الأمر ، وكان العراقيون يعرفون ذلك . ومن ثم صبوا جام غضبهم على الوصى السابق على العرش وعلى نورى السعيد وقد ألقى بجسد عبد الاله من احدى نوافذ القصر الى الجماهير الغاضبة المنتظرة اسفلها ، وراح الرجال الغاضبون يجرون الجثة فى الشوارع قبل ان يجمعوا ما تبقى منها لتشاهده بقية جماهير العراق . وتملك الفزع نورى السعيد البالغ من العمر ٧٢ عاما . وفى اليوم التالى ، عثر عليه فى احد شوارع بغداد متخفيا فى ملابس امرأة . وتم

تجريده من الملابس التى كان يختفى فيها ووضع على خازوق وهو حى وترك يتعفن فى الشمس .

وباعلان أن « الطغمة الفاسدة عميلة الامبريالية » قد انتهت ، اعلن النظام الجديد ان العراق أصبحت جمهورية ، ولكنها كانت جمهورية تحمل نفس الانقسامات الداخلية التى عانت منها الملكية ، وقد كان الزعيم الجديد الفريق أول عبد الكريم قاسم يظن أن مجرد الاطاحة بالملكية سيخلق نظاما طيبا وتقدميا ، ولكن هذه النظرة كانت تدل على قصور شديد فى فهم صعوبة حكم العراق ، فقد واصل السنيون الشيعة والأكراد والتمسك برؤاهم المتناقضة للعراق ، بينما راحت العائلات والقبائل داخل كل طائفة تحارب معاركها الخاصة . وعلى السطح الخارجى ، أخذت الأحزاب السياسية الوليدة التى تساند ايديولوجيات متعارضة تتنافس فى الشوارع . ومع ذهاب الامبريالية ، لم يعد هناك ما يوحد القوى السياسية فى العراق .

وبالنسبة للعرب السنة ، كانت ثورة عبد الكريم قاسم تبشر بتحقيق الوحدة العربية . ففى عام ١٩٥٨ ، كانت القومية العربية بزعامة جمال عبد الناصر فى أوج توهجها . وفى تلك الأيام كانت صورة الدولة العربية الكبرى الممتدة من النيل الى الفرات ، تبدو فى متناول اليد ، وفى ظل وجود القوى العربية المركزية الكبرى - القاهرة ودمشق وبغداد - تحت حكم أنظمة ثورية قومية ، بدا أن الأردن ولبنان وغيرهما من الدول العربية الأصغر ، لم يعد بمقدورها الهروب من الانحراف الى هذه الدوامة . ولكن ذلك لم يحدث . فقد تبين أن عبد الكريم قاسم عراقى أكثر مما هو قومى عربى .

لقد كان عبد الكريم قاسم عراقيا صرفا ، فأبوه عربى سنى وأمه كردية وجده شيعى ، وكان قاسم يمثل ذلك العنصر داخل العراق الذى يضع العراق والخليج ، لا القومية العربية أو أهداف عبد الناصر ، على قمة أولوياته * . ولكن قاسم لم يستطع أن يكبح جماح القوى المتعددة فى العراق ، كى يبنى قومية عراقية خاصة . وفى غضون شهرين من انهيار الملكية بدأت اراقة الدماء بين الناصريين والقوميين العراقيين ، والبعثيين والشيوعيين ، والأكراد والحكومة ، ففى سبتمبر ١٩٥٨ ، قام الشيوعيون بحركة تمرد ، قتلوا خلالها مئات ممن يشتبه فى أنهم من القوميين العرب المناهضين للتوجهات « الدولية » للشيوعيين ، وبعد ثلاث شهور ، أقام الشيوعيون الأكراد مذبحة للتركمان فى كركوك ، أكتوبر ١٩٥٩ حاولت احدى فرق القتل التابعة لحزب البعث والتى كانت تضم صدام حسين البالغ من العمر اثنين وعشرين سنة ، حاولت اغتيال قاسم فى شوارع بغداد . وفى ربيع عام ١٩٦٢ ، قام الأكراد المطالبون بالاستقلال أو بالحكم الذاتى على الأقل فى اطار عراقى فيدرالى أو لا مركزية بثورة واسعة النطاق . ومن هذا الاضطراب العظيم برز نموذج وضع كافة أشكال القومية العربية فى مواجهة مجتمع متشرذم متعدد الأعراق غير مؤهل لقبول فكرة القومية العربية وترك ذلك الفريق أول عبد الكريم قاسم على رأس ثلاث قوى تتصارع من أجل السيطرة على مصير العراق بين الشيوعيين من ناحية ، والناصريين القوميين والبعثيين من ناحية أخرى ، ثم العراقيين القوميين من

* فى ممارسة أقل استثارة من ممارسات الكبرياء الوطنى ، طالب قاسم بضم الكويت الى العراق فى ٢٥ يونيو ١٩٦١ . ولكنه تراجع أمام الضغط البريطانى والعربى .

ناحية ثالثة ، بينما كان الأكراد حاربون معركتهم الخاصة من أجل كردستان . وفى النهاية انتصر القوميون العرب .

وفى ٨ فبراير عام ١٩٦٣ ، قامت فرقة تضم أعضاء من حزب البعث باقتياد قاسم وأقرب مساعديه الى غرفة الموسيقى العربية فى محطة التليفزيون الحكومى وقامت باطلاق النار عليهم . ثم اداروا الكاميرات . وكانت هناك احدى الجثث ملقاه على كرسى دوار . وسقط قاسم على الأرض . وفيما بدا أنه محاولة لاثبات أن الرجل الذى حكم العراق لمدة خمس سنوات قد مات بالفعل ، قام احد أعضاء ، غرفة القتل بالامساك برأس الفريق أول من شعره ووجهها نحو عدسات الكاميرا . وشاهد العراقيون بأنفسهم العينين الجامدتين والأسنان المغطاة بالذهب لزعيمهم المقتول .

وكان القائمون بالانقلاب من القوميين العرب ، وبينهم حزب البعث ، وهو الجناح العراقى الأصغر والمنظم تنظيما دقيقا من حزب البعث الأكبر . وقد تأسس رسميا عام ١٩٥٢ ، كفرع لحزب البعث السورى ، ولم تكن له قاعدة سياسية وكان عدد أعضائه فى عام ١٩٥٥ لا يزيد عن ثلاثمائة شخص زادوا قليلا بحلول عام ١٩٥٨ ، وبالنسبة للبعثيين ، كانت ضآلة العدد أمرا متوقعا بالنسبة لحركة ثورية ووفقا لقول الأب الايديولوجى للبعث ميشيل عفلق ، فان « هناك فجوة تفصل بين تنظيم الحزب والمجتمع المحيط به . ومن عمق مصادره الخاصة ، وفى عزلة محسوبة عن بقية المجتمع ، فان الحزب يجب أن يصبح أمة الثورة قبل أن يحقق ثورة الأمة » * . وطبقا للمبدأ البعثى ، فان القيادة يجب أن تظل فى أيدى اقلية مستنيرة « تمثل الشعب قبل أن يفوضها الشعب صراحة بتولى أمر تمثيلها » * . وكان صدام سين التكريتى واحدا من هذه الأقلية المستنيرة .

وينحدر صدام حسين من الطبقة الدنيا من السنة ، وقد ولد فى ٢٨ ابريل عام ١٩٣٧ لأسرة فقيرة من أسر الفلاحين فى قرية العوجة بالقرب من مدينة تكريت الواقعة على نهر دجلة فى المثلث الذهبى ، وكان البيت الذى ترعرع فيه مبنى من الطوب اللبن والبوص ، ويتم تدفئته فى الشتاء بروث البقر الجاف وقد مات والد صدام إما قبل ولادته أو بعدها بوقت قصير ، وبعد وفاة والده تزوجت أمه من رجل أمى قال صدام انه كان يوقظه من نومه كل صباح صارخا فيه « انهض يا ابن العاهرة واعتنى بالأغنام » * . وفى سن العاشرة هرب صدام الى بغداد الى منزل خاله خير الله طلفة . وقد فتحت بغداد أبواب عالم جديد لصدام الشاب ، فدخل المدرسة للمرة الأولى وانهى الدراسة الثانوية فى سن السادسة عشر ، ولأنه كان طموحا فقد سعى للالتحاق بالسلك العسكرى - ولكن ضعف درجاته حال دون تقدمه الى الكلية الحربية فى بغداد ، وهكذا حرم من المؤهلات العسكرية التى يتحلى بها معظم القادة العرب المعاصرين ** . وازاء فشله فى الالتحاق بالسلك العسكرى ، تحول الى السياسة .

* ورد فى « جمهورية الخوف » الخليل ، ص ٢٢٠ .

** نفس المصدر السابق .

* جوديث ميلر ولورى ميلروى « صدام حسين وأزمة الخليج » ، (نيويورك ، ١٩٩١) ص ٢٧ .

** من الواضح أن افتقار صدام حسين للتدريب العسكرى يمثل نقطة ضعف بالنسبة له . وفى عام ١٩٧٦ عين نفسه فريقاً وعندما أصبح رئيسا للعراق عام ١٩٧٩ ، رقى نفسه الى رتبة مشير .

وقد أمضى صدام ، وهو اسم عربي يعنى « الشخص الذى يواجه » ، فترة مراهقته منغمسا فى الكلمات الخطابية والعاطفية عن القومية العربية التى كانت تتردد فى جنبات بيت طلفه . وفى عام ١٩٥٧م عندما كان فى العشرين من عمره ، إنضم الى حزب البعث . وفى أكتوبر من عام ١٩٥٩ ، أصبح عضوا فى فرقة الاغتيالات التابعة لحزب البعث والتى أطلقت النار على سيارة الفريق أول عبد الكريم قاسم فى أحد شوارع بغداد فى وضح النهار . وطبقا للرواية الرسمية عن سيرة حياته الشخصية التى تظهر على شاشة التليفزيون العراقى بإستمرار ، فإن صدام المجروح أنقذ رفاقه بشجاعة بالإستيلاء على سيارة تحت تهديد السلاح . وبقيادتهم من منزل الى منزل ، نجح فى الهرب من الشرطة . ثم واصل رحلته وحده حتى عبر الصحراء الى سوريا وقام بإخراج رصاصة من ساقه بسكين أثناء سيره فى الطريق .

وقد أنهى هروبه فى القاهرة حيث إستفاد من الميزات التى كان يمنحها عبد الناصر للقوميين العرب الشبان والتحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة . وكان صدام حسين يمضى معظم وقته ، مثل غيره من السياسيين المنفيين فى تلك الفترة فى أحد مقاهى القاهرة . وبعد ذلك بثلاثين عاما ذكر صاحب مقهى أنديانا « أنه كان من أولئك الذين نطلق عليهم مثيرى المتاعب . وكان يتشاجر لأتفه الأسباب . . وكنا نريد منعه من إرتياد المقهى . ولكن الشرطة ذكرت أنه فى حماية عبد الناصر ★ وفى عام ١٩٦٣ ترك صدام الدراسة للعودة الى العراق كى يجد له مكانا فى حكومة البعث التى أطاحت بعبد الكريم قاسم .

وقد واجه البعثيون نفس الاضطرابات الدموية واتسمت ردود أفعالهم بنفس أسلوب القمع العنيف الذى انتهجه نظام قاسم . ولأن حزب البعث لم يكن يتمتع بالشعبية وكان منقسما بين الموالين لعبد الناصر وبين أولئك الذين كانوا يرون فى طموح عبد الناصر دماراً للحزب ، فإن انقلابا عسكريا أطاح بحزب البعث بعد أقل من عام واحد من استيلائه على السلطة . وعلى مدى السنوات الأربع التالية عاش العراق فى ظل الناصرية . وإنتفاضة كردية أخرى ، وفى ظل الفساد أيضا .

وفى ٣٠ يوليو ١٩٦٨ استولى حزب البعث على السلطة للمرة الثانية . وكان عدد أعضاء الحزب لا يتجاوز وقتها الخمسة آلاف شخص ، ولكن عدد أعضائه لم يكن يعكس قوته ، فقد كان البعث تنظيما يقوده جهاز أمنى من الايديولوجيين المخلصين بزعامة صدام حسين ، وانطلاقا من القاعدة القوية التى كان الحزب يمتلكها داخل الجيش ، أقام البعث مجلس قيادة الثورة برئاسة أمين عام الحزب أحمد حسن البكر . وكان البكر يشغل أيضا منصب رئيس الجمهورية وقائد القوات المسلحة . وعين صدام حسين ، مساعد أمين عام الحزب ، نائبا لرئيس قيادة الثورة المسئول عن الأمن الداخلى .

★ نيويورك تايمز ، ٢٣ أكتوبر ١٩٩٠ .

الحكومة العراقية شركة بترول العراق عام ١٩٧٢ اتهم الأكراد القوميون الغاضبون بغداد بأنها بساطة تحكم قبضتها على بترولهم .

وقد كان البعث ، رغبة منه فى البقاء ، يتطلع الى النجاح فى حل مشكلة الاكراد حيث فشل الآخرون ، وفى ١١ مارس ١٩٧٠ أصدرت حكومة البعث بيانا رسميا بشأن الحكم الذاتى للأكراد ، حيث كانت ترمى الى كسب الوقت حتى يصبح البعث من القوة بحيث يمكنه قمع الأكراد ، وفى ٢٤ مارس عندما أعلن الاكراد ان وعود الحكم الذاتى انما هى من قبيل الكلام الأجوف وقاموا بالثورة مرة اخرى ، واجهوا غضب دولة البعث الكامل . وقامت المدفعية بإطلاق قذائفها على مدينتى زاخو وكالا الجبليتين عند ديزا وحولتها الى حطام . وفى السهول ، كانت الدبابات والقاذفات وطائرات الهليوكبتر وقطع المدفعية تدعم ثمانية ألف جندى يقتحمون المنطقة . ولكن الأكراد اعتصموا بالتلال . واستطاع رجال حرب العصابات ذو الشوارب المتسمون بالمرونة والصلابة ، بتحركهم على اقدامهم او على الحمير القوية ، من كمين الى كمين ، ان يزعجوا الجيش العراقى بالأسلحة الصغيرة والمدفعية التى تعود الى الحرب العالمية الثانية . ولأنه كان عاجزا عن اختراق الجبال بالقوات البرية ، استعان الجيش العراقى بطائراته القاذفة . وتشرد ٢٥٠ الف من الاكراد المروعين ، الذين يسوقون أبقارهم ، وماعزهم ، وأغنامهم فوق التلال بحثا عن المأوى فى ايران . واختبأ من بقى فى العراق فى كهوف الجبال . وقد استمر التمرد لان شاه ايران كان يمد الاكراد بالأموال والأغذية وجعل الحدود الايرانية مفتوحة امام اللاجئين والمقاتلين الأكراد رغبة منه فى ارغام العراق على تقديم تنازلات له فى شط العرب ، ولم يستطع الأكراد تحقيق الانتصار ، ولكنهم بمساعدة ايران فرضوا على الحكومة العراقية حربا مكلفة داخل حدودها .

وفى ٦ مارس ١٩٧٥ تخلت ايران عن الاكراد ، فقد أدرك العراق وايران انهما على وشك الدخول فى حرب مع بعضهما البعض لن تقتصر نتائجها على تدمير صناعة البترول فيهما ، بل انها تهدد بإدخال السوفييت أصدقاء العراق والأمريكيين أنصار ايران الى منطقة الخليج ، ومن ثم اجتمع البلدان فى الجزائر ، ولإخفاء مشاعر العداوة بينهما عانق الشاه الأرستقراطى المهيب محمد رضا بهلوى بحرارة صدام حسين الثورى ممتلىء الجسم . وفى حضور معظم الدول العربية أعلن الزعيمان الاتفاق . فسلمت العراق بالمطالب الايرانية فى شط العرب ، وقطعت ايران امداداتها عن الاكراد وأغلقت حدودها دونهم .

وصبت بغداد جام غضبها على الاكراد فراحت تعمل القتل فيهم وتقوم بعمليات ترحيل جماعية لهم . وتحت جنح الظلام كانت قوافل السيارات تدلف الى القرى الكردية . وكان الجنود بزيهم العسكرى يجرون أسرا كاملة من على أسرة النوم ويقومون بشحنها على شاحنات تنقلهم جنوبا الى المناطق العربية وفيما لا يتجاوز توفير الخيام الا قليلا تم وضع ما يتراوح بين خمسين الف وثلاثمائة الف كردى فى مناطق محددة وأمروا بألا يبرحوها وفى اطار برنامج ضخم لتعريب كردستان قامت الحكومة بنقل بعض العرب الى بعض المناطق الكردية المهجورة . وبالدماء وعمليات الترحيل تم اخماد التمرد .

ومنذ عام ١٩٦٢ جعلت المشكلة الكردية وعدم الاستقرار السياسى المزمن ، العراق يركز اهتمامه داخل حدوده بعيدا عن الشئون العربية . فقد تجنب العراق حرب ١٩٦٧ ونأى بقواته المتمركزة فى شمال شرقى الاردن والبالغ قواتها ١٢ الف جندى عن الاشتراك فى الحرب الاهلية التى دارت رحاها هناك عام ١٩٧٠ الى جانب الفلسطينيين . وكان يراقب حرب عام ١٩٧٣ والى درجة ما فان كافة الأنظمة الحاكمة فى بغداد أيا كان لونها ، كانت تؤثر العزلة ، وتبذل كل جهد لتشديد قبضتها فى الداخل . ولم تكن حكومة البعث ، مركز القومية العربية ، استثناء من ذلك ، ففى الفترة بين عامى ١٩٦٨ ، ١٩٧٧ كانت تركز هى ايضا على تحقيق الاستقرار فى الداخل وبالنسبة للبعث ، فان مستقبل « الاقليم العراقى من الوطن العربى » يوجد داخل الحدود .

وقد ألزم البعث نفسه ببناء دولة طبقا لتصوراته الخاصة . وكانت مخابرات صدام حسين بمثابة العصا ، وعائدات النفط هى الجزرة ، وفى الفترة بين عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٨ ارتفعت عائدات النفط بفعل الحظر البترولى العربى من ١٫٨ مليار دولار الى ٢٣٫٦ مليار دولار . وبهذا التدفق الهائل فى الاموال ، بدأ البعث فى نقل العراق من بلد زراعى متخلف الى بلد نام ، وفى السباق نحو التحديث ، زادت المخصصات الحكومية لقطاع الصناعة اثنتى عشرة مرة ، والنقل احدى عشرة مرة والاسكان تسع مرات ، وامتدت الرعاية الصحية المجانية الى شعب اعتاد ان يلقى الاهمال . وارتفعت اللافتات التى كتب عليها « الحملة من أجل الأمية » ، « جهاد » ، « مقدس » فى كل مكان من بغداد الى أكثر القرى تواضعا فى الصحراء الغربية . وانطلاقا من رفضها الاكتفاء بالأساسيات استخدمت الحكومة عائد النفط فى دعم السلع الاستهلاكية الاساسية ، حيث أصبحت الثلاجات وأجهزة التليفزيون فى كل منزل ووحدة سكنية بل وكل كوخ تقريبا . وفى خضم ثورته الفياضة ، حدد البعث أخيرا الاشتراكية العربية . « ان من يعمل أكثر يأكل أكثر ، ولكن لن يكون هناك جائع واحد »★ .

وقد استهدف هذا الاندفاع الشديد نحو التحديث ، تكوين وعى وطنى ، ومحو الانقسامات القبلية والدينية القديمة ، والقضاء على المظالم الاقليمية ، وازالة أسباب شكاوى الاكراد ، ولكن البعث حاول بناء هذا الوعى الوطنى بغرس هوية عربية داخل كل عراقى ، فقد أكد المؤتمر القومى الحادى عشر لحزب البعث الذى عقد عام ١٩٧٧ ان التاريخ الذى يمتد لعدة آلاف من السنين من عمر الأمة العربية يحتضن جماعات عرقية متنوعة كانت اسهاماتها من اجل هذه الأمة متشعبة وعميقة . ومن هذه الفرضية أنكر الحزب النزعة العرقية واللغة لدفع الأكراد داخل الأمة العربية . وبهذا وضع الفكر البعثى والفلسفة البعثية ، العراق حيث يعتقد البعثيون دائما انه يجب ان يكون — فى أحضان الأمة العربية الأرحب ، فهناك يتحمل العراق قدره بأن يكون بمثابة العمق الاستراتيجى والجناح الشرقى للأمة العربية .

★ هيلمز ، العراق، ص ١٢٣ .

وبحلول عام ١٩٧٧ ، كان العراق البعثى مستعداً لإلقاء نفسه فى الساحة العربية ، حيث كان ينظر إليه على أنه منبوذ ، ولأنه كان مولعاً بالقتال ويدين أبسط عرض يقدم لإسرائيل ، ويتسم بالجنون السياسى فقد كان العراق البعثى يقف خارج النادى العربى . وإستمر هذا الوضع حتى ذهب أنور السادات إلى القدس وبدأ قرب توصل مصر إلى اتفاق سلام منفصل مع إسرائيل يهدد توازن القوى التقليدى بين القاهرة ودمشق وبغداد . ومع إبتعاد القاهرة عن الساحة العربية وغياب دورها فى الجناح الغربى العربى ، برزت الحاجة إلى العراق لدعم العالم العربى فى الشرق .

وفى ظل النظام الجديد ، بحث العراق وسوريا ، العدوان القديمان ، تحقيق الوحدة بينهما تحت راية البعث* . ولكن الفشل فى تحقيق هذه الوحدة لم يحل دون دخول العراق فى خضم السياسة العربية ، وفى ٢ نوفمبر ١٩٧٨ ، عقد العراق مؤتمر قمة عربى فى بغداد لبحث « خيانة مصر للقضية العربية » . وكان ذلك المؤتمر أول مؤتمر عربى كبير يبادر العراقيون بالدعوة إليه . وقد حقق المؤتمر نجاحا لم يكن متوقعا حيث حضرته كافة الدول العربية عدا مصر .

وفى وقت إنعقاد مؤتمر كامب ديفيد ، كان السوريون والسعوديون والليبيون ومنظمة التحرير الفلسطينية وكافة العرب الآخرين يعترفون بزعامة العراق فى رفض إتفاق مصر مع إسرائيل . وتصور البعث العراقى بتأثير صدام حسين ، توحيد العالم العربى تحت قيادة العراق وجعل بغداد مركز هذه الوحدة .

وكان تزايد النفوذ العراقى ملموسا وشهراً بعد شهر تقريبا كنت أراه ينمو ، ومن خلال السفر من عاصمة لأخرى ، كنت أرى ظل العراق يمتد فوق منطقة لم تعرف له نفوذاً يذكر منذ إنتهاء الحرب العالمية الثانية ، ففى عمان كان الأردنيون يتحدثون بمنتهى السعادة عما سيحدثه تدفق المساعدات العراقية على إقتصادهم من إزدهار . وفى دمشق ، كان السوريون الذين إلتزموا الصمت يهزون أكتافهم عندما يسألون عن النجم الصاعد فى الشرق . وفى الرياض ، كان يسود شعور بأن هناك قوة عملاقة تبزغ على الحدود الشمالية للسعودية . وكانت بمثابة شبح لم يكن يحبه السعوديون . ففى عام ١٩٧٨ لاحظت أن وزارة الخارجية السعودية قد أرسلت بتحياتها العطرة للعراق بمناسبة إحتفاله بعيده الوطنى ، وفى نفس الوقت رفض مكتب الجوازات السعودى طلبى بالحصول على تأشيرة دخول للسفر إلى بغداد .

وفى مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى تونس عام ١٩٧٩ ، إحتفل صدام حسين ، الذى أصبح القوة الحقيقية فى النظام العراقى ، بما إعتبره خلافة العراق لمصر كأكبر قوة فى العالم

* على الرغم من أن العراق كان يمكن أن يستفيد من الوحدة بإضعاف قوة الأقلية فى العراق ، فقد كانت هناك أيضا مساوىء للوحدة . إذ أن ثروة بترول العراق كانت ستضطره إلى تحمل أعباء إضافية أخرى فى سوريا وإلى أن يصبح دولة مواجهة من الناحية الجغرافية وليس من الناحية الخطابية مع إسرائيل . وقد تحمس صدام حسين للفكرة فى البداية ولكنه عارضها بعد ذلك لا لسبب إلا لأنه كان يكره أن يكون شريكا فى السلطة مع الرئيس السورى حافظ الأسد .

العربى . وكما حكمت بابل فى يوم ما بلاد ما بين النهرين ، وكما حكمت بغداد العالم الإسلامى ذات يوم فى ظل الخلافة العباسية ، فإن العراق سيتبوأ مكانه كزعيم للعرب . وكان صدام حسين يتفاخر بأن العراق يمضى قدما « على الطريق نحو بناء الإشتراكية والإنتصار على الإمبريالية وجعل بلاده قاعدة آمنة للكفاح العربى بوجه عام وتجربة نموذجية مضيئة لمنطقة الشرق الأوسط بأسرها »* .

وبحلول عام ١٩٧٩ ، وصلت إحتياطيات البترول العراقية بما يقدر بمائة مليار برميل ، أى فى المركز الثانى فقط بعد السعودية ، وإنطلاقا من قدرتها على فرض أو إنتهاك حصص تصدير البترول ، أصبحت العراق تتمتع بنفوذ قوى داخل منظمة الأوبك . وبالتخلص من الآثار الماضية لبلد زراعى حتى عام ١٩٧٣ ، أخذت بغداد صورة المدينة التى تعج بالنشاط العمرانى وأصبحت واثقة من نفسها مثل الرياض ومدينة الكويت . وراحت شركات الفنادق العالمية الشهيرة تقيم الفنادق الفخمة على طول نهر دجلة . وأعادت الأشجار الباسقة القائمة على طريق القصر إلى الأذهان الشعور بالأبهة الذى لم تعرفه هذه العاصمة منذ القرن العاشر . وحتى مجمع قصر الرئاسة ، المكون من مبانى السفارات المصادرة لعدة دول ، فضلا عن مقر إقامة السفير الأمريكى بحديقته الإنجليزية الغناء ، أصبح يتحدى قصور ملوك الخليج . ولكن بغداد لم يكن لها أبدا سحر بيروت ما قبل الحرب الأهلية وهيبة القاهرة . فقد كان يسود بغداد توتر يلمسه حتى الزائر العابر . فالدبابات يمكن أن تظهر فى أى وقت حيث تقف عند ناصية أحد الشوارع لمدة ساعة أو ساعتين ثم تختفى .

وقد كان حزب البعث وأحمد حسن البكر يحكمان العراق بالإسم ، ولكن القوة الحقيقية كانت فى يد صدام حسين . فقد كان صدام حسين الشهير بإرتداء الحلل البيضاء وأربطة العنق السوداء ، يدير السياسة ويكبح جماح القوى المتعددة داخل العراق عن طريق جهازه الأمنى المتواجد فى كل مكان .

ولا يزال حزب البعث يحتفظ بتركيبته السرية المؤلفة من أجزاء مستقلة وأساليبه الخفية التى إستطاع بها الإحتفاظ بالسلطة . ويأتى توجيه الحزب من القيادة القطرية التى تمثل ست عشرة وحدة إقليمية . ويتم إنتخاب أعضائه بواسطة شبكة من الأقسام والخلايا تشبه نظام الحزب الشيوعى السوفيتى القديم تحت قيادة ستالين . وتنتشر هذه الخلايا فى كل مكان - فى أماكن العمل والسكن وفى كافة مستويات القوات المسلحة . وهى تقوم بالتبشير بالوحدة العربية والقومية الإشتراكية وبإحياء الروح العربية . وكان عدد أعضاء الحزب فى عام ١٩٧٩ يبلغ حوالى نصف مليون عضو . ولكن أولئك القابعين على القمة ، وليس الحزب أو شعب العراق . هم الذين كانوا يقومون بإختيار قادة البلاد . وفى عام ١٩٧٩ غير حزب البعث قيادته .

ففى ٢٨ يوليو ، أعلن نائب الرئيس صدام حسين بشكل مشئوم عن إكتشاف مؤامرة دبرها بعض أقرب زملائه بالتواطؤ مع سوريا وسرت رعشة فى جميع أوصال حزب البعث . وبعد أحد عشر

* كرافت ، « رسالة من بغداد » ، ص ١٤٠ .

يوما ، وفى مساء الثامن من أغسطس ١٩٧٩ ، شاهد صدام حسين بنفسه عملية إعدام واحد وعشرين عضوا من أعضاء مجلس قيادة الثورة . وكان من بينهم نائب رئيس الوزراء ووزير شئون الأكراد ووزراء التعليم والصناعة والتخطيط والصحة ورئيس مكتب صدام حسين نفسه . وبعد أن جفت الدماء صعد صدام حسين التكريتى إلى شرفة قصر الرئاسة فى بغداد ورفع ذراعيه محييا وأمام القصر كان خمسون ألف متظاهر يزأرون بالتأييد والصياح « الموت للخونة » .

وتنحى الرئيس أحمد حسن البكر ، إبن عم صدام حسين ومعلمه وشريكه فى السلطة على مدى عقد من الزمان ، « لأسباب صحية » . وتولى صدام حسين ، الصبى الفقير القادم من تكريت ، منصب الرئاسة ، بالإضافة إلى منصب رئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة وزعيم حزب البعث . وشكل أقاربه ورفاقه القدامى مجلس الوزراء ، واحتلوا المناصب الرئيسية فى الجيش وقوات الأمن الداخلى . واستقر النظام الجديد فى مكانه الملائم . فقد سقطت العراق التى عانت على مدى العشرين عاما السابقة من آثار عشرة إنقلابات ومحاولات إنقلابية ، وعصيانين مسلحين وحرب أهلية شاملة فى قبضة صدام حسين الحديدية . ومن خلال فرض إرادته على بلده الممزق ، جعل صدام من نفسه الدولة .

وفى عراق صدام حسين ، أصبحت وزارة الإعلام بمثابة مركز إعلامى للرئيس . فما إن يدلف المرء من باب الوزارة حتى يسرع الموظفون الجالسون فى مكتب الإستقبال بتقديم « مواد » الدعاية له . وتبدو أجهزة الإعلام الضخمة فى كافة الكيانات السياسية فى الشرق الأوسط ، من أجهزة الدعاية السعودية وحتى أجهزة الدعاية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، تبدو ضئيلة أمام أجهزة إعلام صدام حسين ، فحجرات الوزارة تمتلىء بالكتب والكتيبات التى تصطف على الأرفف وتملأ الصناديق بل والأرضيات وبكل اللغات العربية والفرنسية واليابانية والصينية ومجموعة من اللغات الأفريقية . وهذه الكتب عبارة عن خطب صدام حسين ، أو كتب من نوعية الكتاب الذى يتحدث عن بلاد ما بين النهرين وذلك الكتاب الذى يتناول السيرة الذاتية لصدام حسين وعنوانه « الأيام الطويلة » . غير أن المطبوعات تمثل جانباً واحدا فقط من جوانب الحملة الرامية لربط صدام حسين والعراق بقوة .

وتغطى الصحف العراقية التفاصيل الدقيقة لأنشطة صدام حسين اليومية . وفى إطار الحملة المستمرة لدعم مكانة وشرعية صدام حسين فإنه يقوم بزيارة المدارس ووضع النياشين على أكتاف رجال الشرطة وإفتتاح شبكات المياه فى القرى النائية . ومثل نجوم السينما ، يتقمص صدام الدور ولدى زيارته لمزرعة يرتدى ملابس الفلاحين وقد تجاوز تأثير هذه الجولات الميدانية التأثير الفورى ، وإمتد ليغرس جذور الهوية الوطنية والسلطة المركزية فى شخص صدام حسين . ولكن الخوف كان هو وسيلته الحقيقية فى تحقيق الوحدة .

وقد أدرج العراق أربعة وعشرين جريمة جعل عقوبتها الإعدام . وفى ظل نظام تحوم فيه الشبهات حول الكاتبين على الآلات الكاتبة ، أصبح لقوات الأمن وجود غير مرئى فى كل مكان . وأصبح بالإمكان أن يكون أى شخص عضوا بالمخابرات الرهيبة سواء كان رجل أعمال أو مدرسا

أو خادما أو بائعا وفى ظل هذا الخوف همس أحد التجار فى بغداد قائلا : « هذا راديو ، ولكن إذا قال صدام أنه ثلاجة ، فهو ثلاجة » .

والحقيقة هى أن « صدام جاء من أرض هشة ، بلد حدودية بين فارس وشبه الجزيرة العربية ، وكان نصيبه من الثقافة والإطلاع والأفكار الكبرى ضئيلا . وأصبح صدام حاكما مستبدا فظا وسجاناً ماهراً روض بلاده كلها وحولها إلى سجن كبير »•.

وقد سيطر صدام على العراق سيطرة كاملة ولكنه لم يستطع أن يمد هذه السيطرة خارج حدوده . وفى عام ١٩٧٩ ، هزت الثورة الدينية إيران الشيعية وراحت تدق على أبواب العراق العلمانى .

ولم يستطع العراق ، بتجمع سكانه من الشيعة ووجود أكبر مزارين للشيعة على أرضه ، تجنب الجاذبية العاطفية للثورة الإسلامية فى إيران الشيعية•.

فقد أثارت كلمات آية الله روح الله الخومينى الحماسية شعورا قويا بالهوية الشيعية وحركت الجماهير الشيعية فى جنوب العراق ضد حكومة بغداد العلمانية التى يسيطر عليها السنة ، وفى صيف ١٩٧٩ ، عبأ زعيم الشيعة فى النجف آية الله محمد باقر الصدر أتباعه فى مظاهرات ضخمة تأييداً لآية الله الخومينى . وراح الخومينى نفسه يطعن فى جوهر فلسفة البعث العربية التى حاولت الجمع بين سنة وشيعة العراق وربطهم بالأمة العربية . وبصوت روحانى أدان آية الله القومية العربية ووصفها بأنها « متعارضة أساساً مع الإسلام لأنها تعوق قدرة الإسلام على العمل كقوة موحدة دينيا وسياسيا »••.

ورد صدام حسين ، ففى أكتوبر ١٩٧٩ ، أصبح أول رئيس دولة عربية كبيرة يصطدم بالنظام الإسلامى فى إيران . فوصف الثورة الإيرانية بأنها « غير إسلامية » وسخر من سلطة آية الله وقال « إن القرآن كتب بالعربية وأن الله كتب على العرب (وليس الإيرانيين) القيام بدور الريادة فى الإسلام »•.

وفى الأول من أبريل عام ١٩٨٠ ، كاد من يشتبه فى أنهم من الإرهابيين الشيعة أن ينجحوا فى قتل نائب رئيس الوزراء طارق عزيز وأعطى هذا العمل الذريعة لصدام للبدء فى القضاء على الحركة السياسية الشيعية العراقية . ومن خلال حملة للقبض على الشيعة وتعذيبهم وإعدامهم وإجبارهم على الرحيل ، تم إستئصال شأفة الدعوة الإسلامية .

• فؤاد عجمى ، « صيف السخط العربى » ، الشئون الخارجية ، شتاء ١٩٩٠ - ١٩٩١ ، ص ١ .

• فى أكتوبر ١٩٧٨ ، طرد صدام حسين آية الله روح الله الخومينى من النجف حيث كان يعيش منفيا طوال إثنى عشرة سنة . وبعد أربعة شهور ، عاد الخومينى ليتزعم الثورة الإسلامية .

•• هيلمز ، العراق ، ص ١٦٠ .

• كلوديا رايت ، « العراق - قوة جديدة فى الشرق الأوسط » ، الشئون العربية شتاء ١٩٧٩ ، ص ٢٦٠ .

واختفى محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى ، رمزا المعارضة الشيعية فى أحشاء المخابرات وكانت الطائفة الشيعية هى الضحية التالية . فكانت الشاحنات المشئومة التابعة للجيش العراقى تصل إلى المدن والقرى الشيعية لحمل أولئك الذين تحوم الشبهات حول إخلاصهم للعراق . وفى نهاية الأمر ، وصلت أعداد الشيعة الذين أجبروا على عبور الحدود إلى إيران إلى ما يقدر بحوالى ثلاثمائة ألف شيعى .

وفى خطاب ألقاه فى نينوى فى ١٥ أبريل عام ١٩٨٠ ، شهر صدام حسين سيف القومية العربية ضد رجال الدين الإيرانيين ، « وعندما يكون الصدام واجباً وطنياً وقومياً ، فإننا سنخوضه بكافة أشكاله . . . وها هو العراق يقوم مرة أخرى بدوره العربى القيادى . ها هو العراق يتولى مرة أخرى خدمة أمته العربية والدفاع عن كرامتها وسيادتها . ها هو القدر يضع على عاتق العراق مرة أخرى مهمة مواجهة مكائد قوى الظلام »* .

ورد الخومينى بدعوة العراقيين « للإطاحة بهذا النظام الفاسد » . ووصف صدام حسين بأنه « كائن طفيلى خائن » وتوعد بالإطاحة به كما أطاح بالشاه ، ووصف حسين على منتظرى ، نائب الخومينى نظام « الجزار صدام حسين » بأنه معاد للإسلام . وقال « إننى على يقين من أن الدماء الزكية لشهداء الإسلام ستغلى فى عروق شعب العراق المسلم . . . وستظل هذه الدماء تغلى حتى تتم الإطاحة بنظام صدام حسين »** .

وفى ١٧ سبتمبر عام ١٩٨٠ ، إمتد الصراع المحتدم بين القومية العربية والإحياء الإسلامى ، والعداء المستمر منذ قرون بين العرب والفرس والنزاع على الأراضى الذى إمتد من بلاد ما بين النهرين العثمانية إلى العراق البعثية ليلحق بمخاوف صدام حسين من الإضطرابات الشيعية فى جنوب العراق . وأمام كاميرات التليفزيون العراقى ، مزق صدام حسين إتفاقية الجزائر الموقعة عام ١٩٧٥ والتى سلمت العراق بموجبها بسيادة إيران على شط العرب ، وبعد أسبوع غزا العراق إيران . وفى معرض دفاعه عن نفسه ضد مشاعر الثورة الإسلامية ، دعا صدام حسين العرب لحرب جديدة ضد الفرس . وبرفع درع القومية العربية ، أعلن صدام « إننا عراقيون ، ونحن جزء من الوطن العربى والأمة العربية »* .

وخوفا من تأثير الثورة الإسلامية على نظمها ، سارت الدول العربية خلف قائد لم تختره ولا تثق فيه . ولخدمة مصالحه الإقتصادية والإستراتيجية ، تحالف الملك حسين ملك الأردن صراحة مع العراق ، وأعلن أن « العراق هو خط المواجهة ليس فقط للأردن بل للمنطقة باكملها ، للخليج والسعودية وعُمان »** . وكانت الدول الخليجية أكثر حذرا . وبسبب تاريخها الطويل من

---

* ورد فى شهرام شوبن وتشارلز تريب ، « إيران والعراق فى حالة حرب » ، ١٩٨٨ ، المقدمة .
** هيلمز ، العراق ، ص ١٦٢ .
* نفس المصدر السابق ، ص ٨ .
** نفس المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

عدم الشعور بالإرتياح تجاه نظام العراق الثورى والإشتراكى ، رفضت فى البداية قبول أن يكون صدام حسين بسمارك العرب . ولكن مع مرور الوقت ، وإزاء مخاوفها المتزايدة من إمتداد الثورة الإسلامية إلى شعوبها ، أرادت السعودية والكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة إحتواء إيران ، ومن ثم راحت تلك الدول الغنية والضعيفة تحول الأموال للمجهود الحربى لصدام حسين .

وكان أسد دمشق ، حافظ الأسد ، هو الوحيد الذى خرج عن الصف العربى لأسباب سياسية وتاريخية وشخصية . فدمشق وبغداد متنافستان طبيعتان . وتمثلان ساقين من الثلاثى العربى . وتشتركان فى حدود مشتركة وتتقاسمان مياه الفرات ، وتتنازعان بشأن الأمور الإقتصادية وبينها نقل البترول العراقى عبر خطوط الأنابيب السورية . كما أنهما تحملان ميراث الصراع الداخلى المرير فى حزب البعث . ففى عام ١٩٦٦ إنقسم الحزب بين جناحيه السورى والعراقى . ومنذ ذلك الحين ، أصبح كل بلد ينظر بإرتياب للآخر ويوفر الملاذ للفارين من البلد الآخر* . غير أنه ليس هناك شىء يميز العداء بين سوريا والعراق مثل العداء الشخصى القائم بين حافظ الأسد وصدام حسين . فهو الذى حال فى النهاية دون قيام الوحدة بين البلدين عام ١٩٧٨ . وهو الذى وضع سوريا العربية إلى جانب إيران الفارسية . عام ١٩٨٠ .

وقد تمكنت العراق خلال أيام من الغزو من التوغل داخل إيران حيث إستولت على ميناء خورامشهر وطوقت منشآت البترول الحيوية فى عبدان . ولكن الجيش الإيرانى لم يمثل تلك الدرجة من الفوضى وإنخفاض الروح المعنوية التى قدرها صدام فعلى مدى عام كامل ، ظلت الحرب فى حالة جمود وفى العام التالى ، تقدمت إيران داخل العراق . ولكن العراق تماسك ، ويعود السبب الأكبر فى ذلك إلى سيطرته على الأقليات الموجودة به فالشيعة ، الذين لعب ولاؤهم المشكوك فيه دورا فى قرار صدام حسين بغزو إيران ، وقفوا إلى جانب العراق وأمدوه بالجزء الأكبر من قوات المشاة . ويعود موقف الشيعة لأسباب متعددة . فقد حولت مخاطر الحرب الشيعة عن التطلع إلى هيئة دينية بعيدة تتركز فى طهران والتمسك بالتنظيمات التقليدية التى توفر الأمن - وهى القبيلة والعشيرة ومن الناحية الإقتصادية ، فإن سنوات الرخاء من الحكم البعثى إن لم تكن قد خلقت قومية عراقية حقيقية ، فإنها خلقت على الأقل شعوراً بوجود مصالح إقتصادية مشتركة بين الشيعة والحكومة العراقية . وأخيرا ، فإن جاذبية طهران ربما لم تكن أبدا من القوة مثلما كان يظن صدام . وبوقوف الشيعة إلى جانب العراق ، فإن الشيعة أكدوا بمعنى من المعانى على دعوة البعث للقومية العربية . ذلك أن معظم الشيعة فى العراق من العرب ، ويتحدثون العربية لا الفارسية . ومع إحتدام الحرب ، بدا أنهم وجدوا هويتهم مع العرب أكثر مما وجدوها مع الفرس . وحتى الأكراد ، الذين تشغلهم إنقساماتهم الداخلية ، ظلوا هادئين فى الأيام الأولى من الحرب . وبرغم قوميتهم الشديدة ، فإن الأكراد لم يكونوا أكثر توحداً من أى طائفة أخرى فى العراق . فهم ينقسمون إلى جماعتين لغويتين كبيرتين ، ويتوزعون بين القرية والعشيرة والقبيلة ، ويستجيبون للمصالح

---

* عندما طرد حافظ الأسد ميشيل عفلق ، مؤسس حزب البعث من سوريا توجه إلى العراق حيث أخذ يهاجم البعث السورى حتى وفاته .

الإقتصادية المختلفة على أساس ما إذا كانوا يعيشون فى المناطق المنخفضة أو المناطق المرتفعة ، وينتمون إلى عائلات متنافسة وأيديولوجيات مختلفة . وبين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨٢ ، إنشغل الأكراد فى صراعاتهم الداخلية ، مما منح بغداد فترة لإلتقاط الأنفاس من مشكلتها الكردية الدائمة .

وقد مر العامان الأولان من الحرب بدون آلام تقريبا بالنسبة للعراق . وقد نجحت أجهزة إعلام الدولة فى الربط بين حرب العراق مع إيران والحرب العربية التى إمتدت لقرون ضد الفرس . وراح صدام حسين يصف الإيرانيين بصوته الأجش بـ « العنصريين الفرس » ووصف الخومينى بالجهل وضيق الأفق والفارس العنصرى المتعصب و« الشاه المعمم » .

وعلى طول شوارع بغداد التجارية ، كانت الحوانيت مليئة بالخضر والفاكهة واللحوم . فقد كانت حكومة صدام حسين حريصة على توفير السلع ، عدا السجائر والغاز ، بكميات أكبر مما كان متوفرا قبل الحرب وكانت تعالج الكوارث الشخصية بمنح أسر الجنود القتلى ما يكفى لشراء قطعة أرض ومنزل جديد وسيارة .

وكانت صور صدام حسين فى كل مكان وهو يرتدى مختلف الأزياء من حلة مشير ، إلى الثوب العربى التقليدى ، إلى ملابس المواطن العادى الذى يرتدى القميص المفتوح والقبعة البنمية وهو يقضى الأجازة . وراحت الصحف تنشر صور الرئيس وهو يزور الجرحى ويواسى أسر الشهداء ويتفقد القوات . ولكن كان هناك جانب آخر للحرب واضح للعيان . فيوماً بعد يوم ، كان بإمكان المرء رؤية سيارات الأجرة وعلى سطحها نعوش الجنود القتلى تمضى فى الشوارع فى طريقها لتسليمها إلى ذويهم . وكانت اللائمة تقع بشكل غير صريح على صدام حسين . وفى ١١ يوليو ١٩٨٢ دخل صدام مبنى فى مدينة سُنية - شيعية مختلطة تقع على بعد أربعين ميلا إلى الشمال من بغداد . وبدون إنذار قامت مجموعة من الشيعة المسلحين ينتمون إلى جماعة الدعوة بشن هجوم . وتم إحتجاز صدام حسين لمدة ساعتين حتى وصلت تعزيزات قوية من الجيش لإنقاذه . وكانت تلك هى ثانى محاولة لإغتياله فى غضون أربعة شهور . ووسط أنباء عن حدوث إضطرابات ومحاولات إنقلابية ، تقوقع صدام حسين داخل قصره معتمدا على عدد قليل من أقاربه ومؤيديه .

وكان قصر الرئاسة يضم قائدا تحت الحصار . فالدبابات تسد كافة المداخل إلى القصر وتقف القوات شبه العسكرية بزيها الميدانى على أبواب الحراسة . وفى وقت من الأوقات ، بدا أن كافة المحيطين بصدام قد أصبحوا أسرى لمخاوفه . فإبن طاهية أصبح هو الذى يتذوق الطعام الذى يعده والده له . وعندما يسافر كان حرسه ينقلون مقعده الشخصى خشية أن يكون أحدهم قد وضع مسماراً ساماً فى المقعد الذى سيجلس عليه . وحتى الموفدون الأجانب ، إما أنهم كانوا لا يلتقون بصدام على الإطلاق أو يتم نقلهم بطائرات هليكوبتر من المطار إلى سيارة تأخذهم للإلتقاء به فى مكان غير معلوم . ومع ذلك كان صدام لا يزال يشعر بالخوف . وقد بدأت شركة بوسفايو آند كانيور إيه جى الألمانية للإنشاءات فى إقامة خندق تحت الأرض قادر على تحمل الضرب بقنبلة ذرية ، ويقع الخندق على عمق كبير تحت مدينة بغداد ويتم الوصول إليه عبر مصعدين مسلحين وباب من الصلب يزن أربعة أطنان . وبداخله مجموعة من الثريات المتلألئة تؤدى إلى حمام سباحة ومسجد

وحمام الرئيس الذى تزينه أحواض السمك المثبتة فى الحائط . ويقول مشيدو هذا الخندق أن صدام يستطيع أن يعيش داخله لمدة عام كامل دون حاجة للصعود فوق الأرض .

وإستمرت الحرب . وبعد أن أصبح موقفه حرجا ، خفف شروطه للسلام إلى وقف إطلاق النار والعودة إلى أوضاع ما قبل الحرب . ولكن الخومينى رفض . وأعلن آية الله أنه لن ينهى الحرب إلا بعد الإطاحة بصدام حسين وموافقة العراق على دفع تعويضات ضخمة لإيران . وإختار صدام ، الذى أجبر على الإختيار بين السلام والسلطة ، إختار السلطة وأصبحت الحرب ، التى قامت بسبب خطأ صدام حسين الشخصى ، حرب صدام الشخصية من أجل البقاء .

ولكن صدام لم يكن ليستطيع أن يواصل الحرب وحده . وكان عليه أن يحصل على التأييد العربى . وأصبحت قدرة العراق على تموين جيشه وإطعام شعبه تعتمد على ميناء العقبة الأردنى . وقامت دول الخليج العربية بتمويل واردات العراق من السلاح . ونظرا لإحتياج صدام للتأييد العربى ، فإنه أصدر بياناً محدداً بخصوص الوحدة العربية فى ٨ سبتمبر ١٩٨٢ ، حيث إستبعد الأيديولوجية البعثية وتخلى رسمياً عن الإلتزام البعثى بقيام دولة عربية واحدة ، وأقر بخصوصية الأوضاع فى كل بلد عربى وبشرعية الحكام التقليديين فى الخليج ، وقال « إن العراقيين يرون الآن أن الوحدة العربية لا يمكن أن تتحقق إلا بعد رسم واضح للحدود بين كافة الدول العربية . كما أننا نعتقد أن الوحدة العربية لا يمكن أن تتحقق بالقضاء على الخصائص المحلية والوطنية لأى بلد عربى . . . إن مسألة ربط الوحدة بإزالة الحدود لم تعد مقبولة لدى الفكر العربى الحالى . لقد كان يمكن أن تكون مقبولة قبل عشر سنوات أو عشرين سنة . وعلينا أن نأخذ فى الإعتبار التغير الذى طرأ على العقل العربى والنفس العربية . وعلينا أن نرى العالم كما هو . إن أى عربى يأمل فى أن يرى أمة العرب أمة واحدة . . . ولكن هذه مجرد أحلام . والواقع العربى الآن هو أن هناك إثنتين وعشرين دولة عربية ، وعلينا أن نتصرف وفقاً لهذه الحقيقة ، ولذا فإن الوحدة يجب ألا تفرض ولكنها يمكن أن تتحقق من خلال رأى أخوى مشترك . إن الوحدة يجب أن تعطى قوة للأطراف المشاركة فيها لا أن تلغى هويتها الوطنية»* . وكان العراق قد دخل الحرب مع إيران حاملاً معيار الوحدة العربية كما حدده المبدأ البعثى التقليدى ، غير أنه فى ظل الحقائق المجردة لحرب طويلة ، أصبح المعيار الوحيد هو البقاء .

وبحلول عام ١٩٨٤ ، أصبحت الحرب تأتى على الإقتصاد العراقى مثل السرطان . فقبل الحرب ، كانت صادرات العراق من النفط تبلغ ٣ر٣ ملايين برميل يوميا . ولكن مع إغلاق الخليج بفعل الألغام التى وضعها الإيرانيون وإغلاق خط أنابيب البترول الذى يعبر الأراضى السورية ، هبطت إلى ما يتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ ألف برميل يوميا . وتبخرت معظم إحتياطيات العراق المالية

---

* هيلمز ، « العراق » ، ص ص ١١٤ - ١١٥ . كان البيان يعكس الأيديولوجية أكثر مما يعكس الواقع . فبعد أن تولى السلطة فى ١٩٧٩ ، لم يؤيد صدام حسين بشكل جاد مطلقا قيام دولة عربية موحدة يمكن أن تحد من سيطرته الشخصية على العراق . وفى تغير كامل ومفاجىء آخر أيدت العراق عودة مصر فى مؤتمر القمة العربى فى عمان عام ١٩٨٧ . إذ لم يعد إبتعاد مصر يخدم مصالح العراق .

ولـ ـ بلغت قبل الحرب ٣٥ مليار دولار ، وكذلك إحتياطياته من الذهب . وفي غضون أربع سنوات تحول العراق من بلد لديه فائض مالي إلى بلد مدين يعيش على المساعدات المالية التي تأتيه من الكويت والسعودية أساسا . ولكي يتغلب على متاعبه ، خفض العراق ما يمنحه لأسر الشهداء إلى خمسة آلاف دينار . وكانت هذه مجرد بداية . وبعدها حظر العراق إستيراد السلع الفاخرة ومنها السيارات والساعات وأجهزة التليفزيون وبعض أنواع الملابس ، ولم يعد بمقدور العراق أن يتباهى بأن « العراق أصبح مجتمعا إستهلاكيا ، لقد أفسدتنا الحياة الناعمة والأموال الطائلة واختفاء افقر »* . واضطر صدام الذي جاءت شرعيته من أمر واحد هو بناؤه للعراق الحديث ، إلى إلغاء العقود وتقليص كافة مشروعات التنمية . وبدلاً منها ، أخذ صدام يزيد من عبادة الفرد .

وفي مناخ ثقافي لا يولي إهتماما كبيرا بأعياد الميلاد ، أصبح عيد ميلاد صدام حسين عيداً قومياً . وأصبحت صور الرئيس بملابسه العسكرية تزين المقاهي ونوافذ الحافلات وأعمدة الإنارة وساحات المساجد ، وأصبح وجهه يزين ساعات المعصم وأطباق الكعك ذات الحواف المذهبة وكراسات المدارس والتقاويم . وفي عالم التصوير طبعت سلسلة من الصور الرائعة المتقنة إحتفالاً « بصدام العظيم » . وفي الشعر أصبح هو « عبير العراق وتمرها ومصب نهريها وساحلها ومياهها ، وسيفها ، ودرعها ونسرها الذي تبهر عظمته السماوات . وطالما كانت هناك عراق فأنت زعيمها المنتظر الموعود »** .

وقد بلغت عبادة الفرد الذروة بإستعادة أمجاد بابل القديمة ، حيث ربط صدام حسين نفسه بعظمة نبوخذ نصر . ففي الطريق خارج مدينة الحلة ، وضعت صورة هائلة الحجم لصدام حسين وهو يرتدي الكوفية وتحلق فوق رأسه حمامة السلام ، وهو يشير إلى الغرب بإتجاه بابل الجديدة . وفي مدخل المدينة ، بدا واضحا أن ما زيد عن ألفين وخمسمائة عام تفصل بابل القديمة عن بابل القديمة . فأعلى بوابة عشتار التي أعيد بناؤها وضع تمثال خشبي لصدام حسين يزيد إرتفاعه عن البوابة نفسها مرة ونصفا وهو يرفع يده بالتحية . والحقيقة أن الإهتمام ببابل لا يرجع إلى أنها موقع أثري ، بقدر ما هو ترويج لفكرة أن صدام حسين هو الخليفة الحقيقي الذي عثرت عليه العراق لنبوخذ نصر . وتشير الشوارع والحوائط التي ظهرت من الأطلال القديمة بفعل الجهود الجبارة للعمال المصريين والسودانيين لنسخة طبق الأصل من القصر الجنوبي للملك نبوخذ نصر الذي رفع من موقعه الأصلي . وحيث كانت الحدائق المعلقة تثير إعجاب العالم القديم ، نقش على الحوائط الهائلة المبنية من ملايين من قوالب الطوب الأحمر والتي ترتفع لثمانين قدماً : « بابل نبوخذ نصر : أعيد بناؤها في عهد صدام حسين » .

وبعيدا عن بابل كانت الحرب مستمرة وراح الجيشان العربي والفارسي يستنزفان بعضهما البعض في مستنقعات شط العرب ، بينما راحت المدفعية تقصف منشآت إنتاج البترول على

---

* يو . إس . آندوورلد ريبورت ، ١٧ نوفمبر ١٩٨٠ .

** إيلين سكيو لينو ، « الأخ الكبير : العراق تحت حكم صدام حسين » مجلة نيويورك تايمز ، ٣ فبراير ١٩٨٥ ، ص ٢٤ .

الجانبين ، وتنطلق الصواريخ على السكان المدنيين حيث تحدث الرعب ولا توقع الهزيمة . وبدا أنه ليس بمقدور أي طرف كسب الحرب ، كما بدا أن أيا منهما لن يخسرها . وفي يوليو عام ١٩٨٦ ، تحول التركيز في الحرب من البر إلى البحر . فأرسلت العراق طائراتها وصواريخها ضد السفن الإيرانية في الخليج في محاولة يائسة لوقف صادرات إيران من البترول من ميناء البترول الرئيسي في جزيرة خرج . ولأن إبحار السفن العراقية في الخليج كان قد توقف بالفعل عام ١٩٨٤ ، فإن إيران ردت بضرب سفن حلفاء العراق . وفجأة لامست حرب صدام حسين دول الخليج العربية . والتزمت السعودية الصمت ، ولكن الكويت صرخت طالبة النجدة ، وقامت الولايات المتحدة التي تشعر بحساسية شديدة تجاه تدفق النفط من الخليج وعزم الحكومة الإيرانية على القضاء على النفوذ الغربي في العالم الإسلامي ، بإرسال أسطول صغير إلى الخليج لضمان حرية الملاحة . وفي ١٧ مايو عام ١٩٨٧ وبينما كانت السفينة الحربية الأمريكية « شارك » تجوب مياه الخليج ، قامت البحرية العراقية بإطلاق صاروخ أكسوسيت عليها . وزاد التوتر وارتفعت قيمة التأمين على السفن المارة بالمنطقة إلى أرقام فلكية . ولكن « حرب الناقلات » فشلت في كسر شوكة إيران وتعهد آية الله خوميني بالمضي في الحرب حتى إسقاط صدام حسين .

وبحلول عام ١٩٨٧ ، أصبحت بابل ، ديزني لاند صدام حسين ، فقد أصبح القصر الجنوبي لنبوخذ نصر قاعة للموسيقى ذات سقف مفتوح وفي ٢٢ سبتمبر ١٩٨٧ ، إحتشد خمسمائة شخص من علماء الآثار والفنانين والموسيقيين ورجال التاريخ والدبلوماسيين الأجانب في مهرجان موسيقى دولي سمي « من نبوخذ نصر إلى صدام حسين » ومع آخر ضوء من النهار ، أضيئت السماء بأشعة الليزر التي راحت تشكل صوراً متداخلة لنبوخذ نصر وصدام حسين . وكان يحق لكل شخص في العراق حينذاك أن يتسآل : لماذا تنفق الحكومة هذه الأموال الطائلة في مهرجان يقام أثناء حرب تفلس البلاد ؟ وأجاب علماء الآثار الحكوميون : « . . . . أن هذه الحرب ليست مجرد حرب عسكرية . إنها حرب ثقافية أيضا . ولدى العدو مفهوم معين عن الثقافة ، وهو يحاول تدمير ثقافتنا ـ الثقافة العربية ـ . . . . إن هذا الصراع . . صراع حضاري أكثر منه حرباً من أجل قطعة من الأرض » . *

وقد عمل صدام حسين منذ بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية على أن يضع في الأذهان أن تلك الحرب حرب عربية ضد القوة الفارسية التي تريد السيطرة على العالم العربي السني . ولم يؤثر هذا المنطق على العرب كثيرا . وكان دعمهم للحرب ضد إيران وليس دعما للعراق . وقد عبر الرئيس العراقي والمحيطون به عن إستيائهم الشديد لما إعتبروه ضعفاً في المساندة العربية لحرب تستنزف العراق . وراح المسئولون العراقيون يصبون جام غضبهم على دول الخليج لعدم تقديرها للتضحيات العراقية . وكما قال أحد المسئولين العراقيين بتذمر « لقد بذلنا الدماء ، بينما بذل السعوديون الأموال » . *

★ ورد في ملتون فيورست « نظرة من المستنصرية ـ ٢ » ، النيويوركر ، ١٩ أكتوبر ١٩٨٧ ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

★ بيتر فهرمان ، « إفقد إبناً ، وقد سيارة » مجلة فوربس ، ١١ ديسمبر ١٩٨٩ .

وفى النهاية بدأت الحرب المروعة تضع أوزارها فى أبريل عام ١٩٨٨ . فثمانى سنوات من الهجمات الجوية والصاروخية والإستنزاف الإقتصادى والرعب من التهديدات العراقية بإستخدام الغازات السامة ، قضت على إرادة إيران لمواصلة القتال وأجبرت الخومينى على التخلى عن مطلبه بإسقاط صدام حسين . وفى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ ، وافق الجانبان على وقف إطلاق النار الذى تم بواسطة الأمم المتحدة . وفى بغداد ، المدينة التى ماتت فيها الأفراح العفوية ، إمتلأت الشوارع بالحشود التى راحت تغنى وترقص . وإستمرت الأفراح خمسة عشر يوما .

ورسم صدام حسين ، الرجل الذى بدأ الحرب والذى رفض أن يترك الحكم ، صورة النصر من حرب وصلت إلى طريق مسدود وإنتهت بوقف إطلاق النار ، فقد أنزل الخزى بطهران وبأولئك الذين كانت ثورتهم الدينية تهدد كثيرا من العرب . وفجأة بدأ نجم صدام حسين الرجل الذى تصدى للفرس ، فى الصعود . وخلع صدام الرداء العسكرى وإرتدى لباسا عربيا . ونصب من نفسه مثالا للنقاء العربى . وأعاد إلى الأذهان أيام جمال عبد الناصر ونصب من نفسه بطلا للجماهير العربية ضد الأثرياء والصفوة الأرستقراطية ، وفى ظل جيش كبير خبر المعارك وبدا قادرا على تحدى إسرائيل قدم صدام نفسه لزعامة العالم العربى .

ولكن الحرب كانت قد أتت على جزء كبير من قاعدة قوة صدام وهى العراق . فالحرب ، التى كانت أكثر الحروب دموية منذ الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر ، أثرت على كل أسرة عراقية ، وخربت الإقتصاد العراقى وحملت العراق بديون تتراوح بين ٧٠ ، ٨٠ مليار دولار . وفى عام ١٩٨٩ ، العام الأول للسلام ، قدرت عائدات العراق النفطية بخمسة عشر مليارا من الدولارات . ومن هذا الدخل كان على العراق أن يسدد ديونه ، وأن يمول وارداته ، وأن يحافظ على متطلبات الدولة الإشتراكية ، وأن يدعم آلة حرب صدام حسين الهائلة . وإتجهت البلاد نحو حافة الإفلاس بينما راح صدام يسعى للحصول على قروض أجنبية ضخمة لإعادة بناء الدولة الإشتراكية التى تمثل العنصر الطوعى الوحيد فى وجوده السياسى . ولكن لم تكن هناك مصادر للتمويل ، فالحكومة اليابانية التى كانت تنتظر سداد ديونها التى تبلغ ثلاثة مليارات من الدولارات ، أوقفت كافة القروض . وراح الإتحاد السوفيتى يضغط من أجل الحصول على قيمة صادراته من السلاح للعراق والتى بلغت ٩ مليارات دولار . وحتى شركتا لوفتهانزا وسويس إير للطيران أمتنعتا عن سداد الضرائب على تذاكر الطيران التى كان يتم حجزها فى العراق ، وفاء لديونها لديه والتى قدرت بما يزيد عن مائة وخمسين مليون دولار . غير أن هذه المبالغ كانت تبدو ضئيلة للغاية بالمقارنة بديون العراق والسعودية والكويت والتى بلغت حوالى ٣٥ مليار دولار .

وقد وافقت السعودية على عدم سداد العراق لديونه وبدأت فى شطبها بهدوء من دفاتر الحسابات . ولكن الكويت راحت تكرر إثارة قضية الديون ، خاصة عندما بدأ صدام يتحدث عن حاجة العراق لتوسيع حدوده على حساب أراضى الكويت * . ووضعت قضايا الأموال والأرض

* فى عام ١٩٩٠ ، رأى صدام حسين إقامة تسهيلات بحرية فى أم قصر ، وهى قرية صيد على حدود العراق الساحلية الضيقة وفى رأى العراق أن الميناء الجديد كان يحتاج إلى الجزيرتين الكويتيتين بوبيان ووربة من أجل الحماية .

والنفوذ صدام حسين فى حالة مواجهة مع جارته وفى حالة تناقض مع الأعراف التى جرت عليها العلاقات بين العرب .

وقد بدأ طريق إنحدار العراق فى فبراير عام ١٩٩٠ ، عندما أعلن صدام حسين أنه لا يحتاج فقط للإعفاء من الديون ، بل يريد أيضا الحصول على ٣٠ مليار دولار جديدة لإعادة الحياة لإقتصاده ، وفى نهاية شهر يونيو طالب بعشرة مليارات من الدولارات من المساعدات من كل دولة عربية من أعضاء الأوبك وهى أموال اعتبرها حقا له . ولأنه كان يعتبر نفسه الشرطى الذى يحمى الدول العربية ، فإنه راح يطالب بالثمن . وعندما رفض طلبه ، إتهم الكويت بسرقة البترول العراقى من حقل الرميلة الذى ينحدر داخل الكويت وطالب بتعويض قدره ٢ر٤ مليار دولار .

وفى ٢١ يوليو ، ووسط سيل من الشائعات عن تجربة العراق لأجهزة نووية و « موقع ضخم » قادر على إطلاق قذائف هائلة من الغاز السام ، تم حشد ثلاثين ألف جندى عراقى بالقرب من الحدود الكويتية . وعاد صدام للهجوم على الدول العربية المنتجة للبترول ، وهذه المرة بشأن الأسعار وحصص الإنتاج . ووجه صدام الإتهامات بأن كل دولار تخفضه الكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة من سعر برميل البترول بتجاوز حصص الانتاج التى حددتها الأوبك ، يكلف العراق مليار دولار سنويا . وفى ٢٦ يوليو ، أذعنت الكويت ووافقت على خفض الانتاج لرفع الأسعار . ورد صدام بتحريك ثلاثين ألف جندى آخرين بإتجاه الكويت .

ورغم حشد ما مجموعه مائة ألف جندى وثلاثمائة دبابة ، ظل العرب على إعتقادهم بأن ما يقوم به صدام مجرد عملية خداعية * وفى ٣١ يوليو اجتمع الكويتيون والعراقيون فى جدة تحت رعاية السعوديين . وبعد ساعتين انتهى الاجتماع دون التوصل الى اتفاق . وتوقع الكويتيون عقد إجتماع آخر اعتقادا منهم بأن صدام لن يتحرك ضد الدولة التى ساهمت كثيرا فى الحفاظ على إستمرار آلة الحرب العراقية . ولكن صدام استمر فى اصراره على ان العرب هم المدينون ، لأنه خاض الحرب ضد الثورة الإيرانية نيابة عنهم .

وبحلول الأول من أغسطس ، باتت المخابرات الأمريكية على قناعة بأن العراق سيقدم على الخطوة التى لا يمكن التفكير فيها ــ وهى غزو الكويت . وكان الرئيس المصرى حسنى مبارك والملك فهد ملك السعودية والملك حسين ملك الأردن ، لازالوا يعولون على مبدأ الوحدة العربية ، وعلى أهم أسس هذا المبدأ هو عدم قيام أى بلد عربى بغزو بلد عربى آخر . وقد علق وليام بستر مدير المخابرات الأمريكية على ذلك بعد عشرة شهور بقوله « إن الكويتيين لم يكونوا ليصدقوا ذلك . وكذلك كافة العرب . * ولكن هذا هو ما حدث .

وفى الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، عبر مائة ألف جندى عراقى الحدود إلى داخل الكويت . وقد جاءوا فى دبابات وناقلات جنود وحافلات عادية . وجاءوا من الحرس

* لم يكن العرب وحدهم . وغادر السفيران الأمريكى والسوفيتى بغداد فى اجازة فى نهاية شهر يوليو .

* الإذاعة الوطنية ، ٨ مايو ١٩٩١ .

الجمهورى ، صفوة القوات العسكرية العراقية ، ومن الجيش الشعبى ، المكون من الفلاحين غير المنظمين ، ومن جهاز المخابرات المخيف ، ومن الشرطة السرية . وفى غضون خمس ساعات كانوا قد إحتلوا الكويت . ومن خلال ما أسماه « ثورة الثانى من أغسطس » أراد صدام أن يصحح الأخطاء الإمبريالية القديمة ضد العراق ، وأن يلغى الحدود التى تحول دون وجود منفذ للعراق على البحر ، وأن يعوض العراقيين عن مظالم عرب الخليج الذين كانوا يرفلون فى النعيم أثناء الحرب بين العراق وإيران بينما كان العراقيون ينزفون الدماء ويموتون من أجل حمايتهم . ومن أجل هذه الأسباب حطم صدام حسين أسس الوحدة العربية .

وتزلزل العالم العربى . فالمبادىء المقدسة والتحالفات التقليدية والأوضاع التى حظيت بالإحترام على مدى الزمن ، إنهارت كلها لحظة وثوب القوات العراقية على الكويت . وبين عشية وضحاها تلاشت فكرة الوحدة العربية التى غرست وأحيطت بسياج من الحماية منذ الأيام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية . وحاول العرب التحرك بشكل جماعى لإحتواء ذلك الذى إنتهك القواعد العربية . فعقدت الجامعة العربية جلسة طارئة . ولكنها لم تستطع أن تتواصل لإجماع . وإتخذت مصر وسوريا والسعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة والبحرين وقطر ولبنان موقفا ضد العراق ، فى حين وقفت الأردن واليمن ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب صدام حسين .

وانضمت قوات برية وجوية من مصر وسوريا الى السعودية والقوات الغربية بقيادة الولايات المتحدة . وفى الوقت الذى احتشدت فيه آلة الحرب الهائلة فى مواجهة غزو صدام حسين للكويت على رمال الصحراء فى السعودية تصرف صدام بأسلوب الطغاة . فأخذ آلافا من الغربيين كرهائن ووضعهم كدروع بشرية فى منشآته العسكرية . ولتحييد ايران وجبهته الشرقية المثيرة للقلق ، تخلى صدام عن شط العرب . وضاعت المكاسب الضئيلة التى حققها من ثمانى سنوات من الحرب مع ايران .

وعلى مدى ستة أشهر تجمعت عناصر الحرب . فوقفت مصر وسوريا والسعودية ومجموعة من الدول العربية الى جانب قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الامريكية ، بينما لعب صدام حسين على العداء العربى الممتد لقرون من الزمان للغرب ، وبتجميع مشاعر الكراهية والاستياء لدى العرب ، راح صدام حسين يتحدث مرة أخرى عن خيانة الغرب للعرب وينسج مرة أخرى أيضا حلم القائد الذى يعيد العرب الى مكانهم الصحيح فى العالم . وكانت تلك هى نفس الأفكار التى رفعها جمال عبد الناصر قبل ثلاثة عقود من الزمان . وها هو صدام حسين يعيد ترديدها من جديد .

ولكن عبد الناصر استفاد من الحرب الباردة آنذاك ، أما صدام ، فقد اثار أول أزمة للنظام العالمى الجديد تقف فيها القوى العظمى فى نفس الجانب . وأصدرت الأمم المتحدة القرار بعد الآخر ـ مطالبة العراق بالانسحاب ، كما فرضت عليه عقوبات اقتصادية وأنذرته انذارا نهائيا بالانسحاب من الكويت ، وظل صدام حسين يرفض الاذعان لكل هذه القرارات . ولكن معظم العرب والعالم الخارجى كانوا على قناعة بأن ذلك الطاغية القادم من تكريت قد ذهب الى مدى بعيد للغاية وفى الساعة ٣٠ر٢ من صباح ١٧ يناير عام ١٩٩١ ، قامت قوات التحالف التى حشدها جورج بوش بضرب العراق ، وساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم ، ظلت الأسلحة ذات التكنولوجيا المتقدمة

تلقى بأجيال جديدة من القنابل على المنشآت العسكرية ومرافق البنية الأساسية العراقية ، وتحدث صدام حسين من مخبئه قائلا : « أيها العراقيون الأمجاد أيها العراقيون الأبطال ، أيها العرب ، أيها المؤمنون فى كل مكان ، اننا صامدون » * . وراحت الاذاعة العراقية تردد : « يا صدام حسين ، أنت البسمة على شفاه الصغار والكبار ، أنت القمر السابح فوق بلاد الرافدين » ** .

ومرة أخرى راحت سيارات الأجرة تنقل توابيت القتلى من الجبهة الى بغداد وأماكن المقابر الشيعية فى كربلاء والنجف ، ومرة أخرى أيضا اضطر العراقيون الى دفع ثمن أخطاء صدام حسين .

واخيرا جاءت « أم المعارك » ، وهى الحرب البرية التى طال انتظار صدام حسين لها ، فى ٢٣ فبراير ، وقد استمرت مائة ساعة . وحينما بدأت موجات الهجوم تنهال على الحدود الجنوبية للكويت ، أخذ الجنود العراقيون الذين كانوا يعانون من البرد والجوع والهلع بعد أسابيع من القصف الشديد ، يخرجون من مخابىء صدام حسين الدفاعية ، واتجه الحرس الجمهورى الى الشمال محاولا الهرب من التطويق وأصبح الطريق الى بغداد مفتوحا . ولكن تقدم قوات التحالف توقف ، فالامريكيون والبريطانيون والفرنسيون والسعوديون والسوريون والمصريون ، كانوا يريدون أن يقوم الضباط العراقيون السُنة بالاطاحة بصدام حسين للحفاظ على العراق سليما ، وسواء كان ذلك خطأ أم صوابا ، فقد ساد اجماع غير مستقر بين صفوف التحالف بأن الاطاحة بصدام حسين فى ظل عدم وجود قوة سياسية تحل محله يمكن أن تفتح الباب أمام مشاكل كثيرة . ففى ظل النزاعات المزمنة ، فان من المرجح أن يتشرذم العراق ويصبح منطقة حدودية ضخمة غير مستقرة تستطيع الدول المحيطة بها ممارسة دعاويها الاقليمية والعرقية والدينية فيها * . ولكن العراق ، الذى أصابه الضعف بسبب حدوده الصناعية التى كانت لعنة على تكامله السياسى منذ نشأته ، والذى خضع على مدى عقود للحكم الشمولى ، أثبت عدم قدرته على احداث التغير المنظم ، ففى المدينتين المقدستين النجف وكربلاء وفى مدن مثل صفوان وفى القرى الواقعة فى الصحراء الواسعة المهجورة غرب الفرات ، والتى لا يعرف أسماءها الا سكانها ، انتفض الشيعة ضد بغداد ، وراحوا ينفسون عن غضبهم ضد الحكومة التى تسيطر عليها السنة والتى تحرمهم من حقوقهم السياسية والاقتصادية ، ولكن تسليحهم كان ضعيفا ولم يكونوا منظمين تنظيما جيدا ، وفى الشمال ، حاول الأكراد ، الذين أحسوا بضعف صدام حسين ، مرة أخرى الوصول الى كردستان . وفى الوسط تقع بغداد والمثلث السنى . وقد ضعفت سيطرة السنة على التخوم . ووقف الجيش العراقى ، الذى يسيطر عليه السنة والقوة الوحيدة القادرة على تغيير الحكم ، مع صدام حسين . وعلى الرغم من أن الكثيرين ربما كانوا يكرهونه ، فانهم كانوا يكرهون خصومهم فى الدين والعرق أكثر .

---

* نيويورك تايمز ، ٢١ يناير ١٩٩١ .
** نيويورك تايمز ، ٢٨ يناير ١٩٩١ .
* لعب الخوف من ان تقوم ايران بمد نفوذها أو سيطرتها على جنوب العراق دورا كبيرا فى قرار التحالف بعدم الاستيلاء على بغداد .

واتجهت دبابات الحرس الجمهورى ، تسبقها طائرات الهليكوبتر ، صوب الشيعة . فهرب آلاف من الأسر التى أصابها الرعب الى المنطقة التى كان يحتلها الامريكيون بالقرب من الحدود الكويتية ، بينما اتخذ معظم المتمردين من مسجدى على وحسين فى كربلاء مواقع لهم ، وراحت النيران العراقية تصب على كل مبنى داخل دائرة قطرها نصف ميل حول قبر الشهيد الحسين ، ومع نهاية شهر مارس ، سلم المتمردون المسجد للجيش . وفى ظل الهدوء الذى فرضته الهزيمة ، كانت الأبواب الذهبية المنقوشة الشهيرة معلقة على مفصلة ملتوية ، وكان الفسيفساء الفيروزى مهشما بفعل نيران الدبابات . وكانت ست أنشوطات مدلاة فى الفناء الذى كان يجتمع فيه نحو ألف زائر يوميا للصلاة . وكانت الآثار الموجودة على جدران احدى الغرف الجانبية تشير الى المكان الذى كانت تقوم فيه فرق اطلاق النار بعمليات الاعدام تحت لافتة كتب عليها « عاش القائد صدام » .

ثم اتجهت قوات صدام حسين الى الشمال لقمع الأكراد . ويتذكرهم عامى ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ عندما قام صدام حسين بقمع التمرد الذى وقع آنذاك باستخدام الغازات السامة ، راح الأكراد الوفا بعد ألوف يفرون فى فزع تحت الأمطار والصقيع ، وقد ساروا فوق الجبال ، حفاة الأقدام فى الغالب للوصول الى تركيا ثم تدفقوا عبر الحدود الى ايران ، وربما اختار ما يقدر بنحو مليونى شخص الجوع والتشرد على التعرض لانتقام بغداد . وبحلول شهر ابريل ارتفع علم العراق مرة أخرى فوق كردستان بأكملها .

وقد بقى صدام حسين ، على الأقل حتى ذلك الوقت . واحتفل بعيد ميلاده الرابع والخمسين وحوله ستون ألف جندى مسلح وأفراد عشيرة تكريت . وفى تكريت سار أنصاره وقد حملوا نموذجا ضخما من الورق المقوى لرأسه على ظهر شاحنة وطافوا به أرجاء المدينة . ولكن صدام نفسه لم يكن هناك . ففى مكان ما لم يكشف عنه النقاب ، نقلت عدسات التليفزيون الى الأمة الرمز القومى فى حلته البيضاء .

ويعتبر شعار « صدام حسين هو العراق والعراق هو صدام حسين » هو الشعار الذى عمل صدام نفسه على تحويله الى حقيقة . ومن المثير للسخرية ان صدام نجح فى ان يجعل من نفسه رمزا للاحباط العربى أكثر منه رمزا للقومية العربية . وبغض النظر عن العيوب الواضحة والعميقة فى شخصيته ، فان صدام اثار بالفعل فى الأيام الأولى لأزمة الخليج ، بعضا من أعمق مشاعر العرب . وبسبب عدم قدرته على تحقيق المصالحة مع الحكومات العربية فقد تخطاها صدام حسين بالحديث مباشرة الى العرب الذين تجاهلت حكوماتهم تطلعهم الطويل الى اصلاح حال الأمة العربية ، وحتى وهو يترك شعبه يتحمل المعاناة الناجمة عن الحصار الاقتصادى الذى فرضته الأمم المتحدة ، راح صدام يعرض قضيته بقوة على الجماهير العريضة من العرب ، بانه لن يسمح بما وصفه بالمؤامرة التى يحيكها الغرب لسحق الكرامة والكبرياء العربيين .

ولم يسع خصوم صدام حسين ، الذين اعترتهم الشكوك فى مستوى ومدى التأييد الذى يتمتع به صدام فى الشارع والذين كانوا يشعرون بالقلق بشأن دورهم بالوقوف الى جانب الغرب فى حرب الخليج ، لم يسعوا لطرد العراق من الجامعة العربية وظل النزاع داخل البيت العربى كما هو ـ نزاع

بين أناس يتعين عليهم العيش معا ، وهذا هو ما ساعد صدام على البقاء بعد ما اعتبره معظم العالم هزيمة مخزية . وهكذا حققت مقولة « صدام حسين هو العراق والعراق هو صدام حسين » مصداقية فى العالم العربى ، ولكن هل هى تحظى بالشرعية فى العراق ؟ وهل يستطيع صدام ان يستمر فى طموحاته العربية وفى الأخطاء التى تولدت عن هذه الطموحات ويستمر فى البقاء من الناحية السياسية فى العراق ؟ ان العراق هو البلد العربى الذى أراد له صدام أن يكون كذلك ، ولكنه أيضا بلد الأكراد والشيعة العرب الذين لا يشاطرون صدام التزامه بالعالم العربى ، انهم يشكلون غالبية بلد يحاول الوصول الى الأمة العربية وفى ذات الوقت يبتعد عنها . ويظل العراق ، كما كان دائما ، واقعا عند الحافة الشرقية للعالم العربى .

الفصل الثانى عشر
ياسر عرفات: الرئيس

فى الساعة الحادية عشرة مساء رن جرس التليفون رنينه العاجل المفاجىء فى حجرتى بفندق هيلتون تونس ورفعت السماعة ومن الجانب الآخر قال محدثى بصوت جاف « الرئيس سيقابلك الليلة . توجهى الى مدخل الفندق . وستكون هناك سيارة فى انتظارك » . وكان ذلك هو كل شىء .

وغيرت ملابسى على عجل وأخذت معى مسجلا للصوت وأجندة ، وهرولت بين ممرات الفندق . وبمجرد أن وصلت الى الباب الدوار بالخارج رأيت سيارة بنية اللون لا أعرف نوعها ، حيث فتح بابها الخلفى . ودلفت من هذا الباب بسرعة . وراح السائق يرفع دواسة البنزين بقوة والسيارة تنهب الطريق الطويل ذى المنحنيات ، ثم استدار الى الشمال واتجه الى شبكة من الشوارع التى تحف بها الأشجار وتحيط بالمرتفعات المطلة على خليج تونس . ولم ينبس أحد ببنت شفة .

وبعد خمس دقائق ، هدأت السيارة فجأة من سرعتها أمام سيارتين تسدان الطريق وتقفان على الزوايا اليمنى للشارع . وقام رجال يحملون أسلحة آلية بتوجيهنا الى الطريق بعد ان تعرفوا على السائق . وبعد ذلك سارت السيارة قليلا ثم توقفت أمام فيلا مطلية بالجص مكونة من طابقين تبدو مثل أى فيلا من الفيلات المحيطة بها . ونزلت من السيارة وكان الهواء ثقيلا ويخيم على المكان هدوء شديد . وكان هناك ما يقرب من عشرين مسلحا يقفون فى دوائر منتظمة تحت الأشجار . ولم يقطع السكون سوى صوت همساتهم وصوت الأسلحة المعدنية الثقيلة وهى تتغير من مواقعها بينما كنت أقترب من البيت .

ودخلت من الباب الى مكان يسوده الهرج والمرج ، فقد كانت سكرتيرة ياسر عرفات تضع ملفات ضخمة فى احدى الحقائب . وكان حولها مساعدون يحملون رسائل بالفاكس ، ويهرعون من مكتب لآخر بين الحرس الذين يحملون الأسلحة الآلية على أكتفاهم . ووسط هذه الفوضى الظاهرة ، كان يجلس رجال ونساء دون هدف واضح . وقد تم اقتيادى الى حجرة استقبال متوسطة الحجم وأُجلست على كرسى معدنى وأُبلغت بأن علىّ الانتظار وكنا قد أصبحنا فى منتصف الليل .

وفى الساعة الثانية صباحا ، كنت لا أزال فى نفس المكان . وفى هذا الوقت كان الهدوء قد خيم على المكان . وانفض معظم الناس الذين كانوا متجمعين من حولى ، وأخذوا معهم شعورهم بانعدام الجذور وعواطفهم الباطنية . وبدون انذار ، ظهر عند مدخل الغرفة رجل أنيق ذو شعر فضى كثيف ، وقال لى « سوف يقابلك الرئيس الآن » .

ودخلت الى حجرة مكتب فسيحة قليلة الأثاث ، ووقف ياسر عرفات ، برأسه الصلعاء المجردة من الكوفية المعتادة ، خلف مكتب كبير مصنوع من خشب الماهوجنى . وأصابتنى الدهشة من صغر حجمه ، اذ لم تكن قامته تزيد عن خمسة أقدام وأربع بوصات . وحينما صافحته شعرت برقة يده التى مدها نحوى . ولكن حينما تحدث عن قضيته ، حوله الغضب الجارف من رجل ملتح يرتدى زيا عسكريا أنيقا الى تجسيد للشعب الفلسطينى . وقال لى « لن تستطيعى أن تتخيلى معنى أن تكونى بلا وطن ، وبلا دولة . . . ان مأساة الشعب الفلسطينى مشكلة يعيشها المرء منذ مولده وحتى مماته . . . وحيث أننا بلا وطن ، فانه ليس لدينا حتى مكان ندفن فيه . . . هل تستطيعين تصور معنى الحياة ، محرومة من وطنك ، ومن هويتك القومية ومن حقوقك الأساسية ومظاهر معيشتك العادية ؟ اننى ذلك الرجل »* .

وطوال ربع قرن من الزمان ، ظل ياسر عرفات يمثل أكبر رمز ظاهر للوطنية الفلسطينية . وبممارسة المهارات التفاوضية لتجارة السوق والمناورات السياسية لريتشيليو (السياسى الفرنسى الداهية) ، استطاع أن يجمع عناصر الشعب الفلسطينى المتنافرة فى مسعى شاق لاستعادة فلسطين ، وفى هذا المسعى ، فان الفلسطينيين هم المستفيدون من الوحدة العربية الاسطورية وكذلك الضحايا للمصالح الفردية للدول العربية . وفى حين ينتزع عرفات التأييد الدبلوماسى والاقتصادى الكافى النابع من النزعة العاطفية التى تثيرها القضية الفلسطينية بين العرب ، والذى يحفظ حياة الحركة الفلسطينية ، فانه يواجه العديد من الزعماء العرب ، السابقين والحاليين ، الذين يحاولون القضاء على سيطرة الفلسطينيين على مصيرهم . ومن ثم ، ظل عرفات والدول العربية مشتبكين فى معركة من أجل السيطرة على القضية الفلسطينية . ونتيجة لذلك . أصبح الفلسطينيون محك اختبار الوحدة العربية ، وتأكيد الوجود بين الدول والشعوب العربية لهويات معينة منفصلة عن الكيان العربى الواحد .

ووفقا للمعايير المستخدمة فى كثير من الأحيان لتحديد الجماعات العرقية ـ الاشتراك فى عنصر ، ودين ، ولغة ، وثقافة ، ووطن واحد ـ كان الفلسطينيون قبل عام ١٩٤٨ بمثابة لغز من الألغاز ، فمن الناحية العرقية ، كانوا نتاجا مختلطا لجميع هؤلاء الذين تصارعوا للسيطرة على المشرق العربى طوال قرون عديدة . ومن الناحية الدينية ، كانوا منقسمين بين الاسلام والمسيحية . وبالرغم من أنهم كانوا يتحدثون نفس اللغة ، وينتمون الى نفس الثقافة ، فقد كان لديهم احساس ضئيل بأنفسهم كجماعة . وبدلا من ذلك كان كل منهم ينتمى الى عائلة أو قرية أو قبيلة ، تتصارع مع عائلات وقرى وقبائل أخرى . ولم تكن المدن والقرى ، أو التجار والفلاحون تشترك ، فى مصالح مشتركة ، فيما عدا العلاقات الاقتصادية المحدودة والبسيطة . وحينما ذهبوا الى المنفى ، كانوا عربا أكثر منهم فلسطينيين . ولجأ الفلسطينيون المشتتون المضطربون الى الأمة العربية الأوسع نطاقا من أجل استعادة أرضهم التى فقدوها .

* مقابلة مع المؤلفة فى ٣ مارس ١٩٨٨ ، تونس العاصمة ، تونس .

وقد لجأ الفلسطينيون الذين لديهم بعض الموارد الى دول العالم العربى . بعد طردهم من فلسطين . كما لجأ الذين يرغبون فى استكمال تعليمهم من أجل تأمين مستقبلهم الى الاسكندرية والأقصر ، والى القاهرة على وجه الخصوص . وكان ياسر عرفات أحدهم .

وقد ولد ياسر عرفات واسمه الحقيقى محمد عبد الرؤوف عرفات يوم ٢٤ أغسطس ١٩٢٩ . وزعم فى أوقات مختلفة أن مكان ميلاده كان فى القاهرة والقدس . ولأنه حول نفسه من رجل عادى الى رمز سياسى فهو يرفض الحديث فى تاريخه الشخصى الا بعبارات مبهمة . غير أنه لا يستطيع أحد اخفاء ماضيه .

وقد اكتسب اسمه المشتق من اليسر فى طفولته التى كانت بعيدة تماما عن اليسر . وفى عام ١٩٣٣ ماتت والدة عرفات من مرض بالكلى ، وتركت ستة أطفال فى رعاية الأقارب . وتم ارسال ياسر الذى كان يبلغ من العمر أربعة أعوام الى القدس كي يعيش مع أحد الأعمام ثم عاد الى القاهرة فى صباه . وفى عام ١٩٤٧ ، مع تصاعد الأزمة فى فلسطين ، عاد مرة أخرى الى القدس .

ولانتسابه الى عائلة الحسينى من خلال والدته ، انجذب الشاب ياسر الى عبد القادر الحسينى ، بطل ثورة ١٩٣٦ ، الشهير* . وحينما اندلعت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، حمل عرفات البالغ من العمر ثمانية عشر عاما ، وساعد فى تهريب الاسلحة التى كان الفلسطينيون فى أشد الحاجة اليها من مصر الى فلسطين . وبعد وفاة عبد القادر الحسينى فى ابريل ١٩٤٨ . وانهيار المقاومة الفلسطينية ، هرب عرفات الى غزة ثم الى القاهرة حيث التحق بكلية الهندسة ، جامعة القاهرة .

وكان الطلبة الفلسطينيون الذين انضم اليهم عرفات ينتمون الى جميع التيارات السياسية السائدة فى ذلك الحين ، من الشيوعية الى الأصولية الاسلامية للأخوان المسلمين ، وكان كل منهم يعتبر نفسه ، سواء أكان شيوعيا أو عضوا فى الأخوان المسلمين أو من أنصار القومية العربية ، جزءا من الأمة العربية . وفى عام ١٩٥٢ ،حينما خاض عرفات انتخابات اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة الفلسطينيين ، طرح فكرة بسيطة للغاية للأعضاء المنتمين للتيارات السياسية المعقدة ، وهى أن للفلسطينيين هويتهم الخاصة المستقلة والمتميزة عن هويتهم كعرب . وكانت تلك بداية ثورة فى الفكر الفلسطينى الذى سيبنى بالتدريج وطنية فلسطينية مميزة تتنازع فى كثير من الأحيان مع الأنظمة السياسية المحيطة بها . وكانت أولى المواجهات مع جمال عبد الناصر .

وحتى وفاته فى عام ١٩٧٠ ، كانت العلاقات بين عبد الناصر والفلسطينيين بزعامة عرفات ، متشابكة فى نسيج من المصالح المتوافقة والمتصارعة . وقد كان كل منهما يحتاج للآخر بشدة ، ومع ذلك كان كل منهما يخشى الآخر بصورة كبيرة . فقد أتاحت القضية الفلسطينية لعبد الناصر الأداة التى يجتذب بها مشاعر الجماهير العربية الى شخصيته . وبالنسبة للفلسطينيين ، كان عبد الناصر بمثابة الوسيلة التى يسعون من خلالها الى استعادة فلسطين السليبة . وفى الوقت ذاته ، كان

* ينتمى الحاج أمين الحسينى ، مفتى القدس الى نفس العائلة .

عبد الناصر يرغب فى عدم تدفق الفلسطينيين الى مصر أو ممارسة أنشطة تتعارض مع خططه . وفى حين أن الفلسطينيين كانوا يتلهفون على مؤازرة عبد الناصر ، فانهم كانوا يعارضون سيطرته . ولذلك اتسمت العلاقات بين الطرفين بالكر والفر والمهادنة والمخاصمة طوال الحقبة التى استولت أثناءها الناصرية على مشاعر شعوب الشرق الأوسط .

ومازالت توجد فى الحرم الجامعى المزدحم لجامعة القاهرة بعض سمات الحياة الجامعية الفلسطينية فى مصر خلال حقبة الخمسينيات ، ففى عام ١٩٨٩ ، تجول معى فوزى ، وهو رجل بدين أصلع الرأس يرتدى نظارة طبية يبدو إطارها غريب الشكل ، فى أحد المبانى العتيقة الموجودة منذ زمن دراسة عرفات . وقال « كانت فترة عصيبة للفلسطينيين فقد عزل عبد الناصر معظم اللاجئين شرق القناة وفى غزة . وكان باقى الفلسطينيين يعيشون تحت بصر عبد الناصر . وكان يحدق فى بعض الأحيان وفى أحيان أخرى كان ينظر فى الإتجاه الآخر . ولكنه كان يحدق فى معظم الأوقات . وأى شىء كان يحصل عليه الفلسطينيون . وخاصة الطلاب ، من عبد الناصر ، كان لابد أن يساعده أكثر مما يساعدنا .

وفى عام ١٩٥٥ ، أدت مقتضيات صورة عبد الناصر كبطل للفلسطينيين الى موافقته على تدريب كوادر من الفدائيين الفلسطينيين للعمل ضد اسرائيل من غزة وشرق سيناء . ثم جاءت حرب السويس عام ١٩٥٦ . وحمل الفلسطينيون راية عبد الناصر للقومية العربية ضد اسرائيل والقوى الاستعمارية الغربية ، وحينما انسحبت بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، احتفل عبد الناصر والفلسطينيون معا بانتصارهم . وكان الفلسطينيون يأملون فى أن يقوم عبد الناصر ، بوصفه الرائد الأكبر للقومية العربية ، باعادتهم الى فلسطين ، ولكن مستقبل الفلسطينيين لم يكن ليوجد مع عبد الناصر وانما فى الكويت مع منظمة وليدة تسمى فتح .

وكانت الكويت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، مشيخة مغمورة تعانى من الركود فى الخليج . وطوال قرون عديدة كانت الكويت تعيش من البحر . فكانت المراكب الشراعية (الدهو) تنقل البضائع بين الهند وايران وافريقيا وشبه الجزيرة العربية ، وكان الغواصون الذين حرقتهم الشمس يجمعون المحار من قاع البحر بحثا عن اللؤلؤ المنخفض الدرجة الذى كان يمثل جانبا كبيرا من الدخل الوطنى . ولكن بحلول حقبة الخمسينيات ، أصبح جمع اللؤلؤ من الأنشطة البالية وأصبح النفط أمل المستقبل .

وازاء النقص فى عدد السكان والتعليم ، نشرت حكومة الشيخ عبد الله سالم الصباح اعلانات امتلأت بها صفحات كاملة من الجرائد فى كافة أنحاء الشرق الأوسط ، تعرض من خلالها أجورا مجزية للغاية على المتعلمين من العرب المتعطشين للعمل . وأدى ذلك الى تدفق العديد من اللاجئين الفلسطينيين ، الذين لا وطن لهم ، الى الخليج .

ووصل ياسر عرفات الى الكويت فى عام ١٩٥٧ ، حيث عمل فى الخدمة المدنية ، وكان مسئولا عن دراسة مشروعات البناء للحكومة الكويتية ، وسرعان ما انتقل الى مجال المقاولات الخاصة بعد أن لمس المكاسب الكبيرة التى تدرها أعمال المقاولات وقال « فى الحقيقة كنت ناجحا للغاية فى عملى كمقاول . وكنت أعمل كل ساعة ، واحصل على الأموال . وكنت شبه مليونير ،

أنعم بحياة مرفهة ، واعتدت السفر الى أوروبا وآسيا فى الصيف ، من أجل السياحة ، وفى جيبى الشيكات السياحية * .

وتقف الكويت ، التى تقع على مسافة ٨٠٠ ميل من حدود اسرائيل خارج نطاق الظروف الملتوية والمؤلمة للمصالح الاسرائيلية والمصرية والسورية والأردنية فى المشرق ، ولأنها لم تكن سياسية أساسا فى نظرتها للفلسطينيين فان الحكومة الكويتية لم تفرض أيا من القيود المماثلة لتلك التى كانت تواجهها التنظيمات السياسية الفلسطينية فى الدول العربية المواجهة لاسرائيل . ولذلك كان ياسر عرفات والفلسطينيون المحيطون به يجتمعون معا أثناء ليالى مدينة الكويت الحارة فى المقاهى القريبة من الشاطىء . وفى حين كان الكويتيون يرتادون المحال التجارية الفخمة ، ويتجولون بسياراتهم الكاديلاك الفاخرة فى طرقات المدينة ، كان الفلسطينيون المحيطون بعرفات يتناقشون فى الأمور السياسية . وأدت تلك المناقشات التى دارت فى الفترة بين عامى ١٩٥٩ و ١٩٦١ الى مولد « فتح »* .

وعند نشأتها ، كانت فتح تبدو مثل بقية تنظيمات المنفى بين الفلسطينيين فى الشتات وكانت معظم تلك الجماعات التى لم تكن تملك سوى الكلام كسلاح لها ، تتحدث عن العودة الى فلسطين بالجهود الموحدة للأمة العربية . ولكن فتح كانت تتحدث بنبرة مختلفة . فقد نحت جانبا الاعتقاد المقدس بأن الأمة العربية تملك مفتاح تحرير فلسطين ، ورفعت شعارا جديدا وهو أنه ينبغى على الفلسطينيين تحمل مسئولية مصيرهم . وبكلمات بسيطة تغنى بلحن بسيط ، سلمت فتح للفلسطينيين مستقبلهم : « أنا عربى ، عنوانى فلسطين » .

وكان الهدف المطروح واضحا سياسيا ـ وهو العودة الى فلسطين السليبة . ولم تحدد فتح الشكل الاجتماعى والاقتصادى ، بل والاقليمى للدولة الفلسطينية التى كانت فتح تنشدها . كذلك لم تصف فتح المضمون الاجتماعى لمجتمع الفلسطينى الذى كانت تسعى الى اقامته . وبتجنب الخوض فى المنازعات العائلية والقبلية ، والخلافات الدينية بين المسلمين والمسيحيين ، والعداوات القديمة بين الحضر والريف ، كان برنامج فتح الوحيد هو بناء روح وطنية فلسطينية خالصة . وبعد حوالى ثلاثين عاما ، ذكر فاروق قدومى ، وزير خارجية منظمة التحرير الفلسطينية ، وأحد مؤسسى منظمة فتح ، أثناء جلوسه فى مكتبه بتونس ، « كان علينا خلق شعور بالوطنية الفلسطينية . وكانت جميع الدول العربية تحاول السيطرة على الفلسطينيين . وكان معظم الفلسطينيين يعتبرون أنفسهم عربا مرتبطين بأحزاب عربية . وكان التحدى الذى تواجهه فتح هو خلق شعور بالوطنية الفلسطينية الخالصة . وكان ذلك هو هدف فتح الوحيد فى ذلك الحين » * .

---

* مقابلة مع المؤلفة .

* يتكون اسم فتح من الحروف الأولى المعكوسة من « حركة التحرير الفلسطينية » كما أن فتح هى الكلمة العربية المرادفة لكلمة « غزو » .

* مقابلة مع المؤلفة فى ١٠ يونيو ١٩٨٨ فى تونس .

وفى عام ١٩٥٩ ، أصدرت فتح الوليدة العدد الأول من مجلة « فلسطيننا » التى كان يبلغ عدد صفحاتها ٣٠ صفحة مليئة بالمواد الدعائية وليست البلاغية . كما اتسمت بالنقد المرير حول المأساة الفلسطينية ، والسخط الشديد تجاه الأنظمة العربية التى أدت رقابتها الشديدة الى كبت صوت الفلسطينيين السياسى . واكتسبت فتح شهرتها من خلال تلك الصفحات المطبوعة القليلة التى كانت تنتقل من يد الى أخرى بين اللاجئين ، بالرغم من أنها كانت مجلة هواة ، متواضعة المادة والامكانيات . فى عدد كان يتصدر صفحاتها رقم صندوق البريد الخاص بها فى مدينة الكويت . فكانت منارة للفلسطينيين المشتتين الذين أخذوا يرسلون الخطابات من كافة أنحاء الشتات ، التى تضم أشعارهم وصيحات أشقائهم ومن خلال صندوق بريد عادى ، أعطت فتح للوطنية الفلسطينية عنوانا خاصا بها .

وسعيا لكسب أنصار جدد ، أخذ مؤسسو منظمة فتح يزورون التجمعات السكانية فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين . التى تقع فى لبنان والأردن ومصر وسوريا . وبالتنقل المستمر من موقع الى آخر ومشاركة سكان الأكواخ المزدحمة معيشتهم ، أو الاقامة فى سياراتهم ، عمل ياسر عرفات وطلائع منظمة فتح على انتشار فكرة الوطنية الفلسطينية بعيدا عن عالم المثقفين بين صفوف الجماهير .

واقتضت تلك الفترة ، السرية التامة . فقد أدى ازدياد نفوذ فتح الى اثارة مخاوف خصوم فتح الرئيسيين فى العالم العربى ـ جمال عبد الناصر ، وحسين ملك الأردن ، أكثر شخصيتين سياسيتين كانت تهددهما الحركة الفلسطينية المستقلة . وأخذت قوات الأمن المصرية والأردنية فى مطاردة قادة فتح واعتقالهم والزج بهم فى السجون . ولذلك لم يكن ينضم أحد الى منظمة فتح بدون الموافقة عليه وتزكيته من عدد من الأقارب والمعارف . ولم يكن أحد منهم يستخدم الهاتف ، والطرق المكشوفة ، أو يبقى فى مكان واحد لمدة طويلة . فقد كان الأمن يقتضى الحركة المستمرة من مكان الى آخر ، ومن مخيم الى آخر .

وبحلول عام ١٩٦٤ ، كانت فتح قد طورت هيكلها التنظيمى ، وأقامت بنيتها القيادية* . وقد ولدت فتح فى حرارة ورطوبة الخليج . ولكن الكويت كانت بعيدة للغاية عن فلسطين التاريخية وعن المطرودين منها . وبالرغم من جهود فتح الدائبة فى المخيمات ، فإن التجنيد فى صفوفها كان يتم بصورة بطيئة ، فقد كانت المخيمات فى أوائل حقبة الستينيات بمثابة معتقلات لأناس ماتت مشاعرهم . وسواء فى مصر أو الأردن أو لبنان أو سوريا ، كانت العيون الخالية من التعبير تنم عن أناس معلقين بين اليأس من الحاضر وإفتقاد الأمل فى المستقبل ، وعبر أجهزة الراديو الصاخبة فى الأكواخ المقامة من كتل الأسمنت التى كانوا يسكنونها ، كان اللاجئون يستمعون إلى تعهد جمال عبد الناصر « بعدم التخلى أبدا عن حقوق الشعب الفلسطينى . . . إن كرامتهم جزء من كرامة الأمة

* تحكم فتح لجنة مركزية يرأسها عرفات . وتعمل وفقا لنظام القيادة الجماعية التى تعد عنصر قوة وإعاقة للمنظمة فى نفس الوقت . إذ لا يستطيع عرفات إتخاذ قرار بمفرده ، بل بإجماع آراء رفاقه .

العربية »** . ولكن خطب عبد الناصر كان عليها أن تعيدهم إلى فلسطين . كذلك كان على فتح ، بالرغم من رسالتها المثيرة ، إثبات قدرتها على إعادة الفلسطينيين إلى الوطن . ولم تعد الكلمات تكفى ، وكان سكان المخيمات ، المورد الرئيسى لأنصار فتح ، يتطلعون إلى ظهور قائد آخر مثل صلاح الدين يطرد المغتصبين من فلسطين . ولذلك كان مستقبل منظمة فتح يعتمد على العمل ـ وعلى النضال المسلح ضد إسرائيل .

وخلال عام ١٩٦٤ ، غادر ياسر عرفات الكويت إلى ميدان المعركة على طول الحدود الإسرائيلية ، « لم يكن من السهل المغادرة . فقد كنت أحب الهندسة . وكنت أمتلك شركة ناجحة واربع سيارات ـ سيارتين ماركة شيفروليه ، وسيارة فولكس فاجن ، وأخرى ماركة ثاندربيرد . وقد اعطيت السيارات لشركائى ، بإستثناء السيارة ثاندربيرد ، التى قمت بقيادتها حتى بيروت ثم تركتها هناك . . . وأنت تعرفين أنه كان من المستحيل أن أتجه للثورة فى سيارة ثاندربيرد »* .

وراقب جمال عبد الناصر بإهتمام القوة المتزايدة لمنظمة فتح . وبالرغم من أن هجمات الفدائيين الفلسطينيين ضد إسرائيل سبقت ظهور منظمة فتح بمدة تزيد عن عشر سنوات ، إلا أن الجماعات التى كانت تقوم بها ، كانت مؤقتة وتحظى بالقليل من المساعدات المنظمة ، أو كانت تدين بالفضل لعبد الناصر فيما يتعلق بالتدريب والأسلحة . وكانت منظمة فتح ، التى لم تكن تتلقى مساعدات من مصر ولا تخضع لسيطرتها ، تشكل تهديدا متزايدا لهيمنة عبد الناصر على الفلسطينيين ، وتهدد ببدء جولة أخرى من العنف ضد إسرائيل . وفى يناير عام ١٩٦٤ ، عمل عبد الناصر على تحييد منظمة فتح . وبناءً على دعوة منه ، إجتمع فى القاهرة ثلاثة عشر ملكا وأميرا ورئيسا عربيا ، لعقد أول مؤتمر قمة عربى . وبتوجيه من عبد الناصر ، جمعوا معا منظمة فتح وأكثر من أربعين جماعة فدائية فلسطينية أخرى فى منظمة التحرير الفلسطينية .

وفيما بين عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٧ ، تولت منظمة التحرير الفلسطينية أمر القضية الفلسطينية فى ظل سيطرة عبد الناصر . ووقفت فتح عاجزة حيث أن أنصارها إنضموا إلى جيش التحرير الفلسطينى وتدفقت المعونات المالية والعسكرية التى نجحت فى الحصول عليها فى الماضى من الدول العربية فى إتجاه منظمة التحرير الفلسطينية . وكان إختيار فتح أن تبدأ حرب عصابات خاصة بها ، أو تفقد باقى قواتها الفدائية .

وفى مساء ٣١ ديسمبر ١٩٦٤ ، شنت وحدة فدائية تابعة لفتح ، تعمل تحت إسم « العاصفة » ، غارة داخل إسرائيل . وبالرغم من ضآلة تأثيرها على إسرائيل كعملية عسكرية ، إلا انها كانت تكفى لإصدار فتح بيانها العسكرى الأول : « من شعبنا الصامد للنهاية ، ومن وحى ضمير وطننا المقاتل ، ثارت طلائعنا الثورية ، إيمانا منها بأن الثورة المسلحة هى وسيلة العودة والحرية ، كى تثبت للإستعماريين وأتباعهم وللصهيونية العالمية ومموليها ، أن الشعب الفلسطينى باق فى

** ورد فى كتاب فاتيكيونس « ناصر » ، صفحة ٢٥١

* مقابلة مع المؤلفة .

الساحة ، لم يمت ولن يموت »* . ولكن الذين حاربوا معركة الفلسطينيين ماتوا بالفعل ، سواء على أيدى الإسرائيليين أو على أيدى الدول العربية المجاورة لحدود إسرائيل .

وعاشت فتح من خلال إستغلال التأييد الشعبى الذى يتمتع به فدائيوها بين الجماهير العربية للإعتماد على الأنظمة العربية فى الحصول على الأموال والأسلحة والأرض التى تشن منها الغارات على إسرائيل . وبالرغم من وجود شبكة معقدة من القضايا والأيديولوجيات والشخصيات فى إطار السياسات العربية المتداخلة ، فقد كانت كلها تلمس بعمق الوتر الحساس لقضية إسرائيل وتحدياتها الإستفزازية للأمة العربية . وبعد أن أخذت فتح فى شن الغارات كل يوم تقريبا داخل إسرائيل فى عام ١٩٦٦ ، أصبح حب الفدائيين بين العرب يطغى على منظمة التحرير الفلسطينية وكل شىء آخر عدا جمال عبد الناصر .

وبحلول عام ١٩٦٧ الحاسم ، أدركت منظمة فتح والجماعات الفدائية الأخرى أن تحرير فلسطين لن يتم من خلالها ، ولكن من خلال الجيوش العربية التقليدية التى تساندها الشرعية السياسية للعواصم العربية ، وخاصة القاهرة . وآمنت جميعها بصورة ما وعند نقطة معينة بضرورة خوض العرب لمعركة أخرى مع إسرائيل معركة كانت تعتقد تماما أن العرب سوف يكسبونها . غير أنه حينما جاءت الحرب ، فقد الفلسطينيون ما تبقى من فلسطين ، ورحل ١٠٠٫٠٠٠ لاجىء آخر .

وتبددت آلة الحرب التقليدية الغالية التى كان الفلسطينيون يضعون الكثير من الثقة فيها فى خضم إنتصار إسرائيل . وتلاشت آمالهم فى إستعادة فلسطين والتى ظلت تراودهم طوال عشرين عاما . وأدت الهزيمة المفاجئة إلى تقويض المكانة والزعامة المعنوية للعديد من الأنظمة العربية ، سواء فى القاهرة أو فى عمان أو فى دمشق . ووسط الفراغ الناجم عن اليأس والألم والعار ، برزت منظمة فتح .

ولأنه لم يعد قادرا على إدعاء أن وسيلة تحرير الأرض العربية ، تعتمد على العمل العسكرى التقليدى من جانب الدول العربية المتضامنة ، راح عبد الناصر يرقب المشاعر التى أثارتها خطبه البليغة فى وقت ما وهى تتحول للفدائيين ، ووقف الفدائى ، شهيد الصهيونية ، وسط أشلاء عام ١٩٦٧ كرمز للرجولة العربية . وتعاطف الملايين من أرجاء العالم العربي مع الفدائيين ، وتدفق الآلاف للإنضمام لصفوفهم . وتركت صفوة الشباب الفلسطينى جامعاتها للمشاركة فى النضال المسلح ، فى حين ساز الشباب العازمون على تحرير فلسطين بالبنادق والقنابل من لبنان إلى قواعد الفدائيين خارج عمان . كما سافر أميران كويتيان للإنضمام إلى فتح . ومع تدفق المتطوعين الجدد ، إستعدت فتح لشن ما أسمته « الجولة الثانية » من النضال المسلح من أجل إستعادة فلسطين . ولعدم إيمانه بشكل جاد بقدرة الفلسطينيين وحدهم على إستعادة أراضيهم ، كان عرفات يرى أن الحركة الفدائية هى الوسيلة لتأكيد الهوية الفلسطينية بصورة راسخة بحيث لا تستطيع الأنظمة العربية أو المجتمع الدولى تجاهل المشكلة الفلسطينية .

---

* هيلينا كوبان « منظمة التحرير الفلسطينية ، الشعب والقوة والسياسة » ، (مطبعة جامعة كامبريدج ، إنجلترا ، ١٩٨٤) صفحة ٣٣ .

وقد خلقت العمليات الفدائية التى قامت بها فتح داخل الفلسطينيين ـ سواء من هم فى المخيمات أو خارجها ـ شعورا جديدا بالكرامة يتناقض مع النحيب والعويل الذى تبع حرب عام ١٩٤٨ ، وأسفر نجاح فتح فى إستعادة الشرف الفلسطينى عن ظهور العديد من التنظيمات شبه الفدائية . ومن الناحية الأيديولوجية ، كان بعضها يسارياً ، والبعض الآخر يمينياً أو دينياً أو علمانياً . وكانت تؤمن بالقومية العربية وبالهوية الفلسطينية بوجه خاص . وكان عدد قليل منها ليس سوى عصابات تبتز الأموال بإسم فلسطين . وفى هذا الحشد ، كانت فتح تسيطر على حوالى ٦٠ ٪ أو ٧٠ ٪ من الفدائيين .

وكان فدائيو فتح يعملون من عدة معسكرات فى وادى عربة ، الذى يقع على الحدود بين الأردن وصحراء النقب الإسرائيلية . والأرض هناك جرداء ، وعرة ، عديمة المياه ، وتمتلىء بالصخور الصغيرة والكبيرة التى تمزق أكثر الأحذية متانة . ومن الطريق الرئيسى للوادى تمتد ممرات ضيقة شكلتها عواصف الصحراء العاتية ، مما يساعد أى شخص على الإختفاء . ولذلك تعد أرضا صالحة للغاية لحرب العصابات .

وكان أحد معسكرات فتح فى أواخر الستينيات ، يختفى بالقرب من أطلال مدينة البتراء الأثرية . وكان الحراس المتمركزون عند مداخل المعسكر يرشدون الزوار إلى بعض الخيام الخضراء اللون التى كانت تتناثر تحت أطلال أسوار الوادى ، وفى ظلال الصخور ، كان يجلس الفدائيون وهم يحملون فائض أسلحة ستة جيوش عربية ، وعلى رؤوسهم الكوفية ، غطاء الرأس التقليدى الذى يرتديه الفلاحون الفلسطينيون ، وكانت الأسلحة الحربية التى يحملونها تشمل البنادق والكلاشينكوف ، والحقائب الميدانية المليئة بالقنابل اليدوية . وكان هذا المعسكر يتباهى فى ذلك اليوم بوجود مدفع هاون متوسط الحجم وصاروخ قديم يحمله أحد الجمال ويتحرك به من مكان إلى آخر . وفى معظم الوقت ، كان الرجال يأكلون وينامون ، ثم يأكلون مرة أخرى . ولكن حينما كان يجرى الإعداد لغارة داخل إسرائيل ، كان القائد يقود ما بين ستة إلى عشرة رجال فى مسيرة تستغرق ثلاث ليال حتى حدود إسرائيل وثلاث ليال أخرى للعودة ، وكانوا بمفردهم ، فيما عدا أحد الأفراد الذى يرافقهم طوال الليلتين الأولى والثانية ، ثم ينتظرهم على أحد التلال ويراقب الوهج فى السماء والذى يعلن نجاح مهمتهم . وكان الذين ينجحون فى العودة ، يعانون من بعض الإصابات ـ فى بعض الأحيان ـ من طلقة نارية ، أو كسر ، ولكن فى معظم الأحيان من أقدامهم المتورمة والمتقرحة . وفى كثير من الأحيان ، لم يكن يعود أحد . غير أنه كان يحل مكانهم آخرون ، مثل الفراشات التى تنجذب إلى النيران . وكانوا يأتون لأن الفلسطينيين ، وليست الدول العربية ، كانوا يعملون من أجل قضيتهم .

وبرفع شعارها الذى يتكون من بندقيتين متقاطعتين وقنبلة يدوية ، كانت فتح تغذى شبكتها الدعائية . وكان « صوت فتح » يذيع أعمال الفدائيين ، بصرف النظر عن النجاح أو الفشل داخل المعسكرات . ومن خلال تلك النشرات الإذاعية ، كانت الكلمات الشفرية والعبارات المبهمة تؤكد بشكل مثير قوة فتح ، بينما كان اللحن المميز للمحطة يردد بشكل متكرر « ثورة فتح قائمة ، وهى قائمة هنا وهناك وفى كل مكان . إنها عاصفة ، عاصفة فى كل بيت وقرية » .

وبإثارة النزعة الوطنية الفلسطينية الخالصة ، كانت فتح تتحدى هؤلاء القادة السياسيين العرب الذين كانوا يسعون إلى إحتواء الفلسطينيين فى صفوفهم . ونتيجة لحماية إستقلالها الذاتى ، واجهت فتح مهمة حساسة تمثلت فى الوقوف خارج نطاق سياسة القومية العربية ، وفى الوقت ذاته حث الدول العربية على توفير التأييد الذى تحتاجه المقاومة من أجل البقاء . ولم تكن فتح تستطيع أساساً التعايش مع الدول العربية وفقا للشروط التى تفرضها تلك الدول ، كذلك لم تكن تستطيع البقاء بدون المساعدات - الإقليمية والمالية - التى تقدمها تلك الدول . وفى هذا النزاع غير المتكافىء ، كان سلاح فتح الرئيسى هو صورتها كسيف للعرب ضد إسرائيل .

وفى أوائل عام ١٩٦٨ ، نقلت فتح صورتها الشعبية إلى مستوى آخر . فعند شروق يوم ٢١ مارس ، عبرت قوات من المشاة الإسرائيلية بلغ عددها ١٥٫٠٠٠ جندى ، تحميهم طائرات الهيلوكبتر القتالية حدود الأردن وتقدمت فى أراضى الضفة الغربية نحو مدينة الكرامة ، وكان هدفهم القضاء على الهيكل القيادى لفتح ولكن بعد خمس عشرة ساعة ، إنسحبت إسرائيل بعد أن فقدت ٧٨ دبابة وعربة نصف مجنزرة ، إلى جانب ٢٣ قتيلا من جراء الكمائن الفلسطينية وقوة نيران مدفعية الجيش الأردنى المنتشرة فوق التلال المحيطة بمدينة السلط . وقد أحرز الفيلق العربى للملك حسين النصر العسكرى ، ولكن النصر الرمزى كان لمنظمة فتح . وفى أنحاء العالم العربى ، كانت معركة الكرامة ترمز إلى بعث الشعب الفلسطينى . وفى خلال الأيام التالية للمعركة ، تدفقت الشاحنات والسيارات النصف نقل والسيارات العادية على معسكر فتح الرئيسى بمدينة السلط ، تحمل البطاطين والملابس والأغذية المهداة من الجماعات الفلسطينية المنفية . وإزداد عدد المتطوعين إلى أربعة أضعاف . وتدفقت على خزانة فتح أموال المتبرعين لدرجة إقتضت ضم عدد من المحاسبين لصفوف الفدائيين وتبع ذلك تدفق المعونات المباشرة وغير المباشرة من الحكومات العربية . وأدرك الجميع ، بمن فيهم عبد الناصر ، أنه لم يعد بإستطاعتهم تجاهل فتح . ومن أجل إكتساب الذين كان يخشاهم كمنافسين ، ضاعف عبد الناصر ، من مساعداته لفتح ، سواء فى مجال التدريب أو الأسلحة أو الشرعية السياسية .

وبعد أن أصبح المقاتل الفدائى ومنظمة فتح كيانا واحدا فى الفكر الشعبى ، تلاشت ضرورة السرية . وبادرت فتح ، إثر قرار الملك حسين بالسماح لها بالعمل علانية ، بنقل مقرها من دمشق إلى عمان . وكان مركز قيادة فتح الجديد مجرد مبنى حجرى عادى لا يزيد إرتفاعه عن طابقين على جبل لويبده ، ولا يحرسه سوى فدائى صغير السن يحمل بندقية وراديو ترانزستور يذيع الموسيقى العربية . ولكن مجرد وجود المقر أتاح لقيادة فتح عقد المؤتمرات الصحفية والظهور على شاشات التليفزيون والتجول فى الشوارع يحيط بهم أفراد حراساتهم الخاصة . وأصبحت السياسة والمسرح شيئا واحدا . وكان ياسر عرفات رئيس منظمة فتح والمتحدث الرئيسى بإسمها يبدو وكأنه فى كل مكان وهو يرتدى دائما النظارة الداكنة السميكة التى أصبحت بمثابة علامته المميزة . وبمباركة من عبد الناصر تولت فتح أمر البقايا المبعثرة لمنظمة التحرير الفلسطينية . وبضم الجماعات المتنافسة تحت مظلتها ، بدأت منظمة التحرير الفلسطينية العملية التى أتاحت لها فى عام ١٩٧٤ أن تصبح الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى .

غير أن فتح لم تستطع السيطرة تماما على الحركة الفلسطينية . ذلك أن جماعتين تابعتين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، كانتا تعتبران أن العودة إلى فلسطين ما هى إلا جزء من ثورة كاسحة سوف تقلب الهياكل الإجتماعية والإقتصادية والسياسية السائدة فى العالم العربى رأسا على عقب . وكانت كلتاهما ، سواء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أو الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، قد خرجتا من أحد الأحزاب السياسية فى الخمسينيات ، وهو حزب الحركة القومية العربية ، الذى كان يؤمن بالقومية العربية ويدعو إلى حل ماركسى - لينينى لعلاج عجز وخمول العالم العربى * . وبحلول عام ١٩٦٨ ، إعتنقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين فلسفة الحركة القومية العربية وأضافت إليها قواتها الفدائية .

وأدى الخلاف الايديولوجى بين فتح وكل من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الى المواجهة بين الوطنية الفلسطينية والقومية العربية ، وبين المفاهيم الاقتصادية غير المحددة والمفاهيم الاشتراكية الماركسية ، وبين عدم التدخل فى شئون الأنظمة العربية أو تخليص العالم العربى من جميع الأنظمة الرجعية العربية ومن الناحية التكتيكية ، اختلف المعسكران حول اعتبار فتح ان اسرائيل هى الهدف الوحيد للغارات الفدائية واعلان اليساريين ، وخاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، بأن الصهيونية كظاهرة عالمية تبرر اعتبار أى جهة تؤيد اسرائيل هدفا للعمل الفدائى .

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٨ ، أضافت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مجالا جديدا للنضال المسلح . فبعد مدة وجيزة من مغادرة احدى طائرات شركة « العال » الاسرائيلية من طراز بوينج ٧٠٧ مطار روما فى طريقها الى تل أبيب ، أمر ثلاثة فدائيين ينتمون الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، يحملون البنادق الآلية والقنابل اليدوية ، قائد الطائرة بالتوجه الى الجزائر . وفى ٢٦ ديسمبر ١٩٦٨ ، وجهت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ضربة أخرى قامت بها وحدة فدائية أخرى تحمل الأسلحة الآلية والقنابل اليدوية . ودمرت أثناءها احدى طائرات شركة العال الاسرائيلية ، بينما كانت رابضة فوق أرض مطار أثينا * .

ولمدة عام ، من سبتمبر ١٩٦٩ حتى سبتمبر ١٩٧٠ ، قامت الوحدات الفدائية التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بتوجيه الضربات فى مواقع بعيدة عن اسرائيل فقد قام صبية تتراوح أعمارهم بين ٨ سنوات و١٢ سنة وينتمون الى وحدة « الأشبال » التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالقاء القنابل على مكاتب شركة العال فى بروكسل وعلى السفارات الاسرائيلية فى بون وفى لاهاى ، كما فتح الفدائيون التابعون للجبهة النيران على قاعة استقبال شركة العال فى مطار ميونخ . ووضعوا قنبلة على متن طائرة نمساوية تحمل البريد الى اسرائيل ، كما نسفوا طائرة تابعة لشركة « سويس اير » السويسرية أثناء رحلتها من زيوريخ الى تل أبيب ، مما أدى الى مقتل الـ ٤٧ راكبا الذين كانوا

---

* كانت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين تدعى أساسا الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين .

* بعد يومين وجهت اسرائيل ضربة انتقامية . بزعم أن الفدائيين جاءوا من لبنان وقام الكوماندوز الاسرائيليون بالهجوم على مطار بيروت الدولى حيث دمروا ١٣ طائرة قيمتها ٩٦ مليون دولار .

يستغلونها ، وهاجموا مكتب شركة « العال » فى مدينة اسطنبول ، والسفارة الاسرائيلية فى أسونشيون عاصمة باراجواى ، واحدى الطائرات اليونانية المسافرة من بيروت الى أثينا . وكانت كل تلك العمليات من أجل السيطرة على الحركة الفلسطينية *.

وحينما طرح وليام روجرز وزير الخارجية الامريكى اقتراحاته المسماة « مشروع روجرز » على عبد الناصر فى يونيو ١٩٧٠ ، دقت أجراس الانذار فى أوساط الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . واعتقادا من جورج حبش رئيس الجبهة بأن الفلسطينيين على وشك أن يتم تقييدهم واسكاتهم وبيعهم من خلال اتفاقية سلام لا يمثلهم فيها أحد ، دعا لاجتماع « مجلسه الثورى » . ثم أخذ حبش وقادة الفدائيين التابعين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى التنقل بين عمان وبغداد ومخيم الوحدات للاجئين بالاردن لاعداد الخطط التفصيلية لعمليات اختطاف الطائرات المخربة فى دوسون فيلد فى سبتمبر ١٩٧٠ .

وقد جذبت أنظار العالم الطائرات الثلاث القابعة على بقعة من الصحراء الاردنية . وذلك بالضبط ما كان مستهدفا من عملية الاختطاف بأكملها . وفى وسط الطائرات الثلاث الضخمة ، كانت توجد خيمة كبيرة يرفرف عليها العلم الفلسطينى ذو الألوان الحمراء والخضراء والبيضاء والسوداء وعلى بعد عدة أقدام كانت تقف سيارة مياه بألوان مموهة مكتوب عليها « الجبهة الشعبية فى خدمتكم » . وراح ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، الذى خسر الحرب الدعائية فى حركة الفدائيين وفى نفس الوقت كان يتلقى انتقادات الحكومات العربية من جراء التهور الخطير للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، يتنقل من مكان الى آخر سعيا لعقد صفقة للافراج عن الرهائن . ووجدت المنظمة راعية المصالح الفلسطينية ، نفسها تتلقى الاتهامات من معظم الحكومات العربية ، ومنها الحكومة البعثية فى العراق . ولم تستطع منظمة التحرير الفلسطينية ، التى تعتمد دائما على الدعم العربى ، أن تتحمل المزيد من الانتقادات المريرة . وفى النهاية تم عقد صفقة .

وفى اليوم السادس من عملية الاختطاف أخرج رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ما تبقى من الركاب ، وعددهم ١٤١ راكبا ، من الطائرات المختطفة ، ثم وضعوا عبوات ناسفة فيها وقاموا بتفجيرها . وإثر ذلك قفز الفدائيون فى سيارتهم « الجيب » وغادروا المكان .

وكان المنظر المذهل للقرصنة الجوية دليلا على الخلاف الحاد بين منظمة فتح والعناصر الراديكالية داخل الحركة الفلسطينية كما كان مؤشرا على وجود شقاق بين الفلسطينيين والملك حسين . ولكن بعد اعلان الملك حسين الحرب ضد الفدائيين بعد خمسة أيام من حادث دوسون فيلد الدرامى ، توحدت الفصائل الفلسطينية المتناحرة فى كيان واحد ، ومع أحداث « أيلول الأسود » أخذت فتح موقعها الى جانب اليساريين لمواجهة الهجوم الاردنى الضارى .

---

* قامت فتح بأسوأ العمليات الارهابية فى عام ١٩٧٢ ، لوقف التأييد المتزايد للجبهة الشعبية ، بالهجوم على الرياضيين الاسرائيليين فى ميونيخ .

ومع انتصارات قوات الملك حسين الساحقة ضد الفدائيين ، رفض العراقيون تقديم العون ، وأغلق السوريون حدودهم لجعل مهمة حسين لتدمير الفلسطينيين أكثر يسرا ، ووقفت الدول العربية المحافظة بعيدا عن الأمر برمته . وكان الفلسطينيون يقفون بمفردهم . ذلك أن جميع الدول العربية كانت تؤيد بصورة مباشرة الاجراءات الاردنية أو تتجاهل ما يحدث . وكانت تصرفاتها تصور حساسية نظام الدولة تجاه الغرباء الذين يعملون وفقا لقواعد مختلفة . ومن وجهة نظر الدول العربية ، « كان يجب أن يلقى الراديكاليون المتهورون درسا قاسيا ، وينبغى تطهير العالم العربى من الماركسيين ، وفرض الانضباط على الفدائيين اذا أرادت الدول العربية اجراء مفاوضات مع اسرائيل أو الاستجابة للمبادرات الدبلوماسية المطروحة من الأجانب ، ان الدول كيانات غيورة تسعى لحماية مصالحها ضد العنف وتفرض النظام ، والنظام السياسى العربى ليس استثناء من ذلك * . وكان عبد الناصر هو الوحيد الذى أنقذ الحركة الفلسطينية فى آخر عمل سياسى قام به قبل وفاته **.

وبوفاة عبد الناصر ، ووقوع الملك حسين أسيرا لأجهزته العسكرية طرد الجيش الاردنى الفلسطينيين من قواعدهم فى جرش وعجلون الى تلال شمال الاردن ، وقام بمحاصرة المواقع الفدائية ومهاجمتها واحتوائها فى نطاق سيطرته ، موقعا إثر الآخر . وأخيرا تم طرد الفدائيين من الأردن .

وقد قضت الهزيمة التى لحقت بهم فى الاردن على الثقة التى اكتسبها الفلسطينيون من الحركة الفدائية . فمن الناحية العسكرية ، كانت تمثل خسارة جسيمة لحركة المقاومة . ولم يعد الفدائيون يأملون كثيرا فى العودة من خلال العمل الفدائى . وأعلن ياسر عرفات رأيه النهائى « نعم ، لقد عانينا من هزيمة شديدة فى الاردن ، ولكن العملية لم تكن أردنية خالصة . لقد كانت مؤامرة عربية » *.

وانسحبت منظمة التحرير الفلسطينية المنهكة ، حاملة معها خلافاتها الداخلية ، الى لبنان ، الميدان الوحيد المتبقى من أجل عملياتها . وأقام ياسر عرفات ، بعد أن ترك كهوف شمال الاردن ، مقره فى منطقة مزدحمة لا تزيد مساحتها عن ميل واحد مربع ، فى حى الفكهانى ببيروت ، بالقرب من مخيمات صابرا وشاتيلا التى يقطنها اللاجئون الفلسطينيون - ومن هناك ، بدأ عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية يبعث للحياة حكومة فلسطينية . ومن عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٥ ، عاشت منظمة التحرير الفلسطينية « أيام بيروت » - الحقبة البيروتية ، الفترة التى أصبح الفلسطينيون أثناءها أقرب ما يكونون الى اقامة ، ليس فقط عاصمة سياسية خاصة بهم ، ولكن أيضا مركزا لحياتهم الفكرية والثقافية .

---

* العجمى « المأزق العربى » صفحة ٩ .

** نعى ياسر عرفات عبد الناصر بالقاهرة ، وكان بجلس مع أنور السادات ، وأليكسى كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتى ، وهو يرتدى الزى العسكرى ، والحذاء العسكرى ، ويضع الكوفية على رأسه ، وعلى عينيه النظارة الشمسية .

* جريدة « لوموند » ، ٢٩ يوليو ١٩٧١ .

ومثل أية حكومة ، كانت منظمة التحرير الفلسطينية تحتاج الى عائدات مالية ، وجاءت المساعدات من دول المهجر . ففرضت الكويت على كل فلسطينى يعمل بها ان يدفع ٥ ٪ من مرتبه الشهرى كانت تقوم بارسالها لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقدمت الدول التى بها حكومات ثورية ، مثل ليبيا والجزائر ، الأموال . ودفعت السعودية ، التى تعد أكثر الدول المتبرعة سخاءا ، مبالغ مالية كانت بمثابة اجراء وقائى يهدف الى ابعاد المشاكل الفلسطينية الى خارج حدود المملكة . وكان عرفات ، الذى يتولى الأمور المالية شخصيا ، يدفع رواتب شهرية لأرامل وأطفال « شهداء » الحركة الفلسطينية ، وقام الهلال الأحمر الفلسطينى بتجهيز وفتح عيادات طبية بالمخيمات فى كافة ارجاء لبنان . وجرى تخصيص الأموال من أجل المنح الدراسية لضمان تعليم عدد كبير من الفلسطينيين . وأنشأ « صامد » ، أحد مشروعات عرفات الصغيرة ، اقتصادا فلسطينيا ، وبحلول عام ١٩٨٢ ، كانت المصانع الصغيرة تنتج سنويا ما قيمته ٤٠ مليون دولار من الأثاث المنزلى ، والملابس ، والأحذية والمواد البلاستيكية ، والبطاطين ، والأزياء المختلفة . ووسط كل هذا النشاط ساد منظمة التحرير الفلسطينية هدوء داخلى ، حيث قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بنقل حربها ضد القوى الرجعية فى الدول العربية الى النضال ضد الصهيونية .

وكانت بيروت لا تماثل أى مكان آخر فى العالم العربى . فقد كانت تتغاضى عن الأخطاء وتبدو مثل الطاووس وهى تتمتع بمكانة متميزة باعتبارها قبلة المعاملات المالية والمواصلات والنقل بين الغرب والعالم العربى فى أوائل السبعينيات ، وفعل ياسر عرفات نفس الشىء بعد أن أصبح محط أنظار الصحافة العالمية ، ورئيسا مشهورا لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ومع ان حرب عام ١٩٧٣ أثبتت مدى هامشية الفدائيين الفلسطينيين بالنسبة للقوة التنظيمية للجيوش العربية ، فان تلك الحرب أكدت أيضا المثل الشائع بأن « المد المتزايد يرفع جميع القوارب » . فقد تدفقت على الأمة العربية الأسطورية عائدات النفط ، وجنت منظمة التحرير الفلسطينية نصيبها من المكاسب . وتخلصت المسألة الفلسطينية من مكائد السياسة العربية المتبادلة لتصبح مرة أخرى الرمز العاطفى الكبير للقومية العربية . وفى اكتوبر عام ١٩٧٤ ، بايعت الدول العربية فى الرباط منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها « الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » وياسر عرفات بوصفه زعيمها السياسى .

وبعد شهر ، صعد ياسر عرفات وهو يرتدى الزى الكاكى الذى يرتديه الفدائيون منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك . وبعد أن عرض آلام الشعب الفلسطينى بصورة جريئة وهو يلوح بأصبعه فى الهواء ، أعلن فى النهاية التحدى : « لقد جئت اليوم وأنا أحمل فى يدى غصن الزيتون وسلاح المقاتل من أجل الحرية ، فلا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدى» . وأصدرت الأمم المتحدة ، وهى المنظمة التى قامت بتقسيم فلسطين ، قرارا يعترف بالشعب الفلسطينى « كطرف أساسى فى اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأسط » . ولم يعد الفلسطينيون لاجئين يعيشون على احسان الدول العربية المضيفة . ففى ظل منظمة التحرير الفلسطينية ، أصبحوا كيانا سياسيا معترفا به دوليا ، ومؤهلين لتمثيل مصالحهم الذاتية . ولكن تحقيق تلك المصالح جعلت الفلسطينيين فى

صراع مع المصالح المتنافسة للدول العربية . وفى عام ١٩٧٥ ، ساهمت الأنشطة الفلسطينية فى انهيار لبنان .

وبالرغم من مظاهر الاستمتاع بمباهج الحياة ، كان يسود لبنان على الدوام جو من عدم الاستقرار . وكان سكانه ينقسمون الى طوائف عديدة ، تشمل الموارنة والروم الأرثوذكس والكاثوليك ، والمسلمين السنيين ، والمسلمين الشيعة ، والدروز . وأضاف اللاجئون الفارون من حرب فلسطين عنصرا آخر ، أصبح يشكل فى عام ١٩٧٤ حوالى ١٤ ٪ من عدد السكان ووسعت الحركة الفدائية وظهور الوطنية الفلسطينية فى أواخر الستينيات من الشقاق السائد بين الفلسطينيين وبقية لبنان وبالمطالبة بما لا يستطيع أن يوفره لبنان ، أى حرية العمل الفدائى عبر أراضيه ، وضع الفلسطينيون لبنان الهش على جبهة القتال ضد إسرائيل

وبعد أن أصبح التسلل عبر نهر الأردن فى منتهى الصعوبة فى عام ١٩٦٩ ، بدأ الفدائيون فى إستخدام جنوب لبنان كقاعدة أمامية لشن الغارات داخل إسرائيل . وكانت الحكومة اللبنانية ضعيفة للغاية ومنقسمة بحيث لا تستطيع عمل شىء يؤدى الى السيطرة على الفدائيين ، بإستثناء دوريات الحدود والإجراءات الصورية . ولذلك سعى رجال بيروت إلى حل وسط . وأتاحت إتفاقية القاهرة فى عام ١٩٦٩ حرية العمل لمنظمة التحرير الفلسطينية فى جنوب لبنان وسيطرتها الكاملة على مخيمات اللاجئين . وبعد عام ١٩٧٠ ، حينما تحركت منظمة التحرير الفلسطينية إلى بيروت ، سيطر الفدائيون التابعون لها على الشوارع .

وشعر لبنان الجميل بسطوة الفدائيين . واصبحت بيروت وصيدا وصور تبدو تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية مثلما تتبع لبنان . وكان الفدائيون الذين يرتدون الزى الكاكى ويحملون البنادق الكلاشينكوف ويتجولون فى الشوارع بصورة مستهترة ، ويتعاملون بكبرياء وصلف مع السكان ، ويستولون على السلع من الباعة بدون مقابل . ولعل أكثر ما كان يثير سخط الأهالى ، سيارات الجيب واللاندروفر التى يقودها الرجال المسلحون وهم يطلقون آلات التنبيه ، ولا يعبأون بإشارات المرور ، بل ويسيرون فى الاتجاه المخالف بالطرق ذات الإتجاه الواحد دون أن يعيروا المارة أى اهتمام وكان الأمر يبدو وكأن السلاح الآلى وشارة الفدائيين يعطيان الحق فى التعدى على اللبنانيين ، ولم يعد الفدائيون فى نظر معظم اللبنانيين ، وخاصة المسيحيين ، أبطالا . فبالإضافة الى الكراهية الناجمة عن سلوكهم فى الشوارع ، أدت غارات الفدائيين داخل إسرائيل إلى معاقبة لبنان . ومارست إسرائيل سياسة إنتقامية صارمة ، وصبت جام غضبها بالغارات الجوية على لبنان . ولذلك ، حينما كان الفلسطينيون يضربون إسرائيل ، سواء فى صورة غارة حدودية أو عملية مماثلة لمذبحة ميونيخ ، كانت لبنان تدفع الثمن . وبحلول عام ١٩٧٥ ، أصبح معظم اللبنانيين يكرهون الفلسطينيين بإستثناء جزء من المسلمين السنيين الذين كانوا يعتبرون الفلسطينيين حلفاء لهم فى صراعهم ضد الحكومة التى يسيطر عليها المسيحيون .

وإنفجرت الحرب الأهلية فى لبنان فى ابريل ١٩٧٥م . وكصراع معقد يتعلق بإعادة توزيع القوة الاقتصادية والسياسية بين المسيحيين المارونيين المسيطرين على مقاليد الأمور وبين السنيين والشيعة والدروز ، فإن الحرب لم تكن تشمل الفلسطينيين بصورة مباشرة ولكن الجميع كانوا جزءاً

من المشكلة ولم يستطع أحد الهروب من جحيمها . وحينما هاجمت القوات المسيحية إحدى المناطق الفقيرة فى بيروت التى يسكنها عدد كبير من الفلسطينيين ، إشتركت منظمة التحرير الفلسطينية بأسلحتها الثقيلة المتقدمة السوفيتية الصنع فى الحرب إلى جانب اللبنانيين المسلمين . وفى هذه الحرب التى إتسمت بالأعمال المشينة الوحشية ضد السكان المدنيين ، وجه الفلسطينيون ضرباتهم ضد مدينة الدامور التى يسكنها المسيحيون الموارنة وتقع على الطريق الساحلى الذى يربط بين بيروت ومدينة صيدا ، وقد قتل حوالى ٥٠٠ فرد قبل أن يكتب الفلسطينيون بالطلاء كلمة « المدمرة » على مدخل المدينة المنكوبة . وفى صيف عام ١٩٧٦ ، قام المارونيون بالثأر بفرض الحصار على مخيم الفلسطينيين فى تل الزعتر ببيروت . وطوال ٥٢ يوما ظلت قذائف المدفعية تنهال على طوابير الفلسطينيين الذين يسعون إلى جلب المياه أو الأغذية من خارج حدود المخيم . وفى ١٢ أغسطس ١٩٧٦ ، إنهارت دفاعات المخيم وإجتاحته قوات المارونيين وأخذوا فى قتل سكانه . وفى ذلك الوقت ، أصبح الوجود الفلسطينى فى لبنان معرضا للخطر .

وقد أثارت الأحداث الجارية فى لبنان غضب الرئيس السورى حافظ الأسد . وامتد غضبه إلى الحركة الفلسطينية ذاتها ، وخاصة إلى منظمة فتح ورئيسها ياسر عرفات . وكان سبب إهتمام الأسد بمنظمة فتح مماثلا لسبب اهتمام الدول العربية الأخرى المجاورة لإسرائيل — وهو السيطرة ، وفى المراحل الأولى من الصراع المسلح ، إستفادت علاقة فتح بسوريا من الخلافات بين البعث السورى ومصر الناجمة عن إنهيار الجمهورية العربية المتحدة . ومن أجل مضايقة عبد الناصر ، سمحت سوريا بنقل مقر فتح الى أحد الشوارع الجانبية المجهولة فى دمشق ، وكانت توفر للفدائيين الملجأ الأمن حينما كانت الأردن أو لبنان تنقلبان عليهم . ولكن سرعان ما تجاهلت فتح القيود التى فرضتها سوريا على العمليات الفدائية ، وفى مايو ١٩٦٦ ، قرر حافظ الأسد ، وزير الدفاع السوررى والنجم الصاعد بين مراكز القوى السورية فى ذلك الحين ، أن يقمع منظمة فتح ، وأن يفرض السيطرة على كوادرها وقام باعتقال ياسر عرفات ومعظم قيادات فتح العسكرية ووضعهم فى زنزانة رطبة بسجن المزة السورى ، وبعد ٥١ يوما وعشر ساعات متتالية من المفاوضات بين فاروق قدومى ممثل فتح فى الكويت وحافظ الأسد ، تم الافراج عن ياسر عرفات ورفاقه .

وفى عام ١٩٧٠ ، عندما سيطر حافظ الأسد تماما على السلطة ، تحددت سياسة سوريا تجاه منظمة التحرير الفلسطينية . فكان الأسد يعتبر الفدائيين مجموعة من الأفراد غير النظاميين المتنازعين الذين لا يستطيعون تغيير الميزان العسكرى مع إسرائيل ولكنهم قادرون على إثارة غضب إسرائيل . وكان الأسد يعتبر « حرب فتح الشعبية » وهما خطرا واصرارها على الحكم الذاتى الفلسطينى تهديدا تحتمله الدول العربية المجاورة لإسرائيل . ولذلك فإن الوطنية الفلسطينية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال العمل العربى الموحد الذى يضع فى الاعتبار المصالح السورية الى جانب المصالح الفلسطينية . ومما قاله الأسد « ليس من المنطقى استقلال الفكر الفلسطينى حينما يتعلق الأمر بالنزاع العربى الإسرائيلى .» ★

★ ريد ، « أسد سوريا » .

ومنذ بداية الحركة الفدائية ، مارست سوريا سيطرتها عليها . وزرع حزب البعث السورى إحدى فصائله ، « الصاعقة » ، داخل منظمة التحرير الفلسطينية ومازال يمارس سيطرته على قيادة وتدريب وأفراد « الصاعقة » ولا تتم أية عمليات فدائية من داخل سوريا ، ويعيش الفلسطينيون فى سوريا تحت رقابة نظام الأسد . وأخيرا ، كان ضمن أهداف التدخل السورى فى لبنان عام ١٩٧٦ إحتواء النزعة الإستقلالية الفلسطينية .

وقد فرضت القوة العسكرية السورية بعض الهدوء على لبنان والفلسطينيين ، ففى خريف عام ١٩٧٧ ، ظل الطريق الساحلى جنوب بيروت مفتوحا ، مما كان يسمح بالمرور وسط أنقاض الدامور إلى صيدا . وفى صيدا ، تحولت القلعة الصليبية القديمة المطلة على الميناء إلى نقطة مراقبة لمهربى الأسلحة الفلسطينيين . وفى أحد أيام الخريف الممطرة ، أقنعت أحد ضباط الجيش السورى بالسماح لى بزيارة المبنى الذى شهد حربين يفصل بينهما ٨٠٠ عام . وزحفت فوق أكياس من الرمال التى تحمى المدافع والرشاشة المعبأة بالذخيرة . ومن أجل الوصول إلى قمة الموقع ، إضطررت للمرور وسط مجموعة من الجنود السوريين والدوران خلف الأضواء الكاشفة التى تضىء الميناء فى الليل . وحينما وصلت إلى قمة الموقع ، إستطعت رؤية مياه البحر الزرقاء وكذلك المخيم الفلسطينى المزدحم فى عين الحلوة ، وهو أكبر المخيمات فى لبنان . ولم تكن هناك بقعة أخرى فى ذلك البلد التعيس توضح مدى الوجود السورى فى لبنان وإحتوائه للفلسطينيين مثل هذا المكان .

وفى الفترة من عام ١٩٧٧ وحتى عام ١٩٧٩ ، لم تكن الحركة الفلسطينية تشعر بالقبضة السورية فقط ، ولكنها كانت تعانى أيضا من إبتعاد مصر ، ففى خريف عام ١٩٧٧ ، كان أنورر السادات فى سبيله لأن يعلن أمام البرلمان المصرى عن قراره الذهاب إلى القدس . وبدون أن يخبر عرفات عن السبب ، أرسل طائرته الرئاسية لإحضار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية من زيارة رسمية كان يقوم بها لطرابلس ، وكان عرفات يجلس فى قاعة المجلس ، حينما أخبر السادات العالم أجمع بأنه سوف يذهب إلى إسرائيل للإجتماع مع هؤلاء الذى يلومهم الفلسطينيون على كل المعاناة التى يلاقونها ، وخوفا من أن يفسر حضوره بأنه موافق على مبادرة السادات ، قفز عرفات من مقعده وخرج مسرعا من القاعة ، وأسرع بمغادرة مصر . وطوال الشهور الستة عشرة التالية وجد الفلسطينيون أنفسهم بعيدين عن إتفاقيات كامب ديفيد ، وقضيتهم خارج نطاق المعاهدة الثنائية بين مصر وإسرائيل . وإنضموا إلى جبهة الرفض التى تزعمها حافظ الأسد ، وإستمروا فى شن هجماتهم على إسرائيل من جنوب لبنان .

ومن فوق تلال جنوب لبنان ، كانت القذائف الصاروخية الفلسطينية تنهال على المستوطنات الإسرائيلية فى الجليل . وبعد أربعة أعوام من الحرب الأهلية ، لم تكن هناك حكومة لبنانية تستطيع السيطرة على الفدائيين . كذلك لم يستطع الجيش الذى أرسله حافظ الأسد إلى لبنان ، ويقدر بحوالى ٢٠٫٠٠٠ جندى ، السيطرة عليهم . وفى يونيو ١٩٨٢ ، قامت إسرائيل بالتدخل . ★

★ قامت إسرائيل بغزو لبنان قبل ذلك فى عام ١٩٧٨ ، وانتهى الغزو بعد ضغوط من الولايات المتحدة من خلال الأمم المتحدة . أنظر الفصل الختامى .

وفى منتصف يوم ذكرى حرب الأيام الستة ، إندفعت الآلية العسكرية الإسرائيلية مرة أخرى عبر حدود إحدى الدول العربية . ولكن بدلا من لبنان ، كان الهدف هو الهيكل التنظيمى بأكمله لمنظمة التحرير الفلسطينية وطوال خمسة أيام ، أخذت تتدفق طوابير الدبابات والعربات نصف المجنزرة التى تحمل المدافع المضادة للطائرات ، وناقلات الجنود المدرعة ، وسيارات الإتصال ، وعربات الإمداد والتموين تجاه الشمال تحت حماية القوات الجوية الإسرائيلية . وتدفق الفدائيون الفلسطينيون ، الذين إزدادوا صلابة بعد ثلاث حقب من النفى وسبع سنوات من الخبرة القتالية ، من المعسكرات الموجودة فى صور وصيدا لإعاقة التقدم الإسرائيلى المتواصل ، وحينما كانوا يفقدون موقعا ، كانوا ينسحبون ليجدوا موقعا آخر فى إتجاه الشمال . وفى النهاية لم يعد هناك مكان آخر يذهبون إليه سوى بيروت ذاتها . وتجاهلت إسرائيل إعلانها الأساسى بأن هدفها الوحيد هو تطهير حدودها من الوحدات الفدائية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وإندفعت قوات جيش الدفاع الإسرائيلى إلى الجبال المطلة على بيروت . وتوقفت يوم ١٣ يونيو ، بعد أسبوع من الغزو فقد أصبحت بيروت محاصرة . وأصبحت الهياكل العسكرية والسياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى المصيدة .

ومن داخل مخبئه فى وسط بيروت ، راح ياسر عرفات يوجه نداءاته إلى الأمة العربية من أجل المساعدة . ولكن لم يأت أحد لمساعدته فى المعركة التى وصفها بأنها بمثابة « ستالينجراد العرب » وكان حافظ الأسد ، الذى رفض المخاطرة بحرب مع إسرائيل لإنقاذ ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، قد قام بسحب قواته إلى وادى البقاع منذ اليوم الأول للغزو . وكان صدام حسين متورطا فى حربه مع إيران . وكانت مصر بثقلها الكبير فى أية جهود حربية عربية ، قد تخلت عن الحرب ضد إسرائيل ، وظلت الأسر الحاكمة العربية المحافظة ، المتخوفة على الدوام من الوطنية الفلسطينية الراديكالية ، صامتة . وكان الوحيد الذى أجاب النداء هو معمر القذافى الذى إقترح على عرفات أن ينتحر دفاعا عن الكرامة العربية ، وبالرغم من عبارات الإخلاص الأبدى للشعب الفلسطينى ، تجاهل العرب القضية الفلسطينية . وتركوا ياسر عرفات كى يخبره جيشه المكون من ٦٠٠٠ فدائى بأن « الفلسطينيين يقفون وحدهم فى الميدان يواجهون جالوت الإسرائيلى » . ★

وأصبحت بيروت الجحيم ذاته . وبتجنب إسرائيل إرسال جيشها إلى ساحة حرب داخل المدن ، شنت القوات الجوية الإسرائيلية غاراتها على بيروت ، مما ألحق بها الدمار حتى أصبحت مثل درسدن أثناء الحرب العالمية الثانية ، وطوال سبعين يوما حاولت إسرائيل القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية . وطوال سبعين يوما ظلت الدول العربية تتفرج ، وبينما كان الفدائيون يتجولون فى الطرقات المخربة ، كان الشعراء يكتبون الرسالة الفلسطينية على جدران المدينة التى ينبعث منها الدخان : « أخبروا أطفالكم بما فعلته إسرائيل . أخبروا أطفالكم بما فعله العرب » . ★★

★ رشيد خالدى « تحت الحصار : عملية صنع قرار منظمة التحرير الفلسطينية أثناء حرب ١٩٨٢ » ، مطبعة جامعة كولومبيا ، نيويورك ، ١٩٨٦ .

★★ فريدمان ، « من بيروت إلى القدس » ص ١٤٩ .

ومع إجتياح الغضب أنحاء بيروت لم يكن أمام عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية سوى الرحيل عن المدينة من أجل إنقاذ السكان المدنيين وإنقاذ أنفسهم . وعملت الولايات المتحدة على مغادرة عرفات ورفاقه بيروت بسلام . وأخذ فيليب حبيب الوسيط الأمريكى ، يقوم برحلات مكوكية بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل والحكومة اللبنانية من أجل حل الأزمة المتفاقمة ، وفى النهاية وافقت جميع الأطراف . وفى مقابل الجلاء عن بيروت وتفريق جيشه الفدائى ، حصل الهيكل القيادى لمنظمة التحرير الفلسطينية على سلامته وسلامة أجهزته التنظيمية بعيدا عن لبنان . وأصبح الفلسطينيون الذين ظلوا فى بيروت ، تحت حماية قوة متعددة الجنسيات تضم قوات من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا . وبذلك فإنه فى يوم ٣٠ أغسطس ١٩٨٢ ، غادر ياسر عرفات المدينة التى كان يدير منها الثورة الفلسطينية طوال إثنى عشر عاما .

وفى صباح ذلك اليوم ، ساد بيروت التى كانت تهزها القذائف جو من السكون والترقب وهى تنتظر الأحداث الدرامية القادمة وظهر ياسر عرفات ، الشخصية الرئيسية ، من أحد المبانى السكنية فى حى الفكهاني الذى دمرته القنابل . وكان يرتدى الزى العسكرى الأخضر ، وعلى رأسه الكوفية المعروفة بلونيها الأبيض والأسود ، وحول عنقه قلادة من الخرز بألوان علم فلسطين ، ثم عانق بعض الذين شاركوه ساعاته الأخيرة فى بيروت . وتبع ذلك مراسم الوداع الرسمية . وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل ، إتجهت سيارة عرفات المرسيدس تحيط بها عربات الجيب المحملة بالحراس المسلحين إلى ميناء بيروت . وفور نزوله من السيارة ، إختفى وسط حشد من مراسلى الصحف والتليفزيون ، والنساء والمنتحبات ، والفدائيين الذين أخذوا يطلقون الأعيرة النارية فى الهواء . وسار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، وهو يبدو فى هيئة المنتصر ، بين صفين من جنود الجيش اللبنانى وجنود البحرية الأمريكية . وفى النهاية ، إستقل السفينة اليونانية « أتلانتيس » فى طريقه إلى أثينا . وكان آخر مشهد لعرفات فى بيروت ، وهو يقف على ظهر السفينة ملوحا بيده بعلامة النصر . وكانت أفضل لحظات عاشها ياسر عرفات . فقد كانت النجاة من الحرب الخاطفة التى شنتها إسرائيل تعنى أن منظمة التحرير الفلسطينية قد إنتزعت النصر من الهزيمة ، وأصبح عرفات ، أكثر من أى وقت مضى ، تجسيدا لرفض الفلسطينيين للإندثار . ولكن خلف إنتصار عرفات الرمزى ، كانت تكمن حقيقة أنه أصبح بعيدا عن الحدود التاريخية الفلسطينية مثلما كان حينما يجلس فى مقاهى مدينة الكويت يخطط للنهضة الفلسطينية . وحينما جرت مذبحة الفلسطينيين فى بيروت بمعسكرى صابرا وشاتيلا ، لم يكن الرجل ، الذى يعتبر مجازا أن جميع الفلسطينيين أبناؤه ، هناك .

وقد أضاف حصار بيروت بعداً آخر للمرارة الفلسطينية . ولم تكن بؤرته هى « السلبية العربية ، وإنما شيء أسوأ من ذلك : هو التواطؤ الضمنى ، بل التعاون مع أعداء منظمة التحرير الفلسطينية »• . وشجب ياسر عرفات الغاضب هؤلاء الذين ظلوا يرددون الشعارات المؤيدة للقضية

• فريدمان ، « من بيروت إلى القدس » ، ص ١٤٩ .

• رشيد خالدى « تحت الحصار » ، صفحة ١٤٨ .

الفلسطينية ثم مضوا بعيدا عنها تجاه أزمتها الكبرى .

« لقد كنا أفضل من العرب جميعا فى تلك الحرب ، ولذلك لم يستطيعوا أن يتركونا ننتصر . وفى الماضى ، كان هناك تضامن عربى ضد الفرنسيين والإيطاليين والبريطانيين ، ولكن ذلك لم يحدث ضد الإسرائيليين أثناء هذه الحرب ، بعد أن هزموهم جميعا . ولذلك كنا بمفردنا وتحملوا جميعا أن يتركونا لمصيرنا »**.

والذين تبعوا عرفات من الأردن إلى بيروت ، رافقوه فى منفاه فى تونس ، الموقع المتفق عليه دوليا ليكون العاصمة الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية . ومضت الحقبة اللبنانية ، وبدأ السباق مع الزمن والضمان بقاء منظمة التحرير الفلسطينية ، قام عرفات بإعادة تكوين أجهزتها ، ومواصلة برامجها الإجتماعية ، وفوق كل شىء إثبات أن الحركة الفلسطينية خرجت سالمة من أنقاض بيروت ، وقام عرفات بإبتلاع الغضب الفلسطينى الذى ساد فى عام ١٩٧٠ ، وبادر بالحوار مع الملك حسين لطرح رد أردنى فلسطينى مشترك على خطة ريجان فى عام ١٩٨٢ . وبعد بضعة أسابيع من الإنسحاب من بيروت ، ذهب عرفات إلى مؤتمر القمة العربية فى فاس ، حيث لقى ترحيبا كبيرا ، إلا أن عرفات رفض أن يدع أشقاءه العرب يفرون من عارهم . وزاد عرفات من آلام جراح الشرف العربى حينما زعم أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت تقاتل فى بيروت « ليس فقط للدفاع عن فلسطين ولبنان ولكن عن الأمة العربية بأسرها »*.

ومع أن القضية الفلسطينية كانت تتطلب الدبلوماسية ، فإنها كانت تحتاج للقوة العسكرية بصورة أكبر من أجل إزعاج إسرائيل ، وكان على عرفات تلمس طريقه للعودة إلى لبنان من أجل إعادة بناء قاعدة على حدود إسرائيل . ولكن تلك القاعدة أصبحت تحت سيطرة الرئيس السورى حافظ الأسد ، أكبر أعداء عرفات صرامة وخطورة .

وقد دفعت الحرب اللبنانية إلى السطح بصورة لم تحدث من قبل ذلك الصراع الجوهرى بين مطالب الوطنية الفلسطينية ومصالح الدول العربية . ولم تكن لتتحقق إحداهما إلا على حساب الأخرى . وفى لبنان ، كان على الفلسطينيين أن يستجيبوا لياسر عرفات أو لحافظ الأسد ولكن ليس لكليهما .

ومن المثير للسخرية ، أن ثورة داخل فتح ضد قيادة ياسر عرفات هى التى أتاحت الفرصة لحافظ الأسد ليتخلص من عرفات ويسيطر على الفلسطينيين فى لبنان . ومن خلال إمداد المتمردين بالأسلحة إستطاع الأسد أن يجذب إلى جانبه منظمتين آخريين تابعتين لمنظمة التحرير الفلسطينية - منظمة « الصاعقة » الخاضعة لسيطرة سوريا ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة ، الراديكالية المتطرفة . ووجد عرفات قضية جوهرية تساعده على مواجهة التحدى ، وتجنب الخوض فى الخلافات الداخلية داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية ، وأخذ

** نفس المرجع .

* عبد الله فرنجى « منظمة التحرير الفلسطينية وفلسطين » (لندن ، ١٩٨٢) صفحة ١٢٤ .

يركز على موقف حافظ الأسد من الإستقلالية الفلسطينية . وفجأة أصبح الأسد ، وليس عرفات ، هو القضية .

وحافظ عرفات على حرارة الهجوم ضد الأسد الرابض فى دمشق وفى يوليو ، جمع مراسلى الصحافة العالمية فى إحدى حدائق الزيتون بالقرب من قاعدته الجديدة فى مدينة طرابلس بشمال لبنان ، حيث عبر عن حقده قائلا « إن السوريين يسعون إلى دفع المنشقين إلى إقامة منظمة تحرير فلسطينية بديلة . وهذا أمر لا يصدقه عقل ! فمنظمة التحرير الفلسطينية تم تكوينها بإرادة وتضحيات الشعب الفلسطينى ، ولا يمكن القضاء على مكانتها وقوتها بقرارات تتخذها أية حكومة عربية »*

ورفض حافظ الأسد الإذعان للتخويف . وبحلول شهر سبتمبر ، كان قد تحالف مع منظمة « أمل » الشيعية اللبنانية التى كانت تكن العداء لياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية* ، وأصبح عرفات محصورا فى طرابلس بين القوات السورية وقوات « أمل » ولجأ عرفات إلى سكان المخيمات الذين ظلوا على الدوام يمثلون أساس تأييده . وراح يثير الروح الوطنية الفلسطينية ضد حافظ الأسد . ومنذ سبتمبر ١٩٨٢ ، أصبحت مدينة طرابلس ، ستالينجراد عرفات الثانية فى فترة لم تتجاوز العام .

وانتصار الوزير هى أرملة أقرب مساعدى عرفات ، (أبو جهاد) الذى إغتاله الإسرائيليون فى يوليو ١٩٨٨ ، وهى تعرف باسم أم جهاد وأحيانا أم الثورة . وهى جلة حسنة المظهر ، بل وجميلة . وقد قابلتها فى منزلها بتونس ، حيث قتل زوجها ، بعد حوالى عام من مقتله وكانت مع عرفات فى طرابلس أثناء معركته الأخيرة فى لبنان ، وقالت « كان القتال رهيبا ، وكان فى بعض الأحيان بنفس قسوة القتال فى بيروت . وقد أصيب أو قتل العديد من رجالنا . وكانت تغذية مقاتلينا من أكبر المشاكل التى واجهتنا ولأننا كنا بمفردنا مثلما كنا فى بيروت ، كان علينا الإعتماد على أنفسنا . وقد قمت بتنظيم السيدات الفلسطينيات من أجل إعداد ثلاث وجبات يوميا لسبعمائة فرد ، ووصفت لى المطابخ ، وأنواع الوجبات ، ومصادر الحصول على الطعام وطرق توصيله : ولأنها سيدة قليلة الكلام ، فقد ختمت حديثها فى الموضوع قائلة « نعم ، كان الأمر صعبا ، بل أكاد أقول فى غاية الصعوبة ، ولكن لم يكن هناك خيار آخر » .

وأمر الأسد فى ديسمبر بشن الهجوم النهائى بغرض طرد زعيم منظمة التحرير الفلسطينية إلى البحر ، وفى هذه المرة ، إستجابت الدول العربية لنداءات عرفات من داخل مخبئه ، وتفاوضت من أجل إنقاذه فى ٢٢ ديسمبر . وأبحر ياسر عرفات للمرة الثانية إلى خارج لبنان على ظهر سفينة يونانية . ولكن هذه المرة توجه مباشرة إلى القاهرة . ويرسم إبتسامة على وجهه ، كأنما لم تترك مصر الفلسطينيين من أجل السلام مع إسرائيل ، عانق عرفات حسنى مبارك ، خليفة أنور السادات .

---

* مجلة « تايم » ، ٢٥ يوليو ١٩٨٣ .

* كان شيعة لبنان يريدون القضاء على الوجود الفلسطينى المسلح فى لبنان ، لأنهم كانوا يعانون أكثر من غيرهم من العمليات الإنتقامية الإسرائيلية بسبب الهجمات الفلسطينية .

وإذا كان الأسد قد إستطاع طرد عرفات من لبنان ، فإن عرفات إستطاع الإضرار بجبهة الرفض التي
يرعاها الأسد .

وفى هذا الصراع المتسم بالضربات المتبادلة ، كان حافظ الأسد لا يزال مسيطرا على السكان
الفلسطينيين فى لبنان وعلى القوة الطيعة لمنظمة « أمل » الشيعية . وفى مايو ١٩٨٥ ، حاصرت
قوات « أمل » بدباباتها ومدافعها التى أمدها بها السوريون المخيمات الفلسطينية ، ولم يعان أى
مخيم فى أى مكان آخر من حرب المخيمات الوحشية تلك مثلما عانى مخيم برج البراجنة فى
بيروت ، فطوال ١٦٣ يوما منعت « أمل » إمدادات الغذاء والدواء عن ٢٠٫٠٠٠ فرد يقيمون
بالمخيم ، وبينما كان الرجال والصبية المسلحون بالأسلحة والخبرة المكتسبة من الحرب اللبنانية
الدائرة منذ عشر سنوات يحرسون المخيم ، كانت النساء والأطفال والعجائز وعدد من الأجانب
العاملين فى مجال الرعاية الصحية يعملون على الحفاظ على الحياة . فكان البعض منهم يكافحون
الفئران الزاحفة على أكوام القمامة والفضلات المتراكمة . وكان بعضهم يقوم بجمع بقايا الأغذية
ليضعوها فى أوانى الطبخ بالمخيم ، ولعدم وجود مستلزمات طبية ، كانوا يضطرون لإستعمال
الضمادات القديمة الملوثة بعد غسلها وتجفيفها من أجل معالجة الجروح المستمرة الناجمة عن
القتال . وحينما كانت قذائف المدفعية تخترق الحوائط ، كان سكان المخيم يسرعون للإختباء وسط
الأنقاض الناتجة عن الهجمات السابقة .

وعانى مخيم شاتيلا ، الذى كان مدمرا بالفعل من جراء مذبحة سبتمبر ١٩٨٢ ، من محنة
الحصار طوال خمسة شهور فى أواخر عام ١٩٨٦ وأوائل عام ١٩٨٧ ، وصمد أهالى المخيم الذين
إضطروا إلى أكل الفئران والكلاب ، كما صمد أهالى مخيم برج البراجنة ، بإسم عرفات . فبعد أن
إضطروا للبقاء مع عرفات أو الإستسلام لحافظ الأسد ، إجتمعوا خلف عرفات ذلك أن عرفات كان
أكثر من مجرد الزعيم المقاتل لمنظمة التحرير الفلسطينية الذى كانت الأوساط الغربية تتنبأ بزواله
يوميا . وبالرغم من إحتمال إعتباره زعيما ذا عيوب بالنسبة للكثيرين داخل حركته ، فإنه بالنسبة
لسكان المخيمات كان رمزا لفلسطين ، وشعاراً للمقاومة الفلسطينية التى كان البعض لا يزال يؤمن
بأنها سوف تعيدهم يوما ما إلى فلسطين . وهو الرجل الذى تحدى أعداء الفلسطينيين بإظهار شعبه
أمام العالم بأنه ضحية لسياسات الدول العربية الخاطئة والزعماء السياسيين العرب .

وكانت قوة الرمز ، وليس الرجل ، هى التى أتاحت لعرفات البقاء طوال معركة إستمرت أربعة
أعوام ضد زعامته داخل منظمة التحرير الفلسطينية . وفى ٢٦ أبريل ١٩٨٧ ، عقدت منظمة التحرير
الفلسطينية مؤتمرها الوحدوى الكبير فى مدينة الجزائر ، وفى مقابل رئاسة المنظمة ، إستسلم
عرفات للمطالب الراديكالية بأن ينسحب من أية مفاوضات مشتركة مع الملك حسين وأن يتراجع عن
العلاقة المتنامية مع مصر .

وكانت المفارقة أنه حينما إستطاعت منظمة التحرير الفلسطينية توحيد صفوفها ، وجدت أن
النضال ضد إسرائيل ينتقل من أيديها إلى أيدى الفلسطينيين المقيمين بالأراضى المحتلة . ففى
ديسمبر ١٩٨٧ ، راح الفلسطينيون فى غزة والضفة الغربية يلتقطون الأحجار من تراب فلسطين

ويقذفون بها قوات الإحتلال . وأكدت « الإنتفاضة » ضد القمع الإسرائيلى الهوية والثقافة
الفلسطينية وكذلك التمرد على قيود السياسة العربية ، وأعلن الفلسطينيون بأعمالهم فى مدن
نابلس ، ورام الله ، والخليل ، وغزة ، وفى مخيمات قلندية ، وبلاطة ، وخان يونس ، أنهم
عازمون على قيام دولة فلسطينية . وبين يوم وليلة ، أصبح « أطفال الحجارة » الفدائيين الجدد الذين
يقفون أمام قوة إسرائيل . وأدرك حافظ الأسد أن قوة جديدة إنبعثت فى العالم العربى ، ورفع
حصاره عن المخيمات الفلسطينية فى لبنان .

وفى الشهور الاولى للإنتفاضة ، شهدت قوة وعجز الحجارة . فقد تجاهلت البيانات الصحفية
الموجزة التى يتيحها الجيش الإسرائيلى لرجال الإعلام فى القدس ، وسافرت إلى غزة كى أستطلع
بنفسى عدد الأفراد الذين إستدعتهم إسرائيل لإحتواء الإنتفاضة . وكانت غزة ، المشحونة بجو من
التوتر فى معظم الأحيان ، تشعر كأنما مستها شحنة كهربائية ، وأضافت السحب الداكنة ومياه
الأمطار الموحلة عنصراً آخر إلى الجو المتوتر للغاية . وقدت السيارة إلى مدينة غزة ، أثناء مرورى
بالطريق الرئيسى الموصل إلى القدس . وفى غزة كان جزء كبير من الشارع الرئيسى مملوءاً بمياه
الأمطار ، ولذلك تحول المرور إلى الشوارع الجانبية ، ولم أتذكر أن السيارة التى أستأجرها تحمل
لوحة مرور صفراء تشير إلى أنها من إسرائيل . وأثناء سيرى ، وجدت فى مواجهتى إحدى الشاحنات
وبعض السيارات التى تسد الطريق ، وبعد أن تفاديتها ومضيت فى الطرق الجانبية كى أصل إلى
الشارع الرئيسى ، وجدت أمامى فجأة بركة طينية هائلة لم أستطع تفاديها ، وأصبحت السيارة غارقة
حتى منتصفها فى الوحل . وفى نفس اللحظة إنهالت الحجارة على السيارة ، مما أدى إلى كسر
زجاجها الأمامى . ثم أحاط بها عدد من الصبية الصغار ، فى حين وقف بعض الشبان خلف
الأشجار القريبة ، كذلك كان يوجد عدد من الرجال الذين يراقبون الموقف . ولم أستطع الانتظار
فى السيارة كهدف ثابت للحجارة ، ولذلك خرجت منها وأخذت أتحدث إليهم ، وأخبرهم عن
أسمى وموطنى ، وأسألهم عما إذا كانوا يذهبون إلى المدارس ، وعن أعمارهم . وكانت الحجارة
مازالت تتطاير فى الجو . ولكننى فى هذا الوقت لاحظت أن الهدف هو التخويف وليس الإصابة .
وبعد فترة بدت طويلة للغاية ، حضر أحد الأهالى فى سيارة نصف نقل ، وأخذ المهاجمون يقدمون
العون ، وإمتدت الأيدى الفلسطينية للمساعدة فى دفع سيارتى بعيدا عن البركة الموحلة .

وفى اليوم التالى ، كنت فى مخيم قلندية بالضفة الغربية . وكنت أصعد درجات سلم مركز
السيدات ، حينما إنفتح أحد الأبواب ، وجذبتنى يد من ذراعى إلى داخل الغرفة . ووجدت نفسى
فى مواجهة إحدى السيدات الفلسطينيات التى أشارت بيدها ناحية النافذة المغلقة بإحكام . وكانت
دوريات الجنود الإسرائيليين المسلحين بالبنادق العوزى والذين يرتدون الأقنعة الواقية من الغازات ،
يتجمعون وسط المخيم . وأثناء سيرهم كانوا يطلقون القذائف المسيلة للدموع . وبعد مرور أربعة
أعوام منذ بدء الإنتفاضة ، كانت قوة البنادق العوزى والقنابل المسيلة للدموع تفوق قوة الحجارة .

وتعبر الإنتفاضة عن الشعور بالوطنية الفلسطينية أكثر مما تعبر عن قوتها ، وبالرغم من أن
الفلسطينيين يستطيعون فرض الثمن على إسرائيل ، فإنهم لا يستطيعون الفوز إلا إذا قرر
الإسرائيليون إجراء تسوية . بيد أنه بتأكيد الشرف الفلسطينى ، أتاحت الإنتفاضة لياسر عرفات القوة

الكافية إزاء الراديكاليين داخل منظمة التحرير الفلسطينية كى يتناسوا « العودة » غير المستقرة ويقبلوا الإعتراف بدولة إسرائيل كخطوة أولى للحل الذى يقوم على وجود دولتين ويؤدى إلى قيام الدولة الفلسطينية المنشودة فى الضفة الغربية وغزة .

وفى داخل العالم العربى ، فتحت الإنتفاضة خزائن الدول العربية الأكثر ثراء . ذلك أن الإنتفاضة لم تكن تطالب فقط بالحقوق الفلسطينية وإنما كانت تخاطب أيضا الكبرياء العربى . وفى ذلك الوقت ، كانت النزعة الأسطورية تتغلب على الواقعية ، الأمر الذى كان يوحد جميع العرب ضد شرور الصهيونية والإنتهاكات الغربية . ومع ذلك كان العالم العربى أقل توحدا من أى وقت مضى . ففى ظل ظروف كانت تزداد فيها الهويات والمصالح الوطنية فى كل سنة تنفصل الدول عن ماضيها الإستعمارى ، كانت القضية الفلسطينية مصدراً للمضايقة مثلما كانت مصدرا للإلهام . وكان الرجل ، بكوفيته ، وبزيه العسكرى ، والذى كان دائم المطالبة بالأموال العربية من أجل ما كان معظم الزعماء العرب يعتبرونها منظمة متهورة ترفض الخضوع لسيطرة الدول العربية القائمة ، مصدر ضيق للذين سئموا الإستماع للحديث عن واجبهم المقدس تجه القضية الفلسطينية .

وحينما قام صدام حسين بغزو الكويت ، وضع الدول العربية ضد بعضها البعض حول قضية تتعلق بشىء آخر غير التعامل مع إسرائيل . وكان الهدف الأساسى لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٨ ، هو منع أية دولة عربية من الإتفاق مع إسرائيل بدون إشتراك الفلسطينيين أو دعم مصالحهم ، وأدت مغازلات الملك حسين مع إسرائيل ، وإتفاقيات كامب ديفيد ــ إلى وقوف الفلسطينيين بقوة ضد بعض الأنظمة العربية المعنية ، وكان ذلك متوقعا ومقبولا فى عالم تستغرقه مهانة حرب عام ١٩٤٨ . ولذلك كان مأمونا من الناحية السياسية . ولكن ذلك الترف تلاشى حينما إبتلع صدام حسين الكويت . وكان على ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية الإختيار بين عدوان صدام حسين وبين معظم بقية العالم العربى ، وقد إختارا صدام حسين .

وكانت الأسباب بسيطة ، كما كانت معقدة . وعلى المستوى البسيط ، فقد تبع عرفات شعبه . وكما ذكر أحد الدبلوماسيين العرب أثناء الأزمة « نحن نقول فى اللغة العربية أن العالم ينقسم إلى ديوك ودجاج » ويشعر صدام حسين ، ويوافق الكثير من العرب بأنه من الأفضل أن تكون ديكا لمدة يوم واحد على أن تكون دجاجة لمدة عام . وهو أول ديك عربى منذ وقت طويل » . * وفى الواقع ، كان صدام حسين ، المغرور أفضل ديك رآه العرب ، وكان يوجه صياحه ضد إسرائيل . وفى الضفة الغربية ، وغزة ، والأردن سمع الفلسطينيون صياحه وكما قال أحدهم « نحن الفلسطينيين » مثل المرء الذى يغرق ــ نبحث عن أى شىء يساعد على إنقاذنا ، وربما كان ذلك سبب إعتقاد البعض بأن صدام هو المنقذ الكبير . **

وعلى المستوى المعقد ، جاء قرار عرفات بالوقوف إلى جانب العراق بناء على إحتياجاته السياسية ، فقد كان صدام حسين يمثل ثقلا موازنا لحافظ الأسد ــ تاريخيا وسياسيا وجغرافيا . وكان

* نيويورك تايمز ، ٢٨ نوفمبر ١٩٩٠ .

** نيويورك تايمز ، ٢١ يناير ١٩٩١ .

الرئيس العراقى ، قد ساند عرفات أثناء معركته للإحتفاظ بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٨٠ وجعل بغداد مقرا لجهاز عرفات العسكرى حينما إضطر للرحيل من طرابلس فى عام ١٩٨٣ .

وبعد ساعات من الغزو ، ذهب عرفات إلى بغداد لمعانقة فاتح الكويت . ومن المثير للسخرية أن الكويت كانت البلد التى شهدت تشكيل الوطنية الفلسطينية وأتاحت الثراء للفلسطينيين أكثر من أى بلد آخر ، كما كانت الكويت أول مكان يدفع فيه الفلسطينيون ثمن قرارهم بمساندة « حاكم بغداد » .

وأصبح ٣٠٠,٠٠٠ من الفلسطينيين المقيمين بالكويت موصمين بأنهم متواطئون ، ووجد الفلسطينيون ــ الذين عاشوا طوال حياتهم فى الكويت وقدموا جهدا ملموسا فى تنمية الكويت ــ وظائفهم وتصاريح إقامتهم تتبخر مع عودة الحكومة ، ولكن لم يعان الفلسطينيون فى الكويت وحدهم من العقاب العربى ، فقد قامت المملكة العربية السعودية وإمارات الخليج بإلغاء عقود عمل الفلسطينيين ، والتى تمثل عائدا سنويا يبلغ ١٢٠ مليون دولار كانت تدعم إقتصاد الضفة الغربية . ولوقفت المعونات للإنتفاضة ، مما أدى إلى الإضرار بأنشطة المستشفيات والجامعات والمؤسسات الخيرية والإجتماعية التى تخدم الفلسطينيين المشاركين فى الإنتفاضة ، وعانت الأردن ، بسبب تواطئها مع صدام من إجراءات مماثلة . وأخيرا ، أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها مهددة من الذين لم يعودوا يريدون مساعدتها ، فقد أوقفت المملكة العربية السعودية أكثر الدول عونا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، الإعانة الشهرية التى كانت تمنحها للمنظمة ، وتبلغ ٦ ملايين دولار ، توفر لها الحياة ، وسادت الإنتقادات المريرة فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها بسبب أفعالها . فقد إقترف عرفات والمنظمة أكبر خطأ عصيب طوال تاريخ الحركة المضطرب بدفع جموع الفلسطينيين الى جانب الطرف الخاسر فى أحد الصراعات العربية الدموية الحاسمة ، وإذا كانت الإنتفاضة قد خلصت منظمة التحرير الفلسطينية من أسر السياسات القومية العربية فإن تأييدها للعراق قذف بها مرة أخرى إلى حلبة الصراع ، ولم يعد عرفات يستطيع الزعم مرة أخرى بأن الصراع من أجل فلسطين ، « فلسطينى فى مظهره ، عربى فى جوهره » . *

ولم تصدر أية كلمة من الدول العربية حينما أرسل حافظ الأسد الجيش اللبنانى لتدمير آخر معاقل منظمة التحرير الفلسطينية فى جنوب لبنان . كذلك لم يعارض معظم الزعماء العرب الرأى القائل بأن الوقت قد حان كى يترك ياسر عرفات قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

وكان موقف عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية فى غاية الضعف حتى أنه حينما إنعقد مؤتمر سلام الشرق الأوسط فى مدريد فى ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ ، حضره الفلسطينيون ضمن وفد فلسطينى أردنى مشترك ، مما يعنى تجاهل إعلان الرباط الصادر عام ١٩٧٤ ، والذى إعترف بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للفلسطينيين .

* شول ميشال « منظمة التحرير الفلسطينية فى ظل عرفات · بين البندقية وغصن الزيتون » . (مطبعة جامعة بيل ، نيو هافن ١٩٨٦) ص ٣٩ .

وقد إستطاع عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية لبعض الوقت تحمل رفض الدول العربية. ولكن ما لم يستطيعا إحتماله، هو الانقسام فى صفوف المنظمة. وفى عام ١٩٩١، بدأت الحركة الفلسطينية، القوة الموحدة الكبيرة للفلسطينيين، تتصدع.

وبالرغم من أن الوفد الفلسطينى المشارك فى مؤتمر مدريد كان بإسم منظمة التحرير الفلسطينية، فإنه كان يمثل الفلسطينيين من سكان الضفة الغربية وغزة، وليس الفلسطينيين المقيمين فى الشتات.

وكانت التسوية السياسية للأراضى المحتلة تهدد بترك مشكلة اللاجئين، وكان اللاجئون هم الذين يدعمون منظمة التحرير الفلسطينية سياسيا وعسكريا طوال خمسة وعشرين عاما، كما كانوا هم الذين عانوا من الحرب الأهلية الأردنية، وتحملوا حصار بيروت، وقاسوا الأمرين فى تل الزعتر، وصابرا، وشاتيلا، وبرج البراجنة، ولكن الإنقسام داخل الحركة الفلسطينية لم يعد بين الفلسطينيين المقيمين داخل فلسطين التاريخية والمقيمين خارجها فقط، فقد أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية تواجه داخل الأراضى المحتلة، وخاصة فى غزة، حركة «حماس» الإسلامية التى يرفض أعضاؤها كلا من القومية العربية والوطنية الفلسطينية، ويبحثون عن الهوية والأمن فى الإسلام.

وقد أصبح ياسر عرفات فى خريف عمره بعد أن تجاوز الستين، وبالرغم من حبه لذاته ومكانته، فان عرفات يحافظ على سيطرته على نفسه. وباسم فلسطين، يرعى بيروقراطية غير عملية. ولأنه لا يستطيع تنظيم وقته، فانه يبذل جهودا هائلة فى أمور لا تأتى إلا بعوائد قليلة للغاية. وسعيا منه لجعل منظمة التحرير الفلسطينية كل شىء لجميع الفصائل، فان عرفات يحاول فى كثير من الأحيان ترضية أقلها شأنا، مما يجعل المتشددين يتخذون التوصيات السياسية المتعلقة بالقرارات المصيرية. والأهم من كل شىء أن عرفات فشل فى اعداد خليفة له. وحينما اختفى رئيس المنظمة بطائرته فوق الصحراء الليبية فى فبراير ١٩٩٢، أصبحت المنظمة فى حالة شلل. ففى منظمة يسيطر رجل واحد فيها على الأمور المالية ويجمع الفصائل المتناحرة معا. فانه لا يوجد لدى أحد آخر تفويض بتولى القيادة. وفى صباح اليوم التالى، تم انقاذ عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، كى تثار مرة أخرى بعد ثلاثة شهور مسألة خلافته أثناء إجراء عملية جراحية له لازالة بعض الجلطات الدموية من المخ، ويبدو أن ياسر عرفات، الزعيم العجوز، الذى أصبحت مكانته السياسية وصحته فى غاية التدهور، لا يرغب فى تعيين خليفة له، كما يبدو أن منظمة التحرير الفلسطينية، غير قادرة على اختيار زعيم للجيل القادم. وسواء بسبب عدم المعرفة بالثقافة الامريكية أو بالأحرى بسبب غضبه الشديد من الولايات المتحدة لتأييدها لاسرائيل، فان عرفات يتجاهل الشبكات التليفزيونية، والمؤسسات الصحفية، ودور النشر التى تستطيع طرح قضيته أمام الجمهور بصورة فعالة، ففى فبراير ١٩٨٩، ترك عرفات مايك والاس، مذيع برنامج «٦٠ دقيقة» بشبكة سى بى إس التليفزيونية، ينتظر لمدة ثلاثة أيام في بهو فندق هيلتون بتونس قبل أن يسمح له بالمقابلة، وحينما جرى تصوير المقابلة. انعكست المعاملة العدائية لووالاس على شاشة التليفزيون، والأمر المؤسف بالنسبة للقضية الفلسطينية أن عرفات وأقرب معاونيه لا يبدون مدركين

لما يفعلونه بأنفسهم، وقد وصلت الى تونس بعد رحيل والاس مباشرة. وفى أول أيام زيارتى، اطلعنى الدكتور سامى مصلح، الذى يعمل مديرا لمكتب عرفات، بكبرياء شديد على «مقابلة فى غاية الأهمية» أجريت مع عرفات فى الأونة الأخيرة ونشرت فى «بنتهاوس» وهكذا ظلت تسير الأمور طوال رئاسة عرفات لمنظمة التحرير الفلسطينية.

ومع ذلك فان ياسر عرفات، أكثر من أى شخص آخر، هو المسئول عن قيام ورعاية الوطنية الفلسطينية المميزة. فقد جمع شعبا ممزقا مهزوما، وأعطاه الهوية، وزرع فى داخلة الشعور بالكبرياء الراسخ وطوال سنوات اتسمت بالمناورات المستمرة، وقف أمام الرئيس المصرى جمال عبد الناصر، والملك حسين ملك الأردن، والرئيس السورى حافظ الأسد، وأى زعيم عربى آخر حاول أن يسيطر على مصير الفلسطينيين، وكذلك رفض السماح لاسرائيل والولايات المتحدة وباقى دول الكتلة الغربية بأن يعتبروا الفلسطينيين مجرد مواطنين عربا، ولذلك كانت القضية الفلسطينية، وسوف تظل، القضية الرئيسية للعالم العربى. وهذا ما يجعلها نموذجا رئيسيا للشعور بالوحدة وحقيقة المصالح المحددة التى تعذب العالم العربى.

خاتمة

الواقع العربى والاستجابة الامريكية

فى عصر أحد الأيام الساخنة من شهر مارس ١٩٨٨ ، وضعت حقائب سفرى على السجادة الغربية الألوان والطراز بالحجرة رقم ٣٢٦ بفندق هيلتون تونس . وكنت طوال أربع عشرة ساعة إتنقل فى المطارات وأستقل الطائرات حتى أصبح عقلى المرهق فى حاجة شديدة الى بعض الهواء النقى وجذبت الستائر ذات الألوان القرمزية والرمادية التى تغطى زجاج الغرفة وخطوت الى الشرفة . وبدأت حرارة الشمس والهواء المنعش الذى يأتى من المحيط فى حوالى الساعة الثالثة عصرا يبعث النشاط فى جسدى المنهك ، ولاستمتاعى بهذا الشعور ، فاننى لم الاحظ على الفور أن ثمة شيئا قد تغير فى المنظر الخارجى . فقد أصبح هناك مبنى شاهق يحجب رؤية المياه الزرقاء فى خليج تونس . وانتقلت الى الجانب الأخر من الشرفة وانحنيت على السور ، واستطعت أن أرى لافتة باللونين الأزرق والأبيض عليها كتابة باللون الأسود . وعرفت أننى كنت أنظر الى مقر جامعة الدول العربية الذى انتقل من القاهرة الى تونس فى مارس ١٩٧٨ اثر اتفاق مصر واسرائيل فى كامب ديفيد . وأصبح ذلك الانتقال الذى كان يبدو فى ذلك الحين مؤقتا انتقالا دائما ، حيث تم بناء مقر جديد للجامعة فوق أحد التلال المطلة على مدينة تونس .

وفى ديسمبر عام ١٩٨٩ ، عدت مرة أخرى الى فندق هيلتون وكانت عملية اقامة مبنى الجامعة العربية قد شملت بناء قبة كبيرة ، على جانبيها مئذنتان عاليتان طليت قمتهما بالذهب . وكان المبنى من الخارج على وشك الاكتمال ، وكانت المنحنيات الجميلة التى كان من المخطط ان تصبح حدائق تجعل شكل المبنى يبدو كالجوهرة . ولكن قبل اقامة تلك الحدائق ، انغمس العالم العربى فى أزمة أخرى مزقت أواصر وحدته ، فقد قام صدام حسين بغزو الكويت ، مما أدى الى انقسام العالم العربى مرة أخرى ، مثلما فعل أنور السادات حينما أقام سلاما مع اسرائيل . وفى النظام الجديد الذى ظهر فى عام ١٩٩٠ ، أصبحت مصر مرة ثانية قلب العالم العربى ، وتمارس نفوذها المعتاد . ونتيجة لذلك ، قررت الجامعة العربية العودة الى القاهرة التى تعد دائما موطنها الطبيعى . وأصبح المبنى القائم فى تونس بمثابة نصب تذكارى لقوى الوحدة والانقسام التى تشد العرب دائما .

وفى الحقبة الأخيرة من القرن العشرين ، يمارس العرب وحدتهم وانقسامهم بأشكال جديدة . فبالرغم من عزل مصر أثناء حقبة الثمانينيات ، فقد قويت الروابط الرسمية بين الدول العربية . وبقيت الجامعة العربية ، أقدم المنظمات العربية وأكثرهم أهمية ، المظلة الكبيرة التى تجتمع فى ظلها الدول العربية . وبجانبها ، ظهرت الى الوجود سلسلة من المنظمات العربية

الأخرى ،بعضها ثقافية ، وبعضها سياسية ، وبعضها يحاول تضييق الفجوة الاقتصادية بين الدول النفطية والدول غير النفطية بتوفير المنح والقروض الرامية لتحويل الأموال من الدول العربية الاكثر ثراء الى الدول العربية الفقيرة ، ولكن القوى الحقيقية للوحدة تكمن فى الحياة اليومية . فنتيجة للثورة فى وسائل النقل ، أصبحت الطرق تربط القرية والمدينة ، كما تربط كافة الدول العربية معا . وأصبحت الطائرات النفاثة تحلق بدون جهد فوق الصحارى القاحلة ، تنقل الأشخاص والتجارة ، مما أدى الى ربط العرب ماديا واقتصاديا مثلما كانوا دائما مرتبطين عاطفيا . وأدت الهجرات الكثيفة للقوى العاملة من الدول الفقيرة الى الدول الغنية الى إرتباط المصرى والسورى والسعودى بصورة أكبر من أى وقت مضى . غير أن تقوية الثقافة المشتركة هى التى تؤكد فى الحقيقة الوحدة العربية . فقد خلق انتشار التعليم الذى بدأ فى حقبة الخمسينيات وازداد فى حقبة السبعينيات فى جميع دول المشرق العربى طبقة متعلمة ترى العالم من خلال منظور الثقافة العربية . وبخلاف المثقفين ، تربط الصحف والافلام ، والاذاعة والتليفزيون بين القاهرة والرياض ودمشق وبغداد ، وتتيح ثقافة مشتركة عربية اللغة . وأصبحت الأشعار والأعمال الدرامية التليفزيونية لاحدى الدول العربية ملكا لها جميعا وتشهد على الروابط التاريخية العربية للوحدة .

ولكن كما تنمو الوحدة ، كذلك ينمو الانقسام . فقد تطورت بدرجات متفاوتة مصالح دول العالم العربى التى كانت فى وقت ما خطوطا على خريطة رسمها الآخرون . والانقسام الكبير اقتصادى ، يفصل بين الدول النفطية والدول التى لا تملك النفط ، والخلافات الأخرى هى تلك التى تشمل جميع الدول مثل التنافس على المياه ، والأسواق والمنافذ للبحار ، وتعديلات الحدود ، والزعامة الاقليمية . ولكن العرب لا يختلفون على قضية مثلما يختلفون حول طبيعة علاقاتهم مع الغرب ، وخاصة مع الولايات المتحدة الامريكية .

وتكمن بذور الاضطراب العربى داخل العالم العربى ذاته . ولكن تلك البذور ظلت تتغذى وتنمو على سياسات الولايات المتحدة التى ترجع الى الحرب العالمية الثانية . وساهمت السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط ، غير الواضحة اعدادا وتنفيذا ، فى اضطراب العالم العربى . وفى الوقت ذاته ، عرضت الوجود الأمريكى للخطر ، فى تلك المنطقة الحساسة التى تربط بين أوروبا وافريقيا وآسيا ، وتمتلك أكثر المواد حيوية للصناعة الغربية وهى النفط .

وأساسا ، تنبع الأضرار الأمريكية للعالم العربى ومشكلة الولايات المتحدة المتزايدة على الدوام فى حماية وضعها فى الشرق الأوسط من الحقيقة الرئيسية بأن الولايات المتحدة لم تتعامل أبدا مع العالم العربى وفقا للواقع العربى والمشاكل العربية ، فمنذ عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٩٠ ، كانت السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط ، فى ظل ادارات تسعة رؤساء ، تخضع لعاملين ـ هما الحرب الباردة والسياسة الداخلية الأمريكية التى كانت تتطلب تأييد اسرائيل ، ولم تضطر الولايات المتحدة للنظر الى العالم العربى نظرة جديدة الا بعد انتهاء الحرب الباردة وتهديد صدام حسين ، بدون تأييد من الاتحاد السوفيتى ، بقطع شريان الحياة عن العالم الصناعى ، وفى تلك الصحوة ، أدرك الرئيس بوش وبعض أعضاء الكونجرس أن الحصول على النفط يقتضى

استقرار المنطقة التى تملك هذا النفط . ويتطلب الاستقرار تغيير الولايات المتحدة الممارسات والفرضيات التى دامت طوال خمسين عاما .

وفى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لم تكن للولايات المتحدة تقريبا مصالح تجارية أو سياسية حيوية فى الشرق الأوسط ، وكان العالم العربى بصورة كبيرة مجالا لعمل البعثات التبشيرية التى عرفت الولايات المتحدة ، من خلال مستشفياتها ومدارسها ، على العرب . وقد عبر وودرو ويلسون بصورة ما عن نشأته الدينية حينما أعد المبادىء الأربعة عشر . ولأن مقترحات ويلسون بشأن العلاقات الدولية كانت تتصل بحق العرب فى تقرير المصير ، فقد اصطدمت بالمطامع الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا . ونتيجة لذلك ، لم تشارك أى منهما فى لجنة اقترحها رجل متدين أمريكى آخر ، هو دانيل بليس رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت ، من أجل جمع المعلومات المتعلقة بتنفيذ الحكم الذاتى للعرب . ومضى ويلسون بمفرده . وفى ربيع عام ١٩١٩ ، أرسل لجنة كينج ـ كرين الى فلسطين وسوريا وتركيا . وتحدت اللجنة فى تقريرها صراحة اطماع بريطانيا وفرنسا وفضحت مزاعم الصهاينة . وبصورة أفضل من أى أحد آخر فى الغرب ، اشارت لجنة كينج ـ كرين الى المشاكل المحتملة المتفجرة فى فلسطين ، ولكن جهودها لم تسفر عن شىء . وربما لم ير ويلسون تقريرها على الاطلاق ، فقد تم نشر التقرير فى نهاية عام ١٩٩٢ ، ولكن حينذاك لم يكن هناك من يهتم بالأمر . واتجهت الولايات المتحدة للعزلة . ومع رضاء ادارة هاردنج ـ كوليدج بأن يظل الشرق الأوسط منطقة نفوذ لبريطانيا كانت البعثات التبشيرية فى المشرق التى انضم اليها فيما بعد عدد من رجال صناعة النفط الذين كانوا يبحثون عنه فى رمال السعودية ، تمثل الوجود الأمريكى الرئيسى فى العالم العربى .

ولم تبدأ المفاهيم الرئيسية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط فى التشكيل الا أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولم تستجب لأمال ومخاوف شعوب العالم العربى الا بقدر ضئيل ، ففى دولة كان لايزال الاسلام يسمى فيها العقيدة « المحمدية » ، فان القليلين هم الذين كانوا يعرفون أو يهتمون بفكر أومطالب العرب ، وبالنسبة للأمريكيين ، كان الشرق الأوسط ليس سوى « الأرض المقدسة » ، المهد المقدس للديانتين اليهودية والمسيحية . وبالنسبة لليهود الأمريكيين كان هو فلسطين . وكان هارى ترومان ، مثل فرانكلين روزفلت من قبله ، يشعر بضغوط الصهاينة الأمريكيين البارزين ، ولما كانت فلسطين لا تشكل تهديدا مباشرا للمصالح الأمريكية . ولا يستطيع الفلسطينيون التصويت فى الانتخابات الأمريكية ، فقد اختار ترومان تجنب الغضب المنظم لليهود الأمريكيين بمساندة الأهداف الصهيونية . غير أنه فوق سياسة جماعات المصالح ، كان عبء الاحساس بالذنب ـ من معسكرات الابادة النازية ومأساة آلاف المشردين ـ هو الذى أثار الاهتمام الأمريكى بالمطالب اليهودية فى فلسطين ، وصوتت الولايات المتحدة لصالح قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين فى عام ١٩٤٧ . وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ ، تجاهل هارى ترومان نصيحة وزارة الخارجية الأمريكية وأعلن اعتراف الولايات المتحدة باسرائيل بعد احدى عشر دقيقة من اعلانها قيام الدولة .

وتدفقت على الدولة الجديدة الأموال الامريكية فى صورة معونات حكومية وتبرعات شخصية ، وفى الفترة من منتصف عام ١٩٥٠ حتى منتصف عام ١٩٥١ تقريبا ، منحت الحكومة الامريكية لاسرائيل معونات مباشرة بلغت ٦٥ مليون دولار ، فى حين منحها بنك التصدير والاستيراد ٣٥ مليون دولار فى صورة قروض ، كما حصلت من منظمة النداء اليهودى الموحد على ٨٩ مليون دولار ، وفى نفس الفترة ، منحت الحكومة الامريكية لهيئة الاغاثة التابعة للأمم المتحدة ١٦ مليون دولار من أجل الرعاية الطبية للاجئين الفلسطينيين ، كما منحت عدة قروض ضئيلة للدول العربية المتاخمة لحدود اسرائيل . وبدأت المنافسة غير العادلة بين العرب واسرائيل من أجل الحصول على المعونة والتأييد الامريكيين .

وربما كانت الولايات المتحدة قد تركت الشرق الأوسط لبريطانيا التى انهكتها الحرب وللمنظمات اليهودية الامريكية لولا الأطماع التوسعية للاتحاد السوفيتى ، فقد حاول الجيش السوفيتى ، الذى كان قد ثبت أقدامه بالفعل فى أوروبا الشرقية مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، الزحف على شمال ايران . وبعد فشله ، أخذ الدب الروسى يتطلع جنوبا تجاه تركيا ومضيق الدردنيل واليونان . وفى عام ١٩٤٧ ، اثارت بريطانيا المنهكة ، ذهول واشنطن حينما أعلنت أنه لم يعد فى استطاعتها مساعدة حكومة اليونان المعادية للشيوعية ، ووفقا للسيناريو الذى أعدته المخابرات الامريكية ، فانه بمجرد سحب بريطانيا مساندتها لأثينا ، فان رجال حرب العصابات الموالين للروس كانوا سيستولون على السلطة . وحينذاك كانت اليونان ستنجذب للفلك السوفيتى ، مما يهدد بجذب شرق البحر المتوسط معها . وفى ١٢ مارس ١٩٤٧ ، توجه هارى ترومان الى الكونجرس ليعلن « ان انظمة الحكم الشمولية التى تفرض نفسها على الشعوب الحرة سواء بالعدوان المباشر أو غير المباشر ، تقوض أسس السلام العالمى ، وبالتالى أمن الولايات المتحدة »* وكان مبدأ ترومان ، الذى يهدف الى احتواء التوسع السوفيتى ، طلقة البداية للحرب الباردة . وفى كافة أنحاء العالم ، اضطرت الولايات المتحدة الى مواجهة تحركات الاتحاد السوفيتى لاكتساب النفوذ والأراضى ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا . ولم يكن العالم العربى استثناء من ذلك .

وقد أصبح دوايت أيزنهاور رئيسا للولايات المتحدة فى عام ١٩٥٣ ، وكان قلقا ، اثر انتهاء الحرب الكورية التى نشبت لاحتواء الشيوعية فى آسيا ، من أن يؤدى الاستياء العربى تجاه اسرائيل والتأييد الامريكى للدولة اليهودية الى توفير أرض خصبة للاستغلال السوفيتى للشرق الأوسط العربى وفى محاولة لاقامة « توازن » بين اسرائيل والعرب ، احتجت الولايات المتحدة فى بداية صيف عام ١٩٥٣ حينما بدأت الحكومة الاسرائيلية فى نقل مكاتبها من تل أبيب للقدس على أساس ان هذا الاجراء انتهاك لقرار التقسيم لعام ١٩٧٤ الذى نص على أن مدينة القدس مدينة دولية ، وحينما بدأت اسرائيل العمل فى مشروعها على نهر الاردن بالمنطقة المنزوعة السلاح لتحويل المياه من سوريا والاردن الى اسرائيل ، طالبت الولايات المتحدة الامريكية بوقف المشروع . ورفضت

* ورد فى كتاب توماس بيلى « التاريخ الدبلوماسى للشعب الامريكى » (نيويورك ، أبلتون - سنشرى - كروفتس ، ١٩٦٤) صفحة ٧٩٧ .

اسرائيل . ومع ذلك استمرت المعونة الامريكية ، وشكلت ٣٥ ٪ من اجمالى الواردات الى اسرائيل فى عام ١٩٥٣ . وكان الرئيس يدير السياسة الخارجية . ولكن الكونجرس كان يخصص الأموال . وكان أصدقاء اسرائيل داخل الكونجرس يتمتعون بنفوذ كبير . ولذلك أصبحت ادارة ايزنهاور أسيرة بين الاحتياجات السياسية الداخلية التى تقضى بترضية الجماعات الامريكية القوية المؤيدة لاسرائيل ، وبين الهدف الاستراتيجى الأهم الرامى الى احتواء النفوذ السوفيتى . وفى تلك الفترة التقت الولايات المتحدة بجمال عبد الناصر .

ولأنها من الناحية التاريخية لم تكن متعاطفة مع كل من الملكية والاستعمار ، فان الولايات المتحدة لم تبد أية معارضة للثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ ، وفى الواقع ، كان بعض المخططين السياسيين الأمريكيين ، طوال عام أو عامين ، يرون أن عبد الناصر هو « رجل امريكا فى القاهرة » . ولكن المواقف تجاه الرجل الذى قاد الثورة أصبحت متشددة منذ عام ١٩٥٥ حينما ذهب عبد الناصر الى مؤتمر باندونج وظهر كبطل لحركة عدم الانحياز وكمعارض للغرب ، وكان الوطنيون المعادون للغرب . يعتبرون فى منتصف حقبة الخمسينيات ، التى اتسمت بتزايد الحرب الباردة ، من العناصر المكروهة . ومثلما حدث مع الوطنيين الآخرين فى تلك الفترة ، سقط عبد الناصر فى هوة التنافس بين القوتين العظميين .

وتجاهل أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس والكونجرس الامريكى ووسائل الاعلام الامريكية ، مخاوف عبد الناصر ذاته من خطر الشيوعية على قوته فى مصر ، واعتبروه مواليا للسوفيت . وانتهزت اسرائيل الفرصة ، وعملت على اظهار نفسها بأنها درع الديمقراطية الوحيد فى العالم العربى المعادى الذى يسرع فى اتجاه الشيوعية . وربطت اسرائيل بمهارة بين المصالح الاستراتيجية الغربية والدولة اليهودية بعد أن شنت حملة مكثفة فى الولايات المتحدة ضد عبد الناصر » . وبصفتها الحليف الذى لا غنى عنه ، حصلت اسرائيل على المعونات العسكرية والمالية الامريكية السخية ، وعلى التأييد المعنوى الامريكى فى صراعها مع العرب ، وضاع من الذاكرة عبد الناصر الوطنى ، الذى قاد الكورس العربى ضد الميراث الاستعمارى* .

وتراجعت القضايا الأساسية فى الشرق الأوسط ، تلك التى بين العرب والوجود المتبقى للاستعمار الغربى وتلك التى بين اسرائيل والعرب ، أمام المسألة الوحيدة للانحياز فى الحرب الباردة . وبالنسبة للولايات المتحدة ، حجب حياد عبد الناصر قضية رئيسية وهامة للعرب فى عام ١٩٥٥ - هى الغزو الاسرائيلى واحتلال غزة . وبعد أكثر من ثلاثين سنة ، كان العرب يتذكرون أن

* كان يبدو أن عبد الناصر من جانبه لم يكن يستطيع أن يفرق بين رموز وأدوات الشئون الدولية . وفى احدى خطبه البليغة للجماهير العربية قال صائحا « حينما تتحدث واشنطن سوف أقول لهم موتوا بغيظكم ، فالموت أفضل من الذل » . ولم يستطع عبد الناصر أن ينسى كراهيته للاستعمار أو يضع حدا لحملاته الدعائية ضد الولايات المتحدة ونسف عبد الناصر أى تسامح ازاءه كوطنى أصيل .

« الولايات المتحدة كانت ترى كل شيء باللونين الأبيض والأسود . وكانت تقول انكم معنا أو ضدنا فى وقت كنا قد تخلصنا فيه لتونا من الحكم الاستعمارى وكانت الولايات المتحدة تنوى انتزاعنا » **

وقد استغل عبد الناصر حياده للوقيعة بين القوتين العظميين . فبعد وقف الأسلحة الامريكية عنه ، عقد صفقة أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا أدت الى تواجد الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط لأول مرة . غير أنه حينما أمم عبد الناصر قناة السويس ، مما أدى الى الغزو البريطانى الفرنسى الاسرائيلى ، رفض أيزنهاور السماح باستمرار الغزو . وبعد أن كبح جماح اسرائيل وأقرب حلفائه ، أحيا أيزنهاور بين العرب - فى كل أرجاء الشرق الأوسط - صورة الامريكيين كمبشرين ينزعون لعمل الخير . ولكن بقراره فرض الانسحاب من الأراضى المصرية ، كان أيزنهاور يتصرف ضد الروس ، وليس لصالح العرب . وقد أنقذ أيزنهاور عبد الناصر أثناء حرب السويس فى عام ١٩٥٦ لسبب واحد هو منعه من جلب الاتحاد السوفيتى بصورة أكبر الى الشرق الأوسط . وبدافع من استراتيجيات الحرب الباردة ، أسرع أيزنهاور ودالاس ، بمعالجة الخلافات مع حلفاء أمريكا ، وبدأوا فى مساندة الأسر المالكة فى الاردن والعراق من أجل احتواء قومية عبد الناصر العربية .

وفى ٥ يناير ١٩٥٧ ، طرحت الادارة الامريكية مشروع ايزنهاور ، الذى كان تكملة لمشروع ترومان ، لتقديم المعونة الاقتصادية والدعم العسكرى لأية دولة فى الشرق الأوسط تتعرض لخطر انقلاب شيوعى . وفى الواقع ، كان مشروع أيزنهاور بمثابة سدادة دائرية على ثقب مربع ، لأنه تجاهل المشاكل الكامنة التى شجعت على قيام الروابط العربية مع موسكو . وعلى أية حال فانه حينما اغتالت عناصر موالية لعبد الناصر ، الملك فيصل ملك العراق ، أحد أسس حلف بغداد المعادى للاتحاد السوفيتى فى يوليو ١٩٥٨ ، أدى مشروع ايزنهاور الى العمل على انقاذ الحكومة الموالية للغرب فى لبنان .

ونزلت قوات مشاة البحرية الامريكية على سواحل بيروت فى ١٥ يوليو ١٩٥٨ . وظلت القوات الامريكية التى بلغت ١٤٫٠٠٠ جندى طوال ثلاثة شهور ونصف تقوم بدوريات على شواطىء بيروت وسط المصطافين وباعة الأيس كريم ، وتتسوق من محلات شارع الحمرا . وحينما تأكد استمرار الحكومة الموالية للغرب فى لبنان ، عادت القوات الامريكية الى بلادها وكان الأمر برمته مظهريا . فقد أعادت القوة المسلحة ، التى خسرت جنديين فقط ، النظام ، وحفظت المصالح الامريكية فى الشرق الأوسط . ولكنه كان عملا منفصلا عن الظروف السياسية التى تم تنفيذه فيها . وفى حين أظهر غزو لبنان الادارة الامريكية ضد عبد الناصر وبالتالى ضد الاتحاد السوفيتى ، فانه حافظ على الوضع القائم ، وترك كافة المشاكل الكامنة التى أدت الى الاضطراب فى لبنان فى المقام الأول . والأكثر سوءا ، أنه شكل سابقة للتدخل الامريكى الأكثر تكلفة فى المستقبل داخل العالم العربى .

** كريستيان ساينس مونيتور ، ١٣ أغسطس ١٩٩٠ .

وربما تنبأ دوايت ايزنهاور بأحداث المستقبل . فأثناء العامين الأخيرين من فترة رئاسته ، تراجعت الادارة الامريكية عن سياستها العدوانية تجاه الناصرية وبدأت تسعى بجدية لاقامة علاقات أفضل مع الدول العربية الحليفة لعبد الناصر . ولكن الرئيس لم يستطع اضعاف سيطرة اسرائيل ومؤيديها على الكونجرس والرأى العام الامريكى .

وكانت اسرائيل مثل القاصر الغيور ، التى تغضب حينما تقوم كفيلتها بالاتصال بالعرب . ونتيجة لذلك ، كانت مساعى أيزنهاور لاختراق فلك عبد الناصر تتعرض للحملات الهجومية من أصدقاء اسرائيل . ولم يكن ذلك من جانب جماعات الضغط اليهودية فقط ، بل أيضا من جانب الجماعات المسيحية التى كانت تتمسك بالرأى الخاطىء بأن المسلمين خارج التقاليد اليهودية - المسيحية ، ولذلك فهم أمة ليس لها الحق فى أرض داوود والمسيح ، وانضمت الى تلك الجماعات قطاعات كبيرة من الشعب الامريكى . وفى ١٩٦٠ ، أصبحت قصة « الخروج » التى كتبها ليون أوريس فيلما سينمائيا . وبعث الممثل الشهير بول نيومان والممثلة الجميلة ايفا مارى سانت الى الحياة الجهود المضنية التى قام بها ضحايا الابادة للتسلل الى فلسطين الخاضعة لبريطانيا ونضالهم لاستعادة الأرض من العرب . وفى الوقت ذاته ، أخذت الصحف والمجلات والشبكات التليفزيونية تنشر القصص المتالية عن المعجزة التى تحدث فى اسرائيل .

وكانت إسرائيل تقوم بإستزراع الصحراء . وأصبحت بفضل الأموال الغربية العامة والخاصة وسكانها المتعلمين القادرين على تنظيم أنفسهم من أجل القيام بالتنمية ، تعتبر فى نظر الولايات المتحدة دولة غربية مماثلة لأوروبا . وكان التغريب هو المعيار الذى يُحْكَمُ به على العرب . ولأن العرب كانوا فقراء بصفة عامة ، وفى بعض الأحيان مضطربين من الناحية السياسية ، فقد كانوا يصفون بأنهم متخلفون ثقافيا لا يستحقون نفس القدر من المعونة والتعاطف الذى تحصل عليه إسرائيل . وكان القليلون ممن يصدرون الأحكام على العرب يدركون أنهم لم يستطيعوا تحقيق المستويات التى يريدها الأمريكيون ، لأنهم لم يحظوا بنفس القدر من الأموال التى حصلت عليها إسرائيل ، لأن تاريخهم أثناء حكم الإمبراطورية العثمانية جعلهم غير مستعدين لإستقبال القرن العشرين ، وربما كانت منافسة العرب غير المتكافئة مع إسرائيل ستظل على هذا النحو - لو لم تكن الإحتياجات الغربية للطاقة قد بدأت فى تغيير الجانب العربى من المعادلة بصورة ملموسة .

وحينما تولى جون كيندى الرئاسة فى عام ١٩٦١ ، كان النفط العربى قد أصبح عنصرا متزايد الأهمية فى مصادر الطاقة الأمريكية ، فى نفس الوقت الذى شهد إزدياد النفوذ السوفيتى فى مصر برئاسة عبد الناصر . وبالرغم من إدارة كيندى لم تكن لها سياسة ملموسة واضحة لمواجهة المشاكل الأمريكية فى الشرق الأوسط ، فإنها كانت تدرك أن الدول العربية تمر بتحولات إجتماعية جوهرية مريرة ، كانت واضحة تماما فى الأنظمة المحافظة مثل الأردن مثلما كانت واضحة فى الأنظمة الراديكالية مثل سوريا . ومن هذا المنطلق ، بدأت الإدارة فى طرح برنامج للمعونات الإقتصادية الأمريكية يمكن أن يؤدى إلى التقارب التدريجى مع الدول العربية الأكثر راديكالية . وكان الإفتراض هو أنه فى حالة تطور الدول العربية الراديكالية إقتصاديا وإستقرارها سياسيا . فإن الأعمال العدائية

تجاه الغرب والناجمة عن الإحباط واليأس والمهانة سوف تختفى تدريجيا ، وبذلك يتم القضاء على الدعوة الناصرية .

ولكن كينيدى لم يستطع أثناء فترة رئاسته القصيرة أن يتغلب على الإتجاهات السياسية الداخلية كى يضع النظرية موضع التنفيذ . وعارض أنصار إسرائيل بكل قواهم أى تقارب أمريكى مع العرب . وتحت هذه الضغوط تمرد الكونجرس على الرئيس . وجرى تعديل قانون المعونة الخارجية لعام ١٩٦٣ لمنع المعونة الأمريكية عن أية دولة « تشترك أو تخطط للقيام بأعمال عسكرية عدوانية » ضد الدول الأخرى التى تحصل أيضا على المعونات الإقتصادية الأمريكية . وبعبارة أخرى ، كان ذلك يعنى حجب المعونات عن تلك الدول العربية التى ترغب الإدارة فى التقرب منها بالمعونات التى تهدف إلى تشجيعها على الإعتدال تجاه كل من الولايات المتحدة وإسرائيل . ولتبرير القرار القائم على أسس سياسية ، زعم الكونجرس أن الحظر يحمى المصالح الأمنية للولايات المتحدة . وكان زعما مقنعاً للجمهور الأمريكى الذى لم يكن فى الحقيقة مهتما بتوازن السياسة الخارجية فى الشرق الأوسط .

وفى حين أحبطت السياسة الداخلية إتصالاً أكثر فاعلية بالعالم العربى المعادى ، أضافت الحرب الباردة ثقلها إلى إضطرابات المنطقة . ومثل الثعالب وكلاب الصيد ، أخذت الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتى يطاردان بعضهما البعض فى أنحاء الشرق الأوسط . فارسل الإتحاد السوفييتى كميات هائلة من المعدات العسكرية والمعونات الإقتصادية إلى عدد من الدول العربية التى كانت تسعى إلى إيجاد ثقل موازن للثنائى الإسرائيلى ـ الأمريكى . وفى مقابل ذلك ، ضاعفت الولايات المتحدة شحنات أسلحتها إلى الأنظمة العربية الموالية للغرب ، مثل الأردن والمملكة العربية السعودية . وكان ذلك يضمن حصول إسرائيل على نصيبها من المعونات العسكرية الأمريكية التى كانت دائما أكبر وأفضل فى الكمية والنوعية مما كان يحصل عليه العرب .

وفى تلك الدائرة اللانهائية ، كانت الولايات المتحدة تقيم نجاح سياساتها فى الشرق الأوسط بمراقبة الإتحاد السوفييتى ، وليس العرب . وبهذا المعيار ، واجهت الولايات المتحدة مشاكل خطيرة فقد رأت المخابرات الأمريكية فى عام ١٩٦٧ أن الإتحاد السوفييتى قد أقام أسطولا مماثلا للأسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط ووضع تسهيلات عسكرية كافية فى مصر لخدمة هذا الأسطول . ولذلك حينما شنت إسرائيل الحرب ضد عبد الناصر وإنتصرت بصورة مذهلة ، هلل الكثيرون فى واشنطن فى صمت . وبخلاف واشنطن ، جعلت السرعة والشجاعة التى نفذ بها الإسرائيليون الحرب أبطالا من شعب بأسره . وأسرع الأمريكيون الذين كانوا غارقين فى مستنقع فيتنام ، إلى نجدة الدولة التى لم تصد العدو فحسب ، بل هزمته فى ستة أيام فقط . ونتيجة لذلك ، أصبحت إسرائيل أكبر من حجمها . وفى يوم إنتهاء الحرب ، تدفق الأمريكيون على ميدان لافاييت بالقرب من البيت الأبيض ، وهم يرفعون أعلام إسرائيل ، وكانوا يحيون إسرائيل الصغيرة التى أعجزت عبد الناصر ودافعت عن الديمقراطية فى الشرق الأوسط . وكانت الرسالة التى يؤكدونها هى أنه لا توجد دولة تستحق الأموال الأمريكية والإعجاب أكثر من الدولة اليهودية . وضاعت التعقيدات التى أدت إلى الحرب وتلك التى تلتها . كما ضاعت تقريبا فى نشوة الإنتصار

مجموعة المنازعات الإقليمية الجديدة التى نجمت عن الحرب ـ والتى لا زالت بدون حل ـ وكذلك الموجة الجديدة من اللاجئين الغاضبين الذين راحوا يصبون جام غضبهم على الولايات المتحدة . وكان الكثيرون فى أنحاء العالم العربى يرددون : « لقد ساعدت أمريكا إسرائيل . لقد قذفونا بالقنابل ، وقتلوا نساءنا وأطفالنا . . . وفى يوم ما سوف نقتلكم جميعا »* . ولكن القليلين كانوا يسمعون . ذلك أن عام ١٩٦٧ ، كان العام الذى بدأت فيه الجماهير الأمريكية ، ووسائل الإعلام ، والكونجرس قصة حبهم العاطفى مع إسرائيل .

وحاولت إدارة جونسون ، المفتونة بإسرائيل ولكن ليست العمياء تماما تجاهها ، عقد تسوية سليمة على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذى يدعو إسرائيل إلى إعادة الأراضى التى جرى إحتلالها فى عام ١٩٦٧ مقابل الإعتراف بحق إسرائيل فى الوجود داخل حدود آمنة . وفشلت صيغة الأرض مقابل السلام فى سيناريو إتسم بخطأ كلا الطرفين ، إلى أن يعترف العرب بإسرائيل . ورفضت الدول العربية الإعتراف بإسرائيل قبل أن تعيد إسرائيل الأراضى المحتلة . وفشلت إدارة جونسون ، التى أنهكها جحيم فيتنام ، فى تحقيق تسوية . ومع وجود العديد من النقاد الغاضبين الذين كانوا يعارضون الحرب فى آسيا ، لم تكن الإدارة مستعدة لإثارة الجبهة الداخلية مرة أخرى بالوقوف ضد أصدقاء إسرائيل حول قضية التسوية الإقليمية لمكاسب حرب عام ١٩٦٧ ، وإزاء سياستها المنحازة ضد العرب ، لم يكن فى إستطاعة الولايات المتحدة فرض تسوية بدون مشاركة الإتحاد السوفييتى . ولم يكن لديها دافع قوى لمعالجة المشكلة المعقدة بين العرب وإسرائيل ، يجعلها تدعو الإتحاد السوفييتى إلى الشرق الأوسط . ولذلك أقنعت الولايات المتحدة نفسها بصورة ساذجة بأن إسرائيل تحافظ على الشرق الأوسط من تهديد السوفييت فى حين تحارب الولايات المتحدة العدو الشيوعى فى آسيا ، وإنتهزت إسرائيل الفرصة لتعزيز صورتها كركيزة للديمقراطية فى العالم العربى العاصف وعند ذلك ، بدأت الولايات المتحدة تضع إسرائيل فى مكانة الحليف الإستراتيجى للولايات المتحدة فى منطقة الشرق الأوسط . وتسارعت العملية برمتها مع ظهور الفدائيين الفلسطينيين وإزدياد العمليات الإرهابية الدولية التى كانت تتم بإسم الفلسطينيين .

وقد أصبحت عمليات النضال المسلح التى كانت تشنها جماعات الفدائيين الفلسطينيين بعد حرب عام ١٩٦٧ هى قصة داوود وجالوت معكوسة بالنسبة للعقلية الأمريكية . فكانت إسرائيل ، أكبر قوة عسكرية فى الشرق الأوسط ، والدولة التى إستطاعت أن تهزم قوات ثلاث دول مجاورة لها ، هى داوود . وكانت الجماعات الفدائية المفككة التى كانت تخوض المعارك غير مسلحة إلا بالبنادق الآلية والقنابل اليدوية ، هى جالوت . وكان غائبا عن الأذهان أن حرب العصابات هى وسيلة الضعفاء . ولكن حرب العصابات تقتل الأبرياء . وحينما حاولت الجماعات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية التعبير عن غضبها من الترحيل والعجز بإختطاف الطائرات وقتل الأبرياء ، فإنها لم تحقق شيئا فى الغرب سوى إكتساب صفة الهمجية .

وإستفادت إسرائيل كثيرا من الحملات الإرهابية الفلسطينية التى سادت فيما بين عامى ١٩٦٨ و١٩٧٢ . ولم يلق تصريح جولدامائير فى عام ١٩٧١ بأن الفلسطينيين ليسوا شعبا ولذلك ليس لهم

* نيوزويك ، ٢٦ يونيو ١٩٦٧ .

الحق فى المطالبة بوطن ، معارضة جادة فى الولايات المتحدة . وفى العام التالى ، أثارت مذبحة الرياضيين الإسرائيليين فى دورة ميونخ الأوليمبية المجتمع المتحضر ، مما دعم(المزاعم الإسرائيلية بأن العرب نتاج ثقافة متخلفة همجية . وبنخبة من الشخصيات السياسية مثل جولدامائير القوية ، وأبا إيبان المخضرم ، وموشى ديان المندفع ، ممن كانوا يعرفون ويفهمون الغرب ، واصلت إسرائيل حملتها الدعائية فى الولايات المتحدة بأن إسرائيل ، معقل الديمقراطية وحليفة الولايات المتحدة الرئيسية ضد التوغل السوفييتى فى الشرق الأوسط ، تتعرض للخطر . ولذلك فإن من الواجب أخلاقيا وسياسيا أن تمدها الولايات المتحدة بالغذاء والسلاح . وقد صدقهم الأمريكيون ، غير مدركين مدى المخاوف العربية تجاه إسرائيل وقوتها العسكرية التى توفرها لها الولايات المتحدة .

وبعد فترة قصيرة من إندلاع العمليات الإرهابية الدولية فى عام ١٩٦٨ ، كان ليندون جونسون قد أكمل فترة رئاسته للولايات المتحدة . وكانت تطارده أشباح فييتنام حتى أنه ترك منصبه دون أن يعالج إضطرابات الشرق الأوسط التى كان يشعلها على الدوام تأييد الولايات المتحدة غير المحدود لإسرائيل ولعبة الشطرنج التى كانت تمارسها مع الإتحاد السوفييتى .

وخلفه ريتشارد نيكسون ، المقاتل الصبور والمحب للسياسة الخارجية الذى تولى منصبه وهو ينظر إلى العالم العربى ويرى الروس بدلا من العرب وكان الإتحاد السوفييتى لا يزال مستكناً فى مصر برئاسة عبد الناصر ، وأدرك نيكسون أنه ينبغى على الولايات المتحدة التخلص من الوجود السوفييتى فى العالم العربى بمعالجة مشاكله التى فتحت الأبواب للإتحاد السوفييتى فى المقام الأول ، ولذلك أعادت إدارة نيكسون فى نوفمبر ١٩٦٩ تأكيد سياسة إدارة جونسون التى كانت تعارض تغيير إسرائيل الوضع القائم فى القدس ، وأعلنت أنه « لا يمكن تحقيق سلام دائم بدون تسوية عادلة لمشكلة هؤلاء الفلسطينيين الذين جعلتهم حربا ١٩٤٨ و ١٩٦٧ بلا وطن »* . وكانت تلك البيانات تفسر على نطاق واسع بأنها تعنى أن الإدارة الجمهورية ترغب فى إقامة علاقات أفضل مع العرب . وتأكد ذلك بالإبطاء فى مبيعات الأسلحة لإسرائيل وتبع ذلك طرح مشروع روجرز فى يونيو ١٩٧٠ الذى كان يهدف إلى إنهاء حرب الإستنزاف بين مصر وإسرائيل على طول قناة السويس .

وكان مشروع روجرز هو أطول إقتحام لنيكسون لسياسة الشرق الأوسط . وقد جاءت الفكرة والتنفيذ أساسا من جانب ويليام روجرز الذى قام بطرحها كوزير للخارجية من خلال وزارته . وفى إدارة نيكسون كانت وزارة الخارجية تمثل الجانب الضعيف فى جهاز السياسة الخارجية فقد كان التنظيم والتوجيه وجانب كبير من التنفيذ فيما يتعلق بالسياسة الخارجية يأتى من ثنائى البيت الأبيض - الرئيس ومستشاره للأمن القومى هنرى كيسنجر .

---

* ويليام روجرز وزير الخارجية الأمريكية ، ورد فى كتاب ويليام ر . بولك . « العالم العربى المعاصر » (مطبعة جامعة هارفار ، كامبريدج ١٩٩١) » ص ٤١١ .

وكانت أول أزمة تواجههما فى الشرق الأوسط هى الحرب الأهلية فى الأردن فى عام ١٩٧٠ ، التى نظرا إليها وفقا لصيغة السياسة العالمية السائدة ، بمنظار المنافسة بين القوتين العظميين . فكانت نظرتهما تعطى قليلا من الإعتبار للضغوط والتوترات التى كانت تمزق العالم العربى منذ إنتصار إسرائيل فى عام ١٩٦٧ أو للتحديات التى كان يفرضها غضب الفلسطينيين الشديد من ضعفهم ، على نظام الملك حسين . وبالنسبة لمسئولى البيت الأبيض ، كان الصراع المتشعب له بعد واحد - هو الملك حسين الموالى للغرب ضد منظمة التحرير الفلسطينية الموصومة بالماركسية . ومما يشير إلى قلة رغبة الإدارة فى إرضاء المشاعر العربية ، تصور كيسنجر فى وقت ما إستخدام إسرائيل فى الوقوف ضد العراق أو سوريا إذا تحركت أى منهما لتعزيز الفدائيين ، وفى المفاهيم الأمريكية ، كانت إسرائيل جزءا من الحل بالنسبة لمخاوف الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط أكثر من كونها جزءا كبيرا من المشكلة . ووفقا لرأى ويليام كوانت ، المتخصص فى شئون الشرق الأوسط ، فإنه أثناء تلك الفترة أصبحت إسرائيل تعد « الشريك الأصغر المفيد فى الإدارة الناجحة لإختبار عالمى خطير لإرادتى القوتين العظميين » . ولذلك ، تقدمت العلاقة الإستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل خطوة أخرى . وفى الحقب التالية ، عهدت الإدارات الأخرى لإسرائيل ليس فقط بالحفاظ على السلام فى الشرق الأوسط نيابة عن الولايات المتحدة ، بل أيضا بتنفيذ السياسة الخارجية السرية فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية . وفى تلك الساحات البعيدة للغاية عن الشرق الأوسط ، قدمت إسرائيل بتحفظ يد العون فى دعم المصالح الأمريكية فى مقابل التأييد الأمريكى لأطماعها الإقليمية*.

وقد أصبح الشرق الأوسط . الذى كان يطغى عليه الصراع الدائر فى فييتنام ، ضمن سياسة نيكسون الخارجية حينما قام أنور السادات بطرد الروس من مصر . ثم جاءت حرب أكتوبر . ومع أن السادات قام بمحاولات عديدة لإشراك الإدارة فى الجهود من أجل إيجاد تسوية سلمية فى الشرق الأوسط ، فإن نيكسون وكيسنجر فشلا فى إدراك أن حرب السادات كانت عملا دبلوماسيا . وفسر نيكسون تقهقر إسرائيل القهرى فى سيناء بأنه تهديد لمكانة الولايات المتحدة الإستراتيجية فى منطقة الشرق الأوسط الحساسة ، وأصدر نيكسون أوامره إلى الطائرات الأمريكية بالتوجه إلى أرض المعركة لتعويض الخسائر الإسرائيلية . وكانت النتيجة المباشرة هى الحظر البترولى العربى ونهاية عصر الطاقة الرخيصة فى العالم الصناعى .

وتلت الأخطاء فى الحرب أخطاء فى السلام . فقد تجاهل كل من نيكسون وكيسنجر امكانيات تحقيق سلام شامل حينما أوقفت الجيوش العربية لبعض الوقت القوات الاسرائيلية عند حدها فى ساحة القتال . وفى الوقت القصير من النصر ، كان العرب قد استعادوا كرامتهم ووضعوا عن كاهلهم بعض أعباء الماضى النفسية ، ولو ان الولايات المتحدة كانت ترغب فى مخاطبة العالم العربى ككل وفرض تنازلات على كلا الطرفين ، فان تلك الفترة كانت هى الفترة المناسبة . وبدلا

---

* أثناء إدارة ريجان ، ظهر هذا الجانب من العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل من خلال فضيحة إيران والكونترا .

من ذلك، ربط هنرى كيسنجر ، قيصر السياسة الخارجية فى عهد كل من نيكسون وفورد ، الاهتمامات الامريكية العالمية بالمصالح الاسرائيلية .

وبدلا من جمع كل الاطراف فى مؤتمر للسلام ، مما كان يقتضى المشاركة السوفيتية ، طبق كيسنجر سياسة الخطوة خطوة ، حيث تؤدى سلسلة من المفاوضات الثنائية الى جلوس اسرائيل ومصر ، واسرائيل وسوريا الى مائدة المفاوضات فى المرحلة الأولى من عملية تهدف الى تفتيت الدول العربية ، ثم اتفاق كل منهما مع اسرائيل ، وقد أنجز كيسنجر اتفاقيات لفض الاشتباك بين مصر واسرائيل ، وبين سوريا واسرائيل . ثم توقفت العملية * . وبتجاهل أو ربما لعدم ادراك مدى تأثير موضوع اسرائيل على الوحدة العربية أو الوظيفة الرمزية التى يؤديها الفلسطينيون فى تلك الوحدة ، كانت استراتيجية كيسنجر فى جوهرها لا تسعى للبحث عن تسوية شاملة للنزاع العربى - الاسرائيلى ، وكان أحد الدوافع الرئيسية لتلك الاستراتيجية استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية من القيام بأى دور فى تقرير قضايا المنطقة التى يعد الفلسطينيون أحد أطرافها الاساسية .

وكان الرجل الذى أصبح وزيرا للخارجية فى فترة رئاسة نيكسون الثانية ، يتمسك بنظرة شكلية للنظام الدولى . فالدبلوماسية تجرى بين الدول ومهما كان الفلسطينيون ، فانهم ليسوا دولة . ومن وجهة نظر كيسنجر ، كان مجرد اثارة قضية المشاركة الفلسطينية فى عملية السلام من شأنها أن تؤدى الى انحراف العملية بأكملها عن مسارها . وباعتقاده فى معالجة القضايا التى تبشر فقط بالنجاح كان كيسنجر يعتقد أن أحدا لم يجد حلا للقضية الفلسطينية ولن يجده أحد . ومن ثم ، تبنى الموقف الاسرائيلى بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وعدم السماح لها بالقيام بأى دور فى المفاوضات التى يحتمل اجراؤها بين اسرائيل وخصومها العرب .

وفى منتصف عام ١٩٧٣ ، أرسل عرفات خطابات الى كيسنجر يطلب فيها اجراء حوار بين منظمة التحرير الفلسطينية والولايات المتحدة ولكن تم تجاهلها . واجتمع فيرنون والترز ، نائب مدير وكالة المخابرات المركزية ، فى نوفمبر ١٩٧٣ مع ممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية ثم تم عقد اجتماع آخر فى مارس ١٩٧٤ ، ولم يسفر الاجتماعان عن شىء . وكما يقول كيسنجر « فى تلك المرحلة ، كان اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية يتعارض مع مصالح كافة أطراف نزاع الشرق الأوسط » * . فبالنسبة لكيسنجر ، كانت منظمة التحرير الفلسطينية جماعة ارهابية معادية صراحة للولايات المتحدة ، وتكرس جهودها لتدمير دولتين صديقتين للولايات المتحدة - هما اسرائيل والاردن . وبذلك سعى كيسنجر الى تأكيد اهمال القضية الفلسطينية .

---

* مضى أنور السادات فى اتفاقية سيناء الثانية التى حققت المصالح المصرية المحددة .

* هنرى كيسنجر « سنوات الغضب » (بوسطن ليتل ، براون ١٩٨٢) صفحة ٦٢٩ . أرسل عرفات خطابا آخر عن طريق أحد رجال شرطة نيويورك السابقين الذى أعطاها لنيلسون روكفلر . وكانت تفيد بأن عرفات على استعداد للاعتراف باسرائيل فى مقابل قيام دولة فلسطينية فى الاراضى المحتلة . وسلم روكفلر الرسالة لكيسنجر الذى أهملها

وفى زوبعة مبادرته الدبلوماسية اثر حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، أغلق كيسنجر فى الواقع باب الاتصالات الامريكية مع منبع الوطنية الفلسطينية حينما تعهد اسرائيل كتابة بأن الولايات المتحدة لن تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية الا اذا اعترفت المنظمة بحق اسرائيل فى الوجود ونبذت الارهاب . وبالاضافة لمجموعة الاتفاقيات والتفاهمات والالتزامات التفصيلية التى تحققت من خلال التفاوض فيما يتعلق باتفاقيتى سيناء «١» أو سيناء «٢» أتاح كيسنجر لاسرائيل بشكل أساسى السيطرة على جانب هام من السياسة الامريكية فى الشرق الأوسط . وبالرغم من اعتباره فى الولايات المتحدة ساحر الجغرافيا السياسية ، فقد ترك هنرى كيسنجر ودبلوماسيته المحيرة لدى العرب شعورا بالمرارة الشديدة واحساسا قويا بالغدر .

وحينما أصبح جيمى كارتر رئيسا للولايات المتحدة فى عام ١٩٧٧ ، كانت سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط قد وصلت الى طريق مسدود ولكن لم ينته عدم الاستقرار فى المنطقة الذى كان يهدد باندلاع الحرب بكل عواقبها التى تمس السياسة الامريكية فى الشرق الاوسط . ومن منظور الاستراتيجية الامريكية تجاه الاتحاد السوفيتى ، أثبتت سياسة نيكسون وكيسنجر باستبعاد السوفييت من الشرق الاوسط أنها سياسة خاطئة . فقد استمر تدفق الاسلحة السوفيتية على الدول العربية ، وظل الدب الروسى يمارس تهديداته ، لان الولايات المتحدة سدت أمامه كافة سبل المشاركة المسئولة فى شئون المنطقة . وبادر كارتر باجراء تغيير . وأشار بيان مشترك عن ضرورة التوصل الى تسوية شاملة بشأن النزاع العربى - الاسرائيلى ، أصدره سايروس فانس وزير الخارجية الامريكى وأندريه جروميكو وزير الشئون الخارجية السوفيتى الى فتح الولايات المتحدة أبواب الشرق الاوسط أمام الاتحاد السوفيتى .

ثم انتقل كارتر الى قضية الفلسطينيين ، فلم يكن الفلسطينيون فقط فى قلب النزاع العربى الاسرائيلى ، بل كانوا أيضا عنصرا هاما فى الحرب اللبنانية التى بدأت فى عام ١٩٧٥ . وأخبر أنور السادات الرئيس الجديد بأن المسألة الفلسطينية هى « جوهر وأساس » التوتر فى الشرق الاوسط وأن النزاع العربى - الاسرائيلى ، لا يمكن حله بدون حل المسألة الفلسطينية التى لا تمس الفلسطينيين وحدهم ، وانما تعكس الآلام النفسية التى يعانى منها العرب جميعا والتى نجمت عن صراعهم غير المتكافىء مع الغرب واسرائيل . ويقتضى جلوس العرب الى مائدة المفاوضات اشتراك الفلسطينيين فى عملية السلام ، وكانت تلك هى احدى الحقائق . والحقيقة الاخرى هى أنه بسبب الوعود التى أعطاها كيسنجر لاسرائيل ، لم يكن أى مسئول بالادارة يستطيع التحدث مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية ، أقرب كيان مماثل للحكومة لدى الفلسطينيين .

وكان جيمى كارتر أول رئيس أمريكى على استعداد لشن هجوم على الجبهة الداخلية بشأن قضية الفلسطينيين . وفى عام ١٩٧٧ ، اثر توليه منصبه ، أضاف كارتر الى القاموس الدبلوماسى الامريكى كلمة « الوطن » . فقد صرح الرئيس فى تعليقه على المأزق القائم بالشرق الاوسط بأن أحد شروط تحقيق السلام يتمثل فى « وجود وطن للاجئين الفلسطينيين » . وبتلك الكلمة الوحيدة ، كان يبدو أن كارتر يضع الولايات المتحدة على مسار جديد . ولكن الفلسطينيين أنفسهم رفضوا منحه المساعدة التى كان يحتاجها . ففى صيف عام ١٩٧٧ ، بذلت الولايات المتحدة جهودها

بمساعدة مصر والمملكة العربية السعودية لاقناع منظمة التحرير الفلسطينية ، ولو جزئيا ، بالموافقة على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . وفى المقابل ، تعهدت الولايات المتحدة بتأييد فكرة قيام « كيان فلسطيني مستقل » فى الضفة الغربية تحت اشراف الامم المتحدة واعادة تقييم سياسة معوناتها العسكرية تجاه اسرائيل . وكان افتراض الولايات المتحدة والسعودية بأن عرفات يمكنه توجيه منظمة التحرير الفلسطينية افتراضا خاطئا . وتم رفض العرض .

ثم مضت الأحداث فى مساراتها المختلفة . فقد ذهب السادات الى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ . وقامت اسرائيل بغزو لبنان فى مارس ١٩٧٨ . وباسم عملية الليطانى ، كانت العملية تهدف الى تطهير الحدود الاسرائيلية الشمالية من الفدائيين الفلسطينيين . ولكنها أيضا كانت بمثابة كارثة لجهود كارتر الرامية الى اشتراك أطراف النزاع فى الشرق الاوسط فى عملية التفاوض . وبرفضه التغاضى عن غزو اسرائيل لدولة عربية ، طرح كارتر القضية على الامم المتحدة . وانسحبت اسرائيل من البر ولكنها ظلت تسيطر على الجو . وظلت طائراتها تنطلق من القواعد الاسرائيلية وتلقى قنابلها على قرى بأكملها أختيرت للرد على الغارات الفدائية على اسرائيل . وفى معظم الأحيان كان الابرياء يدفعون ثمنا أكبر من المذنبين . وفى هذا الصدد ، لم تكن الغارات الجوية على المعسكرات الفلسطينية والقرى التى يسكنها الشيعة اللبنانيون أقل عشوائية ووحشية من القنابل التى كان يزرعها الارهابيون بين الابرياء . غير أنه كانت الحكومة الامريكية والرأى العام الامريكى يشجعان الهجمات الفدائية على اسرائيل والقادمة من الاراضى اللبنانية ، لم يكن يتحدث سوى أفراد قلائل عن العقوبات التى تنزلها اسرائيل بأهالى جنوب لبنان . وحينما حدث التدخل الامريكى فى لبنان فى عام ١٩٨٢ ، تذكر العرب ، وخاصة الشيعة ، تلك الاحداث .

وسعى كارتر ، ونصب عينيه الجبهة الداخلية من جانب والسوفييت من جانب آخر ، الى تحقيق السيناريو الوحيد الذى يبشر بالأمل فى منطقة الشرق الاوسط ـ وهو اجراء مفاوضات بين مصر واسرائيل . وفى أغسطس ١٩٧٨ ، سلم سيروس فانس وزير الخارجية خطابات لأنور السادات ومناحيم بيجين تدعوهما للاجتماع مع كارتر فى كامب ديفيد . ولكن اتفاقيات كامب ديفيد التى توصل اليها لم تكن صيغة امريكية ، وانما بالاحرى قبول بمشروع بيجين الذى طرحه فى ديسمبر السابق . وفى ظل رغبتهما الشديدة للتوصل الى اتفاق ، فشل كارتر والسادات فى العمل بالنصيحة الدبلوماسية البريطانية « لا تتفاوض مطلقا على مسودة مشروع وضعه الطرف الآخر » . وكانت النتيجة القصور الكبير فى اتفاقيات كامب ديفيد ـ والممثل فى الفشل فى معالجة مشكلة الفلسطينيين ، وأثناء اجتماعاته مع الاسرائيليين ، كان كارتر يسعى بصورة مكثفة لتحقيق الحكم الذاتى الفلسطينى فى الاراضى المحتلة كخطوة انتقالية تؤدى الى قيام كيان فلسطينى مرتبط بنوع من الاتحاد مع الاردن ، ومع انتهاء المفاوضات ، ظن كارتر أنه حصل على موافقة بيجين على مبدأ الحكم الذاتى وتجميد اقامة المستوطنات اليهودية فى الاراضى المحتلة لمدة خمس سنوات أثناء استمرار محادثات الحكم الذاتى ، ولكن كما يقول كارتر ، تراجع مناحم بيجين فى اليوم التالى لاعلان الاتفاقية عن تعهده بوقف بناء المستوطنات . فقد زعم بيجين فى رسالة سلمت للرئيس بأن تجميد بناء المستوطنات يسرى فقط فى فترة الشهور الثلاثة بين اعلان أطر الاتفاقية وتوقيع معاهدة

السلام بين مصر واسرائيل ، ولسوء الحظ ، فشلت اتفاقيات كامب ديفيد ، التى كان يرجى أن ترسى أسس السلام الشامل بين اسرائيل والعرب ، فى وقف اندفاع اسرائيل لابتلاع الضفة الغربية والقدس . وبالتالى ، لم تتم معالجة العنصر الحاسم فى نزاع الشرق الاوسط ـ وهم الفلسطينيون ، رمز الوحدة العربية .

وبالرغم من الترحيب الكبير الذى لقيه كل من كارتر والسادات وبيجين بعد نزولهم من الجبل ، إعترف المحللون الإسرائيليون بالعيوب الأساسية فى الاتفاق . فقد قال أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية السابق فى مجلة « الشئون الخارجية » : « إن الحقيقة المرة هى أنه فيما يتعلق بأكثر القضايا تعقيدا وحساسية ـ وهى قضية الفلسطينيين والضفة الغربية ـ لم يفعل الموقعون على إتفاقية كامب ديفيد أكثر من تأجيل مواجهتها بتلك النوعية من الصياغة البارعة التى تزول سريعا » . وعلى أية حال ، فقد حث كارتر الجانبين على إبرام معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية فى مارس ١٩٧٩ .

وفى شهر أغسطس التالى ، بدأت السياسة الداخلية تفرض قوتها على نزعة كارتر المتعاطفة مع العالم العربى . وفى إحدى الليالى ، ذهب أندرو يونج ، المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة بهدوء إلى مسكن زهدى الطرزى ، مندوب منظمة التحرير الفلسطينية بالأمم المتحدة فى نيويورك . وعندما شوهد ، أخذ أصدقاء إسرائيل يصرخون إحتجاجا على عدم الوفاء بوعود كيسنجر . وإستسلم كارتر وإستقال يونج . وأصبح الرئيس ، الذى يتحدث بحرارة عن « الوطن » الفلسطينى حينما دخل إلى البيت الأبيض ، مضطرا لأن يقول « إننى ضد قيام دولة فلسطينية منفصلة . ولا أعتقد أنها سوف تكون لصالح الفلسطينيين ، ولا أعتقد أنها سوف تكون لصالح إسرائيل ، ولا أعتقد أنها سوف تكون لصالح الدول العربية المجاورة لها »*

وعلى أية حال فقد إستمر كارتر فى السعى لتحقيق الإستقرار بالشرق الأوسط بما كان لديه وهى معاهده السلام المصرية ـ الاسرائيلية التى كسرت الجبهة العربية ، وكان يرجى نظريا ان تساعد الدول العربية الأخرى على فعل المثل . وكان ذلك الرأى هو الذى جعل كارتر ومستشاريه يعتقدون ان السلام بمكن تحقيقه بدون عقد مؤتمر إقليمى موسع للسلام يقتضى مشاركة السوفييت** ولكن النتيجة كانت عكسية تماما . وبدلا من الإنتصار ، جعلت المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية العالم العربى منقسما بصورة مريرة وأدينت الولايات المتحدة بصورة شديدة . وأكد السعوديون أن الولايات المتحدة مزقت العرب ، مما أتاح للإتحاد السوفييتى أفضل فرصة أتيحت له طوال سنوات عديدة لإعادة نفوذه فى الشرق الأوسط . ولذلك ، بدلا من تصحيح

---

* كما جاء فى كتاب بولك « العالم العربى اليوم » صفحة ٤٤٢

** انتهى التسامح الأمريكى إزاء القيام بدور فى الشرق الأوسط والذى أيدته الادارة الأمريكية فى بداية رئاسة كارتر بعد الغزو الروسى لأفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩ .

عيوب إستراتيجية كيسنجر ، أصبح كارتر يقوم بإتمامها . ومثلما كلفت اتفاقية سيناء الثانية دافعى الضرائب الأمريكيين مليارات الدولارات ، كذلك أضافت المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية مليارات أخرى من الدولارات دفعها الأمريكيون فى صورة معونات هائلة لكلا طرفى المعاهدة ، وقال جورج بول نائب وزير الخارجية الأمريكية وسفير الولايات المتحدة الأسبق بالأمم المتحدة وأحد نقاد السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط المرموقين ، « لقد اشترينا رمال سيناء بثمن باهظ من اسرائيل ، ثم دفعنا لمصر ثمنا هائلا لاستعادتها »* .

وبعيدا عن النوايا الطيبة ، كان خطأ المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية انها حاولت فصل كل دولة عربية عن الأخرى . وبحل مشكلة حالة الحرب بين دولتين على حدود سيناء ضاعفت من احتمالات وأخطار عدد من المشاكل الأخرى . وعلى سبيل المثال ، إزدادت بالفعل نفقات السلاح سواء فى اسرائيل أو فى مصر بعد معاهدة السلام . فقد إضطر السادات ، الذى عزل نفسه عن عالمه العربى ، إلى تلبية مطالب قواته المسلحة لشراء أفضل المعدات العسكرية الأمريكية وأكثرها تكلفة وتعقيدا والتى بلغت قيمتها مليارات من الدولارات . وردت اسرائيل بمضاعفة حصتها من الأسلحة الأمريكية ، بيد أن الخطر المماثل لسباق التسلح ، والذى كان أكثر أهمية بالنسبة لمكانة الولايات المتحدة فى العالم العربى ، هو الصورة التى ظهرت لدولة غربية قوية تقوم بتفريق الدول العربية عن بعضها البعض من أجل المصالح الاسرائيلية ، وكان كل ذلك يحدث فى الوقت الذى كانت الثورة الايرانية توجه فيه ضرباتها ضد أسس السياسة الأمريكية فى ارجاء الشرق الأوسط .

وأثناء رئاسة رونالد ريجان ، وجدت المفاهيم الخاطئة التى أقامت عليها الولايات المتحدة سياستها الخارجية فى العالم العربى أكثر أنصارها حماسا ، ففى مجال السياسة الداخلية ، دعمت الأوساط اليمينية الدينية النشطة سياسيا جماعات الضغط الموالية لإسرائيل ، وكان الأصوليون المسيحيون ، بفضل نفوذ جماعة من الدعاة الدينيين والمنظمات السياسية الشعبية ، قد ساعدوا ريجان فى الوصول الى البيت الأبيض ، وأصبحوا يستعرضون عضلاتهم فى السياسة الخارجية . وفى العهد الجديد ، كان الأصوليون يرون أنه ينبغى على الولايات المتحدة القوية عسكريا أن تقف على أهبة الاستعداد ضد الشيوعية الملحدة . كما يجب السماح لإسرائيل بأن تحقق أهدافها ومن المثير للسخرية أن المسيحيين الأمريكيين اليمينيين كانوا يدافعون عن القومية الصهيونية بصورة أكثر حماسا من العديد من الاسرائيليين الذين كانوا يعتبرون السياسات التوسعية التى تمارسها حكومة الليكود فى الاراضى المحتلة مدمرة لدولة اسرائيل سواء من الناحية السياسية أو الاخلاقية . ولم يكن اليمين المسيحى بالولايات المتحدة يهتم بتلك الأمور . فلم تكن اسرائيل بالنسبة لهم دولة قومية تسعى لتحقيق طموحاتها وممارسة نزواتها ، ولكنها تحقيق لما جاء فى « الكتاب المقدس » . ولذلك فإن أى اعتراض على سياسات الحكومة الاسرائيلية ، مهما كانت ضارة بإستقرار الشرق الأوسط يعد تحديا للرب .

---

* ورد فى كتاب سيل « الأسد » صفحة ٢١٤ .

ومن جانب سياسة الحرب الباردة ، كان خوف ادارة ريجان من التوغل السوفيتى فى الشرق الأوسط هائلا لدرجة أدت الى حجب العوامل الأخرى بالمنطقة ، وتعزيزا للدفاع الوطنى كمسألة عقائدية ، حولت الادارة موضوع امدادات الأسلحة لحلفاء الولايات المتحدة من ادارة للسياسة الخارجية الى سياسة فى حد ذاتها . ولكن خبراء الحرب الباردة فى ادارة ريجان وجدوا ان تسليح حلفاء الولايات المتحدة العرب ، ليس امرا سهلا مثل تسليح حلفائها الآخرين . فقد كانت مبيعات الأسلحة أو تحويلها الى الدول العربية تخضع لتدقيق الكونجرس ، الدائم الحذر إزاء التهديدات المحتملة التى يمكن ان تتعرض لها اسرائيل ، وكانت المملكة العربية السعودية ، المعتزة بنفسها والتى تستطيع دفع ثمن أسلحتها نقدا ، وتعتبر من أقرب حلفاء أمريكا تضطر الى تخفيض قوائم مشترياتها بصفة مستمرة من اجل ارضاء الكونجرس ، واللجنة الامريكية ـ الاسرائيلية للعمل السياسى (إيباك) اليقظة دائما وأقوى جماعات الضغط فى واشنطن .

وفى عام ١٩٨١ ، خضعت صفقة طائرات الإنذار المبكر (الأواكس) التى قرر خبراء الدفاع الأمريكيون أهميتها لأمن المملكة العربية السعودية وحقولها النفطية اثر الثورة الايرانية والغزو السوفيتى لأفغانستان ، لمناقشات عنيفة . وذكر أنصار اسرائيل فى الكونجرس ان الصفقة يجب الا تتم حتى لا تستخدم الطائرات فى التجسس على اسرائيل وحينما وافق الكونجرس على الصفقة ، اشترط اشتراك عدد من الفنيين الأمريكيين فى أطقم الطائرات . كذلك تمت الموافقة على صفقة طائرات إف ـ ١٨ بعد اشتراط تزويدها بخزانات صغيرة للوقود من اجل تحديد مداها وعدم تشكيلها اى خطر على أمن اسرائيل وأتاحت المرحلة الأخيرة فى صفقة الاسلحة المعقدة امداد اسرائيل بكميات اضافية من المعدات العسكرية تسمح لها بالاحتفاظ بتفوقها العسكرى على جيرانها العرب .

وقد نفذت ادارة ريجان بدرجة كبيرة ما فعلته الادارات السابقة فبدلا من السعى للحد من الاسلحة ، وهو الأمر غير الشائع سواء من جانب الموردين او من جانب المتلقين ، كانت جميع الادارات طوال ثلاثين عاماً تسعى الى توفير التوازن فى أسلحة أصدقائها اثناء مراحل تصاعد الأزمات ، فإذا قامت الولايات المتحدة بتسليح الاردن ضد عبد الناصر فانها كانت تقوم ايضا بتسليح اسرائيل ليس فقط ضد مصر ولكن ايضا ضد الاردن . ومع تولى ادارة ريجان ، كان الشرق الاوسط باكمله يكتظ بالدبابات والطائرات المقاتلة والصواريخ أرض ـ أرض وكانت تكمن خلف الاسلحة التقليدية للجيوش الحديثة الأسلحة الكيماوية والبيولوچية .

وكانت اسرائيل تدفن فى باطن صحراء النقب مخزونها من الأسلحة النووية . وقد حدث كل ذلك باسم الضرورة الاستراتيجية لجعل الاتحاد السوفيتى خارج الشرق الاوسط . ولم تكن الولايات المتحدة وحدها هى التى تغذى سباق التسلح فى الشرق الاوسط ، ولكنها لعبت دورا كبيرا فى تسليح كل من اليهود والعرب حتى أسنانهم* .

---

* بالاضافة الى الاتحاد السوفيتى ، كانت كبرى الدول الموردة للاسلحة للشرق الاوسط هى بريطانيا ، وفرنسا ، والمانيا ، والصين .

وقد كان التناقض في سياسة ادارة ريجان فى مجال الاسلحة يكمن فى أن الاتحاد السوفيتى لم يكن يسعى لمواجهة الولايات المتحدة فى الشرق العربى . وكانت الاسلحة السوفيتية التى حصلت عليها سوريا ، والعراق ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، بمثابة وسائل سياسية تعمل دائما على فتح أبواب العالم العربى ، كى يصبح للاتحاد السوفيتى صوت فى سياسة المنطقة التى لها بعض التأثير على المناطق الاسلامية الواقعة على حدوده الجنوبية . ولكن ادارة ريجان استمرت فى غلق الأبواب . ولم يكن البيت الابيض مهتما بالاستقرار وانما بالاحتواء فقط . ونتيجة لتلك النزعة التى ركزت على احتواء السوفييت ، وجدت ادارة ريجان نفسها فى عام ١٩٨٢ وقد ارسلت القوات الامريكية الى لبنان من اجل تخليص اسرائيل من غزوها الاحمق المشئوم لاحدى جاراتها العربيات . وبحساب الأرواح ، أدى ذلك الى دفع افدح ثمن دفعته الولايات المتحدة لتورطها فى الشرق الاوسط .

وقد كانت ادارة ريجان تتعامل مع اسرائيل بوصفها شريكا كاملا فى الاستراتيجية الدفاعية الامريكية الخاصة بالشرق الاوسط اكثر مما فعلت اية ادارة سابقة ★ ، فحينما رأى الكسندر هيج وزير الخارجية الأمريكية أيدى السوفييت تعمل على عدم استقرار لبنان ، أعطى اسرائيل ، سواء بصورة سافرة أومسترة ، الضوء الأخضر لعبور الحدود اللبنانية فى يونيو ١٩٨٢ ، وكان الدافع هو قيام اسرائيل بتحقيق رغبة الادارة الامريكية فى الحد من النفوذ السورى فى لبنان . ولم يدرك هيج والرئيس مطلقا ، وقد أعمتهما نزعتهما المعادية للسوفييت والتى كانت تعتبر سوريا تابعة للسوفييت ، ان لحافظ الاسد مصالح فى لبنان بعيدة عن المصالح السوفيتية . بل انهما لم يدركا أيضا ان الهدف الحقيقى للغزو الاسرائيلى ليس له أدنى صلة بالسياسة العالمية . فقد كان هدفه القضاء على كل الهيكل التنظيمى لمنظمة التحرر الفلسطينية واقامة حكومة موالية لاسرائيل فى لبنان .

ومع تقدم الغزو ، انكشفت التعقيدات اللبنانية . وفوجىء هيج وريجان بأن العملية لا علاقة لها بالمواجهة بين القوتين العظميين والتى تفصل بخطوط واضحة أنصار كل قوة عن أنصار الأخرى ،وأن أهداف اسرائيل هى مصالحها الذاتية التى كانت تتفق فقط مع أهداف المارونيين المسيحيين اللبنانيين الذين كانوا يخوضون صراعا مصيريا مع السنيين ، وفصائل من الشيعة اللبنانيين ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وكانت سوريا ـ التى كانت الولايات المتحدة تفترض ان الغزو موجه ضدها ـ قد أرسلت الى لبنان سعيا للحفاظ على السلام من أجل تأمين حدودها الغربية ، وليس لدعم المصالح السوفيتية . وكأنما ليؤكد هذه النقطة ، فان حافظ الأسد ،الذى رفض التورط فى معركة مع اسرائيل لا يستطيع كسبها ، سحب قواته فى اتجاه سوريا ، تاركا بيروت لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ومع ابتعاد سوريا ، ووضوح كثافة ومدى العملية الاسرائيلية ، طالبت الولايات المتحدة بالانسحاب الاسرائيلى . ولكن حينما أثيرت القضية فى مجلس الأمن ، استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو وعارضت اصدار قرار بادانة اسرائيل اثر تأكيداتها بعدم التقدم الى بيروت .

★ فى ١٤ مايو ١٩٨٨ وقعت إسرائيل فى الذكرى الأربعين لقيامها معاهدة استراتيجية مع الولايات المتحدة .

ولكنها فعلت . وفى شهر اغسطس ، كانت اسرائيل تناشد الولايات المتحدة بأن تخلصها من العملية التى بدأتها ولكنها لا تستطيع انهاءها . وأجرى فيليب حبيب ، المبعوث الأمريكى مفاوضات من أجل انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت . واثر انسحاب مشاة البحرية الأمريكية ، الذين قد قد تم ارسالهم للحفاظ على الامن أثناء الانسحاب الفلسطينى ، قامت ميليشيات حزب الكتائب المارونية المسيحية اللبنانية بارتكاب مذابح فى مخيمات صابرا وشاتيلا الفلسطينية فى حين كان الاسرائيليون يتفرجون . وعادت قوات مشاة البحرية الأمريكية مرة أخرى ومن أجل حماية موقعهم فى مطار بيروت ، أصدر ريجان أوامره للمدمرة الأمريكية نيوجرسى بتوجيه قذائفها ونيرانها الكثيفة على قرية سوق الغرب الجبلية الصغيرة ، مما خلق رمزا عاطفيا آخر للغطرسة الغربية المعادية للعرب وأضاف عملا ظالما آخر ساعد على زيادة كراهية العرب للولايات المتحدة . وكانت مشكلة العملية الأمريكية برمتها فى لبنان تكمن فى أن ريجان ووزير خارجيته فى ذلك الحين ، جورج شولتز ، لم تكن لديهما أية فكرة عن المشاعر والتعقيدات السائدة فى لبنان .

وقد سعى شولتز لعقد معاهدة اسرائيلية ـ لبنانية من شأنها أن تؤدى الى تثبيت الحكومة الموالية لاسرائيل فى لبنان ، معتقدا ان ذلك يحقق استقرار لبنان . والامر الذى لا يعقل أنه لم يستطع ادراك أن غالبية اللبنانيين ، الذين كانوا قد عانوا تواً من الغزو الاسرائيلى المدمر ، لن يوافقوا على وجود حكومة موالية لاسرائيل . ولكن شولتز واصل تركيزه على هدف واحد فقط ـ هو ابعاد سوريا ، التابعة المزعومة للاتحاد السوفيتى ، عن أية مفاوضات تهدف الى اعادة بناء الهياكل السياسية والعسكرية فى لبنان التى أصابها الدمار من جراء الحرب الاهلية طوال سبع سنوات ومن جراء الغزو الاسرائيلى ، ونسف الرفض الامريكى الاعتراف بارادة وقدرة سوريا على القيام بدور مفيد فى معالجة المشاكل اللبنانية ، العملية بأكملها . وبابعاده عن القيام بأى دور ، لم يكن حافظ الاسد ليستطيع أن يجلس بعيدا ويتفرج على جهوده طوال ست سنوات فى لبنان وهى تصل الى لا شىء . ولمواجهة الامر ، تحالف الاسد مع الشيعة اللبنانيين ، الضحايا الرئيسيين للاعمال العسكرية والاسرائيلية فى جنوب لبنان ، وتم استخدام الارهاب كوسيلة بديلة للحرب السياسية ضد الولايات المتحدة .

وفى ابريل ١٩٨٣ ، نسفت قنبلة ارهابية السفارة الامريكية فى بيروت ، وفى اكتوبر ، قتل ٢٤١ من جنود مشاة البحرية الامريكية فى معسكرهم القريب من مطار بيروت ، وهو أحد المواقع التى كانت تحميها مدافع المدمرة نيوجيرسى ، ولم يعد من الممكن استمرار الحكومة الموالية لاسرائيل فى لبنان بعد أن عادت آخر القوات الامريكية الى بلادها فى فبراير ١٩٨٤ ، قبل فترة قصيرة من اختفاء الرهائن الامريكيين فى أوكار لبنان . وأثر ذلك تولى رونالد ريجان القيام بمهمة جديدة هو مواجهة الارهاب .

وكانت ادارة ريجان تشعر بالاستياء ازاء الارهاب فى فترة ولايتها الأولى ، ثم انتابتها المخاوف منه أثناء فترة رئاستها الثانية . وأصبح الارهاب بمثابة كيان له أبعاده الخاصة بعد أن فصلت الادارة بينه وبين أسبابه السياسية أو الاجتماعية ، وأصبح القضاء عليه هدف السياسة الخارجية الامريكية الرئيسى فى العالم العربى متجاهلة جميع الاعتبارات والمظالم التى أنبتت الارهاب والظروف

السياسية التى نشأ عنها . ويبدو ان ريجان لم يسأل أبدا عن أسباب اختطاف السفينة أكيلى لورو ، او أسباب قيام الشيعة اللبنانيين بعملياتهم الارهابية ضد الولايات المتحدة . ذلك أن ادارة ريجان لم تفهم مطلقا حقيقة أن الولايات المتحدة واسرائيل فى نظر العرب مرتبطتان معا وأن الاخطاء التى ترتكبها احداهما هى أخطاء أخرى . ومن هذا المنظور ، تشترك الولايات المتحدة فى مسئولية محنة الفلسطينيين ، واحتلال الأراضى العربية ، وغزو لبنان ، والاذلال المستمر للعرب . وبفشلها فى ادراك تلك الحقيقة الرئيسية فى شئون الشرق الاوسط ، فشلت ادارة ريجان أيضا فى ادراك طبيعة الثورة الايرانية وخطر صدام حسين ، رئيس العراق .

وحينما تولى رونالد ريجان منصبه ، كان قد مضى على الحرب العراقية ـ الايرانية أربعة شهور . وكانت صور الرهائن فى السفارة الامريكية بطهران ما زالت حية وآية الله الخومينى يتعهد « بتصدير الثورة الى العالم بأكمله » ، ووجدت الولايات المتحدة نفسها فى مواجهة خطر يختلف عن نموذج الحرب الباردة ، فقد كانت الثورة الايرانية ، وهى تبدى غضبها ضد الغرب ، تلوح بعقيدة الاسلام ، وليس بأيديولوجية ماركس . وكانت قوتها لا تكمن فى الاسلحة القوية ، ولكن فى المعتقدات القديمة ، وكان آية الله الخومينى يدعو العالم الاسلامى للثورة ضد الغرب ، و« شيطانه الأكبر » ، الولايات المتحدة . وفجأة تلاشت اشتراكية حزب البعث العراقى وارتباطاته بالاتحاد السوفيتى ، حينما أصبحت ايران تسيطر على الفكر الامريكى .

ولجأت الولايات المتحدة فى البداية الى التكتيك التقليدى والمريح نسبيا بامداد اسرائيل والدول العربية الخليجية بكميات أكبر من الاسلحة لمواجهة التهديدات المحتملة من الحرب الدائرة بين العراق وايران . ولكن فى اكتوبر ١٩٨٣ ، رأى مجلس الأمن القومى ان المصالح الامريكية ستلحق بها أضرار فادحة اذا انهارت العراق تحت أقدام ايران . وإثر هذا القرار ، بدأت الولايات المتحدة تميل صراحة تجاه العراق . وفى عام ١٩٨٤ ، عادت العلاقات الدبلوماسية بينهما بعد سبعة عشر عاما من انقطاعها بسبب حرب عام ١٩٦٧ . وأخذت القروض الامريكية للعراق تزداد تدريجيا . وكانت فى البداية من أجل شراء المنتجات الزراعية ، ثم ازدادت مشتروات المعدات التكنولوجية المتقدمة . وبحلول عام ١٩٩٠ ، كانت القروض الامريكية للعراق تبلغ حوالى ١٫٤٥ مليار دولار ، ومشتريات النفط العراقى ٥٫٥ مليار دولار ، وصادرات الولايات المتحدة للعراق ٣٫٦ مليار دولار . كذلك ، فانه بحلول عام ١٩٩٠ ، كانت جمهورية صدام حسين قد حصلت على معدات تكنولوجية بلغت قيمتها ٧٣٠ مليون دولار . واختارت الادارة والكونجرس ، بسبب التقييم غير الدقيق لأهداف وطموحات صدام حسين فى العالم العربى ، أن تتغاضى عن النواحى البغيضة فى النظام العراقى من أجل استخدام ثقل العراق ضد ايران . وكما قال أحد مسئولى ادارة ريجان « لم يكن الامر أننا كنا نرغب فى ان تكسب العراق الحرب ، ولكننا كنا نرغب فى الا تخسر الحرب . وفى الحقيقة لم نكن ساذجين » .

وقد أولت الولايات المتحدة اهتماما كبيرا للحرب العراقية ـ الايرانية ليس فقط بسبب تهديدات آية الله الخومينى الانتقامية ، ولكن لانها كانت تدور فى الخليج ، وهو منطقة حيوية للمصالح الامريكية . ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ظلت السياسة الخارجية الامريكية فى

الشرق الاوسط تواجه الاتحاد السوفيتى ، وتستجيب لمطالب أنصار اسرائيل الامريكيين . وفى عام ١٩٧٣ ، بعد ان كشف الحظر البترولى الاعتماد الغربى الملموس على النفط العربى ، أصبح الوصول للنفط هو العنصر الثالث فى السياسة الامريكية بالشرق الاوسط وفيما عدا فترات ارتفاع أسعار النفط ، فانه أخذ مكانه فى منتصف الثمانينيات بالقرب من مقدمة الاهتمامات الامريكية . ولكن النفط مثله مثل العنصرين الآخرين الموجهين لعلاقة الولايات المتحدة بالعالم العربى ، تم استبعاده عن مشاكل وآلام وآمال وتطلعات معظم العرب .

وأصبح الدفاع عن نفط الغرب الحيوى المعرض للخطر بسبب الحرب العراقية ـ الايرانية بمثابة عملية عسكرية منفصلة عن القضايا السياسية والثقافية التى أشعلت الحرب بين عراق صدام حسين وايران آية الله الخومينى ، ومثلما حدث فى لبنان سبقت القوة الامريكية السياسة الامريكية .

وكانت السفن الأمريكية ترفع أعلامها فى الخليج حينما أصاب صاروخ عراقى المدمرة الأمريكية « ستارك » فى ١٧ مايو ١٩٨٧ ، وبدون أهداف محددة وواضحة غير تأمين إستمرار نقل النفط فى مياه الخليج ، أمر الرئيس السفن الحربية الأمريكية بحراسة الناقلات من صواريخ وألغام كلا الجانبين . ومع نهاية شهر يوليو ١٩٨٧ ، كانت الناقلات الكويتية ترفع الأعلام الأمريكية أثناء إبحارها بحذر فى مياه الخليج . ولثالث مرة خلال ثلاثين عاما ، وللمرة الثانية خلال خمس سنوات ، أصبحت الولايات المتحدة متورطة عسكريا فى العالم العربى .

وقد إنتهت الحرب فى العام الأخير من فترة رئاسة ريجان بعد أن أنهكت كلا الطرفين . وجعل ذلك القضية الفلسطينية بمثابة الفصل الأخير فى السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية فى الشرق الأوسط . ومن خلال سلسلة من الأحداث البعيدة عن أى عمل أمريكى أكد الفلسطينيون غضبهم وكبرياءهم من خلال الإنتفاضة ، وقامت مجموعة من المواطنين الأمريكيين بمساعدة وزير الخارجية السويدى بإنتزاع الكلمات السحرية من فم ياسر عرفات ، ففى ١٤ ديسمبر ١٩٨٨ ، إعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بحق إسرائيل فى الوجود وأدانت الإرهاب . وبعد عدة ساعات ، أعلن جورج شولتز المتجهم الوجه ، والمقاتل العنيد ضد الإرهاب ، عن فتح الولايات المتحدة الحوار الذى كانت ترفضه طويلا مع منظمة التحرير الفلسطينية . وأخيرا تحطمت السلاسل التى كان كيسنجر قد أحكم ربطها . ولكن الحوار لم يستمر إلا حتى شهر يونيو ١٩٩٠ ، حينما أنهاه جورج بوش بعد هجوم إحدى الجماعات المنشقة على منظمة التحرير الفلسطينية على أحد شواطىء تل أبيب . وقد ساهمت السياسة الداخلية ورفض عرفات إدانة الهجوم فى إنهاء الولايات المتحدة حوارها القصير مع المنظمة التى تمثل جوهر مشكلة الشرق الأوسط .

وحينما تولى جورج بوش منصبه ، ظلت الأهداف الرئيسية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط هى الثالوث المقدس ـ ضد التوسع السوفيتى ، وإرضاء المشاعر الموالية لإسرائيل فى الولايات المتحدة وتأمين الحصول على النفط بأسعار مقبولة ، وفى ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، أصبحت حماية حصول الغرب على النفط العربى ، أولى إهتمامات السياسة الخارجية الأمريكية . وتلاشت أو تراجعت إهتمامات السياسة الأمريكية الأخرى إزاء إصرار جورج بوش على حماية المملكة العربية السعودية وإحتياطاتها النفطية . وتبدد الخطر السوفيتى فى الشرق الأوسط مع إنهيار

الإمبراطورية السوفيتية . وتحرر الرئيس من قبضة جماعات الضغط الموالية لإسرائيل فى الكونجرس لأن إسرائيل شاركت المملكة العربية السعودية فى ضرورة تدمير آلة صدام حسين العسكرية وأخيرا تلاشى شبح توحيد العرب ضد الغرب من جراء النزاعات العربية الداخلية ، غير أنه رغم الإضطرابات الداخلية فيما بينهم ، فإن مظاهر إستياء العرب العميقة من الغرب كانت لا تزال قائمة ويتعين معالجتها .

ويبدو أن جورج بوش أدرك ضرورة توفير غطاء دولى وعربى للتدخل الذى تقوده أمريكا فى الخليج . ولذلك فإنه بعد أربعة عقود من إحباط جهود الأمم المتحدة فى الشرق الأوسط ، رفع جورج بوش علمها على عملية الحلفاء ، وضم الإتحاد السوفيتى إليها كشريك ، ومنع إشتراك إسرائيل عن عمد ، وجمع أكبر عدد ممكن من الدول العربية لإضفاء بعض الشرعية على ما يعتبر أساسا تدخلاً غربياً فى العالم العربى ، وفى واحد من أغرب التحالفات فى القرن العشرين إشتركت دول المشرق ، مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا المتمردة ، مع الدول الغربية فى حرب ضد العراق العربى ، وإنهزم صدام حسين عسكريا ، إن لم يكن سياسيا ، وتم تأمين الوصول الغربى للخليج فى ذلك الحين .

وقد جردت حرب الخليج صدام حسين من معظم آلته الحربية . ولكن فى نفس الوقت ، ضاعفت من إستياء الجماهير العربية ، وأضفت قدرا من المصداقية على شكوكهم فى أن الغرب يقف دائما على أهبة الإستعداد لغزو عالمهم ، فقد قال أحد الفلسطينيين من سكان الضفة الغربية بشعور ناشىء عن قرون طويلة : « لقد كانت حرب الخليج حربا إستعمارية وجرت ضد جميع العرب* ، وليس ضد العراق » .

ومنذ اليوم الأول لإرسال القوات الأمريكية للسعودية ، كان من الواضح أنه إذا كان للجهود الباهظة التكاليف المبذولة فى الخليج لتأمين حصول الغرب على النفط أن تكون ناجحة على المدى الطويل ، فإنه كان يتعين أن تبدأ فى عملية توفر بعض الإستقرار فى الشرق الأوسط وكان هذا الإستقرار يتطلب أن تخاطب الولايات المتحدة العالم العربى وفقا لقواعد مختلفة عن سياسة الحرب الباردة أو المصالح الإسرائيلية ، وبدون ذلك ، فإن هزيمة العراق يمكن أن تؤدى إلى حقبة جديدة من الإضطرابات . وكان التحذير الذى نشرته جريدة « الأخبار » مع نهاية الحرب يتفق مع الدروس المستفادة من النصف الثانى من القرن العشرين : « إنه إذا ظلت القضية الفلسطينية بدون حل ، فسوف يظهر عشرون صداما ، وليس صداما واحدا ، وسوف يسود المنطقة عدم الإستقرار والإنقلابات* » .

واثر الحرب ، أخذ جيمس بيكر وزير الخارجية فى الإعداد لعقد محادثات السلام فى الشرق الأوسط والتى جرت فى مدريد فى ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ . ولتحقيق مطالب كلا الطرفين ، الإسرائيليين والعرب ، والتى ترجع إلى عام ١٩٦٧ ، بدأت السلسلة المعقدة من الإجتماعات بمؤتمر

* حوار مع المؤلفة ، ٦ يوليو ١٩٩١ .
* كما جاء فى جريدة نيويورك تايمز ، ١ مارس ١٩٩١

دولى - وهو مطلب عربى - ثم إنعقدت فى واشنطن من أجل عقد مباحثات مباشرة بين إسرائيل وكل دولة عربية على حدة وهو مطلب إسرائيلى ، وفى الجولة الأولى ، إجتمعت إسرائيل مع دول المواجهة ، سوريا ولبنان ، والأردن . ومع إستبعاد منظمة التحرير الفلسطينية بسبب الإصرار الإسرائيلى وخطئها فى تأييد صدام حسين ، تم إشتراك الفلسطينيين ضمن وفد أردنى - فلسطينى مشترك ، مثلما إقترح جيمى كارتر فى عام ١٩٧٧ ، وكذلك الملك حسين فى منتصف حقبة الثمانينيات . وتلت تلك المحادثات جولة ثالثة فى موسكو أعدت جدولا لمحادثات أخرى بشأن المسائل الإقليمية التى تهم معظم الدول العربية الأخرى ، وكذلك بعض الدول الأوروبية والأسيوية . فى فبراير ، عادت الأطراف الرئيسية مرة أخرى إلى واشنطن . وهكذا إستمرت العملية .

وقد وضع ذلك العدد من المحادثات ، بصرف النظر عن نتائجها النهائية ، أسلوبا أمريكيا جديدا للتعامل مع الشرق الأوسط ، فمن ناحية الشكل ، كانت تتبع الأسلوب الذى وضع فى حرب الخليج ، والذى خاطبت به الولايات المتحدة كلا من الوحدة العربية والإنقسام العربى . كما واجهت القضايا الرئيسية فى الشرق الأوسط . ومن خلال تلك الإتجاهات والسياسات الجديدة ، تم الإعتراف بالعرب وكذلك إسرائيل كجزء من المنطقة . كما تم الإعتراف بأن لهم ولإسرائيل الحق فى مواردها والحق فى حدود آمنة ، وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه بإحضار إسرائيل للإجتماع مع ممثلين للضفة الغربية وغزة والإشارة إلى أن الفلسطينيين خارج الأراضى المحتلة لهم حق شرعى فى المناقشات الإقليمية حول مشكلة اللاجئين ، فإن الولايات المتحدة وضعت القضية الفلسطينية ضمن جدول الأعمال فى وقت وصلت فيه إلى أزمة .

وقد أصبحت القضية الفلسطينية ، التى كانت دائما صعبة للغاية أكثر صعوبة فى أوائل حقبة التسعينيات ، فقد أدت التغييرات السياسية التى بدأت تحوم فوق الإتحاد السوفيتى فى عام ١٩٨٨ إلى منح اليهود الروس حرية الهجرة إلى إسرائيل التى توجهوا إليها بالآلاف ، مما أتاح لإسرائيل المزيد من السكان الذين تحتاجهم لمواجهة الكثافة السكانية العربية* ، وإقامة وجود إسرائيلى كبير فى الأراضى المحتلة ، الأمر الذى كانت ترى حكومة الليكود أنه يؤدى إلى قيام إسرائيل الكبرى فى يهودا والسامرة ، بيد أنه إذا كانت إسرائيل قد ضمت الأراضى المحتلة ، مثلما كان يطالب الكثيرون من أنصار الليكود ، فإن صيغة السلام بأكملها التى نص عليها قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ فى عام ١٩٦٧ ، وأعاد تأكيدها قرار الأمم المتحدة ٣٣٨ فى عام ١٩٧٣ ، كانت ستفقد مضمونها .

وقد ظلت قضية الحقوق العربية فى الأراضى العربية ، التى نشأت عن فقد فلسطين وترددت فى الأراضى المفقودة فى عام ١٩٦٧ ، تثير المشاعر العربية منذ عام ١٩٤٨ ، وترجع أهمية الأرض لقيمتها المادية وإرضاء الإحتياجات العاطفية لشعب ترتبط هويته بأماكن معينة ولكن المهم بشكل مماثل للعرب هو الرمز الذى تقدمه الأراضى المحتلة فيما يتعلق بالنوايا الغربية تجاه العالم العربى

* وصل ٣٨٠٫٠٠٠ يهودى روسى إلى إسرائيل فى الفترة من عام ١٩٨٩ حتى عام ١٩٩١ ، والمتوقع وصول ٦٠٠٫٠٠٠ فى الفترة بين عام ١٩٩٢ و١٩٩٥ .

وعلاقة إسرائيل المتميزة مع الولايات المتحدة . وتعتبر الأراضى المحتلة فى جوهرها أداة إختبار للتساهل الأمريكى إزاء التوسع الإسرائيلى .

وفى خريف عام ١٩٩١ ، إستغلت إدارة بوش الإنقسامات الحادة فى الرأى العام الإسرائيلى وفى الأوساط اليهودية الأمريكية والعداء المتزايد تجاه المعونة الخارجية من جانب دافعى الضرائب الأمريكيين ، وأبدت معارضتها للسياسة الإسرائيلية الرامية لزيادة السكان اليهود فى الضفة الغربية وغزة ، وأعلن الرئيس أن تأييده لضمانات القروض التى تبلغ ١٠ مليارات دولار لبناء مساكن للمهاجرين الروس لإسرائيل ، يتوقف على تجميد النشاط الإستيطانى فى الأراضى المحتلة . وواجه الرئيس مباشرة ، بوصفه مدير السياسة الخارجية ، يؤيده بعض أعضاء الكونجرس المرموقين ، إسرائيل حول قضية إعتبرها ضد مصالح الولايات المتحدة والمنطقة .

وقد تعلمت الولايات المتحدة فى حرب الخليج أن السياسة الأمريكية ، التى ظلت تتجاهل على الدوام المشاكل السياسية والإقتصادية والإجتماعية للعالم العربى ، لم تعد تخدم سواء العرب أو إسرائيل ، إذ يوجد فى المشرق حوالى ٨٠ مليون مواطن عربى ، كما توجد به مصالح أمريكية حيوية سواء إقتصادية أو جغرافية . ويوجد دائما خطر تشوب الحرب التى يمكن أن تشمل المنطقة بأسرها وتصيبها بالموت والدمار من جراء الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية .

ولا يعنى توازن السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط لمعالجة مشاكل وهموم العرب التخلى عن إسرائيل ، فقد أدى تضافر تلك الدول طوال الأعوام الخمسة والأربعين الماضية إلى إلتزام الولايات المتحدة أخلاقيا ببقاء إسرائيل ما قبل عام ١٩٦٧ ، ولكنه فى الوقت ذاته ليس إلتزاما أمريكيا بالإستمرار فى دعم المصالح والمطامع الإسرائيلية بما يضر بمصالحها الخاصة فى العالم العربى ، فإذا تضافرت مرة أخرى الوجوه المختلفة لأنصار إسرائيل من الأمريكيين ، فلن يكون من الممكن مقاومة الضغوط على السياسة الداخلية . كذلك فإن هناك إحتمالا حقيقيا بأن تعود الولايات المتحدة إلى سلوكها السابق الذى يأتى بنتائج عكسية ردا على تحديات العرب أنفسهم . ويلوح هذا الخطر فى الأفق فى شكل الأصولية الإسلامية .

وتقف الولايات المتحدة على عتبة سوء فهم كبير آخر قد يؤدى ، مثلما حدث فى الماضى إلى الإضرار بوضعها فى العالم العربى . وتتصاعد الأصولية الإسلامية فى كل من المشرق والمغرب العربى . فقد كانت الجزائر فى سبيلها لإنتخاب حكومة إسلامية فى يناير ١٩٩٢ ، ولكن العملية توقفت إثر إنقلاب قامت به القوات المسلحة . وفى مصر ، يسيطر الأخوان المسلمون على أعداد متزايدة من الأنصار .

ويشغل الأصوليون الإسلاميون ٤٠ ٪ من قواعد البرلمان الأردنى ، وتواجه العائلة السعودية ، المدافعة عن نقاء العقيدة الإسلامية ، هجوما من أتباعها الوهابيين المتشددين ، وفى داخل الإنتفاضة الفلسطينية ، يتحدى الأصوليون الإسلاميون كلا من الزعامة المعتدلة فى الأراضى المحتلة ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وبينما تزداد الصيحات الأصولية ضد الغرب ، تثير فى الولايات المتحدة ذكرياتها المريرة مع الثورة الإيرانية والتجارب الأليمة فى لبنان . ويصبح من الأمور

المغربية ، مبادرة الولايات المتحدة بإتخاذ موقف هجومى بتأييد وتسليح تلك الأنظمة التى تواجه هجوم الأصوليين . ولكن ينبغى على الولايات المتحدة أن تقف بعيدا فالأصولية الإسلامية قضية تخص العالم العربى وتمس بصورة عميقة إنقسامات العرب ووحدتهم .

وتعد المعاداة الشديدة للنزعة الغربية من جانب الأصوليين الإسلاميين إلى حد ما تعبيرا عن غضب العالم العربى من أحواله ، ومن نواحى معينة تعتبر تنفيسا عن الألم العربى مما يعد إستسلاما ثقافيا للغرب ، ومن هذا المنطلق ، فإن الأصولية الإسلامية سلاح تحاول به أمة تشعر بأنها خضعت للغرب طوال ما يقرب من ثلاثة قرون الرد على الغرب . ودفاعا عن شعورهم بالإعتزاز بأنفسهم الذى أوذى كثيرا ، يحاول العرب إثبات أن مؤسساتهم ، وطريقة حياتهم ، وأساسا ثقافتهم بأكملها ليست أدنى من الثقافة الغربية .

وفى حين توجه الأصولية الإسلامية إنتقادها للغرب ، فإنها تهاجم أيضا الحياة العربية المعاصرة وتدين إنقسامات المجتمع العربى ، وقد تأثر العالم العربى ، مثله مثل أية منطقة ثقافية وجغرافية كبرى فى العالم ، تأثرا كبيرا بالمتغيرات السريعة فى القرن العشرين ، فقد إزداد السكان بصورة حادة ، مما أدى إلى الإنفجار السكانى فى المدن ، وبالتالى إلى تغيير التقاليد الأسرية التقليدية التى كانت سائدة ، وتزامن ذلك مع توفير التعليم ، مما حرر العديد من أبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة من أسر العجز السياسى وهيأ لهم صوتا يعبر عن مفاهيم ومطالب وآمال جديدة . وأصبحوا مثل جمال عبد الناصر وحافظ الأسد فى العالم العربى الحديث . ونتيجة لذلك ، إزدادت الفجوة الهائلة بين الزعماء التقليديين وتلك الصفوة الجديدة من جانب ، وبين الصفوة الجديدة والجماهير من جانب آخر ، وأصبح صراعهم صراعاً من أجل الهوية وليس من أجل السياسة . وهى هوية يتم التعبير عنها وفقا لقواعد العلاقة الصحيحة بين تراث الماضى ومتطلبات الحاضر ، وظهرت على السطح مرة أخرى ، من خلال التوترات المحيطة بهم ، جميع المسائل المؤلمة التى تناولتها الأجيال السابقة ، وهى هل ينبغى أن يحدد الإسلام السياسة العربية أم أن المستقبل يكمن فى العلمانية . ومرة أخرى ، يبدو أن المجتمع العربى لا يجد جوابا .

ويعانى العالم العربى ، بصورة مذهلة ، من بعض التوترات الإجتماعية المماثلة لما كانت تعانيه مكة فى عصر النبى محمد ﷺ ، ومثلما حدث بالجزيرة العربية فى القرن السابع ، أدى النمو السريع للتجارة والإقتصاد النقدى ، خاصة منذ حقبة السبعينيات ، إلى توسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وبين ذوى النفوذ وأتباعهم ، وأدت الثورة الجديدة إلى أساليب حياة جديدة منفصلة عن الماضى . وحلت العلاقات المالية محل قرابة الدم فى بيئة تحكم على المرء بقدر ماله ونفوذه وكل ذلك يتعارض مع القيم التى وضعها النبى محمد ﷺ للمجتمع الإسلامى .

لقد علم النبى محمد ﷺ أتباعه أن الرجل المؤمن هو الرجل الشاكر الذى يصلى لله لكى يغفر له خطاياه ، ويساعد أخوانه ، ويتجنب جميع أشكال الغش ، ويعيش حياة عفيفة ، وينأى بنفسه عن حب المال . وكان ذلك هو الإسلام - أى التسليم لله . وكان الذين آمنوا به رجالاً رفضوا أن يكونوا فى وضع أدنى من وضع من هم على قمة النظام الإجتماعى .

وقد أصبح الإسلام فى حقبة الثمانينيات هو لغة الحوار السياسى ، وتدين كلماته القوية التأثير والنفوذ الغربيين وهؤلاء الخاضعين للنفوذ الغربى ، وتلك الحكومات التى تعتبر فاسدة ، والمجتمع بصفة عامة ، الذى يبدو أنه فقد مبادئه الأخلاقية وإتجاهه الصحيح . وبالنسبة للضائعين فى الحاضر يقدم الإسلام حلا ، لا يهم مدى كماله ، للمسائل المعقدة فى مجتمع راكد ، وهو يخاطب الأفراد المبعدين عن العملية السياسية بواسطة الصفوة الجديدة . ويربط المضطربين والمتمردين بتقاليد الماضى وأمجاد العرب .

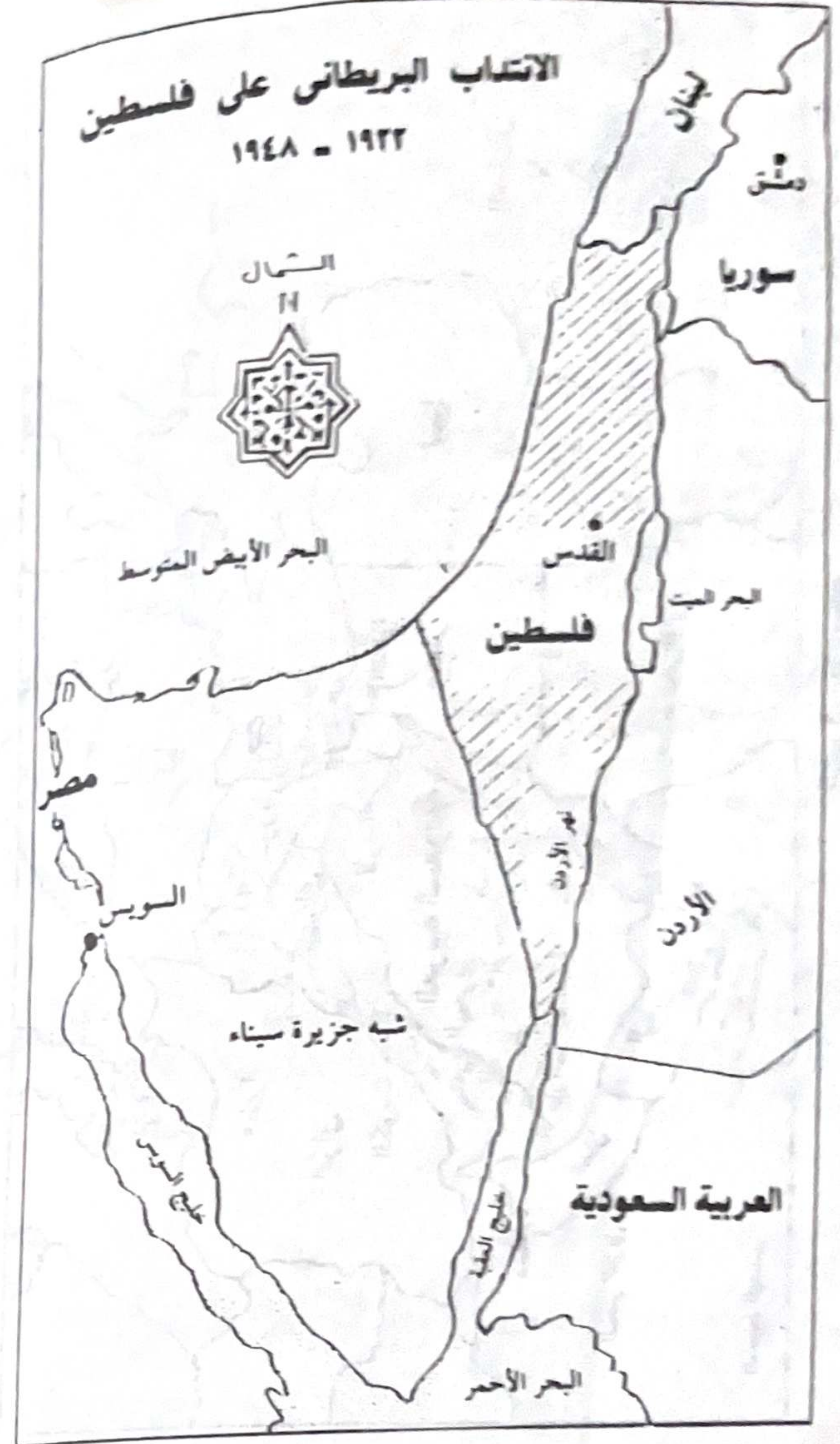
« إن النظر إلى الأصولية الإسلامية بوصفها رجعية تماما ، أمر خاطىء ، ذلك أنها تتضمن أيضا محاولة بناءة تستحق الثناء لبناء مجتمع حديث على أسس العدالة والإنسانية المستمدة من أفضل القيم النابعة من تقاليد الماضى ، وهى تمثل فى جانب منها العزم على القضاء على الإنحلال الذى إنحدر إليه المجتمع العربى والإنتهازية الإجتماعية المرتبطة بالفساد الشخصى ، والعودة إلى قواعد للمجتمع نابعة من التعاليم الأخلاقية المقبولة ، والرؤية المتكاملة ، والمضى قدما فى برنامج يرمى إلى التنفيذ النشط للأهداف العامة من خلال التنظيمات الفعالة التى تضم المثاليين من المؤمنين الصادقين• » . وتلك هى الأصولية الإسلامية فى أفضل صورها . وفى صورتها السيئة ، فإنها ردة رجعية للماضى ، ترفض التوافق مع الحاضر وتبدد طاقتها فى إقامة السدود ضد الغرب .

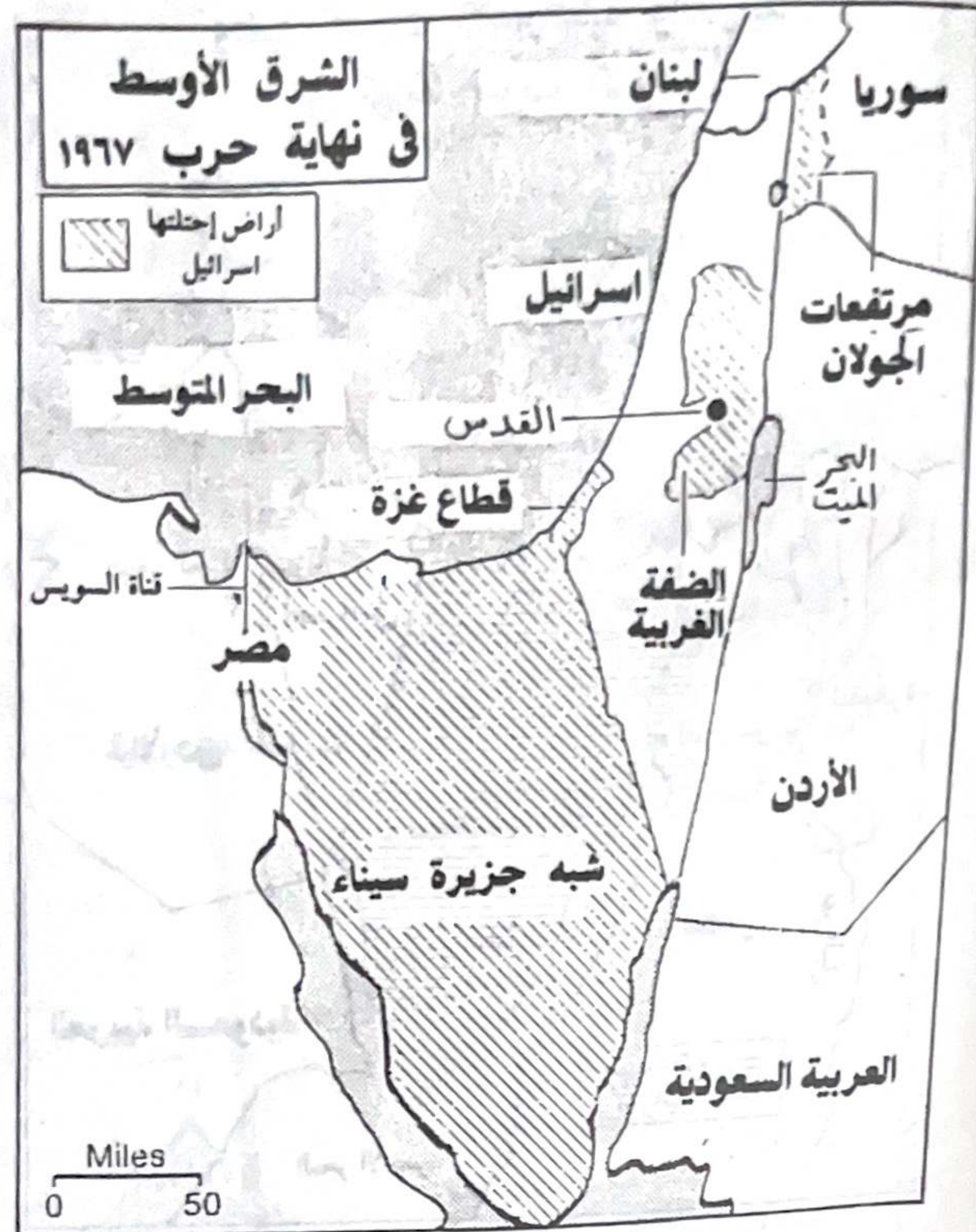
وهناك صراع دائم بين العرب ، وبين الذين ينظرون إلى الإسلام والعالم العربى من أجل ثقافتهم السياسية ، والذين يتطلعون إلى حكم علمانى له مؤسسات مماثلة لتلك السائدة فى الغرب . ولم ينجح العلمانيون الذين سادوا فى القرن العشرين فى تحقيق الإستقرار أو الرخاء . ولذلك فإن الأصولية الإسلامية فى تصاعد لأن الكثيرين من العرب ، بعد فشلهم فى القضاء على مشاكلهم من خلال التحديث يعتقدون فى إمكانية التخفيف من تلك المشاكل بالعودة إلى التقاليد . ولا يستطيع أى شخص التكهن بإتجاهات البعث الدينى فى كل دولة عربية على حدة . ولكن من المؤكد أنه إذا حاولت الولايات المتحدة مواجهة الأصولية الإسلامية عسكريا أو إدانتها بأنها مجرد نزعة متعصبة ومتخلفة ، فإنه سوف تزيد من فتح الجرح الذى ينزف بالفعل ويشعر العرب بأن الغرب هو الذى أحدثه ، وتثير الأصولية الإسلامية الإنقسام ، وتحرض العلمانيين الذين يعتقدون أن العرب ينبغى عليهم كسر أغلال الدين من أجل التحديث ، ضد هؤلاء الذين يرون خلاص المجتمع العربى فى الإسلام . ولكن الإسلام يحقق أيضا الوحدة . وفى العالم العربى ، ما زال هناك شعور بالوحدة التى تسمو أحيانا فوق واقع السياسة .

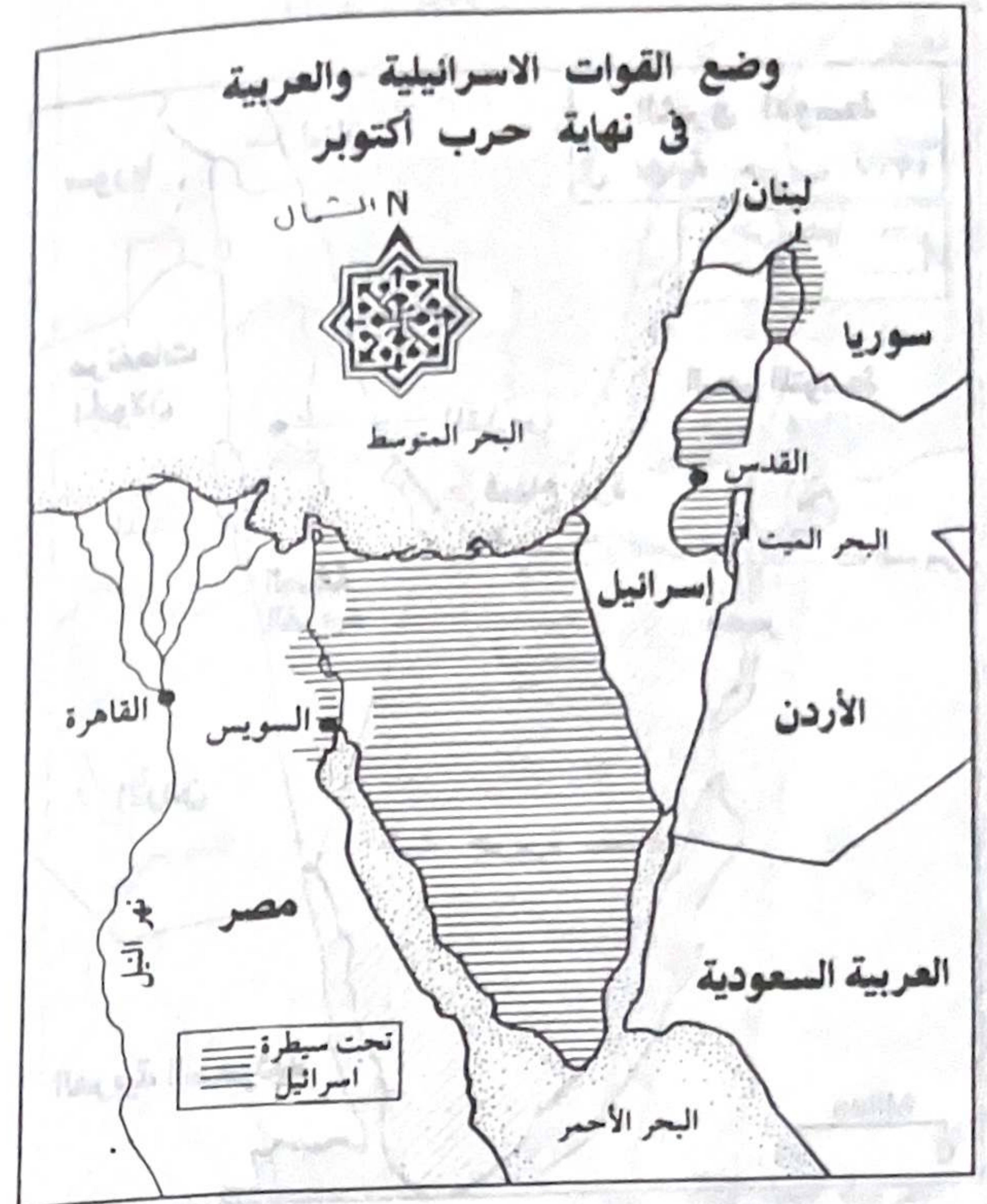


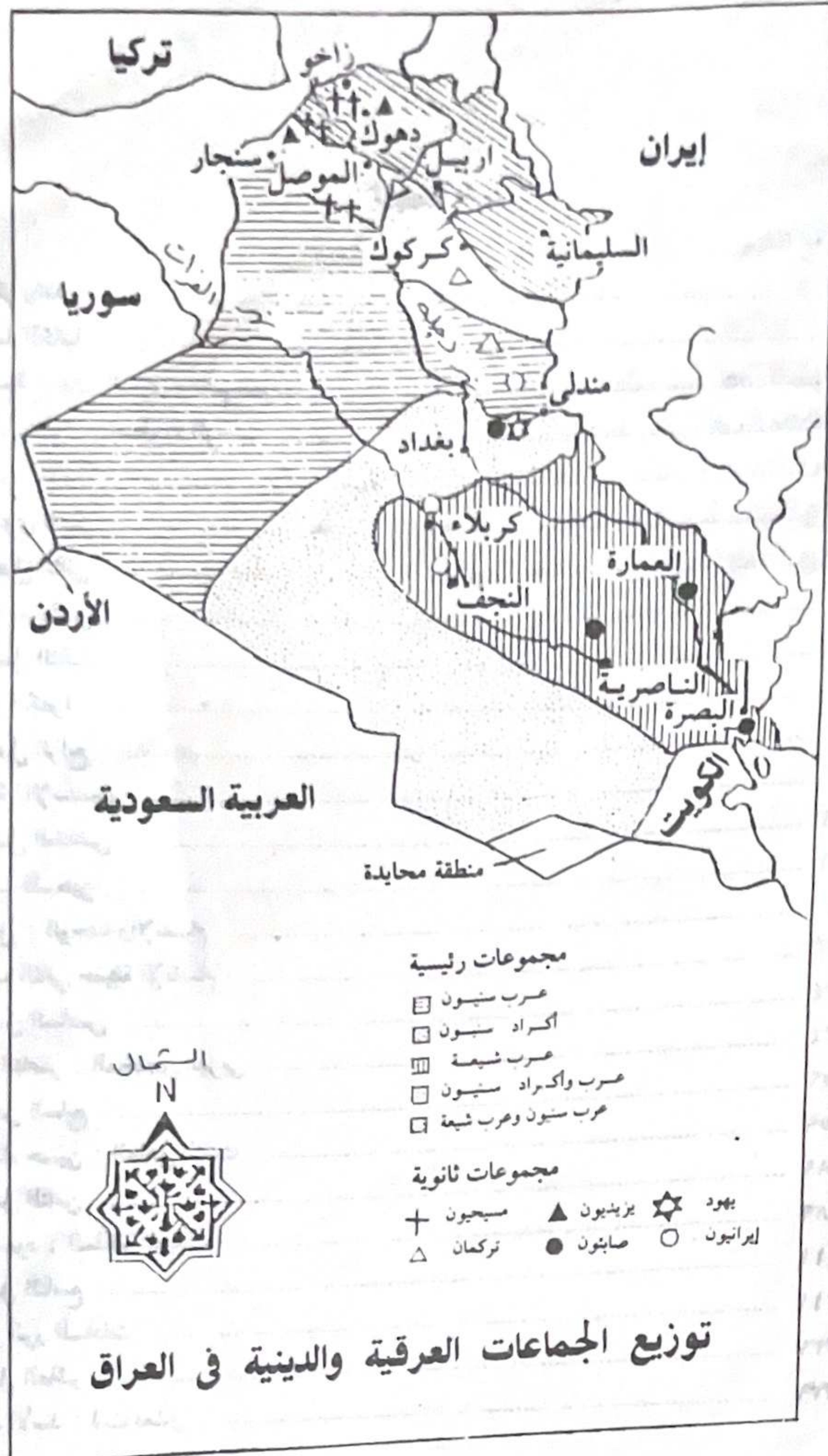
الشرق الأوسط

• محمد جلال كشك ، كما جاء فى كتاب العجمى « المازق العربى » صفحات ٦٠ و ٦١ .


الانتداب البريطاني على فلسطين
١٩٢٢ - ١٩٤٨
لبنان
دمشق
سوريا
الشمال
البحر الأبيض المتوسط
القدس
البحر الميت
فلسطين
مصر
نهر الأردن
الأردن
السويس
شبه جزيرة سيناء
خليج السويس
خليج العقبة
العربية السعودية
البحر الأحمر


الشرق الأوسط
في نهاية حرب ١٩٦٧
أراض إحتلتها
اسرائيل
لبنان
سوريا
اسرائيل
مرتفعات
الجولان
البحر المتوسط
القدس
البحر
الميت
قطاع غزة
قناة السويس
الضفة
الغربية
مصر
الأردن
شبه جزيرة سيناء
العربية السعودية
Miles
0
50


وضع القوات الاسرائيلية والعربية
فى نهاية حرب أكتوبر
N الشمال
لبنان
سوريا
البحر المتوسط
القدس
البحر الميت
إسرائيل
الأردن
القاهرة
السويس
مصر
العربية السعودية
تحت سيطرة
اسرائيل
البحر الأحمر


تركيا
زاخو
دهوك
سنجار
الموصل
اربيل
إيران
السليمانية
كركوك
سوريا
مندلي
بغداد
كربلاء
العمارة
النجف
الأردن
الناصرية
البصرة
الكويت
العربية السعودية
منطقة محايدة
مجموعات رئيسية
عرب سنيون
أكراد سنيون
عرب شيعة
عرب وأكراد سنيون
عرب سنيون وعرب شيعة
مجموعات ثانوية
يهود
يزيديون
مسيحيون
إيرانيون
صابئون
تركمان
N الشمال
توزيع الجماعات العرقية والدينية فى العراق

المحتويات



١٩٩٦

ماكيت : منى السعيد
ماكيت : جيهان الجبالى
أحلام فوزى
اعداد وترجمة الخرائط : منى ناصف



١٩٩٦

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب